

كتاب العبر وكذا ان المبتدأ في الحبر في أيام العرب والنجم والبربر ومن عاصمهم من ذوي السلطان الأكبر

تأليف
علي الدين بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الله

الكتاب الأول ، المبتدأ في

الحبر والنجم

وأنواعه وأصول المؤلف ، وأحد مصادره ومفاتيحه

إلى المبتدأ في الحبر

كتاب العبر وكتاب المبتدئ والحبيب

فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْجَمِّ وَالْبَزْبِ وَمَنْ عَاثَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ

تَأَلَّفُ

فلى الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ : الْمُفْتَقِمُ

الحمد لله

قَرَأَهُ وَعَارِضَهُ بِأَصُولِ الْمُؤَلَّفِ ، وَأَعَدَّ مَعَانِيَهُ وَفَهَّرَ رِسْمَهُ

ابن ابي شیبہ

نشرة تكميلية، أعدت بمناسبة احتفالات تونس ٢٠٠٧ بالموبة السادسة لائقتها

عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن

مشروع إحياء تراث ابن خلدون

أعد أصوله الخطية وأشرف عليه

إبراهيم بن محمد بن خالد بن

نشر: القديرة والنشر

ص. ب. 115 - الممار الثاني - تونس 2092 الجمهورية التونسية

الترقيم الدولي: 5 - 02 - 896 - 9973 - 978 ISBN

جميع الحقوق محفوظة لدار القديرة والنشر

الطبعة الأولى

تونس 2007

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذا هو الجزء الثاني من كتاب العبر، وبه يكتمل الكتاب الأول [المقدمة]، وقد بذلنا غاية الجهد ليخرج النُص واضحاً وصحيحاً كما وثقته مجموعة النُسخ التي كانت بين يدي المؤلف، وتدخّل فيها بصُورٍ مُتفاوتة، حسبما شرحناه في مقدمتنا للكتاب التي فصلت القول في تحليل ووصف الأصول الخطيّة.

وقد اعتمدنا في هذا الجزء على أزيع مخطوطات، سبق لنا تقديمها، وقلنا إنّ نسخةً حاثت أفندي "ل" ذات التقسيم المُوازِي للظاهريّ - وكانت في أزيعة عشرَ جُزءاً - قد توقّفت بنهاية النصف الأول.

هذا، وتضمّن - بمشيئة الله - بقية أجزاء العبر، بكتايبه الثاني والثالث، مُتتاليةً وفي آجال محدّدة، ليخرج الكتاب تاماً ومعتمداً على أصولٍ عليها جميعها أثرُ مؤلّفها ابن خلدون، وهي المرّة الأولى التي يخرج فيها كتاب العبر مُستنداً على أوثق الأصول الخطيّة التي خلفها المؤلف، وكُتبت بإشرافه وتدخّله أواخر أئامه.

وفي هذا الجزء فصلان مهمّان في تاريخنا الثقافيّ، يُثيران تساؤلات وإشكالات شتّى، وقد وقّنا أمانها بكثير من العناية الخاصّة والحذر لصعوبة مادّتها، وللخِطة التي تُطلّب عند التدقيق.

الأول منها: هو الفصل 29 من الفصل السادس من الكتاب الأول، يفي
عِلْمُ أسرارِ الحُرُوفِ، وما يتَّصل به من شؤون عِلْمِ السِّمَاءِ، ويمتدّ على
صفحات 337-390، فقد تخلّله مجموعات من الأرقام الدالّة بطريقة "رُشْم الزّمام"
التي كانت مُستعملةً في دواوين التّول المغاربيّة زمن ابن خلدون؛ وهي معروفة
ومحدّدة، إلى جانب طريقة "رُشْم الغبار". وظهرت عن الطريقتين دراسات جيّدة،
وقدّم Franz Rosenthal في حاشية من ترجمته الإنكليزية توضيح دلالة هذه
الأرقام، وترك لموقعها في نصّ الترجمة بياضاً (3: 197، الحاشية 882).

ولأمانة الأداء، قنا بإعادة تركيب تلك الأرقام وتزييلها في مواقعها بعد تضييد
النص وإعداده النهائي، وقد وردت جميعها في الأصول متشابهةً في كتابتها ورسومها،
عدا نسخة "ي" التي اختفت منها الزّايرة بدائلها وجدولها.

فانتقينا أكثر الرسوم وضوحاً وهي التي أوردتها نسخة عاطف أفندي "ع"،
ونزّلناها في مكانها، على أن نعرّف بها في معجم المقدمة. وقد اضطرنا إخراج
الكتاب أن نقسم جدول الزّايرة الموحد إلى قسمين متقابلين واضحين، حتّى لا
يتعرّض جزءٌ منه للاختجاب بين الصّفحتين.

والثاني: هو الفصل الستون من الفصل السادس للكتاب الأول، يفي
أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد (الصفحات 549-566)، وتكمن
صعوبته في إقامة إيقاعه وفهم معانيه والتقييد المطلق بالحركات التي استعملتها الأصول
المخطوطة بدون تدخّل جديد، حتّى في التعابير الواضحة التي يمكن أن تُضبط

حركاتها استناداً لما نعلم. وقد التزمنا ذلك حتى لا نُزيك أصحاب الأبحاث الفيلولوجية والصوتية بالخلط عليهم فيما هو وثيقة عصر. وبهذا الالتزام الذي توخيناه يمكن اعتبار الشكل الذي خرجت به هذه الأشعار هو ما اعتمدته ابن خلدون نفسه⁽¹⁾.

والتزمنا أن نُلحق بكلّ جزء بياناً بمحتواه التام، بلغة المؤلف التي فُهرس بها أجزاء الكتاب، إلا ما أضفناه للإيضاح محصوراً بمحاصرتين، على أن يصدر الفهرس التفصيلي الشامل لكلّ أجزاء الكتاب بعد اكتمال صدوره.

أما معاجم المقدمة، التي نعتبرها تدخلاً خارجياً لم نردّ إفحامه على النص، تمييزاً في عملنا بين التحقيق والشرح، فنُفردُها مستقلةً في جزء خاص، تيسيراً وتعريفاً بأكثر ما يمكن أن نُلمّ به مما ذُكر فيها من لغة وأعلام ومُصطلح وأسماء كتب، إضاءةً وتقريباً لفهم مادة الكتاب، وتقديماً لما يحتاجه من بيانات مُضافة.

ومن الله نستمدّ العون.

إبراهيم شويخ

(1) كُتبت صورة من أصول نماذج هذه الأشعار كما وردت في نسخ المقدمة المعتمدة، لصديقي الباحث د. محمد بن شريفة، فأخرجها في كتابه "تاريخ الأمثال والأشعار في الأندلس والمغرب" (5: 112 - وغيرها) واجتهد في ضبطها بالحركات ضبطاً تاماً، اعتماداً على علمه الواسع بلهجتها المغربية، وعلى دراسته لمعنى الأمثال الأندلسية المختلفة.

كتاب العبر ودين المبتدئين والخبر

الكتاب الأول : المبتدئين

الجزء الثاني

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

^(١) وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

الفصلُ الرابعُ* من الكتابِ الأولِ* (ب)

(١) ع، ج: وما توفيتني إلا بالله، عليه توكلت. ي: ربنا آتانا من لئلك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً (ب) سقط من ي .

فِي الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ * وَالْمُدُنِ وَسَائِرِ الْعُصْنِ الْحَضَرِيِّ* (١) وَمَا يَعْضُ فِي
ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَفِيهِ سَوَابِقُ وَلَوْ أَحَقُّ

1 فصل، فِي أَنَّ الدُّوْلَ أَقْدَمُ مِنَ [الْمَدْنِ] (ب) وَالْأَمْصَارِ، وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ ثَانِيَةً
عَنِ الْمُلْكِ

وبَيَانُهُ: أَنَّ الْبِنَاءَ وَاخْتِطَاطَ الْمَنَازِلِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَنَازِعِ الْحَضَارَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا
التَّرَفُّ وَالِدَّعَةُ، كَمَا قَدَّمَاهُ، وَذَلِكَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبَدَاوَةِ وَمَنَازِعِهَا. وَأَيْضاً فَاَلْمَدْنُ
وَالْأَمْصَارُ ذَاتُ هَيَاكِلٍ وَأَحْزَامٍ عَظِيمَةٍ وَبِنَاءٍ كَبِيرٍ، إِذْ هِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلْعُمُومِ، لَا
لِلْخُصُوصِ؛ فَتَحْتَاجُ إِلَى اجْتِمَاعِ الْأَيْدِي وَكَثْرَةِ التَّعَاوُنِ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْأُمُورِ
الضَّرُورِيَّةِ لِلنَّاسِ الَّتِي تَعْمُ بِهَا الْبُلُوى حَتَّى يَكُونَ نَزْوَعُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقِيّاً وَاضْطِرَّارِيّاً،
بَلْ لَا يَدُّ مِنْ إِكْرَاهِهِمْ [عَلَى ذَلِكَ] (ج) وَسَوْفَهُمْ (د) إِلَيْهِ مُضْطَهَّدِينَ بَعْضُ الْمُلْكِ، أَوْ
10 مُرَغَّبِينَ فِي الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ الَّذِي لَا يَبْقَى بِهِ لِكَثْرَتِهِ إِلَّا الْمُلْكِ وَالدَّوْلَةُ. فَلَا يَدُّ [فِي] (هـ)
تَقْصِيرِ الْأَمْصَارِ وَاخْتِطَاطِ الْمَدْنِ مِنَ الدَّوْلَةِ وَالْمُلْكِ.

ثُمَّ إِذَا بُنِيَتِ الْمَدِينَةُ، وَكُلُّ تَشْيِيدُهَا - بِحَسَبِ نَظَرٍ مِنْ شَيْدِهَا، وَمَا اقْتَضَتْهُ
الْأَحْوَالُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ فِيهَا - فَعُمِّرَ الدَّوْلَةُ، حِينَئِذٍ، عُمُرٌ لَهَا. فَإِنْ كَانَ أَمْدُ

(١) سقط من ج (ب) من ع، ج، ي، وفي ظ: الدول (ج) من ع، ي، ج، وسقطت من ط (د) في ظ: وشوقهم
(هـ) من ع، ج، وفي ي، ط، من .

الدولة قصيراً، وَقَب الحال فيها عند انتهاء الدولة، وتراجع عمرائها، وخربت. وإن كان أمد الدولة طويلاً ومُدَّتْها مُنْقَسَحَةً، فلا تَزَالُ المصانع فيها تُشاد، والمنازلُ الرَّحِيَّةُ⁽¹⁾ تكثر وتُتَعَدَّدُ، ويُطائى الأسوارُ يُتْبَاعِدُ ويتفسيح، إلى أن تُتَّسِعَ الحِطَّةُ، وتبعد المسافة، ويُعْجِي ذرع المساحة، كما وقع ببغداد وأمثالها.

- 5 ذكر الخطيب في تاريخه⁽¹⁾: أَنَّ الحُمَامَاتِ بَلَغَ عَدْدُهَا ببغداد - لعهد المأمون - خمسةً وستين ألفَ حَمَامٍ؛ وكانت مُشْتَمِلَةً على مُدُنٍ وَأَمْصَارٍ مُتَلَصِّقَةٍ وَمُتَقَارِبَةٍ تُجَاوِزُ الْأَرْبَعِينَ؛ ولم تُكُنْ مَدِينَةً وَاحِدَةً يَجْمَعُهَا سُورٌ وَاحِدٌ، لِإِفْرَاطِ الْعُمْرَانِ. وكذا حالُ الْقُرُونِ، وَقُرْطَبَةِ، وَالْمَهْدِيَّةِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَحَالُ / مَصْرَ وَالْقَاهِرَةِ بَعْدَهَا [1239] فيما يَتَلَعَّنَا لِهَذَا الْعَهْدِ.

- 10 وأما بعد انقراض الدولة المشيخة للمدينة: فإِذَا أَنْ يَكُونَ لَصَوَاحِي تلك المدينة وما قازبها من الجبالِ والبسائطِ بَادِيَةً تُفْئِدُهَا الْعُمْرَانُ دَائِمًا، فَيَكُونُ ذَلِكَ حَافِظًا لَوُجُودِهَا، وَيَسْتَمُرُّ عُمْرُهَا بَعْدَ الدَّوْلَةِ، كما نراه بفاس وبجاية من المغرب، وبغراق العجم من المشرق، الموجود لها عُمُرَانُ الْجِبَالِ. لِأَنَّ أَهْلَ الْبَنُو إِذَا انْتَهَتْ أَحْوَالُهُمْ إِلَى غَايَتِهَا^(ب) مِنَ الزَّوْفِ وَالكَتْسِ، نَزَعُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالتَّكُونِ الَّذِي فِي طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، فَيَنْزِلُونَ الْمَدْنَ وَالْأَمْصَارَ، وَيَتَأَهَّلُونَ فِيهَا.

(1) في ج: الرحبة (ب) ع ج ي: غلباها .

(1) تاريخ مدينة السلام 1: 439 والخبر عن محمد بن يحيى النديم، أَنَّ عِدَدَ الْحُمَامَاتِ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سِتِينَ أَلْفَ حَمَامٍ. وَأَخْبَارُ النَّدِيمِ مَنْقُولَةٌ عَنْ كِتَابِ بَغْدَادِ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَاهِرٍ؛ وَفِيهَا تَفْصِيلٌ عَنْ عِدَدِ مُزَادِهَا وَمَقَادِيرِ الصَّابُونَ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وإما أن لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تُعيدُها الغمران بتراذف الساكن من بدوها، فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها، فيزول حِفْظُها، ويتناقص عُمرانها شيئاً فشيئاً، إلى أن يندعِر ساكنها وتُحرب، كما وقع في بغداد ومصر والكوفة بالمشرق، والقُيُروان والمهديّة وقلعة ابن حمّاد بالمغرب، وأمثالها؛ فتفهمه.

- 5 وربما يُنزل المدينة - بعد انقراض مُحْتَطِطِها الأولين - ملك آخر، ودولة ثانية، تتخذها قراراً وكُرسياً، وتُستغني بها عن اختطاط المدينة لئلاّ. فتحفظ تلك الدولة سياجها، وتتردّد مبانيها ومصانفها بتزايد أحوال الدولة الثانية وعرفها. وتُسْتَجِدُّ بعمرها عُمرًا آخر؛ كما وقع فاس والقاهرة لهذا العهد. فاعتز ذلك، وافهم سرّ الله في خليقته.

2● فصلٌ، في أنّ الملكَ يدْعُو إلى [نُزول] ⁽¹⁾ الأُمُصَارِ

- 10 وذلك أنّ القَبائِلَ والغصائبَ إذا حصل لهم الملك، اضْطَرُّوا للاستيلاء على الأُمُصَارِ، لأمرين، أحدهما: ما يدعو إليه الملك من الدّعة، والزّاحة، وخطّ الأثقال، واشتكمال ما كان ناقصاً من أمور الغمران في (البُدُو) ^(ب). والثاني: دَفْعُ ما يَتَوَقَّعُ على الملك من أمر المتأزعين والمُشاغبين، لأنّ المِضرّ الذي يكون في نواحيهم ربّما يكون مُلْجَأً لِمَنْ يَرُومُ مُنَازَعَتَهُم والخروج عليهم، وانتزاع ذلك الملك الذي سَمَوْا إليه من أيديهم، فيغتصم بذلك المِضرّ ويُغاليهم. ومُغَالِبَةُ المِضرّ على نهايةٍ / من الصُّعُوبَةِ 15 [239ب]

(1) هذا الفصل أضاده المؤلف بخطه في أصله ع ضمن بطاقة ملصقة، وحدّد موضعه. وضمّته نسخ ط، ج، ي في منها (ب) من ع، ي، ج، وفي ط: البله .

والمشقة. والمضرّ يقوم مقام العساكر المتعدّدة، بما فيه من الامتناع ونيابة الحزب من وزراء الجدران من غير حاجة إلى كبير عدد ولا عظيم شوكة، لأنّ الشوكة والعصاة إنّما احتيج إليهما^(أ) في الحزب، للقبّات بما يقع من ثغرة القوم بغضهم على بغض عند الجولة، وثبات هؤلاء بالجدران، فلا يضطّرون إلى كبير عصاة ولا عدد، فيكون 5 حال هذا المضر ومن يعتصم^(ب) به من المنازعين مما يفتّ في عضد الأئمة التي تروم الاستيلاء، ويخضع شوكة استيلائها. فإذا كانت بين أحيائهم أمصار انتظموها في استيلائهم للأمن من مثل هذا الانحرام؛ وإن لم يكن هنالك مصرّ استخذثوه ضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وخطأ أفعالهم، وليكون ثانياً شجاً في خلق من يروم العزة والامتناع عنهم من طوائفهم وعصائهم.

10 فقد تبين لك^(ج) أنّ الملك يدعو إلى نزول الأنصار والاستيلاء عليها .
﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21] .

3 • فصل، في أنّ المدن العظيمة والهيكل المرتفعة إنّما يسيدّها الملك الكبير

وقد قدّمنا ذلك في آثار التّولى من المباني وغيرها، وأنّها تكون على نسبتها. 15 وذلك أنّ تشييد المدن إنّما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم. فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك، حشّير الفعلة من أقطارها، وجمعت أيديهم على عملها. وربّما

(أ) من ج، وفي ط، ع، ي: إليها (ب) ج: اعتصم (ج) سقط من ع، ي، ج .

استُعين في ذلك أكثر الأمر بالهندام الذي يُضاعف القُوَى والقُدْر في حَلِّ *أنْهال
البناء، لَعَجَز [القُدْر] ⁽¹⁾ البشرية عن ذلك * ^(ب)، كالمِيخَال وغيره. وربما يَتَوَهَّم كثيرٌ
من النَّاس إذا نَظَرَ على آثار الأَقْدَمِينَ ومَصَانِعِهِم العَظِيمَةِ، بِمِثْلِ إِيوان كَسْرَى،
وأَهْرَام مِصر، وَحَنَائِيا المَعْلَقَةِ، وَشِرْشَال بالمَغْرِب، * أَنَّهُا كَانَتْ بِقُدْرِهِمْ مَتَفَرِّقِينَ أَوْ
مَجْتَمِعِينَ * ^(ج)، فَيَتَخَيَّل لِمِ أَجْسَاماً تُنَاسِبُ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ بِكَثِيرٍ فِي أَطْوَالِهَا 5
وَعُرُوضِهَا وَأَقْطَارِهَا، لِيَنَاسِبَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ القُدْرِ الَّتِي صَدَرَتْ تِلْكَ الْمَبَانِي عَنْهَا. وَيُغْفَلُ
عَنْ شَأْنِ الهِنْدَامِ والمِيخَال، وَمَا اقْتَضَتْهُ فِي ذَلِكَ الصَّنَاعَةُ الهَنْدَسِيَّةُ. وَكَثِيرٌ / مِنْ
الْمُتَقَلِّبِينَ فِي الْبِلَادِ يُعَايِنُ مِنْ شَأْنِ الْبِنَاءِ وَاسْتِعْمَالِ الْحِجْلِ فِي نَقْلِ الْأَجْرَامِ عِنْدَ أَهْلِ
الْأُتُولِ الْمُغْتَنِينَ بِذَلِكَ مِنَ الْعَجَمِ مَا يَشْهَدُ لَهُ بِمَا قُلْنَا عَيَانًا.

- 10 وَأَكْثَرُ آثَارِ الْأَقْدَمِينَ، لِهَذَا الْعَهْدِ، تُسَمَّى الْعَامَّةُ عَادِيَّةً، نَسَبَةً إِلَى قَوْمِ عَادَ،
لِتَوَهُّمِهِمْ أَنَّ مَبَانِيَّ عَادَ وَمَصَانِعَهُمْ إِنَّمَا عَظُمَتْ ⁽¹⁾ لِعِظَمِ أَجْسَامِهِمْ وَتَضَاعُفِ قُدْرِهِمْ.
وَلَيْسَ كَذَلِكَ؛ فَقَدْ نَجَدُ آثَارًا كَثِيرَةً مِنْ آثَارِ الَّذِينَ تُعْرَفُ مَقَادِيرُ أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ،
وَهِيَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْعِظَمِ وَأَعْظَمَ، كإِيوان كَسْرَى، وَمَبَانِي الْعُبَيْدِيِّينَ مِنَ السَّبْعَةِ
بِإِفْرِيقِيَّةٍ، وَالصَّهَابِيِّينَ، وَأَثَرُهُمْ بِأَدَى إِلَى الْيَوْمِ فِي صُومُعَةِ قَلْعَةِ ابْنِ حَمَّادٍ؛ وَكَذَلِكَ بِنَاءُ
الْأَغَالِبَةِ فِي جَامِعِ الْفَيْرَوَانِ، وَبِنَاءِ الْمُؤَحِّدِينَ فِي رِبَاطِ الْقَنْصَحِ، وَبِنَاءِ السُّلْطَانِ أَبِي 15
الْحَسَنِ لِعَهْدِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْمَنْصُورَةِ بِأَزَاءِ يَلْفَسَانَ، وَكَذَلِكَ الْحَنَائِيا الَّتِي جَلَبَ أَهْلُ

(1) مِنْ ع. وَفِي ط: الْقُدْرَةُ (ب) فِي ي: أَتَقَالُهَا لِבِنَاءِ تَجْزُ القُدْرِ الْبَشَرِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ (ج) مِنْ ط. ع .

(2) الْعَنَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ : الْجَالِسُ وَالْمَسَائِرَاتُ 333 .

[قَرطاجنة⁽¹⁾] إليها الماء في القنّاة الزجاجية عليها مائلة أيضاً لهذا العهد؛ وغير ذلك من المباني والهياكل التي بَقِلَتْ إلينا أخبارُ أهلها قريباً وبعيداً. وتيقنّا أنّهم لم يكونوا بإفراط في مقادير أجسامهم. وإنّما هذا رأيٌ وُلِعَ به القضاة عن قوم عادٍ وثمودٍ والعالمقة. ونحن نجدُ بُيُوتَ ثمودَ في الحجر منحوته إلى هذا العهد. وقد ثبت في الحديث الصحيح⁽¹⁾ أنّها بُيُوتهم، يؤرّبها الرّكّب الحجازي أكثر السنين ويُشاهدونها، لا تزيد 5 في جوها وساحتها وتُحكّمها على المتعاهد^(ب). وإنّهم ليبالغون فيما يفتقدون من ذلك، حتّى إنهم ليزعمون أن عوجَ بن عناق، من جيل العالمقة^(ج)، كان يتناول السمك من البحر طرياً فينشويه في الشمس؛ يزعمون بذلك أنّ الشمس حارّة فيما قَرُب منها، ولا يغلّمون أنّ الحرّ فيما لدينا هو الصّوّد، لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الأرض والهواء. وأمّا الشمس في شمسها فغير حارّة ولا باردة، وإنّما هي كوكبٌ مضيءٌ 10 لا مزاج له. وقد تقدّم شيء من هذا في الفصل الثاني، حيث ذكرنا أنّ الدّول على نسبة قوتها في أصلها و﴿اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 47].

44 فصل، في أنّ الهياكل العظيمة جدّاً لا تستقلّ/بناها الدّولة الواحدة [240ب]

والسبب في ذلك ما ذكرناه، من حاجة البناء إلى التّعاون ومضاعفة الشّدر البشريّة. وقد تكون المباني في عظيمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة، بالهندام كما 15

(1) في ظ: قَرطاجنة (ب) من ع، ج، ي، وفي ظ: المعاهد (ج) فوقها في ع بخطه: كتمان.

(1) مسند أحمد 2: 117، وابن حبان (6203).

فُلْنَاهُ، فَتَحْتَاجُ إِلَى مُعَاوَدَةِ قُدْرٍ أُخْرَى مِثْلَهَا فِي أَرْصَنَةِ مُتَعَاقِبَةٍ، إِلَى أَنْ تَمَّ؛ فَيَبْتَدِءُ
 الْأَوَّلُ مِنْهُمْ بِالْبِنَاءِ، وَيَقْبُضُ الثَّانِي، وَالثَّلَاثُ؛ وَكُلُّ [واحد] ^(أ) مِنْهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلَ
 [شَأْنَهُ] ^(ب) فِي حَشْرِ الْقَعْلَةِ وَجَمْعِ الْأَيْدِي، حَتَّى يَمَّ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَقُومَ مَائِلًا
 لِلْعِيَانِ، يَظُنُّهُ مَنْ يَرَاهُ مِنَ الْآخِرِينَ أَنَّهُ بِنَاءُ دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

5 وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء سد مأرب، وأن الذي بناه سبأ بن
 يشجب، وساق إليه سبعين وادياً، وعاقفه الموت عن إتمامه، فأتمته ملوك حمير من
 بعده.

ومثل هذا قيل في بناء قرطاجنة وفنائها الزاكية على الحنايا العادية. وأكثر
 المباني العظيمة في الغالب هذا شأنها؛ ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا، نجد
 10 الملك الواحد يشترع في تأسيسها واختطاطها، فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك
 في إتمامها، بقيت بحالها، ولم يكمل القصد فيها.

ويشهد لذلك أيضاً أننا نجد آثاراً كثيرة من المباني العظيمة تتعجز الدول ^(ج) عن
 هدمها وتخريبها، مع أن الهدم أسهل من البناء بكثير؛ لأن الهدم رجوع إلى الأصل
 الذي هو القدم، والبناء على خلاف الأصل. فإذا وجدنا بناءً تضعف قدرنا البشرية
 15 عن هدمه مع سهولة الهدم، علمنا أن القدر التي أسست مفرط القوة، وأنها ليست
 أثراً لدولة واحدة.

(أ) من: ع ج ي، وسقط من ظ (ب) كذا في: ع ج ي، وفي ظ: بنائه (ج) ي: الدولة .

وهذا مثل ما وقع للغرب في إيوان كسرى، لما اعتزم الرشيد⁽¹⁾ على هدمه،
 وبعث إلى يحيى بن خالد، وهو في مخبئه، يستشيره في ذلك، فقال: يا أمير
 المؤمنين، لا تفعل، وإثرك ماثلاً يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا
 الملك لأهل ذلك الهيكل. فأنهم في النصيحة، وقال: أخذته الثغرة للعجم؛ والله
 5 لأضرعته. وشرع في هدمه، وجمع الأيدي عليه، وأخذ له الفؤوس، وأخاه⁽²⁾
 بالنار، وصب عليه الخلل، حتى / إذا أذركه العجز بعد ذلك كله وخاف الفضيحة،
 بعث إلى يحيى يستشيره ثانياً في التجافي عن الهدم، فقال: يا أمير المؤمنين، لا
 تفعل، و^(ب) استمر على شأنك لئلا يقال عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم
 مضع من مصانع العجم، فقرعها الرشيد، وأقصر عن هدمه.

[1241]

10 وكذلك اتفق للأمامون في هدم الأهرام⁽²⁾ التي بمصر، وجمع الفعلة لهدمها، فلم
 يحل بطائل؛ و[شرعوا]^(ج) في ثقبه، فأنهوا إلى جوف بين الحائط الظاهر وما بعده من
 الحيطان، وهناك كان مشتهى هدمهم؛ وهو إلى اليوم فيما يقال، متنفذ ظاهر. ونزع
 زاعمون أنه وجد هناك ركاز بين تلك الحيطان، والله أعلم.

(1) في النسخ: حاه، والقراب ما ابتداء (ب) سقط حرف العطف من ط (ج) من: ع ي ج، وفي ط: متوا.

(1) التنوخي: المستجاد 249، وقيل هـ أبو جعفر المنصور بنقض الإيوان، فهاه عنه خالد بن برمك.
 انظر: ياقوت: معجم البلدان 1: 294، العسكري: الأوتل 250، النويري: نهاية الأرب 1: 380، الجبري:
 الروض المغطار: 69.

(2) انظر النويري: نهاية الأرب 15: 27، ياقوت: معجم البلدان 5: 402، المقرئ: المواعظ والاعتبار 1: 306
 (نقلًا عن السعدي في أخبار الزمان) الجبري: الروض المغطار 16.

وكذلك حنايا المعلّقة [بقرطاجنة]^(١) إلى هذا العهد؛ يحتاج أهل مدينة تونس إلى انتخاب الحجارة لبنائهم، ويستجيد الصّانح حجارة تلك الحنايا، فيحاولون على هذه الأيّام العديدة، ولا يسقط الصغير من جذرائها إلا بعد عصب الرّيق، ويجمع له المحافل المشهودة^(ب). شهدت منها في أيّام صباي كثيراً. ﴿وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة، من الآية 284].

5

5 ﴿فَصُلِّ، فِيمَا تَجِبُ مُرَاعَاتُهُ فِي أَوْضَاعِ الْمَدْنِ، وَمَا يَحْدُثُ إِذَا أُغْفِلَ عَنِ الْمُرَاعَاةِ﴾

المدن قرار تخذ الأتم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤيّر الدعة والسكون، وتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. (ولما كان ذلك للقرار)^(ج) والمأوى، وجب أن يراعى فيه، دفع المضارّ بالحماية من طوارقها، وجلب النافع، 10 وتشهيل المرافق لها.

فأما الحماية من المضارّ، فيراعى لها أن يدار على منازلها معاً سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في [متمتع]^(د) من الأمكنة، إما على هضبة متوغرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد الغور على جسر أو قنطرة، فيضعب [منالها]^(هـ) على العدو، ويتضاعف امتناعها وحضنها. 15

(١) مخرج من حاشية ع محطه، لم نقله ط. ج. ي (ب) في ع: المشهورة (ج) من: ع ج ي وسقط من ط (د) من: ع ج ي. وفي ط: تمتع (هـ) في ط: مثالها .

ومما يَزعَى في ذلك، للحِجَاية من الآفات السَّماويَّة، طيِّبُ الهواء للسلامة من الأمراض؛ فإنَّ الهواء إذا كان رَاكِداً خَبِيثاً، أو مُجاوِراً لمياه فاسدة ومَنَاقِعَ مُتَعَفِّنة، أو مُروِجٍ خَبِيثَةٍ، أُسْرِعَ إليه العَفَنُ / من مُجاوِزَتِها، فأُسْرِعَ المَرَضُ للحَيَوَانِ الكائِنِ [242 ب] فيه لا مَحَالَةَ. وهذا مُشَاهَدٌ.

5 والمَدُنُ الَّتِي لم يَزَاعَ فيها طيِّبُ الهواء، كَثِيرَةُ الأمراض في الغَايَةِ؛ وقد اشْتَهَرَ بذلك في قُطْرِ المَغْرِبِ بَلَدُ قَايسَ من بِلَادِ الجَرِيدِ⁽¹⁾ بِإِفْرِيقِيَّةٍ. فَلَا يَكادُ سَاكِنُهَا أو طَارِقُهَا يَخْلُصُ من حُمَّى العَفَنِ بِوَجْهِهِ. وَلَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ ذَلِكَ حَادِثٌ فِيهَا، وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ. وَنَقَلَ البَكْرِيُّ⁽¹⁾ فِي سَبَبِ حُدُوثِهِ أَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا حَفَرٌ ظَهَرَ فِيهِ عَلَى إِنْاءٍ مِنْ نُحَاسٍ مَخْتُومٍ بِالرُّصَاصِ؛ فَلَمَّا قُصَّ خِتَامُهُ، صُعِدَ مِنْهُ دَخَانٌ إِلَى الْجَوِّ وَانْطَلَعَ؛ وَكَانَ ذَلِكَ بَدْءَ أَمْرَاضِ الحُمَمَاتِ فِيهِ. وَأَرَادَ بِذَلِكَ، أَنَّ الْإِنْاءَ كَانَ مُشْتَعِلاً عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِ الطَّلَسَمَاتِ لَوَبَانِهِ، وَأَنَّهُ ذَهَبَ سِرُّهُ بِذَهَابِهِ، فَزَجَّعَ إِلَى العَفَنِ وَالْوَبَاءِ. وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعَامَّةِ وَمَنَاحِيهِمُ الرُّكِيكَةِ. وَالبَكْرِيُّ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَنَاتِ الْعِلْمِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصِيرَةِ بِحَيْثُ يَذْفَعُ مِثْلَ هَذَا أَوْ يَتَّبِعُ خَرَفَهُ، فَنَقَلَهُ كَمَا سَمِعَهُ.

وَالَّذِي يَكشِفُ الْحَقُّ فِي ذَلِكَ، أَنَّ هَذِهِ الْأَهْوِيَّةَ الْعَفِنَةَ، أَكْثَرُ مَا يَهَيِّئُهَا 15 لَتَفْعِينِ الْأَجْسَامِ وَأَمْرَاضِ الحُمَمَاتِ زُكُودَهَا. فَإِذَا تَخَلَّلَهَا الرِّيحُ وَتَشَشَّتْ، وَذَهَبَ بِهَا يَمِيناً وَشِمَالاً، خَفَّ شَأْنُ العَفَنِ وَالْمَرَضِ الْمُنَادِي مِنْهَا لِلْحَيَوَانَاتِ. وَالبَلَدُ إِذَا كَانَ كَثِيرَ

(1) ي: المغرب

(1) المسالك والممالك 2: 667 باختلاف في العبارة .

السَّانِكِ، وَكَثُرَتْ حَرَكَاتُ أَهْلِهِ، فَيَتَمَوَّجُ الْهَوَاءُ ضَرُورَةً، وَيَحْدُثُ الرِّيحُ الْمُتَخَلِّلُ لِلْهَوَاءِ
 الرَّكَادِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مُعِيناً لَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالتَّمَوُّجِ. وَإِذَا خَفَّ السَّانِكُ، لَمْ يَجِدِ الْهَوَاءُ
 مُعِيناً عَلَى حَرَكَتِهِ وَتَمَوُّجِهِ، فَيَبْقَى رَاكِداً، وَعَظُمَ عَقْفُهُ وَكَثُرَ ضَرَرُهُ. وَبَلَدٌ قَائِسٌ هَذِهِ
 كَانَتْ - عِنْدَمَا كَانَتْ إِفْرِيقِيَّةُ مُسْتَبْجِرَةِ الْغُرَانِ - كَثِيرَةً السَّانِكِ، تَمَوَّجُ بِأَهْلِهَا مَوْجاً.
 فَكَانَ ذَلِكَ مُعِيناً عَلَى تَمَوُّجِ الْهَوَاءِ وَاضْطِرَابِهِ وَتَخْفِيفِ الْأَذَى مِنْهُ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا كَبِيرُ
 5 عَقْفٍ وَلَا مَرَضٍ. وَعِنْدَمَا خَفَّ سَاكِبُهَا رَكَدَ هَوَاؤُهَا الْمُتَعَفِّقُ بِفَسَادِ مِيَاهِهَا، فَكَثُرَ
 الْعَقْفُ وَالْمَرَضُ. هَذَا وَجْهُهُ، لَا غَيْرَ ذَلِكَ.

وقد رأينا عكس ذلك في بلادٍ وُضِعَتْ ولم يُرَاعَ فيها طيبُ الهواءِ، وكانت
 أولاً قَلِيلَةً السَّانِكِ، فكانت أَمْرَاضُهَا كَثِيرَةً، فَلَمَّا كَثُرَ سَاكِبُهَا انْتَقَلَ حَالُهَا عَنْ ^(أ) ذَلِكَ.
 10 / * وهذا مثل دارِ الْمُلْكِ بِفَاسٍ لِهَذَا الْعَهْدِ، الْمُسَمَّى بِالْبَلَدِ الْجَدِيدِ، وَكَثِيرٌ مِنْ
 ذَلِكَ * ^(ب) فِي الْعَالَمِ، فَتَفَهَّنَهُ تَجْدُ مَا قُلْتُهُ لَكَ.

أَوْقَدْ ذَهَبَ لِهَذَا الْعَهْدِ الْقَرِيبِ فُسَادُ الْهَوَاءِ مِنْ قَائِسٍ، وَزَالَ عَقْفُهَا لَمَّا
 حَاضَرَهَا سُلْطَانُ تُونِسَ، وَقَطَعَ الْغَابَةَ مِنَ التَّخْلِ الْوَالِي كَانَتْ مُحِيطَةً بِهَا، فَانْفَرَجَ
 جَانِبُهَا مِنْهَا، وَتَمَوَّجَ الْهَوَاءُ الْحَاطِ بِهَا وَتَحَلَّلَتْهُ الرِّيحُ، فَذَهَبَ مِنْهُ الْعَقْفُ. وَاللَّهُ مُصَرِّفُ
 15 الْأُمُورِ ^(ج).

وَأَمَّا جَلْبُ الْمَنَافِعِ وَالْمَرَافِقِ لِلْبَلَدِ، فَيُرَاعَى فِيهِ أُمُورٌ، مِنْهَا: الْمَاءُ، وَأَنْ
 يَكُونَ الْبَلَدُ عَلَى نَهَرٍ، أَوْ بِإِزَائِيهَا غِيَوْنٌ غَذِيَّةٌ ثَرَّةٌ؛ فَإِنَّ وَجُودَ الْمَاءِ قَرِيباً مِنْ

(أ) ي: على (ب) سقط ما بين النجمين من ج (ج) حاشية من ع بخطه سقطت من ط ج ي.

التَّيْلِدُ مُسَهِّلٌ عَلَى السَّكَّانِ حَاجَةَ الْمَاءِ ، وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ ، فَيَكُونُ لَهُمْ فِي وُجُودِهِ مَرْفَقَةٌ عَامَّةٌ.

وَمَا يُرَاعَى [مِنْ] ^(١) الْمُرَافِقِ فِي الْمَدْنِ طَيْبُ الْمُرَاعِي لِسَائِقَتِهِمْ؛ إِذْ صَاحِبُ كُلِّ قَرَارٍ لَا يَبْدُ لَهُ مِنْ دَوَاجِنِ الْحَيَوَانِ لِلتَّنَاجِ وَالضَّرْعِ وَالزُّكُوبِ، وَلَا يَبْدُ لَهَا مِنَ الْمَرْعَى، 5 فَإِذَا كَانَ قَرِيباً طَيِّباً، كَانَ ذَلِكَ أَزْفَقَ لَهُمْ ثَمًّا يُعَانُونَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي بُعْدِهِ.

وَمَا يُرَاعَى أَيْضاً الْمَزَارِعُ، فَإِنَّ الزَّرْعَ هُوَ الْقُوْتُ. فَإِذَا كَانَتْ مَزَارِعُ التَّيْلِدِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا، كَانَ ذَلِكَ أَسْهَلَ فِي اتِّخَاذِهِ، وَأَقْرَبَ فِي تَحْصِيلِهِ.

وَمِنْ ذَلِكَ الشُّغْرَاءُ لِلحَطَبِ وَالْبِنَاءِ، فَإِنَّ الحَطَبَ ثَمًّا تَعْمُ الْبُلُوى فِي اتِّخَاذِهِ لَوْقُودِ التَّيْرَانِ لِلَاضْطِلَاءِ؛ وَالحَشَبُ أَيْضاً ضَرُورِيٌّ لِسُقْفِهِمْ وَكَثِيرٌ ثَمًّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ 10 الحَشَبُ [مِنْ] ^(ب) ضَرُورَاتِهِمْ.

وَقَدْ يُرَاعَى فِيهَا أَيْضاً قُرْبُهَا مِنَ الْبَحْرِ، لِتَسْهِيلِ الْحَاجَاتِ الْقَصِيَّةِ مِنَ الْبِلَادِ التَّائِيَةِ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمِثَابَةِ الْأَوَّلِ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا مُتَفَاوِتَةٌ بِتَفَاوُتِ الْحَاجَةِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ضَرُورَةُ السَّكَّانِ. وَقَدْ يَكُونُ الْوَاضِعُ غَافِلاً عَنْ حُسْنِ الْاِخْتِيَارِ الطَّبِيعِيِّ ، وَإِنَّمَا يُرَاعِي مَا هُوَ أَهْمٌ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ قَوْمِهِ، 15 وَلَا يَذْكُرُ حَاجَةَ غَيْرِهِمْ، كَمَا فَعَلَهُ الْعَرَبُ - لِأَوَّلِ الْإِسْلَامِ - فِي الْمَدْنِ الَّتِي اخْتَطَّوْهَا بِالْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ وَإِفْرِيْقِيَّةً؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يُرَاعَوْا فِيهَا إِلَّا الْمُوَهِّمَ عِنْدَهُمْ، مِنْ مَسْرَاعِي

(١) فِي: ط: فِي (ب) ط: لضروراتهم .

الإبل وما يضلح لها من الشَّجَرِ والماء المِلْح. ولم يُراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الطَّلَف، ولا غير ذلك، كالقُيُروان، والكوفة، والبصرة، وسجلماسة، وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الحَرَابِ لما لم تُراعَ فيها الأمور الطبيعية.

1. فَضْلٌ :

5

ومما يُراعَى في البلاد السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي على البَحر ، أن تكونَ في جَبَلٍ ، أو تكونَ بينَ ^(١) أُمَّةٍ من الأُمَمِ مَوْفُورَةِ العَدَدِ ، تكونَ صَرِيحاً للمَدِينَةِ مَتَى طَرَقَهَا / طَارِقُ من العَدُوِّ . والسَّبَبُ في ذلك ، أنَّ المَدِينَةَ إِذَا كَانَتْ حَاضِرَةَ البَحرِ ، ولم يَكُنْ بسَاحَتِهَا عُمُرَانُ لِلقَبَائِلِ أَهْلِي العَصَبِيَّاتِ ، ولا هو وَضَعَهَا في مُتَوَعَّرٍ من الجِبَالِ ، كَانَتْ في عِزَّةٍ لِلبَنِيَّاتِ ، وَسَهْلٌ طُرُوقُهَا في الأَسَاطِيلِ البَحرِيَّةِ عَلَى عَدُوِّهَا ، وَتَحِيْفُهُ 10 لَهَا ، لما يَأْمَنُ من وُجُودِ الصَّرِيخِ لَهَا ، وَأَنَّ الحَصْرَ المُتَعَوِّدِينَ لِلذَّعَةِ قَدِ صَارُوا عِيَالاً ، وَخَرَجُوا عَنِ حُكْمِ المُقَابِلَةِ . وَهَذَا كَالْإِسْكَندَرِيَّةِ مِنَ المَشْرِقِ ، وَطَرَانُلُسَ مِنَ المَغْرِبِ ، وَبُونَةَ وَسَلَا . وَمَتَى كَانَتِ القَبَائِلُ وَالْعَصَبِيَّاتُ مُوْطَنِينَ بِقُرْبِهَا ، بَحِثَ يَبْلِغُهُمُ الصَّرِيخُ وَالتَّغِيرُ ، وَكَانَتْ مُتَوَعَّرَةً لِلسَّائِلِ عَلَى من يَرُومُهَا ، بِاخْتِطَاطِهَا فِي هِضَابِ الجِبَالِ وَعَلَى أَشْنِمَتِهَا ، كَانَ لَهَا بِذَلِكَ مَنَعَةٌ مِنَ العَدُوِّ ، وَيَتَأَسَّوْنَ مِنْ طُرُوقِهَا ، لما يَكُونُ دُهُمُ 15 مِنْ وَغَرِهَا ، وَمَا يَتَوَقَّعُونَهُ مِنْ إِجَابَةِ صَرِيخِهَا ، كَمَا فِي سَبْتَةِ وَبَجَايَةِ وَبَلَدِ القُلِّ عَلَى صَعْرِهَا .

(١) ع: من .

فافهم ذلك واعتز به في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لئن النولة
العباسية، مع أن الدعوة كانت من ورائها بركة وإفريقية؛ وإنما اعتبر في ذلك المخافة
المترقعة فيها من البحر، بسهولة وضعها. ولذلك، والله أعلم، كان طروق العدو
للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة.

5 66 فصل في المساجد والبيوت المعظمة في العالم

اعلم، أن الله سبحانه وتعالى، فضل من الأرض بقاعاً اختصها بشريفه،
وجعلها مواطن عبادته، يضاعف فيها الثواب وتنمو⁽¹⁾ بها الأجور، وأخبرنا بذلك
[على ألسنة]^(ب) رُسله وأنبياؤه، لطفاً بعباده وتشجيعاً لطرق السعادة لهم.

وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع الأرض فيما علفناه، حشماً ثبت في
10 الصَّحِيحَيْن⁽¹⁾، وهي: مكة، والمدينة، وبيت المقدس.

فمكةُ بيت إبراهيم، صلوات الله عليه، أمره الله ببنائه، وأن يؤذن في
التاس بالحلج إليه؛ فبناه هو وابنه إسماعيل، كما قصه القرآن. وقام بما أمره الله فيه،
وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جُزهم، إلى أن قبضها الله، ودُفنا
بالحجر منها.

(أ) ط: غو (ب) من: ع ج ي، وسط من ط.

(1) البخاري 2: 76 حديث (1188)، 2: 77 حديث (1197)، 3: 25 حديث (1864)، 3: 56 حديث (1995).
ومسلم (827) وقام بتحريجه في التعليق على الترمذي (326).

وَبُيِّتَ الْمَقْدَسُ هُوَ بَيْتُ دَاوُدَ / وَسَلْتَيَانِ عَلَيْهَا السَّلَام . أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِنَاءِ
مَسْجِدِهِ وَنُصِبَ هَيْكَلُهُ . وَدُفِنَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ - عَلَيْهِ السَّلَام -
[فيه و]⁽¹⁾ خَوَالِيَتِهِ .

- وَالْمَدِينَةُ مُهَاجِرُ نَبِيِّنَا - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْهَجْرَةِ إِلَيْهَا ، وَإِقَامَةِ
دِينِ الْإِسْلَامِ بِهَا وَمِنْهَا ، فَبُنِيَ مَسْجِدُهُ الْحَرَامُ بِهَا ، وَكَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفُ فِي تَرْبَتِهَا . 5
فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الثَّلَاثَةُ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُسْلِمِينَ وَمُهْوَى أَفْئِدَتِهِمْ وَعِصْمَةُ دِينِهِمْ . وَفِي
الْآثَارِ مِنْ فَضْلِهَا وَمِضَافَةِ الثَّوَابِ فِي مَجَاوِرَتِهَا وَالصَّلَاةِ فِيهَا كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ . فَلْنَسْزُرْ
إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ أَوْلِيَةِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ ، وَكَيْفَ تَدْرَجَتْ أَحْوَالُهَا إِلَى أَنْ
كُلَّ ظَهْوَرُهَا فِي الْعَالَمِ .

- فَأَمَّا مَكَّةُ ، فَأَوْلِيُّهَا - فِيمَا يُقَالُ - أَنَّ آدَمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - بَنَاهَا 10
قُبَالَةَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، ثُمَّ هَدَمَهَا الطُّوفَانُ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ وَلَيْسَ فِيهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ يُعَوَّلُ
عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا اقْتَبَسُوهُ مِنْ مُحْتَملِ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
الْبَيْتِ ﴾ [سورة البقرة، الآية 127] . ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَشَأْنِ
رُوحَتِهِ سَاوَةً وَغَيْرَتَهَا [مِنْ هَاجِرٍ] مَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ [أَنْ يَفَارِقَ
هَاجِرَ وَيُغْرِبَهَا مَعَ ابْنَيْهَا إِسْمَاعِيلَ إِلَى قَارَانَ ، وَهِيَ جِبَالُ مَكَّةَ تَمَّا وَرَاءَ الشَّامِ وَبَلَدُ 15
أَيْلَةَ ، فَأَخْرَجَهَا إِلَى هُنَاكَ ، وَلَحِقَتْ بِمَكَانِ الْبَيْتِ ، وَأَذْرَكَهَا الْعَقْطُشُ]^(ب) ، وَكَثِيفٌ

(1) من: ج (ب) نقلتُ مُسْتَعْتَابًا: ي ج من الأصل ع النض الأول الملقى ، والمعروض في الحاشية بخطه بما استشهد . وفي هذا النص
المستطوب: ... أن يترك ابنه إسماعيل وأُمَّهُ هَاجِرَ بِالْفَلَاةِ ، فَوَضَعَهَا فِي مَكَانِ الْبَيْتِ وَسَازَ عَنْهَا .

الله لها من اللطف في تَج مَاء من زَمْزَم، ومُرور الرِّفْقَة من جُزْمَهما حتى
 اخْتَمَلُوهُمَا وسكنوا إليهما، وَتَزَلُوا مَعَهَا حَوَالِي زَمْزَم، كما عُرِفَ في مَوْضِعِهِ. فَاتَّخَذَ
 إِسْمَاعِيلُ مَوْضِعَ الْكَعْبَةِ بَيْتًا يَأْوِي إِلَيْهِ، وَأَدَارَ عَلَيْهِ سِيَّاجًا مِنَ الدُّومِ، وَجَعَلَهُ زَرْبًا
 لَعْنَتِهِ. وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - مِرَارًا لِرِيَارَتِهِ مِنَ الشَّامِ، أَمَرَ فِي آخِرِهَا بِنَاءَ
 الْكَعْبَةِ مَكَانَ ذَلِكَ الزَّرْبِ، فَبَنَاهُ، وَاسْتَعَانَ فِيهِ بِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى
 5 حَجِّهِ، وَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ سَاكِنًا بِهِ. وَلَمَّا قُبِضَتْ أُمُّهُ هَاجَرَ ذَهَبًا فِيهِ. وَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا
 بِخِدْمَتِهِ إِلَى أَنْ قَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَذُفِنَ مَعَ أُمِّهِ هَاجِرَ. وَقَامَ بَنُوهُ بِغَدَه بِأَمْرِ الْبَيْتِ
 مَعَ أَخْوَانِهِمْ مِنْ جُزْمَ، ثُمَّ الْعَالَقَةُ مِنْ بَغْدَدِهِمْ. وَاسْتَمَرَّ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ، وَالنَّاسُ
 يَمُرُّونَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ أَفْقٍ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْحَلِيقَةِ، لَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ
 10 مِنْ ذَنَاءٍ أَوْ نَأَى.

/ فَقَدْ نَقَلَ أَنَّ التَّبَاعَةَ كَانَتْ تَحُجُّ الْبَيْتَ وَتُعْظِمُهُ، وَأَنْ يُجْعَلَ [الَّذِي يَسْمَى
 243ب] بَيْتَانِ أَشْعَدَ أَبَا كَرْبٍ⁽¹⁾ كَسَاهَا الْمَلَاءُ^(ج) وَالْوَصَائِلَ، وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِهَا، وَجَعَلَ لَهَا
 مِفْتَاحًا. وَنَقَلَ أَيْضًا أَنَّ الْفُرْسَ كَانَتْ تَحُجُّهُ وَتَقْرُبُ إِلَيْهِ، وَأَنَّ غَزَالِي الذَّهَبِ اللَّذِينَ
 وَجَدَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْزَمَ كَانَ مِنْ قَرَابَتِهِمْ. وَلَمْ يَزَلْ لِحِزْمِ الْوِلَايَةِ عَلَيْهِ
 15 بَعْدَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَمَنْ قَبْلَ خُؤُولَتِهِمْ، حَتَّى أَخْرَجَتْهُمْ خُرَاعَةُ، وَأَقَامُوا بِهَا بَعْدَهُمْ مَا
 شَاءَ اللَّهُ. ثُمَّ كَثُرَ وَلَدُ إِسْمَاعِيلَ وَانْتَشَرُوا، وَتَشَعَّبُوا إِلَى كِنَانَةٍ، ثُمَّ كِنَانَةٍ إِلَى قُرَيْشٍ
 وَغَيْرِهِمْ. وَشَاءَتْ وَلَايَةُ خُرَاعَةَ، فَغَلَبَتْهُمْ قُرَيْشٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الْبَيْتِ

(1) من حاشية ج بخطه، وسقطت من ط (ب) في ي: اللأ .

وَمَلَكُوها، وَعَلَيْهِمْ ⁽¹⁾ يَوْمُنْذُ قُصَيِّ بْنِ كَلَابٍ. فَبَنَى الْبَيْتَ، وَسَقَفَهَا بِخَشَبِ الدَّوْمِ
وَجَرِيدِ النَّخْلِ، قَالَ الْأَعْمَشِيُّ ⁽¹⁾: [من الطويل]

خَلَفْتُ بِقُوتَيْ رَاهِبٍ [اللَّجَّ] وَآتِي بِنَاهَا قُصَيِّ وَخَدَهَ وَابْنَ جُرْهُمٍ
ثُمَّ أَصَابَ الْبَيْتَ سَيْلٌ فِي وَلايَتِهِمْ، وَيُقَالُ: حَرِيقٌ، وَتَهْدَمُ. فَأَعَادُوا بِنَاءَهُ،
وَجَمَعُوا الثَّقَفَةَ لِنَلَاكٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ. وَانْكَسَرَتْ سَفِينَةٌ بِسَاحِلِ جُدَّةَ، فَأَشْتَرَوْا خَشَبَهَا 5
لِلسَّقْفِ. وَكَانَتْ جُدْرَانُهُ فَوْقَ الْقَامَةِ، فَعَمِلُوهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا. وَكَانَ الْبَابُ لَاصِقًا
بِالْأَرْضِ، فَعَمِلُوهُ فَوْقَ الْقَامَةِ لِنَلَاكِ تَذْخُلِهِ السَّيُولُ. وَقَصُرَتْ بِهِمُ الثَّقَفَةُ عَنْ إِثَامِهِ،
فَقَصَّروا عَنْ قَوَاعِيدهِ وَتَرَكُوا مِنْهُ سِتَّةَ أَذْرَعٍ وَشِبْرًا أَدَارُوهَا بِجِدَارٍ قَصِيرٍ يُطَافُ مِنْ
وَرَائِهِ، وَهُوَ الْحِجْرُ. وَيَقِي الْبَيْتَ عَلَى هَذَا الْبِنَاءِ إِلَى أَنْ تَحْصُنَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ حِينَ
دَعَا لِنَفْسِهِ، وَزَحَفَتْ إِلَيْهِ جِيوشُ عَزِيدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ مَعَ الْحَصِينِ بْنِ نَعْمَانَ السَّكُونِيِّ، 10
سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ، فَأَصَابَهُ حَرِيقٌ، يُقَالُ: مِنَ الثَّقَفِ الَّذِي رَمَوْا بِهِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ،
فَتَصَدَّعَتْ حِيطَاتُهُ؛ فَهَدَمَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَأَعَادَ بِنَاءَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَفَ
عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ فِي بِنَائِهِ. وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَعَانِشَةَ إِرْضَى اللَّهُ
عَنْهَا ^(ب): لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرِ لَزِدْتُ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَجَعَلْتُ
لَهُ بَابَيْنِ، شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا. فَهَدَمَهُ، وَكَشَفَ عَنْ أَاسَاسِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَمَعَ 15

(1) فِي ج: ظُهُمِ (ب) مِنْ: ي .

(1) التَّكْلَةُ مِنَ الدِّيَّانِ 125، وَرَوَاتُهُ لِلْعَجَزِ: بِنَاهَا قُصَيِّ وَالْمَضَاضُ بْنُ جُرْهُمٍ. وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةِ هِجَا بِهَا
الْأَعْمَشِيُّ عُمَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُنْدَرِ. انْظُرِ الْجَوَالِقِي: شَرْحُ أَدَبِ الْكُتُبِ 137 .
(2) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْحَجِّ 1: 180 حَدِيثُ (1585)، وَمُسْلِمٌ (1333) .

الوجهة والأكلز حتى عابنوه ، وأشار عليه ابن عباس / بالتحري في حفظ القيلة [244] على الناس؛ فأدار على الأساس الحشب، ونصب من فوقها السُور حفظاً للقيلة. ونث إلى صنعاء في القصّة والكلس ، فجلبها، وسأل عن مقطع الحجارة الأول، فجَمع منها ما احتاج إليه. ثم شرع في البناء على أساس إبراهيم عليه السلام، ورفع 5 جدرانها سبعة وعشرين ذراعاً ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض كما روي في حديثه. وجعل فرشها وأزرها بالرخام، وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك، وزمى على المنجد بالمنجنقات إلى أن قصدت حيطائه. ثم لما ظفر بآبن الزبير، شاور عبد الملك فيما بناء وزاده 10 في البيت، فأمره بهذمه، ورد البيت على قواعد قرنش كما هي اليوم. ويقال: إنه ندم على ذلك حين علم صفة رواية آبن الزبير، لحديث عائشة، وقال: ⁽¹⁾ وددت أني كنت حملت أبا حبيب من أمر البيت وبنائه ما تحمل. فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشيئراً مكان الجعر، وبنّاها على أساس قرنش، وسد الباب الغربي وما تحت عتبة 15 بابها اليوم من الباب الشرقي. وترك سايزها لم يُغير منه شيئاً. فكل بناء فيها اليوم بناء آبن الزبير. * ويتن بنائه ⁽¹⁾ وبناء الحجاج في الحائط صلة ظاهرة لليمان، لخمّة بين البنائين، والبناء متبر ^(ب) عن البناء بمقدار إضع شبه الصدع، وقد لجم.

(1) سقط من ي (ب) ج: منبر .

(2) البلاذري : فتوح البلدان 59 .

وَيَغْرِضُ هُنَا إِشْكَالَ قَوِيٍّ لِمُنَافَاتِهِ لَمَّا يَقُولُهُ الْفُقَهَاءُ فِي أَمْرِ الطَّوَافِ، وَتَحْزُرُ
الطَّائِفُ أَنْ يَمِيلَ عَلَى الشَّاذِرِ الزَّوَانِ النَّائِرِ بِأَسَاسِ الْجُدُرِ مِنْ أَسْفَلِهَا، فَيَقَعُ طَوَافُهُ
دَاخِلَ الْبَنِيَّةِ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجِدَارَ إِنَّمَا قَامَ عَلَى بَعْضِ الْأَسَاسِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ، وَهُوَ
مَكَانُ الشَّاذِرِ الزَّوَانِ. وَكَذَا قَالُوا فِي تَقْيِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، لَا يَدَّ مِنْ رَجُوعِ الطَّائِفِ مِنْ
التَّقْيِيلِ حَتَّى يَسْتَوِيَ قَائِماً، لِغَلَا يَقَعُ بَعْضُ طَوَافِهِ دَاخِلَ الْبَنِيَّةِ.

5

وَإِذَا كَانَتِ الْجُدُرُ كُلُّهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ إِنَّمَا بُنِيَ عَلَى أُسَاسِ
إِبْرَاهِيمَ، فَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا الَّذِي قَالُوهُ؟ وَلَا مَخْلَصُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِأَحَدٍ / أَمْرَيْنِ: [244 ب]

10

إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْحِجَاجُ هَدَمَهُ جَمِيعَهُ وَأَعَادَهُ، وَقَدْ نَقَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ، إِلَّا أَنَّ
الْعِيَانِ فِي شَوَاهِدِ الْبِنَاءِ بِالْتِحَامِ مَا بَيْنَ الْبِنَائَيْنِ وَتَقْيِيرِ أَحَدِ الشَّقَّيْنِ مِنْ أَعْلَاهُ عَنْ
الْآخِرِ فِي الصَّنَاعَةِ يُرَدُّ ذَلِكَ.

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يُرَدْ الْبَنِيَّةُ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ،
وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْحِجَرِ فَقَطْ لِيَذْخُلَهُ، فَهِيَ الْآنَ - مَعَ كَوْنِهَا مِنْ بِنَاءِ ابْنِ الزُّبَيْرِ -
لَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، وَهَذَا بَعِيدٌ؛ وَلَا مَحِيصُ عَنْ هَذَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ سَاحَةَ الْبَنِيَّةِ، وَهُوَ الْمَسْجِدُ، كَانَ فُضَاءً لِلطَّائِفِينَ. وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ
جِدَارٌ أَيَّامَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَبَى يَكُرُّ مِنْ بَعْدِهِ. ثُمَّ كَثُرَ النَّاسُ، فَاشْتَرَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ⁽¹⁾ دُوراً هَدَمَهَا وَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ، وَأَدَارَ عَلَيْهِ جِدَاراً دُونَ الْقَائِمَةِ، وَفَعَلَ مِثْلَ
ذَلِكَ عُمَانُ، ثُمَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَبَنَاهُ بَعْدَ الرُّخَامِ، ثُمَّ زَادَ

15

(1) مِنْ: ي .

فيه المنصور ، وابنه المهدي من بعده . ووقفت الزيادة ، واستقر على ذلك لعهدنا .

وشرى الله لهذا التبت وعنايته أعظم من أن يحاط به . وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ، ومكاناً للعبادة ، وفرض فيه شعائر الحج 5 ومناسكها ، وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التظيم والحق ما لم يوجب له غيره؛ فَمَنَعَ كُلَّ من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم، وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يشتره، وحى العائذ به والرائع في مساره من مواقع الآفات. فلا يرأغ فيه خائف، ولا يصاد له وخش، ولا يحتطب له شجر.

وخذ الحرم الذي يختص بهذه الحرمية من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى 10 التثعيم ، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى ثنية جبل المنقطع⁽¹⁾ ، ومن طريق الجفرانة تسعة أميال إلى الشغب، * ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نيرة*⁽²⁾ ، ومن طريق جدة عشرة أميال إلى منقطع العشائر.

هذا شأن مكة وخبرها، وتسمى أم القرى، وتسمى الكعبة لعلوها، من اسم الكعب. ويقال لها أيضاً: بكّة. قال الأضمر⁽²⁾: لأنّ / الناس يبكّ بعضهم بعضاً إليها، [i 245]

(1) من: ط ع .

(1) ذكر في تحديد الحرم من طريق العراق، أن خده على ثنية جبل بالمنقطع على سبعة أميال، (الأحكام السلطانية 435، النووي: تهذيب الأسماء واللغات 2/1: 82) وسماه الأزرقى جبل المقطع لأنهم قطعوا منه أحجار الكعبة في زمن ابن الزبير (أخبار مكة 2: 228).

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية 413 .

أي: يَدْفَع. وقال مُجاهد⁽¹⁾: إِنَّمَا هِيَ بَاءٌ بَكَّةٌ أَبْدَلُوهَا مِيمًا، كَمَا قَالُوا: لَا زِمَ وَلَا زِبَ،
لُزِبَ الْمُخْرَجِينَ. وقال الثَّعْلَبِيُّ⁽²⁾: بَلْ بِالْبَاءِ لِلتَّيْنِ، وَبِالْمِيمِ لِلتَّلْدِ. وقال الزُّهْرِيُّ⁽³⁾:
بِالْبَاءِ لِلْمَسْجِدِ كُلِّهِ، وَبِالْمِيمِ لِلْحَرَمِ.

وقد كانت الأُمَمُ - مُنْذُ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ - تُعَظِّمُهُ، وَالْمُلُوكُ تُبْعَثُ إِلَيْهِ بِالْأَمْوَالِ

وَالذَّخَائِرِ، كَسَرَى وَغَيْرُهُ.

وَقِصَّةُ الْأَسْيَافِ وَغِرَالِي الذَّهَبِ الَّتِي وَجَدَهَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حِينَ اخْتَفَرَ زَمْرَمَ
مَعْرُوفَةً. وقد وجد رسولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ فِي الْجَبِّ الَّتِي كَانَ فِيهَا سَبْعِينَ
أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ مِنَ الذَّهَبِ، مِمَّا كَانَ الْمُلُوكُ يُهْدِي إِلَى التَّيْنِ، قِيمَتُهَا أَلْفَا أَلْفِ دِينَارٍ،
أَشَانُ مَكْرُورَةٍ مَرَّتَيْنِ، بِمَاتِي قِنْطَارٍ وَزَنًا. وقال له عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اسْتَعَنْتُ بِهَذَا الْمَالِ عَلَى خَزَيْك، فَلَمْ يَفْعَلْ. ثُمَّ ذَكَرَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَمْ
يُحَرِّكْهُ. هَكَذَا قَالَ الْأَزْرَقِيُّ⁽⁴⁾. وَفِي الْبُخَارِيِّ⁽⁵⁾ بَسَنَدِهِ إِلَى أَبِي وَائِلٍ⁽⁶⁾، قَالَ:
جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ، وَقَالَ: جَلَسَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: هَمَمْتُ أَنْ لَا
أَدْعَ⁽¹⁾ فِيهَا ضَفْرَاءَ وَلَا يَتِيضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. قُلْتُ: مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ:

(1) فِي ج: اصْع

(1) الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ 413، شِفَاءُ الْغَرَامِ 95.

(2) الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ 413.

(3) الْمَصْدَرُ وَالضَّفْعَةُ، تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ 2: 39.

(4) أَخْبَارُ مَكَّةَ 1: 246.

(5) فِي الْحَجِّ مِنْ صَحِيحِهِ 2: 183، حَدِيثُ (1594).

(6) هُوَ شَقِيقُ ابْنِ سَلَمَةَ.

فلم؟ قلت: لم يفعل صاحبك، قال: هما المرآن يفتدى بها. وخرجه أبو داود وابن ماجه⁽¹⁾.

وأقام ذلك المال إلى أن كانت فتنة الأفطس⁽²⁾، وهو الحسين بن الحسن ابن علي [بن الحسين]⁽³⁾ بن علي، زين العابدين، سنة تسع وتسعين ومائة، حين غلب على مكة عمدة إلى الكعبة، فأخذ ما في خزائنها، وقال: ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً فيها لا يفتن به؟ نحن أحق به، نستعين به على خزينا؛ وأخرجه، وتصرف فيه. وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ.

وأما بيت المقدس، وهو المسجد الأقصى، فكان أول أمره أيام الضائفة موضعاً لهيكل الزهرة. وكانوا يقربون إليه الزيت فيما يقربونه، ويصبونه على الصخرة التي هنالك. ثم دثر ذلك الهيكل، واتخذها بنو إسرائيل حين ملكوها قبلة لصلواتهم. وذلك أن موسى، صلوات الله عليه، لما خرج ببني إسرائيل من مصر ليملكهم بيت المقدس / كما وعد الله أباهم إسرائيل وآبائه إسحاق ويعقوب من قبله، وأقاموا بأرض التيه، أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنت، عين بالوحي مقدارها وصبغها وهاكلها وتثليلها، وأن يكون فيها تابوت ومائدة بصحافها، ومنازة بصاديلها، وأن يضع مذبحاً للقربان. ووصف ذلك كله في التوراة⁽⁴⁾ أكمل وصف. فصنع القبة،

(1) سنن أبي داود (2031) وسنن ابن ماجه (3116).

(2) ولاء على مكة أبو السرايا السري بن منصور القائم بأمر ابن طباطبا، انظر أخباره في الكامل 6: 302،

305.

(3) من الكامل 6: 305.

(4) سفر الخروج 30، 33.

ووضع فيها تابوت العهد، وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عِوضاً من الألواح
 المنزلة بالكليات العشر لما تكسرت، ووضع المذبح عندها، وعهد الله إلى موسى
 بأن يكون هارون صاحب القربان. ونصبوا تلك القبة بين خيامهم في التيه، يصلون
 إليها ويقربون في المذبح أمامها، و[يتوجهون]^(١) للوحي عندها. ولما ملكوا أرض
 الشام، أنزلوها بكلكال، من بلاد الأرض المقدسة، ما بين قسم بني يامين وبني
 5 أفرام. وبقيت هنالك أربع عشرة سنة، سنباً مدة الحزب، وسنباً بعد الفصح، أيام
 القسمة^(ب) للبلاد. ولما توفي يوشع - عليه السلام - نقلوها إلى بلد شيلو، اقرباً من
 كلكال، وأداروا عليها الحيطان^(ج). وأقامت على ذلك ثلاثمائة سنة، حتى ملكها بنو
 فلسطين من أيديهم كما مر، وتغلبوا عليهم. ثم اردوا عليهم القبة^(د) ونقلوها بعد وفاة
 10 غالي الكوهن إلى نوف. ثم نُقلت أيام طالوت إلى كعون في بلاد بني يامين. ولما
 [ملك]^(هـ) داود - عليه السلام - نقل القبة والتابوت إلى بيت المقدس، وجعل
 عليها^(ز) خياء خاصاً ووضعها على الصخرة^(٢). وبقيت تلك القبة قبلتهم.

وأراد داود - عليه السلام - بناء مسجد^(ح) على الصخرة مكانها، فلم يتم له
 ذلك، وعهد به إلى ابنه سليمان، فبناه لأربع سنين من ملكه، ولحقس مائة سنة من
 15 وفاة موسى عليه السلام. واتخذ عمده من الصفر، وجعل به صرخ الزجاج، وعشى

(١) في الأصل ع: يضرعون؛ ثم شطبت وكُتب فوقها: يتوجهون، ونقلت ط ج ي عن الأصل قبل الإصلاح (ب) ج ع: بنفسه
 (ج) في ط ج: "بنها واتخذوا لها المواضع". وكان هذا النص في الأصل ع، ثم شطبت وغُوض بما أتبعه (د) كانت في أصل
 ع ردوها، ونقلها ط ح، ثم استبدلت (هـ) من ع مستدركة ونحها: ولي، وعها نقلت ط (و) كذا في ع، وفي ط ج: لها
 (ز) ما بين الحمين من حاشية ع بخطه، وفي ي جاء النص مرتباً (ح) في ي: مسجده.

أبوابه وحيطانه بالذهب، وصاغ هيكله وثأبله وأوعيته ومناوذه ومفاتيحه من الذهب، وجعل ظهره مقبواً ليودع فيه تابوت العهد. وجاء به من صهيون، بلد أبيه داود، [نقله إليها أيام عبادة المسجد، فجيء به] ⁽¹⁾ تحمله الأسباط والكهنة، / حتى [246] وضع في القبر، ووضعت الثبة والأوعية والمذبح، كل حين أُعِدَّ له من المسجد. وأقام كذلك ما شاء الله. 5

ثم خربه بختنصر بعد ثمانمائة سنة من بنائه. وأحرق التوراة والعصاة ^(ب)، [وسبك] ^(ج) الهيكل، وبتر الأخجار. ثم لما أعادهم ملوك الفرس، بناه عزير نبي بني إسرائيل لعقده، بإعانة بهمن، ملك الفرس الذي كانت الولادة لبني إسرائيل عليه [من سبي] ^(د) بختنصر. وحدَّ لهم في بنائه حدوداً دون بناء سليمان - عليه السلام - فلم يتجاوزوها. 10

[وأما الأواوين] ⁽¹⁾ التي تحت المسجد، يركب بعضها بغضاً؛ عموداً الأعلى منها على قوس الأسفل في طبقتين. ويتوهم كثير من الناس أنها اضطبلات لسليمان - عليه السلام - وليس كذلك. وإنما بناها تزيئاً للبيت المقدس عما يتوهم من التجاسات، لأنَّ التجاسة في شريعتهم، وإن كانت في باطن الأرض، وكان ما يتنها ويبن ظاهراً الأرض محشواً بالثراب، بحيث يصل ما يتنها وبين الظاهر خطاً 15

(1) من حاشية ع خطه، وسقط من ط (ب) في الأصول كلها: المعاص. وهي لغة في المصا ذكرها الأزهري. وكرهها بعضهم (اللسان: مادة عصا) (ج) من: ج ي. وفي ط: وصاغ، كانت في أصل ع ثم استبدلت (د) سقط من ط.

(1) هي صهرج لجميع أمطار الشتاء، كما يدلُّ عليه طراز عمارته والمزاريب الناقلة للماء من سطح الحرم إليه، ومواد الملاط على جمارته الكبيرة، المكونة من الكلس وكسرة الفخار المعروفة في أسلوب العزل المالي.

مُسْتَقِيم، ينجس ذلك الظاهر بالتوهم. والمتوهم عندهم كالمحقق. فبنوا هذه الأواوين على هذه الصورة بعمود الأواوين السفلية، تنتهي إلى أقواسها ويتقطع خطّه، فلا تتصل التجاسه بالأعلى على خطّ مستقيم، وتترّه البنيث عن هذه التجاسه المتوهمه، ليكون ذلك أبلغ في الطهارة والتقديس للبنيث المقدّس^(١).

5 ثم تداوتهم ملوك يوتان والفريس والروم . واستنحل الملك لبني إسرائيل في هذه المدد لبني حشمناي، من (كهنتيهم)^(ب)، ثم إصهرهم هيردوس ولبنيه من بعدهم. وتي هيردوس بنيث المقدس على حدود سليلان - عليه السلام - وتأتق فيه حتى أكمله في ست سنين. فلما جاء طيطش، من ملوك الروم، وغلبهم وملك أمرهم، خرب بنيث المقدس ومسجدها، وأمر أن يزرع مكانه.

10 ثم أخذ الروم بدين المسيح - عليه السلام - ودانوا بتفطيمه. ثم أخلف حال ملوك الروم في الأخذ بدين النصراية تارة وتركه أخرى، إلى أن جاء قسطنطين، وتصرّت أمه هيلانة، وارتحلت إلى القدس في طلب الحشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم. فأخبروها^(ج) القامسة بأنه زعي بحشبه على الأرض، وألقي عليه القمامات والقاذورات . فاستخرجت الحشبة ، وبنت مكان تلك القمامات كيسة القمامة، كأنها على قبره بزعمهم. وخربت ما وجدت من عارة البنيث، وأمرت بطرح 15 الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخفي مكانها، جزاء - بزعمها - لما فعلوه

(١) إضافة في حاشية ع بخطه، وسقطت من ط ج ي (ب) في ج ي ط واصل ع: كهنتهم ، واستبدلت في حاشية ع إلى ما ابتناه (ج) كذا في ع ط ج ي .

في قَبْرِ الْمَسِيحِ. ثُمَّ بَنَوْا إِزَاءَ الْقَامَةِ بَيْتَ لَحْمٍ، وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ عِيسَى،
صلوات الله عليه.

وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالْفَتْحُ، وَخَضَرَ عُمَرُ لَفَتْحَ بَيْتِ
الْمَقْدَسِ، وَسَالَ عَنِ الصَّخْرَةِ، فَأَرَى مَكَانَهَا وَقَدْ علاها الزَّلْزُلُ وَالتَّرَابُ، فَكَشَفَ عَنْهَا
5 وَبَنَى عَلَيْهَا مَسْجِداً عَلَى طَرِيقِ الْبِدَاوَةِ، وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ مَا أَدْنَى اللَّهِ فِي تَعْظِيمِهِ،
/ وما سَبَقَ فِي أَمِّ الْكِتَابِ مِنْ فَضْلِهِ، حَسْبُهَا قَبْتُ.

[246ب]

ثُمَّ اخْتَفَلَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فِي تَشْيِيدِ مَسْجِدِهِ عَلَى سَنَنِ مَسَاجِدِ
الْإِسْلَامِ بِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْاِخْتِفَالِ، كَمَا فَعَلَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَفِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ
ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَفِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ بِلَاطِ الْوَلِيدِ. وَأُلْزِمَ مَلِكُ
الزُّرُومِ أَنْ يَبْنِيَ الْقَعْلَةَ وَالْمَالَ لِبِنَاءِ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، وَأَنْ يُتِمَّقَوْهَا بِالْفُسَيْفِساءِ، فَطَاعَ
10 لِنَلِكِ؛ وَتَمَّ بِنَاؤُهَا عَلَى مَا اقْتَرَحَهُ.

ثُمَّ لَمَّا ضَعُفَ أَمْرُ الْخِلَافَةِ أَعْوَامَ الْحَفْصِيَّةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَفِي آخِرِهَا،
وَكَانَتْ فِي مَلَكَةِ الْمُتَبَدِّلِينَ، خُلَفَاءُ الْقَاهِرَةِ مِنَ الشَّيْعَةِ، وَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ، زَحَفَ
الْفَرَنْجَةُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، فَفَلَكُوهُ، وَمَلَكُوا مَعَهُ عَامَّةَ نُغُورِ الشَّامِ. وَبَنَوْا عَلَى
الصَّخْرَةِ الْمَقْدُوسَةِ مِنْهُ كِبَيْسَةً كَانُوا يُعْظَمُونَهَا وَيُفْتَخِرُونَ بِبِنَائِهَا⁽¹⁾. حَتَّى إِذَا اسْتَقْلَّ
15

(1) لَمْ يَبْنِ الصَّلِيبِيُّونَ كِبَيْسَةً عَلَى الصَّخْرَةِ، وَإِنَّمَا احْتَفَظُوا بِالْبِنَاءِ النَّخْمِ الَّذِي أَقَامَهُ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ
مُرْوَانَ سَنَةَ 72هـ / 691م لِأَنَّهُ بَنَى عَلَى طَرَاظِ "الزُّوتْدَا" الْمَسِيحِيَّةِ. وَهُوَ مِنَ الْمَعَامِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ النَّادِرَةِ الَّتِي
أَبْقَوْا عَلَيْهَا دَاخِلَ مَدِينَةِ الْقُدْسِ.

صلاح الدين بن أيوب الكردي⁽¹⁾ بملك مصر والشام، ومخا أثر الفبيدين ويدرهم، زحف إلى الشام، وجاهد من كان به من الفرنجة، حتى غلبهم على البيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام. وذلك لتخو ثمانين وخمسائة من الهجرة. وهدم تلك الكنيسة، وأظهر الصخرة، وبني المسجد⁽²⁾ على التحو الذي هو عليه لهذا العهد.

5

⁽¹⁾أولا يعرض^(ب) لك الإشكال المعروف في الحديث الصحيح⁽³⁾، أن النبي ﷺ سئل عن أول بيت وضع، فقال: "مكة". قيل: ثم أي؟ قال: "بيت المقدس". قيل: فكيف بينهما؟ قال: "أربعون سنة". فإن المدة بين بناء مكة وبناء بيت المقدس بمقدار ما بين إبراهيم وسليمان. لأن سليمان بانيها، وهو يُنْف على الألف بكثير. واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس / البناء، وإنما المراد أول بيت عيّن

10

[1247]

(1) حنفية من ع يخطه، سقطت من ط. وأتيناها ي ج (ب) في ج: عرض.

(2) الخلاف بين المؤرخين في نسب الأيوبيين قديم، والراجح فيه ما كتبه الملك الأجد الحسن بن الناصر داود بن المعظم عيسى بن الملك العادل محمد بن أيوب، يقول: "المشهور عند بيتنا أن جدنا نزل على الأكراد وتزوج منهم، فصارت بيننا وبينهم خؤولة لا غير، كما بيننا وبين الأتراك، فإن أمهات جماعة من أسلافنا تركيات". ودلّل الملك الأجد على ذلك بأدلة مقبولة. انظر، الملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي؛ الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية 57 (بغداد 1992).

(3) كان الصليبيون قد جدّدوا تغطية "الروتدا" بسقف لا تعرف شيئاً عن هيئته، فأسقطه صلاح الدين الأيوبي وجدّد التغطية بالقبة الخشبية المزخرفة الباقية إلى اليوم، واتخذ لها غطاء خارجياً من أطباق الرصاص لحمايتها.

(3) أخرجه البخاري (3366) و (3425) ومسلم (520) من حديث أبي ذر.

للعبادة. ولا يبعد أن يكون بيت المقدس عين العبادة قبل سليمان يمثل هذه المدة، وقد يقال^(١): إن الصابئة بنوا على الصخرة هيكل الزهرة، فلعل ذلك لأنها كانت مكاناً للعبادة، كما كانت الجاهلية تصنع الأضنام والتماثيل خوالي الكعبة وفي خوفها. والصابئة الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد إبراهيم - عليه السلام - فلا^(ب) 5 تبعُد مدة الأربعين سنة بين وضع مكة للعبادة ووضع بيت المقدس، وإن لم يكن هناك بناء، كما هو المعروف، وإن أول من بنى بيت المقدس سليمان - عليه السلام - فتفهّمه، وفيه حلّ هذا الإشكال^(ج).

وأما المدينة، وهي [المسماة]^(د) يثرب، فهي من بناء يثرب بن مهلايل، من الغالقة، وبه سُميت. وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز. ثم جاوزهم أبناء قبيلة من عسّان، وغلبهم عليها وعلى حصونها. 10

ثم أمر النبي ﷺ بالهجرة إليها لما سبق من عناية الله لها. فهاجر إليها ومعه أبو بكر، وتبعه أصحابه^(هـ). ونزل بها، وبنى مسجده ويؤتة في الموضع الذي *^(و) قد كان الله أعدّه * لذلك، وشرفه في سابق أزله. وآواه أبناء قبيلة ونصروه، وبذلك سُموا الأنصار. ونصت كلمة الإسلام من المدينة حتى غلبت على الكلمات، وغلب 15 على قومه، وفتح مكة وملكها. وظل الأنصار أنه يتحول عنهم إلى بلده^(ز)، فأهملهم

(١) من ط ج، وفي ع: بقا، وأستط اللام، وفي ي: قل (ب) في ع: ولا (ج) نهاية حاشية من ع بخطه، سقطت من ط، وأبنتها ي ج (د) في ط: المسمى (هـ) وضع ناصح النسخة ط (الطاهرين) الفقرة المقدمة المحصورة بين حاصرتين، والحاشية بأول بيت وضع للعبادة، في هذا المكان خطأ. إذ لم يضببط موقفها عنده عند نقلها من حاشية النسخة ع، رغم وجود علامة المخرج لها قبل الحديث مباشرة عن المدينة (و) في ع ج ي: كان الله قد أعدّه (ز) في ج: البلدة .

ذلك، فخطبهم ﷺ وأخبرهم أنه غير مَتَحَوِّل. حَتَّى إِذَا قُبِضَ ﷺ كَانَ مَلْحَدُهُ الشَّرِيفَ بها.

وجاء في فضلها من الأحاديث الصحيحة ما لا يخفاء به. ووقع الخلاف بين العلماء في تفضيلها على مَكَّةَ ، وقال به مالك - رحمه الله - لما ثَبَتَ عنده في ذلك من النَّصِّ الصَّرِيحِ عن رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ⁽¹⁾، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "الْمَدِينَةُ خَيْرٌ مِنْ مَكَّةَ". 5 نَقَلَ ذَلِكَ عَبْدُ الْوَهَّابِ فِي الْمَعْوَةِ ⁽²⁾، إِلَى أَحَادِيثَ أُخْرَى تُدَلِّ بِظَاهِرِهَا عَلَى ذَلِكَ. وَخَالَفَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ.

[247 ب] وَأَصْبَحَتْ عَلَى كُلِّ حَالٍ ثَانِيَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. وَجَنَحَ إِلَيْهَا الْأَمَمُ / بِأَفْنِدتهم من كُلِّ أَوْبٍ.

فَانْظُرْ كَيْفَ تَدَرَّجَتْ الْفَضِيلَةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الْمُعْظَمَةِ لِمَا سَبَقَ مِنْ عِنَايَةِ 10 اللَّهِ لَهَا . وَتَهَنَّمْ سِرَّ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ وَتَذَرِّجِهِ عَلَى تَرْتِيبٍ مُحْكَمٍ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْأَنْبِيَاءِ.

وَأَمَّا غَيْرُ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ، فَلَا نَعْلَمُهُ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَا يُقَالُ مِنْ شَأْنِ مَسْجِدِ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِسَرَنْدِيبَ، مِنْ جَزَائِرِ الْهِنْدِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ شَيْءٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ. 15

(1) حديث ضعيف أخرجه الطبراني في الكبير (4450) والبخاري في التاريخ الكبير 1: 160 وابن عدي في الكامل 6: 190 من حديث رافع بن خديج .
(2) المعونة 2: 605 (باب في فضل المدينة والصلاة بها).

وقد كانت للأمم في القديم مساجد يعظمونها على جهة الديانة يزعمهم، منها: بيوت النار للفرس، وهياكل يونان، وبيوت العرب بالحجاز، التي أمر النبي ﷺ بهدمها في غزواته. وقد ذكر المسعودي⁽¹⁾ منها ييوتا لسننا من ذكرها في شيء، إذ هي غير مشروعة، ولا هي على طريق ديني. فلا يلتفت إليها ولا إلى الخبر عنها؛ ويكتفي في ذلك ما وقع في التواريخ؛ فمن أراد معرفة الأخبار فعليه بها. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [سورة البقرة، الآية 213].

7 • فصل، في أن الأمصار والمدن بأفريقية والمغرب قليلة

والسبب في ذلك، أن هذه الأقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الإسلام، وكان عمرانها كله بدويًا، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى شتكل أحوالها. 10 والبول التي ملكتهم من الإفرنجية والعرب لم يطل أمده ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها، فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها، فكانوا لها أقرب، فلم تكثر مبانيم.

وأيضاً، الفصائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البدو. والصنائع من توابع الحضارة، وإنما تتم المباني بها، فلائد من الخلق في تعليلها. ولما لم يكن للبربر انتحال لها، لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن. 15

(1) مروج الذهب، (الأبواب 63-69) خض بها البيوت المعظمة والهياكل والنيران والأصنام عند اليونانيين وأوائل الروم والصقالبة والصابنة وغيرهم.

وأيضاً فهم أهلُ عَصِيَّاتٍ وَأَنْسَابٍ، لا يَخْلُو عن ذلك جَمْعُ منهم. والأنسابُ والعَصِيَّةُ أَجْنَحُ إلى البدو، وإنَّما يَدْعُو إلى المُدْنِ الدَّعَى والسكون، ويَصِيرُ ساكِهَا عِيالاً على حَامِيَّتِهَا. فتَجِدُ أهلَ البدو لذلك يَسْتَنْكِفُونَ من سُكْنَى المَدِينَةِ أو المُقَامَةِ بها، ولا يَدْعُوهم لذلك إِلَّا التَّرَفُّ والغنى، وقليلٌ / ما هو في التَّائِسِ. [i 248]

فلذلك كان عُمرانُ إفرِيقَةَ والمَغْرِبُ كُلُّهُ أو أَكْثَرُهُ بَدَوِيّاً، أَهْلُ خِيَامٍ وطِوَاعِنٍ 5 وَقِيَّاطِنٍ وَكَثَرٍ⁽¹⁾ في الجِبَالِ. وكان عُمرانُ بلادِ العَجَمِ كُلُّهُ أو أَكْثَرُهُ قُرًى وَأَمْصَاراً وَرَسَاتِيقَ في بلادِ الأَنْدَلُسِ والشَّامِ ومِصْرَ وعِراقِ العَجَمِ وأمثالها؛ لأنَّ العَجَمَ في الغالبِ، لَيْسُوا بِأَهْلِ أَنْسَابٍ يُحَافِظُونَ عليها وَيَتَنَاعَوْنَ في صِرَاحَتِهَا والتَّحَامِيهَا إِلَّا في الأَقْلَ. وأكثرُ ما يَكُونُ سُكْنَى البدو لِأَهْلِ الْأَنْسَابِ ؛ لأنَّ لُحْمَةَ النِّسْبِ أَقْرَبُ وَأَشَدُّ، فتَكُونُ عَصِيَّتُهُ كَذَلِكَ، وَتُزْعَمُ بِصَاحِبِهَا إلى سُكْنَى البدو والتَّجَافِي عن المِصْرِ 10 الَّذِي يَذْهَبُ بِالنِّسَالَةِ، وَيُصَيِّرُهُ عِيالاً على غَيْرِهِ. فافْهَمْهُ، وَقَسْ عَلَيْهِ.

8 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْمَبَانِيَّ وَالْمَصَانِعَ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَلِيلَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهَا وَمَنْ كَانَ قَبْلَهَا مِنَ الدُّوَلِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، مَا ذَكَرْنَا مِثْلَهُ فِي الْبَرِّ بَعَيْنُهُ، إِذِ الْعَرَبُ أَيْضاً أَغْرُقَ

فِي الْبَدْوِ وَأَتَقَدُّ عَنِ الصَّنَاعِ.

(1) فِي ي: كَثَرٌ.

وأيضاً، فكانوا أجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام. [ولمّا]^(١)
تلكوها لم يَنْفَسِحِ الأمرُ حتّى تُسْتَوْفِ رُسُومُ الحِصَارَةِ، مع أنّهم استغْنَوْا بما وَجَدُوا
من مَبَانِي غَيْرِهِمْ.

وأيضاً، فكان الذين أول الأمر مانعاً من المغالبة في البناء والإشراف فيه في
5 غير القصد، كما عهد لهم عمر حين استأذنه في بناء الكوفة بالحجارة، وقد وقع
الحريق في القصب الذي كانوا يتّوّن به من قبل. فقال^(١): افعلوا، ولا يزيدن أحد على
ثلاثة أبناب، ولا تطلّولوا^(ب) في البناء، والزموا السّنة تلتزمكم التّولة. وعهد إلى
الوفد، وقُدّم إلى الناس ألا يزفّعوا بُنياناً فوق القدر. قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا
يُقرّيك من السّرف، ولا يُخرّجكم عن القصد.

10 فَلَمَّا بَعْدَ الْعَهْدِ بِالَّذِينَ وَالتَّخَرُّجِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ، وَغَلِبَتْ طَبِيعَةُ الْمَلِكِ
وَالتَّرَفِّ، وَاسْتَعْظَمَ الْعَرَبُ أُمَّةَ الْفُرْسِ، وَأَخَذُوا عَنْهُمْ الصَّنَاعَ وَالْمَبَانِي، وَدَعَّاهُمْ إِلَيْهَا
أَحْوَالُ الدَّعَةِ وَالتَّرَفِّ؛ وَخِينِذَ شَيْدُوا الْمَبَانِي وَالْمَصَانِعَ. وَكَانَ عَهْدُ ذَلِكَ قَرِيباً بِأَهْرَاضِ
الدَّوْلَةِ، وَلَمْ يَنْفَسِحِ الْأَمَدُ لَكثْرَةِ الْبِنَاءِ وَاخْتِطَاطِ الْمَدَنِ وَالْأَمْصَارِ إِلَّا قَلِيلاً؛ / وَلَيْسَ
[248ب] كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، فَالْفُرْسُ^(ج) طَالَتْ مُدَّتُهُمْ آلافاً مِنَ السِّنِينَ، وَكَذَلِكَ الْقَبِيطُ
وَالنَّبْطُ وَالتُّرُومُ، وَكَذَلِكَ الْعَرَبُ [الأولى]^(د) مِنْ عَادٍ وَنَمُوذَ وَالْعَمَلَقَةِ وَالتَّبَاعَةِ، طَالَتْ
15 آمَاذُهُمْ وَرَسَخَتْ الصَّنَاعُ فِيهِمْ. فَكَانَتْ مَبَانِيهِمْ وَهِيَائُهُمْ أَكْثَرَ عِدداً وَأَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ أَثَرًا.

(١) ط: وإنا (ب) في ج: تطلولوا (ج) ي: والفرس (د) ع ي: وفي ط ج: الأول.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 4: 44.

واستبصر في هذا، تجذهُ كما قُلْتُ لك. والله وارث الأرض ومن عليها.

99 فصل، في أن المباني التي تخطها العرب يُسرِع إليها الحَرَابُ، إلا في الأقل

والسبب في ذلك شأن البدَاوة والبُعد عن الصنائع، كما قدَّمناه، فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها. وله ، والله أعلم ، في تشييدها⁽¹⁾ وَجْهٌ آخَرُ ، وهو أَمْسُ به ، وذلك قِلَّةُ مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المُدن ، كما قلناه ، من المكان 5 وطيب الهواء والمياه والمراعي. فإنَّ بالتفاوت في هذه تتفاوت جُودَةُ المَصْرِ أو رِداءَتُهُ من حيث العمران الطبيعي. والعربُ بمِغْرَلٍ عن هذا؛ وإنَّما يُراعون مراعي إيلهم خاصَّةً، لا يُبالون بالماء، طاب أم خَبث، ولا قَلَّ أم كَثُرَ، ولا يَسْأَلون عن رَكِي المَزارع والمنابِت والأهوية ، لانتقالهم في الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد.

10

وأما الرياح، فالقفر مُخْتَلِفٌ للمهابِّ كُلِّها، والطَّغْنُ كَفِيلٌ لهم بطبيها. لأنَّ الرياحَ إنَّما تَجُبُّ مع القَرَارِ والسكْنَى وكثرة الفضلات.

وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان، كيف لم يُراعوا في اختطاطها إلا مراعي إيلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الطَّغْنِ ؛ فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمُدن، ولم تكن لها مادَّةٌ تُمدُّ عُمرانها من بَعدِهِم، كما قدَّمنا أَنَّهُ يُحتاجُ إليه 15 في جَفْظِ العُمُران. فقد كانت مواطنها غَيْرَ طَبِيعِيَّةٍ للقرار، ولم تكن في وَسْطِ الأَمَمِ

(1) من ظ، وسقطت من: ع ج ي .

فَيَغْمُرُهَا النَّاسُ . فَلَأَوَّلُ وَهْلَةٍ مِنْ انْخِلَالِ أَمْرِهِمْ وَذَهَابِ غَصْبَتِهِمْ الَّتِي كَانَتْ سَبَاحًا لَهَا أَتَى عَلَيْهَا الْحَرَابُ وَالْانْخِلَالُ، كَأَن لَمْ تَكُنْ. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية 41].

10 • فَضْلٌ، فِي مَبَادِيِ الْخَرَابِ فِي الْأَمْصَارِ

5 / أَغْلَمُ أَنَّ الْأَمْصَارَ إِذَا اخْتُطَّتْ أَوَّلًا تَكُونُ قَلِيلَةَ الْمَسَاكِينِ ، وَقَلِيلَةَ آلَاتِ [1249] الْبِنَاءِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْكَلْسِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُعَالَى عَلَى الْحَيَاطَانِ عِنْدَ الثَّائِقِ، كَالزَّلْجِ وَالزُّخَامِ وَالْفُسْتَيْفَسَاءِ وَالسَّبِيجِ وَالصَّدْفِ وَالزُّجَاجِ. فَيَكُونُ بِنَاؤُهَا، يَوْمَنَدٍ، بَدْوِيًّا وَالْآثَنَاءُ فَاسِدَةً.

فَإِذَا عَظُمَ عُمُرَانِ الْمَدِينَةِ وَكَثُرَ سَاكِنُهَا، كَثُرَتْ آثَنَاءُ بِكَثْرَةِ الْأَعْمَالِ، حِينَئِذٍ، 10 وَكَثُرَ الضُّتَاعُ، إِلَى أَنْ يَبْلُغَ غَايَتَهَا مِنْ ذَلِكَ، كَمَا سَبَقَ فِي شَأْنِهَا. فَإِذَا تَرَاوَجَعَ عُمُرَانِهَا وَقَلَّ سَاكِنُهَا، قَلَّتِ الصَّنَائِعُ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَفَقِدَتْ الْإِجَادَةَ فِي الْبِنَاءِ وَالْإِحْكَامِ وَالْمُعَالَاةِ عَلَيْهِ بِالتَّنْمِيقِ. ثُمَّ تَقِلُّ الْأَعْمَالُ لِعَدَمِ السَّاكِنِ، فَيَقِلُّ جَلْبُ الْآلَاتِ مِنَ الْحَجَرِ وَالزُّخَامِ وَغَيْرِهَا، فَتُفْقَدُ. وَيَصِيرُ بِنَاؤُهُمْ وَتَشْيِيدُهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الَّتِي فِي مَبَانِيهِمْ، يَنْقُلُونَهَا مِنْ مَضْنَعٍ إِلَى مَضْنَعٍ، لِأَجْلِ خَلَاءِ أَكْثَرِ الْمَصَانِعِ وَالْقُصُورِ وَالْمَنَازِلِ، لِقِلَّةِ 15 الْغُفْرَانِ وَقُصُورِهِ عَمَّا كَانَ أَوَّلًا. ثُمَّ لَا تَزَالُ تُنْقَلُ مِنْ قَصْرِ إِلَى قَصْرِ، وَمِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ، إِلَى أَنْ يُفْقَدَ الْكَثِيرُ مِنْهَا جُمْلَةً؛ فَيَعُودُونَ إِلَى الْبِنَاوَةِ فِي الْبِنَاءِ، وَاتِّخَاذِ الطُّوبِ عَوْضًا مِنَ الْجِبَارَةِ، وَالْقُصُورِ عَنِ التَّنْمِيقِ بِالْكَلْبِيَّةِ. فَيَعُودُ بِنَاءُ الْمَدِينَةِ مِثْلَ بِنَاءِ

القرى والمدائير، ويظهر عليها [منسُم]^(١) البداوة. ثم تشر في الشائص إلى غايتها في الحراب إن قدر لها به، سنة الله في خلقه.

11 • فصل، في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفق^(ب) وبقا
الأسواق، إنما هو بتفاضل عمرائها في الكثرة والقلة

- والسبب في ذلك، أنه قد عرِف وثبت أن الواحد من البشر غير مُستَقِلّ 5
بتخصيل حاجته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك. والحاجة
التي تحصل بتعاون طائفة منهم تشد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً. فالقوت من
الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتخصيل حصته منه. وإذا ائتدب لتخصيله التئة
أو العشرة، من حداد، وتجار للآلات، وقائم على البقر وإثارة الأرض، وخضاد
السبيل وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال، واجتمعوا، / وحصل بعمليهم 10
ذلك مقدار من القوت، فإنه حينئذ قوت لأضعافهم مرات. فالأعمال بعد الاجتماع
زائدة على حاجات العاملين وضرورتهم. وأهل مدينة أو مضر، إذا وزعت أعمالهم
كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم، اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال، وبقيت
الأعمال كلها زائدة على الضرورات، فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج
إليه غيرهم من أهل الأمصار، ويستجلبونه منهم بأغواضه وقيمه، فيكون لهم بذلك 15
خط من العنى.

(١) في ع: سبها، ووفوها بخطه: منسُم. وفي ج ي: ميسم سبها (كنا)، وفي ط: سبها (ب) ط ج ي، وفي ع: الرزق.

وقد يَتَبَيَّنُ لك في الفصل الخامس في باب الكَسْبِ والزُّرْقِ، أَنَّ المكاسبَ إِنَّمَا هي قِيَمُ الأَعْمَالِ. فإذا كَثُرَتِ الأَعْمَالُ كَثُرَتِ قِيَمُهَا بَيْنَهُمْ، فَكَثُرَتْ مَكاسِبُهُمْ ضرورةً. وَدَعْنَهُمْ أَحْوالَ الرِّفَةِ والغِنَى إلى التَّرفِ وحاجاته من الثَّائِقِ في المساكنِ والملابسِ، واستِجادةِ الآتيةِ والماعونِ، واتِّخاذِ الحَدَمِ والمراكِبِ. وهذه كُلُّها أَعْمَالٌ تُسْتَدْعَى بِقِيَمِهَا 5 وَيُخْتَارُ المَهْرَةُ في صِناعتِها والقيامِ عليها. فَتَنفُقُ أسْواقُ الأَعْمَالِ والصَّنَاعِ، وَيَكْثُرُ دَخْلُ المِضْرُ وَخَرْجُهُ، وَيَحْضُلُ النِّسَارُ لِمُنْتَجَلِي ذَلِكَ من قِيَلِ أَغْلالِهِمْ. وَمَتَى زَادَ الْغُفْرانُ زَادَتْ الأَعْمَالُ ثَانِيَةً. ثُمَّ زَادَ التَّرْفُ تَابِعاً لِلْكَسْبِ وزادَتْ عَوائِدُهُ وَكُسْبُهُ⁽¹⁾ وحاجاته، واستَنْبِطَتِ الصَّنَاعُ لِتَخْصِيلِهَا؛ فزادَتْ قِيَمُهَا، وتضاعَفَ الكَسْبُ في المَدِينَةِ لذلك ثَانِيَةً، وَتَفَقَّ سَوْقُ الأَعْمَالِ بِهَا أَكْثَرَ من الأولِ. وكذا في الزِّيَادَةِ الثَّانِيَةِ والثَّالِثَةِ؛ لِأَنَّ 10 الأَعْمَالِ الزَّائِدَةَ كُلَّهَا تُخْتَصُّ بِالتَّرفِ والغِنَى، بِخِلَافِ الأَعْمَالِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي تُخْتَصُّ بِالْمَعَاشِ. فَالْمِضْرُ إِذَا فَضَّلَ المِضْرَ بَغْفُرانٍ^(ب) وَاجِدَ، فَضَّلَهُ بِزِيَادَةِ كَسْبِ وَرَفِهِ، وَبِعَوَائِدِ من التَّرْفِ لَا تَوْجَدُ في الْآخِرِ. فَمَا كَانَ عُمْرَانُهُ من الْأَمْصَارِ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ، كَانَ حَالُ أَهْلِهِ في التَّرْفِ أَبْلَغَ من حَالِ المِضْرِ الَّذِي دُونَهُ على وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ في الْأَصْنَافِ: الْقَاضِي مع الْقَاضِي، وَالتَّاجِرِ مع التَّاجِرِ، وَالصَّانِعِ مع الصَّانِعِ، وَالشُّوْقِيِّ مع الشُّوْقِيِّ، 15 وَالْأَمِيرِ مع الْأَمِيرِ، وَالشَّرْطِيُّ / مع الشَّرْطِيِّ.

[1250]

واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحالِ فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى، مثل بَجَايَةِ، وَتِلْغَمَسَانَ، وَسَبْتَةَ، نَحْذُ بَيْنَهُمَا بُوناً كَبِيراً على الجُمْلَةِ، ثُمَّ على

(1) من ط، ومقطت من ع (ب) ي: لمران .

الخصوصيات. فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بـتلفسان، وكذا كل صنف مع أهل صنفه. وكذا أيضاً حال بـتلفسان مع وهران أو الجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونها، إلى أن تنتهي على [المدائش]^(١) الذين اغتالهم في ضرورات معاشهم فقط، أو يقصرون عنها، وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها، فكأنها كلها أسواق للأعمال، والخرج^(ب) في كل سوق على نسبته، فالقاضي بفاس دخله كفاء 5 خرجه، وكذا القاضي بـتلفسان. وحيث الدخل والخرج أكثر، تكون الأحوال أعظم وأوسع. وهما بفاس أكثر لتفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف، فالأحوال أخفم. ثم هكذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة، حتى ينتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا تقي أعمالها بضرورتها، ولا تعد في الأمصار، إذ هي من قبيل القرى والمدائش^(ج). فلذلك ما نجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال، متقاربين 10 في الفقر والخصاصة، لما أن أعمالهم لا تقي بضرورتهم ولا يفضل لهم عنها ما يتأثرونه كسباً، فلا تنمو مكاسبهم. فهم لذلك مساكين محتاجين، إلا في الأقل التادر.

واعتبر ذلك حتى^(د) في أحوال الفقراء والسؤال، فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بـتلفسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثنان صحاباهم، ورأيهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المأكّل^(هـ)، 15 مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغزال والآية. ولو سأل السائل مثل هذا بـتلفسان أو وهران، لاستنكر وعنف وزجر.

(١) في ع: المجاهر. واستبدلت فوقها بالمداشر. ونقلها ي ج، وبقيت ط على كلمة المجاهر (ب) كذا في ع ج ي، وفي ط: الخروج (ج)، وفي ط ع ي: المجاهر. (د) سقط من ي (هـ): المأكّل.

وَيَتَلَفُنَا^(١) لهذا العهد عن أحوال أهل القاهرة ومضر من الترف والفتى في عوايدهم ما يَفْضِي منه العَجَبُ ، حَتَّى إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالْمَغْرِبِ يَنْزَعُونَ إِلَى الثَّقَلَةِ إِلَى مِصْرَ لِنَلْكَ ، / وَلَمَّا يَتَلَفُهُمْ مِنْ أَنَّ شَأْنَ الرِّفْهِ بِمِصْرَ أَعْظَمَ مِنْ غَيْرِهَا . [250ب]

وَتَقْتَدِ الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَلِكَ لَطُغْمُ الْأَمْوَالِ فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ ، وَأَنَّ الْأَمْوَالَ مُخْتَزِنَةٌ لَدَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ أَكْثَرُ صِدْقَةٍ وَإِثَاراً مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ لَمَّا نَعْرِفُهُ مِنْ أَنَّ عُمَرَائِ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ أَكْثَرُ مِنْ عُمَرَائِ هَذِهِ الْأَمْصَارِ الَّتِي لَدَيْكَ ، فَعَقَلْتُ لِنَلْكَ أحوالهم . وَأَمَّا حَالُ الدَّخْلِ وَالخَرْجِ فَتُكَافِئُ فِي جَمِيعِ الْأَمْصَارِ . وَمَتَى عَظُمَ الدَّخْلُ عَظُمَ الْخَرْجُ ، وَبِالْعَكْسِ . وَمَتَى عَظُمَ الدَّخْلُ وَالخَرْجُ ، انْقَسَمَتْ أحوالُ السَّاكِنِ ، وَوَسِعَ الْمِصْرُ كُلَّ شَيْءٍ يَتَلَفُكَ مِنْ هَذَا ، فَلَا تُتَكَبَّرُ ، وَاعْتَبِرْهُ بِكَثْرَةِ الْغُفْرَانِ وَمَا يَكُونُ عَنْهُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَكَايِبِ الَّتِي يَنْهَلُ بِسَبَبِهَا الْبَذْلُ وَالْإِثَارُ عَلَى مُبْتَغِيهِ .

وَمِثْلُهُ بِشَأْنِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ مَعَ بُيُوتِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَكَيْفَ تَحْتَلِفُ أحوالُهَا فِي هِجْرَانِهَا أَوْ غَشْيَانِهَا . فَإِنَّ بُيُوتَ أَهْلِ النِّعَمِ وَالثَّرَةِ وَالْمَوَائِدِ الْخَصِيصَةِ مِنْهَا يَكْثُرُ بِسَاحَاتِهَا وَأَفْنِيَّتِهَا تَنْتَرِ الْحُبُوبُ وَسَوَاقِطُ الْقَتَاتِ ، فَتَزْدَحْمُ عَلَيْهَا غَوَاشِي التَّنَمُّلِ وَالْحَشَّاشِ ، * وَتَحْلُقُ فَوْقَهَا عَصَائِبُ الطُّيُورِ حَتَّى تَتَرَوَّحَ بِطَانًا وَتَقْتَتَلِي شَيْعاً وَرِيّاً ، وَتَكْثُرُ فِي أَشْرَاقِهَا الْجُرْذَانُ ، وَتَأْوِي إِلَيْهَا السَّنَائِرُ * (ب) .

(١) ع: وبلغنا (ب) حانية من ع يخطه سقطت من ط .

وبيوت أهل الخصاصة والفقر الكاسدة أزرأفهم، لا ينسري بساحتها ديب،
ولا يُخلَق بجوهم طائر، ولا تأوي إلى [أسراب]⁽¹⁾ بيوتهم فأرة ولا هر^(ب). كما قال:
[من الخفيف]

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يُلْتَقَطُ الْحَبُّ سُبُّ وَتُقَشَّى مَنَازِلُ الْكُرْمَاءِ⁽¹⁾

- 5 فتأمل سير الله في ذلك ، واعتبر غاشية الأناسي بغاشية العجم من
الحيوانات، وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يتناولها،
لاستيفنائهم عنها في الأكثر بوجود أمثالها لنهم. واعلم أن اتساع الأحوال وكثرة النعم
في العُمران تابع لكثرة. والله ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 97].

12 • فصل، في أسعاس المدن

- 15 اعلم أن الأسواق كلها تشتمل على حاجات الناس. فيها الضروري: وهو
الأقوات من الحنطة والشعير^(ج) وما في معناها، كالباقلاء والحبص والجلتان وسائر
حبوب الأقوات، ومصلحاتها^(د) كالنصل والقوم وأشباهه. / ومنها الحايي والكماي:
[1251] من الأدم ، والقواكه، والملابس، والماعون ، والمراكب، وسائر الصنائع والمباني. فإذا

(أ) في ط ج ي: زوايا. وكانت كذلك في الأصل ع. وتغيرت لونها بأسراب (ب) كذا في ط ج ي وفي ع: هزة (ج) سقطت
من ط ج ي (د) سقطت من ي ج ط، وجاءت بحاشية ع بخطه.

(1) لابن نباتة المصري، ديوانه 48 (مطبعة النهدن - القاهرة 1323هـ)، ورواه ياقوت لغير قائل. (معجم الأدباء
564: 2).

استَبْخِرَ المِضْرَ وَكَثُرَ سَاكِنُهُ، رَحُصَتْ أَشْعَارُ الضَّرُورِيِّ مِنَ الْقُوْتِ وَمَا فِي مَغْنَاهُ،
وَعَلَّتْ أَشْعَارُ الْكِمَالِيِّ مِنَ الْأُذْمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا يَتَّبِعُهَا. وَإِذَا قُلٌّ سَاكِنُ المِضْرِ وَضَعْفُ
عُمُرَانِهِ، كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْحُبُوبَ مِنْ ضَرُورَاتِ الْقُوْتِ، فَتَتَوَقَّرُ التَّوَاعِي عَلَى
5 اتِّخَاذِهَا، إِذْ كُلُّ أَحَدٍ لَا يَهْمِلُ قُوْتَ نَفْسِهِ وَلَا قُوْتَ مَنْزِلِهِ لَشَهْرِهِ أَوْ سَنَتِهِ. فَيَعْتَمِدُ
اتِّخَاذُهَا أَهْلَ المِضْرِ أَجْمَعٌ، أَوِ الْأَكْثَرُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ المِضْرِ، أَوْ فِيمَا قَرَبَ مِنْهُ، لَا بُدَّ مِنْ
ذَلِكَ. وَكُلُّ مُتَخَذٍ لِقُوْتِهِ فَتَفْضُلُ عَنْهُ وَعَنْ أَهْلِهِ يَنْتَهِي فَضْلُهُ كَبِيرَةٌ تَشْدُ خَلَّةَ كَثِيرِينَ
مِنْ أَهْلِ المِضْرِ، فَتَفْضُلُ الْأَقْوَاتُ عَنْ أَهْلِ المِضْرِ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ. فَتَرُخَّصُ أَشْعَارُهَا
فِي الْغَالِبِ، إِلَّا مَا يَصِيبُهَا فِي بَعْضِ السَّنِينَ مِنَ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، وَلَوْ لَا اخْتِكَارُ
10 النَّاسِ لَهَا لَمَا يَتَوَقَّعُ مِنْ تِلْكَ الْآفَاتِ لِبُذُلَتِ دُونَ تَعْنِي وَلَا عِيُوضُ، لِكَثْرَتِهَا بِكَثْرَةِ
الْعُمُرَانِ.

وَأَمَّا سَائِرُ المَرَاقِقِ مِنَ الْأُذْمِ وَالْفَوَاكِهِ وَمَا إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمُ بِهَا الْبَلُؤَى، وَلَا
يَسْتَعْرِقُ اتِّخَاذُهَا أَعْمَالَ أَهْلِ المِضْرِ أَجْمَعِينَ، وَلَا الْكَثِيرَ مِنْهُمْ. ثُمَّ إِنَّ المِضْرَ إِذَا كَانَ
مُسْتَبْجَرًا، مَوْفُورَ الْعُمُرَانِ، كَثِيرَ حَاجَاتِ التَّرْفِ، تَوَقَّرَتْ حِينَئِذٍ التَّوَاعِي عَلَى طَلَبِ
15 تِلْكَ المَرَاقِقِ وَالِاسْتِكْنَارِ مِنْهَا، كُلٌّ بِحَسَبِ حَالِهِ. فَيَقْصُرُ الْمَوْجُودُ مِنْهَا عَنِ الْحَاجَاتِ
قُصُورًا بَالِغًا، وَيَكْثُرُ الْمُسْتَامُونَ لَهَا، وَهِيَ قَلِيلَةٌ فِي نَفْسِهَا، فَتَزْدَحُمُ الْأَغْرَاضُ، وَيَتَذَلُّ
أَهْلُ الرُّفُوهِ وَالتَّرْفِ أَثْمَانُهَا بِإِسْرَافٍ فِي الْغَلَاءِ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَيَنْقَعُ فِيهَا
الْغَلَاءُ كَمَا تَرَاهُ.

وأما الصنائع والأعمال أيضاً في الأمصار الموفورة الغفران، فسبَّب الغلاء فيها أمور ثلاثة:

الأول؛ كثرة الحاجة، لكان الترف في المضر بكثرة عُمرانه.

والثاني؛ اغتزاز أهل الأعمال بخدمتهم، وامتنان أنفسهم لسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها.

5

والثالث؛ كثرة المترفين وكثرة حاجتهم إلى امتنان / غيرهم، وإلى استعمال الصنائع في يهينهم. فينبذون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم، مراحة ومناقسة في الاستيثار بها. فيعثر القلعة والصنائع وأهل الحرف، وتغلو أعمالهم، وتكثر نفقات أهل المضر في ذلك.

[251ب]

وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكنين، فأقواتهم قليلة لقلّة العمل فيها، وما يتوقعونه لصغر مضرهم من عدم القوت. فيتمسكون بما يحصل منه بأيديهم ويحذكرونه، فيعزّ وجوده لئلاهم، ويغلو ثمنه على مستنائه. وأما مرافقهم، فلا تدعو إليها أيضاً حاجة لقلّة الساكنين وضغف الأحوال. فلا ينتفح لديهم سوقه، فيختص بالرخيص في سغره.

(1) وقد يَدْخُلُ في قيمة الأقوات، ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وأبواب المضر، وللجباة في منافع يقرضونها على البياعات لأنفسهم. ولذلك كانت الأسعار في الأمصار أعلى من أسعار البادية، إذ المكوس

(1) من حاشية ع يخطه وقلها ج، وسقطت من ط ي.

والمغارم والفرائص قليلة لديهم أو معدومة، والأفصار بالعكس، سيما في أواخر
الدول.

وقد يدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة علاجها في الفلح، ويحافظ على ذلك
في أشعارها، كما وقع بالأندلس لهذا العهد. وذلك أنهم لما ألجأهم التصارى إلى سيف
5 البحر وبلادهم المتوعدة الحبيثة الزراعة، التكدّة التباب، وملكوا عليهم الأرض الزاكية
والبلد الطيب، فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وقلحها؛ وكان
ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم
نفقات لها خطر، فاعتبروها في سغيرهم.

واختص فطر الأندلس بالغلاء منذ اضطرهم التصارى إلى هذا المغفور
10 بالإسلام مع سواجلها لأجل ذلك. ويحسب الناس إذا سمعوا بغلاء الأشعار في
فطرهم أنها إقلة الأقوات والحبوب بأرضهم، وليس كذلك، فهم أكثر أهل المغفور
قلحاً فيما علفناه وأقومهم عليه، وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن قدان أو
مزرعة أو فلح، إلا قليلاً من أهل الصناعات والمهن أو الطراء على الوطن من
الغزة المجاهدين. ولهذا يختصهم السلطان في عطائهم بالغولة، وهي أقواتهم وعلقتهم
15 من الزرع، وإيا السبب في غلاء السغير عندهم في الحبوب ما ذكرناه.

ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابهم وطيب أرضهم،
ارتفعت عنهم المؤن / جملة في الفلح، مع كثرته وعومته، فصار ذلك سبباً لرخص
الأقوات ببلدكم. والله مقدر الليل والنهار.

13 • فصلٌ، في قصور أهل البادية عن سُكنى المِصرِ الكثيرِ العُمرانِ

والتَّبَبُّ في ذلك؛ أنَّ المِصرَ الكثيرَ^(أ) العُمرانِ يَكْثُرُ تَرْفُهُ، كما قَدَّمَنا، ويَكْثُرُ حاجاتُ ساكنيه من أَجْلِ التَّرَفِ. وتُعْناد تلك الحاجاتُ لما تدعو إليها فتتَقَلَّبُ ضروراتُ، وتَصيرُ الأَعمالُ فيه كُلُّها - مع ذلك - عَزِيزَةً والمرافِقُ غَالِيَةً بازْدحامِ [الأَعْرَاضِ]^(ب) عليها من أَجْلِ التَّرَفِ، وبالمُغَارِمِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي تَوْضَعُ على الأَسْوَاقِ 5 والبياعاتِ، وتُعْتَبَرُ في قيمِ المَبِيعَاتِ، ويُعْظَمُ فيها الغَلَاءُ في المرافقِ والأَقْواتِ والأَعْمَالِ، فتَكْثُرُ لذلك تَقَاتُ ساكنيه كَثَرَةً بِالغَةِ على نِسْبَةِ عُمُرَانِهِ. ويُعْظَمُ خَرْجُهُ، فيخْتَارُ، حينئِذٍ، إلى المَالِ الكَثِيرِ لِلتَّفَقُّهِ على شَبِهِهِ وعِيَالِهِ في ضَرُورَاتِ عَيْشِهِمْ وسائِرِ مُؤَمِّهِمْ.

والبَدْوِيُّ لم يَكُنْ دُخْلُهُ كَثِيرًا، إِذْ كَانَ ساكِنًا بِمَكَانٍ كاسِدِ الأَسْوَاقِ في الأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الكَسْبِ، فَلَمْ يَتَأَثَّلْ كَسْبًا وَلَا مَالًا، فَيَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ من أَجْلِ 10 ذلك سُكْنَى المِصرِ الكَبِيرِ، لأَجْلِ مَرافِقِهِ وَعِزَّةِ حاجاته. وهو في بَدْوِهِ يَسُدُّ خَلَّتَهُ بِأَقَلِّ الأَعْمَالِ، لأنَّهُ قَلِيلُ عَوَائِدِ التَّرَفِ في مَعاشِهِ وسائِرِ مُؤَمِّهِ، فلا يَضْطَرُّ إلى المَالِ. وَكُلُّ مَنْ يَتَشَوَّفُ إلى المِصرِ وسُكْنَاهُ من أَهْلِ البَادِيَةِ فَرَسْرِعًا ما يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَيُتَضَخَّعُ، إِلَّا من يَقْدَمُ مِنْهُمْ تَأْثِيلَ المَالِ وَيَحْضِلُ لَهُ مِنْهُ فَوْقَ الْحَاجَةِ، وَيَجْري إلى 15 الغَايَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِأَهْلِ العُمرانِ مِنَ الدَّعَةِ والتَّرَفِ. حينئِذٍ يَنْتَقِلُ إلى المِصرِ، وَيَتَنَظَّمُ حالُهُ مع أَحْوالِ أَهْلِهِ في عَوَائِدِهِمْ وَتَرْفِهِمْ. وهكذا شَأْنُ بَدَايَةِ [عُمرانِ]^(ج) الأَمْصَارِ. واللهُ ﴿يَكْمُلُ شَيْءٌ وَيُحِيطُ﴾ [سورة فصلت، من الآية 54].

(أ) ج: الكبير (ب) من ي. وفي ط ع ج: الأعراض (ج) من ع ج ي، وسقطت من ط.

14 • فصل، في أن الأقطار في اختلاف أحوالها بالرّفه والفقير مثل الأمصار

اغْلَمْ أَنَّ مَا تَوَفَّرَ عُمرَانِهِ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَتَعَدَّدَتِ الْأُمَمُ فِي بَهَانِهِ، وَكَثُرَ سَاكِنُهُ،
انْتَسَعَتْ أحوالُ أَهْلِهِ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ وَأَمْصَارُهُمْ، وَغَطُمَتْ [ذُولُهُمْ] ⁽¹⁾ / وَمَالُكُهُمْ. [252ب]

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ، وَمَا سَبَّأَتْ ذِكْرَهُ مِنْ أَنَّهَا
5 سَبَبٌ لِلثَّرْوَةِ، بِمَا يُفْضَلُ عَنْهَا بَعْدَ الْوَفَاءِ بِالضَّرُورِيَّاتِ فِي حَاجَاتِ السَّاكِنِ مِنَ الْفَضْلَةِ
الظَّاهِرَةِ ^(ب) الْبَالِغَةِ عَلَى مِقْدَارِ الْغُفْرَانِ وَكَثْرَتِهِ. فَيَعُودُ عَلَى النَّاسِ كَسْبًا يَتَأَثَّلُونَهُ،
حَسْبَمَا تَذَكَّرُ ذَلِكَ فِي فَضْلِ الْمَعَاشِ وَبَيَانِ التَّرْزُقِ وَالْكَسْبِ. فَيَتَزَيَّدُ الرَّفْهُ لِهَذَا،
وَتَنْسُجُ الْأَحْوَالُ، وَيَجِيءُ التَّرَفُّ وَالْغِنَى، وَتَكْثُرُ الْجَبَابِيَةُ لِلدَّوْلَةِ بِتَفَاقِ الْأَسْوَاقِ؛ فَيَكْثُرُ
مَالُهَا، وَيَتَشَمَّخُ سُلْطَانُهَا، وَتَتَفَقَّنُ فِي اتِّخَاذِ الْمَعَاقِلِ وَالْحِصُونِ وَاخْطِطَاطِ الْمُدُنِ وَتَشْيِيدِ
10 الْأَمْصَارِ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَقْطَارِ الْمَشْرِقِ، مِثْلَ بَصْرَ، وَالشَّامِ، وَعِرَاقِ الْعَجَمِ، وَالْهِنْدِ،
وَالصِّينِ، وَنَاحِيَةِ الشَّامِ كُلِّهَا وَأَقْطَارِهَا وَرَاءَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، لَمَّا كَثُرَ عُمرَانُهَا كَيْفَ كَثُرَ
الْمَالُ فِيهِمْ وَغَطُمَتْ ذُولُهُمْ، وَتَعَدَّدَتْ مُدُنُهُمْ وَحَوَاضِرُهُمْ، وَغَطُمَتْ مَتَاجِرُهُمْ
وَأَحْوَالُهُمْ. فَالَّذِي نَشَاهِدُهُ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ أَحْوَالِ تِجَارَةِ الْأُمَمِ التَّضَرَّاتِيَّةِ، الْوَارِدِينَ عَلَى
15 الْمُسْلِمِينَ بِالْمَغْرِبِ، فِي رَفْهِهِمْ وَاتِّسَاعِ أَحْوَالِهِمْ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحِيطَ بِهِ الْوُضُفُ. وَكَذَا
تِجَارَةُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَمَا يَتَلَفَّنَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ؛ وَأَبْلَغُ مِنْهَا أَحْوَالُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ الْأَفْصَى،

(1) من ي، وفي بقية النسخ: دولتهم (ب) من ط وحدها.

من عراق العَجَم، والهند، والصين، فإنه يَبْلُغنا عنهم في بابِ الغنى والرِّفَةِ أحوالٌ غرائبٌ تَسِيرُ [الركاب]⁽¹⁾ بِحَدِيثِهَا. وَزُيِّمَتْ تَتَلَقَّى بِالْإِنْكَارِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ، وَيَحْسَبُ من يَسْتَفْهَمُ من العَامَّةِ أَنَّ ذلكَ لِرِيَازَةِ في أَمْوَالِهِمْ، أو لِأَنَّ المَعَادِنَ الدَّهَبِيَّةَ وَالْفِضِّيَّةَ أَكْثَرُ بِأَرْضِهِمْ، أو لِأَنَّ ذَهَبَ الْأَقْدَمِينَ من الْأُمَمِ اسْتَأْثَرُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ. * وليس كذلك*^(ب)؛ فَمَعْدِنُ الذَّهَبِ الَّذِي نَعْرِفُهُ في هَذِهِ الْأَفْطَارِ إِنَّمَا هُوَ بِلَادُ السُّودَانِ، 5 وهي إلى المَغْرِبِ أَقْرَبُ. وَجَمِيعُ مَا في أَرْضِهِمْ من الْبِضَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَحْمِلُونَهُ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ لِلتَّجَارَةِ. فَلَوْ كَانَ الْمَالُ عَتِيداً مَوْفُوراً لَدَيْهِمْ لَمَا جَلَبُوا بِضَاعَهُمْ إِلَى سِوَاهُمْ يَتَتَعَوْنَ بِهَا الْأَمْوَالَ، / وَلَا اسْتَفْتَوْا عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْجُمْلَةِ.

ولقد ذهب المتجمون لنا رأوا مثل ذلك، واستغفروا ما في المشرق من كثرة الأحوال واتساعها، ووفور أموالها، فقالوا: إن عطايا الكواكب والسهم في مواليد 10 أهل المشرق أكثر منها حصصاً في مواليد أهل المغرب. وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الأحكام النجومية والأحوال الأرضية، كما قلناه. وهم إنما أعطوا في ذلك السبب النجمي، وبقي عليهم أن يعطوا السبب الأرضي، وهو ما ذكرناه من كثرة الغمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره. وكثرة الغمران تزيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه؛ فلذلك اختص المشرق بالرِّفَةِ من بين الآفاق، لا أن ذلك 15 لجُودِ الأثر النجمي. فقد فهمت مما أشرنا لك أولاً أنه لا يستعمل بذلك، وإن المطابقة بين حكمه وغمران الأرض وطبيعتها أمر لا يتد منه.

(1) من ع ج ح ي وسط من ظ (ب) سقط من ي .

واغْتَبِرَ حَالَهُ هَذَا الرَّفْهُ مِنَ الْعُمَرَانِ فِي فُطْرِ إِفْرِيقِيَّةٍ وَبَرْقَةٍ، لَمَّا خَفَّ سَاكِنُهَا وَتَنَاقَضَ عُمَرَانُهَا، كَيْفَ تَلَاشَتْ أَحْوَالُ أَهْلِهَا وَانْتَهَوْا إِلَى الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ، وَضَعُفَتْ جَبَايَاهُ، فَقَلَّتْ أَمْوَالُ دَوْلِهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَوْلُ الشَّيْعَةِ وَصْنَهَاجَةٍ بِهَا عَلَى مَا بَلَغَتْ، مِنَ الرَّفْهِ وَكَثْرَةِ الْجَبَايَا وَاتِّسَاعِ الْأَحْوَالِ فِي تَقَاتِيهِمْ وَأَعْطِيَانِهِمْ . حَتَّى لَقَدْ كَانَتْ الْأَمْوَالُ تُرْفَعُ مِنَ الْقَبْرَوَانِ إِلَى صَاحِبِ مَضَرٍ فِي غَالِبِ الْأَوْقَاتِ لِحَاجَتِهِ وَمُهِمَّاتِهِ. وَكَانَتْ أَمْوَالُ النَّوْلَةِ بِحَيْثُ حَمَلَ جَوْهَرُ الْكَاتِبِ فِي سَفَرِهِ إِلَى فَتْحِ مَضَرٍ أَلْفَ جُلٍّ مِنَ الْمَالِ، فَيَسْتَعِيدُهَا^(١) لِأَرْزَاقِ الْجُنُودِ وَأَعْطِيَانِهِمْ وَتَقَاتِ الْغَزَاةِ.

وَقُطِرَ الْمَغْرِبَ، وَإِنْ كَانَ فِي الْقَدِيمِ دُونَ إِفْرِيقِيَّةٍ، فَلَمْ يَكُنْ بِالْقَلِيلِ فِي ذَلِكَ، وَكَانَتْ أَحْوَالُهُ فِي دَوْلِ الْمُؤَخِّدِينَ مُتَّسِعَةً وَجَبَايَاةُ مَوْفُورَةً. وَهُوَ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ أَقْصَرَ 10 عَنْ ذَلِكَ لِقُصُورِ الْعُمَرَانِ فِيهِ ، وَتَنَاقُصِهِ ؛ فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ عُمَرَانِ الْبَرْقِ فِيهِ أَكْثَرُهُ، وَنَقَصَ عَنْ مَعْهُودِهِ شَخْصاً ظَاهِراً مَخْصُوساً ، / وَكَاذَ أَنْ يَلْحَقَ فِي أَحْوَالِهِ بِمَثَلِ أَحْوَالِ [253ب] إِفْرِيقِيَّةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ عُمَرَانُهُ مُتَّصِلاً مِنَ الْبَحْرِ الزَّوْجِيِّ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ، فِي طَوْلِ مَا بَيْنَ السُّوَيْسِ الْأَقْصَى وَبَرْقَةٍ. وَهِيَ الْيَوْمَ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا قِفَارٌ وَخِلَافٌ وَصَحَارَى، إِلَّا مَا هُوَ مِنْهَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ ، أَوْ مَا يَحَارِبُهُ مِنَ الثَّلُولِ . وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، 15 [وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ] (ب).

(١) كَذَا فِي: ط ج ي ، وَفِي ج: يَشْتَبِدُ بِهَا (ب) مِنْ: ع ج ي وَسَطَ مِنْ ط .

15 فصل، في تأكل العقار والضّيع في الأمصار، وحال فوائدها ومُستغلاتها

اعلم أن تأكل العقار والضّيع الكثيرة لأهل المدين والأمصار، لا يكون دُفعةً ولا في عصر واحد. إذ ليس يكون لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي يخرج فيها عن الحدّ، ولو بلغت أحوالهم في الرّفه ما عسى أن تبلغ. وإنّا يكون ملكهم لها وتأكلهم تدرجاً، إمّا بالوراثة من آبايّه وذوي رجه، حتّى تتأدّى أملاك 5 الكثيرين منهم إلى الواحد وأكثر لذلك. أو يكون بحواله الأشواق، فإنّ العقار⁽¹⁾ في أواخر الدّولة وأوّل الأخرى، عند فناء الحامية وخزق السّياج وتداعي المضّر إلى الخراب، تقلّ الغبطة به لِقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال، فتُرخص قيمها وتُملك بالأنّهان اليسيرة، وتتخطى بالميراث إلى ملك الآخر، وقد استنجد المصّر شبابّه باستيفحال الدّولة الثانية، واشتظمت له أحوال حسنة تحصل معها الغبطة في العقار 10 والضّيع لكثرة منافعها حينئذٍ، فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن في الأوّل. وهذا معنى الحواله فيها. ويضيق مالُكها من أغنى أهل المضر. وليس ذلك بسغيه واكتسابه، إذ قدرته تعجز عن مثل ذلك.

وأما فوائد العقار والضّيع، فهي غير كافية لمالكها في حاجات معاشه، إذ هي لا تقي بقوائد التّرف وأسبابه، وإنّا هي في الغالب لست الحلة وضرورة المعاش. 15 والذي سيمناه من مشيخة البلدان، أن القصد باقتناء الملك من العقار والضّيع، إمّا هو الحشيه على من يترك خلفه من الرّية الضّعاف، ليكون مزباهم به ويرزقهم فيه،

(1) ي: العتاد .

وَنُشَوُّهُمْ / بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب ؛ فإذا افتقدوا على تحصيل [254] المكاسب سَعَوْا فيها بأنفسهم، وربما يكون من الولد من يَقْجُرُ عن التَّكْسِبِ لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي، فيكون ذلك العقار قواماً لحاله. هذا قَصْدُ الْمُتَرَفِّينَ في اقتيناه. وأما التَّمَوُّلُ منه وإجراء أحوال المترفين فلا. وقد يَحْضُلُ ذلك منه للقليل أو النادر بَحْوَالَةِ الْأَسْوَاقِ، وَحُصُولِ الْكَثْرَةِ الْبَالِغَةِ منه والغالي⁽¹⁾ في جنسه وقيمته في المضر، إلا أن ذلك إذا خَصَلَ قُرْبًا امْتَدَّتْ إليه أَعْيُنُ الْأَمْراءِ والُولاءِ واغْتَصَبُوهُ في الغالب، أو أرادوه على بيعه منهم، ونالت أصحابه منه مضار ومعاطب. ﴿وَاللَّهُ عَالِمُ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21] .

16 • فصل، في حاجة المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة

وذلك أن الحضري إذا عَظُمَ تَمَوُّلُهُ، وَكَثُرَ [للعقار]^(ب) والضياح تألله، وأَصْبَحَ أَغْنَى أَهْلَ الْمَضَرِّ، وَزَمَقَتِ الْعَيُونُ بِذَلِكَ، وَانْفَسَحَتْ أحواله في الترف والغوايد، زاحم^(ج) عليها الْأَمْراءِ وَالْمُلُوكَ وَغَضُّوا بِهِ. ولما في طباع البشر من الغدوان، تَمَتَّدَ أَعْيُنُهُمْ إِلَى تَشَلُّكِ مَا بِيَدِهِ وَيُنَافِسُونَهُ فِيهِ، وَيَتَحَيَّلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مُمْكِنٍ، حَتَّى يَحْصُلُوهُ فِي رَيْقِهِ بِحُكْمِ سُلْطَانِي وَسَبَبٍ مِنَ الْمُواخَاذَةِ ظَاهِرٍ يُنْتَرَعُ بِهِ مَالُهُ . وَأَكْثَرُ الْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ جَائِزَةٌ فِي الْغَالِبِ، إِذِ الْعَدْلُ الْمَحْضُ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخِلَافَةِ الشَّرْعِيَّةِ،

(1) ج: الضغالي (ب) من ج، وفي ي: للناد، وفي ظ: العقار (ج) ع: تراخم .

وهي قَلِيلَةُ اللَّبَثِ. قال عليه السلام⁽¹⁾: "الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يَعُودُ مُلْكًا عَصُوصًا".

فَلَا بُدَّ حِينَئِذٍ لِصَاحِبِ الْمَالِ وَالثَّرَةِ الشَّهِيرَةِ فِي الْغُرَانِ مِنْ حَامِيَةٍ تَنُودُ عَنْهُ، وَجَاؤُهُ يَنْسَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ لِلْمَلِكِ، أَوْ خَالِصَةٍ لَهُ، أَوْ غَضَبِيَّةٍ يَتَحَامَاهَا السُّلْطَانُ⁽²⁾، فَيَسْتَبْطِلُ هُوَ بَطْلَاهَا، وَيَرْتَعِ فِي أَمْنِهَا مِنْ طَوَارِقِ التَّعَدِّي. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ 5 لَهُ ذَلِكَ، أَصْبَحَ نَهْبًا يُوْجُوهُ التَّخَيُّلاتُ وَأَشْيَابُ الْحُكْمِ. ﴿وَاللَّهُ بِحُكْمِكُمْ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية 41].

17 فصل، في أَنَّ الْحَصَارَةَ فِي الْأَمْصَارِ مِنْ قَبْلِ الدَّوْلِ، وَأَنَّهَا تَرْسَخُ بِاتِّصَالِ الدَّوْلَةِ وَمَرْسُوحِهَا [254 ب]

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ أَحْوَالٌ عَادِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ مِنْ 10 أَحْوَالِ الْغُرَانِ زِيَادَةً تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوُتِ الرَّفْعِ، وَتَقَاوَتْ [الْأَمَم] ^(ب) فِي الْقِلَّةِ وَالكَثْرَةِ تَقَاوُتًا غَيْرَ مُنْخَصِرٍ. وَيَقَعُ فِيهَا عِنْدَ كَثْرَةِ الثَّقَنِ فِي أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الصَّنَائِعِ، وَتَحْتَاجُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا إِلَى الْقَوْمَةِ عَلَيْهِ الْمَهَرَّةُ فِيهِ. وَيَقْدَرُ مَا يَتَمَيَّزُ مِنْ

(1) ي ج: للسلطان (ب) ط: الأمر.

(1) أخرجه أحمد في مسنده 5: 220، وفي فضائل الصحابة له (789) و (1027)، وابن أبي عاصم في السنة (1181)، وأبو داود (4647)، والنسائي في سننه الكبرى (8155) وابن حبان في صحيحه (6943)، والحاكم في المستدرک 3: 71، وغيرهم.

أضناها يَتَزَيَّدُ أَهْلُ صِنَاعَتِهَا، وَيَتَلَوَّنُ ذَلِكَ الْجَيْلُ بِهَا. وَمَتَى انْتَصَلَّتِ الْأَيَّامُ وَتَعَاقَبَتْ
تِلْكَ الصَّبَغَاتُ، حَذَقَ أُولَئِكَ الصَّنَاعَ فِي صِنَاعَتِهِمْ وَمَهَرُوا فِي مَغْرِفَتِهَا. وَالْأَغْصَارُ
بَطُولُهَا وَانْتِسَاحُ أَمْدِهَا وَتَكَرُّرُ أَمْثَالِهَا تَزِيدُهَا اسْتِحْكَامًا وَرُسُوخًا.

وَكَثُرَ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَغْصَارِ، لِاسْتِيفَةِ الْعُصْرَانِ وَكَثْرَةِ الرُّفْهِ فِي أَهْلِهَا.
5 وَذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا يَجِيءُ مِنْ قَبْلِ الدَّوْلَةِ^(أ)، لِأَنَّ الدَّوْلَةَ تَجْمَعُ أَمْوَالَ الرِّعِيَةِ وَتُفْقِئُهَا فِي
بَطَانَتِهَا وَرِجَالِهَا، وَتُسَّعُ أَخْوَالُهَا بِالْجَاهِ أَكْثَرَ مِنْ اتِّسَاعِهَا بِالْمَالِ، فَيَكُونُ دَخْلُ
[تِلْكَ]^(ب) الْأَمْوَالِ مِنَ الرِّعَايَا وَخَزَائِمِهَا فِي أَهْلِ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ فِيمَنْ تَعَلَّقَ بِهِمْ فِي أَهْلِ
الْمِصْرِ، وَهُمْ الْأَكْثَرُ، فَتَغْظُمُ لِنَاكِ تَرْوِئِهِمْ وَيَكْثُرُ غِنَاؤُهُمْ، وَتَزِيدُ عَوَائِدُ الثَّرَفِ وَمَزَاهِيهِ
وَتَسْتَحْكَمُ لَدَيْهِمُ الصَّنَائِعُ فِي سَائِرِ قُنُونِهِ. وَهَذِهِ هِيَ الْحِصَارَةُ.

10 وَلِهَذَا [نَجِدُ]^(ج) الْأَمْصَارَ الَّتِي فِي الْقَاصِيَةِ، وَلَوْ كَانَتْ مَوْفُورَةً الْعُصْرَانِ، فَتَغْلِبُ
عَلَيْهَا أَحْوَالُ الْبِدَاوَةِ، وَتَبْعُدُ عَنِ الْحِصَارَةِ فِي جَمِيعِ مَذَاهِبِهَا، بِخِلَافِ الْمُدُنِ الْمَتَوَسِّطَةِ
فِي الْأَفْطَارِ الَّتِي هِيَ مَرْكَزُ الدَّوْلَةِ وَمَقَرُّهَا. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمُجَاوَرَةِ السُّلْطَانِ لَهُمْ وَفَيْضِ
أَمْوَالِهِ فِيهِمْ، كَلِمَاءُ يَخْضَرُ مَا قَرَّبَ مِنْهُ، فَمَا قَرَّبَ مِنَ الْأَرْضِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى
الْجَنُوفِ عَلَى الْبُعْدِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ السُّلْطَانَ وَالدَّوْلَةَ سَوَقَ لِلْعَالَمِ، فَالْبَضَائِعُ كُلُّهَا
15 مَوْجُودَةٌ فِي السَّوْقِ وَمَا قَرَّبَ مِنْهُ، وَإِذَا بُعِدَتْ عَنِ السَّوْقِ افْتَقِدَتْ الْبَضَائِعُ جَمْلَةً.
ثُمَّ إِنَّهُ إِذَا انْتَصَلَّتْ تِلْكَ الدَّوْلَةُ وَتَعَاقَبَ مَلُوكُهَا فِي ذَلِكَ الْمِصْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ،
اسْتَحْكَمَتِ الْحِصَارَةُ فِيهِمْ وَزَادَتْ رُسُوخًا.

(أ) ع: الدَّوْلَةُ (ب) ط: ذلك (ج) ط: نجد.

واعتبر ذلك في اليهود/ لما طال ملكهم بالشام نحواً من ألف وأربعمائة سنة،

رسخت حضارتهم وخذقوا في أحوال المعاش وعوائده والتفنن في صناعته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل، حتى أنها لتؤخذ عنهم في الغالب إلى اليوم. ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في الشام منهم ومن دول الروم بقدوم ستمائة سنة، فكانوا في غاية الحضارة.

5

وكذلك أيضاً القبط، دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين، فرسخت عوائد الحضارة في بلادهم مصر، وأغلبهم بها ملك اليونانيين والروم، ثم ملك الإسلام الناسخ للكل، فلم تنزل عوائد الحضارة بها متصلة.

وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة باليمن، لاتصال دولة الغرب بها منذ عهد الفالقة والتبابعة آلافاً من السنين، وأغلبهم ملك مصر.

10

وكذا الحضارة بالعراق، لاتصال دولة التبت والفرس بها من لدن الكلدانيين والكيانية والكسروية والعرب بقدوم آلافاً من السنين. فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر.

وكذلك أيضاً رسخت عوائد الحضارة بالأندلس، لاتصال الدولة العظيمة فيها للقوط، ثم ما أعقبها من ملك بني أمية آلافاً من السنين. وكلا⁽¹⁾ الدولتين عظيم، فاتصلت فيها عوائد الحضارة واشتخكت.

15

(1) كذا في الأصول، ولعل الأصوب: وكلتا الدولتين عظيمة.

وأما إفريقية والمغرب، فلم يكن فيها قبل الإسلام مُلك ضخم، إنما قُطع [الزوم]^(١) والإفريقية إلى إفريقية البحر وملكوها السَّاحِل. وكانت طاعة الزَّيْرِ أَهْلُ الصَّاحِبَةِ لَهُمْ طَاعَةٌ غَيْرُ مُسْتَحْكَمَةٍ، فَكَانُوا عَلَى قُلْعَةٍ وَأَوْفَارٍ. وَأَهْلُ الْمَغْرِبِ لَمْ تَجَاوِزْهُمْ دَوْلَةً، وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَعَثُّونَ بِطَاعَتِهِمْ إِلَى [القوط]^(ب) مِنْ وَرَاءَ الْبَحْرِ. وَلَمَّا جَاءَ 5 اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَمَلَكَ الْعَرَبُ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ، لَمْ يَلْبَثْ^(ج) فِيهِمْ مُلْكُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلًا أَوَّلَ الْإِسْلَامِ، وَكَانُوا لَذَلِكَ الْعَهْدِ فِي طَوْرِ الْبِدَاوَةِ، وَمِنْ اسْتَقَرَّ مِنْهُمْ بِإِفْرِيقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ لَمْ يَجِدْ بَيْنَهُمَا مِنَ الْحَضَارَةِ مَا يُقَالُ فِيهِ مَنْ سَلَفَهُ، إِذْ كَانُوا بَرَابِرَ مُنْعَمَسِينَ فِي الْبِدَاوَةِ ثُمَّ انْتَقَضَ بَرَابِرُهُ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى لِأَقْرَبِ الْعُهْدِ عَلَى يَدِ مَيْسَرَةَ / الْمُطْغَيْرِي^(د) [255] أَيَّامَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُرَاجِعُوا أَمْرَ الْعَرَبِ بَعْدَ، وَاسْتَقْبَلُوا بِأَمْرِ أَنْشِيهِمْ، وَإِنْ 10 بَانِعُوا لِإِدْرِيسَ، فَلَا تُعَدُّ دَوْلَتُهُ فِيهِمْ عَرَبِيَّةً، لِأَنَّ الْبَرَابِرَةَ هُمُ الَّذِينَ تَوَلَّوْهَا، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَرَبِ فِيهَا كَبِيرٌ عَدَدٌ.

وَبَقِيََتْ إِفْرِيقِيَّةٌ لِلْأَغَالِيَةِ وَمِنْ إِيْنِهِمُ مِنَ الْعَرَبِ، فَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْحَضَارَةِ بَعْضُ الشَّيْءِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ عَرَفِ الْمُلْكِ وَنَعِيهِ وَكَثَرَةِ عُمَرَانَ الْقَيْرَوَانِ. وَوَرِثَ ذَلِكَ عَنْهُمْ كُنَامَةً، ثُمَّ صِنَاهَا مِنْ بَعْدِهِمْ. وَذَلِكَ كُلُّهُ قَلِيلٌ، لَمْ يَبْلُغْ أَرْبَعَمِائَةَ سَنَةٍ؛ 15 وَانْصَرَمَتْ دَوْلَتُهُمْ، وَاسْتَحَالَتْ صِبْغَةُ الْحَضَارَةِ بِمَا كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَحْكَمَةٍ. وَتَغَلَّبَ بَنُو الْعَرَبِ الْهَلَالِيِّينَ عَلَيْهَا وَخَرَّبُوهَا. وَبَقِيَ أَثَرُ خَفِيِّ مِنَ حَضَارَةِ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَإِلَى هَذَا الْعَهْدِ يُؤَسَّسُ فِيهِ سَلَفُ لَهُ بِالْقُلْعَةِ أَوْ الْقَيْرَوَانِ أَوْ الْمَهْدِيَّةِ سَلَفٌ، فَتَجَدُّ لَهُ مِنْ

(١) من حاشية ع وحدها (ب) كانت في ع "الفيط" وعنها قلت طحج، واستبدلت بالقوط في ع ي (ج) في ج: ببيت، غير مجمعة (د) زمت في الأصول بطاء منقوطة في جوهها، لتقرأ بين المال والطاء .

أُخُوَال^(١) الحَضَارَةِ فِي شُؤُونِ مَنْزِلِهِ وَعَوَائِدِ أَخُوَالِهِ آثَاراً مُلْتَبِسَةً بِغَيْرِهَا، يُعَيِّرُهَا
الْحَضَرِيُّ الْبَصِيرُ بِهَا. وَكَذَا فِي أَكْثَرِ أَمْصَارِ إِفْرِيقِيَّةٍ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْمَغْرِبِ
وَأَمْصَارِهِ، لِتَرْسُوحِ الدَّوْلَةِ بِإِفْرِيقِيَّةٍ أَكْثَرَ أَمْدًا مِنْذَ عَهْدِ الْأَغَالِبَةِ وَالشَّيْفَةِ وَصَهْبَاجَةِ.
وَأَمَّا الْمَغْرِبُ، فَانْتَقَلَ إِلَيْهِ مِنْذُ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ حَظٌّ [كَبِيرًا]^(ب)

- 5 مِنَ الْحَضَارَةِ، وَاسْتَحْكَمَتْ بِهِ عَوَائِدُهَا بِمَا كَانَ لِنُؤَلَّتِهِمْ مِنَ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى بِلَادِ
الْأَنْدَلُسِ، وَانْتَقَلَ الْكَثِيرُ مِنْ أَهْلِهَا إِلَيْهِمْ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَكَانَتْ مِنْ اتِّسَاعِ التَّطَاقِ مَا
عَلِمَتْ، فَكَانَ فِيهَا حَظٌّ صَالِحٌ مِنَ الْحَضَارَةِ وَاسْتِحْكَمَاهَا، وَمُعْظَمُهَا مِنْ أَهْلِ
الْأَنْدَلُسِ. ثُمَّ انْتَقَلَ أَهْلُ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ جَالِيَةِ التَّصَارِي إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ؛ فَأَبْقَوْا بِهَا
وَبِأَمْصَارِهَا مِنَ الْحَضَارَةِ آثَاراً، وَمُعْظَمُهَا بِتُونُسَ، امْتَزَجَتْ بِحَضَارَةِ مِصْرَ وَمَا يَنْتَقِلُهُ
10 الْمُسَافِرُونَ مِنْ عَوَائِدِهَا. [فَكَانَ]^(ج) بِذَلِكَ لِلْمَغْرِبِ وَإِفْرِيقِيَّةٍ حَظٌّ مِنَ الْحَضَارَةِ صَالِحٌ
غَفِيَ عَلَيْهِ الْخَلَاءُ وَرَجَعَ عَلَى أَغْقَابِهِ. وَعَادَ الْبَزِيرُ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَذْيَانِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ
وَالْحُشُونَةِ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَأَثَرُ الْحَضَارَةِ بِإِفْرِيقِيَّةٍ أَكْثَرَ مِنْهَا بِالْمَغْرِبِ وَأَمْصَارِهِ، لَمَّا
تَدَاوَلَ فِيهَا مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَلَقَرَبَ عَوَائِدِهِمْ مِنْ عَوَائِدِ أَهْلِ
مِصْرَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرَدِّدِينَ بَيْنَهُمْ. فَتَقَطَّنَ / لِهَذَا السِّرِّ، فَإِنَّهُ خَفِيَ عَنِ النَّاسِ.

- 15 وَاعْلَمْ أَنَّهَا أُمُورٌ مُتَنَاسِبَةٌ، وَهِيَ حَالُ الدَّوْلَةِ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، وَكَثْرَةِ الْأُمَّةِ
أَوْ الْحِيلِ، وَعِظَمُ الْمَدِينَةِ أَوْ الْبُحْرِ، وَكَثْرَةُ التَّعَمُّةِ وَالْيَسَارِ. وَذَلِكَ أَنَّ الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ
صُورَةُ الْخَلِيقَةِ وَالْعُمْرَانَ. وَكُلُّهَا مَادَّةٌ لَهُ، مِنَ الرِّعَايَا وَالْأَمْصَارِ وَسَائِرِ الْأَخْوَالِ.

(١) سَقَطَ مِنْ ي (ب) سَقَطَ مِنْ ظ (ج) فِي الْأَصُولِ: فَكَانَتْ.

وأموالُ الجبائية عائدةٌ عليهم، ويسارُهم في الغالبِ من أُنواقهم ومتاجرهم. وإذا أفاضَ السلطانُ عطاءَهُ وأمواله في أهلها انبثَّت فيهم ورجعتْ إليه، ثمَّ إنَّهم منه. فهي ذاهبةٌ عنهم في الجبائية والخراج ، عائدةٌ عليهم في العطاء. فعلى نسبةِ مالِ التَّوَلَّى يكون يسارُ الرعايا ، وعلى نسبةِ يسار الرعايا أيضاً وكثرتهم يكون مالُ التَّوَلَّى. وأصلُهُ كُلُّهُ الغنران وكثرتُهُ. 5

فاغْتَبِرْهُ وتأمله في التَّوَلَّى تجذده. والله يحكم، لا مُعَقَّبَ لحكمه.

18 • فصل، في أنَّ الحضارةَ غايةٌ للعُمرانِ ونهايةُ العُمُرِ، وأنها مُؤدِّنةٌ بفساده

قد بيَّنا لك فيما سَلَفَ، أنَّ الملَّكَ والتَّوَلَّى⁽¹⁾ غايةٌ للعصبية، وأنَّ الحضارةَ غايةٌ للبداءة، وأنَّ العُمرانَ كُلُّهُ من بداءةٍ وحضارةٍ وملَّكٍ وسوقَةٍ له عُمرٌ مَحْسُوسٌ، كما أنَّ للشَّخْصَ الواحدَ من أَشْخاصِ المَكُوناتِ عُمرًا مَحْسُوسًا. وتبيَّنَ في المَقُولِ 10 والمتَّوَلَّى أنَّ الأَربعينَ للإنسانِ غايةٌ في تَرايُدِ قُواه وتُمُوها، وأتتْ إذا بلغَ سِنَ الأَربعينَ وَقَفَّتِ الطَّبيعَةُ عن أَثرِ التَّشْوِيعِ والتَّموُّ بَرَهَةً، ثمَّ تأخُّدُ بعد ذلك في الانحِطاطِ. فلتَعْلَمْ أنَّ الحضارةَ في العُمرانِ أيضاً كذلك، لأنَّه غايةٌ لا مَزيدَ وراءها.

وذلك أنَّ التَّرفَ والتَّعَمُّةَ إذا حَصَلَ لأهلِ العُمرانِ ، دعاهم بطلُّبعه إلى 15 مذاهبِ الحضارةِ والتَّخَلُّقِ بعوائدها . والحضارةُ، كما عُلِّفَتْ ، هي التَّفَنُّ في التَّرفِ

(1) ح: التَّوَلَّى .

واستجادة أحواله، والكلف بالضائع التي تُؤْتَى^(أ) من أضافه وسائر فنونه، كالصنائع
 المهينة للطايع أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية، وكسائر أحوال المنزل.
 وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة، لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنيق
 فيها. وإذا بلغ التأنيق / في هذه الأحوال المنزلية الغاية، تبعه طاعة الشهوات، فتتلو^[256ب]
 النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولا دُنْيَاهَا. أما
 دُنْيَاهَا، فلاستحكام صبغة العوائد التي يفسر نزْعُهَا. وأما دُنْيَاهَا، فليكثر الحاجات
 والمؤونات التي تطالب بها العوائد، ويتميز الكسب عن الوفاء بها.

• (ب) وَيَأْنَهُ أَنَّ الْبَصْرَ بِالتَّفَنُّنِ فِي الْحَضَارَةِ تَعَظُمَ تَفَقَّاتُ أَهْلِهَا. وَالْحَضَارَةُ
 تَتَفَاوَتْ بِتَفَاوَتِ الْغُفْرَانِ. فَتَمَّ كَانَ الْغُفْرَانُ أَكْثَرَ، كَانَتِ الْحَضَارَةُ أَكْمَلَ. وَقَدْ كُنَّا
 قَدْ مَنَّا أَنَّ الْبَصْرَ الْكَثِيرَ الْغُفْرَانِ، يَخْتَصُّ بِالْقَلَاءِ فِي أَشْوَاقِهِ وَأَسْعَارِ حَاجَاتِهِ، ثُمَّ
 تَزِيدُهَا الْمَكُوسُ غَلَاءً، لِأَنَّ كَمَالَ الْحَضَارَةِ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ نَهَايَةِ الدُّوَلَةِ فِي اسْتِفْحَالِهَا،
 وَهُوَ زَمَنُ وَضْعِ الْمَكُوسِ فِي الدُّوَلِ لِكَثْرَةِ خَرْجِهَا حِينَئِذٍ، كَمَا تَقْدَمُ. وَالْمَكُوسُ تَعَوُّدُ
 عَلَى الْبِيعَاتِ بِالْغَلَاءِ، لِأَنَّ السُّوقَةَ وَالتَّجَارَ كُلَّهُمْ يَحْتَسِبُونَ عَلَى سِلْعِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ
 بِجَمِيعِ مَا يَنْفَقُونَهُ، حَتَّى إِنْ^(ج) مَوْرَثَةٌ أَتَشَبَّهُهُمْ. فَيَكُونُ الْمَكْسُ لِنَاكِحٍ دَاخِلًا فِي قِيَمِ
 الْمَبِيعَاتِ وَأَثَانِهَا، فَتَعَظُمُ تَفَقَّاتُ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ وَتَخْرُجُ عَنِ الْقَصْدِ إِلَى الْإِسْرَافِ. وَلَا
 يَجِدُونَ وَلِجَّةً عَنِ ذَلِكَ لَمَّا مَلَكَهُمْ مِنْ أَسْرِ الْعَوَائِدِ وَطَاعَتِهَا، وَتَذْهَبُ مَكَابِسُهُمْ كُلُّهَا
 فِي التَّفَقَّاتِ، وَتَبْتَاعُونَ فِي الْإِمْلَاقِ وَالْخِصَاصَةِ، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْفَقْرُ، وَيَقْلُ

(أ) ي: التي هي توتق (ب) بداية ما هو مكتوب في ع بمحله على طيارة، وشمله في ج (ج) سقطت من ط وحدها.

المُستامون للبضائع، فتكسُدُ الأسواقي وتُسُدُّ حالُ المدينة. وداعيُّه ذلك كله إفراطُ الحضارة والتَّرف، وهذه مَفْسِدَتُها في المدينة على العموم في الأسواق والغمران.

وأما فسادُ أهلها في ذواتهم واجداً واجداً على الخصوص، فمن الكدِّ والتعب في حاجات العوائد، والتلوُّن بألوان الشرِّ في تحصيلها^(١)، وما يعودُ على النفس من الضرر بعد تحصيلها بمُحصول لَوْنٍ آخَرَ من ألوانها. فلذلك يكثرُ منهم الفسوقُ والشرُّ والسُّفْسَفَةُ والتَّحِيلُ على تحصيل المعاش من وَخْعة ومن غير وَخْعة. وتُصرفُ النفسُ إلى الفكر في ذلك والقوص عليه، واستِجْماع الحيلة له. فتجدُّهم أجرياء على الكذب والمقامرة والغشِّ والحلافة والسرقة / والشُّجور في الأيمان والزُّبا في البياعات. [١٢٥٧] ^(ب) ثم تجدُّهم لكثرة الشهوات [والملاذ]^(ج) الناشئة عن التَّرف، أبصر^(ب) بطرق

10 الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه، وأطراح الحِشْمة في الخوض فيه، حتَّى بين الأقارب وذوي المحارم الذين تشنّضي البذاءة الحياء منهم في الإقذاع بذلك. وتجدُّهم أيضاً أبصرَ بالمكر والحديعة، يذفَعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقَّعونه من العقاب على تلك القبايح، حتَّى يصير ذلك عادةً وخلقاً لأكثرهم إلّا مَنْ عَصَمَهُ الله. ويَمُوجُ بحُرِّ المدينة بالسفيلة من أهل الخلق الدِّمية، وبُجاريهم فيها كثير من ناشئة البؤلة وليلانهم ممن أهمل عن التأديب، * وأهمَلتْه البؤلة من عِدادِها^(د).

15 وغلب عليه خلقُ الجوار والصَّحابة^(هـ)، وإن كانوا أهل أنساب وأبوات. وذلك أن الناس بشرٌ مُتماثلون، وإنَّما تفاضلوا وتَفَرَّزوا^(و) بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب

(١) نهاية ما هو مكتوب في ع بخطه على طيارة، ونقلته ظي ج (ب) سقط ما بين النجيين من ي (ج) من ع، وسقط من ط (د) سقط ما بين النجيين من ي (هـ) ج: والصحاب، وسقط من ي (و) ع: وتمازوا.

الزَّذَائِلَ، فَمِنْ اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ صِنْعَةُ الرِّذِيلَةِ بَأَيِّ وَجْهِ كَانَ، [و^(أ)] فَسَدَتْ خُلُقُ
 الْحَيْرِ فِيهِ، لَمْ يَنْفَعَهُ زَكَاءُ نَسَبِهِ وَلَا طَيْبُ مُنْتَبِهِ. وَلِهَذَا تَجِدُ كَثِيرًا مِنْ أَغْثَابِ الْبُيُوتِ
 وَذَوِي الْأَخْسَابِ وَالْأَصَالَةِ وَأَهْلِ التَّوَلِّ، مَطْرَحِينَ فِي الْغِيَارِ، مُنْتَجِلِينَ لِلْجَرَفِ الدَّيْتَةِ
 فِي مَعَاشِهِمْ بِمَا فَسَدَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَمَا تَلَوَّنُوا بِهِ مِنْ صِنْعَةِ الشَّرِّ وَالشُّفُسَةِ. وَإِذَا كَثُرَ
 ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ الْأَمَةِ، تَأَذَّنَ اللَّهُ بِخَرَابِهَا وَاقْتَرَضَهَا. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى (ب):
 5 ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا مَعْرُوفًا فَفَسَدُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا
 تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآية 16]. وَوَجْهُهُ أَنَّ مَكَاسِبَهُمْ حِينَئِذٍ لَا تَقِي بِحَاجَتِهِمْ لَكَثْرَةِ
 الْعَوَائِدِ وَمُطَالَبَةِ النَّفْسِ بِهَا، فَلَا تَسْتَقِيمُ أَسْوَالُهُمْ. وَإِذَا فَسَدَتْ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ
 وَاحِدًا وَاحِدًا اخْتَلَّتْ نِظَامُ الْمَدِينَةِ وَخَرِبَتْ. وَهَذَا مَعْنَى مَا يَقُولُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْخَوَاصِ:
 10 إِنَّ الْمَدِينَةَ إِذَا كَثُرَ فِيهَا غَرَسُ التَّارِيخِ تَأَذَّنَتْ بِالْخَرَابِ، حَتَّى أَنْ كَثُرَ مِنَ الْعَاقَةِ
 يَتَحَامَى (ج) غَرَسُ التَّارِيخِ بِالْأُورِ، [تَطْيُرًا بِهِ^(د)]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَلِكَ، وَلَا أَنَّهُ طَيْرَةٌ^(هـ)
 فِي التَّارِيخِ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْبَسَاتِينَ وَإِجْرَاءَ الْمِيَاهِ هُوَ مِنْ تَوَابِعِ الْحَضَارَةِ. ثُمَّ إِنَّ التَّارِيخِ
 / وَاللَّيْمَ وَالسَّرَوَ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ تَمَّا لَا طَعْمَ فِيهِ وَلَا مَنْفَعَةَ، هُوَ مِنْ غَايَاتِ الْحَضَارَةِ، إِذْ
 15 لَا يَقْصِدُ بِهَا فِي الْبَسَاتِينَ إِلَّا أَشْكَالَهَا فَقَطْ، وَلَا تُغْرَسُ إِلَّا بَعْدَ الثَّقْنِ فِي مَذَاهِبِ
 التَّرَفِّ. وَهَذَا هُوَ الطَّوَرُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ هَلَاكُ الْمَضَرِّ وَخَرَابُهُ، كَمَا قُلْنَا. وَلَقَدْ قِيلَ
 مِثْلُ ذَلِكَ فِي الدُّفْلَى، وَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، إِذِ الدُّفْلَى لَا يَقْصِدُ بِهَا إِلَّا تَلَوُّنُ الْبَسَاتِينَ
 بِتَوَرُّهَا، مَا بَيْنَ أَحْمَرٍ وَأَبْيَضَ، وَهُوَ مِنْ مَذَاهِبِ التَّرَفِّ.

(أ) سقط المطف من ظ (ب) سقط من ح (ج) ي: ح، يجافى (د) من حاشية ع، وسقط من ظ ي ح (هـ) من ع
 بد شطب كلمة: خاصة، التي نقلها ط.

ومن مفساد الحضارة أيضاً: الانهالك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف. فيقع الثفنن في شهوات البطن من المأكول وملأذها، * والمشارب وطيبها*⁽¹⁾. ويتبع ذلك الثفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط. فيفضي ذلك إلى فساد النوع، إما بواسطة اختلاط الأنساب، كما في الزنا، فيجهل كل أحد ابنه 5 إذ هو لغير رشدة، ولأن المياه مختلطة في الأرحام. فتفقّد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم، فيهلكون، ويؤدي ذلك إلى انقطاع النوع. أو يكون فساد النوع بغير واسطة، كما في اللواط المؤذي إلى عدم النسل رأساً، وهو أشد في فساد النوع، إذ هو يؤدي إلى أن لا يوجد النوع، والزنا يؤدي إلى عدم ما يوجد منه. ولذلك كان مذهب مالك، رحمه الله، في اللواط أظهر من مذهب غيره، وذلك 10 على أنه أبصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح.

فافهم ذلك واعتبر به أن غاية الغفران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهزم، كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول: إن الخلق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك. والحضري 15 لا يقدر على مباشرة حاجاته، إنما يجزأ بما حصل له من الدعة، أو ترفعاً لما حصل من المرنى في التعم والترف، وكلا الأمرين ذمّم. وكذلك لا يقدر على دفع المضار بما فقد من خلق البأس بالترف والمرنى في قهر التأديب والتعليم، فهو / لذلك عيال [258]

(1) سقط ما بين النجمين من ي ج .

على الحامية التي تُدافع عنه. ثم هو فاسدٌ أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعنها، وما تلوّثت به النفس من مَلَكاتها، كما قرّرناه، إلّا في الأقلّ النادر. وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته، وصار مسخاً على الحقيقة. وهذا الاعتبار، كان الذين يتقربون من جُنْدِ السُلطان إلى البداوة والحشونة أنفع من الذين يُرَبُّون على الحضارة وحُلُقها. وهذا موجودٌ في كلِّ دَوْلَةٍ. فقد 5 تبين أن الحضارة بين الوقوف لغمر العالم من الغمران والأدول. ﴿اللَّهُ أَلْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ (سورة الزمر، من الآية 4، وسورة يوسف، من الآية 39، وسورة ص، من الآية 65).

19 ﴿فَصَلِّ﴾⁽¹⁾، في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرّبُ بخرابِ الدولة وانتقاضها

قد استقرّينا في الغمران أن الدولة إذا انتقضت واختلت، فإن المضر الذي 10 يكون كُرسياً لسلطانها ينتقض عمرانه. وزمنا ينتهي في انتقاضه إلى الخراب، ولا يكاذ ذلك يتخلف.

والسبب فيه أمور:

الأول: أن الدولة لا بدّ في أولها من البداوة المُتَضَيِّة لِلتَّجَافِي عن أموال 15 التَّاسِ والبُعْدِ عن التَّحْدَلِ. ويدعو ذلك إلى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة

(1) أضاف المؤلف هذا الفصل كله بحقه في مسوده ع، وشفط عنها بقية الأصول.

التولة، فتقلّ التفقأت، ويضُرّ الترف. فإذا صار المضِرّ الذي كان كُرسياً للملك في مَلَكَة هذه التولة المتجددة ونُصّت أحوالُ الترف فيها، نُصّ الترف فيمن نَحَت أُنديها من أهل المضِر، لأنّ الرعايا تَبَعُ للتولة. فيرجعون إلى خُلُقِ التولة إِمّا طَوْعاً بما في طِباعِ البشر من تقليد مَثْبوعهم، أو كَرْهاً بما تدعو إليه خُلُقِ التولة من الانقباض عن الترف في جميع الأحوال، وقلة القوائد التي هي مادة العوائد، فتضُر 5 لذلك حضارة المضِر، ويذهب منه كثير من عوائد الترف. وهو معنى ما نقوله من خراب المضِر.

الأمر الثاني: أن التولة إِمّا يحصل لها الملك والاستيلاء بالقلب، وإِمّا يكون بُد العداوة والحروب. والعداوة تُنْضِي مُنافاةً بَيْنَ أَهْلِ الدُولَتَيْنِ، ونَكِيرَ 10 إحداها على الأخرى / في العوائد والأحوال. وغلب أحد المنافين يذهب بالمنافي [258ب] الآخر. فتكون أحوالُ التولة السابقة مُنْكَرَةً عند أَهْلِ الدولة الجديدة ومُسْتَنْتَقَةً وقبيحة، وخصوصاً أحوالُ الترف. فتتقد في عِزِّهم بنكير التولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف تكون عنها حضارة مُسْتَنْتَقَةً، وفيما بين ذلك قُصور الحضارة الأولى ونقصها، وهو معنى اختلال الغمران في المضِر.

الأمر الثالث: أن كل أمة لا بُدَّ لهم من وَطَنٍ هُوَ مَنْشُؤُهُم ومنه أولية مُلكهم. 15 وإذا ملكوا وطناً آخر صار تبعاً للأول، وأمناءه تابعة لأمنصار الأول، واتسع نطاق الملك عليهم. ولا بُدَّ من تَوْسِطِ الكُرسِيِّ بَيْنَ نُحُومِ الممالك التي للتولة، لأنه شِبْهُ المَركَبِ للطاق. فيبعد مكانه عن مكان الكُرسِيِّ الأول، وتهوي أُنْفِيدة الناس

إليه من أجل الدولة والسلطان. فَيَنْتَقِلُ إليه الغمران وَيَحْتَفُّ من مِصْر الكُرْسِيِّ الأول. والحضارة إِنَّمَا هي بُوْفور الغمران، كما قَدَمْنَاهُ، فَتَنْقُصُ حضارته وَتَمُدُّهُ، وهو مَعْنَى اخْتِلَالِهِ. وهذا كما وَقَعَ لِلشُّلُجَوِيَّةِ في عُدُولهم بِكُرْسِيَّهم عن بَغْدَاد إلى أَضْبَهَانَ، وَلِلْعَرَبِ قَبْلَهُم في العُدُول عن المَدَائِن إلى الكوفة والبصرة، وَلِبَنِي الْعَبَّاسِ في العُدُول عن ⁽¹⁾ دِمَشْق إلى بَغْدَاد ، وَلِبَنِي مَرِّينَ بِالْمَغْرِبِ في العُدُول عن مَرَّاكُش 5 إلى فاس . وبِالْجُمْلَةِ ، فَاتَّخَذَ الدَّوْلَةُ الْكُرْسِيُّ في مِصْر يُخْلَلُ بِغَمْرَانِ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ.

الأمر الرابع: أَنَّ الدَّوْلَةَ الْمُتَجَدِّدَةَ إِذَا غَلَبَتْ عَلَى الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ، لَا يَبْدُ فِيهَا من تَتَبَعَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ وَأَشْيَاعُهَا بِتَخْوِيلِهِمْ إِلَى قُطْرٍ آخَرَ يُؤْمَنُ فِيهِ غَايَتُهُمْ عَلَى الدَّوْلَةِ. وَأَكْثَرُ أَهْلِ الْمِصْرِ الْكُرْسِيِّ أَشْيَاعٌ لِلدَّوْلَةِ، إِنَّمَا من الْحَامِيَّةِ الَّذِينَ تَزَلُّوا بِهِ أَوَّلُ الدَّوْلَةِ، أَوْ من أَغْيَابِ الْمِصْرِ، لِأَنَّ لَهُم في الْغَالِبِ مُخَالَطَةً لِلدَّوْلَةِ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ وَتَنَوُّعِ 10 أَصْنَافِهِمْ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ نَاشِئٌ فِي الدَّوْلَةِ. فَهَم شِيعَةٌ لَهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا لِلشُّوْكَةِ وَالْعَصْبِيَّةِ ، فَهَم بِالْمَيْلِ وَالْحُبَّةِ وَالْعَقِيدَةِ . وَطَبِيعَةُ الدَّوْلَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ مَخُوْ أَثَارُ الدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ، فَتَنْقُلُهُمْ / من مِصْر الْكُرْسِيِّ إِلَى وَطَنِهَا الْمُسْتَمْكِنِ ^(ب) فِي مَلِكْتِهَا . فَتَغْضُضُهُمْ عَلَى تَوْنِ الثَّغْرِيبِ وَالْحَبْسِ، وَتَغْضُ عَلَى تَوْنِ الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ ، بِحَيْثُ لَا يُوَدِّي إِلَى التَّقَرُّرِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي مِصْر الْكُرْسِيِّ إِلَّا الْبَاعَةُ وَالْهَمْلُ من أَهْلِ الْقُلُوحِ، وَالْعَبَّارَةُ 15 وَسَوَادُ الْعَامَةِ. وَتَثْرِلُ مَكَانَهُمْ من حَامِيَّتِهَا وَأَشْيَاعِهَا مِنْ تُسَدُّ بِهِ الْمِصْرَ. وَإِذَا ذَهَبَ من الْمِصْرِ أَعْيَانُهُ ^(ج) عَلَى طَبَقَاتِهِمْ نَقَصَ سَاكِنُهُ، وَهُوَ مَعْنَى اخْتِلَالِ عُمْرَانِهِ. ثُمَّ لَا يَبْدُ لَهُ

(1) ي: من (ب) في طاع، وفي ج: ي: المكنن (ج): ي: اعيانهم .

أن يَسْتَجِدَّ عُمْرَاناً آخَرَ فِي ظِلِّ التَّوَلَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَتَحْصُلُ فِيهِ حَضَارَةٌ أُخْرَى عَلَى قَدْرِ التَّوَلَّةِ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَمْلِكُ بَيْتاً دَاخِلَهُ الْبِلَى، وَالكَثِيرُ مِنْ أَوْضَاعِهِ فِي بَيُوتِهِ وَمَرَافِقِهِ لَا تُوَافِقُ مُقْتَرَحَهُ، وَلَهُ قُدْرَةٌ عَلَى تَغْيِيرِ تِلْكَ الْأَوْضَاعِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا عَلَى مَا يَحْتَاجُزُهُ وَيَقْتَرَحُهُ، فَيَحْزَبُ ذَلِكَ الْبَيْتَ، ثُمَّ يُعِيدُ بِنَاءَهُ ثَانِياً. وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي هِيَ كِرَاسِيٌّ لِلْمَلِكِ، وَشَاهِدُنَا وَعِلْمُنَا. وَاللَّهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ 5 وَالنَّهَارِ.

وَالسَّبَبُ الطَّبِيعِيُّ الْأَوَّلُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْجُمْلَةِ، أَنَّ التَّوَلَّةَ وَالْمَلِكَ لِلْغُفْرَانِ بِمَثَابَةِ الصُّورَةِ لِلْمَادَّةِ، وَهُوَ الشَّكْلُ الْحَافِظُ بِنَوْعِهِ لَوْجُودِهَا، وَقَدْ قَرَّرَ فِي غُلُومِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ انْشِكَاكَ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ. فَالتَّوَلَّةُ دُونَ الْغُفْرَانِ لَا يَتَصَوَّرُ، وَالْغُفْرَانُ 10 دُونَ التَّوَلَّةِ وَالْمَلِكِ مُتَعَدِّرٌ، بِمَا فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مِنَ التَّعَاوُنِ النَّاعِي إِلَى الْوَارِعِ. فَتَتَعَيَّنُ السِّيَاسَةُ لِنَظَرِ الْمَلِكِ، إِنَّمَا الشَّرْعِيَّةُ أَوْ الْمَلِكِيَّةُ، وَهُوَ مَعْنَى التَّوَلَّةِ. وَإِذَا كَانَا لَا يَتَفَكَّانَ، فَاجْتِلَالُ أَحَدِهِمَا مُؤَيِّدٌ فِي اجْتِلَالِ الْآخَرِ، كَمَا كَانَ عَدَمُهُ مُؤَثِّراً فِي عَدَمِهِ. وَالْحَلَّلُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ خَلَلِ التَّوَلَّةِ الْكُلِّيَّةِ، مِثْلُ ذَوَلَةِ الْفَرَسِ، أَوْ التُّرُومِ، أَوْ الْعَرَبِ عَلَى الْعُمُومِ، أَوْ بَنِي أُمَيَّةٍ أَوْ بَنِي عَبَّاسٍ كَذَلِكَ. وَأَمَّا الذَّوَلُ الشَّخْصِيَّةُ، مِثْلُ دَوْلَةِ 15 أَلُوْشُرُوَانٍ أَوْ هَزَقَلٍ أَوْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَوْ الرَّشِيدِ، فَأَشْخَاصُهَا مُتَعَاقِبَةٌ عَلَى الْغُفْرَانِ، حَافِظَةٌ لَوْجُودِهِ وَبَقَايِهِ، وَقَرِيبَةٌ الشَّبَهِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَلَا تُؤَثِّرُ كَبِيرُ اخْتِلَالٍ؛ لِأَنَّ الدَّوْلَةَ بِالْحَقِيقَةِ / الْفَاعِلَةَ فِي مَادَّةِ الْغُفْرَانِ، إِنَّمَا هِيَ لِلْعَصْبِيَّةِ وَالشُّوْكَةِ، [259ب] وَهِيَ مُسْتَمِرَّةٌ مَعَ أَشْخَاصِ الدَّوَلِ، فَإِذَا ذَهَبَتْ تِلْكَ الْعَصْبِيَّةُ وَدَفَعْنَا عَصْبِيَّةً أُخْرَى مُؤَثِّرَةً فِي الْغُفْرَانِ فَأَذْهَبَتْ أَهْلُ الشُّوْكَةِ بِأَجْمَعِهِمْ، غَطَمَ الْخَلَلُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا.

وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ ﴿٢٠﴾ إِنَّ يَشَاءُ يَذْهَبَكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢١﴾ [سورة إبراهيم، الآيات 19، 20].

20 • فصلٌ، في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل المضر يستدعي بعضها بغضاً لما في طبيعة الغفران من التعاون . وما يستدعي من الأعمال يختص ببغض أهل المضر ،
 فيقومون عليه، ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه
 ورزقهم منه، لعموم البلوى به في المضر والحاجة إليه. وما لا يستدعي في المضر
 يكون غفلاً، إذ لا فائدة لنتجته في الاختراف به. وما يستدعي من ذلك لضرورة
 المعاش فيوجد في كل مضرٍ، كالخياط والحذاد والتجار وأمثالها. وما يستدعي لغوائد
 الترف وأحواله، فإنما يوجد في المدن المستبشرة في العمارة، الآخذة في عوائد الترف
 والحضارة، مثل: الزجاج، والصانع، والدهان، والطباخ، والصقار، والشفاخ، والهزاس،
 والدباج، وأمثال هذه. وهي متفاوتة. ويقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي
 أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع، فيوجد لذلك المضر دون غيره. ومن هذا
 الباب الحمامات ، لأنها إنما توجد في الأمصار المستخضرة المستبشرة الغفران ، لما
 يدعو إليه الترف والغنى من التثنع. ولذلك لا تكون في المدن المتوسطة، وإن نزع
 بعض الملوك والرؤساء إليه فيحفظها ويجري أحوالها. إلا أنها إذا لم تكن لها داعية
 من كافة الناس، فسرعان ما تهجر وتخرب، ويفر عنها القوم لقلّة فائدتهم ومعاشهم
 منها. ﴿ وَاللَّهُ يَقِصُّ وَيَبْصُطُ ﴾ [سورة البقرة، من الآية 245].

21 / فصل، في وجود العصبية في الأمصار وتقلب بعضهم على بعض [260]

من البين أنَّ الأليحام والاتصال موجود في طباع البشر، وإن لم يكونوا أهل نسب واحد. إلا أنه، كما قدمناه، أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به العصبية بعضاً مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثير منهم ملتحجون بالصهر، 5 يجذب بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لهما لهما قرابة. وتجد بينهم من الصداقة والغداوة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله، فيفترون شيعاً وعصائب. فإذا نزل الهرم بالدولة وتخلص الملك عن القاصية، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم، ورجعوا إلى السورى وتميز العلية عن السفلة. والتفوس بطباعها متطاول إلى القلب والرياسة، فتطمح المشيخة - لخلاء الجو من السلطان 10 والدولة القاهرة - إلى الاستيلاء، ويأزعج كل صاحبه. ويستوصلون بالأنباع من الموالي والشيع والأخلاف، ويتذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوشاب، فيغصوب كل بصاحبه، ويتعن القلب لبغضهم، فيغطف على أكنافه لينقض من أعينهم، ويتكبرهم بالقتل أو التعريب، حتى يخضع منهم الشوكات الثافذة، ويقلم الأقطار الحادشة، ويستبد بمصره أجمع، ويرى أنه قد استخذت ملكاً يورثه عقبه. فيحدث في ذلك 15 الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم⁽¹⁾ من غوارض الحدة والهرم. وربما يئسوا بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعظم، أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزخرف والحروب والأقطار والممالك؛ فينتحلون من الجلوس على السرير، واتخاذ

(1) ج: الأكبر.

الآلة، وإعداد المراكب للسفر في أفطار البلد، والتختم، والتحية والخطاب بالتهويل، ما ينحصر منه من يشاهد أحوالهم، لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل. إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة، والتهام بغض القربان حتى صارت عصبية. وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذاهب السداجة فراراً من التفريط / بنفسه [للسخرية]⁽¹⁾ والغبث.

5

[260ب]

وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد، من طرابلس وقابس وتوزر وقطنة وقفصة وبسكرة والزاب وما إلى ذلك، سموا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين. فاستغلبوا على أمصارهم، واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام واللباية، وأعطوا طاعة مغروفة وصفقة [مُرضة]^(ب)، وأقطعوها جانياً من الملائنة والملاطفة والانتقاد، وهم بمغزل عنه .
10 وأورثوا ذلك أغقابهم لهذا العهد. وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأغقاب الملوك وخلفهم، وتظلموا أنفسهم في عداد السلاطين، على قرب عهدهم بالسوقية.

وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية، واستغل بأمصاير الجريد أهلها، واستبدوا على الدولة، حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين ومليكهم، عند
15 المؤمن بن علي، وتلقاهم كلهم من إمارتهم بها * إلى المغرب *^(ج)، ومحا من تلك البلاد آثارهم، كما نذكر في أخباره.

(1) في ج ي ظ السخراء، وليس بصحيح (ب) في ظ: مروضه (ج) سقط ما بين النجيين من ي .

وكذلك وقع بسببته لآخر ذولة بني عبد المؤمن.

وهذا الثقلُ يكون غالباً في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيحة والرياسة في المضر. وقد يحدث الثقل لبغض السفلة من الدهاء والغوغاء إذا حصلت له العضيّة والالتحام بالأوغاد لأسباب يجزّرها له المقدار ، فيغلب على المشيحة والعلية إذا كانوا فاقدين للعصابة. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [سورة يوسف، 5 من الآية 21].

22 • فصل، في لغات أهل الأمصار

اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة [أو] ^(أ) الجيل الغالين عليها أو ^(ب) المختطين لها. ولذلك ^(ج) كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربيّة ، وإن كان اللسان العربيّ المضريّ قد فسدت ملكته ، وتغيّر إغرائه.

والتسبب في ذلك ما وقع للذولة الإسلامية من الغلب على الأمم . والدّين والملة صورة للوجود وللملك، وكلّها موادّ له. والصورة مُقدّمة / على المادة، والدّين [261] إنّما يُستفاد من الشريعة ، وهي بلسان العرب ؛ لما أنّ النبي ﷺ عربيّ . فوجب هجر ما سوى اللسان العربيّ من الألسن في جميع ممالكها . واعتبر ذلك في نهج

(أ) في ظ: والجيل (ب) في ظ: و (ج) في ي: وكذلك.

عُمَر - رضي الله عنه - عن زطانة الأعاجم، وقال: إنها خَبٌّ. يعني: مَكْرٌ وخديعة⁽¹⁾. فلَمَّا هَجَرَ الدِّينُ اللُّغَاتِ الأَعْجَمِيَّةَ، وكان لسانُ القائلين بالثَّوَلَةِ الإسلامية غَرِيباً، هُجِرَتْ كُلُّهَا في جميع مَمَالِكِهَا، لأنَّ النَّاسَ تَبَعَ لِلسُّلْطَانِ وعلى دينه؛ فصار استِعمالُ اللِّسانِ العربيِّ من شَعَائِرِ الإسلامِ وطاعةِ العَرَبِ، وهَجَرَ الأُمَمُ لُغَاتِهِمِ وَاللَّيْسَنَتَهُمِ في جميع الأَمْصَارِ والمَمَالِكِ، وصار اللِّسانُ العربيُّ لسانَهُمْ حَتَّى رَسَخَ ذَلِكَ 5 لُغَةً في جميع أَمْصَارِهِمْ ومُدُنِهِمْ، وصارت الأَلْسُنُ [الأَعْجَمِيَّة]⁽²⁾ دَخِيلَةً فِيهَا وَغَرِيبَةً. ثُمَّ فَسَدَ اللِّسانُ العربيُّ بِمَخَالَطَتِهَا في بَغْضِ أَخْكَامِهِ وَتَغْيِيرِ أَوَاجِرِهِ، وإن كان بَقِيَ في الدَّلالاتِ على أَصْلِهِ. وَسُمِّيَ لِسَاناً حَضَرِيّاً في جميع أَمْصَارِ الإسلامِ.

وأيضاً، فَاتَّكَرَ الأَمْصَارُ في المِلَّةِ لهذا العَهْدِ من أَغْصَابِ العَرَبِ، المَالِكِينَ لَهَا، الهَالِكِينَ في تَرْفِهَا، بِمَا كَثُرُوا العَجَمَ الَّذِينَ كانوا بِهَا، وَوَرِثُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ. 10 وَاللُّغَاتُ مُتَوَارِثَةٌ، فَتَبَيَّتْ لُغَةُ الأَغْصَابِ على حِيَالِ لُغَةِ الآبَاءِ، وإن فَسَدَتْ أَحْكَامُهَا بِمَخَالَطَةِ الأَعْجَامِ شَيْئاً شَيْئاً، وَسُمِّيَتْ لُغَتُهُمْ حَضَرِيَّةً، مَنْسُوبَةً إلى أَهْلِ الحَوَاضِرِ والأَمْصَارِ، بِخِلَافِ لُغَةِ البَدْوِ مِنَ العَرَبِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَعْرَقَ في العُرُوبِيَّةِ.

وَلَمَّا تَمَلَّكَ الفُجْمُ مِنَ الدِّينِ والسَّلْجُوقِيَّةِ بَعْدَهُمِ بِالمَشْرِقِ، وَزَنَاقَةُ وَالنَّزَرُ بِالمَغْرِبِ، وَصارَ لَهُمُ المُلْكُ والاستِيلاءُ على جَمِيعِ المَمَالِكِ الإسلامية، فَسَدَ اللِّسانُ 15 العربيُّ لَذلكَ، وَكَادَ يَذْهَبُ، لَوْ لَا ما حَفِظَهُ مِنْ عَنَايَةِ المُسْلِمِينَ بِالكُتُبِ والسُّنَنِ

(1) من ع ج ي، وفي ط: العجبة .

(2) المدونة 1: 63، المصتف لعبد الرزاق، حديث رقم (1609) والبيهقي في السنن الكبرى 9: 234 .

اللذين بهما حُفِظَ الدِّينُ. وصارَ ذلك مُزَجَّجاً لِبَقَاءِ اللُّغَةِ الحَضَرِيَّةِ بِالْأَمْصَارِ عَرَبِيَّةً. فلَمَّا مَلَكَ الطُّطَرُ والمُغُلُّ^(١) بِالمَشْرِقِ، ولم يَكُونُوا على دِينِ الإِسْلَامِ، ذَهَبَ ذلك المُرْجُحُ، وَفَسَدَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ على الإِطْلَاقِ، ولم يَبْقَ لَهَا رَسْمٌ في المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ، بِالعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ وَأَرْضِ الهِنْدِ / وَالسُّنْدِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَ^(ب) بِلَادِ^[261ب] الشَّامِ وَبِلَادِ الرُّومِ. وَذَهَبَتْ أَسَالِيْبُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنَ الشَّعْرِ وَالكَلَامِ، إِلَّا قَلِيلاً⁵ يَتَّبِعُ^(ج) تَعْلِيمَهُ صِنَاعِيّاً بِالقَوَائِنِ المُتَدَارِسَةِ مِنْ عُلُومِ العَرَبِ وَحِفْظِ كَلَامِهِمْ لِمَنْ يَسْرُهُ اللهُ لذلِكَ. وَرَبَّمَا بَقِيَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الحَضَرِيَّةُ بِمَصْرَ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ لِبَقَاءِ الدِّينِ طَالِباً لَهَا، فَانْحَفَظَتْ بَعْضُ^(د) الشَّيْءِ. وَأَمَّا فِي مَمَالِكِ العِرَاقِ وَمَا وَرَاءَهُ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ، حَتَّى أَنْ كُتِبَ العُلُومُ صَارَتْ تُكْتَبُ بِاللِّسَانِ العَجَمِيِّ، وَكَذَا¹⁰ تَدْرِيسُهُ فِي المَجَالِسِ. وَاللهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

(١) في ع: المغول (ب) في ط: من (ج) ي: مع (د) ي: بعض .

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

^(١) وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

الفصل الخامس * من الكتاب الأول * (ب)

(١) في ع ج: صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، وفي ي: ربنا آتينا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً
(ب) من ع، وسقط من ط ي ج.

في المعاشِ ووجوهه من الكسب والصنائع، وما يعرضُ في ذلك كله من
الأحوال. وفيه مسائل

❶ 1. فصلٌ، في حَقِيقَةِ الرِّزْقِ والكسب، وشرِّحهما. وَأَنَّ الكسبَ هو قِيَمَةُ
الأَعْمَالِ البَشَرِيَّةِ

- اعْلَمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُتَقَرِّبٌ بِالطَّعْنِ إِلَى مَا يَتَوَنَّهُ وَيَمُونُهُ فِي حَالَاتِهِ وَأَطْوَارِهِ، مِنْ
لَدُنْ نُشُوءِهِ إِلَى أَشَدِّهِ إِلَى ^(أ)كِبَرِهِ. ﴿وَاللَّهُ الْعَلِيُّ وَالْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [سورة محمد، من
الآية 38]. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ جَمِيعَ مَا فِي الْعَالَمِ لِلْإِنْسَانِ وَأَمَّنَّ بِهِ ^(ب)[عَلَيْهِ] فِي غَيْرِ مَا
آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿وَسَخَّرَ ^(ج)لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [سورة
الحجّاثية، من الآية 13]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [سورة إبراهيم، من الآية 33]،
و﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ [سورة الحجّاثية، من الآية 12]، و﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ [سورة
إبراهيم، من الآية 32]، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ ^(د)، وَكَثِيرٌ مِنْ شَوَاهِدِهِ. وَيَدُ الْإِنْسَانِ
مَبْسُوطَةٌ عَلَى الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ، بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْإِسْتِخْلَافِ؛ وَأَيْدِي الْبَشَرِ
مُنْثَبِرَةٌ، فَهِيَ مُشْتَرِكَةٌ فِي ذَلِكَ، وَمَا حَصَلَ عَلَيْهِ يَدَ هَذَا، افْتِنَعَ عَنِ الْآخَرِ إِلَّا بِعَوَضٍ.

(أ) في: ط ع (ب) من ع، وسقطت من ط ح ي (ج) في الأصول كلها بدأ الآية خطأ بقوله: خلق.

(د) يشير ويضمن معنى ما سخره الله للإنسان من الأنعام، ﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَغَرَضٌ﴾، [الأنعام،
من الآية 142]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف، من الآية 12].

فَالْإِنْسَانُ مَتَى اقْتَدَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَجَاوَزَ طَوْرَ الضَّعْفِ، سَعَى فِي اقْتِنَاءِ الْمَكَايِبِ لِيُنْفِقَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْهَا فِي تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ وَضُرُورَاتِهِ بِدَفْعِ الْأَغْوَاضِ عَنْهَا. قَالَ اللَّهُ ^(١) تَعَالَى : ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ [سورة العنكبوت ، من الآية 17].

5 وقد يُحْصَلُ لَهُ ذَلِكَ بِغَيْرِ سَعْيٍ، كَالْمَطَرِ الْمُضِلِّحِ لِلزَّرْعَةِ وَأَمْثَالِهِ. إِلَّا أَنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ مُعِينَةً، وَلَا يَبْدُ مِنْ سَعْيِهِ مَعَهَا كَمَا يَأْتِي. فَتَكُونُ لَهُ تِلْكَ الْمَكَايِبُ مَعَاشاً إِنْ كَانَتْ بِمَقْدَارِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ، وَرِيشاً وَمُتَمَوِّلاً إِنْ زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْحَاصِلَ أَوْ الْمُتَقَنَّى، إِنْ عَادَتْ مُنْفَعَتُهُ عَلَى الْعَبْدِ، وَحَصَلَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ مِنْ إِشْفَاقِهِ فِي مَصَالِحِهِ وَحَاجَاتِهِ، سُمِّيَ رِزْقاً. قَالَ ﷺ ^(٢) : "إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ". وَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِهِ 10 وَلَا حَاجَاتِهِ فَلَا يُسَمَّى رِزْقاً. وَالتَّمَلُّكُ مِنْهُ حِينَئِذٍ بِسَعْيِ الْعَبْدِ وَقُدْرَتِهِ يُسَمَّى كَسْباً. وَهَذَا مِثْلُ التَّرَاثِ، فَإِنَّهُ يُسَمَّى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْهَالِكِ كَسْباً وَلَا يُسَمَّى رِزْقاً، إِذْ لَمْ يُحْصَلْ لَهُ بِهِ مُنْتَفَعٌ. وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى الْوَارِثِينَ مَتَى انْتَفَعُوا بِهِ يُسَمَّى رِزْقاً.

هذا حَقِيقَةُ مُسَمَّى الرِّزْقِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ. / وَقَدْ اشْتَرَطَ الْمُعْتَزَلَةُ فِي تَسْمِيَّتِهِ [٢٦٣] رِزْقاً أَنْ يَكُونَ بَحِيْثٌ يَصْحُحُ تَمَلُّكُهُ. وَمَا لَا يُمْلِكُ عَنْدهُمْ فَلَا ^(ب) يُسَمَّى رِزْقاً. وَأَخْرَجُوا الْقُصُوبَاتِ وَالْحَرَامَ كُلَّهُ عَنْ أَنْ يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْهَا رِزْقاً. وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْزُقُ

(١) فِي ظ وَجَدَهَا (ب) ي: لَا .

(٢) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ السَّعْدِيِّ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُرْفَدِ رَقْم (٩٥٣).

الغاصب والظالم، والمؤمن والكافر، ويختص برحمته وهدايته من يشاء. ولم في ذلك حُجَجَ ليس هذا موضع بسطها.

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التخصيل. فلا بُدَّ في الرزق من سعي وعمل، ولو في تساوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [سورة العنكبوت، من الآية 17]. والسعي إليه إنما يكون 5 بأقدار الله تعالى وإلهامه، فالكسب من عند الله. فلا بُدَّ من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول. لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع، فظاهر، وإن كان مُقْتَنًى من الحيوان أو الثبات أو المفدى، فلا بُدَّ فيه من العمل الإنساني، كما نراه، وإلا لم يُحْضَل ولم يقع به انتفاع.

ثم إن الله سبحانه خلق الحجرين المدينتين⁽¹⁾ من الذهب والفضة قيمة لكل 10 متمول، وهي الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب. وإن اقتني سواها في بعض الأحيان، فإنما هو لقصد تحصيلها بما يقع في غيرها من حواله الأسواق التي هما عنها بمغزل، فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة.

وإذا تقرر هذا كله، فاعلم أننا نفيد الإنسان ويقتنيه من المتمولات، إن كان 15 من الصنائع، فالنقد المقتنى منه [هو]^(ب) قيمة عمله، وهو القصد بالقنية، إذ ليس هناك إلا العمل، وليس بمقصود^(ج) بنفسه للقنية. وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها، مثل التجارة والحياكة معها الحشَب والغزل، إلا أن العمل فيها أكثر، فقيمتُه

(1) في ع: ي المدينتين (ب) من ع وحدها (ج) ي: في نفسه.

أَكْثَرُ. وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ الصَّنَاعِ، فَلَا بُدَّ فِي قِيَمَةِ ذَلِكَ الْمُنَادِ وَالْقِيَمَةِ مِنْ دُخُولِ قِيَمَةِ الْعَمَلِ الَّذِي حَصَلَتْ [بِهِ] ^(أ)، إِذْ لَوْ لَا الْعَمَلُ لَمْ تَحْصُلْ قِيَمَتُهَا. وَقَدْ نَكُونُ مِلَاحِظَةً الْعَمَلِ ظَاهِرَةً فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا، فَتَجْعَلُ لَهُ حِصَّةً مِنَ الْقِيَمَةِ، عَظُمَتْ أَوْ صَغُرَتْ. وَقَدْ تَخَفَى مِلَاحِظَةُ الْعَمَلِ، كَمَا فِي أَشْعَارِ الْأَقْوَاتِ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ اعْتِبَارَ الْأَعْمَالِ وَالْمُنْتَغَاتِ فِيهَا مِلَاحِظَةٌ ^(ب) فِي أَشْعَارِ الْحُبُوبِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ، لَكِنَّهُ خَفِيَ فِي الْأَقْطَارِ الَّتِي عِلَاجُ الْفُلْحِ / فِيهَا وَمُؤَوَّثُهُ يَسِيرَةٌ، فَلَا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْ أَهْلِ الْقُلْحِ.

[263ب]

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُنَادَاتِ وَالْمُكْتَسِبَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا إِنَّمَا هِيَ قِيَمَةُ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَبَيَّنَ مَسْئَلَةُ الرِّزْقِ، وَأَنَّهُ الْمُنْتَفَعُ بِهِ. فَقَدْ بَانَ مَعْنَى الْكَسْبِ وَالرِّزْقِ وَشَرَحُ مُسَمَّاؤُهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا قَدِمَتِ الْأَعْمَالُ أَوْ قَلَّتْ بِانْتِظَافٍ ^(ج) الْعُمْرَانِ، تَأَذَّنَ اللَّهُ بِرَفْعِ الْكَسْبِ. أَلَا تَرَى إِلَى الْأُمُصَارِ الْقَلِيلَةِ السَّاكِنِ كَيْفَ يَقِلُّ الرِّزْقُ وَالْكَسْبُ فِيهَا، أَوْ يُفْقَدُ لِقَلَّةِ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَكَذَلِكَ الْأُمُصَارُ الَّتِي تَكُونُ أَعْمَالُهَا أَكْثَرُ، يَكُونُ أَهْلُهَا أَوْسَعَ أَحْوَالاً وَأَشَدَّ رِفَاهِيَّةً، كَمَا قَدَّمْنَاهُ قَبْلَ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ نَقُولُ الْعَامَّةُ فِي الْبِلَادِ ^(د) إِذَا تَنَاقَضَ عُمْرَانُهَا: قَدْ ذَهَبَ رِزْقُهَا. حَتَّى أَنَّ الْعُيُونَ وَالْأَنْهَارَ يَنْقَطِعُ جَزْئُهَا فِي الْفَقْرِ، لَمَّا أَنَّ قُوَّةَ الْعُيُونَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِنْبَاطِ وَالْإِمْتِرَاءِ الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ الْإِنْسَانِي، كَالْحَالِ فِي صُرُوعِ الْأَنْعَامِ، فَمَا لَمْ يَكُنْ إِمْتِرَاءً وَلَا إِنْبَاطٌ نَضَبَتْ وَغَارَتْ

(أ) سقط من ط (ب) ع: ملاحظة (ج) ي: بانتقاض (د) في ع: البلدان .

بالجملة، كما يَجِفُّ الصَّرْعُ إذا تَرَكَ امْتِزَاؤُهُ. وانظُرْهُ في البلاد الَّتِي تُعْهَدُ فيها العيونُ لأتَامَ عُمْرَانِهَا ثم يَأْتِي عليها الخرابُ، كَيْفَ تُغَوِّرُ مِيَاهُهَا جملةً كأنْ لم تُكُنْ. والله مُقَدِّرُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ.

2 • فَضْلٌ، فِي وَجْهِ الْمَعَاشِ وَأَصْنَافِهِ وَمَذَاهِبِهِ

اعْلَمْ أَنَّ الْمَعَاشَ هو عبارةٌ عن ابتغاء الرِّزْقِ والسَّعي في تحصيله. وهو مُفْعَلٌ 5 من العَيْشِ، كَأَنَّهُ لما كان العَيْشُ⁽¹⁾ الَّذِي هو الحَيَاةُ لَا يُحْصَلُ إِلَّا بِهِذِهِ، جُعِلَتْ مَوْضِعاً لَهُ على طريقِ الْمُبَالَغَةِ.

ثُمَّ إِنَّ تَحْصِيلَ الرِّزْقِ وَكُسْبَهُ، إمَّا أَنْ يَكُونَ بِأَخْذِهِ مِنْ يَدِ الْغَيْرِ وَانْتِزَاعِهِ بِالِاقتِدَارِ عَلَيْهِ على قانونِ مُتَعَارِفٍ، وَيُسَمَّى مَغْرَماً وَجِبَايَةً. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الْوَحْشِيِّ بِاقتِرَاسِهِ وَأَخْذِهِ بِرَفْيِهِ مِنَ الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ، وَيُسَمَّى اضْطِغَاداً. وَإِمَّا 10 أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحَيَوَانِ الدَّاجِنِ بِاسْتِخْرَاجِ قُضُولِهِ الْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ^(ب) النَّاسِ فِي مَنَافِعِهِمْ، كَاللَّبَنِ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَالْحَرِيرِ مِنْ دَوْدِهِ، وَالْعَسَلِ مِنْ نَحْلِهِ. أَوْ يَكُونَ مِنَ الثَّبَاتِ فِي الرِّزْقِ وَالشَّجَرِ بِالْقِيَامِ عَلَيْهِ وإِعْدَادِهِ لِاسْتِخْرَاجِ ثَمَرَتِهِ، [و] يُسَمَّى هَذَا كُلُّهُ فَلْحاً. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْكُسْبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ، إمَّا / فِي مَوَادِّ 1264

بَغْيَتِهَا، وَتُسَمَّى الصَّنَائِعُ، مِنْ كِتَابَةِ، وَنِجَارَةٍ، وَخِيَاطَةٍ، وَجِيَاكِيَّةٍ، وَفُرُوسِيَّةٍ، وَأَمثالِ 15 ذَلِكَ، أَوْ فِي مَوَادِّ غَيْرِ مَعْيُنَةٍ، وَهِيَ جَمِيعُ الْاِمْتِهَانَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ

(1) من ع، وسط من ط (ب) ع: من (ج) من: ح ي .

الكسْب من البضائع وإعدادها للأغراض، إمّا بالتَّكَلُّب بها في البلاد، أو اختِكاريها وإزْتِبابِ حَوَالَةِ الأسواقِ فيها، ويُسَمَّى هذا تجارةً.

فهذه ^(١) وجوهُ المعاشِ وأصنافه. وهي مَعْنَى ما ذَكَرَهُ الْمُخْتَقُونَ من أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ، كَالْحَرِيرِيِّ ^(٢) وَغَيْرِهِ. قالوا: المعاشُ: إمارةٌ، وَتِجَارَةٌ، وَفِلَاحَةٌ، وَصِنَاعَةٌ. 5 فأمَّا الإِمَارَةُ فَلَيْسَتْ بِمَذْهَبٍ طَبِيعِيِّ لِلْمَعَاشِ. فلا حاجةَ بنا إلى ذِكْرِهَا. وقد تَقَدَّمَ شَيْءٌ من أَحْوالِ الْجَبَايَا السُّلْطَانِيَّةِ وَأَهْلِهَا فِي الْفَضْلِ الثَّانِي.

وأما الْفِلَاحَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالتَّجَارَةُ، فَهِيَ وَجُوهٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْمَعَاشِ. أمَّا الْفِلَاحَةُ فَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالذَّاتِ، إِذْ هِيَ بَسِيطَةٌ وَطَبِيعِيَّةٌ [وَفُطْرِيَّةٌ] ^(ب) لَا تَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ وَلَا إِلَى عِلْمٍ. وَلِهَذَا ^(ج) تُنْسَبُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَى آدَمَ، أَبِي الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ مُعَلِّمُهَا 10 وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا أَوَّلُ وَجُوهِ الْمَعَاشِ وَأَنْسَبُهَا إِلَى الطَّبِيعَةِ.

وَأَمَّا الصَّنَاعُ، فَهِيَ ثَانِيَتُهَا وَمَتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا، لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ وَعِلْمِيَّةٌ تُضَرَفُ فِيهَا الْأَفْكَارُ وَالْأَنْظَارُ. وَلِهَذَا لَا تَوْجَدُ غَالِبًا إِلَّا فِي أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِي هُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الْبَنُو وَثَانٍ عَنْهُ. وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى تُسَبِّتُ إِلَى إِدْرِيسَ، الْأَبِ الثَّانِي لِلْخَلِيقَةِ، فَإِنَّهُ مُسْتَنْصِلُهَا لَمَنْ يَتَّعِدُهُ مِنَ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) ج: هذه (ب) من ع وسقطت من ط ج ي (ج) ي: وإلى هنا (د) جاءت في الأصول الأربعة: أبو.

(١) ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الْمَقَامَةِ السَّاسِيَةِ (رَقْمُ 49) قَالَ: جَرَّبْتُ حَقَائِقَ الْأُمُورِ، وَتَلَوْتُ تَصَارِيفَ الدَّهُورِ، فَرَأَيْتُ الْمَرَّةَ بِنَشْبِهِ، لَا بِنَشْبِهِ، وَالْفَخْضَ عَنْ مَكْتَبِهِ، لَا عَنْ خَنْبِهِ، وَكُنْتُ سَمِعْتُ أَنَّ الْمَعَايِشَ: إِمَارَةً، وَتِجَارَةً، وَزِرَاعَةً، وَصِنَاعَةً. (المقامات 405 صادر - بيروت 1987)، شرح المقامات للشريشي 5: 326 (تحقيق أبو الفضل إبراهيم. القاهرة 1976).

وأما التجارة، وإن كانت طبيعية في الكسب، فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هي تحيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع، لتحصل فائدة الكسب من تلك الفصلة. ولذلك أباح الشرع فيه المكائسة لما أنه من باب المقامرة، إلا أنه ليس أخذاً للمال من الغير مجاناً. فلهذا اختص بالمشروعية. والله أعلم.

5

3 • فصل، في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي

أما السلطان، فلا بد له من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الإمارة والمملك الذي هو بسبيله، من الجندي والشرطي والكايب. وستكتفي في كل باب / بمن يعلم غناؤه فيه، ويتكفل بأزراقهم من ينبت ماله. وهذا كله مندرج في الإمارة ومعايشها، إذ كلهم يتسحب عليهم حكم الإمارة، والمملك الأعظم هو ينبوع جدولهم.

10

وأما ما دون ذلك من الخدمة، فسببها أن أكثر المترفين يرتفع عن مباشرة حاجاته، أو يكون عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التثعم والترف، فيتخذ من يتولى ذلك له، ويقطعه عليه أجراً من ماله. وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولة الطبيعية للإنسان؛ إذ الثقة بكل أحد عجز، ولأنها تزيد في الوظائف والخرج، وتدل على العجز والفتن الذي ينبغي في مذاهب الرجولة التزهد عنها. إلا أن العوائد [ثقيل] ⁽¹⁾ طبائع الإنسان إلى مألوفها. فهو ابن عوايده لا ابن نسيه.

15

(1) من ع، وفي ط ج ي: تلب.

ومع ذلك، فالقديم الذي يُستَكفى به ويُوثق بغناؤه كالمفقود. إذ القديم القائم بذلك لا يقدو أربَع حالات: إما مُضطلَع بأمره موثوق فيما يحصل بيده، وإما بالعكس فيها، وهو أن يكون غير مُضطلَع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده، وإما بالعكس في إحداهما فقط، مثل أن يكون مُضطلَعاً غير موثوق، أو موثوقاً غير مُضطلَع. فأما الأول، وهو المُضطلَع الموثوق، فلا يمكن أحداً استعماله بوجه، إذ 5 هو باضطلاعاً وثِقته غيبي عن أهل الرُتب الدنية، ومُختَصراً لِمَنال الأجر من الخدمة لافتقاره على أكثر من ذلك. فلا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا الأمراء أهل الجاه العريض، لغوم الحاجة إلى الجاه. وأما الصنف الثاني، وهو من ليس بمُضطلَع ولا موثوق، فلا ينبغي لعاقلي استعماله، لأنه مُجْهِفٌ بمخدومه في الأمرين معاً. فيُضَيِّعُ عليه بعدم الاضطلاع 10 تارة، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو كلٌّ على مَولاه. فهذان الصنفان لا يَتَلَمَّعُ أَحَدٌ في استيفائهما. ولم يَتَّقِ إِلَّا استعمال الصنفين الآخرين: موثوق غير مُضطلَع، ومُضطلَع غير موثوق. وللتاس في الترجيح بينهما مذهبان، ولكل من الترجيحين وجه. إِلَّا أن المُضطلَع ولو كان غير موثوق / أَرْجَحُ، لأنه يؤمن من تضييعه ومُحاوَلِ على التَّحَرُّزِ من خيائنه مُحمَّد الاستِطاعة. وأما المُضَيِّع ولو كان مأموناً، فضرزه بالتضييع أكثر من نفعه. فاعلم ذلك واتَّخِذْه قانوناً في الاستِكَفاء بالخدمة. والله قادر على ما 15 يَشاء.

[265]

4 • فصل، في أن إبتغاء الأموال من الدفائن والكُنُوز ليس بمعاشٍ طَبِيعِيٍّ

اعلم أن كثيراً من ضُعفاء العقول في الأمصار يَخْرُصُونَ على استِخْراج الأموال من تحت الأرض، يَنْتَعُونَ الكَسْبَ من ذلك، ويَتَقَدُّونَ أن أموال الأُمَمِ السَّالِفَةِ مُخْتَزَنَةٌ كُلُّهَا تحت الأرض، مَخْتُومٌ عليها بطَلاسمٍ سِغَرِيَّةٍ لا يَنْقُصُ خَتَامُهَا ذلك إلا من عَثَرَ على عِلْمِهِ⁽¹⁾، واستخضر ما يحُلُّه من البُخُور والدعاء والقُرْبان.

فأهلُ الأمصار بإفريقيَّة، يَرَوْنَ أن الإفرنجية الذين كانوا بها قَبْلَ الإسلام دَفَنُوا أموالهم كذلك، وأودعوها في الصُّخف بالكِتاب إلى أن يَجِدُوا السَّبِيلَ إلى استِخْراجها. وأهلُ الأمصار بالْمَشْرِقِ يَرَوْنَ مثلَ ذلك في أُمَمِ القِبْطِ والروم والفرس، ويتناقلون ذلك في أحاديثٍ تُشَبِّه حديثَ خُرَافَةٍ، من انتِهاء بعض الطَّالِبِينَ لذلك إلى حَفْرِ مَوْضِعِ المالِ ثم لم يُعْرِفْ طِلْسُفُهُ ولا خَبْرُهُ، فيجدونه جُلُوءاً أو مَغْمُوراً بالديدان، أو يُشارَفُ الأموالُ والجواهرُ مَوْضُوعَةً والحَرَسُ دونها مُنْتَضِيزٍ سَيُوقَفُهُمْ، أو تَمِيدُ به الأرضُ حَتَّى يَظُنَّه حَسَفاً، أو مثلَ ذلك من الهَدَرِ.

وتَجِدُ كثيراً من طلبة البرز بالمغرب، العاجزين عن المعاش الطَبِيعِيِّ وأَسْبَابِهِ، يَتَقَرَّبُونَ إلى أهلِ الدُّنْيَا بالأوراقِ الْمُتَخَرِّمَةِ الحَواشِي، إمَّا مَحْطُوطِ عَجْمِيَّةٍ، أو بما تُرْجِمُهُ بَرَعُهُمْ منها من حُطُوطِ أَهْلِ الدَّفَائِنِ، بإعْطاءِ الأَمَارَاتِ عَلَيْهَا في أَمَاكِيهَا، يَنْتَعُونَ بذلك الرِّزْقَ منهم، بما يَبْعَثُونَهُمْ على الحَفْرِ والطَّلَبِ، ويُمَوِّهُونَ عليهم بأنه إِنَّمَا حَمَلَهُمْ على الاستِيعَانَةِ بهم طَلَبُ الجاهِ في مثْلِ هذا من مَنَالِ الحُكَّامِ والعُقُوبَاتِ.

(1) ج: عمله .

ورُبَّمَا تَكُونُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَادِرَةً أَوْ غَيْبَةً مِنَ الْأَعْمَالِ السَّخِرَةِ يُؤْمَرُ بِهَا عَلَى تَضَدِّيقِ مَا بَقِيَ / مِنْ دَعْوَاهُ ، وَهُوَ بِمَغْزَلٍ عَنِ السَّخَرِ وَطُرُقِهِ ؛ فَيُؤَلِّغُ الْكَثِيرُ مِنْ ضَعْفَاءِ الْفَقُولِ يَجْمَعُ الْأَيْدِي عَلَى الْإِخْتِفَارِ ، وَالنَّسْتَرُ فِيهِ بِظُلُمَاتِ اللَّيْلِ مَخَافَةُ الرُّقَبَاءِ وَغَيُونِ أَهْلِ الدَّوْلِ ^(١) . فَإِذَا لَمْ يَنْثَرُوا عَلَى شَيْءٍ رَدُّوا ذَلِكَ إِلَى الْجَهْلِ بِالطَّلَسْمِ الَّذِي خُتِمَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَالِ ، يُخَادِعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إِخْفَاقِ مَطَامِعِهِمْ . 5

وَالَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ذَلِكَ فِي الْغَالِبِ ، زِيَادَةُ عَلَى ضَعْفِ الْعَقْلِ ، إِنَّمَا هُوَ الْعَجْزُ عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ بِالْوُجُوهِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلْكَسْبِ مِنَ التَّجَارَةِ ، وَالْفَلْحِ ، وَالصَّنَاعَةِ . فَيَنْطَلِبُونَهُ بِالْوُجُوهِ الْمُنْخَرِفَةِ ، وَعَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الطَّبِيعِيِّ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ ، عَجْزًا عَنْ السَّغْيِ فِي الْمَكَاسِبِ ، وَرُكُونًا إِلَى تَنَاوُلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ فِي تَحْصِيلِهِ وَاكْتِسَابِهِ . 10 وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُوقِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِتِّغَاءِ ذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ ، فِي نَصَبٍ وَمَتَاعِبٍ وَتُجْهِدٍ شَدِيدٍ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ - مَعَ ذَلِكَ - لِمَنَاكِ الْغَقُوبَاتِ .

وَرُبَّمَا يَحْمِلُ - فِي الْأَكْثَرِ - عَلَى ذَلِكَ ، زِيَادَةُ التَّرَفِّ وَعَوَائِدُهُ ، وَخُرُوجُهَا عَنْ حَدِّ النَّهَائَةِ حَتَّى تَقْصُرَ عَنْهَا وَجْهُ الْكَسْبِ وَمَذَاهِبُهُ ، وَلَا تَبْقَى بِمَطَالِبِهَا . فَإِذَا عَجَزَ لَهُ الْكَسْبُ بِالْمَخْرَجِ الطَّبِيعِيِّ ، لَمْ يَجِدْ وَلِجَةً فِي نَفْسِهِ إِلَّا التَّمَتُّيَ لَوْجُودِ الْمَالِ الْعَظِيمِ 15 دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ كَلْفَةٍ ، لِيَفِي لَهُ ذَلِكَ بِالْعَوَائِدِ الَّتِي خَصَلَ فِي أَشْرَافِهَا ، فَيُخْرِصُ عَلَى إِتِّغَاءِ ذَلِكَ وَيَسْنَعِي فِيهِ تُجْهَدَهُ . وَلِهَذَا ، أَكْثَرُ مِنْ تَرَاهِمِ يَحْرِصُونَ عَلَى ذَلِكَ هُمْ

(١) ج: الدَّوْلَةُ .

الْمُتَرَفُّونَ مِنْ أَهْلِ الدُّوَلِ، وَمِنْ سُكَّانِ الْأَمْصَارِ الْكَثِيرَةِ التَّرَفِ، الْمُنْتَسِعَةِ الْأَحْوَالِ،
مِثْلَ مِصْرَ وَمَا فِي مَغْنَاهَا، تَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ مُغْرَمِينَ بِإِبْتِغَاءِ ذَلِكَ وَتَحْصِيلِهِ، وَمُسَاءَلَةِ
الرُّكْبَانِ عَنْ شَوَادِهِ، كَمَا يَحْرِصُونَ عَلَى الْكَيْمَاءِ.

- هكذا يتلغنا عن أهل مصر في مُفَاوِضَةٍ مِنْ يُلْقَوْنَهُ مِنْ طَلَبَةِ الْمَغَارِبَةِ، لَعَلَّهُمْ
يَعْتَرُونَ مِنْهُ عَلَى دَفِينٍ أَوْ كَنْزٍ . وَيَزِيدُونَ عَلَى ⁽¹⁾ ذَلِكَ الْبَحْثِ عَنْ تَقْوِيرِ الْمِيَاهِ،
لَا يَرَوْنَ أَنَّ غَالِبَ هَذِهِ الْأَمْوَالِ الدَّفِينَةُ كُلُّهَا فِي مَجَارِي النَّيْلِ، وَأَنَّهُ أَعْظَمُ مَا يَنْسُرُ
دَفِيناً أَوْ مُخْتَرِئاً فِي تِلْكَ الْأَفَاقِ . / وَيُضَوِّهِ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ تِلْكَ الدَّفَائِرِ الْمُسْتَعْفَلَةِ فِي
[1266] الْإِعْذَارِ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِجَزِيَةِ النَّيْلِ، تَسْتُرُ بِذَلِكَ مِنْ ^(ب) الْكَذِبِ، حَتَّى يَحْصُلَ
عَلَى مَعَاشِهِ. فَيَحْرِصُ سَامِعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَلَى نُصُوبِ الْمَاءِ بِالْأَعْمَالِ السَّخَرِيَّةِ لِتَخْصِيلِ
مَا إِبْتِغَاهُ مِنْ بَعْدِهِ، كَلَفًا بِشَأْنِ السَّخَرِ مُتَوَارِئاً فِي ذَلِكَ الْقَطْرِ عَنْ أَوْلِيهِمْ. فَعُلُومُهُمْ
10 السَّخَرِيَّةِ وَأَثَارُهَا بَاقِيَةٌ بِأَرْضِهِمْ فِي الْبَرَابِيِّ وَغَيْرِهَا، وَقِصَّةُ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ شَاهِدَةٌ
بِاخْتِصَاصِهِمْ بِذَلِكَ.

وَقَدْ يَتَنَاقَلُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ قَصِيدَةً يُنْسِبُونَهَا إِلَى حُكْمَاءِ الْمَشْرِقِ، يُعْطَى فِيهَا
كَيْفِيَّةُ الْعَمَلِ فِي التَّقْوِيرِ ^(ج) بِصِنَاعَةِ سَحْرِيَّةٍ حَسْبِ مَا تَرَاهُ فِيهَا، وَهِيَ: (مِنَ الْكَامِلِ)

- يَا طَالِبَ السَّرِّ فِي التَّقْوِيرِ اسْمِعْ كَلَامَ الصَّدَقِ مِنْ خَبِيرٍ ^(د)
دَغْ عِنْدَكَ مَا قَدْ صَنَّفُوا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ قَوْلِ بَهْتَانٍ وَلَفْظِ غُرُورٍ
وَاسْمِعْ لِمِصْدُقِ مَقَالَتِي وَنَصِيحَتِي إِنْ كُنْتَ تَمُنُّ لَا تَرَى بِالزُّورِ

(1) ع ي ج: إلى (ب) سقط من ي (ج) ي: بالتقوير (د) ورد هذا التجزؤ هكذا على بحر الرجز .

فإذا أزدتْ تَعَوَّرَ البَيْرِ الَّتِي
صَوَّرَ كصَوْرَتِكَ الَّتِي أَوْفَقَتْهَا
وَيَدَاهُ مَا يَكْتَانُ لِلْحَبْلِ الَّذِي
وَيَصْدُرُهُ هَاءٌ كَمَا عَايَتْهَا
وَيَطَا عَلَى الطَّائِبِ غَيْرِ مُلَامِسِ 5
وَيَكُونُ حَوْلَ الْكَلِّ خَطٌّ دَائِرٌ
وَأَذِخْ عَلَيْهِ الطَّيْرَ وَالطَّخْهُ بِهِ
بِالسَّنْدَرُوسِ وَبِالْبَلْبَانِ وَمَا يَغِي
مَنْ أَحْمَرٍ أَوْ أَضْفَرٍ لَا أَرْزُقِ
وَيَشُدُّهُ خِيَطَانُ صَوْفٍ أَيْضُ 10
وَالطَّالِعُ الْأَسَدُ الَّذِي قَدْ يَلْتَنُوا
وَالْبَذْرُ مُتَّصِلٌ بِسَعْدِ عَطَارِدِ

/ يَغْنِي تَكُونُ الطَّائِبَاتُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ كَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَيْهَا. [266ب]

وعندي ، أن هذه القصيدة من تقويمات الممخرقين ، فلهم في ذلك أحوالاً
غريبةً واصطلاحات عجيبية. وتنتهي المخرقة والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل
المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا، ويحتفرون بها الحفر، ويضعون فيها المطابق
والشواهد التي يكتبونها في صحائف كذبيهم، ثم يقصِّدون ضعفاء العقول بأمثال هذه
الصحائف، ويتبعونها على أكثر ذلك المنزل وسكناءه، ويوهونه أن به دفيناً من المال
لا يُغْبَرُ عَنْ كَثْرَتِهِ، ويُطالِبونه بالمال لاشْتِراء العقاقير والبخورات لحلِّ الطلاسم،

ويعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم. فنبعث بما يراه من ذلك، وهو قد خديع ولبس عليه من حيث لا يشعُر. ويتنهم في ذلك اضطلاع في كلامهم يلبسون به عليهم، لتخفى عنهم محاورتهم فيما يتناولونه من حفرٍ، وبحورٍ، وذبح حيوانٍ، وأمثال ذلك. وأمّا الكلام في ذلك - على الحقيقة - فلا أضلّ له في علم ولا خبر.

5

واعلم أنّ الكنوز وإن كانت توجد، لكنها في حكم التادر وعلى وجه الاتفاق، لا على وجه القصد إليها. وليس ذلك بأمر نعلم به التلوى حتى يدخر الناس غالباً أموالهم تحت الأرض ويختموها عليها بالطلاسم، لا في القديم ولا في الحديث. والركاز الذي ورد⁽¹⁾ في الحديث⁽²⁾ وفرضه الفقهاء، وهو دفن الجاهلية، إنّما يوجد بالعثور والاتفاق، لا بالقصد والطلب. وأيضاً فمن اخترن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية 10 فقد بالغ في إخفائه، فكيف يتصّب عليه الأدلة والأمارات لمن يتبعه، ويكتب ذلك في الصحائف حتى يتطلع على ذخيره أهل الأغصار والآفاق؟ هذا يناقض قصد الإخفاء. وأيضاً، فأفعال العقلاء لا بدّ أن تكون لغرض مقصود في الانشغال؛ ومن اخترن المال فإنّما^(ب) يختزنه لولده أو قريبه أو من يؤثره به، وأمّا أن يقصد إخفائه بالكيفية عن كلّ أحد، وإنّما هو لليلى / والهلاك، أو لمن لا يعرفه بالكيفية 15 سيأتي من الأمم، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه.

[1267]

(أ) ألحقت في حاشية جزء منها (ب) ي: فاته .

(1) يريد حديث "وفي الركاز الخمس"، وهو حديث أخرجه مالك في الموطأ (671) و (2541) برواية الليثي والبخاري (1499) و (2355) و (6912) و (6913) ومسلم (1710) من حديث أبي هريرة .

وأما قولهم: أئن أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور؟ فاعلم
أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هي معادن ومكاسب، مثل
الحديد والثحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن، والغمران يَطْوَرُها بالأعمال
الإنسانية وتزِيدُ فيها أو يُنْقِصُها. وما يوجد منها بأيدي الناس فهو مُتناقل مُتَوَارَث،
5 وربما انتقل من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ ومن دَوْلَةٍ إلى [دَوْلَةٍ] ⁽¹⁾ أخرى بحسب أغراضه ^(ب)
والغمران الَّذي يَسْتَدْعِيهِ. فإن نَقَصَ المَالُ في المَغْرِبِ وإفريقية، فلم يَنْقُصْ في بلاد
الصَّعَالِيَةِ والإفريقية. وإن نَقَصَ في مِصْرَ والسَّامِ، فلم يَنْقُصْ في الهِنْدِ والصَّينِ. وإِنَّمَا
هي آلات ومكاسب، والغمران يُوقِّرُها أو يُنْقِصُها. مع أن المعادن يُدْرِكُها البِلَى كما
يُدْرِكُ سائر الموجودات، ويُسرِعُ إلى اللُّوْلُو والجواهر أعظم مما يُسرِعُ إلى غيره. وكذا
10 الذَّهَبُ والْفِضَّةُ والثحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلى والفناء ما
يذهب بأعيانها لأقرب وَقْتٍ.

وأما ما وَقَعَ في مِصْرَ من أمر المطالب والكنوز، فسببه أن مِصْرَ كانت في
مَلَكَةِ القِبْطِ مُنْذُ [أَلْفَيْنِ اثْنَيْنِ] ^(ج) أو تَزِيدُ من السنين. وكان مَوْتَاهُمْ يُدْفَنُونَ
بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر والآلات على مذهب من تَقَدَّمَ من أهل
الدُّوْلِ. فَلَمَّا انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ القِبْطِ، وَمَلَكَ الفُرْسُ بلادهم، تَقَرَّوا عن ذلك في قُبُورهم
15 وكشفوا عنه. فَأَخَذُوا من قُبُورهم ما لا يوصف، كالْأَهْرَامِ من قُبُور المُلُوكِ وغيرها.
وكذا فَعَلَ اليونانيون من بعدهم، وصارت قُبُورهم مَظِنَّةً لذلك لهذا العهد، ويُعَثَّرُ

(1) من ي (ب) من ط ج ي: وفي ع: أعراضه (ج) من ع. وفي ط ج ي: ألف .

على الدّفين فيها في كثيرٍ من الأوقات. أمّا ما يَدْفَنُونَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، أَوْ مَا يَكْرُمُونَ بِهِ مَوْتَاهُمْ فِي الدَّفْنِ مِنْ أَوْعِيَةٍ وَتَوَابِيَتْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مُعَدَّةً لَذَلِكَ، / فصارَتْ قُبُورُ الْقَيْطِ - مِنْذُ آلاَفٍ مِنَ السَّنِينَ - مَظَنَّةً لَوُجُودِ ذَلِكَ فِيهَا وَاسْتِخْرَاجِهَا. حَتَّى أَتَاهُمْ حِينَ ضُرِبَتِ الْمَكُوشُ عَلَى الْأَصْنَافِ آخِرُ التُّوَلِ، ضُرِبَتْ عَلَى أَهْلِ الْمَطَالِبِ، وَصَارَتْ ضَرِيَّةً عَلَى مَنْ يَشْتَقِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْحَقَقَى وَالْمُهَوِّسِينَ. فَوَجَدَ ذَلِكَ الْمُتَعَاظُونَ 5 لَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَطْلَاعِ النَّزِيعَةَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْهُ وَالزَّغْمَ بِاسْتِخْرَاجِهِ. وَمَا خَضَلُوا إِلَّا عَلَى الْحَيَّةِ فِي جَمِيعِ مَسَاعِيهِمْ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُسْرَانِ؛ فَيَخْتِاجُ مَنْ دَفَعَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ أَوْ ابْتُلِيَ بِهِ، أَنْ يَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ فِي طَلَبِ مَعَايِشِهِ، كَمَا تَعَوَّذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (1) مِنْ ذَلِكَ، وَيَتَصَرَّفُ عَنْ طُرُقِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَاسِهِ، وَلَا يَشْغُلُ نَفْسَهُ بِالْمَحَالِّاتِ وَالْكَاذِبَاتِ. ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ 10 يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية 212].

5 • فُصْلٌ، فِي أَنَّ الْجَاهُ مُفِيدٌ لِلْمَالِ

وَذَلِكَ أَنَّ نَحْنُ صَاحِبَ الْجَاهِ (1) وَالْحِظْوَةَ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْمَعَاشِ أَكْثَرُ يَسَاراً وَتَرَوُهُ مِنْ فَائِدِ الْجَاهِ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْجَاهِ مَخْدُومٌ بِالْأَعْمَالِ، يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ التَّزَلُّفِ وَالْحَاجَةِ إِلَى جَاهِهِ. فَالْثَّلَاثُ مُعَيَّنُونَ (ب) لَهُ بِأَعْمَالِهِمْ فِي جَمِيعِ 15

(1) ي: المال (ب) ي: ج: معنيون.

(1) أخرجه البخاري (2823) و (4707) و (6367) و (6371) ومسلم (2706) من حديث أنس بن مالك .

حاجته، من ضروريّ أو حاجيّ أو كماليّ، فتخُصّل قيم تلك الأعمال كلّها من كُنته. وجميع ما شأنه أن تُبدل فيه الأعواض من العقل، يستعمل فيها الناس من غير عوض، فتتوقّر قيم تلك الأعمال عليه. فهو يبن قيم للأعمال يكتسبها، وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوقّر عليه. والأعمال لصاحب الجاه كثيرة، فيفيد العنى لأقرب وقت، ويزداد مع الأيام يساراً وثروة. ولهذا المعنى كانت الإمارة 5 أخذ أسباب المعاش، كما قدّمناه.

وفائد الجاه بالكليّة - ولو كان صاحب مالٍ - فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه، وهؤلاء هم أكثر الثّجار. ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أنسر بكثير.

10 ومما يشهد لذلك، أنّنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة، إذا اشتهر حُسن الظنّ بهم، واعتقد الجمهور معاملته الله في إزفادهم، فأخلص الناس في إعانتهم على أخوال دُنياهم والاعتقال في مصالحهم، / أسرعَت إليهم الثروة، وأصبحوا مياسير من غير مالي مُقتنى، إلا ما يخلص لهم من قيم الأعمال التي وقّعت المعونة بها من الناس لهم. رأينا من ذلك أعداداً في الأمصار والمدن وفي البدو، يسعى لهم الناس في الفلح والتّجر وهو قاعد بمنزله، لا يترخ من مكانه. فيتمو ماله، ويغظّم 15 كُنته، ويتأكل العنى من غير سعي. ويغيب من لا يظنّ لهذا السرّ في حال ثروته، وأسباب غناه ويساره. ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية 212].

6 • فَضْلٌ، فِي أَنْ السَّعَادَةَ وَالْكَسْبَ إِنَّمَا تَحْصُلُ غَالِبًا لِأَهْلِ الْخُضُوعِ
وَالْمَلَقِ^(١)، وَأَنَّ هَذَا الْمَخْلُقَ مِنْ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ

قد سبق لنا فيما سلف أَنَّ الْكَسْبَ الَّذِي يَسْتَفِيدُهُ الْبَشَرُ إِنَّمَا هُوَ فِيمَ
أَعْمَالِهِمْ. وَلَوْ قُدِّرَ أَحَدٌ عَاطِلًا عَنِ الْعَمَلِ جُمْلَةً لَكَانَ فَاقِدًا لِلْكَسْبِ بِالْكَلِيَّةِ. وَعَلَى
قُدْرَ عَمَلِهِ وَشَرَفِهِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ يَكُونُ قُدْرُ قِيَمَتِهِ، وَعَلَى نِسْبَةِ 5
ذَلِكَ نُمُوكُنْهِ أَوْ نُقْصَانِهِ. وَقَدْ يَبَيَّنَّا أَيْضًا أَنَّ الْحَاجَةَ يُفِيدُ الْمَالُ بِمَا يَخْضُلُ لِصَاحِبِهِ مِنْ
قُرْبِ النَّاسِ إِلَيْهِ بِأَعْمَالِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي دَفْعِ الْمَضَارِّ وَجُلْبِ الْمَنَافِعِ. وَكَأَنَّ مَا يَتَّقَرُّونَ
بِهِ مِنْ عَمَلٍ أَوْ مَالٍ عَوَضَ عَمَّا يَخْضُلُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ الْحَاجَةِ مِنْ كَثِيرٍ^(ب) الْأَغْرَاضِ
فِي صَالِحٍ أَوْ طَالِحٍ، وَتَصِيرُ تِلْكَ الْأَعْمَالُ فِي كُنْهِهِ، وَقِيَمَتُهَا أَمْوَالٌ وَشُرُوهٌ لَهُ،
فَيَسْتَفِيدُ الْغَنَى وَالْيَسَارَ لِأَقْرَبِ وَقْتٍ. 10

ثُمَّ إِنَّ الْحَاجَةَ مُتَوَرِّعٌ فِي النَّاسِ وَمُتَرَتَّبٌ فِيهِمْ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ، يَنْتَهِي فِي الْعُلُوِّ
إِلَى الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَيْسَ فَوْقَهُمْ يَدٌ غَالِيَةٌ، وَفِي السُّفْلِ عَلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
بَيْنَ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ. وَيَبَيِّنُ ذَلِكَ طَبَقَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، حِكْمَةٌ مِنَ اللَّهِ فِي خَلْقِيَّتِهِ بِمَا يَنْتَظِمُ
[بِهِ]^(ج) مَعَاشُهُمْ، وَتَنْتَبِشِرُ مَصَالِحُهُمْ، وَيَمُّ بِقَاؤُهُمْ. لِأَنَّ التَّوَعُّدَ الْإِنْسَانِيَّ لِمَا كَانَ لَا يَمُّ 15
وَجُودُهُ وَبِقَاؤُهُ إِلَّا بِتَعَاوُنِ أُنْبَاءِهِ عَلَى مَصَالِحِهِمْ، لِأَنَّهُ قَدْ قَرَّرَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَمُّ
وَجُودُهُ، وَأَنَّهُ وَإِنْ نَدَرَ ذَلِكَ فِي صُورَةٍ مَفْرُوضَةٍ، فَلَا يَصِحُّ بِقَاؤُهُ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّعَاوُنَ لَا [يُخْضَلُ]^(د) إِلَّا بِالْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ، لِجَهْلِهِمْ فِي الْأَكْثَرِ بِمَصَالِحِ

(١) ي: الغلق (ب) سقط من ي (ج) زيادة يقتضيا السياق (د) ظ: يصلح.

التَّوَعُّع، ولما ^(أ) جِيلٌ لَهُم من الاختيار، وَأَنْ أَفْعَالَهُمْ إِنَّمَا تَضْدَرُ / بالفكر والرؤية لا
 بالطبع، فقد يَتَشَغ من المعاونة، فَيَتَعَيَّن حَمْلُهُ عَلَيْهَا. فَلَا يَدُ من حاملٍ يَكْرِهُ أَنْبَاءَ التَّوَعُّع
 عَلَى مُصَالِحِهِمْ لِيَتِمَّ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِي بَقَاءِ هَذَا التَّوَعُّع. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ [تعالى] ^(ب) :
 ﴿ وَرَفَعْنَا ^(ج) بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَةً
 5 رَّبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [سورة الزخرف، من الآية 32].

فقد تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْنَى الْجَاهِ هُوَ الْقُدْرَةُ الْحَاصِلَةُ ^(د) لِلْبَشَرِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيمَنْ
 تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَنْبَاءِ جَنْسِهِمْ بِالْإِذْنِ وَالْمَنْعِ وَالتَّسْلُطِ فِيهِمْ بِالْقَهْرِ وَالْغَلْبَةِ لِيُخَلِّجَهُمْ
 عَلَى دَفْعِ مَضَارِّهِمْ وَجَلْبِ مَنَافِعِهِمْ فِي الْعَدْلِ، وَأَخْكَامِ الشَّرَائِعِ أَوْ السِّيَاسَةِ، وَعَلَى
 أَغْرَاضِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ. لَكِنَّ الْأَوَّلَ مَقْصُودٌ فِي الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِالنَّاسِ، وَالثَّانِي
 10 دَاخِلٌ فِيهَا بِالْعَرَضِ كَسَائِرِ الشُّرُورِ الدَّاحِلَةِ فِي الْقَضَاءِ الْإِلَهِيِّ. لِأَنَّهُ قَدْ لَا يَتِمُّ
 وَجُودُ الْحَيْرِ الْكَثِيرِ إِلَّا بِوُجُودِ شَرٍّ يَسِيرُ مِنْ أَجْلِ الْمَوَادِّ. فَلَا يَقُوتُ الْحَيْرُ لِنَاكَ،
 بَلْ يَقَعُ عَلَى مَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ الْيَسِيرِ. وَهَذَا مَعْنَى وَقُوعِ الظُّلْمِ فِي الْحَلِيقَةِ،
 فَتَقْتُلُهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ كُلَّ طَبَقَةٍ مِنْ طِبَاقِ أَهْلِ الْعُمْرَانِ مِنْ مَدِينَةٍ أَوْ إِقْلِيمٍ لَهَا قُدْرَةٌ
 15 عَلَى مِنْ دُونِهَا مِنَ الطَّبَاقِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى يَسْتَعِيذُ هَذَا الْجَاهُ مِنْ
 أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي فَوْقَهُ، وَيَزْدَادُ كَاسِبُهُ تَصَرُّفًا فِيمَنْ تَحْتَ يَدِهِ عَلَى قَدْرِ مَا يَسْتَعِيدُ
 مِنْهُ.

(أ) ج: وما (ب) من: ي (ج) جاءت في كل الأصول خطأ: وجملنا (د) كنا في الأصول، ولعلها: الحاصلة.

والجاء مع ذلك داخل على التائب في جميع أبواب المعاش، ويتيسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه. فإن كان الجاه متيسعاً، كان الكسب الناشئ عنه كذلك، وإن كان ضيقاً وقليلًا، فمثله.

وفاقد الجاه ولو كان له مال، فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله، وعلى نسبة سعيه ذاهباً وجائياً في تكميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة في الغالب. 5 وأهل الصنائع كذلك، إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فلمهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر، ولا تسرع إليهم ثروة، وإنما ⁽¹⁾ يرمقون العيش ترميقاً، ويدفعون ضرورة الفقر مدافعةً.

وإذا تقرر ذلك، وأن الجاه متوزع، وأن السعادة والحير مقترنان بحصوله، 10 غلظت أن بذله وإفادته من / أعظم النعم وأجلها، وأن باذله من أجل المنعمين. وإنما يَبْذُلُهُ لمن تحته يده، فيكون بذله بيد عالية وعن عزة، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتسلق كما يسأل أهل العز والملوك، وإلا فيتعدّر حصوله. فلذلك قلنا: إن الخضوع والملق من أسباب حصول هذا الجاه المخلص للسعادة والكسب، وإن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا الحق. ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشتم لا يحصل لهم غرض من الجاه، فيقتصرون في التكسب على أغلهم، ويصيرون إلى 15 الفقر والخصاصة.

(1) في ع: وإنا .

واعلم أن هذا الكثير والترفع من الخلق المذمومة، إنما يحصل من توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر في علمه، والكاتب المجيد في كتابته، والشاعر البالغ في شعره، وكلُّ مُحسِنٍ في صناعته يتوهم أن الناس يحتاجون إلى ما بيده، فيحدث له ترفع عليهم بذلك. وكذا 5 يتوهم أهل الأنساب ممن كان في آبائه ملك أو عالم مشهور أو كامل في طوَر، يفترون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم في المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقراباتهم وإيراثهم عنهم. فهم مُستغيبون في الحاضر بالأمر المغموم، إذ الكمال لا يورث. وكذلك أهل الحنكة والتجارب والبصر بالأمر، قد يتوهم بعضهم كمالاً في نفسه بذلك واحتياجاً إليه.

10 وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب جاء، ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم، ويستصغرون من سواهم لا اعتقادهم الفضل على الناس. فيستنكف أحدهم عن الخضوع، ولو كان للملك، ويعدّه مذلةً وهواناً وسفهاً، ويحاسب الناس في معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم في نفسه، ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك. وربما يذجل على نفسه الهوم والأحزان من تقصيرهم فيه، ويستعير 15 في غناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه وإيابة الناس له من ذلك. ويحصل له المقت في الناس، لما في طباع البشر من التأله. وقل أن يسلم أحد منهم لأحد في الكمال والترفع عليه، إلا أن يكون ذلك بنوع من الفهر والقلبة والاستيطة. وهذا كله في ضمن الجاه.

[269ب]

فإذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه، وهو مفقود له كما تبين لك، مقتته الناس

هذا الترفع، ولم يحصل له حظ من إحصائهم. ففقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه، لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاضدهم وغشيان منازلهم. ففسد معاشه، وبقي في خصاصه وفقير أو فوق ذلك بقليل. وأما الثروة، فلا تحصل له أضلاً. ومن هذا اشتد بين الناس أن الكامل في المعرفة مخروم من الحظ، وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة، واقتطع ذلك له من الحظ. وهذا 5 مغباه. ومن خلق شيء يسر له. والله المقدر، لا رب سواه.

ولقد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق، ويترفع فيها كثير من السفلة، وينزل كثير من العلية بسبب ذلك. وذلك أن الدول إذا بلغت غايتها من التغلب والاستيلاء، وانقرض منها منبت الملك بملكهم وسلاطنتهم، وييس 10 سيواهم من ذلك، وإنما صاروا في مراتب دون مرتبة الملك، وتحت يد السلاطان وكأنهم حول له، فإذا استمرت الدولة، وشمع الملك، تساوى حينئذ في المراتبة عند السلاطان كل من انتهى إلى خدمته وتقرّب إليه بنصيحته، واضطنعه السلاطان لغنايه في كثير من مهماته. فتجد كثيراً من السوقة يسعى في التقرب من السلاطين بجده ونضجه، ويتزلف إليه بوجوه خدمته، ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه، حتى عرس قدمه معهم، وينظمه السلاطان في 15 جملة. فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة، ويتنظم في عداد أهل الدولة.

وناشئة الدولة، حينئذ، من أبناء قوما الذين ذلّوا صغارها ومهدوا أكفأها،

مُغْتَرُونَ⁽¹⁾ بما كان لأبنائهم في ذلك من الآثار، تَشْمُخُ به نفوسهم على السلطان،
 ويغترون بآثاره، ويَجْرُونَ في مضار الدالة بسببه. فينقُصُهم السلطانُ لذلك ويُعْادِهم،
 ويميل إلى هؤلاء المُضْطَّعِينَ الَّذِينَ لَا يَغْتَدُونَ بِقَدِيمٍ وَلَا/ يَذْهَبُونَ إِلَى ذَالَةٍ وَلَا تَرْفَعُ،
 إِنَّمَا دَأْبُهُمُ الْخُضُوعُ لَهُ وَالتَّمَلُّقُ وَالِاغْتِمَالُ فِي غَرَضِهِ مَتَى ذَهَبَ إِلَيْهِ. فَيَتَّبِعُ جَاهَهُمْ
 5 وتعلو منازلهم، وتتنصرف إليهم الوجوه والخواص بما يَحْضُلُ لهم من منيل السلطان
 والمكانة عنده. ويتقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم، لا
 يريدُهم ذلك إِلَّا بُعْدًا مِنَ السُّلْطَانِ وَمَقْتًا، وإثارةً لهؤلاء المُضْطَّعِينَ عليهم، إلى أن
 تنقرض الدولة. وهذا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ فِي النُّزُلِ، ومنه جاء شأنُ المُضْطَّعِينَ فِي الغالب.
 وَاللَّهُ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البروج، من الآية 16].

10 7 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْقَائِمِينَ بِأُمُورِ الدِّينِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْفَتْيَا وَالتَّدْرِيسِ وَالْإِمَامَةِ
 وَالْحِطَابَةِ وَالْأَذَانَ وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَا تَعْظَمُ شُرُوتُهُمْ فِي الْغَالِبِ

والسبب في ذلك، أَنَّ الْكَسْبَ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ، فِيمَا الْأَعْمَالُ، وَأَنَّهَا مُتَفَاوِتَةٌ
 بِحَسَبِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا. فَإِذَا كَانَتِ الْأَعْمَالُ ضَرُورِيَّةً فِي الْعُمْرَانِ عَامَّةً الْبُلُوى فِيهِ،
 كَانَتْ قِيمَتُهَا أَعْظَمَ، وَكَانَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا أَشَدَّ. وَأَهْلُ هَذِهِ الْبَضَائِعِ الدِّيْنِيَّةِ لَا يُضْطَرُّ
 15 إِلَيْهِمْ عَامَّةُ الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَا عِنْدَهُمُ الْخَوَاصُّ مِمَّنْ أَقْبَلَ عَلَى دِينِهِ. وَإِنْ اخْتِيجَ
 إِلَى الْفَتْيَا وَالْقَضَاءِ فِي الْحَصُومَاتِ، فَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْاضْطِرَارِ وَالْعُمُومِ، فَيَقَعُ

(1) مِنْ ي ج، وَفِي ع ط: وَيُغْتَرُونَ .

الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر، وإِنَّا نَهَمُ [بهم] ^(أ) وبإقامة مراسيمهم صاحب التولية،
 بما له من النظر في المصالح. فيقسم لهم خطأ من الرزق على نسبة الحاجة إليهم،
 على النحو الذي قرّره، لا يساوهم بأهل الشؤكة ولا بأهل الصنائع الضرورية،
 وإن كانت بضاعتهم أشرف ^(ب) من حيث الدين والمراسم الشرعية. لكنه يقسم بحسب
 عموم الحاجة وضرورة أهل الغمران، فلا يصح في قسمتهم إلا القليل. 5

وهم أيضاً لشرف ^(ج) بضائعهم أعزّة على الخلق وعند شؤسهم، فلا يخضعون
 لأهل الجاه حتى ينالوا منه خطأ يستديرون به الرزق. بل ولا تفرغ أوقانهم لذلك،
 لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتتة على الفكر والبدن ^(د)، بل، ولا
 يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم، / فهم مغرل عن ذلك. [270ب]
 فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب. 10

ولقد باحثت بغض الفضلاء، وتكر ذلك عليّ. فوقع بيدي أوراق مؤرمة
 من حسابات الدواوين بدار المأمون، تشتمل على كثير من الدخل والخرج
 يومئذ، وكان فيما طالعته فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين، فوقفته عليه، وعلم
 منه صحة ما قلته، ورجع إليه. وقضينا العجب من أسرار الله في خليقته، وحكمته
 في عوالمه. والله الخالق المقدر. 15

(أ) سقط من ظ (ب) سقط من ي (ج) من ع، وفي بقية الأصول: أشرف (د) كذا في الأصول.

8 • فَضْلٌ، فِي أَنْ الْفَلَاحَةَ مِنْ مَعَاشِ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَهْلِ الْعَافِيَةِ مِنَ الْبَدْوِ⁽¹⁾

وذلك لأنه أصل في الطبيعة وبسيط في منحاها. ولهذا لا نجدُهُ يَنْتَحِلُهُ أَحَدٌ من أهل الحَضَر في الغالب ولا من المتَرَفِّين، وَنَحْنُصُّ مُنْتَحِلُهُ بِالْمَذَلَّةِ. قال ﷺ⁽¹⁾، وقد رأى السَّكَّةَ يَبْغِضُ دُورَ الْأَنْصَارِ: "ما دخلت هذه دار قومٍ إلا دخله الذلُّ". وحله البخاريُّ على الاستيْثْناء منه، وترجم عليه باب ما يُحذَرُ من عواقب الاشتغال 5 بألة الزَّرع، أو تجاوزَ الحدَّ الذي أمر به.

والسَّبب فيه، والله أعلم، ما يَتَّبِعُهَا مِنَ الْمَغْرَمِ الْمَفْضِيِّ إِلَى التَّحَكُّمِ وَالْيَدِ الغالية. فيكونُ الغارِمُ ذليلاً بائساً بما تَتَنَاوَلُهُ أَيْدِي الْفَهْرِ والاشتِطَالَةِ. قال ﷺ⁽²⁾: "لا تقومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ الزَّكَاةُ مَغْرَمًا"، إشارةً إِلَى الْمَلِكِ الْعَضُوضِ الْقَاهِرِ لِلنَّاسِ، الَّذِي مَعَهُ التَّسَلُّطُ وَالْجُورُ وَنَشْيَانُ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَتَمَوْلَاتِ، واعتبار 10 الحَقِّوقِ كُلِّهَا مَغَارِمَ لِلْمُلُوكِ والدُّولِ. والله قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ.

(1) سقط من ي .

(1) أخرجه البخاري (2321) وترجم له في "باب ما يُحذَرُ من عواقب الاشتغال بألة الزَّرع، أو مجاوزة الحد الذي أمر به".

(2) قُطْعَةٌ من حديث طويل في أَسْرَاطِ السَّاعَةِ، أخرجه التِّرْمِذِيُّ في جامعهِ (2210) من حديث عليٍّ. وفي (2211) من حديث أبي هريرة، وكلاهما إسناده ضعيف .

9 • فَصْلٌ فِي مَعْنَى التِّجَارَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَأَصْنَافِهَا

اَعْلَمَ أَنَّ مَعْنَى التِّجَارَةِ مُحَاوَلَةٌ عَلَى الْكَسْبِ بِثَمِيَّةِ الْمَالِ فِي شِرَاءِ
السَّلْعَةِ^(١) بِالرُّخْصِ وَيَبْعُهَا بِالْغَلَاءِ، مَا كَانَتْ السَّلْعَةُ، مِنْ زَبَدٍ، أَوْ زَرْعٍ، أَوْ
خَيْوَانٍ، أَوْ سِلَاحٍ، أَوْ فُؤَادٍ. وَذَلِكَ الْقَدْرُ التَّامِي يُسَمَّى رِبْحًا. وَالْمُحَاوَلَةُ لِنَلْكَ الرِّبْحِ
إِمَّا بِأَنْ تُخْتَرَنَ السَّلْعَةُ وَيُخَيَّرَ بِهَا خَوَالَةُ السُّوقِ مِنَ الرُّخْصِ إِلَى الْغَلَاءِ، فَيُعْظَمَ 5
رِبْحُهُ. وَإِمَّا بِأَنْ يُنْقَلَهُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ تَتَفَقُّ فِيهِ تِلْكَ السَّلْعَةُ أَكْثَرَ مِنْ بَلَدِهِ الَّذِي اشْتَرَاهَا
فِيهِ، فَيُعْظَمَ رِبْحُهُ. وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ / مِنَ التَّجَارِ لَطَالِبُ الْكَشْفِ عَنْ
حَقِيقَةِ التِّجَارَةِ: أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِهَا فِي كَلِمَتَيْنِ: اشْتَرِ الرِّخِصَ وَبِعِ الْغَالِي، وَقَدْ حَصَلَتْ
التِّجَارَةُ. إِشَارَةٌ لَهُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي قَرَرْنَاهَا. وَاللَّهُ ﴿الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾
[سورة الناريات، من الآية 58].

(١) فِي ج: السِّلْعِ.

10 • فصل*، في نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا يتقل من السلع إلا ما نَعَم الحاجةُ إليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة، إذ في ذلك نقائ سلّعتِه. وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البغض فقط، فقد يتعذر نقاد سلّعتِه⁽¹⁾ حينئذٍ بإعواز الشراء على ذلك البغض لعارِض من العوارِض، فتكسّد سوقه، وتكسّد أرباحه.

وكذلك إذا نقل السلعة المختاج إليها، فإنما ينقل الوسط من صنفها. فإن الغالي من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية التولة، وهم الأقل. وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف. فليستعز ذلك بحجته، ففيه نقائ سلّعتِه أو كسادها.

(1) من ع وسقط من ط .

• ورد قبل هذا الفصل في نسخة المؤلف ومُسوّدة "ع" فصل قصير من ثمانية أسطر، عنوانه: فصل في أن خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك. ثم خطبه جملة، واستبدله بخطه فيما يأتي، بالفصل رقم (14) في: أن خلق التجار نازلة عن خلق الرؤساء، وبعيدة عن المروءة. وغير موقعه، وهذا نص الفصل الملقى:

"وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يمانون البيع والشراء، ولا بدّ فيه من المكائسة ضرورة. فإن اقتصر عليها اقتصرَتْ به على خلقها. وهي، أعني خلق المكائسة، بعيدة عن المروءة التي يتخلق بها الملوك والأشراف. وأما إن استرذّل خلقه بما يبيع ذلك في أهل الطبقة الوسطى منهم من المأخكة والغش والجلابة وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأمان رذاً وقبولاً، فأجدر بهذا الخلق أن يكون في غاية المذمة، لما هو معروف. ولذلك تجدد أهل الرياسات يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة، لأجل ما تكسب من هذا الخلق. وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماؤه بفرف نفسه وكرم جلاله، إلا أنه في التادر من الوجود. والله يهدي من يشاء".

وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجارة⁽¹⁾ وأعظم أرباحاً وأكفل بحالة الأسواق، لأن السلع المنقولة حينئذ تكون قليلة مغورة لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها، فيقل حاملوها ويعز وجلودها . وإذا قلت وعزت غلت أثمانها . وأما إذا كان البلد قريب المسافة ، والطريق سائلاً بالأمن ، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها ، فتكثر وترخص 5 أثمانها .

ولهذا نجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان ، أزعف الناس وأكثرهم أموالاً ، لبعد طريقهم ومشقته ، واعتراض المفازة الضعيفة المخطرة بالخوف والعطش ، لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن مغلومة يهتدي إليها أدلاء الركاب . فلا يتركب هذا الطريق ويغده إلا الأقل من الناس ؛ فتجد سلع بلاد السودان قليلة 10 لدينا ، فتختص بالغلاء ، وكذلك سلعنا لأنهم . فتعظم بضائع التجار من ثاقفها ، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك . وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق ، لبعد الشقة أيضاً . وأما المترددون في الأفق الواحد ما بين أمصاره وبلدانه ، / ففائدتهم قليلة وأرباحهم ناهية ، لكثرة السلع وكثرة ناقلها . والله ﴿ الرَّزَاقُ 271ب ﴾ دُوَالْقُوَّةِ الْمَيِّنُ ﴾ [سورة الناريات ، من الآية 58] .

(1) ي: للتجار .

11 • فصل، في الاختكار

ومما اشتهر عند ذوي البصر والتجربة في الأنصار، أن اختكار الزرع لتحيين
 أوقات الغلاء به مشهور، وأنه يعود على فائدته بالتلف والخسران. وسببه، والله
 أعلم، أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يتدلون فيها من المال
 5 اضطراراً، فتنبى النفوس متعلقة به. وفي تعلق النفوس بما لها سر كبير في وباله على
 من يأخذه^(١). ولعله الذي اغتره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل. وهذا، وإن
 لم يكن مجاناً، فالتفوس متعلقة به، لإعطائه ضرورة من غير سعة في العذر، فهو
 كالمكره. وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطراراً^(ب) للناس إليها. وإنما
 يتعشم عليها التقن في الشهوات، فلا يتدلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص، ولا
 10 يبقى لهم تعلق بما أعطوه. فلهذا يكون من عرف بالاختكار تجمع القوى النفسانية
 على متابعتها بما يأخذ من أموالهم، فيفسد ربحه. والله أعلم.

وسمعت فيما يناسب هذا، حكاية طريقة عن بغض مشيخة المغرب. أخبرني
 شيخنا أبو عبد الله الآلبي، قال: حضرت عند القاضي بفاس لعهد السلطان أبي
 سعيد، وهو الفقيه أبو الحسن المليلي، وقد عرض عليه أن يختار بعض الألقاب
 15 المخزنية لإجرائته، قال: فأطرق ملياً، ثم قال لهم: من مكس الخمر. فاشتضحك
 الحاضرون من أصحابه وعجبوا، وسألوه عن حكمة ذلك، فقال: إذا كانت الجبايات
 كلها خزاناً، فأختار منها ما لا تنأيه نفوس مغطيه، والخمر قل أن يتدل أحد فيها

(١) كتب بعدها في ع: مجاناً، ثم شطبا، ولم تنبها ط ج ي (ب) في ج: أضرار.

ماله إلا وهو طربت مسرور بوجدانه، غير آسف عليه ولا متعلّقي به. وهذه ملاحظة غريبة. والله تعالى أعلم.

12 • فصل^(أ)، في أن رخص الأَسْعَامِ مُضِرٌّ بِالْمُخْتَرِفِينَ بِالرَّخِصِ

- وذلك أن الكسب والمعاش، كما قدّمناه، إنما هو بالصنائع أو التجارة .
[1272] والتجارة/ هي شراء البضائع والسلع وأدّخارها، تُحَيَّنُ بها حوالة الأسواق بالزيادة 5
في أثمانها، ويُسَمَّى رِجْأً. ويحصل منه الكسب والمعاش للمُخْتَرِفِينَ بالتجارة دائماً. فإذا
استندم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو ممتول على الجملة،
ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فيه، فسَدَ الرّيحُ و^(ب) التّماء بطول تلك المدة،
وكسدت سوق ذلك الصنف، ولم يحصل التاجر إلا على القناء، فيقعّد التّجار عن
السعي فيها، وتفسد رؤوس أموالهم. 10

- واعتبر ذلك مثلاً بالزّرع إذا استندم رخصه، كيف^(ج) تفسد أحوال
المُخْتَرِفِينَ به في سائر أطواره، من الفلح والزراعة، لِقَلَّةِ الرّيح فيه ونزّارته أو فقده.
فيفقدون التّماء في أموالهم، أو يحدّونه على قِلَّة، ويعودون بالإشفاق على رؤوس
أموالهم، وتفسد أحوالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة. ويتبّع ذلك فساد حال
المُخْتَرِفِينَ أيضاً بالطّخن والحَبْزِ وبسائر^(د) ما يتعلّق بالزّرع^(هـ) من الجرف من لَبْنِ 15

(أ) هذا الفصل والفصلان بعد زيادة حررها المؤلف بخطه في ورقة بونجما وأقمها على مسودته ع، وحدّد موقعها بإشارة المخرج آخر الفصل السابق، وبالتصيص اللغوي (ب) سقط المطف من ي (ج) فإنه (د) في ي: ح: سائر (هـ) في ي: بالزراعة.

زراعته إلى مصيره مأكولاً. وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان عند^(أ) أهل الفلح زرعاً بالإقطاع. فإنهم يقل جبايتهم من ذلك، ويتجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها و^(ب) يترقون من السلطان عليها، فيقطع عنهم الرزق وتشتد أحوالهم. وكذا إذا استديم الرخص في السكر والغسل فسدت جميع ما يتعلق به، وقعد المخترفون به عن التجارة فيه. وكذا حال الملبوسات إذا استديم فيها الرخص أيضاً^(ج).

فإذن، الرخص المفرط مújف بمعاش المخترفين بذلك الصنف الرخيص، وكذا الغلاء المفرط أيضاً. و^(د) إنما يكون في التادر سبباً لنهاء المال، بسبب اختباره وعظم فائدته. وإنما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وشرعة خولة الأسواق، ومعرفة^(هـ) ذلك ترجع إلى العوائد المقررة بين أهل الغمران.

وإنما يحدد الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه، واضطرار الناس إلى الأقوات^(و) من بين الغني والفقير . / والعالة من الخلق هم الأكثر في [272ب] العمران، فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص.

15 والله ﴿الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات، من الآية 58].

(أ) ي: عل (ب) سقط العطف من ي (ج) سقط من ي (د) سقط حرف العطف من ي (هـ) ي: وعلم ... يرجع (و) من هنا إلى آخر الفصل لا يوجد في ي، وبدلاً: فيمتاحون بعض الشيء من خولة الأسواق بنفاق السلعة التي بأنديهم، وهي الأقوات، فيمتدنون لذلك ناعداً عما فانهم .

13 • فصل^(١)، في أي أصناف الناس يستفيع^(ب) بالتجارة، وأيهم ينبغي له تركها

قد تقدم لنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأعلى من ثمن الشراء، إما بانتظار خواله الأسواق، أو نقلها إلى بلد هي فيه أنفق وأغلى، أو بيعها بالفلاء على الآجال. وهذا الرّبح بالنسبة إلى أضل المال نزر يسير، إلا أن المال إذا^(ج) كان كثيراً عظّم الرّبح، لأن القليل في الكثير كثير.

ثم لا بدّ في محاولة هذه التّجيرة، الذي هو الرّبح، من حصول هذا المال بأيدي الباعة في شراء البضائع وبيعها (ومعاملتهم في)^(د) تقاضي أثانها، وأهل التّصفه منهم قليل، فلا بدّ من الغش والتّطفيف المٌجيف بالبضائع، ومن^(هـ) المظل في الأثمان المٌجيف بالرّبح، لتعطيل المحاولة في تلك المدة، وبها تماؤه، ومن الجحود والإنكار المسحيت لرأس المال إن لم يقيد بالكتاب والشهادة. وعناء الحكام في ذلك قليل، لأنّ الحكم إنما هو على الظاهر. فيعاني التاجر من ذلك أحوالاً صعبة، ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الرّبح، إلا بعظيم العناء والمشقة، أو لا يحصل، أو يلاشى رأس ماله. فإن كان جريئاً على الخصومة، بصيراً بالحسبان، شديد المأخكة، مقدماً على الحكام، كان ذلك أقرب له إلى التّصفه منهم مجرّأته ومأخكته؛^(١) ولا فلا بدّ له من جاء يدّرع به يوقع^(د) له الهيبة عند الباعة، ويحصل الحكام على

(١) جاء هذا الفصل في حاشية (ي) بخط المؤلف من غير عنوان، وأثبت في سياق نص الكتاب في شخصي ط ج (ب) في ط: يتفقون (ج) في ج: إن (د) في ي، وسقط من ج ع (هـ) من ي (و) في ج: يوقع.

إنصافه من غُرمائه^(أ). فتخلص له بذلك النُصفَة واستخلاص ماله منهم^(ب) طَوْعاً في الأول، وكُرهاً في الثاني. وأما من كان فاقداً للجزأة والإقدام من نفسه، وفاقداً للجهاد من الحكم، فينبغي له أن يجتنب التجارة^(ج)، لأنه يعرض بماله للذهاب والمضيعة^(د)، ويضيره مأكلة للباعة، ولا يكاد يتصف منهم. لأن الناس في الغالب^(هـ) مُتَظَلِّعون^(و) إلى ما في أيدي^(ز) الناس. ولولا وازع الأحكام^(ح) إما سليم لأحد شيء مما في يده^(ط)، وخصوصاً / الباعة وسفلة الناس ورعاغهم^(ي). ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ^(ي) اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 251].

14 • فصل، في أن خلق التجار نازلةً عن خلق الرؤساء^(ك)، وبعبدة عن المروءة

قد قدّمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح، ولا بدّ في ذلك من المكائسة والمأخكة والتخلّق وممازسة الخصومات واللجاج، وهي غوارض هذه الحزقة. وهذه الأوصاف تُغضّ من الزكاء والمروءة وتخدج فيها. لأن الأفعال لا بدّ من عود آثارها على النفس. فأفعال الخير

(أ) في: معايليه (ب) سقط من ي (ج) ي: الاحتراف بالتجارة (د) في ي: والضياع (هـ) في ي: وخصوصاً الرعاغ والباعة (و) ي: يشرهون (ز) في ي: سواهم متوثنون عليه (ح) سقط ما بين النجيين من ي (ط) في ي: أصبحت أموال الناس تهباً (ي) وردت في النسخ: دفاع، وقد قدّمت هذه القراءة في 1: 245، والوجه فيها كما يقول الطبري، المصدر من قول القائل: دافع الله عن خلقه، فهو يدافع مدافعةً ودفاعاً. جامع البيان 2: 755 (ك) في ي: الأشراف.

تعود بآثار الخير والركاء، وأفعال الشرّ والسفسفة تعود بضد ذلك. فتتمكّن وترسخ
 إن سبقَتْ وتكررت، وتُنقِص من خلال الخير إن تأخّرت عنها بما يتطّيع من آثارها
 المذمومة في النفس، شأن الملكات الناشئة عن الأفعال.

وتفاوتت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم. فمن كان منهم سافلاً
 الطّور، مُخالطاً لشرار الباعة أهل الغشّ والحِلافة والفجور في الأيمان على البياعات 5
 والأثان إقراراً وإنكاراً، كانت زداة تلك الخلق عنده أشدّ، وعُلبت عليه السفسفة،
 وتعدّ عن المروءات واكتسبها بالجُملة، وإلا فلا بُدّ له من تأثير المكايسة والمُخاخكة
 في مروءته؛ وفقدان ذلك فيهم بالجُملة قليل.

ووجود الصنف الثاني منهم الذي قدّمناه في الفضل قبله، أنهم يدبرون بالجاء
 ويعوّض لهم من مُباشرة ذلك، فهم نادِر وأقلّ من نادِر. وذلك أن يكون المال قد 10
 توفّر عنده دفعةً بنوع غريب، أو ورثه عن أحدٍ من أهل بيته، فحصلت له ثروة
 نعيته على الاتصال بأهل التّولة وتكسيبه ظهوراً وشهرةً بين أهل عصره، فيترفع
 عن مُباشرة ذلك بنفسه، ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه، ويُسهّل
 لهم الحكّام النّصبة في حقوقهم بما يُؤنسونه من برّه وإتحافه. فينبعدون عن تلك الخلق
 بالبُعد عن مُعانة الأفعال / المُقتضية لها، كما مرّ. فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن 15
 المُخدجات، إلّا ما يسري من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب، فإنهم
 يُضطرّون إلى مُشاركة أحوال أولئك الوكلاء ووفائهم أو خلافهم فيما يأتون أو
 يذرون من ذلك، إلّا أنه قليل، ولا يكاد يُظهر أثره ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
 تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصفات، الآية 96].

[273ب]

15 • فصل، في أَنَّ الصَّنَاعَةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمُعَلِّمِ

اعلم أَن الصَّنَاعَةَ هي مَلَكَةٌ في أَمْرِ عَمَلِيٍّ فِكْرِيٍّ، وَكَوْنُهُ عَمَلِيًّا هو جِسْمَانِيٍّ مَخْسُوس. والأحوال الجِسْمَانِيَّةُ المَخْسُوسَةُ، فنَقَلُهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْعَبُ لَهَا وَأَكْمَلُ، لِأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ فِي الْأَحْوَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ المَخْسُوسَةِ أَثَمُّ فَائِدَةٌ. وَالْمَلَكَةُ صِفَةٌ رَاسِخَةٌ تَحْضُلُ عَنْ 5 اسْتِغْمَالِ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَتُكَرِّرُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى تَرَسَّخَ صَوْرَتُهُ. وَعَلَى نِسْبَةِ الْأَضَلِّ تَكُونُ الْمَلَكَةُ. وَتَقُلُّ الْمَغَايِنَةُ أَوْعَبُ وَأَثَمُّ مِنْ ثَقُلِ الْحَبْرِ وَالْعِلْمِ. فَالْمَلَكَةُ الْحَاصِلَةُ عَنْهُ أَكْمَلُ وَأَرَسَخُ مِنَ الْمَلَكَةِ الْحَاصِلَةِ عَلَى⁽¹⁾ الْحَبْرِ. وَعَلَى قَدْرِ جُودَةِ التَّعْلِيمِ وَمَلَكَةِ الْمُعَلِّمِ يَكُونُ جِذْقُ الْمُتَعَلِّمِ فِي الصَّنَاعَةِ وَحُصُولُ مَلَكَتِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الصَّنَاعَةَ، مِنْهَا الْبَسِيطُ، وَمِنْهَا الْمُرَكَّبُ. وَالْبَسِيطُ هو الَّذِي يَخْتَصُّ 10 بِالضَّرُورِيَّاتِ، وَالْمُرَكَّبُ هو الَّذِي يَكُونُ لِلْكَامِلِيَّاتِ. وَالمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي التَّعْلِيمِ هو الْبَسِيطُ لِبَسَاطَتِهِ أَوَّلًا، وَلَأنَّهُ مُخْتَصَّ بِالضَّرُورِيِّ الَّذِي تَتَوَقَّرُ التَّوَالِيَةُ عَلَى ثِقَلِهِ. فَيَكُونُ سَابِقًا فِي التَّعْلِيمِ، وَيَكُونُ تَعْلِيمُهُ لَذَلِكَ نَاقِصًا. وَلَا يَزَالُ الْفِكْرُ يُخْرِجُ أَصْنَافَهَا وَمُرَكَّبَاتِهَا مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالِاسْتِغْمَالِ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى التَّدرِجِ حَتَّى تَكْمُلَ. وَلَا يَحْضُلُ ذَلِكَ دَفْعَةً، وَإِنَّمَا يَحْضُلُ فِي أَزْمَانٍ وَأَجْيَالٍ، إِذْ خَرُجَ الْأَشْيَاءُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ 15 لَا يَكُونُ دَفْعَةً، لَا سِتًّا فِي الْأُمُورِ الصَّنَاعِيَّةِ. فَلَا بُدَّ لَهُ إِذْنٍ مِنْ زَمَانٍ. وَلِهَذَا نَحْدُ الصَّنَاعَةَ فِي الْأُمُورِ الصَّغِيرَةِ نَاقِصَةً، وَلَا يَوْجَدُ مِنْهَا إِلَّا الْبَسِيطُ. فَإِذَا تَرَدَّدَتْ خَضَارَتُهَا وَدَعَتْ أُمُورَ التَّرَفِّ فِيهَا إِلَى اسْتِغْمَالِ الصَّنَاعِ، خَرَجَتْ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(1) في ع: عن .

16 ﴿ في أَنَّ الصَّنَاعَ إِنَّمَا تَكْمُلُ ^(١) بِكَمَالِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيِّ وَكَثْرَتِهِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ التَّاسِ مَا لَمْ يُشْتَوَفِ الْعُمَرَانِ الْحَضَرِيَّ، وَتَمَدُّنُ الْمَدِينَةِ، إِنَّمَا هُمْ فِي الضَّرُورِيِّ مِنَ الْمَعَاشِ، وَهُوَ تَحْصِيلُ ^(ب) الْأَقْوَاتِ مِنَ الْخِنِطَةِ وَغَيْرِهَا. فَإِذَا تَمَدَّنَتِ الْمَدِينَةُ وَتَزِيدَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ، وَوَقَّتْ بِالضَّرُورِيِّ وَزَادَتْ عَلَيْهِ، 5 صُرِفَ الزَّائِدُ، حِينَئِذٍ، إِلَى الْكِمَالَاتِ مِنَ الْمَعَاشِ.

ثُمَّ إِنَّ الصَّنَاعَ وَالْعُلُومَ إِنَّمَا هِيَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ فِكْرُهُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ، وَالْقَوْتُ لَهُ مِنْ حَيْثُ الْحَيَوَانِيَّةُ وَالْغَذَائِيَّةُ ^(ج). فَهُوَ مُقَدَّمٌ لَضَرُورِيَّتِهِ عَلَى الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ، وَهِيَ مُتَأَخَّرَةٌ عَنِ الضَّرُورِيِّ. وَعَلَى مِقْدَارِ عُمَرَانِ الْبِلَادِ تَكُونُ جُودَةُ الصَّنَائِعِ لِلتَّائِقِ فِيهَا حِينَئِذٍ، وَجُودَةُ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا بِحَسَبِ ذَوَاعِي التَّرَفِ 10 وَالثَّرْوَةِ.

وَأَمَّا الْعُمَرَانُ الْبَدَوِيُّ أَوِ الْقَلِيلُ، فَلَا يَحْتَاجُ مِنَ الصَّنَائِعِ إِلَّا الْبَسِيطَ خَاصَّةً الْمُسْتَعْمَلَ فِي الضَّرُورَاتِ، مِنْ تَجَارٍ، أَوْ حَدَادٍ، أَوْ خِيَاطٍ، أَوْ خَزَارٍ، أَوْ حَائِكٍ. وَإِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ بَعْدَ، فَلَا تَوْجَدُ فِيهِ كَامِلَةً وَلَا مُسْتَجَادَةً، وَإِنَّمَا يَوْجَدُ مِنْهَا 15 مِقْدَارُ ^(د) الضَّرُورَةِ، إِذْ هِيَ كُلُّهَا وَسَائِلُ إِلَى غَيْرِهَا، وَلَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِنَافِعِهَا. وَإِذَا زَخَرَ بَحْرُ الْعُمَرَانِ وَطَلِبَتْ فِيهَا الْكِمَالَاتِ، كَانَ مِنْ جُلَّتِهَا التَّائِقُ فِي الصَّنَائِعِ وَاسْتِجَادَتِهَا. فَكَمَلَتْ بِجَمِيعِ مُتَمَاتِهَا، وَتَزِيدَتْ صُنَائِعُ أُخْرَى مَعَهَا تَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ عَوَائِدُ

(١) ج: يكمل (ب) ي: يحصل (ج) في ع: العناية، وفي ط ج ي: العناية محملة، ولعل الصواب ما أقتضاه (د) ع: بمقدار.

التَّرف وأحواله: من خَرَزَ، ودَبَّاحَ، وجَزَّارَ، وصَانِعَ، وأمثال ذلك. وقد تَنَتَّبَى هذه الأصناف إذا اسْتَبَحَرَ الغُمران، أن يوجد منها كثيرٌ من الكمالات، ويُتَأَقَّق فيها في الغاية، وتكون من وجوه المعاش في المِصْرِ لِمُنْتَجِلِهَا، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال، لما يَدْعُو إليه التَّرف في المدينة، مثل الدهان، والصَّقَارِ، والحمامي، والطَّبَّاحِ، والسَّفَّاحِ، والهَزَّاسِ، ومُعَلِّمِ الغناء والرقص، وقَرَعَ الطُّبول على التَّقْوِيع؛ 5 ومثل الوَرَّاقِينَ الَّذِينَ يُعَانُونَ صِنَاعَةَ / انْتِسَاخِ الْكُتُبِ وَتَجْلِيدِهَا وَتَصْحِيحِهَا، فَإِنَّ هذه الصِّنَاعَةَ إِنَّمَا يَدْعُو إِلَيْهَا التَّرفُ فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِأُمُورِ الْفِكْرَةِ وَأَمْثَالِ ذلك. وقد تَخَرَّجَ عَنْ الْحَدِّ إِذَا كَانَ الْغُمرَانُ خَارِجاً عَنْ الْحَدِّ، كَمَا يَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ مِصْرَ، أَنَّهُمْ مِنْ يُعَلِّمُ الطُّيُورَ الْعُجْمَ وَالْحُمْرَ الْإِنْسِيَّةَ، وَيُجَيِّدُ أَشْيَاءَ مِنَ الْعَجَائِبِ 10 بِإِيْهِامِ قُلُوبِ الْأَغْيَانِ، وَيُعَلِّمُ الْحِدَاءَ وَالرَّقْصَ، وَالْمُنْثَى عَلَى الْحَيُوطِ فِي الْهَوَاءِ، وَرَفَعَ الْأَهْقَالَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْحِجَازَةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الصَّنَاعَاتِ الَّتِي لَا تَوْجَدُ عِنْدَنَا بِالْمَغْرِبِ، لِأَنَّ عُمَرَانَ أَمْصَارَهُ لَمْ يَبْلُغْ عُمَرَانَ مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ. وَاللَّهُ ﴿الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الزخرف، من الآية 84، سورة الذاريات، من الآية 30].

17 ﴿فَصَلِّ، فِي أَنْ مَرُسُوحَ الصَّنَاعِ فِي الْأَمْصَارِ بِرُسُوحِ الْحَضَارَةِ وَطُولِ 15 أَمَدِهَا﴾

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرٌ، وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ عَوَائِدُ لِلْغُمرَانِ وَالْأَوَّانِ. وَالْعَوَائِدُ إِنَّمَا تَزْسُخُ بِكَثْرَةِ التَّكْرَارِ وَطُولِ الْأَمَدِ، فَتَسْتَحْكُمُ صِنْعَةُ ذَلِكَ وَتَزْسُخُ فِي الْأَخْيَالِ. وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الصَّنْعَةُ عُسِرَ نَزْعُهَا. وَلِهَذَا فَإِنَّا نَجِدُ الْأَمْصَارَ الَّتِي كَانَتْ

استنشرت في الحضارة لما تراخى عُمرانها وتناقص، بقيت فيها آثار من هذه الصنائع
لنست في غيرها من الأمصار المستخذة العُمران، ولو تلتقت مبالغها في الوفور
والكثرة. وما ذلك إلا لأن أحوال تلك القديمة العُمران مُستحكة راسخة بطول
الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها، وهذه لم تبلغ الغاية بعد.

- 5 وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد؛ فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة
وأحوالها مُستحكة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني، والطبخ،
وأصناف الغناء واللهو، من الآلات والأوتار والرقص، وتضييد الفرش في القصور،
وحسن الترتيب والأوضاع في البناء، وصنوع الآنية من المعادن والخزف وجميع
المواعين، وإقامة الولائم والأعراس، وسائر الصنائع التي تدعو إليها الترف وعوائده.
10 [1275] فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها، وتجد صنائعها / مستحكة لديهم. فهم على حصة
مؤفورة من ذلك وخط مُميز بين جميع الأمصار، وإن كان عُمرانها قد تناقص
والكثير منه لا يساوي عُمران غيرها من بلاد العُدوة. وما ذلك إلا لما قدمناه من
رُسوخ الحضارة فيهم برُسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من
دولة الطوائف إلى هلم. فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر، إلا ما ينقل
15 عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماذ الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع
وكلت جميع أصنافها على الاستحادة والتنميق، وبقيت صيغتها ثابتة في ذلك
العُمران لا تفرقه إلى أن ينتفض بالكلية، حال الصنع إذا رسخ في الشوب.

وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة بالدول الصنهاجية
والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها ذلك من الصنائع في سائر الأحوال. وإن

كان ذلك دون الأندلس، إلا أنه متضاعف برُسوم منها تنتقل إليها من مضر، لقرب المسافة بينها وتردد المسافرين من فطرها إلى فطر مضر في كل سنة. وربما سكن أهلها هنالك عصوراً، فينقلون من عوائد ترفهم ومُخَمِّ صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاسترخاء. فصارت أحوالها في ذلك مُتشابهة من أحوال مضر لما ذكرناه، ومن أحوال الأندلس، لما أن أكثر ساكنيها من شَرِق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة 5 السابعة. ورسخ فيها [من ذلك] ⁽¹⁾ أحوال، وإن كان عُمرانها ليس بمناسب لذلك، لهذا العهد. إلا أن الصبغة إذا استحكمت قليلاً ما تحوّل إلا بزوال محلّها.

وكذا نجد بالقرن وقرنات وقلة ابن حماد أنراً باقياً من ذلك، وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب. ولا يتقطن لها إلا البصير من الناس، فيجد من هذه الصنائع أثارة تدلّه على ما كان بها، كأثر الخط الممخو في الكتاب. 10 والله ﴿الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية، 86، وسورة يس، من الآية 81].

18 / فصل، في أن الصنائع إنما تستجد وتكثر إذا كثر طالبيها [275ب]

والسبب في ذلك أن الإنسان لا يسمع بفعله أن يقع مجاناً، لأنه كسبه، ومنه معاشه، إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه، فلا يضرفه إلا فيما له قيمة في مضره ليعود عليه بالنفع. وإذا كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها الثقات، 15 كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التي تق سوقها وتجلب للبيع، فيجهد الناس في

(1) من ع ج ي، ومقط من ط.

المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم. وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة، لم يتفق سوقها، ولا توجه قُضد إلى تعلّمها، فاخْتُصَّت بالتَّرك وقُيدَتْ للإهمال. ولهذا يُقالُ عن عليّ⁽¹⁾ رضي الله عنه: قيمة كلِّ امرئٍ ما يُحسِن. بمعنى أنَّ صناعته هي قيمته، أي قيمة عمله الذي هو معاشه.

- 5 وأيضاً فهنا سرٌّ آخر، وهو أنَّ الصّانِع وإِجادَتها إنّما تطلِّبها الدَّولة، فهي التي تنفَع من سوقها وتوجّه الطَّلَبات إليها. وما لم تطلِّب الدولة وإنّما يطلبه غيرها من أهل المضر، فلنيس على نِسبتِها. لأنَّ الدَّولة هي السَّوقُ الأعظم، وفيها تَقاي كلِّ شيء، والقليل والكثير فيها على نِسبة واحدة، فما تَقى فيها كان أكثرَ ضرورة. والسَّوقَةُ، وإن طلبوا الصّناعة، فليس طلبهم بعامٍّ ولا سوقهم بنافعة. والله قادر على ما يشاء.

10

19● فصل، في أنَّ الأُمصار إذا قامَ رُبَّت الخراب اسَّقَصَتْ منها الصّنائِع

- وذلك لما يبيّنه من أنَّ الصّنائِع إنّما تُستَجدُّ إذا احتجَّج إليها وكثُر طلبها. فإذا ضَعُفت أحوالُ المضر وأخذ في الهَرَم بانقِصاص عُمرانه وقلة ساكنيه، تناقَص فيه التَّرف، ورَجَعوا إلى الافتِصارِ على الصَّروريِّ من أحوالهم؛ فتقلَّ الصّنائِع التي كانت من تَوابع التَّرف، لأنَّ صاحبها حينئذٍ لا يَصِحُّ له بها معاش. فيفرُّ إلى غيرها،

15

(1) أخرجه الخطيب في تاريخ مدينة السلام 6: 178 وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 1: 99 وابن مفلح في الآداب الشريفة 1: 378.

أو يَمُوتُ ولا يكون خَلْفَ منه، فيذْهَبُ رَغمُ تلك الصَّنائعِ جملةً، كما يَذْهَبُ
 [1276] التَّقَاشُونَ والصَّوَاعُونَ / والكَتَّابُ والنُّسَاحُ وأمثالُهم من الصَّنائعِ لحاجاتِ التَّرَفِ. ولا
 تَرَالُ الصَّناعاتُ في تَنَاقُصٍ⁽¹⁾ ما دام الحِضرُ في تَنَاقُصٍ⁽¹⁾ إلى أن يَضْمَجَلَ. والله
 ﴿الْحَلِيقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81]

5 20 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ الصَّنَائِعِ

والتسببُ في ذلك، أَنَّهُم أَعْرَقُوا فِي الْبَنُو، وَأَبْعَدُوا عَنِ الْغُفْرَانِ الْحَضَرِيِّ وَمَا
 يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَغَيْرِهَا. وَالْعَجَمُ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، وَأَمَمُ الْمَشْرِقِ، وَأَمَمُ
 النَّصْرَانِيَّةِ عُدُوَّةُ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ، أَقَوْمُ النَّاسِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُمْ أَعْرَقُوا فِي الْغُفْرَانِ الْحَضَرِيِّ
 وَأَبْعَدُوا عَنِ الْبَنُو وَغَيْرِهِ. حَتَّى أَنَّ الْإِبِلَ الَّتِي أَعَانَتْ الْعَرَبَ عَلَى التَّوَحُّشِ فِي الْفَقْرِ
 10 وَالْإِغْرَاقِ فِي الْبَنُو، مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ بِالْجُمْلَةِ، وَمَفْقُودَةٌ مَرَاعِيهَا وَالزَّمَالُ الْمُهِينَةُ لِنَبَاتِهَا.
 وَلِهَذَا نَجَدُ أَوطَانَ الْغَرْبِ وَمَا مَلَكَوهُ فِي الْإِسْلَامِ قَلِيلَ الصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ، حَتَّى تُجَلِّبَ
 إِلَيْهِ مِنْ قُطْرٍ آخَرَ.

وَانْظُرْ بِلَادَ الْعَجَمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَأَرْضَ التُّرْكِ وَأَمَمُ النَّصْرَانِيَّةِ، كَيْفَ
 اسْتَكْبَرَتْ فِيهَا الصَّنَائِعُ وَاسْتَعْجَلَتْهَا الْأُمَمُ مِنْ عِنْدِهِمْ. وَعَجِمَ الْمَغْرِبُ مِنَ التَّبْزِيرِ بِمِثَابَةِ
 15 الْغَرْبِ فِي ذَلِكَ، لِرُسُوخِهِمْ فِي التَّبَاوُؤِ مِنْذُ أَحْقَابِ مِنَ السَّنِينَ. وَيَشْهَدُ لِكَ ذَلِكَ
 قِلَّةُ الْأَمْصَارِ بِطَرَفِهِمْ، كَمَا قَدَّمَاهُ. فَالصَّنَائِعُ بِالْمَغْرِبِ لَذَلِكَ قَلِيلَةٌ وَغَيْرُ مُسْتَحْكَمَةٍ، إِلَّا

(1) فِي ج: تَنَاقُصٌ .

ما كان من صناعة الصوف في نسجه، والجلب في خزره وذبحه، فإنهم لما
استخضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها، وكَوْنِ هذين أغلب السلع في قُطْرِهِم
لما هم عليه من حال البداوة.

- وأما المشرق، فقد رَسَخَتِ الصَّنَائِعُ فِيهِ مِنْذُ مُلْكِ الْأُمَمِ الْأَقْدَمِينَ، مِنَ الْفُرسِ
وَالثَّبَّتِ وَالْقِنْطِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَبُيُوتَانَ وَالتُّرُومَ أَحْقَاباً مُتَطَاوِلَةً، فَرَسَخَتْ فِيهِمْ أَحْوَالُ 5
الْحَضَارَةِ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا الصَّنَائِعُ، كَمَا قَدَمْنَاهُ، فَلَمْ يَمَحْ رَسْمُهَا. وَأَمَّا الْيَمَنُ وَالتَّبَحْرَيْنِ
وَعُمَّانُ وَالْجَزِيرَةُ، وَإِنْ مَلَكَهَا الْعَرَبُ، إِلَّا أَنَّهُمْ تَدَاوَلُوا مُلْكَهُ أَلْفَافاً مِنْ / السَّنِينَ فِي أُمِّ [276ب]
كَثِيرِينَ مِنْهُمْ، وَاخْتَلَطُوا أَيْضاً أَمْصَارَهُ وَمُدْنَهُ، وَتَلَعُوا الْمَبَالِغَ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالتَّرَفِ،
مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَالِقَةِ وَحِمَيْرٍ مِنْ بَعْدِهِمُ وَالتَّبَابِيعَةِ وَالْأَدْوَاءِ. فَطَالَ أَمَدُ الْمُلْكِ
وَالْحَضَارَةِ وَاسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهَا، وَتَوَقَّرَتِ الصَّنَائِعُ وَرَسَخَتْ، فَلَمْ تَبَلْ بِبَلَى الدَّوْلَةِ كَمَا 10
قُلْنَاهُ، فَبَقِيَتْ مُسْتَجِدَّةً حَتَّى الْآنَ، وَاخْتَصَّتْ بِذَلِكَ الْمَوْطِنَ، كَصِنَاعَةِ الْوُشْيِ
وَالْقَضْبِ وَمَا يُسْتَجَادُ مِنْ خَوْكِ الْقِيَابِ وَالْحَرِيرِ فِيهَا. وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا.

21 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ مِنْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ فِي صِنَاعَةٍ فَقَلَّ أَنْ يُجِيدَ
بَعْدَهَا مَلَكَةٌ فِي⁽¹⁾ أُخْرَى

- ومثال ذلك الخياط، إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها، وَرَسَخَتْ فِي نَفْسِهِ، 15
فَلَا يُجِيدُ مِنْ بَعْدِهَا مَلَكَةٌ التَّجَارَةُ أَوْ الْبِنَاءُ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلَى لَمْ تَسْتَخْمْ بَعْدُ وَلَمْ

(1) سقط من ي ج .

تَرْسُخُ صِبْغَتِهَا. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ صِفَاتٌ لِلنَّفْسِ وَالْوَانُ، فَلَا تَزْدَجِمُ دَفْعَةً. وَمَنْ كَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ كَانَ أَسْهَلَ لِقَبُولِ الْمَلَائِكَةِ وَأَحْسَنَ اسْتِعْدَاداً لِحُصُولِهَا. فَإِذَا تَلَوَّتِ النَّفْسُ بِالْمَلَائِكَةِ خَرَجَتْ عَنِ الْفِطْرَةِ، وَضَعُفَ فِيهَا الْاسْتِعْدَادُ بِاللَّوْنِ الْحَاصِلِ مِنْ هَذِهِ الْمَلَائِكَةِ، فَكَانَ قَبُولُهَا لِلْمَلَائِكَةِ الْأُخْرَى أَوْعَفَ. وَهَذَا يَبَيِّنُ إِشْهَادَهُ 5
الْوُجُودِ. فَقُلْ أَنَّ نَجْدَ صَاحِبِ صِنَاعَةٍ يُحْكِمُهَا فَيُخَيِّمُ مِنْ بَعْدِهَا أُخْرَى، وَيَكُونُ فِيهَا مَعاً عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِجَادَةِ. حَتَّى أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذِينَ مَلَكَتْهُمْ فِكْرِيَّةٌ فَهَمُ هَذِهِ الْمُنَابَةِ، وَمَنْ خَصَلَ مِنْهُمْ عَلَى مَلَائِكَةِ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَأَجَادَهَا فِي الْغَايَةِ فَقُلْ أَنَّ يُجَيِّدُ مَلَائِكَةَ عِلْمٍ آخَرَ عَلَى نِسْبَتِهِ، بَلْ يَكُونُ مُقَصِّراً فِيهِ إِنْ طَلَبَتْهُ، إِلَّا فِي الْأَقْلَى التَّادِرِ مِنَ الْأَخْوَالِ. وَمَتَنَى سَبَبُهُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ شَأْنِ الْاسْتِعْدَادِ وَتَلَوْنِهِ بِلَوْنِ الْمَلَائِكَةِ 10
الْحَاصِلَةِ فِي النَّفْسِ. / وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

[1 277]

22 فصل في الإشارة إلى أمهات الصنائع

اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في الغفران. فهي بحيث تشد عن الحصر ولا يأخذها العدد. إلا أن منها ما هو ضروري في الغفران، أو شريف بالموضوع، فتخصه بالذكر وتترك ما سواها.

فأما الضروري، فكالملاحة، والبناء، والخباطة، والتجارة، والحياكة. وأما الشريفة بالموضوع، فكالتوليد، والكتابة، والوراقة، والغناء، والطب. 15

فأما التوليد، فإنها ضرورية في العمران وعامة التلوي، إذ بها تحصل حياة المولود ويتم غالباً. وموضوعها مع ذلك: المولودون وأمهاتهم.

وأما الطب، فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه، ويتفرع عن علم الطبيعة. وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان.

5 وأما الكتابة وما يتبعها من الوراثة، فهي حافظة على الإنسان حاجته، ومفيدة لها عن السنين، ومبلغة ضامن النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورابعة رتب الوجود للمعاني.

وأما الغناء، فهو ينسب الأضواء، ومظهر جمالها للأشباع.

وكل هذه الصنائع الثلاث دأب على مخالطة الملوك الأعظم في خلواتهم ومجالس أنسهم، فلها بذلك شرف ليس لغيرها. وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة 10 ومفتنة في الغالب. وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والتواقي. والله ﴿الْخَلْقُ أَلْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81].

23 • فصل في صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب، بالقيام على إثارة الأرض لها وازدياعها، وعلاج نباتها، وقهاهده بالسقي والشمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد 15 سنبله واستخراج حبه من غلافه، وإحكام الأعمال لذلك وتحصيل أسبابه ودوايعه.

وهي أقدم الصناعات، لما أتتْها مُحَصَّلَةٌ للقوتِ المُكَمَّلِ الحياة / الإنسان غالباً، إذ [277ب] يُمكن وجودُه من دون جَمِيع الأشياءِ إلّا من دونِ القوتِ. ولهذا ما اخْتُصَّتْ هذه الصناعةُ بالبُنى، إذ قَدَّمْنَا أَنَّهُ أَقْدَمُ من الحَضَرِ وسابِقٌ عليه. فكانتْ هذه الصناعةُ لذلك بدويَّةً لا يقومُ عليها الحَضَرُ ولا يَعْرِفونها، لأنَّ أحوالهم كُلَّها ثانيَّةٌ عن البداوة. 5 فضنائِعُهم ثانيَّةٌ عن صنائِعِها، وتابعةٌ لها. والله ﴿الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81]

24 • فَصْلٌ فِي صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ

هذه أَوَّلُ صنائعِ الغُمرانِ الحَضَرِيِّ وأقدمُها. وهي مَعْرِفَةُ العَمَلِ في اتِّخَاذِ الْبُيُوتِ والمنازلِ لِلشَّكَنِ⁽¹⁾ والمَأْوَى.

10 • [وذلك أَنَّ الإنسانَ لَمَّا جُبِلَ عليه من الفِكرِ في عَوَاقِبِ أحواله لا يَبْدُ له أَن يُفَكِّرَ في مَوَانِعِ إِذَايَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ عنه، باتِّخَاذِ الْبُيُوتِ ذَوَاتِ الْحَيَاطِ وَالشَّقْفِ الحائِثَةِ دون ذلك من بَهْجَتِهِ. والبَشَرُ مُخْتَلِفُونَ في هذه الْجِلَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي هي مَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ. فَاِلْمُتَعَدِّلُونَ فيها - ولو على التَّقاوتِ - يَتَخَذُونَ ذلك باِغْتِدَالِ، كأهلِ الْإِقْلَامِ الثَّانِي والثَّالِثِ والرَّابِعِ والخامِسِ والسادِسِ. وأَمَّا أَهْلُ الْأَوَّلِ والسَّابِعِ فَيَتَعَدَّدُونَ 15 عن اتِّخَاذِ ذلك، لَانْحِرَافِهِمْ وَفُصُورِ أَفْكَارِهِمْ عن كَيْفِيَّةِ العَمَلِ في الصَّنَائِعِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَيَأْوُونَ إلى الْغَيْرَانِ والكُهُوفِ، كما يَتَنَاوَلُونَ الْأَغْذِيَّةَ من غَيْرِ عِلاجٍ ولا نَضِجٍ.

(1) في ع ح ي: لَكُنْ (ب) حاشية بخطه في ع، أتمتها نسخة ج، وسقطت من نسختي ط ي .

ثم المُتَعَدِّلُونَ الْمُتَخَذُونَ الْبُيُوتَ لِلْمَأْوَى، قَدْ يَتَكَثَّرُونَ فَتَكْثُرُ بِيُوتُهُمْ فِي
الْبَسِيطِ الْوَاحِدِ، بَحِثْ يَتَنَاقَرُونَ وَلَا يَتَعَارَفُونَ، فَيُخْشَى مِنْ طُرُقِ بَغْضِهِمْ
الْبَغْضَ [يَبَاتُ] ^(١) فَيَتَحْتَاجُونَ إِلَى حِفْظِ مُجْتَمَعِهِمْ بِإِدَارَةِ سِيَاخِ الْأَسْوَارِ الَّتِي تُحَوِّطُهُمْ،
وَيَصِيرُ جَمِيعُهَا مَدِينَةً وَمَضَرًا * وَاحِدًا يُحَوِّطُهُمْ فِيهِ الْحَكَّامُ بِدِفَاعِ بَغْضِهِمْ عَنْ
بَغْضِ * ^(ب). وَقَدْ يَتَحْتَاجُونَ إِلَى الْاِغْتِيصَامِ مِنَ الْقُدُورِ فَيَتَخَذُونَ الْمَاعِقَالَ وَالْحَصُونَ لَهُمْ 5
وَلَمْ تَحْتَ أَبْدِيهِمْ. وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَغْنَاهُمْ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَكِبَارِ الْقَبَائِلِ.

ثُمَّ تَخْتَلِفُ أَمْوَالُ الْبِنَاءِ ^(ج) فِي الْمَدْنِ، كُلُّ مَدِينَةٍ عَلَى مَا يَتَعَارَفُونَهُ
وَيَضْطَلِحُونَ عَلَيْهِ، وَيُنَاسِبُ مَزَاجَ هَوَائِهِمْ وَاخْتِلَافَ أَمْوَالِهِمْ فِي الْبَقَى وَالْفَقْرِ. وَكَذَا
حَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ، فَهُمْ مِنْ يَتَخَذُ الْقُصُورَ وَالْمَصَانِعَ الْعَظِيمَةَ السَّاحَةَ،
الْمَشْتَعِلَةَ عَلَى عِدَّةِ الدُّورِ وَالْبُيُوتِ وَالْغُرَفِ لِكَثْرَةِ وَلَدِهِ وَحَشَمَتِهِ وَبَنِيهِ وَتَابِعِهِ. 10
وَيُؤَسِّسُ جُدْرَانَهَا بِالْجِبَارَةِ، وَيُلْهَمُ بَيْنَهَا بِالْكُلُسِ، وَيُعَالِي عَلَيْهَا بِالْأَصْبَغَةِ وَالْجَصِّ،
وَيُبَالِغُ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِالتَّنْجِيدِ وَالتَّنْمِيقِ، إِظْهَارًا لِلْبَسْطَةِ ^(د) فِي الْعِنَايَةِ بِشَأْنِ الْمَأْوَى،
وَيُهَيِّئُ مَعَ ذَلِكَ الْأَسْرَابَ وَالْمَطَامِيرَ لِاخْتِرَانِ أَقْوَاتِهِ، وَالِإِضْطِبَالَاتِ لِرِزْقِ مُقَرَّبَاتِهِ إِنْ
كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجُنُودِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ وَالْغَاشِيَةِ، كَالْأُمَرَاءِ وَمَنْ فِي مَغْنَاهُمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَنِي
الدُّوْرَةَ وَالْبُيُوتَ لِنَفْسِهِ وَسَكْنَتِهِ وَوَلَدِهِ، لَا يَنْتَنِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، لِقُصُورِ حَالِهِ عَنْهُ، 15
وَأَقْصَارِهِ عَلَى الْكَرْبِ الطَّالِعِيِّ لِلْبَشَرِ. وَبَيْنَ ذَلِكَ مَرَاتِبٌ غَيْرُ مُنْخَصِرَةٍ.

(١) م ج (ب) انفردت ج وحدها بما بين النجمين (ج) نهاية حاشية بخطه في ع، أثبتنا نسخة ج. وسقطت من نسختي ط ي
(د) ج: للبسيطة .

وقد يُجْتَنَبُ إلى هذه الصَّنَاعَةِ أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدُولِ المدنِ العظيمةَ والهيَاكِلَ المرتفعة. ويُبالغون في إِيْقَانِ الأَوْضَاعِ وَعُلُوِّ الأَجْرَامِ مع الإِخْكَامِ لَتَنْبُلُ الصَّنَاعَةُ مبالغها. * وهذه الصَّنَاعَةُ هي الَّتِي تُحْصَلُ التَّوَاعِي لذلك كُلُّهُ. وأكثر ما تكونُ هذه الصَّنَاعَةُ في الأقاليمِ المُغْتَدِلَةِ*^(١) من الزَّاعِ وما حَوْلَهُ؛ إذ الأقاليمِ المُخْرِفَةُ [١٢٧٨] لا بُنَاءَ فيها ، وإنَّما يَتَّخِذُونَ البيوتَ حِطَّائِزَ من القَصَبِ والطِّينِ ، [أو يَأْوُونَ إلى الكهوف والغيرانِ]^(ب) وإنَّما تَوْجَدُ في الأقاليمِ المُغْتَدِلَةِ^(ج).

وأهلُ هذه الصَّنَاعَةِ القَائِمُونَ عليها مُتَوَاتُونَ. فبينهم البَصِيرُ المَاهِرُ، ومنهم القاصِرُ.

ثم هي تَنْتَوِّعُ أَنْوَاعاً كَثِيرَةً:

فمنها البِنَاءُ بِالْحِجَارَةِ الْمُتَّجِدَةِ ، أو [بِالْأَجَرِ]^(د) يُقَامُ بها الجدرانُ مُلْصَقاً بَعْضُهَا إلى بَعْضٍ بالطِّينِ وَالْكِلْسِ الَّذِي يُعْقَدُ معها فَتَلْتَجِمُ كَأَنَّهَا جِسْمٌ وَاحِدٌ. 10

ومنها البِنَاءُ بِالتُّرَابِ خَاصَّةً، [تقام منه الحيطان، بأن]^(هـ) يَتَّخِذُ لَهُ لَوْحَانِ مِنَ الخَشَبِ مَقْدَرَانِ طَوِلًا وَعَرْضًا بِاخْتِلَافِ العَادَاتِ فِي التَّقْدِيرِ، وَأَوْسَطُهُ أَرْبَعَةُ أَذْرَعٍ فِي ذِرَاعَيْنِ. فَيُنْصَبَانِ عَلَى أَسَاسٍ، وَقَدْ بُوعِدَ مَا بَيْنَهُمَا بِمَا يَرَاهُ صَاحِبُ البِنَاءِ فِي عَرْضِ الأَسَاسِ، وَيُوصَلُ بَيْنَهُمَا بِأَذْرَعَاتٍ مِنَ الخَشَبِ يَرْبُطُ عَلَيْهَا الْجِبَالِ وَالْجُدُلَ، وَتُسَدُّ الْجِهَتَانِ الْبَاقِيَتَانِ مِنْ ذَلِكَ الْخَلَاءِ^(و) بَيْنَهُمَا بِلَوَاحِيْنِ آخَرَيْنِ صَغِيرَيْنِ. ثم يُوضَعُ فِيهِ التُّرَابُ مُخْتَلِطًا بِالْكِلْسِ * وَيَبْلُطُ بِالْمَزَاكِرِ الْمُغْدَةِ لذلك، حَتَّى يَنْتَعِمَ رُكُوزُهُ وَتُخْتَلِطَ 15

(١) ما بين البحرين من: ظي، وسقط من ع ج (ب) حاشية من ع، وسقطت من ظ ح ي (ج) هذه الجملة من ظ، ووجدت في الأصل ع، ثم شطبها (د) من ع (هـ) حاشية بخطه من ع (و) في ج ي، وفي الأصل ع ونُزِرت إلى الفضاء .

أجزاءه بالكلس^(١)، ثم يَراد الترابُ ثانياً وثالثاً إلى أن يَمْتَلئ ذلك الخلاء^(ب) بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً. ثم يُعاد نَصَب اللوحين على الصورة الأولى، ويركز كذلك إلى أن يَم، وتُنظَّم الألواح كلها سَطراً من فوق سَطْر إلى أن يَنْتَظِم الحائط كله مُلتجِماً كأنه قطعة واحدة، ويُسمى الطَّائِيَّة، وصانعه الطَّوَاب.

5

ومن صنائع البناء أيضاً أن تُجَلِّل الحيطان [بالكلس]^(ج) بعد أن يُحَلِّ بالماء ويُحَمَّر أسبوعاً أو أسبوعين، على قَدَر ما يَغْتَدل مزاجه عن إفراط النارية المُفسِدة للإلحاح. فإذا تمَّ له ما يرضاه من ذلك، علاه من فوق الحائط وذلكة إلى أن يَلْتَجِم. ومن صنائع البناء عَمَلُ الشَّقْف، بأن تُمدَّ الحشْبُ الحَكْمَةُ التَّجَارَةُ أو الساذجة على حائطي البَيْت، ومن قَوْفها الألواح كذلك موصولة بالأسائر، ويُصَب عليها 10 التراب والكلس، ويُبلَط بالمراكر حتَّى تَتداخل أجزاءهما وتلتحم، ويُعالَى عليه الكلس كما عُولِيَ على الحائط.

[278ب] / ومن صناعة البناء ما يَرْجَع إلى التَّنْمِيق والتَّزِين، كما تُصَنَع من فوق

الحيطان الأشكالُ الجَسْمَةُ من الجِصَّ يُعَقَّد بالماء، ثم يَزْفَعُ مُجَسِّداً وفيه بَقِيَّةُ البَلَل، فيشكَل على التَّنَاسِبِ تَحْزِماً بِمِثاقِبِ الحديد، إلى أن يَبْقَى له زَوْنَقٌ وزَوَالٌ. وربما 15 عُولِيَ على الحيطان أيضاً بِقِطْعِ الرُّخَامِ أو الأَجْزَرِ أو الحَزَفِ أو الصَّدْفِ أو السَّبَجِ، يُفَصَّلُ أجزاء متجانسة أو مُخْتَلَفَةً، ويوضَعُ في الكلس على نِسَبٍ وأوضاعٍ مَقْدَرَةٍ

(١) من ج ع ي، وسط من ط (ب) في ج ي، وفي الأصل ع وقُيرَت إلى الفِضاء (ج) من: ع ج ي، وسقطت من ط.

عندهم، ويبدو به الحائطُ للعيان كأنه قطعُ التّرياض المُتَمَتِّة، إلى غير ذلك من بناء الجباب والصّهاريج لسيّج الماء، بعد أن تُعدّ في البيوت قِصاعُ الرّخام، القوّاء المُخَمَّمة الحُرْط، بالقوّاه في وَسَطِها لتُنْعِ الماء الجاري إلى الصّهرج، يَجْلِبُ إليها من خارج القنّوات المُفْضِيّة به إلى البيوت. وأمثال ذلك من أنواع البناء.

5 ويختلف الصّناع في جميع ذلك باختلاف الجِدْق والبصر. ويغظم عُمران المدينة ويَتَسَّع، فيكثُرُون.

وربّما يرجع الحَكَّامُ إلى نَظَرِ هؤلاء فيما هم أبصرُ به من أحوال البناء. وذلك أن التّاس في المُدن لِكثَرَةِ الازدحام والعُمران، يَتَشَاخُونَ حتّى في الفِضاء والهواء للأعلى والأسفل، وفي الانْتِفَاع بظاھر البناء ممّا يُتَوَقَّع معه حُصول الضّرر في الحيطان، فمِنَعُ جازِه من ذلك إلّا ما كان له فيه حقٌّ. ويختلفون أيضاً في استِخْفاق 10 الطّرُق والمناذِل للمياه الجارية والفَصَلات المُسرّية في القنّوات. وربّما يدّعي بعضُهم حقٌّ بَعْض في حائِطِه أو علوّه أو قنّاتِه لتضائِق الجوار، أو يدّعي بعضٌ على جاره اغْتِلال حائِطِه وحَشِيّة سُقُوطِه، ويحتّاجُ إلى الحُكْم عليه بهذمه ودفع ضَرَرِه عن جاره عند من يراه، أو يحتّاجُ إلى قِسْمَةِ دارٍ أو عَرَضَةِ بَيْن شريكين، بحيث لا يَبْغُ مَعَه فسادٌ في الدّار ولا إِهْمالٌ لِمُنْفَعَتِها. وأمثال ذلك. ويخفى جميع ذلك إلّا على أهل 15 البَصَر بالبناء، العارفين بأحواله، المُستَديِلين عليها بالمعاقد/ والقُمُط ومراكز الخشب، ومِثْل الحيطان واغْتِلالها، وقَسَم المساكين على نِسْبَةِ أَوْضَاعِها وَمَنافِعِها، وتَسْرِيب⁽¹⁾

[1 279]

(1) ع: تَسْرِيب.

المياه في القنوات مَجْلُوبَةٌ ومُدْفُوعَةٌ، بحيثُ لا تَضُرُّ بما مرّت عليه من البيوت والحيطان، وغير ذلك. فلمْ بهذا كله البَصْرُ والجِزْرَةُ الّتي لَيْسَتْ لغيرهم.

وهم مع ذلك يَحْتَلِفُونَ بالجُودَةِ والقُصُورِ في الأَخْيَالِ باعتبارِ الدَّوَلِ وقُوَّتها. فإنّا قدّمنا أنّ الصّنائع وكلّها إمّا هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها. فذلك⁽¹⁾

عندما تكون الدولة بدويّة في أوّل أمرها تُقْتَرَفُ في أمر البناء إلى غير قطرها، كما
5 وقعَ للوليد بن عبد الملك حين أجمع بناءَ مَسْجِدِ المدينة والقدس ومَسْجِدِهِ بالشّام.
فبعثَ إلى ملك الروم بالشّسططينيّة في الفعلة المَهْرَةَ في البناء، فبعث إليه منهم من
كُفِّلَ له غَرَضُهُ من تلك المساجد.

وقد يُصَرَّفُ^(ب) صاحبُ هذه الصّناعة أشياء من الهندسة، مثل تَسْوِيَةِ

الحيطانِ بالوِزْنِ، وإجراء المياه بأخذ الانّزِفاع، وأمثال ذلك؛ فيحتاج إلى البَصْرِ
10 بشيء من مسائله. وكذلك في جَرِّ الأثقال بالهِنْدَامِ، فإنّ الأجزاء العظيمة إذا شُدِّيت
بالجِارة الكبيرة تُعْجِزُ قُدْرَ الفعلة عن رَفْعِها إلى مكانها من الحائط؛ فيُتَحَيَّلُ لذلك
بمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الحَبْلِ، بإدخاله في المَعَالِقِ من أنقاب^(ج) مقدّرة على نسبِ هندسيّة،
تُصَيِّرُ التَّحْيِيلَ عند مُعَانَاةِ الرِّفْعِ خَفِيفاً، [وتسمّى الآلة لذلك بالمِيخَالِ]^(د). فيتمّ المراد من
15 ذلك بغير كلفة. وهذا إمّا يتمّ بأصول هندسيّة معروفة مُتَدَاوِلَةٌ بين البشر. وبمثلها
كان بناء الهياكل المائِلة لهذا العهد، الّتي يحسب الناس أنّها من بناء الجاهليّة، وأنّ
أبدانهم كانت على نِسْبِها في عِظَمِ الجِثَانِ؛ وليس كذلك. وإمّا تمّ لهم ذلك بالحيل
الهندسيّة، كما ذكرناه. فتفهّم ذلك. والله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 47].

(1) في ع ج ي، وفي ط: فكذلك (ب) كذا في ط ع ج ي، يعني يستخدم (ج) ي: أهاب (د) من ع .

25 • فصلٌ، في صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضرورات الغمران ، ومادتها الخشب . وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمي / في كل مكنون من المكنونات منافع يكمل بها [279ب] ضروراته أو حاجاته ، وكان منها الشجر ، فإن له فيه من المنافع ما لا يتحصّر ، وما هو معروف لكل واحد . ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا يئست ، وأول منافع الخشب أن يكون وقوداً للتيران في معاشهم ، وعصيّاً للاتكاء والدّود ، وغيرها من ضروراتهم ، ودعائهم لما يخشى مثله من أفعالهم ، ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر .

فأما أهل البدو ، فيتخذون منها العمد والأوتاد لحياصهم ، والحدوج لظلماتهم ، 10 والرماح والقيسيّ والسهم لسيلاحهم ⁽¹⁾ . وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم ، والأغلاق لأنواعهم ، والكراسي للجلوسهم . وكل واحد من هذه ، فالخشب مادة لها ، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة . والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها ، هي التجارة على اختلاف رتبها .

فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولاً ، إما بخشب أصغر منه أو 15 بالواح ، ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصورة المطلوبة . فهو في كل ذلك يحاول بصفته إعداد تلك الفصائل بالانظام ، إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص . والقائم على هذه الصناعة هو التجار . وهو ضروري في الغمران .

(1) ي: والتلاح.

ثم إذا عَظُمَت الحضارة وجاء الترف، وتأثّق الناس فما يتّخذونه من كلّ صنيّف [من] ⁽¹⁾ سَقَف أو باب أو كرسيّ أو ماعون، حَدَثَ التّأثّق في صناعة ذلك واستِجادته بقرائن من الصّنع كالمِثَرِ ليست من الصّور في شيء، مثل التخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهيئة القِطَع من الحشَب بصناعة الحِزط يُحَكِّمُ بَينَها وتَشَكِّلُها ثم تُؤَلَّف على نِسَب مُقدَّرة، وتُلخَم بالآسَاتِير فتَبْدو لمزأى 5 الغِنِ ملتحمة وقد أخذ منها اِختِلَاف الأشكال على تَنَاسُب، يُصنع هذا في كلّ شكل يتّخذ من *الحشَب، فتَجيءُ آنق ما يَكون. وكذلك في جميع ما يُحتاج إليه من الآلات المتّخذة من الحشَب* ^(ب) من أي نوع كانت.

وكذلك قد يُحتاج إلى هذه/ الصناعة في إنشاء السفن البحريّة ذات الألواح والدُّسُر. وهي أجرامٌ هندسيّة صُنِعت على قَالِب الحَوْب واعتبار سَبَحه في 10 الماء بقواديمه وكلّكليه، ليكون ذلك الشكل أغَوْن لها في مُصادمة الماء، وجعل لها عِوَضَ الحَرَكة الحيوانيّة التي للسمك تحريك الرياح، وزُيِّمَ أعينَت بحركة المقاذيف كما في الأساطيل.

وهذه الصناعة من أضلّها مُختاجة إلى جُزء كبير من الهندسة في جميع أعضائها. لأنّ إخراج الصّور من القوّة إلى الفِعل على وَجْهِ الإحكام مُختاج إلى 15 معرفة التَناسُب في المقادير، إمّا عُموماً أو خُصوصاً، وتَناسُبُ المقادير لا بُد من الرُّجوع فيه إلى المُهندِس. ولهذا كان أَيْمَةُ الهندسة اليونانيّون كلّهم أَيْمَةً في هذه

(1) سقط من ط (ب) سقط ما بين النجمين من ج .

الصناعة. فكان أفلدس، صاحب كتاب الأصول في الهندسة، نجاراً، وبها كان يُعرف. وكذلك أبولونيوس، صاحب كتاب المخروطات، وميلاؤش، وغيرهم.

وفما يقال: إن مُعَلِّم هذه الصناعات في الخليقة هو نوح، عليه السلام، وبها أنشأ سفينته التجارة التي بها كانت مُعْجَزَتُهُ عند الطوفان. وهذا الخبر، وإن كان مُفْكِناً، أغني كونه نجاراً، إلا أن كونه أول من عملها لا دليل يقوم عليه، لبُعد الآماد؛⁵ وإنما مَفْناهُ الإشارة إلى قِدَم التجارة. لأنه لم تَصِحْ حكايةُ عنها قبلَ خَيْرِ نوح عليه السلام، فجعل كانه أول من تَعَلَّمَهَا. فَتَتَبَّعُوا أَسْرَارَ الصَّانِعِ فِي الْخَلِيقَةِ. وَاللَّهُ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81﴾.

26 • فصل، في صناعة الحياكة والحياطة

10 (أ) اعْلَمْ أَنَّ الْمُغْتَدِلِينَ مِنَ الْبَشَرِ فِي مَعْنَى الْإِنْسَانِيَةِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ فِي [معنى] (ب) الدَّفءِ، كَالْفِكْرِ فِي الْكَيْ. وَيُحْضَلُ الدَّفءُ بِاشْتِمَالِ الْمُنْسُوجِ لِلْوَقَايَةِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. وَلَا بُدَّ لذلِكَ مِنَ إِنْجَامِ الْعَزَلِ حَتَّى يَصِيرَ ثَوْباً وَاحِداً، وَهُوَ الشَّخْجُ وَالْحَيَاكَةُ.

فإِنْ كَانُوا بَادِيَةً اقْتَصَرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَالُوا إِلَى الْحَضَارَةِ، فَصَلُّوا تِلْكَ [الثياب] (ج) الْمُنْسُوجَةَ قِطْعاً يَقْدَرُونَ مِنْهَا ثَوْباً عَلَى الْبَدَنِ بِشَكْلِهِ وَتَعَدُّ أَعْضَائِهِ 15

(أ) حاشية من ع مخطه لم تنقلها ظ ي (ب) من: ج (ج) من: ع ج

واختلاف نواحيها. ثم يَلايَمُونَ بَيْنَ تلكِ القَطْعِ بالوَصَائِلِ، حَتَّى يَصْبِرَ ثَوْباً واحداً مُقَدَّراً على البَدَنِ، وَيَلْبَسُونَهَا. والصَّنَاعَةُ الْمُحْصَلَةُ لهذه المِلاءِمة، هي الخِيَاطَةُ^(أ).

وهاتان الصَّنَاعَتَانِ ضروريَّتانِ في الغُمرانِ، لما يَحْتَاجُ إليه البَشَرُ من اللِّبَاسِ.

5 فالأولى لِنَسْجِ الغَزْلِ من الصَّوْفِ وَالْفُطْنِ سَدَواً في الطَّوْلِ وإِلْهاماً في الغُرْزِ، وإِخْكاماً لِنَازِلِ النَّسْجِ بِالْإِلْهِامِ الشَّدِيدِ، فَتَبَيَّنَ مِنْهَا قِطْعٌ مُقَدَّرَةٌ. فَمِنْهَا الْأَكْسِيَّةُ مِنَ الصَّوْفِ لِلإِسْتِخَالِ، وَمِنْهَا الثِّيَابُ مِنَ الفُطْنِ وَالكِتَانِ لِلْبَاسِ.

والصَّنَاعَةُ الثَّانِيَةُ لِتَقْدِيرِ الْمَنَسُوجَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ / الأشْكَالِ وَالْعَوَائِدِ ،^[280ب] تُفَصِّلُ^(ب) أَوَّلاً بِالْمَقَارِضِ قِطْعاً مُنَاسِبَةً لِلْأَعْضَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ، ثُمَّ تُلَحِّمُ^(ج) تِلْكَ الْقِطْعَ بِالْخِيَاطَةِ الْمُخَكَّمَةِ وَضِلاً أَوْ حَبْكَاً أَوْ ثَنِيئاً^(د) أَوْ ثَنِيئاً عَلَى [حَسَبِ]^(هـ) نَوْعِ الصَّنَاعَةِ. وَهَذِهِ الثَّانِيَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْغُمرانِ الْحَضَرِيِّ، لِمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ يَسْتَعْمِلُونَ عَنْهَا، وَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُونَ الْأَثَوَابَ اشْتِمَالاً؛ وَإِنَّمَا تُفَصِّلُ الثِّيَابَ وَتَقْدِيرُهَا وَإِلْهَامُهَا بِالْخِيَاطَةِ لِلْبَاسِ، مِنْ مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَفُنُونِهَا.

وَتَفْهَمُ سِرَّ هَذَا فِي تَحْرِيمِ الْمَخِيطِ فِي الْحَقِّ، لِمَا أَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْحَقِّ مُسْتَقْبَلَةٌ عَلَى تَبْذِيرِ الْعَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ كُلِّهَا، وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ كَمَا خَلَقْنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، حَتَّى لَا يَتَلَقَّ¹⁵ الْعَبْدُ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ مِنْ عَوَائِدِ تَرْفِهِ، لَا طَيِّباً وَلَا نِسَاءً وَلَا مَخِيطاً وَلَا خُفّاً، وَلَا يَغْرُضَ لَصِيدٍ وَلَا لَشِيءٍ مِنْ عَوَائِدِهِ الَّتِي تَلَوُّنُهَا بِهَا نَفْسُهُ وَخُلُقُهُ، مَعَ أَنَّهُ يَقْدِرُهَا

(أ) نهاية حاشية من ع بخطه، لم نقلها ط ي (ب) في ع: تفصل (ج) ح: تلحم (د) ج: ثنيئاً (هـ) من: ع ي.

بالموت ضرورة. وإنما يحيى كآته وارِدٌ على المخشتر، ضارِعاً بقلبه، مُخلصاً لربه. وكان جزاؤه - إن تَمَّ له إخلاصه في ذلك - أن يُخْرِجَ من ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.

سَبْحَاتُكَ مَا أَرْفَقَكَ بِعِبَادِكَ وَأَرْحَمَكَ بِهِمْ فِي طَلَبِ هِدَايَتِهِمْ إِلَيْكَ.

وهاتان الصناعتان قديمتان في الخليقة، لما أَنَّ الدَّفْعَ ضروريَّ للبَشَرِ في الغفران 5 المُغْتَلَبِ. وَأَمَّا الْمُتَخَرِّفُ إِلَى الْحَرِّ، فَلَا يَخْتَاجُ أَهْلُهُ إِلَى دَفْعٍ، وَلِهَذَا يَلْفِظُنَا عَنْ أَهْلِ الْإِقْلَامِ الْأَوَّلِ مِنَ السُّودَانِ، أَنَّهُمْ غَرَاةٌ فِي الْغَالِبِ. وَلَقَدْ مَ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ تُنْسَبُهَا الْعَامَّةُ إِلَى إِدْرِيسَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَقْدَمُ الْأَنْبِيَاءِ. وَرَبَّمَا يُنْسَبُوهَا إِلَى هُزْمَسَ، وَقَدْ يَقَالُ: إِنَّ هُزْمَسَ هُوَ إِدْرِيسَ. وَاللَّهُ ﴿الْحَلَقْتُ الْعَلِيمُ﴾. [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81].

27 • فَصْلٌ فِي صِنَاعَةِ التَّوَلِيدِ

10 وهي صِنَاعَةٌ يَعْرِفُ بِهَا الْعَمَلُ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَوْلُودِ الْآدَمِيِّ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، مِنَ الرَّفْقِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنْ رَحِمِهَا وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ ذَلِكَ، ثُمَّ مَا يُصْلِحُهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ، عَلَى مَا نَذَكُرُ. وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالنِّسَاءِ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ، لِمَا أَنَّهُنَّ الظَّاهِرَاتُ بَعْضُهُنَّ عَلَى غَوَرَاتِ بَعْضٍ. وَتُسَمَّى الْقَائِمَةُ عَلَى / ذَلِكَ مِنْهُنَّ الْقَابِلَةُ، اسْتَعِيرَ فِيهِ مَعْنَى الْإِغْطَاءِ [281] وَالْقَبُولِ، كَأَنَّ النَّسَاءَ تَعْطِيهَا الْجَنِينَ، وَكَأَنَّمَا تَقْبَلُهُ.

15 وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِينَ إِذَا اسْتَكْمَلَ خَلْقَهُ فِي الرَّحِمِ وَأَطْوَاهُ، وَيَلْغُ إِلَى غَايَتِهِ وَالْمُدَّةَ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ لِمَحْنِهِ، وَهِيَ تَسَعَةُ أَشْهُرٍ فِي الْغَالِبِ، فَيَطْلُبُ الْخُرُوجَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ التَّرْوِيعِ لِذَلِكَ، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ الْمُنْفَذُ، فَيَغْسُرُ. وَرَبَّمَا مَرَّقَ بَعْضُ حَوَائِبِ الْفَرْجِ

بالصُّفْطِ، وربَّما انَّهَلَّعَ ما كان في الأَغْشِيَةِ من الالْتِصاقِ والالْتِحامِ بالرَّجَمِ. وهذه
كلُّها آلامٌ يَشْتَدُّ لها الوَجَعُ، وهو مَغْنَى الطَّلُقِ، فتكوُنُ القابِلَةُ مُعِينَةً في ذلك بقَضِ
الشَّيْءِ، بَغْزِ الظَّهْرِ والوَرَكَيْنِ، وما يُحاذِي الرَّجَمَ من الأسافلِ، تُساوِيُ بذلك فِعْلَ
الدَّافِعَةِ في إخراجِ الجنينِ، وتَسْهِيْلُ ما يَضْعُبُ منه بما يُمكنُها، وعلى ما نَهْتَدِي إلى
مُغْفَرَةِ عُسْرِهِ. ثم إذا خَرَجَ الجنينُ بَقِيَتْ بَيْنَهُ وبين الرَّجَمِ الوُضْلَةُ الَّتِي كان يَتَغَدَّى
5 منها مَقْصَلَةً من سُرَّتِهِ بِمِعاةٍ. وتلك الوُضْلَةُ عَضْوٌ فَضِلِّيٌّ لِتَغْذِيَةِ المولودِ خَاصَّةً،
فَتَقْطَعُها القابِلَةُ من حَيْثُ لا يَتَغَدَّى مَكَانَ الفُضْلَةِ ولا يَقْصُرُ بِمِعاةٍ ولا يَرْجَمُ أُمَّهُ، ثم
تُدْمِلُ مَكَانَ الجِراحَةِ منه بالكَيِّ أو بما تراه من وُجُوهِ الالْتِمالِ.

ثم إنَّ الجنينَ عند خُرُوجِهِ في ذلك المَنْفَذِ الضَّيِّقِ، وهو رُطْبُ العِظامِ،
10 سَهْلُ الالْتِغاطِ والالْتِشاءِ، فَرَبَّما تَتَغَيَّرُ أَشْكالُ أَعْضائِهِ وأَوْضاعُها لِقُرْبِ التَّكْوِينِ
وَرُطوبَةِ المَوادِّ. فَنَتَنَاولُهُ القابِلَةُ بِالْغَفْزِ والاضْلاَحِ حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عَضْوٍ إلى شَكْلِهِ
الطَّبِيعِيِّ وَوَضْعِهِ المُقَدَّرِ لَهُ، وَيَزْدَدُ خَلْقُهُ سَوِيًّا.

ثم بعد ذلك تُراجِعُ التَّقْساءَ وتُحاذِيها بِالْغَفْزِ والمَلاتَةِ لَخُرُوجِ أَعْشِيَةِ الجنينِ،
لأنَّها زُيْما تَتَأَخَّرُ عن خُرُوجِهِ قَلِيلاً، وَيُخْشَى عِنْدَ ذلك أن تُراجِعَ المائِكةَ حَالِها
الطَّبِيعِيَّةَ قَبْلَ اسْتِكمالِ خُرُوجِ الأَعْشِيَةِ، وهي فَضْلَاتٌ، فَتَتَغَفَّنَ وَيَسْرِي عَفْها
15 إلى الرَّجَمِ، فيَقَعُ الهَلَاكُ. فَتُحاذِرُ القابِلَةُ هذا، / وَتُحَاوِلُ في إِعانةِ الدَّفْعِ إلى أن تَخْرُجَ
تلك الأَعْشِيَةُ إن كانت قد تَأَخَّرَتْ.

ثم تَرْجِعُ إلى المولودِ، فَتَمَرِّحُ أَعْضاءَهُ بالأَذْهانِ والدَّرُورِ القابِضَةَ لِنَشْئِها،
وَتَحْفَظُ رُطوباتِ الرَّجَمِ. وَتُحَكِّمُهُ لِرَفْعِ لَهائِهِ، وَتُسَعِّطُهُ لاسْتِفْراغِ بَطُونِ دِماغِهِ،

وَيُغْرِزُهُ بِاللُّعُقِ لِدَفْعِ السَّدَدِ مِنْ مِعَاةٍ وَتَجْوِفُهَا عَنِ الْإِلْتِصَاقِ. ثُمَّ تُدَاوِي التَّنَسُّاءَ
 بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَهْنِ الَّذِي أَصَابَهَا بِالطَّلُقِ، وَمَا لَجِقَ رَجْعُهَا مِنْ أَلَمِ الْإِفْصَالِ، إِذِ
 الْمَوْلُودُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَضُوًّا طَبِيعِيًّا، فَخَالَهُ التَّكُونُ فِي الرَّجْمِ صَبْرُهُ بِالْإِلْتِمَامِ
 كَالْعَضْوِ الْمُتَّصِلِ. فَلِذَلِكَ كَانَ فِي إِثْقَالِهِ أَلَمٌ يَقْرُبُ مِنَ أَلَمِ الْقَطْعِ. وَتُدَاوِي مَعَ ذَلِكَ
 مَا يَلْحُقُ الْفَرْجَ مِنْ جِرَاحَةِ التَّمْزِيقِ عِنْدَ الضُّغْطِ فِي الْخُرُوجِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا أَدْوَاءٌ نَجِدُ
 5 هَؤُلَاءِ التَّوَابِلِ أَنْصَرَ بَدَوَانِهَا.

وَكذلك ما يَغْرِضُ لِلْمَوْلُودِ مَدَّةَ الرِّضَاعِ مِنْ أَدْوَاءٍ فِي بَدَنِهِ إِلَى حِينِ
 الْفِصَالِ، نَجِدُهُمْ أَبْصَرَ بِهَا مِنَ الطَّبِيبِ الْمَاهِرِ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ فِي
 تِلْكَ الْحَالَةِ إِنَّمَا هُوَ بَدَنٌ إِنْسَانِيٌّ بِالْقُوَّةِ فَقَطْ. فَإِذَا جَاوَزَ الْفِصَالَ، صَارَ بَدَنًا إِنْسَانِيًّا
 بِالْفِعْلِ، فَكَانَتْ حَاجَتُهُ حِينَئِذٍ إِلَى الطَّبِيبِ أَشَدَّ. 10

فَهَذِهِ الصَّنَاعَةُ، كَمَا تَرَاهُ، ضَرُورِيَّةٌ فِي الْعُمُرَانِ لِلتَّنَوُّعِ الْإِنْسَانِيِّ، لَا يُمْكِنُ كَوْنُ
 أَشْخَاصِهِ فِي الْغَالِبِ دَوْنَهَا.

وَقَدْ يَغْرِضُ لِبَعْضِ أَشْخَاصِ التَّنَوُّعِ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، إِمَّا بِخَلْقِ
 اللَّهِ ذَلِكَ لَهُمْ مُعْجَزَةً وَخَرَفًا لِلْعَادَةِ، كَمَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، أَوْ
 بِالْهَامِ وَهَدَايَةِ يُلْهِمُهَا لَهَا الْمَوْلُودُ وَيَنْظُرُ عَلَيْهَا، فَيَتِمُّ وَجُودُهُمْ مِنْ دُونِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ. 15
 فَأَمَّا شَأْنُ الْمُعْجَزَةِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ وَقَعَ كَثِيرًا. وَمِنْهُ مَا رَوَيْ⁽¹⁾ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وُلِدَ

(1) هَذَا حَدِيثَانِ كِلَاهُمَا ضَعِيفٌ. أَوَّلُهُمَا حَدِيثُ الْأَوْزَاعِيِّ عَنْ حَسَّانِ بْنِ عَطِيَّةٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا وُلِدَ وَقَعَ
 عَلَى كَفِّهِ وَرَكِبَتُهُ شَاخِصًا بِصَرِّهِ إِلَى السَّمَاءِ. أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ 1: 103، وَهُوَ مُزْنَلٌ. وَتَانِهُمَا
 حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ مَخْتُونًا مَسْرُورًا، وَهُوَ حَدِيثٌ مُنْكَرٌ، أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ

مَخْتُوناً مَسْرُوراً وَاضِعاً يَدَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ، شَاخِصاً بِنَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ. وَكَذَلِكَ شَأْنُ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَأَمَّا شَأْنُ الْإِلَهَامِ، فَلَا يُنْكَرُ. وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَوَانَاتُ الْعُجْمُ تَخْتَصُّ بِغَرَائِبِ مِنَ الْإِلَهَامَاتِ، كَالْتَحُلِّ وَغَيْرِهَا، فَمَا ظُنُّكَ بِالْإِنْسَانِ الْمُفْضَلِ عَلَيْهَا، وَخُصُوصاً بِمَنْ اخْتَصَّ بِكَرَامَةِ اللَّهِ. ثُمَّ الْإِلَهَامُ / الْعَامُّ لِلْمَوْلُودِينَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى الثَّنْيِ مِنْ أَوْضَحِ 5 شَاهِدٍ عَلَى وُجُودِ الْإِلَهَامِ لَهُمْ؛ فَشَأْنُ الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ.

وَمِنْ هُنَا، يَفْهَمُ بُظْلَانُ رَأْيِ الْفَارَابِيِّ وَحُكْمَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِيمَا اخْتَجَبُوا بِهِ لَعَدَمِ اقْتِرَاضِ الْأَنْوَاعِ وَاسْتِحَالَةِ انْقِطَاعِ الْمَكُونَاتِ، وَخُصُوصاً فِي التَّنَوُّعِ الْإِنْسَانِيِّ. وَقَالُوا: لَوْ انْقَطَعَتْ أَشْخَاصُهُ لاسْتَحَالَ وُجُودُهَا بَعْدَ ذَلِكَ، لِتَوَقُّفِهِ عَلَى وُجُودِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِهَا. إِذْ لَوْ قَدَرْنَا مَوْلُوداً دُونَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَكَفَّالَتِهَا 10 إِلَى حِينِ الْانْقِصَالِ لَمْ يَتِمَّ بَقَاؤُهُ أَضْلاً. وَوُجُودُ الصَّنَاعِ دُونَ الْفِكْرِ مُمْتَنِعٌ، لِأَنَّهَا تَقْرُبُهُ وَتَابِعُهُ لَهُ.

وَتَكَلَّفَ ابْنُ سِينَا⁽¹⁾ فِي الرَّدِّ عَلَى هَذَا الزَّائِي، لِمُخَالَفَتِهِ إِتَاهَ وَذَهَابَهُ إِلَى إِمْكَانِ انْقِطَاعِ الْأَنْوَاعِ وَخَرَابِ عَالَمِ التَّكْوِينِ، ثُمَّ عَوْدَهُ ثَانِيَةً لِاقْتِضَاءِ فَلَكِيَّةِ

أيضاً 1: 103، فالثابت أن جدّه عبد المطلب ختّه يوم سابعه. رَوَاهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ أَبِي حَزْمَةَ عَنْ عَطَاءِ الْخِرَاسَانِيِّ عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: هَذَا أَصَحُّ مِمَّا رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ (تَارِيخُ الْإِسْلَامِ 1: 485).

(1) لَمْ يَبُورِدِ ابْنُ سِينَا شَيْئاً مِنْ هَذَا فِي رِسَالَةِ حَيٍّ بْنِ يَقْظَانَ، وَإِنَّمَا جَاءَ وَضَفَ "الْخَلْقَ الدَّائِيَّ" ثَقْلًا عَنِ زَعْمِ ذَلِكَ، عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ الطَّقِيلِ فِي رِسَالَةِ حَيٍّ بْنِ يَقْظَانَ 69-70، وَقَدْ تَقَدَّ فِيهَا مِنْ تَقَدَّمِهِ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ، مِثْلُ: ابْنِ الصَّنَاعِ، وَالْفَارَابِيِّ - الَّذِي كَانَ كَثِيرَ التَّكْوِينِ - وَابْنَ سِينَا، وَالْفَرَّائِي.

وأوضاع غريبة تُتَدَرَّ في الأخشاب بزغبه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة، فيتم كونه إنساناً. ثم يُقَيِّضُ له حيوان يُخْلَقُ فيه الإلهام لتربيته والحنو عليه إلى أن يتم وجوده وفصله. وأُطِنَّبَ في بيان ذلك في الرسالة التي ستأها برسالة حي ابن يقطان. وهذا الاستدلال غير صحيح، وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع، لكن من غير ما استدلل به. فإن دليلاً مبنياً على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة، 5 ودليل القول بالفاعل المختار يرد عليه. ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الأفعال والقدر القديمة، ولا حاجة إلى هذا التكلف. ثم لو سلمناه جدلاً، فغايته ما يبنى عليه أطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته في الحيوان الأعجم، وما الضرورة الداعية لذلك؟ وإذا كان الإلهام يُخْلَقُ في الحيوان الأعجم⁽¹⁾، فما المانع من خلقه للفلود نفسه، كما قرزناه أولاً؟ وخلق الإلهام في شخص لمصالح نفسه، أقرب 10 من خلقه فيه لمصالح غيره. فكل المذهبتين شاهدان على أنفسهما بالبطلان في مناحيهما، لما قرزته لك. والله ﴿الخالقُ الْعَلِيمُ﴾. [سورة الحجر، من الآية 86، وسورة يس، من الآية 81].

28 / فصل، في صناعة الطب، وأنها محتاج إليها في الحواضر والأقاصير [282ب]
دون البادية

15 هذه الصناعة ضرورية في المدن والأقاصير لما عُرِفَ من فائدتها. فإن تشرتها حفظ الصحة للأصحاء، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة، حتى يحصل لهم البرء من أذوائهم.

(1) سقط من ط.

واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية، كما قال في الحديث الجامع للطَّبِّ إكبا يُنقل عن أهل الصناعة، وإن طعن فيه العلماء⁽¹⁾، وهو قوله⁽¹⁾:
 "المعدة يَبُثُّ اللَّاء، والحَفِيَّةُ رَأْسُ اللَّوَاء". "وأصل كلِّ داءِ البَرْدَةِ"⁽²⁾. فأما قوله: المَعِدَةُ يَبُثُّ اللَّاء، فظاهر. وأما قوله: الحَفِيَّةُ رَأْسُ اللَّوَاء، فالحَفِيَّةُ الجَوْعُ، وهو الاختِفاءُ من الطَّعام، والمعنى أن الجَوْعَ هو اللَّوَاءُ العَظِيمُ الَّذِي هو أَضَلُّ الأَدْوِيَةِ. وأما قوله: أصل كلِّ 5 كلِّ داءِ البَرْدَةِ، فَعَنَى البَرْدَةُ إِذْخَالَ الطَّعامَ عَلَى الطَّعامِ فِي المَعِدَةِ قَبْلَ أَنْ يَمَّ هَضْمُ الأَوَّلِ. وَشَرَحَ هَذَا، أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَحَفِظَ حَيَاتَهُ بِالْغِذَاءِ يَسْتَعْمِلُهُ بِالْأَكْلِ، وَتَنْفُذُ فِيهِ الْقُوَى الْهَاضِمَةُ وَالْغَاضِيَةُ إِلَى أَنْ يَصِيرَ دَمًا مُلْتَأَمًا لأَجْزَاءِ الْبَدَنِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ. ثُمَّ تَأْخُذُهُ التَّامِيَةُ، فَيَنْقَلِبُ لَحْمًا وَعَظْمًا. وَمَعْنَى الْهَضْمِ: طَبْخُ 10 الْغِذَاءِ بِالْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، حَتَّى يَصِيرَ جِزَاءً بِالْفِعْلِ مِنَ الْبَدَنِ.

وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الْغِذَاءَ إِذَا حَصَلَ فِي الْفَمِ وَلَاكِنَّهُ الْأَشْدَائِ، أَثَرَتْ فِيهِ حَرَارَةٌ الْفَمِ طَبْخًا يَسِيرًا، وَقَلَبَتْ مَزَاجَهُ بَعْضُ الشَّيْءِ، كَمَا تَرَاهُ فِي اللَّقْمَةِ إِذَا تَنَاوَلْتَهَا طَعَامًا ثُمَّ أَجَدَّتْهَا مَضْغًا، فَتَرَى مِزَاجَهَا غَيْرَ مِزَاجِ الطَّعامِ. ثُمَّ يَحْصُلُ فِي المَعِدَةِ، فَتَطْبُخُهُ حَرَارَةُ المَعِدَةِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ كِهَوَسًا، وَهُوَ ضَفْوُ ذَلِكَ الْمَطْبُوخِ، وَتُرْسَلُهُ إِلَى الْكَبِدِ، وَتُرْسَلُ مَا يُرْسَبُ مِنْهُ فِي المَعَى ثِقَلًا يَتَفَقَّدُ إِلَى الْمَخْرُجِينَ. ثُمَّ تَطْبُخُ حَرَارَةُ الْكَبِدِ ذَلِكَ 15

(1) من حاشية ع وحدها .

(1) لا يصح من حديث النبي ﷺ، ولعله من كلام الحارث بن كعدة كما في المقاصد الحسنة للسخاوي 611.

612 وتخرج الأحاديث والآثار للأئمة 1: 459.

(2) حديث أخرجه ابن جبان في المجروحين 1: 204، والذهبي في الميزان 1: 359، من حديث أنس وغيره. والبردة: التخممة .

الكيموس إلى أن يصير دماً غيبطاً، وتطفو عليه زغوة من الطبخ، هي الصفراء. وترسب منه أجزاء يابسة، هي السوداء. ويقتصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ الغليظ منه، فهو البلغم. ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول، ويأخذها [283] 5 طبخ الحار الغريزي هنالك، فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيواني. وتأخذ التائمية مأخذها في الدم، فيكون لهما، ثم غليظه عظماً. ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والذمع. هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لهما.

ثم إن أصل الأمراض، ومعظمها هي الحميات. وسببها أن الحار الغريزي قد يضعف عن تمام التضيح في طبخه في كل طور من هذه، فينتج ذلك الغذاء دون 10 تضيح. وسببه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفي طبخ الأول، فيشتغل به الحار الغريزي، ويترك الأول بحاله، أو يتوزع عليهما، فيقتصر عن تمام الطبخ والتضيح. وترسله المعدة كذلك إلى الكبد، فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على إنضاجه. وربما بقي في الكبد من الغذاء السابق فضلة غير ناضجة، وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق غير 15 ناضج كما هو. فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة، أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والذمع واللعاب إن اقتدر على ذلك. وربما يعجز عن الكثير منه، فينتج في العروق والكبد والمعدة وتزايد مع الأيام. وكل ذي رطوبة من المفترجات إذا لم يأخذ الطبخ والتضيح تنقن. فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج، وهو المسمى بالخلط. وكل متعفن فيه حرارة غريبة، وتلك هي المسماة في بدن الإنسان بالحمى. واعتبر

ذلك في الطعام إذا ترك حتى يتعفن، وفي الزئبل إذا تعفن كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها. فهذا معنى الحميات في الأبدان، وهي رأس الأمراض وأصلها، كما وقع في الحديث.

[283ب] ولهذه الحميات علاجات بقطع الغذاء عن المريض / أسابيع معلومة، ثم تناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه. وكذلك في حال الصحة له علاج في التحفظ من هذا المرض وغيره. وقد يكون ذلك التعفن في عضو مخصوص، فيتولد عنه مرض في ذلك العضو، أو تحدث خراجات في البدن، إما في الأعضاء الرئيسية أو في غيرها. وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له.

هذه كلها جماع الأمراض، وأصلها في الغالب من الأغذية. وهذا كله مذكور إلى الطبيب.

10 ووقوع هذه الأمراض في أهل الحضر والأمصار أكثر، لخصب عيشهم، وكثرة ماكلهم، وقلة أفئصارهم على نوع واحد من الأغذية، وعدم توقيتهم لتناولها، وكثرة ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطباً ويابساً في سبيل العلاج بالطبخ. ولا يقتصرون في ذلك على نوع ولا أنواع. فربما عذبنا في اللون الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من التبات والحيوان، فيصير للغذاء مزاج 15 غريب. وربما يكون بعيداً عن مُلاءمة البدن وأجزائه.

ثم إن الأهوية في الأمصار تُشدد بمخالطة الأجرة العفنة من كثرة الفضلات. والأهوية مُنشطة للأرواح ومقوية بنشاطها لأنثر الحار الغريزي في الهضم. ثم

[إِنَّ] ⁽¹⁾ الرياضة مفقودة لأهل الأمصار، إذ هم في الغالب وادعون ساكنون، لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ولا تؤثر فيهم أثراً. فكان وقوع الأمراض كثيراً في المدن والأمصار، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة.

فأما أهل البدو، فأكلهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة، وزبما يظن أنها جبلّة لاستيفارها. ثم الأذم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة. وعلاج الطنخ بالتوابل والفواكه إننا ندعو إليه نرف الحضارة الذي هم عنه بمغزل، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها، ويقرّب مزاجها من ملاءمة / البدن. وأما أهويتهم فقليلة الغنى لقلة الرطوبات والغفونات إن كانوا [1284] أهليين، أو لاختلاف الأهوية إن كانوا طوائع.

ثم إن الرياضة موجودة فيهم من كثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد 10 أو طلب الحاجات أو مهنة أنفسهم في حاجاتهم. فيحسن بذلك كله ^(ب) الهضم ويوجد، ويقتد إدخال الطعام على الطعام. فتكون أمرجتهم أصلح وأبعد عن الأمراض، فنقل حاجتهم إلى الطب. ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه. وما ذلك إلا للاستغناء عنه، إذ لو احتيج إليه لوجد، لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعوهم إلى سكناه، سته الله في عباده. ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسِنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ 15 [سورة الفتح، من الآية 23، وسورة الأحزاب، من الآية 62].

(1) من ج (ب) سقط من ج .

29 • فصل، في أن الخط والكتاب من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال خزفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس. فهو ثاني رتبة عن الدلالة اللغوية. وهو صناعة شريفة، إذ الكتابة من خواص الإنسان التي تميز بها عن الحيوان. وأيضاً فهي تطلع على ما في الضائر، وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقضي الحاجات وقد دفعت مؤونة المباشرة 5 لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم. فهي شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع، وخروجها في الإنسان من القوة إلى الفعل إما يكون بالتعليم.

وعلى قدر الاختراع والعمارة والتناهي في الكمالات والطلب لذلك، تكون جودة الخط في المدينة، إذ هو من جملة الصنائع. وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها 10 تابعة للعمارة. ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يقرأون ولا يكتبون، ومن قرأ منهم أو كتب، فيكون خطه قاصراً وقراءته غير نافذة.

ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمراتها عن الحد، أبلغ وأسهل وأحسن طريفاً لاستحكام الصنعة فيها، كما يحكى لنا عن مضر لهذا العهد، وأن بها معلمين [284ب] منتصبين لتعليم الخط، يلتقون على المتعلم قوانين وأحكاماً في وضع كل حرف، 15 ويريدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه، فتغتصد لديه رتبة العلم والجس في التعليم، وتأتي ملكته على أتم الوجوه، وإما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وإفساح الأعمال.

(١) أوليس الشأن في تعلّم الخطّ بالأندلس والمغرب كذلك في تعلّم كلّ حرفٍ باشراده على قوانين يُلقيها المعلم للتعلم، وإنما تتعلّم بمحاكاة الخطّ في هاته (ب) الكلمات جملةً وتكرّر ذلك من المتعلّم، ومطالعة المعلم له، إلى أن تحضّل له الإجابة ويمكن في هاته (ج) الملكة، فينسجى مُجيداً.

5 وقد كان الخطّ العربيّ بالغاً مبالغته من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والثرف، وهو المسمّى بالخطّ الجُمُيرِيّ. وانتقل منهم إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر، تسبب التبابعة في الغصبيّة، والمُجددين لمُلك الغرب بأرض العراق. ولم يكن الخطّ عندهم من الإجابة كما كان عند التبابعة، لقصور ما بين الدولتين. فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. 10 ومن الحيرة لقنة أهل الطائف وقريش فيما ذكر. يقال: إنّ الذي تعلّم الكتابة من الحيرة هو سُفَيان بن أميّة، وقيل: خُزْبُ بن أميّة، وأخذها من أسلم بن سُدرة. وهو قولٌ مُمكن، وأقربُ من ذهب إلى أنهم تعلّموها من إياد أهل العراق، لقول شاعِرهم (١): [من المنسرح]

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخطّ والقلم

(١) من ع ج، وسط من ط ي (ب) في ج: كتابة (ج) من ع، وفي ج: بانه .

(١) هو أميّة بن أبي الصلت التتقي، انظر ابن هشام: سيرة النبي ﷺ 1: 48، ورواية آخر العجز عنده: والنظ والقلم. والبيت قبله:

قوي إياد لو اتهم أمم أو لو أقاموا فهزل التعم

وهو قولٌ بعيدٌ، لأنَّ إياداً ولو نزلوا ساحة العراق، فلم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخطُّ من الصنائع الحضريَّة. وإنَّما مَغْنَى قول الشاعر أنَّهم أقربُ إلى الخطِّ والقلم من غيرهم من العرب لُقُرْبهم من ساحة الأُمصارِ وضواحيها. فالقولُ بأنَّ أهل الحِجَارِ إِنَّمَا لُقِنُوهَا من الحِيرة ، وَلَقِنَهَا أَهْلُ الحِيرة من التَّبابعة وَحَمِير ، هُوَ (١)

الأَلَيْثُ من الأقوال.

5

(ب) [ورأيتُ في كتاب التَّكْملة (١) لابن الأَثَّار، عند التَّعْرِيفِ بابن فَرْوخ القَيروانيِّ الفارسيِّ الأَنْدَلُسيِّ، من أصحاب مَالِك، واسمُه عبد الله بن فَرْوخ، فقال:

روى ابن فَرْوخ عن عبد الرَّحْمَنِ بن زياد بن أنعم، عن أبيه، قال: قلت لعَبْدِ اللَّهِ بن عَبَّاس: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، خَبِّرُونِي عَنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، هَلْ كُتِمَ تَكْتِيبُهُ قَبْلَ أَنْ يَتَّبِعَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ، تَجْمَعُونَ مِنْهُ مَا اجْتَمَعَ، وَتَفْرُقُونَ مِنْهُ مَا 10 اِفْتَرَقَ، مِثْلَ الْأَلْفِ وَاللَّامِ وَالْمِيمِ وَالنُّونِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَمِمَّنْ أَخَذْتُمُوهُ؟ قَالَ: مِنْ خَزْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، قُلْتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ خَزْبٌ؟ قَالَ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ، قُلْتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ ابْنُ جُدْعَانَ؟ قَالَ: مِنْ أَهْلِ الْأَثَّارِ، قُلْتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ أَهْلُ الْأَثَّارِ؟ قَالَ: مِنْ طَارِئِ طَرَأَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، قُلْتُ: وَمِمَّنْ أَخَذَهُ ذَلِكَ الطَّارِئُ؟ 15 قَالَ: مِنَ الْحُلُجَّانِ بْنِ الْقَاسِمِ، كَاتِبِ الْوَحْيِ لِهَيْدَرِ التَّيِّ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ: [من الطويل]

(١) من: ج ع، وفي ي: وهو (ب) حاشية من ع بخطه سقطت من ج ي ط.

(١) التَّكْملة لكتاب الفَصْلَة 2: 227 ، (تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، المغرب).

أفي كلِّ عامٍ سنَّةٌ تُحدِّثونها ورأيي على غير الطريق يُعبرُ
وللموتِ خيرٌ من حياةٍ تُسبِّتُ بها جُزءُهم فَمِنَ تُسبِّ وجيرُ

انتهى ما نقله ابن الأثير في كتاب التكملة.

وزاد آخره : حدَّثني بذلك أبو بكر بن أبي جَمْرَةَ في كتابه ، عن أبي بَحر
5 [سفيان]^(١) بن العاص ، عن أبي الوليد الوُفَيْي ، عن أبي عُمر الطَّلَمَنَكِي ، عن أبي
عبد الله بن مُفَرَّج ، ومن خطه نقلته ، عن أبي سعيد بن يونس^(ب) ، عن محمد بن
موسى بن الثَّعْثَان ، عن يَحْيَى بن محمد بن حُشَيْنَش ، عن عُثْمَانَ بن أَيُّوب المَغَافِرِي
التَوْسُي ، عن يَهْلُول بن عُبَيْدَةَ الثَّجِيبِي ، عن عبد الله بن فُروخ . انتهى [ج].

وكان لجِفْرِيرِ كتابَةٌ تُسَمَّى المُسَنَّدَ ، حُرُوفُهَا مُتَفَصِّلَةٌ . وكانوا يَمْنَعُونَ من تَعْلِيمِهَا
10 إِلَّا بِإِذْنِهِمْ . ومن جَمِيرٍ تَعَلَّمَتْ مُضَرُّ الكِتَابَةِ العَرِيَّةَ . إِلَّا أَنَّهُمْ لم يَكُونُوا مُجِيدِينَ لَهَا ،
شأن الصَّنَاعِ إِذَا وَقَعَتْ بِالْبَدْوِ ، فلا تَكُونُ مُحْكَمَةً الْمَنَاهِبِ ولا مَائِلَةً إِلَى الْإِنْقَانِ [٢٨٥] ^(أ)
والتَّنْمِيقِ ، لَبَنُونَ ما بَيْنَ الْبَدْوِ وَالصَّنَاعَةِ ، واستَغْنَاءُ الْبَدْوِ عَنْهَا فِي الْأَكْثَرِ . فكانت
كِتَابَةُ الْقَرْبِ بَدْوِيَّةً مِثْلَ أَوْ قَرِيباً مِنْ كِتَابَتِهِمْ لِهَذَا الْعَهْدِ ، * أَوْ نَقُولُ : إِنَّ كِتَابَتَهُمْ لِهَذَا
الْعَهْدِ * ^(د) أَحْسَنُ صِنَاعَةٍ ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَمُخَالَطَةِ الْأُمُصَارِ وَالْأَدُولِ .
15 وَأَمَّا مُضَرُّ ، فَكَانُوا أَغْرَقَ فِي الْبَدْوِ وَأَبْعَدَ عَنِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ وَأَهْلِ الْعِرَاقِ

(١) من التكملة (ب) إلى هنا ينتهي السند الذي ذكره ابن الأثير بعد الخبر . وما يتقدمه هو سنَّة آخر لأبي سعيد بن يونس ، ذكره ابن
الأثير أيضاً في أول هذا الفصل ، متصلاً بعبد الله بن فروخ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه عن ابن عباس (ج) نهاية
حاشية من ع بخله ، وسقطت من ج ي ط (د) سقط ما بين الجيمين من ي .

وأهل السَّام ومَضَر. فكان الخطُّ الغزيرُ لأوَّل الإسلام غيرَ بالغٍ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط لمكان الغرب من البداوة والتَّوَحُّش ويُغدهم عن الصَّنائع.

وانظر ما وقع لأجل ذلك في رَسم المُصَحِّف ، حيثُ كَتَبَتِ الصَّحَابَةُ بِحُطُوطِهِمْ وكانت غيرَ مُسْتَحْكَمَةٍ في الإجادة، خَالَفَ الكثيرُ من رُسُومِهِمْ ما اقْتَضَتْهُ 5 [أَقِسَّةٌ]⁽¹⁾ رُسُومُ صِنَاعَةِ الْخَطِّ عِنْدَ أَهْلِهَا. ثُمَّ افْتَنَى التَّابِعُونَ مِنَ السَّلَفِ رُسُومَهُمْ فِيهَا، تَبَرُّكاً بِمَا رَسَمَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَيْرُ الْخَلْقِ مِنْ بَعْدِهِ، الْمُتَلَقُّونَ لَوْحِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ، كَمَا يُفْتَنَى لِهَذَا الْعَهْدِ خَطُّ وَلِيِّ أَوْ عَالِمٍ تَبَرُّكاً، وَيَتَّبِعُ رُسُومَهُ خَطّاً أَوْ صَوَاباً . وَإِنَّ نِسْبَةَ ذَلِكَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَا كَتَبُوهُ؟ فَاتَّبَعَ ذَلِكَ وَأُثْبِتَ رِسْمًا، وَتَبَّهَ الْعُلَمَاءُ بِالرَّسْمِ عَلَى مَوَاضِعِهِ.

10

وَلَا تَلْتَفَتَنَّ فِي ذَلِكَ إِلَى مَا يَزْعَمُهُ بَعْضُ الْمُغْفَلِينَ، مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُخَكِّمِينَ لَصِنَاعَةِ الْخَطِّ، وَأَنَّ مَا يُتَخَيَّلُ مِنْ مُخَالَفَةِ حُطُوطِهِمْ لِأَصُولِ الرَّسْمِ لَيْسَ كَمَا يُتَخَيَّلُ، بَلْ لَكُلِّهَا وَجْهٌ. وَيَقُولُونَ فِي مِثْلِ زِيَادَةِ الْأَلْفِ فِي ﴿لَا أَدْبَحْتَهُ﴾ [سورة التِّلْ، مِنَ الْآيَةِ 21]: إِنَّهُ تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْحَ لَمْ يَقَعْ، وَفِي زِيَادَةِ الْيَاءِ فِي ﴿يَأْيُنِيْرُ﴾ [سورة الدَّارِيَاتِ، مِنَ الْآيَةِ 47] إِنَّهُ تَنْبِيْهُ عَلَى كَمَالِ الْفُذْرَةِ الرَّبَّائِيَّةِ ، وَأَمَّا هَذَا فَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَضْلَّ لَهُ إِلَّا التَّحْكُمُ الْمَخْصُ . وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اغْتِنَادُهُمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَثْبِيْهًا لِلصَّحَابَةِ عَنْ تَوْهَمِ التَّنْقِصِ فِي قِلَّةِ إِجَادَةِ الْخَطِّ . وَحَسِبُوا أَنَّ ذَلِكَ الْخَطُّ كَمَالٌ،

15

(1) من حاشية ج ، وسط من ظ ي .

فَتَرْهَوهم عن نَقْصه، وَنَسَبُوا إِلَيْهم الْكِبَالَ بِإِجَادَتِهِ، وَطَلَبُوا تَقْلِيلَ مَا خَالَفَ الْإِجَادَةَ
من رُؤْيَاهُ، وَذَلِكَ / لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

[ب285]

وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَطَّ لَيْسَ بِكَالٍ فِي حَقِّهم، إِذِ الْخَطُّ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ الْمَدِينَةِ
الْمَعَاشِيَّةِ، كَمَا رَأَيْتُهُ فِي مَا مَرَّ. وَالْكَمَالُ فِي الصَّنَائِعِ إِضَافِيٌّ وَلَيْسَ بِكَالٍ مُطْلَقٌ، إِذْ لَا
5 يَعُودُ نَقْصُهُ عَلَى النَّاتِ فِي الدِّينِ وَلَا فِي الْجَلَالِ. وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَسْبَابِ الْمَعَاشِ
وَيَحْسِبُ الْغُفْرَانُ وَالتَّعَاوُنُ عَلَيْهِ لِأَجْلِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا فِي النُّفُوسِ. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ
ﷺ أُمِّيًّا، وَكَانَ ذَلِكَ كِمَالًا فِي حَقِّه، وَبِالنَّسَبَةِ إِلَى مَقَامِهِ لَشَرَفِهِ وَتَرْجِيهِ عَنِ الصَّنَائِعِ
الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ الْمَعَاشِ وَالْغُفْرَانِ كُلِّهَا. وَلَيْسَتْ الْأُمِّيَّةُ كِمَالًا فِي حَقِّنَا نَحْنُ،
إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ إِلَى رُؤْيَاهُ، وَنَحْنُ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا، حَتَّى
10 الْغُلُومِ الْأَصْطِلَاحِيَّةِ. فَإِنَّ الْكِمَالَ فِي حَقِّه هُوَ تَرْجِيْهُ عَنْهَا جُمْلَةً بِجَلَالِنَا.

ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْمَلِكُ لِلْعَرَبِ، وَفَتَحُوا الْأَمْصَارَ، وَمَلَكَوا الْمَمَالِكَ، وَنَزَلُوا الْبَصْرَةَ
وَالْكُوفَةَ، وَاخْتَبَجَتِ الثُّوَلَةُ إِلَى الْكِتَابِ، اسْتَعْمَلُوا الْخَطَّ وَطَلَبُوا صِنَاعَتَهُ وَتَعَلَّمَهُ،
وَتَدَاوَلُوهُ. فَتَرَقَّتْ الْإِجَادَةُ فِيهِ وَاسْتَحْكَمَ، وَبَلَغَ فِي الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ رُتْبَةً مِنَ الْإِتْقَانِ،
إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتَا دُونَ الْغَايَةِ. وَالْخَطُّ الْكُوفِيُّ مَعْرُوفُ الرَّسْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ.

ثُمَّ انْتَشَرَ⁽¹⁾ الْعَرَبُ فِي الْأَقْطَارِ وَالْمَمَالِكِ، وَافْتَتَحُوا إِفْرِيقِيَّةً وَالْأَنْدَلُسَ .
15 وَاخْطَطَّ بَنُو الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ، وَتَرَقَّتْ الْخَطُوطُ فِيهَا إِلَى الْغَايَةِ لَمَّا اسْتَبْخَرَتْ فِي
الْغُفْرَانِ وَكَانَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَمَرْكَزَ الثُّوَلَةِ الْعَرَبِيَّةِ.^(ب) (وِخَالَفَتْ أَوْضَاعَ الْخَطِّ

(1) فِي ط: انْتَشَرَتْ (ب) حَاشِيَةٌ مِنْ عَ بَخَطَلَهُ وَمِنْ ج، وَلَمْ تَرِدْ فِي ط ي .

ببغداد أوضاعه بالكوفة في الميل إلى إجادة الرسوم وجمال الزونق وحسن الرواء. واستحكمت هذه المخالفة في الأغصار، إلى أن رَفَعَ رايها ببغداد [أبو] علي بن مُثَلَّة الوزير. ثم تلاه في ذلك علي بن هلال الكاتب، الشهير بابن البُواب، ووقف سندُ تعليمها عليه في المائة الثالثة وما بعدها. وبُعدت رسومُ الخطِ البغدادي وأوضاعه عن الكوفي حتى انتهى إلى المبانيّة. ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بِتَقْنِ الجهايذة 5 في إخكام رسومه وأوضاعه، حتّى انتهى إلى *المتأخرين، مثل ياقوت المُستغصمي والولي علي العجمي*^(١)، وَوَقَفَ سِنْدُ تَعَلَّمَ الخطَّ عليهم^(ب). وانتقل ذلك^(ج) إلى مِصر، وخالفت طريقة العراق بعض الشيء، وَلَقِيَهَا العجمُ هنالك، فَظَهَرَتْ مخالفة^(د) لخطِ أهلِ مِصر أو مِبابنة].

10 وكان الخطُ الإفريقي المعروفَ رُسْمُهُ القديمُ لهذا العهد، يَقْرُبُ من أوضاع الخطِ المَشْرِقي. وتَحَيَّرَ مُلْكُ الأندلس بالأُمَوِيّين، فَتَمَيَّزُوا بِأَخْوَاحِهِم من الحضارة والصنائع والخطوط، فَتَمَيَّزَ صِنْفٌ^(هـ) خطهم الأندلسي كما هو معروفُ الرّسم لهذا العهد.

وطبّا بَحْرُ العُمران والحضارة في التّول الإسلاميّة في كُلِّ قُطر، وعُظُمَ المُلْكُ، وَنَقَّتْ أسْوَاقُ العُلُومِ، وَاشْتَبَحَتِ الكُتُبُ وَأَجِيدَ كُتُبُهَا وَتَجَلِيدُهَا، وَمُِلِّتْ بِهَا 15 الفُصُورُ / والخزائنُ الملوّكِيَّةُ بما لا كُفَاءَ لَهُ، وَتَنَاقَسَ أَهْلُ الْأَقْطَارِ في ذلك وَتَنَاقَزُوا فِيهِ.

[1286]

(١) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ج: به (ج) ج: كذلك (د) قراءة تهريمية من ج (هـ) سقط من ج ع: وفي ي: ضبط.

ثم لما انحَلَّ نظامُ الدُّوْلةِ^(١) الإسلاميَّةِ وتناقَصَتْ، تناقَصَ ذلك أجمع،
 وَدَرَسَتْ معالمُ بغدادِ بِدُروسِ الخِلافةِ؛ فانْثَقَلَ شأنُها من الخطِّ والكتاب، بل
 والعلم، إلى مِصْرَ والقاهرة. فلم تَزَلْ أسواقُها بها نافِقةً لهذا العهد. وللخطِّ بها مُعلِّمون
 يرْسُمون للمُتَعَلِّمِ الحُرُوفَ بقوانينٍ في وَضْعِها، وأشكالُها مُتعارِفةٌ، يَبَيِّنُهم. فلا يَلْبِثُ
 5 المتعلِّمُ أو يُحْكِمُ أشكالَ تلك الحُرُوفِ على تلك الأَوْضَاعِ، وقد لَقِبَها جَسَاً، وَخَذَقَ
 فَنَها دُرْزَةً وكتاباً، وأخذَها قوانينَ عَمَلِيَّةً، فتَجَيَّءُ أحسنُ ما يَكُونُ.

وأما أهلُ الأندَلُسِ، فافترقوا في الأَظْطار عند تَلاشي مُلكِ الغربِ بها ومن
 خَلَفَهم من البَزَرِ، وتَعَلَّبَتْ عليهم أُمَمُ النُصْرانيَّةِ. فانْشَرُوا في غُدُوَّةِ المَغْرِبِ وإفريقيَّةِ
 من لَأَن الدُّوْلةَ المُتَمَتِّعَةَ إلى هذا العهد، وشاركوا أهلَ العُمرانِ بما لَدِيْهم من الصَّنْاعِ،
 10 وتَعَلَّقُوا بأذيالِ الدُّوْلةِ، فَعَلَبَ خَطُّهم على الخطِّ الإفريقيِّ وَعَتَّى عليه، ونُسِيَ خَطُّ
 القُيُروانِ والمَهْدِيَّةِ بِنُسيانِ عَوائِدِها وصنائعِها. وصارَتْ حُطُوطُ أهلِ إفريقيَّةِ كُلِّها
 على الرِّسْمِ الأندَلُسيِّ بتونسٍ وما إِلَيْها، لَتَوَقَّرَ أهلُ الأندَلُسِ بها عند الجاليةِ من
 شَرْقِ الأندَلُسِ. وبقي منه رِسمٌ ببلادِ الجريدِ الَّذين لم يُخالِطُوا كُتَّابَ الأندَلُسِ ولا
 تَمَرَّسُوا بِجِوارِهم، إذ إِنَّا كانوا يَفِدُّونَ على دارِ المُلِكِ بتونسٍ. فصارَ خَطُّ أهلِ إفريقيَّةِ
 15 من جِنسِ^(ب) حُطُوطِ أهلِ الأندَلُسِ، حتَّى إذا تَمَلَّصَ ظِلُّ الدُّوْلةِ المُوَحَّدَةِ بَعَضَ
 الشَّيْءُ، وتراجَعَ أَمْرُ الحضارةِ والتَّرفِ بِتراجُعِ العُمرانِ، نَقَصَ حينئِذٍ حالُ الخطِّ،
 وَفُسِدَتْ رِسمُوه، وَجَهِلَ فيه وَجْهُ التَّعلُّمِ بِقِسادِ الحضارةِ وتناقَصَ العُمرانُ. وبقيت

(١) ج: القول (ب) في ع: أحسن .

فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك، لما قدّمناه من أنَّ الصّانع إذا رَسَخَ بالحضارة فيُفسَّر مَخُوها.

وحَصَلَ في دولة بني مرّين بعد ذلك بالمغرب الأقصى⁽¹⁾، لَوْنٌ من الخط الأندلسي، لقُرْب/ جوارهم، وسقوط من خَرَج منهم إلى فاس قريباً، واستغناهم إياهم سائر التّولة. ونُسِيَ عهد الخط فيما بعد من سُدّة الملوك وداره، كأنّ لم يُعرَف. 5 فصارت الخطوط بإفريقيّة والمغربين ماثلة إلى الرّداءة، بعيدة عن الجودة. وصارت الكتب إن اشّسخت فلا فائدة تحصل لمُتصَفِّحها منها إلّا العناء والمشقّة، لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتّضخيف، وتغيّر الأشكال الخطيّة عن الجودة، حتّى لا تكاد تُقرأ إلا بعد عُسْر. ووقع فيه ما وقع في سائر الصّانعين بنقص الحضارة وفساد التّول. ﴿وَاللّٰهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [سورة الرعد، من الآية 41]. 10

^(ب) [وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي، الشهير بابن البوّاب، قصيدة في بحر [الكامل]^(ج)، على رويّ الرّاء، يذكّر فيها صناعة الخط وموادّها من أحسن ما كُتِبَ في ذلك، رأيث إثباتها في هذا الباب ليتّفق بها من يُريد تعلّم هذه الصّناعة. وأولّها: [من الكامل]

15 يا من يُريدُ إجادَةَ التّخريـرِ ويرومُ حُسْنَ الخطِّ والتّصويرِ
إن كان عَزْمُكَ في الكتابة صادِقاً فازعِبْ إلى مَولَاك في التّيسيرِ
أعِذْ من الأفلام كلَّ مُتَقِفٍ صَلَبَ يَصوغُ صِنَاعَةَ التّخبيرِ

(1) سقط من ع (ب) إضافة في ع بخطه نسّرت إلى آخر الفصل ولم تقبل في ط، ج، ي (ج) في الأصول كلها من بحر البسيط، فصولاً.

وإذا عَمَدَتْ لَبْرِيه فَتَوَحَّهْ عند القياس بأوسطِ التَّقْدِيرِ
 انظر إلى طَرْفِيه فاجعل بَرِيهْ من جانبِ التدقيق والتَّخْصِيرِ
 واجعل لِحْلَفْتِه قَوَاماً عادِلاً يَخْلُو عن التَّطْوِيلِ والتَّخْصِيرِ
 والشَّقِّ وَسَطُه لِيَبْقَى بَرِيهْ من جَانِبَيْهِ مُشَاكِلِ التَّقْدِيرِ
 حَتَّى إِذَا أَتَمَمْتَ ذَلِكَ كُلَّهْ إِثْقَانٌ طَلَبُ بِالْمُرَادِ خَبِيرِ
 فاصرف لِرَأيِ الْقَطِّ عَزَمَكَ كُلَّهْ فَالْقَطُّ فِيهِ جَمَلَةٌ التَّذْذِيرِ
 لا تَطْمَعَنَّ فِي أَنْ أَبُوحَ بِسِرِّهِ إِنِّي أَضِنُّ بِسِرِّهِ الْمُسْتَوْرِ
 لَكِنَّ جَمَلَةً مَا أَقُولُ بِأَنَّهُ مَا يَبْنِ تَخْرِيفٌ إِلَى تَذْوِيرِ
 وَالَّذِي ذَوَاتُكَ بِالْإِخَانِ مُدْبِرَاً بِالْحُلِّ أَوْ بِالْحَصْرِ الْمَعْصُورِ
 وَأَضِفْ إِلَيْهِ مُغَرَّةً قَدْ صُوِّلَتْ مع أَصْفَرِ الزَّرْنِخِ وَالْكَافُورِ
 حَتَّى إِذَا مَا حَمَزْتَ فَاعْمَدِ إِلَى الدِّ حَوَزِي التَّقِي النَّاعِمِ الْمَخْبُورِ
 فَأكْبِسْهُ بَعْدَ الْقَطْعِ بِالْمِغْصَارِ كَيْ يَتَأَيَّ عن التَّشْعِثِ والتَّغْيِيرِ
 ثُمَّ اجْعَلِ التَّمْيِيلَ ذَاتُكَ صَابِراً مَا أَذْرَكَ الْمَامُولَ مِثْلَ ضَبُورِ
 اِبْدَأْ بِهِ فِي اللَّوْحِ مُنْتَضِياً لَهُ عَزْماً تَحْجُزُهُ مِنَ التَّشْمِيرِ
 لَا تَخْجَلَنَّ مِنَ الرَّدِيءِ تَخْطُهُ فِي أَوَّلِ التَّمْيِيلِ وَالتَّسْطِيرِ
 فَالْأَمْرُ يَضَعُ ثُمَّ يَرْجِعُ هَيَّأَ وَلَزَبَتْ سَهْلٌ جَاءَ بَعْدَ عَسِيرِ
 حَتَّى إِذَا أَدْرَكْتَ مَا أَمْلَأْتَهُ أَضْعَيْتَ رَبَّ مَسْرُوءٍ وَحُبُورِ
 فَاشْكُرْ إِلَهَكَ وَاتَّبِعْ رِضْوَانَهُ إِنَّ إِلَهَهُ يُجِيبُ كُلَّ شَكُورِ

5

10

15

وازعَبَ لكفك أن تخط بنائها خيراً تخلفه بدار غرور
فجمع فعل المزة يلقاه غداً عند اليقاء كتابه المنشور

واغلم أن الخط بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في
النفس والضمير من المعاني . فلا بُدَّ لكل منهما أن يكون واضح الدلالة . قال الله
تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان 4، 3] . وهو يشتمل
بيان الأدلة كلها . فالخط المجوّد كماله أن تكون دلالاته واضحة بآيات حروفه المتواضعة،
وإجادة وضعها ورسمها، وكل واحد على جذبه فتميّز عن الآخر، إلا ما اضطلع عليه
الكتاب من إيصال حروف الكلمة الواحدة بعضها ببغض، سوى حروف اضطلحوا
على قطعها، مثل الألف المتقدمة في الكلمة، وعلى الزاء والزاي والذال والذال
وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة، وهكذا إلى آخرها.

ثم إن المتأخرين من الكتاب اضطلحوا على وصل كلمات بعضها ببغض،
وحذف حروف معروفة عندهم لا يعرفها إلا أهل مضطلحهم، فيستعجم على
غيرهم. وهؤلاء كتاب ذواوين السلطان وسجلات القضاة، كأنهم اقرءوا بهذا
الاضطلاح عن غيرهم لكثرة⁽¹⁾ الكتابة عليهم وشهرة كتابتهم وإحاطة كثير من
ذوهم بمضطلحهم . فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمضطلحهم في ذلك فينبغي أن
يغذوا عن ذلك ويتعمدوا البيان ما استطاعوه، وإلا كان بمثابة الخط الأعجمي، لأنها
بمترلة واحدة في عدم التواضع عليه. وليس يُعَدَّر في هذا القدر إلا كتاب الأعمال

(1) بياض في ظ. ع بمقدار كلمة .

السلطانية في الأموال والخيول، لأنهم مَطْلُوبُونَ بِكثْبان ذلك عن الناس، فإنه من الأسرار السلطانية التي يَجِبُ إخفاؤها. فيبالغون في رَسْم اصطلاح خاص بهم، ويصيرُ بمثابة المعنى، وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب أو الفواكه أو الطيور أو الأزاهر، أو وضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة، يضطلع عليها المتخاطبون لتأدية ما في ضمايرهم بالكتابة. وربما 5 وَضَعَ حَدَائِقُ الكُتَّابِ للعبور على ذلك، وإن لم يضعوه أولاً، قوانين لمقاييس استخرجوها لذلك بمداركهم، يُسمونها فَنَّ المعنى. وللتاس فيها دواوين مشهورة. والله العليم الحكيم.

30 • فصل في صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها 10 وتصحيحها بالرواية والضبط، وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة التولة وتوابع الحضارة. وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدول وتناقص العفران، بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاجر بالعراق والأندلس، إذ هو كله من توابع العفران واتساع نطاق الدول وتقاق أنسواق ذلك [لأنها⁽¹⁾]. فكثرت التواليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على توافلها في الآفاق والأغصار، فانشغلت 15 وجلدت. وجاءت صناعة الوراقين المعانين للأنسوخ والتصحيح والتجليد وسائر أمور الكتب والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العفران.

(1) من ع. وفي ط ج ي: لهما.

وكانت السجلات أولاً لاثساخ العلوم، وكُتِبَ الرسائل السلطانية والإقطاعات والصكوك (في الرقوق المهيئة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرقة وقلة التوافل صدر الملة، كما نذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك⁽¹⁾). فاقصروا على الكتاب في الرق نشرها للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والإتقان.

- ثم طما بخر التوافل والثنون، وكثر ترسل السلطان وصكوكه، وضاق 5 الرق عن ذلك، فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغذ، وصنعه، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه. / واتخذ الناس من بعده صخفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية. [1287]
- وبلغت الإجابة في صناعته ما شاءت.

- ثم وقفت عناية أهل العلوم وهم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفها وواضعها، لأنه الشأن الأهم من التصحيح 10 والضبط. فبذلك تُسند الأقوال إلى قائلها، والفتيا إلى الحاكم بها المجتهد في طريق استنباطها. وما لم يكن تصحيح المثلون بإسنادها إلى مدونيها فلا يصح إسناد قول لهم ولا فتيا. وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته في الفصور والأجيال والآفاق، حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثة في الرواية على هذه فقط، إذ ثمرتها الكبرى من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومُسندها ومُرسِلها ومقطوعها وموقوفها 15 من موضوعها، قد ذهبَت وتمحَّضت رُبدة ذلك في الأُمهات المتلفة بالقبول عند الأمة، وصار القصد إلى ذلك لغواً من العمل. ولم تبق ثمرة الرواية والاستيغال بها

(1) سقط من ط .

إلا في توضيح تلك الأخطاء الحديثة وسواها من كتب الفقه للفُتيا وغير ذلك من
الدواوين والتواليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها، ليصح النقل عنهم والإشناد
إليهم.

وكانت هذه الرسوم بالمشركي والأندلس مُعَبَّدة الطرق واضحة المسالك.
5 ولقد نجد الدواوين المُنسَخَة لنالك العهد في أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام
والصحة. ومنها لهذا العهد بأيدي الناس في العالم أصولٌ عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم
في ذلك. وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن، ويُشَدُّون عليها يد الصناتة.

ولقد ذهبَت هذه الرسوم لهذا العهد جملةً بالمغرب وأهل لاسطاع صناعة
الخط والصُّبُط والزواية منه، بانتقاص عُمرانه وبداءة أهلّه، وصارت الأخطاء
10 والدواوين تُنسخُ بالخطوط البدوية، ينسخها طلبه البربر صحائف مُستعجمة
برداء الخط وكثرة الفساد / والتَّضحييف، فتستغلِق على مُتصفِّحها، ولا يحصلُ منها [287ب]
فائدة إلا في الأقلِّ التادر.

وأيضاً، فقد دخل الخللُ من ذلك في الفُتيا، فإنَّ غالب الأقوال المغزوة غير
مزوية عن أئمة المذهب، وإنَّما تُلقَى من تلك الدواوين على ما هي عليه. وتبع ذلك
15 أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف لقلة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع
الوافية بمقاصده. ولم يبق من هذا الرُّسم إلا آثاره بالأندلس خفية بالامحاء، وهي
على الإخيملال. فقد كاد العلم أن ينقطع بالكلية من المغرب ﴿ وَاللَّهِ عَلِيمٌ عَلَى
أَمْرِهِ ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

وَيَتَلَفْنَا لِهَذَا الْعَهْدِ، أَنَّ صِنَاعَةَ الزَّوَايَةِ قَائِمَةٌ بِالْمَشْرِقِ، وَتَصَحِيحُ الدَّوَابِّ
 لِمَنْ يَرُومُهُ بِذَلِكَ سَهْلٌ عَلَى مُبْتَنِيهِ، لِنَفَاقِ أَسْوَاقِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ، كَمَا نَذَكُرُهُ بَعْدُ.
 إِلَّا أَنَّ الْخَطَّ^(١) الَّذِي بَقِيَ مِنَ الْإِجَادَةِ فِي الْإِتْسَاخِ هُنَالِكَ إِنَّمَا هُوَ لِلْعَجَمِ وَفِي
 خُطُوطِهِمْ . وَأَمَّا التَّنْخُصُّ بِمَضْرٍ ، فَفُسْدٌ كَمَا فَسُدَ بِالْمَغْرِبِ وَأَشَدُّ . ﴿ وَاللَّهُ عَلَّامُ
 الْغُيُوبِ ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21] .

5

31 • فُصِّلْ، فِي صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ

هَذِهِ الصَّنَاعَةُ هِيَ تَلْحِينُ الْأَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ، بِتَقْطِيعِ الْأَصْوَاتِ عَلَى نِسْبٍ
 مُنْتَظِمَةٍ مَعْرُوفَةٍ تَوْفَّقُ عَلَى كُلِّ صَوْتٍ مِنْهَا تَوْقِيعاً عِنْدَ قَطْعِهِ، فَتَكُونُ نَغْمَةً، ثُمَّ تُؤَلَّفُ
 تِلْكَ النِّغَمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى نِسْبٍ مُتَعَارِفَةٍ، فَيَلْدُ سَاعُهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ التَّنَاسُبِ،
 وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ الْكَيْفِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَصْوَاتِ.

10

وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ فِي عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ أَنَّ الْأَصْوَاتَ تَتَنَاسَبُ لِيَكُونَ صَوْتٌ،
 نِصْفُ صَوْتٍ، وَزُبْعُ آخَرٍ، وَخُمْسُ آخَرٍ، وَجَزْءٌ^(ب) مِنْ أَخَذَ عَشْرَ مِنْ آخَرٍ.
 وَاخْتِلَافُ هَذِهِ النِّسَبِ عِنْدَ تَأْدِيَتِهَا إِلَى السَّمْعِ يُخْرِجُهَا عَنِ الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّرْكِيبِ.
 وَلَيْسَ كُلُّ تَرْكِيبٍ مِنْهَا مَلْنُوداً عِنْدَ السَّمْعِ، بَلْ تَرَكَيبٌ خَاصَّةٌ هِيَ الَّتِي حَصَرَهَا أَهْلُ
 عِلْمِ الْمَوْسِيقِيِّ وَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ.

15

وَقَدْ يُسَاقُ ذَلِكَ التَّلْحِينُ فِي النِّغَمَاتِ الْغِنَائِيَّةِ بِتَقْطِيعِ أَصْوَاتٍ أُخْرَى مِنْ

(١) مِنْ ظَاحِي . وَفِي عِلْمِ الْخَطِّ (ب) فِي ح: وَجْهًا .

المجادات، إما بالقرع أو التثخ في آلات تُتخذ لذلك ، فتزيدها لذة عند / السمع . [288] ^(أ)
 فمنها لهذا العهد بالمغرب أصناف، منها: المزمار، يُسمونه الشبابة. وهي قصبة جوفاء
 بأنجاش في جوانبها معدودة، يُنفخ فيها فتصوت، ويخرج الصوت من جوفها على
 سداذة من تلك الانجاش، ويقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك
 الانجاش وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه ، وتتصل كذلك 5
 متناسبة. فيلئذ السفع بإذراكها للتناسب الذي ذكرناه.

ومن جنس هذه الآلة آلة الزمر التي تُسمى الزلامي، وهي شكل القصبة،
 منحوتة الجانبين من الخشب، جوفاء من غير تدوير لأجل اثلافيها من قطعتين،
 منفوذة كذلك بأنجاش معدودة يُنفخ فيها بقصبة صغيرة توصل، فينفذ التثخ بواسطتها
 إليها وتصوت بتعمة حادة، ويجري فيها من تقطيع الأصوات من تلك الانجاش بالأصابع 10
 مثل ما يجري في الشبابة.

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد، البوق، وهو بوق من التحاس
 أجوف في مقدار التراع، يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه في مقدار [دون]^(أ)
 الكف، على شكل يزي القلم. ويُنفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدي الريح من الفم إليه،
 فيخرج الصوت نجشاً دويّاً . وفيه أنجاش أيضاً معدودة ، وتقطع نغمه منها كذلك 15
 بالأصابع على التناسب، فيكون ملوداً.

ومنها آلات الأوتار، وهي جوفاء كلها ، [إما على شكل^(ب) قطعة من

(أ) كنا في ع ج ي، وفي ط: دور (ب) ي: شكلها .

الكُرّة، كالبريط والزياب، أو على شَكْلِ مربع، كالقانون، تَوْضَعُ الأوتارُ على
بَسَاطِطِهَا مشدودةٌ في رأسها إلى دَسَايرِ جَائِلَةٍ لِيَتَأَقَّ رِخْوُهَا عند الحاجةِ إليه
بإذانتها، ثُمَّ تُقَرَّعُ الأوتارُ إما بعودٍ آخَرٍ أو بَوَتَرٍ مشدودٍ بين طَرَفَيْ قَوْسٍ يَمُرُّ عليها
بعد أن يُظَلَّى بالشَّعْغِ والكُنْدَرِ. وَيَقْطَعُ الصوتُ فيه بِتَخْفِيفِ اليَدِ في إِمْرَارِهِ [وَنَقْلِهِ]^(١)
من وَتَرٍ إلى وَتَرٍ، واليدُ اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار تُوقَعُ بِأصابعها على
أطراف الأوتار فيما يُقَرَّعُ / أو يُحَكُّ بالوتر، فتحدثُ الأصواتُ متناسبةً مُلْدَوْدَةً. 5
وقد يكون التَّرَجُّعُ في الطُّسُوتِ بالقُضْبَانِ أو في الأغواد بعضها ببغضٍ على تَوَقُّعٍ
مُتَنَاسِبٍ يُحْدِثُ عنه التِّدَادُ بِالْمُسْمُوعِ.

(288ب)

ولْيَتَبَيَّنْ لَكَ السَّبَبُ فِي اللَّذَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْغِنَاءِ. وَذَلِكَ أَنَّ اللَّذَّةَ^(ب) كَمَا
تَقَرَّرُ فِي مَوْضِعِهِ، هِيَ إِدْرَاكُ الْمَلَأَمِ؛ وَالْمَخْسُوسُ إِنَّمَا تُدْرِكُ مِنْهُ كَيْفِيَّةٌ، فَإِذَا كَانَتْ 10
مُنَاسِبَةً لِلْمُدْرِكِ وَمَلَأَمَةً، كَانَتْ مُلْدَوْدَةً. وَإِذَا كَانَتْ مُنَافِيَةً لَهُ، مَنَافَرَةً، كَانَتْ مُؤَلَّةً.
فَالْمَلَأَمُ مِنَ الطَّعُومِ مَا نَاسَبَتْ كَيْفِيَّتُهُ حَاسَّةَ الدَّوْقِ فِي مِزَاجِهَا وَكَذَا الْمَلَأَمُ مِنَ
الْمَلْهُوسَاتِ، وَفِي التَّرَوَائِحِ مَا نَاسَبَ مِزَاجَ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ الْبُخَارِيِّ، لِأَنَّهُ الْمُدْرِكُ،
وَالِيهِ تُؤَدِّيهِ الْحَاسَّةُ. وَلِهَذَا كَانَتْ التَّرِياحِينَ وَالْأَزْهَارُ الْعَطْرِيَّاتُ أَحْسَنَ رَاحَةً وَأَشَدَّ
مُلَاعَمَةً لِلرُّوحِ، لِعَلْبَةِ الْحَرَارَةِ فِيهَا، الَّتِي هِيَ مِزَاجُ الرُّوحِ الْقَلْبِيِّ. 15

وَأَمَّا الْمَرْتَبَاتُ وَالْمُسْمُوعَاتُ، فَالْمَلَأَمُ فِيهَا تَنَاسُبُ الْأَوْضَاعِ فِي أَشْكَالِهَا
وَكَيْفِيَّاتِهَا، فَهُوَ أَنْسَبُ عِنْدَ النَّفْسِ وَأَشَدُّ مَلَاعَمَةً لَهَا. فَإِذَا كَانَ الْمَرْقِيُّ مُتَنَاسِبًا فِي

(١) فِي ظ، ع: وَيَنْقُلُهُ. وَفِي ج، ي: أَوْ يَنْقُلُهُ (ب) ظ: الْمَدَّة.

أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادّته، بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادّته الخاصّة
 من كمال المناسبة والوضع، وذلك هو معنى الجمال والحسن في كلّ مذرك، كان
 ذلك حينئذٍ مناسباً للتّمسّس المذركة، فتلتذّ بإذراك ملائمتها. ولهذا نجد العاشقين
 المشتهّرين في المحبة، يُعبّرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أزواجهم بروح
 5 المخبّوب. ومغناه من وجه آخر، أنّ الوجود يُشرك بين الموجودات كما يقوله
 الحكماء، فتوّد أن تمتزج بما شهدت فيه الكمال لتتجد به.

ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يُذرك الكمال في
 تناسب موضوعها هو شكله الإنساني، فكان إذراكه للجمال والحسن في تخطيطه
 وأصواته من المذارك التي هي أقرب إلى فطرته، فيلتهج كلّ إنسان بالحسن من المزيّ
 10 أو المسموع بمقتضى الفطرة. والحسن في المسموع⁽¹⁾ أن تكون الأصوات متناسبة لا
 متنافرة. وذلك / أنّ الأصوات لها كميّات من الهمس والجهر والرّخاوة والشّدة
 [1289] والقلّة والضّغط وغير ذلك، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن.

فأولاً: أن لا يخرج من الصوت إلى ضده دفعة، بل بتدرّج، ثم يرجع
 كذلك. وكذا إلى المثل، بل لا بدّ من توسّط المغاير بين الصّوتين. وتأمل هذا من
 15 استيقاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة الخارج، فإنه من بابه.
 وثانياً: تناسبها بالأجزاء، كما مرّ أوّل الباب. فيخرج من الصوت إلى يضيفه
 أو تُلّثه أو جزء من كذا منه، على حسب ما يكون التثقل مناسباً على ما خصره

(1) في ط: بمقتضى الفطرة. ولعلها مكررة من التّايخ.

أهل صناعة الموسيقى. فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات، *كما ذكره أهل تلك الصناعة*⁽¹⁾، كانت ملائمة ملنودة.

ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه، لا يحتاجون فيه إلى تعلم ولا صناعة، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك. وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار. وكثير من القراء 5 بهذه المثابة، يقرأون القرآن، فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير، فيظنّون بحسن مساقفهم وتناسب نغماتهم.

ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب، وليس كلّ الناس يستوي في معرفته، ولا كلّ الطباع توافق صاحبها في القمل به إذا علم.

وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى، كما نشرحه بعد عند ذكر 10 العلوم.

وقد أنكر مالك⁽²⁾، رضي الله عنه، القراءة بالتلاحين، وأجازها الشافعي، رضي الله عنه.

وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي، فإنه لا ينبغي أن يختلف في خطره، إذ صناعة الغناء مباحة للقرآن [بكل وجه]^(ب). 15

(1) سقط ما بين النجيين من ع، ومكانها إشارة مخرج غير موجود (ب) من ي .

(2) انظر ابن قدامة: المغني 1: 178، ابن مفلح: الآداب الشرعية 2: 203، د. بشار عواد معروف: البيان في حكم التنقي بالقرآن (ضمن كتاب الإعجاز القرآني، بغداد 1989).

(١) [لأنَّ القراءة والأداء يُحتاجُ (ب) إلى مقدارٍ من الصوت يتَّعَيَّنُ (ج) أداء الحَرْفِ به من حيث إشباع الحركات في مواضعها (د) ومقدار المدَّ عند من يُطِيلُهُ أو يُقْصِرُهُ، وأمثال ذلك. والتلحين أيضاً يتَّعَيَّنُ (هـ) له مقدارٌ من الصوت لا يتم إلا به من أجل / التناشِبِ الذي قلناه في حقيقة التلحين، فاعتبارُ (د) أحدهما قد يُخلُ [289ب] 5 بالآخر إذا تعارضاً. وتقدِّمُ التلاوة مُتَّعَيَّنَ فراراً من تغيير الرواية المنقولة في القرآن. فلا يُمكن اجتماع التلحين والأداء المعْتَبَرِ في القرآن بوجه (١).

وإنَّما المراد في اختلافهم التلحين البسيط الذي يَهْتَدِي إليه صاحبُ المضمار بطبعه، كما قدَّمناه. فَيَرَدُّ أصواته ترديداً على نسبٍ يُدْرِكُها العالمُ بالغناء وغيره. هذا هو محلُّ الخلاف. والظاهر تزيُّه القرآن عن هذا، كما ذهب إليه الإمام، رحمه الله، لأنَّ القرآن هو محلُّ خشوعٍ بذكرِ الموت وما بعده، وليس مقام التذاذ 10 بإذراك الحسن (ج) من الأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة كما في أخبارهم. فأما قوله ﷺ (١): "لقد أوتي مزامراً من مزامير داود" (ح)، فليس المرادُ به الترديد والتلحين، وإنَّما معناه حُسْنُ الصوت وأداء القراءة والإبانة في مَخارج الحروف والتطقي بها.

(١) مخرج في ع بخره، ومنه بخره أيضاً في ي (ب) كذا بخره، والصواب: يحتاجان (ج) ع: بتعين أداة الحرف (د) ي: موضعها (هـ) ح: مقي (و) من ح ط، وفي ع: واعتبار (ز) ع: للحسن (ح) كذا في ط ج، وفي ع ي: آل داود.

(١) قالها النبي ﷺ في أبي موسى الأشعري حين سمع قراءته. والحديث أخرجه الحميدي في مسنده (282) وأحمد 6: 37، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (1476) والدارمي في سننه (1497) والثسفي في المجي 2: 180. وينظر المسند الجامع، 20: 338، حديث رقم (17215).

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء، فاعلم أنه يحدث في الغفران إذا تَوَقَّرَ
وتجاوزوا حدَّ الصَّورِي إلى الحَاجِي، ثم إلى الكِبَالِي وتَقَشَّتُوا فيه، فتحدث⁽¹⁾ هذه
الصَّنَاعَةُ لأنه لا يَسْتَدْعِيهَا إِلَّا من فِرْعَ من جَمِيع حَاجَاتِهِ الصَّورِيَّةِ والمُهَمَّةِ من
المَعَالِشِ والمَنْزِلِ وَغَيْرِهِ. فلا يَطْلُبُهَا إِلَّا الْفَارِغُونَ عن سَائِرِ أَهْوَالِهِمْ تَقَشُّنَا في مَذَاهِبِ
الْمَلَذُودَاتِ. وكان في سُلْطَانِ الْعَجَمِ قَبْلَ الْمِلَّةِ مِنْهَا بَحْرٌ زَاخِرٌ في أَنْصَارِهِمْ وَمُذْنِهِمْ. 5
وكان مَلُوكُهُمْ يَتَّخِذُونَ ذَلِكَ وَيُولَعُونَ بِهِ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ الْمُلُوكُ الْفَرَسِ اهْتِمَامٌ بِأَهْلِ
هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، وَلَهُمْ مَكَانٌ مِنْ دَوَلَّتِهِمْ. وَكَانُوا يَحْضُرُونَ مَشَاهِدَهُمْ وَمَجَامِعَهُمْ
وَيُعْتَوْنَ فِيهَا. وَهَذَا شَأْنُ الْعَجَمِ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي كُلِّ أَفْقٍ مِنْ أَفَاقِهِمْ وَمَمْلَكَةٍ مِنْ
مَمَالِكِهِمْ.

وأما العربُ، فكان لهم أَوَّلًا قُرْنُ الشَّعْرِ، يُؤَلِّفُونَ فِيهِ الْكَلَامَ أَجْزَاءً مُتَسَاوِيَةً 10
على تَنَاسُبٍ بَيْنَهَا فِي عِدَّةِ حُرُوفِهَا الْمُتَحَرِّكِهَ وَالسَّاكِنَةِ، وَيُقْضِلُونَ الْكَلَامَ فِي تِلْكَ
الْأَجْزَاءِ تَقْصِيلًا يَكُونُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا مُسْتَقِلًّا / بِالْإِفَادَةِ، لَا يَتَغَطِّفُ عَلَى الْآخَرِ،
وَيُسَمُّوهُ الْبَيْتَ. فَيَلْتَأَمُ الطَّبَعُ بِالتَّجْزِئَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ يَتَنَاسَبُ الْأَجْزَاءُ فِي الْمَقَاطِعِ
وَالْمُبَادِئِ، ثُمَّ بِتَأْدِيَةِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ وَتَطْبِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ. فَلَهَجُوا بِهِ، وَامْتَنَزَ مِنْ بَيْنِ
كَلَامِهِمْ بِحِطٍّ مِنَ الشَّرَفِ لَيْسَ لغيرِهِ، لِأَجْلِ اخْتِصَاصِهِ بِهَذَا التَّنَاسُبِ. وَجَعَلُوهُ 15
دِيْوَانًا لِأَخْبَارِهِمْ وَحِكْمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ، وَمَحْكَأً لثَرَايِحِهِمْ فِي إِصَابَةِ الْمَعَانِي وَإِجَادَةِ
الْأَسَالِيبِ. وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ.

(1) في ع: فيحدث.

وهذا التناوب [الذي]⁽¹⁾ من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف
قَطْرَةٌ من بَحْرٍ تَنَاسَبِ الأصوات كما هو معروف في كتاب الموسيقى⁽¹⁾. إلا أنهم لم
يَشْعُرُوا بما سِوَاهُ، لأنَّهم حينئذٍ لم يَشْجُلُوا عِلْمًا ولا عَرَفُوا صِنَاعَةً، وكانت البدَاوَةُ
أَغْلَبَ نَجْلِهِمْ، ثم تَغَيَّرَ الحِداةُ منهم في حُدَاءِ إِبْلِهِمِ وَالْفِثْيَانِ فِي فَضَاءِ خُلُوعِهِمْ، فَزَجَّعُوا
5 الأصوات وَتَرْتَمَوْا، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ التَّرْتُّمَ إِذَا كَانَ بِالشَّعْرِ غِنَاءٌ، وَإِذَا كَانَ بِالتَّهْلِيلِ أَوْ
نَوْعِ الْقِرَاءَةِ تَغْيِيرًا، بِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ. وَعَلَّلَهَا أَبُو إِسْحَاقَ الرَّجَّاجُ⁽²⁾ بِأَنَّهَا
تُذَكَّرُ بِالْغَايِرِ، وَهُوَ الْبَاقِي، أَيْ بِأُخْوَالِ الْآخِرَةِ. وَرَبَّمَا نَاسَبُوا فِي غِنَائِهِمْ بَيْنَ التَّغَاتِ
مُنَاسَبَةً بَسِيطَةً، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيقٍ آخَرَ كِتَابَ الْعُمْدَةِ⁽³⁾، وَغَيْرُهُ. وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ
التَّسَادُ⁽⁴⁾. وَكَانَ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِي الْحَقِيفِ الَّذِي يُرْقِصُ عَلَيْهِ وَيُضْمَى بِالْدَّفِّ
10 وَالْمِزْمَارِ، فَيُطَرَّبُ وَيُسْتَخِفُّ الْحُلُومَ. وَكَانُوا يُسَمُّونَ هَذَا الْهَزْجَ⁽⁵⁾. وَهَذَا الْبَسِيطُ
كُلُّهُ مِنَ التَّلَاحِينِ هُوَ مِنْ أَوَائِلِهَا، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تَنْقُطَ لَهُ الطَّبَاعُ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ،
شَأْنُ الْبَسَائِطِ كُلِّهَا مِنَ الصَّنَائِعِ.

(1) سقط من ط .

(1) الفارابي: الموسيقى الكبير ، انظر خاصة أجزاء الحروف ونظائرها كالإيقاع، ص 1075- .
(2) اللسان (غ ب ر) وعبارة الرجاء فيه: ستموا مغبرين لتزهيدهم الناس في الغاية وهي الدنيا ويرغبهم في
الآخرة الباقية .

(3) العمدة : 2 : 1130 .

(4) المصدر تشبه : 2 : 1128 .

(5) المصدر والمصفحة .

ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم. فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبهم عليه، وكانوا من البداوة والغضاضة⁽¹⁾ على الحال التي عرفت لهم، مع غضايرة الدين وشديته في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش، فهجر ذلك شيئاً ما، ولم يكن المندود عندهم إلا ترجيع القراءة والترثم بالشعر الذي كان ذيدتهم ومذهبهم. فلما جاءهم 5 الترف / وغلب عليهم الترف بما حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا إلى تضارة الغيش [290ب] وريقة الحاشية واستيلاء الفراغ. وافترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الججاز وصاروا موالي للعرب، وغنوا جميعاً بالعيان والطنابير والمعازف والمزامير. وسمع العرب تلحينهم الأصوات، فلحنوا عليها^(ب) أشعارهم. وظهر بالمدينة نشيط الفارسي، وطويس، وسايب خاير، مؤلى عبد الله بن جعفر، فسمعوا شيعر العرب 10 ولحنوه وأجادوا فيه، وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم مغبذ وطبقته، وابن شريح وأنظاره. ومازالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بتي العباس عند إبراهيم ابن المهدي، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وابنه حماد. وكان من ذلك في دولتهم بيفداد ما تبعه الحديث به وبمجالسه لهذا العهد. وأمعنوا في اللهو واللعب، واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والأشعار التي يترثم بها عليه، وجعل صنفاً 15 وحده. واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكُجج، وهي تماثيل خيل منسوجة من الخشب، معلقة بأطراف أقبية تلبسها النسوان، ويحكون بها اميطاء الخيل،

(1) من طع ي، وفي ج: أقرب إلى الغضاضة (ب) في ظ: فيها .

فِيَكُونُونَ وَيَقْتَرُونَ وَيُثَاقِفُونَ، وأمثال ذلك من اللُّعْبِ الْمُغَدَّةِ لِلزَّوَالِمِ وَالْأَغْرَاسِ وَأَيَّامِ
الْأَغْيَادِ وَمَجَالِسِ الْفَرَاغِ وَاللَّهْوِ. وكثر ذلك ⁽¹⁾ ببغداد وأمصارِ العراق، وانتشر منها
فيما سواها.

وكان للمُوصِّلِينَ غلامٌ اسمه زُرْيَابٌ، أخذَ عنهم الغناء فأجادَ، فَصَرَفُوهُ إِلَى
5 الْمَغْرِبِ، غَيْرَ أَنَّهُ. فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن التَّاجِلِ، أميرِ الأَنْدَلُسِ،
فبالغَ في تَكْرِمَتِهِ وَرَكِبَ لِقَائِهِ، وَأَسْنَى لَهُ الْجَوَائِزَ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَالْمِجْرَايَاتِ، وَأَخْلَهُ
مِنْ ذَوْلَتِهِ وَتُدْمَائِهِ بِمَكَانٍ. فَأَوْرَثَ بِالْأَنْدَلُسِ مِنْ صِنَاعَةِ الْغِنَاءِ مَا تَنَاقَلُوهُ إِلَى أَرْمَانِ
الطُّوَائِفِ. وطمأ منها بِإِشْبِيلِيَّةِ بَحْرٍ زَاخِرٍ، وَتَنَاقَلَ مِنْهَا بَعْدَ ذَهَابِ غَضَارَتِهَا إِلَى بِلَادِ
الْعُدُوَّةِ بِإِفْرِيقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِ، وَانْقَسَمَ إِلَى أَمْصَارِهَا. وَهِيَ الْآنَ [مِنْهَا] ^(ب) صُبَاهَةٌ عَلَى
10 تَرَاجُعِ عُمَرَانِهَا وَتَنَاقُصِ دَوْلِهَا.

وهذه الصَّنَاعَةُ آخَرُ مَا يَحْصُلُ فِي الْعُمَرَانِ مِنَ الصَّنَائِعِ، لِأَنَّهَا كَمَالِيَّةٌ فِي غَيْرِ
وُظُفَةٍ / مِنْ الْوُظَائِفِ إِلَّا وَظُفَةُ الْفَرَاغِ وَالْفَرَحِ. وَهِيَ أَيْضاً أَوَّلُ مَا يَنْقَطِعُ مِنْ
[291] الْعُمَرَانِ عِنْدَ اخْتِلَافِهِ وَتَرَاجُعِهِ. وَاللَّهُ ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾. [سورة الحجر، من الآية 86،
وسورة يس، من الآية 81].

(1) موقع مخرج غير موجود سابقاً من ع ي (ب) سقط من ظ.

32* (١) فصل، في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتاب (ب)

والحساب

قد ذكرنا في الكتاب أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات من المحسوسات أولاً، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن تصير إدراكاً بالفعل وعقلاً مخضاً، 5 فتكون ذاتاً روحانية، وتستكمل حينئذ وجودها. فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والتفكير يفيد عقلاً مزيداً. والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكها قانون علمي مستفاد من تلك الملكة. فلهذا كانت الحكمة في التجربة تفيد عقلاً، والملكات الصناعية تفيد عقلاً، والحضارة الكاملة تفيد عقلاً، لأنها مجتمعة من صنائع 10 في شأن تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم، ثم القيام بأمور الدين واختيار آدابها وشرائطها. وهذه كلها قوانين تنظم علوماً، فتحصل منها زيادة عقلي.

والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك، لأنها تشمل على علوم وأنظار بخلاف الصنائع.

وبيانه: أن في الكتابة انتقالاً من صور الحروف الحظية إلى الكلمات اللفظية 15 في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس. فهو ينتقل أبداً من دليل إلى دليل ما دام متلبساً بالكتابة. وتتعود النفس ذلك دائماً فتحصل

(١) سجل هذا الفصل على صفحات المخطوط بخطه (ب) ح ي : الكتابة.

لها ملكة الاتِّقال من الآية إلى المذلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي تُكتسب به العلوم المجهولة، فتكتسب بذلك ملكة من الثَّقل يكون زيادة عقل، ويحصل به ^(١) مزيد فطنة وكَيْس في الأمور، بما تَعُدُّوه من ذلك الاتِّقال. ولذلك قال كينري في كتابه لما رآهم: *بلك الفطنة والكَيْس* ^(ب): ديوانة، أي: شياطين 5 وجنون. قالوا: وذلك أضلُّ اشتقاق الديوان لأهل الكتابة.

ويلحق بذلك الحساب، فإن في / صناعة الحساب نوعٌ تَصْرُف ^(ج) في [291ب] العدد ^(د) بالضم [والترقيق] ^(هـ) يُحتاج فيه إلى استدلال كبير، فيبقى مُتَعَوِّداً للاستدلال والتَّطَرُّع، وهو معنى العقل.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الثعل، الآية 78]. 10

(١) سقط من ع (ب) من ط ج، وسقط من ع ي (ج) سقط من ط (د) سقط من ي (هـ) سقط من ط .

/ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ^(١)

الفصل السادس * من الكتاب الأول *^(ب)

(١) من ط ي، وفي ج ع: وصلى الله على سيدنا محمد وآله (ب) سقط من ي .

بِالْعُلُومِ وَأَصْنَافِهَا، وَالتَّغْلِيمِ وَطُرُقِهِ، [وَسَائِرُ وُجُوهِه] ^(أ) وَمَا يَعْزِضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَفِيهِ مَقْدَمَةٌ وَلَوْ أَحَقُّ

(ب) [فَالْمَقْدَمَةُ فِي الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ الْبَشَرُ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ، وَاهْتَدَى بِهِ لِتَخْصِيلِ مَعَاشِهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَنْبَاءِ جَنْسِهِ ، وَالتَّنْظَرِ فِي مَغْبُودِهِ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ عِنْدِهِ ؛ فَصَارَ جَمِيعُ الْحَيَوَانَاتِ فِي طَاعَتِهِ وَمَلَكَه قُدْرَتُهُ، وَقَضَلَهُ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ.

1 • فَضْلٌ، فِي الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَيَّزَ الْبَشَرَ عَنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ بِالْفِكْرِ، الَّذِي جَعَلَهُ مَبْدَأَ كَمَالِهِ وَنَهَايَةَ فَضْلِهِ عَلَى الْكَائِنَاتِ وَشَرَفَهُ . وَذَلِكَ أَنَّ الْإِذْرَاكَ ، وَهُوَ شَعُورُ الْمُدْرِكِ فِي ذَاتِهِ بِمَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ ذَاتِهِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِالْحَيَوَانِ فَقَطْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْكَائِنَاتِ وَالْمَوْجُودَاتِ . فَالْحَيَوَانَاتُ تَشْعُرُ بِمَا هُوَ خَارِجٌ عَنْ ذَاتِهَا بِمَا رَكَّبَ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْخَوَاصِّ الظَّاهِرَةِ: السَّمْعُ، وَالبَصَرُ، وَالشَّمُّ، وَالتَّوْقُ، وَاللَّمْسُ. وَيَزِيدُ الْإِنْسَانُ

(أ) سقط من ج (ب) هذه المقدمة والتصلب الستة الأولى (6-1) انفردت بها ع، ولم ترد في الأصول الأخرى . وقد أبتنا في مفتتح كل صفحة منها خطأ مائلاً (//) للتدليل على ما في محتوى كل صفحة، دون الإشارة إلى رقعها تحجباً للتداخل مع أرقام صفحات (ط) .

من ينهها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء جسسه. وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه، ينتزع بها صُورَ المحسوسات ويحولُ بذهنيه فيها، فيجزئ منها صوراً أخرى.

والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانزع والتكيب. وهو مغنى الأفتدة، من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [سورة التحل، من الآية 78].

والأفتدة، جمع فؤاد، وهو هنا الفكر. وهو على مراتب:

الأولى: تعقل الأمور المترتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً أو وضعياً، ليُصَدَّ إيقاعها بقدرته. وهذا الفكر أكثره تصوّرات، وهو العقل التمييزي الذي به يحصل منافعه ومعاشه ويدفع مضاره.

الثانية: الفكر الذي يُفيدُ الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم. وأكثرها تصديقات تُحصل بالتجربة / شيئاً شيناً، إلى أن يتم الفائدة منها. وهذا هو المسمى بالعقل التجريبي.

الثالثة: الفكر الذي يُفيدُ العلم أو الظنَّ بمطلوب وراء الحس، لا يتعلّق به عمل. وهذا هو العقل التطري. وهو تصوّرات وتصديقات تُنظّم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة، فتفيدُ معلوماً آخر من جنسها في التصوّر أو التصديق. ثم يُنظّم مع غيره، فتفيدُ معلوماً آخر كذلك. وغايته إفادته تصوّر الوجود على ما هو عليه

بأخناسه وفُصُوله وأَسْبَابِه وَعِلَلِه. فَيَكْمُلُ الْفِكْرُ بِذَلِكَ فِي حَقِيقَتِهِ، وَيَصِيرُ عَقْلاً مُخَصَّصاً، وَنَفْساً مُدْرِكَةً. وَهُوَ مَعْنَى الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

2 فصل، -يَفْزَنُ عَوَالِمَ الْحَوَادِثِ الْفَعْلِيَّةِ إِنَّمَا تَتِمُّ بِالْفِكْرِ

اعْلَمْ أَنَّ عَالَمَ الْكَائِنَاتِ يَشْتَبِلُ عَلَى : ذَوَاتٍ مَخْضِيَّةٍ ، كَالْعُنَاصِرِ وَآثَارِهَا ،
وَالْمَكُونَاتِ الثَّلَاثَةِ عَنْهَا ، الَّتِي هِيَ : الْمَعْدِنُ ، وَالنَّبَاتُ ، وَالْحَيَوَانُ ، وَهَذِهِ كُلُّهَا 5
مُتَعَلِّقَاتُ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ. وَعَلَى أَعْمَالٍ صَادِرَةٍ عَنِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَاقِعَةٍ بِقُصُودِهَا ، مُتَعَلِّقَةٌ
بِالْقُدْرَةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَهَا عَلَيْهَا. فَهِيَ مُنْتَظَمٌ مُتَرَتَّبٌ ، وَهِيَ الْأَفْعَالُ الْبَشَرِيَّةُ ، وَمِنْهَا
غَيْرُ مُنْتَظَمٍ وَلَا مُتَرَتَّبٍ ، وَهِيَ أَعْمَالُ الْحَيَوَانَاتِ غَيْرِ الْبَشَرِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْفِكْرَ يُدْرِكُ التَّرْتِيبَ بَيْنَ الْحَوَادِثِ بِالطَّبْعِ أَوِ الْوَضْعِ. فَإِذَا قَصَدَ
إِيجَادَ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، فَلَأَجْلِ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الْحَوَادِثِ لَا بُدَّ مِنَ التَّنَظُّنِ بِسَبِيلِهِ أَوْ 10
عَلَيْهِ أَوْ شَرْطِهِ ، وَهِيَ - عَلَى الْجُمْلَةِ - مَبَادِئُهُ ، إِذْ لَا يَوْجُدُ إِلَّا ثَانِيًا عَنْهَا. وَلَا يُمَكِّنُ
إِقَاعُ الْمُتَقَدِّمِ مُتَأَخَّرًا وَلَا الْمُتَأَخَّرِ مُتَقَدِّمًا. وَذَلِكَ الْمُبْدَأُ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَبْدَأٌ آخَرُ مِنْ
تِلْكَ الْمَبَادِئِ لَا يَوْجُدُ إِلَّا مُتَأَخَّرًا عَنْهُ. وَقَدْ يَزْتَقِي ذَلِكَ أَوْ يَنْتَهِي. فَإِذَا انْتَهَى إِلَى آخِرِ
الْمَبَادِئِ فِي مَرْتَبَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ أَزِيدَ ، وَشَرَعَ فِي الْعَمَلِ الَّذِي يَوْجُدُ بِهِ ذَلِكَ الشَّيْءُ ،
بَدَأَ بِالْمُبْدَأِ الْأَخِيرِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ الْفِكْرُ ، فَكَانَ أَوَّلَ عَمَلِهِ. ثُمَّ تَابَعَ مَا يَتَقَدُّ إِلَى آخِرِ 15
الْمُسْتَبِاتِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلَ فِكْرَتِهِ.

مثلاً، لو فكّر في اتّخاذ سَقْفٍ يَكُنّه، انثقل بذهنه إلى الحائط الذي يذعّمه، ثمّ إلى الأساس الذي يَتَقَف عليه الحائط، فهو آخر الفِكرَة. ثمّ يَتَبَدَأ في العمل بالأساس، / ثمّ بالحائط، ثمّ بالسَقْف، وهو آخر العقل. وهذا معنى قولهم: أوّل العقل آخر الفِكرَة، وأوّل الفِكرَة آخر العقل. فلا يَتِمُّ فعل الإنسان في الخارج إلا بالفِكر في هذه المترتبات لتوقّف بعضها على بعض، ثمّ يَسْرِعُ في فعلها. وأوّل هذا الفكر هو المُسَبِّب الأخير، وهو آخرها في العقل. وأوّلها في العمل هو السبب الأوّل، وهو آخرها في الفكر. ولأجل العُثور على هذا الترتيب يُحْصَل الانتظام في الأفعال البشريّة.

وأما الأفعال الحيوانيّة لغير البشر، فليس فيها انتظام، لعدم الفكر الذي يعبّر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل، إذ الحيوانات إنّما تُدرك بالحواس، ومذكراتها مُتفرقة حليّة من الرّبط، لأنّه لا يكون إلا بالفِكر. ولما كانت الحوادث المُتعبّرة في عالم الكائنات هي المنتظمة، وغير المنتظمة إنّما هي تَبَع لها، اندرجت حينئذ أفعال الحيوانات فيها، وكانت مُسخّرة للبشر، واستولت أفعال البشر على عالم الحوادث بما فيه، فكان كلّها في طاعته وتسخيره. وهذا معنى الاستخلاف المُشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة، من الآية 30].

فهذا الفكر هو الخاصّة البشريّة التي تميّز بها البشر عن غيره من الحيوان. وعلى قدر حصول الأسباب والمُسبّبات في الفكر مُرتبة⁽¹⁾ تكون إنسانيّته. فمن

(1) ع: منزلة .

التاس من تتوالى له السببيّة في مرتبتين أو ثلاث، ومنهم من لا يتجاوزها، ومنهم من ينتهي إلى خمس أو ست، فتكون المرتبة أعلى.

واعتبر⁽¹⁾ ذلك بلاعب الشطرنج، فإنّ في اللاعبين من يتصوّر ثلاث حركات والنفس التي^(ب) ترتبها وضعي، ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه. وإن كان هذا المثال غير مطابق، لأنّ لعب الشطرنج بالملكة، ومعرفة الأسباب والمستببات بالطبع. لكنه مثال يحتذي به التاظر في تعقّل ما يورّد عليه من القواعد. والله خلق الإنسان وقضاه على كثير من خلق تفضيلاً.

33 فصل، في العمل التجريبي، وكيفية حدوثه

إنك تسمع في كتب الحكماء قولهم: الإنسان مديّ بالطبع. يذكرونه في إثبات الثبوتات وغيرها. والنسبة فيه / إلى المدينة، وهي عندهم كناية عن الاجتماع البشري. ومعنى هذا القول أنّه لا تمكن حياة المنفرد من البشر ولا يتمّ وجوده إلّا مع أبناء جنسه، وذلك لما هو عليه من العجز عن اشتكمال وجوده وحياته. فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبيعته. وتلك المعاونة لا بدّ فيها من المفاوضة أولاً، ثمّ المشاركة وما يتعدّها. وربّما تقضي المعاملة عند اتّحاد الأغراض إلى المنازعة والمشاخرة، فننشأ المناقرة والمواقفة، والصداقة والعداوة، وتوولّ إلى الحزب والسلم بين الأمم والقبايل. وليس ذلك على أيّ وجه اتفق، كما بين الهمل من الحيوانات، بل البشر

(1) ع اعتبر (ب) ع: الذي .

بما جعل فيهم من انبظام الأفعال وتزيتها بالفكر كما تقدم، جعل ذلك منتظماً فيهم
ويسرهم لإيقاعه على وجود سياسيّة وقوانين حكيمّة يُنكبون فيها عن المفاسد إلى
المصالح، وعن الحسن إلى السيئ، بعد أن يميزوا القبايح والمفسدة بما ينشأ عن فعل
من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم . فيفارقون الهمل من الحيوان،
وتظهر عليهم نتيجة الفكر في انبظام الأفعال وبُعدها عن الفساد. 5

هذه المعاني التي يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحس كل البعد، ولا يتعمق
فيها التأمل، بل كلها تدرك بالتجربة، وبها تستفاد، لأنها معاني جزئية تتعلق
بالمخسوسات، وصيدفها وكذبها يظهر قريباً في الواقع. فيستفيد طالبها حصول العلم
بها من ذلك، ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذي يسر له منها، مقتنصاً له
10 بالتجربة بين الوقائع في معاملة أبناء جنسه حتى يتعین له ما يحب ويتبغى فعلاً
وتركاً، وتحصل بملائسته الملكة في معاملة أبناء جنسه. ومن تتبّع ذلك سائر عمره
حصل له العثور على كل قضية قضية، ولا بد بما تسعه التجربة من الزمن. وقد
يسهل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك في أقرب من زمن تحصيلها بالتجربة
إذا قلّد فيها الآباء والمشيوخة والأكابر ولقّن عنهم ووعى تعليمهم، فيستغني عن طول
15 المعاناة في تلّج الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها. ومن فقد المعلم في ذلك والتقليد
فيه، أو أغرض عن حسن استماعه / واتباعه، طال عناؤه في التأدّب بذلك.
فينخري في غير مألوف، ويذكرها على غير نسبة. فتوجد آدابه ومعاملاته سيئة
الأوضاع، بادية الحلل، ويفسد حاله في معاشه بين أبناء جنسه. وهذا معنى القول

المشهور⁽¹⁾: من لم يُؤدِّبه والِداهُ، أدَّبَهُ الزَّمانُ. أي، من لم يَلْقَ الأَدابَ في مُعاملاتِ البشرِ من والدَيْهِ، وفي مَعناها المُشِيخةُ والأَكابرُ، ويتعلَّمُ ذلك منهم، رَجَعَ إلى تعلُّمِهِ بالطَّبعِ من الواقِعاتِ على نِوَالي الأَيامِ، فيكونُ الزَّمانُ مُعلِّمَهُ ومُؤدِّبَهُ لَضرورةِ ذلك بِضرورةِ المُعاوَنَةِ الَّتِي هِيَ طَبِيعَتُهُ.

وهذا هو العَقْلُ التَّجَرِبِيُّ ، وهو يُخْضَلُ بعدَ العَقْلِ التَّمييزِيِّ الَّذِي تَقَعُ بِهِ 5 الأَفْعَالُ، كما قَدَّمْناهُ.

وبعدَ هذَينِ مَرْتَبَةِ العَقْلِ التَّظَرِّيِّ الَّذِي تَكْمُلُ بِتَفْسِيرِهِ أَهْلُ العُلُومِ، فلا نَحْتَاجُ إلى تَفْسِيرِهِ في هَذا الكِتابِ. وَاللَّهُ جَعَلَ ﴿لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية 78].

10

4 • فَضْلٌ، فِي عُلُومِ الْبَشَرِ وَعُلُومِ الْمَلَائِكَةِ

إِنَّا نَشْهَدُ في أَنْفُسِنا بِالوُجُودِ الصَّحيحِ وَجُودَ ثَلَاثَةِ عَوَالِمِ، أَوَّلُها عَالَمُ الْحَيَسِ، وَنَعْتَبِرُهُ بِمداركِ الْحَيَسِ الَّذِي شارَكْنا فِيهِ الْحَيَواناتُ بِالإِذْراكِ. ثُمَّ نَعْتَبِرُ الْفِكْرَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الْبَشَرُ، فنَعْلَمُ مِنْهُ وَجُودَ النُّفُسِ الْإِنْسَانِيَةِ عِلْماً ضَرُورِيّاً بِما بَيْنَ جَنَّتَيْنِ مِنْ

(1) وَضَعَهُ الْمُغْنِيُّ أَبُو مُحَلَّمٍ (عَوْفُ بْنُ مُحَلَّمٍ الْخِزَاعِيُّ) فِي قَوْلِهِ:

مَنْ لَمْ يُؤدِّبْهُ وَالِدَاهُ أَدَّبَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

انظر التذكرة الحمدونية 8: 111، الرخمشري: ربيع الأبرار 4: 395 ونسبها ابن عبد ربه: العقد الفريد 2: 441 إلى إبراهيم بن شكلة (المهدي).

مداركها العلمية التي هي فوق مدارك الجس، فنراه عالماً آخر فوق عالم الجس. ثم نستدل على عالم ثالث فوقنا بما نحس فينا من آثاره التي نلّغى في أفئدتنا، كالإرادات والوجّهات نحو الحركات الفعلية، فنعلم أنّ هناك فاعلاً يتعنّنا عليها من عالم فوق عالمنا، وهو عالم الأرواح والملائكة. وفيه ذوات مُدركّة لوجود آثارها 5 فينا، مع ما يتننا ويثنها من المغايرة.

وربما يُستدل على هذا العالم الأعلى الروحاني وذواته، بالرؤيا وما نجد في التّوهم ولغى علينا فيه من الأمور التي نحن في غفلة عنها في اليقظة، وتطابق الواقع في الصحة منها، فنعلم أنّها حق ومن عالم الحق. وأمّا أضغاث الأحلام، فصور خيالية يخبّئها الإدراك في الباطن، ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الجس. ولا نجد 10 على هذا العالم الروحاني برهاناً أوضح من هذا، فنقله لذلك على الجفلة، ولا ندرك له تفصيلاً.

وما يزعمه الحكماء الإلهيون / في تفصيل ذواته وترتيبها، المسماة عندهم بالعقول، فليس شيء من ذلك بيقيني، لاختلال شرط البرهان النظري فيه، كما هو مقرّر في كلامهم في المنطقي. لأنّ من شرطه أن تكون قضايا أوليّة ذاتيّة، وهذه الذوات 15 الروحانية مجهولة اللّاتيات. فلا سبيل للبرهان فيها، ولا يتّقى لنا مدرك في تفاصيل هذه العوالم إلّا ما تقتبسُه من الشرعيات التي يوضّحها الإيمان ويحكمها.

وأبعد هذه العوالم في مدركنا عالم البشر، لأنّه وجداني مشهود في مداركنا الجنسية والروحانية، ويشترك في عالم الجس مع الحيوانات، وفي عالم العقل

والأزواج مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته، وهي ذوات مجردة عن
الجسائية والمادة، وعقل صرّف يتجدد فيه العقل والعاقل والمفعول، وكأنه ذات
حقيقتها الإدراك والعقل. فعلومهم حاصلة دائماً مطابقة بالطبع لمعلوماتها لا يقع فيها
خلل البتة. وعلم البشر هو حصول صورة المعلوم في ذواتهم بعد أن لا تكون حاصلة،
فهو كله مكتسب. والثبات التي تحصل فيها صور المعلومات، وهي النفس، مادة 5
هولائية تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شيئاً شيناً حتى
تستكمل، ويصح وجودها بالموت في مادتها وصورتها. فالمطلوبات فيها مترددة بين
التفي والإثبات دائماً، تطلب أحدهما بالوسط الزابط بين الطرفين. فإذا حصل
وصار مغلوماً افتقر إلى بيان المطابقة. وربما أوضحها البرهان الصناعي، لكنه من وراء
الحجاب، وليس كالمعاني التي في علوم الملائكة. وقد يتكشف ذلك الحجاب، فيصير 10
إلى المطابقة بالبيان الإدراكي.

فقد تبين أن البشر جاهل بالطبع، للتردد الذي في علمه، وعالم بالكسب
والصناعة، لتخصيله المطلوب يفكره بالشروط الصناعية. وكشف الحجاب الذي
أشرنا إليه، إنما هو بالرياضة بالأذكار التي أفضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،
وبالتزهد عن المتناولات المهمة ورأسها الصوم، وبالوجهة إلى الله بجميع قواه. والله 15
﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [سورة العلق، الآية 5].

5 • فصل، في علوم الأنبياء عليهم السلام

إننا نجد هذا الصنف من البشر/ تتغيرهم حالة الهيئة خارجة عن منازع البشر وأحوالهم ، فتغلب الوجهة الربانية فيهم على البشرية في القوى الإدراكية والتروعية من الشهوة والغضب وسائر الأحوال البدنية . فتجدهم متزهين عن الأحوال البشرية ، إلا في الضرورات منها ، مُقبلين على الأحوال الربانية من العبادة والذكر لله ، بما يقتضي معرفتهم به ، مُخبرين عنه بما يُوحى إليهم في تلك الحالة من هداية الأمة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم ، لا يتبدل فيهم كآته جبلة فطرهم الله عليها.

وقد تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المذكرين للغيب. وبيننا 10 هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا ينخرم، وأن النوات التي في آخر كل أفق من العوالم مُستعدة لأن تتقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعداداً طبيعياً كما في العناصر الجسدية البسيطة، وكما هو في التخل والكرم من آخر أفق التبات مع الحزون والصدف من أفق الحيوان ، وكما في القردة التي استجمع فيها الكيس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والزوية. وهذا الاستعداد الذي في جانب كل 15 أفق من العوالم هو معنى الاتصال فيها.

وفوق العالم البشري عالمٌ روحانيٌّ شهد لنا به الآثار التي فينا منه، بما يُعطينا من قوى الإدراك والإرادة. فدوات ذلك العالم إدراكٌ صرفٌ وتعلُّلٌ مخضٌ،

وهو عالم الملائكة. فوجب من ذلك كله أن يكون للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات وفي لمحة من اللحظات. ثم تراجع بشرتها وقد تلتفت في عالم الملكية ما كلفت بتبليغه إلى أبناء جنسها من البشر؛ وهذا هو معنى الوحي.

- 5 وخطاب الملائكة والأنبياء كلهم مفطورون عليه كأنه جيلة لهم. ويعالجون في ذلك الانسلاخ من الشدة والغطيط ما هو معروف عنهم. وعلومهم في تلك الحالة علم شهادة وعيان لا يلحقه الخطأ والزلل، ولا يقع فيه الغلط والوهم، بل المطابقة فيه ذاتية لزوال جباب الغيب وحصول الشهادة الواضحة. وعند / مفارقة هذه الحالة إلى البشرية لا يفارق علمهم الوضع، استيضاحاً له من تلك الحالة الأولى، ولما هم عليه من الرضاء المفضي بهم إليها، يتردد ذلك فيهم دائماً إلى أن تكمل هدايته
- 10 الأمة التي بعثوا لها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [سورة فصلت، من الآية 6].

فافهم ذلك، وراجع ما قدمناه لك أول الكتاب في أصناف المذكرين للغيب، يتضح لك شَرخه وبيانه، فقد بسطنا ههناك بسطاً شافياً. والله الموفق.

6 • فصل، في أن الإنسان جاهل بالذات، عالم بالكسب

15

قد بينا أول هذه الفصول أن الإنسان من جنس الحيوانات، وأن الله مبره عنها بالفكر الذي جعل له، يوقع به أفعاله على انتظام، وهو العقل التمييزي، أو

يُفْتَنُصُ به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من أبناء جنسه، وهو العقل التجريبي، أو يَخْضَلُ به على تصوّر الموجودات غائباً وشاهداً على ما هي عليه، وهو العقل النظري.

وهذا الفكر إتباً يحصل له بعد كمال الحيوانية فيه، ويبدأ من التمييز. فهو قبل التمييز خلوّ من العلم بالجفلة، معدود من الحيوانات، لاحق بمبديه في التكوين من النطفة والعلقة والمضغة. وما حصل له بعد ذلك، فهو بما جويل له من مدارك الجس والأفيدة التي هي الفكر. قال تعالى في الامتتان علينا: ﴿وَجَعَلْ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [سورة السجدة، من الآية 9]. فهو في الحالة الأولى قبل التمييز هيولى فقط، لجهله بجميع المعارف. ثم يستكمل صورته بالعلم الذي يكتسبه بآلاته، فتكمل ذاته الإنسانية في وجودها. 10

وانظر إلى قوله تعالى في مبدأ الوحي على نبيه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَوْ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق، من الآية 1 - 5]. أي: أكتسبه من العلم ما لم يكن حاصلاً له بقدر أن كان علقاً ومضغة. فقد كشفت لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الدائى والعلم الكسبي، 15 وأشارت إليه الآية الكريمة، تقرر فيه الامتتان عليه بأول مراتب وجوده، وهي الإنسانية، وحالتها الفطرية والكسبية في أول التنزيل ومبدأ الوحي. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ⁽¹⁾ [سورة النساء، من الآية 17].

(1) آخر الفصول الستة الأولى من الفصل السادس، التي افردت بها ع .

7 • فصل^(١)، في أن العلم والتعليم طبعي في العمران البشري

وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكين وغير ذلك، وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهدي به لتخصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه، والاجتماع المهيء لذلك التعاون، وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى، والعمل به واتباع صلاح أخراه، فهو مُفَكِّرٌ في ذلك كله 5 دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين، بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع. ثم لأجل هذا الفكر، وما جيل عليه الإنسان بل الحيوان من تخصيل ما تستدعيه الطباع، فيكون الفكر راعياً في تخصيل ما ليس عنده من الإدراكات، فيرجع إلى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة 10 أو إدراك، أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يتلغونه لمن تلقاه، فيلقن ذلك عنهم ويخبر على أخذه وعلمه. ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد من الحقائق، ويتنظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق الغواير بتلك الحقيقة ملكة له، فيكون علمه حينئذ بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً، وتشوف نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تخصيل ذلك، فيفزعون^(ب) إلى أهل معرفته ويحيي التعليم من هذا. فقد تبين بذلك أن العلم والتعليم طبعي في 15 البشر. والله أعلم.

(١) هذا الفصل مثبت في ط ج ي، وهو فاتحة الفصل السادس فيها، ولم يرد في نسخة ع (ب) وقد قرأ: فيفزعون.

8 • فصل، في أن تعلم⁽¹⁾ العلم من جملة الصنائع

وذلك أن الجدق في العلم واليقين^(ب) فيه والاستيلاء عليه ، إنما هو بمُصول
ملَكَة في الإحاطة بمبادئه وقواعده / والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من
أصوله. وما لم تخض هذه الملَكَة لم يكن الجدق في ذلك الفن حاصلاً.

5 وهذه الملَكَة هي غير الفهم والوعي. لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن
الواحد مشتركاً بين من سدا في ذلك الفن ومن هو مبتدئ فيه ، وبين العاِم الذي
لم يحصل علماً وبين العالم التحرير. والملَكَة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون
من سواها. فدل على أن هذه الملَكَة غير الفهم.

10 والملكات كلها جسمانيّة ، وسواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر
وغيره. كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة ، فتقتصر إلى التعليم ؛ ولهذا كان السند
في التعليم في كل علم أو صناعة يقتصر إلى مشاهير المعلمين فيها ، مُعْتَبَراً عند أهل
كل أفي وجيل.

ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلف الاصطلاحات فيه. فلكل
إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به ، شأن الصنائع كلها. فدل
15 على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم . إذ لو كان من العلم لكان واحداً عند
جميعهم. ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين
والمتأخرين ؛ وكذا أصول الفقه ، وكذا العربية والفقه ، وكذا كل علم يتوجه^(ج) إلى

(1) من ع. وفي طح ج: تعلم (ب) ج: الفن (ج) كذا في طح ج: وفي ع: يحتاج .

مُطْلَعِيهِ تَجِدُ الاضْطِلَاحَاتِ فِي تَعْلِيمِهِ مُتَخَالِفَةً. فَذَلَّ عَلَى أَنَّهَا صَنَاعَاتٌ فِي التَّعْلِيمِ،
وَالْعِلْمِ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ سَنَدَ الْعِلْمِ لِهَذَا الْعَهْدِ قَدْ كَادَ أَنْ يَنْقَطِعَ عَنْ أَهْلِ
الْمَغْرِبِ كُلِّهِمْ بِاخْتِلَالِ عُمُرَانِهِ وَتَنَاقُصِ الدُّوَلِ فِيهِ، وَمَا يَحْدُثُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ نَقْصِ
الصَّنَاعِ وَفَقْدَانِهَا كَمَا مَرَّ . وَذَلِكَ أَنَّ الْقَيْرَوَانَ وَقُرْطُبَةَ كَانَتَا حَاضِرَتَيْ الْمَغْرِبِ 5
وَالْأَنْدَلُسِ، وَاسْتَبَحَرَ عُمُرَانُهُمَا⁽¹⁾، وَكَانَ فِيهِمَا لِلْعُلُومِ وَالصَّنَاعِ أَسْوَاقٌ نَافِثَةٌ وَبَحُورٌ
زَاخِرَةٌ. وَرَسَخَ فِيهَا التَّعْلِيمُ لِمَتَدَادِ عَصُورِهَا وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْحَضَارَةِ . فَلَمَّا خَرِبَتَا
انْقَطَعَ^[293ب] التَّعْلِيمُ عَنِ الْمَغْرِبِ إِلَّا قَلِيلًا / كَانَ فِي دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ بِمَرَاكُشَ مُسْتَفَادًا مِنْهَا.
وَلَمْ تَرَسُخْ الْحَضَارَةُ بِمَرَاكُشَ لِبِدَاوَةِ الدُّوَلَةِ الْمُوحِدِيَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَقُرْبَ عَهْدِ انْقِرَاضِهَا
بِمَدَنِيَّاتِهَا، فَلَمْ تَتَّصِلْ أَحْوَالُ الْحَضَارَةِ فِيهَا إِلَّا فِي الْأَقْلِ.

10

وَبَعْدَ انْقِرَاضِ الدُّوَلَةِ بِمَرَاكُشَ، ارْتَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةِ الْفَاضِي أَبُو
الْقَاسِمِ بْنُ زَيْتُونٍ، لِعَهْدِ أَوَاسِطِ الْمَائَةِ السَّابِعَةِ، فَأَدْرَكَ تَلْمِيزَ الْإِمَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ،
وَأَخَذَ عَنْهُمْ، وَلَقِيَ تَعْلِيمَهُمْ، وَحَذِقَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالتَّقْلِيَّاتِ، وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ يَعْلَمُ
كَبِيرًا وَتَعْلِيمَ حَسَنًا.

وَجَاءَ عَلَى إِثَرِهِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبِ الدُّكَّالِيِّ، كَانَ ارْتَحَلَ إِلَيْهِ 15
مِنَ الْمَغْرِبِ، فَأَخَذَ عَنْ مَشْيَخَةِ مِصْرَ، وَرَجَعَ إِلَى تُونِسَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا، وَكَانَ تَعْلِيمُهُ
مُفِيدًا. فَأَخَذَ عَنْهَا أَهْلُ تُونِسَ، وَاتَّصَلَ سَنَدُ تَعْلِيمِهَا فِي تَلْمِيذِهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ،

(1) ج: عَمْرَاهَا .

حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبدالسلام، شارح ابن الحاجب وتلميذه. * وانتقل من تونس إلى تلمسان في ^(١) ابن الإمام وتلميذه * ^(ب)، فإنه قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها. وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الإمام بتلمسان لهذا العهد، إلا أنهم من القلة بحيث يخطئ انقطاع سندهم.

5 ثم ارتحل من زاوية في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي * إلى المشرق ^(ج) وأدرك تلميذ * ^(د) أبي عمرو بن الحاجب، وأخذ عنهم ولحق تعليمهم. وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة، وحقق في العقليات والتفانيات، ورجع إلى المغرب بعلم كبير وتعليم مفيد، ونزل بجاية، واتصل سند تعليمه في طلبها. وربما انتقل إلى تلمسان عمران المشدالي، من تلميذه، وأوطنها 10 وبنت طريقته فيها. وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل، أو أقل من القليل.

وبقيت فاس وسائر أمصار المغرب خلوًا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقبروان، ولم يتصل سند / التعليم فيهم، ففسر عليهم حصول الملكة [1294] والجلد في العلوم. وأيسر طرُق هذه الملكة قوة ^(هـ) اللسان بالمحاورة والمناظرة 15 في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها. فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أغمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سُكوتًا لا يتطوقون

(١) في ظ: قرأ (ب) سقط ما بين النجيين من ي (ج) سقط من ظ (د) سقط ما بين النجيين من ي ج (هـ) من ع ج، وفي ي: فنى، وفي ظ: فقرة.

ولا يُفادِسون، وعنائُهم بالحفظ أكثر من الحاجة. فلا يحصلون على طائِلٍ من ملكة التصرف في العلم والتعليم. ثم^(أ) بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصَّل، تجدُ ملكته قاصرة في علمه إن^(ب) فادَّس أو ناظر أو علَّم. وما أتاهم القصور إلا من قِبَلِ التعليم واقتطاع سنده. وإلاَّ يحفظهم أبلغ من حفظ سيواهم، لشدَّةِ عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك. ومما يشهد بذلك في المغرب، 5 أن المدة المعيّنة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين. وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقلُّ ما يتأتَّى فيها لطالِبِ العلم حصولُ مُبتغاه من الملكة العلمية أو التَّأَسُّس من تحصيلها. فطالَّ أمدُّها في المغرب لهذه القصور لأجل عُسرِها من قِلَّةِ الجودة في التعليم خاصَّة، لا تما سيوى ذلك.

10

وأما أهل الأندلس، فذهب رُسمُ التعليم من بينهم، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص^(ج) عُمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين. ولم يبق من رُسم العلم فيهم إلا فنُّ القرينة والأدب، اقتصروا عليه، واحتفظ سَنَدُ تعلُّمِهِ بينهم فاحتفظ بحفظه.

وأما الفقه بينهم، فرُسمُ جُلُوِّ وأثر بعد عَيْن. وأما العقليات، فلا أثر ولا عَيْن. وما ذاك إلا لا تقطاع سَنَدِ التَّعليم فيها بتناقصِ العُمران وتغلبِ الغدو على عامتها، إلا 15 قليلاً بيسيف البحر، شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

(أ) سقط من ع (ب) في ط: إذ (ج) ي ج: ناقص.

وأما المشرق⁽¹⁾ ، فلم يُنقطع سنَدُ التعلّم فيه ، بل أسواقه / نافقته ، وبحوره [294ب] زاخرة لاتصال الغفران المؤفور ، واتصال السند فيه . وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلا أن الله قد أدال منها بأمصاير أعظم من تلك . وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب . فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً 5 وسنَدُ التعليم بها قائماً . فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعلّم العلم ، بل وفي سائر الصنائع ، حتى إنه ليُظن كثير من رجالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم ، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل المغرب . ويشتدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ، لما يرون من كينهم في العلوم والصنائع . وليس كذلك ، ولا بين 10 فطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي [هو]^(ب) تفاوت في الحقيقة الواجدة . اللهم إلا الأقاليم المنحرفة ، مثل الأول والسابع ، فإن الأمزجة فيها منحرفة ، والنفوس على نسبتها ، كما مرّ . وإنا الذي فضل به أهل المشرق أهل المغرب ، فهو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من [العقل]^(ج) المزيد ، كما تقدّم في الصنائع . وتزيده الآن 15 شرحاً وتحقيقاً .

وذلك أن الحضرة لهم آداب في أخوالهم من المعاش والمساكن والبناء وأمور الدين والدنيا ، وكذلك سائر عاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم . فلم في ذلك

(1) في ج: أما أهل المشرق (ب) من ي (ج) من: ع ح ي ، وفي ط: الفعل .

آداب^(١) يوقف عندها في جميع ما يتناولونه ويتلّسون به من أخذ وترك، حتّى كأنّها حدود لا تتعدّى. وهي مع ذلك صنائع يتلقّاها الآخر عن الأول منهم. ولا شك أنّ كلّ صناعة مترتّب فيرجع منها إلى النفس أثر يكتسبها عقلاً فريداً تستعدّ به لقبول صناعة أخرى، وينتهي به العقل لسُرعة الإدراك للمعارف.

[1295] ولقد يتلّغنا في تعليم الصّنائع عن أهل مِصر / غايات لا تُدرّك، مثل أنّهم 5
يُعلّمون الحُزْر الإنسيّة، والحيوانات العُجم من الماشي والطائر، مفردات من الكلام والأفعال يُستغزب نُدورها ويُعجز أهل المغرب عن فهمها، فضلاً عن تعلّمها.

وحسنُ الملكات في التعليم والصّنائع وسائر الأحوال العاديّة يزيد^(ب) الإنسان ذكاءً في عقله وإضاءةً في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس، إذ قدّمنا أنّ النفس إمّا تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كَيْساً لما يرجع إلى 10
النفس من الآثار العلميّة، فيطّئه العاويّ تفاوتاً في الحقيقة الإنسانيّة؛ وليس كذلك.

ألا نرى إلى الحَصْر مع أهل البنو، كيف تجدُ الحضريّ متحلّياً بالذكاء، مُمتلئاً من الكَيْس، حتّى إنّ البدويّ ليظنّه أنّه قد فاتّه في حقيقة إنسانيّته وعقله، وليس كذلك. وما ذلك إلّا لإجاذته من ملكات الصّنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضريّة ما لا يعرفه البدويّ. فلما امتلأ الحضريّ من الصّنائع وملكاتها وحسن 15
تعلّمها، ظنّ كلّ من قصّر عن تلك الملكات أنّها لكمالٍ في عقله، وأنّ نفوس أهل البنو قاصرةٌ ببطرتها وجبليّتها عن فطرته، وليس كذلك. فإنّا نجدُ في أهل البنو من

(١) كذا في: ط ع ح، وفي: أبواب (ب) ح: يزيد.

هو في أعلى رُتَبَةٍ من الفَهم والكمال في عَقْله وفِطْرته. وإِنَّمَا الَّذِي ظَهَرَ عَلَى أَهْلِ
 الْحَضَرِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ زَوْثُ الصَّنَائِعِ وَالتَّعْلِيمِ، فَإِنَّ لَهَا آثَاراً تَرْجِعُ إِلَى النَّفْسِ، كَمَا
 قَدَّمْنَاهُ. وَكَذَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ، لَمَّا كَانُوا فِي التَّعْلِيمِ وَالصَّنَائِعِ أَرْسَخَ رَتَبَةً وَأَعْلَى قَدَمًا، وَكَانَ
 أَهْلُ الْمَغْرِبِ أَقْرَبَ إِلَى الْبَدَاوَةِ، لَمَّا قَدَّمْنَاهُ فِي الْفَضْلِ قَبْلَ هَذَا، ظَنُّوا الْمُغْلَقُونَ فِي
 5 بَادِيِ الزَّمَانِ أَنَّهُ لِكَمَالٍ فِي حَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَةِ اخْتَصَّوْا بِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ
 بِصَحِيحٍ، فَتَفَهَّمَهُ. وَاللَّهُ ﴿مَزِيدٌ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية 1].

9● فصل، في أَنَّ الْعُلُومَ إِنَّمَا تَكْثُرُ حَيْثُ يَكْثُرُ الْعُمَرَانُ وَتَعْظُمُ الْحَضَارَةُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّ تَعْلِيمَ الْعِلْمِ، كَمَا قُلْنَا، مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ. وَقَدْ كُنَّا قَدَّمْنَا
 أَنَّ الصَّنَائِعَ إِنَّمَا تَكْثُرُ فِي الْأَمْصَارِ؛ وَعَلَى نِسْبَةِ عُمَرَانِهَا فِي الْكَثَرَةِ وَالْقِلَّةِ وَالْحَضَارَةِ
 10 / وَالتَّرَفِ، تَكُونُ نِسْبَةُ الصَّنَائِعِ فِي الْجُودَةِ وَالْكَثَرَةِ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الْمَعَاشِ. فَتَمَّى [295ب]
 فَضَّلْتُ أَعْمَالَ أَهْلِ الْعُمَرَانِ عَنْ مَعَاشِهِمْ، انْصَرَفْتُ إِلَى مَا وَرَاءَ الْمَعَاشِ مِنَ التَّصَرُّفِ
 فِي خَاصِيَةِ الْإِنْسَانِ، وَهِيَ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ. وَمِنْ تَشَوُّفِ بَظَرَتِهِ إِلَى الْعِلْمِ تَمَّزَ نَشَأُ فِي
 الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ غَيْرِ الْمُتَمَدِّنَةِ، فَلَا يَجِدُ فِيهَا التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ صِنَاعِيٌّ، لِفُتْقَانِ الصَّنَائِعِ
 فِي أَهْلِ الْبَدْوِ، كَمَا قَدَّمْنَاهُ. وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الرَّخْلَةِ فِي طَلَبِهِ فِي الْأَمْصَارِ الْمُسْتَبْحِرَةِ،
 15 شَأْنِ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا.

وَاعْتَبَرْتُ مَا قَرَرْنَاهُ بِحَالِ بَغْدَادِ وَفَرْطَبَةِ الْقَيْرَوَانِ وَالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ، لَمَّا كَثُرَ
 عُمَرَانُهَا صَدَرَ الْإِسْلَامِ وَاسْتَوَتْ فِيهَا الْحَضَارَةُ، كَيْفَ زَخَرَتْ فِيهَا بِحَارُ الْعِلْمِ، وَتَقَنُّوا

في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واشتتباط المسائل والفنون، حتى أرتبوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين. ولما تناقص عُمرانها وابتدعَ شكاؤها، انطوى ذلك البساطُ جملةً بما عليه، وفقد العلمُ بها والتعليمُ، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام.

- ونحن لهذا العهد، نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عُمرانها مُستبجِرٌ، وحضارتها مُستَحِكِمَةٌ منذ آلاف من السنين. فاستحكمت فيها الصنائع ونشئت، ومن جملتها تعلم العلم. وأكد ذلك فيها وخفيضة ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب، وهلمَّ جراً. وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذويهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته. فاستكنوا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركاً لأولادهم ينتظر عليها أو نصيب فيها، مع ما فهم غالباً من الجنوح إلى الخير والناس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثرَت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر / طالب العلم ومعلمه بكثرة جراتهم منها، وازنحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، وشقت بها أسواق العلوم وزخرت مجازها. والله
- ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الشورى، من الآية 49].

10 • فَصْلٌ، فِي أَصْنَافِ الْعُلُومِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمُرَانِ لِهَذَا الْعَهْدِ

اعْلَمْ أَنَّ الْعُلُومَ الَّتِي يَخُوضُ فِيهَا الْبَشَرُ وَيَتَدَاوَلُونَهَا فِي الْأُمُصَارِ تَخْصِيلاً وَتَعْلِيماً،
هي على صنفين: صنفٌ طَبِيعِيٌّ لِلْإِنْسَانِ، يَهْتَدِي إِلَيْهِ بِفِكْرِهِ، وَصِنْفٌ ثَقَلِيٌّ يَأْخُذُهُ
عَمَنَ وَضَعُهُ.

5 والأوّل: هي العلوم الْحِكْمِيَّةُ الْفَلَسَفِيَّةُ، وهي الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَقِفَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ
بِطَبِيعَةِ فِكْرِهِ وَيَهْتَدِي بِمَدَارِكِهِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَوْضُوعَاتِهَا وَمَسَائِلِهَا وَأَنْحَاءِ بَرَاهِينِهَا
وَوُجُوهِ تَعْلِيمِهَا، حَتَّى يَقِفَهُ نَظَرُهُ وَيَحْكُمَهُ عَلَى الصَّوَابِ مِنَ الْخَطَأِ فِيهَا مِنْ خَيْثُ هُوَ
إِنْسَانٌ ذُو فِكْرٍ.

والثاني: هي العلوم الثَقَلِيَّةُ الْوَضْعِيَّةُ، وهي كُلُّهَا مُسْتَنْدَدَةٌ إِلَى الْحَبَرِ عَنِ الْوَضْعِ
10 الشَّرْعِيِّ، وَلَا جَمَالَ فِيهَا لِلْعَقْلِ إِلَّا فِي إِنْحَاقِ الشُّرُوعِ مِنْ مَسَائِلِهَا بِالْأُصُولِ، لِأَنَّ
الْجُزْئِيَّاتِ الْحَادِثَةَ الْمُتَعَاظِمَةَ لَا تَنْدَرُجُ تَحْتَ الثَّقَلِ الْكَلْبِيِّ بِمَجَرَّدِ وَضْعِهِ، فَتَخْتِاجُ إِلَى
الْإِنْحَاقِ بِوَجْهِ قِيَاسِيٍّ. إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقِيَاسَ يَتَفَرَّغُ عَنِ الْحَبَرِ بِثُبُوتِ الْحُكْمِ فِي الْأَصْلِ،
وهو ثَقَلِيٌّ، فَرَجَعَ هَذَا الْقِيَاسُ إِلَى الثَّقَلِ لَتَقَرُّعِهِ عَنْهُ.

وأضَلُّ هَذِهِ الْعُلُومِ الثَّقَلِيَّةُ كُلُّهَا هِيَ الشَّرْعِيَّاتُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّتِي هِيَ
15 مَشْرُوعَةٌ لَنَا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي يَهَيِّؤُنَا لِلِاسْتِفَادَةِ
مِنْهَا. ثُمَّ يَسْتَنْبِغُ ذَلِكَ عُلُومُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، الَّذِي هُوَ لِسَانُ الْمَلَّةِ وَبِهِ نَزَّلَ الْقُرْآنُ.
وَأَصْنَافُ هَذِهِ الْعُلُومِ الثَّقَلِيَّةِ كَثِيرَةٌ، لِأَنَّ الْمَكْلَفَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَحْكَامَ اللَّهِ
الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَنْبَاءِ جَنْبِهِ، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالنَّصِّ أَوْ

بالإجماع أو بالإلحاق. فلا بُدَّ من النظر في الكتاب بيان ألفاظه أولاً، وهذا هو علم التفسير. ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله، واختلاف / روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات. ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة التافلين لها، ومعرفة أحوالهم وعذاتهم، ليشع الوشوق بأخبارهم ويعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث. ثم لا بُدَّ في 5 استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيدنا العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذه تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه. ثم إنَّ التكليف منها بدني ومنها قلبي، وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يُعتقد بما لا يُعتقد، وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأُمور الحشر والتعظيم والغذاب والقدر. والججاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام. ثم النظر 10 في القرآن والحديث لا بُدَّ أن تتقدم العلوم اللسانية، لأنه متوقف عليها. وهي أصناف، فمنها: علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وعلم الأدب، حسبما نتكلم عليها كلها. وهذه العلوم العقلية كلها مختصة بالمالئة الإسلامية وأهلها، وإن كانت كل ملة على الجملة لا بُدَّ فيها من مثل ذلك، فهي مُشاركة لها في الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله على صاحب الشريعة المبلغ لها. 15 وأما على الخصوص، فمباينة لجميع الملل⁽¹⁾، لأنها ناسخة لها. وكل ما قبلها من علوم الملل فهجورة، والنظر فيها مخطو. فقد نهى الشرع عن النظر في

(1) ط: الأم .

الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ غَيْرِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ ﷺ⁽¹⁾ : "لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾" (سورة السكوت، من الآية 46). ورأى في يد عمر - رضي الله عنه - ورقة من التوراة، فغضب حتى تبين الغضب في وجهه، ثم قال⁽²⁾ : "ألم آتكم بها نبضاء نقيّة؟ والله لو كان موسى حيّاً ما وسيعه إلا أتباعي".

5

ثم إن هذه العلوم الشرعية التقليدية قد نفقت / أسوأها في هذه الملة بما لا مزيد عليه، وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى التي لا فوقها، وهذبت الاضطلاحات، ورُتبت الفنون، فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق. وكان لكل فنّ رجالٌ يرجع إليهم فيه، وأوضاعٌ يُستفاد منها التعليم. واخْتُصَّ المشرق من ذلك والمغرب بما هو مشهورٌ منها حسناً نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون.

10

وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العُمران فيه، وانقطاع سند التعليم، كما قدّمناه في الفصل قبله. وما أذري ما فعل الله بالمشرق، والظنّ به نفاق العلم فيه، وانقطاع التعليم في العلوم وفي سائر الصناعات الضرورية والكالماتية، لكثرة العُمران فيه والحضارة، ووجود الإعانة لطالب العلم بالجرّاية من الأوقاف التي أسعّت بها أرزاقهم. والله مقدر الليل والنهار.

15

(1) أخرجه البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه: في التفسير (4485) والاعتصام (7362) والتوحيد (7542).

(2) أخرجه أحمد في مسنده 3: 387، وأبو عبيد في غريب الحديث 3: 28، وابن أبي شبة في المصنف 9: 27.

9: 27، وابن أبي عاصم في السنة (50) والتاريخي في سنة (435) كلهم من طرق عن مجاهد، عن السعفي، عن جابر، ومجاهد وهو ابن سعيد، ضعيف.

11 • فَصْلٌ، فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْقِرَاءَاتِ

القرآن هو كلام الله المنزّل على نبيّه، المكتوب بين دفتيّ المصحف. وهو متواتر بين الأمة، إلا أنّ الصحابة روّوه عن رسول الله ﷺ على طُرُقٍ مُختلفة في بعض ألفاظه وكتيّباتِ الحروف في أداها. وتوفّر ذلك واشتهر، إلى أن استقرّت منها سبع طُرُقٍ مُعيّنة تواتر نقلها أيضاً بأدائها، واختصّت بالانساب إلى من اشتبه 5 بروايتهما من الجَمّ الفقير. فصارت هذه القراءاتُ السبع أصولاً للقراءة. وزمّا زيد بعد ذلك قراءاتٌ آخر لحقّت بالسبع، إلا أنّها عند أئمة القراءة لا تُقوى قوّتها في الثقل.

وهذه القراءاتُ السبع معروفة في كُثُها. وقد خالف بعض الناس في قواثر طُرُقها، لأنّها عندهم كُفَيّاتٌ للأداء، وهو غير مُنضبط. وليس ذلك عندهم بقادح في 10 تواتر القرآن. وأباه الأكثر،* ⁽¹⁾ وقالوا بتواترها. وقال آخرون / بتواتر غير الأداء منها، كالمَدِّ [والتسهيل]^(ب) لعدم الوقوف على كُفَيّته بالسّمع*، وهو الصحيح. ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كُتبت العلوم ودوّنت، فكُتبت فيما كُتب من العلوم، وصارت صناعةً مخصوصةً وعِلماً مُنفرداً.

15 وتناقله الناس بالمشرق والأندلس في جيلٍ بعد جيلٍ، إلى أن ملك بشرق الأندلس مُجاهدٌ، من موالى العائرين، وكان مُغتنياً بهذا الفن من بين فنون القرآن لما أخذه به مولاة المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعلّجه وعرضه على من كان من

(1) سقط ما بين النجمين من ع، وفيها إشارة لمُخرج إلى يسار الصفحة لا وجود له (ب) من: ع ج ي، وفي ظ: التحويل.

أَيُّمَةُ النَّزَاءِ بَحْضَرَتِهِ، فَكَانَ سَهْمُهُ فِي ذَلِكَ وَإِفْرًا. وَاخْتَصَّ مُجَاهِدٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِمَارَةِ
 ذَانِيَّةَ وَالْجَزَائِرِ الشَّرْقِيَّةِ، فَتَفَقَّتْ بَهَا سَوَى الْقِرَاءَةِ [عَا] ^(أ) كَانَ هُوَ مِنْ أَيْمَتِهَا، وَبِمَا كَانَ
 لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِسَائِرِ الْعُلُومِ عُمُومًا وَبِالْقِرَاءَةِ خُصُوصًا. فَظَهَرَ لِعَهْدِهِ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي،
 وَبَلَغَ الْغَايَةَ فِيهَا، وَوَقَّفتْ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهَا، وَانْتَهَتْ إِلَى رَوَايَتِهِ أَسَانِيدُهَا، وَتَعَدَّدَتْ
 5 تَوَالِيْفُهُ فِيهَا، وَعَوَّلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَعَدَّلُوا عَنْ غَيْرِهِ، وَاعْتَمَدُوا مِنْ بَيْنِهَا كِتَابَ
 التَّنْسِيرِ لَهُ.

ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيمَا يَلِيهِ مِنَ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ، أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ فَيْرُةَ، مِنْ
 أَهْلِ شَاطِئَةِ، فَعَمَدَ إِلَى تَهْذِيبِ مَا دَوَّنَهُ أَبُو عَمْرٍو وَتَلْخِصِهِ. فَنَظَّمَ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي
 قَصِيدَةٍ لَفَزَ ^(ب) فِيهَا أَسْمَاءُ النَّزَاءِ بِحُرُوفِ أَجْجَدَ، عَلَى تَرْتِيبِ أَحْكَمِهِ لِيَتَسَيَّرَ عَلَيْهِ مَا
 10 قَصَدَ مِنَ الْاِخْتِصَارِ، وَلِيَكُونَ ^(ج) أَسْهَلَ لِلْحِفْظِ لِأَجْلِ تَعْظِيمِهَا. فَاسْتَوْعَبَ فِيهَا الْفَرْقَ
 اسْتِيعَابًا حَسَنًا، وَعُني النَّاسُ بِمَحْفَظِهَا وَتَلْقِينِهَا لِلْوَلَدِ الْمُتَعَلِّمِينَ. وَجَرَى الْعَمَلُ عَلَى
 ذَلِكَ فِي أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ.

وَرَبَّمَا أُضِيفَ إِلَى فَرْقِ الْقِرَاءَاتِ فَرْقُ الرَّسْمِ أَيْضًا، وَهِيَ أَوْضَاعُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ
 فِي الْمُضْخَفِ وَزُسُومُهُ الْخَطِّيَّةُ. لِأَنَّ فِيهِ حُرُوفًا كَثِيرَةً وَقَعَ رَسْمُهَا عَلَى غَيْرِ الْمَعْرُوفِ
 15 مِنْ قِيَاسِ الْخَطِّ، كَرِيَاذَةِ الْيَاءِ فِي ﴿يَأْتِيهِ﴾ [سُورَةُ النَّارِياتِ، مِنْ الْآيَةِ 47]، وَزِيَادَةِ
 الْأَلْفِ فِي ﴿لَا أَذْبَحَنَّهُ﴾ [سُورَةُ التَّلْهِ، مِنْ الْآيَةِ 21] وَ﴿وَلَا تَرْضَعُوا﴾ [سُورَةُ
 التَّوْبَةِ، مِنْ الْآيَةِ 47]. وَالْوَاوُ فِي ﴿جَزَرُوا الظَّالِمِينَ﴾ [سُورَةُ الْحَشْرِ، مِنْ الْآيَةِ 17]،

(أ) مِنْ ع، وَفِي ط: لا (ب) فِي نَسْخَةِ ط: بِتَشْدِيدِ الْغَيْنِ (ج) ع: وَلَيْتَكُنْ .

وحَذَفِ / الألف في مواضع دون أُخرى، وما رُسِمَ فيه التاءُ⁽¹⁾ ممدوداً والأصلُ فيه مزبوطٌ على شكل الهاء، وغير ذلك. وقد مرَّ تعليلُ هذا الرِّسمِ المُصَحَّفي عند الكلام في الخطِّ. فلما جاءت هذه مخالفة لأوضاع الخطِّ وقانونه، احتيج إلى حصرها؛ فكتبَ فيها الناس أيضاً عند كتبهم في العلوم؛ وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الثاني المذكور، فكتبَ فيها كتباً من أشهرها: كتاب المُنْهَج ، وأخذ به الناس 5 وغولوا عليه . ونظَّمهُ أبو القاسم الشَّاطِطِي في قصيدته الشهيرة على رويِّ الرِّاء، وولَّع الناس بحفظها.

ثم كثر الخلاف في الرِّسم في كلماتٍ وحروفٍ أُخرى ذكرها أبو داود سليمان ابنُ نجاح من موالِي مُجاهد، في كتبه، وهو من تلميذ أبي عمرو الثاني، والمشهور 10 بجمل غلومه ورواية كُتبه. ثم نُقلَ بَعْدَهُ خِلافٌ آخر، فنظَّم الحَرَّازُ، من المتأخرين بالمغرب، أرجوزةً أُخرى زاد فيها على المُنْهَج خلافاً كثيراً وغزاةً لناقليه. واشتهرت بالمغرب، واقتصر الناس على حِفْظها وهَجَرُوا بها كُتُبَ أبي داودَ وأبي عمرو والشَّاطِطِي في الرِّسم.

وأما التَّفْسِيرُ، فاعلم أنَّ القرآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ العرب وعلى أساليبٍ بلاغتهم. وكانوا 15 كلُّهم يَفْهَمُونَهُ وَيَعْلَمُونَ مَعَانِيَهُ فِي مُفْرَدَاتِهِ وَتَرَاكِبِهِ. وكان يُنْزَلُ جُمْلًا جُمْلًا وَأَيَّاتٍ أَيَّاتٍ لِبَيَانِ التَّوْحِيدِ والفُروصِ الدِّينِيَّةِ بِحَسَبِ الوَقَائِعِ. ومنها ما هو في العقائد الإيمانية، ومنها ما هو في أحكام الجوارح، ومنها ما يَتَقَدَّمُ، ومنها ما يَتَأَخَّرُ ويكون ناسِخاً لَهُ.

(1) ع: الثالث .

وكان النبي ﷺ، [هو المبين لذلك كما قال: ﴿لَتُسَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
[سورة النحل، من الآية 44]. فكان النبي ﷺ] ⁽¹⁾ يبين المَجْمَل، ويُبَيِّرُ النَّاسِخَ من
المُنسوخ، ويُعَرِّفه أصحابه، وفَرَفَرَهُ، وعَرَفُوا سَبَبَ نُزُولِ الآيَاتِ ومُقْتَضَى الْحَالِ
مِنْهَا مَنْقُولاً عَنْهُ، كما عِلِمَ من قَوْلِهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر،
5 الآية 1] أَنَّهَا نَعْيُ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

[وَيُقِيلُ ذَلِكَ] ^(ب) عَنْ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِم، وَتَدَاوَلَ ذَلِكَ التَّابِعُونَ مِنْ
بَعْدِهِمْ وَيُقِيلُ عَنْهُمْ. وَلَمْ يُزَلْ ذَلِكَ مُتَنَاقِلاً بَيْنَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ وَالسَّلَفِ، حَتَّى صَارَتْ
الْمَعَارِفُ غُلُوماً وَدُؤْنَتْ / الْكُتُبُ. فَكُتِبَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَلِكَ، وَبُقِلَتِ الْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِيهِ
عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَانْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الطَّبَرِيِّ، وَالْوَاقِدِيِّ، وَالتَّعَالِيِّ، وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ
10 الْمَفْسِّرِينَ، فَكُتِبُوا فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ مِنَ الْآثَارِ.

ثُمَّ صَارَتْ غُلُومُ اللِّسَانِ صِنَاعَةً ^(ج) مِنَ الْكَلَامِ فِي مَوْضُوعَاتِ اللُّغَةِ وَأَحْكَامِ
الْإِغْرَابِ وَالبَلَاغَةِ فِي التَّرَاكِبِ. فَوُضِعَتِ الدَّوَابِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَلَكَاتٍ
لِلْقَرَبِ لَا يَرْجِعُ فِيهَا إِلَى ثَقُلٍ وَلَا كِتَابٍ. فَتَنَوَسَى ذَلِكَ، وَصَارَتْ تُتْلَقُ مِنْ كُتُبِ
أَهْلِ اللِّسَانِ، فَاحْتِيجَ إِلَى ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَعَلَى مَنَاجِ
15 بَلَاغَتِهِمْ. وَصَارَ التَّفْسِيرُ عَلَى صِنْفَيْنِ:

تَفْسِيرٌ ثَقَلِيٌّ: مُسْتَنَدٌ إِلَى الْآثَارِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ، وَهِيَ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ
وَالْمُنسُوحِ، وَأَسْبَابِ التَّزْوِيلِ، وَمَقَاصِدِ الْآيِ، وَكُلَّ ذَلِكَ لَا يُعْرِفُ إِلَّا بِالثَّقَلِ عَنْ
الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي ذَلِكَ وَأَوْعَوْا .

(1) من ع ج ي، وسقط من ظ (ب) من ع ج ي، وسقط من ظ (ج) من ط ج ي، وفي ع: صاعبة .

إِلَّا أَنْ كَتَبَهُمْ وَمَقُولَاتِهِمْ تَشْتِمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ، وَالْمَقْبُولِ^(١) وَالْمَرْدُودِ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ، وَإِنَّمَا غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْبَدَاؤُ
وَالْأُمِّيَّةُ، فَإِذَا تَشَوَّفُوا إِلَى مَغْرَفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَشْتَوُّفُ إِلَيْهِ الْقَفُوسُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي أَنْسَابِ
الْمَكُونَاتِ وَبَذْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلُ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ

وَيَسْتَفِيدُونَهُ مِنْهُمْ، وَهُمُ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبَعَ دِينَهُمُ مِنَ النَّصَارَى. وَأَهْلُ
التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَّةٌ مِثْلَهُمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حَبَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا بَدِينِ الْيَهُودِيَّةِ؛ فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا
عَلَى مَا كَانُوا عَنْدهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَخْتَصِمُونَ لَهَا، مِثْلَ
أَخْبَارِ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَدَثَانِ وَالْمَلَاجِمِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ: كُتِبَ

الْأَخْبَارُ، وَوُضِعَ بِنُصْبِهِ، وَعَبَدَ اللَّهُ بِنُصْبِهِ، وَأَمْثَالِهِمْ. فَامْتَلَأَتْ التَّفَاسِيرُ مِنْ
التَّقُولَاتِ عَنْهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَخْبَاراً مَوْقُوفَةً / عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ [1299]

إِلَى الْأَحْكَامِ فَيُتَخَرَّجُ فِيهَا الصَّحَّةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ. وَتَسَاهَلُ الْمَفْسُورُونَ فِي مِثْلِ
ذَلِكَ، وَمَلَأُوا كُتُبَ التَّفْسِيرِ بِهَذِهِ التَّقُولَاتِ، وَأَضَلُّوا كَمَا قُلْنَا، عَنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ الَّذِينَ
يَسْكُنُونَ الْبَادِيَّةَ، وَلَا تَحْقِيقَ عَنْدهُمْ بِمَعْرِفَةِ مَا يَقْلُوبُهُ مِنْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ صَيِّغِهِمْ

وَعَظُمَتْ أَقْدَارُهُمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ، فَتَلَقَّيْتُ بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ. 15

فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّفَنُّيصِ، وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِنُصْبِهِ، مِنْ
الْمُتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ، فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا، وَتَخَرَّجَ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ
مِنْهَا، وَوَضَعَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ مُتَدَاوِلٍ بَيْنَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ، حَسَنَ الْمُنْخَى،

(١) مِنْ ج. ي. وَفِي ط. ع. الْمَقْبُولِ.

وتبعه القُرطُبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق.

والصنف الآخر من التفسير: وهو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والبلاغة في تأدية المغنى بحسن المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قل أن يتفرد عن الأول، إذ الأول هو المقصود بالذات، وإنما جاء هذا بعد أن صار
5 اللسان وعلومه صناعات. نعم، يكون في بغض التفاسير غالباً.

ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفسير، كتاب الكشف للزمخشري،
من أهل خوارزم^(١). إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي للججاج على
مذاهبهم الفاسدة حيث يفرض له في أي القرآن من طرق البلاغة، فصار بذلك
للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكابيه، مع إقرارهم برسوخ
10 قديمه فيما يتعلّق باللسان والبلاغة. وإذا كان الناظر فيه واقفاً على المذاهب السنية
مُحسناً للججاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فليغتنم مطالعته لغاية فنونه في
اللسان. ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبغض العراقيين، وهو شرف الدين
الطليبي، من أهل توزير من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتبع ألفاظه،
وتعرض لمذاهبه/ في الاعتزال وأدلّيته، يزيها ويبيّن أنّ البلاغة إنما تقع في الآية على
15 ما يراه أهل السنة، لا على مذهب المعتزلة. فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتناعه
في سائر فنون البلاغة. ﴿وَقَوْفٌ كُنْزٌ ذِي غُلَامٍ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76].

(١) ورد في ط ج ي: "من أهل خوارزم العراق". وليس لهذه الإضافة حقيقة جغرافية. وقد قلت النسخ ذلك عن الأصل "ع".
وبالنية: أنّ ناسخها ابن الفكار، كتب: "من أهل العراق"، ثم أصلها ابن خلدون بخطه بإضافة كلمة "خوارزم" بخطه دقيق في
حاشية آخر السطر بعد كلمة: "أهل"، ونسي أن يلفي كلمة "العراق" التي يتدأ بها السطر التالي. فوقع التناحور في الوهم.

وأما علوم الحديث: فهي كثيرة ومتنوعة، لأن منها ما ينتظر في ناسخه ومنسوخه؛ وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفاً من الله بعباده وتخفيفاً عنهم، باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها. قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية 106]. فإذا تعارض 5

(1) اعتاد ابن خلدون أن يتناول بعض الفصول بالتفصيل والتعذيب، كما عبر آخر المقدمة، وقد يقتضي الأمر إعادة كتابة الفصول على خطة مغايرة في العرض والاستيعاب، وقد رأيت في بعض هذه الحالات أن احتفظ بنسخته لما لها من الفائدة في تبين أسلوب تفكيره وفي تحليل مواد كتابة فصوله. ويسبق أن هناك قرآن كوديكولوجية تساعد بفضل المخطوطات على ترتيب أي النصين أحدث. وفي هذه الحالة فإن ورود هذا النص بخطه في متن نسخة "ع" التي تعتبر أقدم الأصول وأحدثها في الآن نفسه، بما تناولها من زيادات لم تتطع طيلة إقامته بالقاهرة، يُعَدُّ الأحداث تاريخاً.

علوم الحديث:

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة، فإن منها ما ينتظر في ناسخه ومنسوخه، وذلك بما ثبت في شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه، لطفاً من الله بعباده، وتخفيفاً عنهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها. قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية 106]. ومعرفة النسخ والمنسوخ وإن كان عامّاً للقرآن والحديث، إلا أن الذي في القرآن منه اندرج في تفاسيره، وبقي ما كان خاصاً بالحديث راجعاً إلى علومه، فإذا تعارض الخبران بالنسخة والإثبات، وتعدّد الجمع بينهما ببعض التأويل، وعلم تقدم أحدهما، تعين أن المتأخر ناسخ. وهو من أهم علوم الحديث وأصغرها؛ قال الزهري: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه. وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راسخة.

ومن علوم الحديث معرفة القوانين التي وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الأسانيد والزوايا وأسماهم، وكيفية أخذ بعضهم عن بعض، وأحوالهم وصفاتهم واختلاف اصطلاحاتهم. وتحصيل ذلك أن الإجماع واقع على وجوب العمل بالخبر الثابت عن رسول الله ﷺ، وذلك بشرط أن يغلب =

الْحَبْرَانِ بِالْتَّقْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَتَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بَغْضُ التَّأْوِيلِ، وَغَلِمَ تَقْدُّمُ أَحَدِهِمَا، تَعَيَّنَ أَنَّ الْمَتَأَخَّرَ نَاسِخٌ.

“عَلَى الظَّنِّ صَدْقُهُ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُجْتَهِدِ تَحْقِيقُ الطَّرِيقِ الَّتِي تَحْصُلُ ذَلِكَ الظَّنُّ، وَذَلِكَ بِالنَّظَرِ فِي أَسَانِيدِ الْحَدِيثِ، بِمَعْرِفَةِ زَوَاتِهِ بِالْعَدَالَةِ وَالضَّبْطِ وَالْإِثْقَانِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشُّهُوَ وَالْغَفْلَةِ، بِوُضُفِ عُدُولِ الْأُمَّةِ لَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ تَقَارُطِ مَرَاتِبِهِمْ فِيهِ، ثُمَّ كَيْفِيَّةِ رَوَايَةِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضِ سَبَاحِ الزَّوَايِ مِنَ الشَّيْخِ أَوْ قَرَأَتِهِ عَلَيْهِ، أَوْ سَمَاعِهِ يقرأ عليه، وَكَتَابَةِ الشَّيْخِ لَهُ أَوْ مَنَاولَتِهِ، أَوْ إِجَازَتِهِ فِي الصَّحَّةِ وَالْقَبُولِ؛ مَنْقُولٍ عَنْهُمْ. وَأَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَقْبُولِ عِنْدَهُمُ الصَّحِيحُ، ثُمَّ الْحَسَنُ، وَأَذَوْنَ مَرَاتِبِهَا الضَّعِيفُ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى الْمُرْسَلِ وَالْمُنْقَطِعِ وَالْمُفْضَلِ وَالْمَعْلَلِ وَالشَّاذَّ وَالْغَرِيبَ وَالْمُنْكَرَ. فَهِيَ مَا اخْتَلَفُوا فِي رَدِّهِ، وَمِنْهَا مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ.

وَكَذَلِكَ شَأْنُهُمْ فِي الصَّحِيحِ، فَهُوَ مَا أَجْمَعُوا عَلَى قَبُولِهِ وَصَحَّتِهِ، وَمِنْهَا مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَبَيْنَهُمْ فِي تَقْسِيرِ هَذِهِ الْأَقْبَابِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ. ثُمَّ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِالْكَلَامِ فِي أَلْفَاظِ تَقَعُ فِي مُتَوْنِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكِلٍ أَوْ تَضْحِيفٍ أَوْ مُفَرَّقٍ أَوْ مُخْتَلَفٍ، وَوَضَعُوا لَهُذَا الْقُصُولَ كُلَّهَا قَانُونًا أَكْبِيلاً بَيَانِ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ وَالْأَقْبَابِ، وَسَلَامَةِ الطَّرِيقِ عَنْ دُخُولِ التَّقْصِصِ فِيهَا. وَأَوَّلُ مَنْ وَضَعَ فِي هَذَا الْقَانُونِ مِنْ فُحُولِ أَيْقَةِ الْحَدِيثِ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمِ، وَهُوَ الَّذِي هَذَبَهُ وَأَظْهَرَ مُحَاسِنَتَهُ، وَتَوَالَفَهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ.

ثُمَّ كَتَبَ أَيْمَنُهُمْ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَشْهُرُ كِتَابٍ لِلْمَتَأَخَّرِينَ فِيهِ كِتَابُ أَبِي غَمْرٍو بْنِ الصَّلَاحِ، كَانَ فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ السَّابِعَةِ، وَتَلَاَهُ مُخِييُ التَّوَوِي بِمَثَلِ ذَلِكَ. وَالْفَرُّ شَرِيفٌ فِي مَعْرَاةٍ، لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَا تُحْفَظُ بِهِ الشَّيْءُ الْمُنْقُولَةُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ، حَتَّى يَتَعَيَّنَ قَبُولُهَا أَوْ رَدُّهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ رَوَاةَ السَّنَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفُونَ فِي أَمْصَارِ الْإِسْلَامِ، مِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَبِالْبَصْرَةِ وَبِالْكُوفَةِ، ثُمَّ بِالسَّامِ وَمِصْرَ، مَشْهُورُونَ فِي أَغْصَارِهِمْ، وَكَانَتْ طَرِيقَةُ الْحِجَازِ مِنْ بَيْنَهُمْ أَعْلَى وَأَمْتَنُ فِي الصَّحَّةِ بِتَجَافِيهِمْ عَنْ قَبُولِ الْمُسْتَوْرَيْنِ الْمَجْهُولَةِ أَحْوَالِهِمْ. وَشَيْدُ الطَّرِيقَةِ الْحِجَازِيَّةِ بَعْدَ السَّلَفِ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَالِمُ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَصْحَابُهُ؛ مِثْلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ؛ وَابْنِ وَهْبٍ، وَابْنِ بَكَّيْرٍ، وَالْفَقْهِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، وَمَنْ بَعْدَهُمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي آخِرِينَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ. وَكَانَ عِلْمُ الشَّرِيعَةِ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ نَقْلًا صِرَافًا لَا نَظْرًا وَلَا زَأْيًا وَلَا تَتَمَقُّقًا فِي الْقِيَاسِ. وَشَرُّ لَهَا السَّلَفُ وَتَحْتَرُوا=

ومعرفةُ النَّاسِخِ والمُنسوخِ من أهم علوم الحديث وأضعفها. قال الزُّهْرِيُّ⁽¹⁾: أَعْيَا
 الفُتَّاهُ وَأَعَجَزُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا نَاسِخَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنسُوخِهِ. وكان للشَّافِعِيِّ
 - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِيهِ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ.

"الصحيح حتى أكملوها، وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ على طريقة الحجازيين، أودعه
 أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه، ورتبه على أبواب الفقه. ثم غني الحقاظ بمعرفة طرق
 الأحاديث وأسانيدها المختلفة، الجازية والعراقية وغيرها. وقد تشدد في بعض الأحاديث وتعدّد،
 ويتكرّر الحديث في أبواب الفقه باختلاف المعاني التي اشتمل عليها. وجاء محمد بن إسماعيل
 البخاري، فأوسع نطاق الرواية، وخزج أحاديث السنة على أبوابها في مُسنّده الصحيح، وجمع
 طرق الحجازيين والعراقيين والشاميين، واعتد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه. وتكررت
 أحاديثه في الأبواب باختلاف معانيها كما أشرنا إليه، فاشتمل كتابه على سبعة آلاف حديث
 ومائتين، تكررت منها ثلاثة آلاف، وفُرّق الطُّرُق والأسانيد عليها مختلفة في كل باب. ثم جاء
 مُسلم بن الحجاج القشيري، فألّف مُسنّده الصحيح، اتبع فيه البخاري في ثقل المُجمّع على صحّته،
 وخذف المتكرر، وجمع الطُّرُق والأسانيد، فبوّه على أبواب الفقه وتراجمه. واشتدرك الناس عليها
 في استيعاب الصحيح، وجاءوا بما أغفلا عن شروطها. ثم كتب أبو داود السجستاني، وأبو
 عيسى الترمذي، وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح، وقصدوا ما توفرت فيه
 شروط العمل، إما من الرتبة العالية في الإسناد، وهي الصحيح كما هو معروف؛ وإما من الذي
 دونه كالحسن وغيره، ليكون ذلك إماماً للفصل بالسنة. وهذه المسانيد المعتمدة في الملة، وهي
 أمهات كتب الحديث من السنة. ولحق بهذه الحقسة مسانيد أخرى، كُسنّد أبي داود
 الطيالسي، والبراء، وعبد بن حميد، والدارمي، وأبي يعلى الموصلي، والإمام أحمد، قاصدين فيها
 المستندات عن الصُحبة من غير أن تكون مُحْتَجّاً بها. هكذا قال ابن الصلاح المقدمة في علوم
 الحديث 27-38]. وفي الرواية عن الإمام أحمد، أنه كان يقول لابنه عبد الله في كتابه المُسنّد، =

(1) أبو نعيم: حلية الأولياء 3: 365، ابن عبد البر: التمهيد 3: 332، الذهبي: سير أعلام النبلاء 5: 346، وانظر
 رسالة الشافعي 106 .

ومن علوم الحديث: النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط، لأن العمل إتياً وجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله ﷺ، فيجتهد في الطريق الذي يحصل ذلك الظن، وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط، وإتياً [يثبت] (1) ذلك بالتأمل عن أعلام الذين بتغديلهم وبراءتهم من الجزح والغفلة، ويكون لنا ذلك دليلاً على

(1) من جي، وفي ط: ثبت.

= وهو يشمل على أحد وثلاثين ألف حديث. وعن جماعة من أصحابه أنهم قالوا: قرأ علينا المسند، وقال: هذا كتاب انتقيته من سبع مائة ألف وخمسين ألف حديث مما اختلف فيه المسلمون من الأحاديث النبوية، وما لم تجدوه فيه فليس بحجة، فهذا يدل على أن جميع ما في مسنده يصح الاحتجاج به، عكس ما قاله ابن الصلاح، نقلته من مناقب الإمام أحمد. وقد انقطع لهذا العهد تخرج شيء من الأحاديث واشتدراكها على المتقدمين، إذ العادة تشهد بأن هؤلاء الأئمة على تعددهم وتلاحق عصورهم وكفائهم واجتهادهم، لم يكونوا ليغفلوا شيئاً من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر، وإتياً تلصق العناية لهذا العهد إلى توضيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية، وإسنادها إلى مؤلفيها، لتصل الأسانيد محكمة من مبتدئها إلى منتهائها، ولم يزدوا في ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمهات الخمسة إلا في الأقل. فأما صحيح البخاري، وهو أعلاها رتبة، فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا منعه، من أجل ما يحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق، ومعرفة أخوالهم واختلاف الناس فيهم، وكذلك يحتاج إلى إمعان النظر في الثقة في التراجم، لأنه يترجم الترجمة ويحدد فيها الحديث بسند أو طريق، ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنته من المعنى الذي ترجم به الباب، وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها. ومن النظر في تراجمه بيان المناسبة بين الترجمة والأحاديث التي في ضمنها؛ فقد وقع له في كثير من تراجمه خفاء المناسبة بينها وبين الأحاديث التي في ضمنها، وطال كلام =

القبول أو التَّرك. وكذلك مراتب هؤلاء الثَّقَلَة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم ^(أ) في ذلك وتمييزهم فيه واحداً واحداً. وكذلك الأسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها، بأن يكون الزاوي لم يلق [الزاوي] ^(ب) الذي نقل عنه ، وبسلامتها من العلل الموهنة لها،

(أ) في ج: تفاوتهم (ب) في ط ج ي: للراوي، ولعل الأصح ما ابتناه .

= التاس في بيانها، كما وقع في كتاب الفتن ^(ج) في الباب الذي ترجم فيه بقوله: باب تخريب النيت ذي السويقتين من الحبشة. ثم قال عن الله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا ﴾ [سورة البقرة، من الآية 125]، ولم يزد على ذلك في الباب شيئاً. وحُفِّي على التاس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما في الباب ، فمنهم من قال: كان المصنف رحمه الله يكتب التراجم في المسودة ثم يكتب الأحاديث في كل ترجمة حسب ما يتيسر له ، وتوفي قبل أن يستوفي حشو التراجم فروق الكتاب، كذلك وسمعت من أصحاب القاضي ابن بكار قاضي غرناطة، واستشهد في واقعة طريف سنة أربعين وسبعمائة، وكان قائماً على صحيح البخاري، أنه أراد بالترجمة تفسير الآية، بأن ذلك مشروع لا مقدر، لأن الإشكال إنما جاء من تفسير جعلنا، بقدرنا، وإذا كان بمعنى: شرعنا، لم يكن لبس في تخريب ذي السويقتين إياها. سمعت ذلك من شيخنا أبي البركات البليقي عنه، وكان من أجله يلمِذه.

ومن شرح الكتاب ولم يستوف هذا كله فيه، فلم يؤف حق الشرح، كابن بطلال، وابن المهلب، وابن التين، ونحوهم. ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون: شرح كتاب البخاري دثر على الأمة. يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يؤف ما وجب له من الشرح بذلك الاغتبار.

وأما صحيح مسلم، فكثرت عناية أهل المغرب به، وأكثروا عليه، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري. قال ابن الصلاح: وإنما يفضل على كتاب البخاري بما وقع فيه من تخريده عما =

^(د) ليس في "كتاب الفتن". والحديث في كتاب الحج ، باب قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّةَ آيَةً ﴾ [سورة المائدة، من الآية 97] ، وباب هدم الكعبة، حديث (1591) و (1596) وهو في كتاب الفتن من صحيح مسلم (2909) .

ويُنْتَهِي بالتفاوت إلى طريق^(١)، يحْكُمُ بقبول الأعلى وَرَدُّ الْأَسْفَلِ، وَيُخْتَلَفُ فِي
 [١٣٠٠] المتوسِّطِ بِحَسَبِ الْمُنْقُولِ عَنْ آيَةِ الشَّانِ . وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَلْفَاظٌ اضْطَلَحُوا / عَلَى
 وَضْعِهَا لِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ، مِثْلُ: الصَّحِيحِ، وَالْحَسَنِ، وَالضَّعِيفِ، وَالْمُزِيلِ،
 وَالْمُنْقَطِعِ، وَالْمُغْضَلِ، وَالشَّاذِّ، وَالْغَرِيبِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَلْفَاظِهِ الْمَتَدَاوِلَةِ^(ب) بَيْنَهُمْ .

(١) من ج، وفي ط ي: طرفين (ب) في ج: المتبادلة .

”مَرَجَّ بِهِ الْبُخَارِيُّ كِتَابَهُ مِنْ غَيْرِ الصَّحِيحِ، فَمَا لَمْ يَكْتُبْهُ عَلَى شَرْطِهِ، وَكَأَثَرِ مَا وَقَعَ فِي التَّرَاجِمِ.
 وَأَمْلَى الْإِمَامُ الْمَازَرِيُّ مِنْ فَهْمَاءِ الْمَالِكِيَةِ عَلَيْهِ شَرْحاً، وَسَمَّاهُ الْمُعْلَمَ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ، وَاشْتَمَلَ عَلَى
 عِيُونٍ مِنْ عِلْمِ الْحَدِيثِ وَمَتْنَيْنِ مِنَ الْفِقْهِ. ثُمَّ أَكْمَلَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ مِنْ بَعْدِهِ وَتَقَمَّه، وَسَمَّاهُ إِكْبَالَ
 الْمُعْلَمِ، وَتَلَاهَا مُحَمَّدِي الدِّينِ التَّوَوَّيُّ بِشَرْحٍ اسْتَوْفَى مَا فِي الْكِتَابَيْنِ وَزَادَ عَلَيْهَا، وَجَاءَ شَرْحاً وَافِياً.
 وَأَمَّا كُتُبُ الشُّنَنِ الْأُخْرَى الثَّلَاثَةُ، فَهِيَ مُعْظَمُ مَا خَذَ الْفُقَهَاءُ، فَأَكْثَرُ شَرْحِهَا فِي كُتُبِ
 الْفِقْهِ، إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِعِلْمِ الْحَدِيثِ، فَكُتِبَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَاسْتَوْفَوْا مِنْ ذَلِكَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عُلُومِ
 الْحَدِيثِ وَمَوْضُوعَاتِهَا وَالْمَسَانِيدِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحَادِيثِ الْمُعْمُولِ بِهَا مِنَ الشُّنَنِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَحَادِيثَ قَدْ تَمَيَّزَتْ مَرَاتِبُهَا لِهَذَا الْفَهْدِ، بَيْنَ صَحِيحٍ وَخَسَنٍ وَضَعِيفٍ وَمَغْلُوبٍ
 وَغَيْرِهَا، مَيَّزَهَا آيَةُ الْحَدِيثِ وَجَاهِدَتُهُ وَعَرَفُوهَا، وَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ فِي تَضْحِيحِ مَا لَمْ يَصُحَّ مِنْ قَبْلِ.
 وَلَقَدْ كَانَ الْأَيْمَةُ فِي الْحَدِيثِ يَغْرِفُونَ الْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا وَأَسَانِيدِهَا، بِحَيْثُ لَوْ رَوَى حَدِيثٌ بغيرِ
 سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ قَطَعُوا إِلَى أَنَّهُ قَدْ قَلَبَ عَنْ وَضْعِهِ، وَلَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
 الْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ وَقَصَدَ الْمُحَدِّثُونَ امْتِحَانَهُ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَلَّبُوا أَسَانِيدَهَا،
 فَقَالَ: لَا أَعْرِفُ هَذِهِ، وَلَكِنْ حَدَّثْتِي فَلَانَ، ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ،
 وَرَدَّ كُلَّ مَتْنٍ إِلَى سَنَدِهِ، فَأَقْرَؤُا لَهُ بِالْإِمَامَةِ.

وَاعْلَمْ أَيْضاً، أَنَّ الْأَيْمَةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي الْإِكْتِسَارِ مِنْ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ وَالْإِقْلَالِ، فَأَبُو
 حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ إِنَّمَا بَلَّغَتْ رَوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثاً أَوْ نَحْوِهَا إِلَى خَمْسِينَ، وَمَالِكٌ
 رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّحَ عِنْدَهُ مَا فِي كِتَابِ الْمَوْطَأِ وَغَايِبَاتِهَا ثَلَاثِينَ حَدِيثاً أَوْ نَحْوِهَا؛ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي
 مُسْنَدِهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ حَدِيثٍ، وَالْكُلُّ عَلَى مَا آدَاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُمْ فِي ذَلِكَ. =

وَتَوَبُّوا عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَتَقَلُّوا مَا فِيهِ مِنَ الْخِلَافِ لِأَيِّمَةِ الشَّانِ أَوْ الْوَفَاقِ، ثُمَّ
النَّظَرُ فِي كَيْفِيَّةِ اخْتِذِ الرَّوَاةِ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ بِقِرَاءَةٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ مُنَاوَلَةٍ أَوْ إِجَازَةٍ،
وَتَقَاوُثُ زُرِّيَّهَا، وَمَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخِلَافِ بِالْقَبُولِ وَالرَّدِّ. ثُمَّ أَتَبَعُوا ذَلِكَ بِالْكَلَامِ
فِي أَلْفَاظِ تَقَعُ فِي مُتُونِ الْحَدِيثِ مِنْ غَرِيبٍ أَوْ مُشْكَلٍ أَوْ تَضْحِيفٍ أَوْ مُفْتَرَقٍ مِنْهَا

”وقد يقول بعض المتعصبين المتعسفين أنَّ منهم من كان قليل البضاعة في الحديث، ولهذا
قلَّت روايته. ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة، لأنَّ الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب
والسنة، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشهير في
ذلك، لباخذ الدين عن أصول صحيحة، ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها عن الله. وإنما أقلَّ
منهم من أقلَّ الرواية، لأجل المطاعين التي تعترضه فيها والعلل التي تغمض في طرقها، سيما
والجزخ مقدم عند الأكثر، فيؤذيه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من
الأحاديث وطرق الأسانيد، ويكثر ذلك فتقل روايته لضف الطرق، هنا مع أنَّ أهل الحجاز
أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأنَّ المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن انتقل منهم
إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر. والإمام أبو حنيفة إنما قلَّت روايته لما شددت في شروط
الرواية والتحمل، فاستضعبت، [وضعف الحديث إذا عارضه القطعي فاستضعف العقل]. قلَّت
من أجلها روايته فقلَّ حديثه، لا أنَّه ترك رواية الحديث مُتَعَمِّدًا، لحاشاة من ذلك. ويدلُّ على أنَّه
من كبار المجتهدين في علم الحديث، اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه، واعتباره ردًّا وقبولاً. وأما
غيره من المحدثين وهم الجمهور، فتوسَّعوا في الشروط وكثروا حديثهم، والكُلُّ عن اجتهاد. وقد توسَّع
أصحابه من بعده في الشروط وكثروا روايتهم. وروى الطحاوي فأكثر، وكتب مُسنِّدًا وهو جليل
الذِّكر. إلاَّ أنَّه لا يعدل الصحيحين، لأنَّ الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم في كتابتهما مُجمَّع
عليها بين الأئمة كما قالوه، وشروط الطحاوي غير متفق عليها، كالرواية عن المستور الحال وغيره.
فلهذا قُدم الصحيحان، بل وكتب السنن المعروفة، غلبه، لتأخر شرطه عن شروطهم. ومن أجل
هذا قيل في الصحيحين بالإجماع على قبولها من جهة الإجماع على صحة ما فيها على الشروط
المتفق عليها. فلا تأخذ ريبًا في ذلك، فالقوم أحقَّ الناس بالظنِّ الجميل بهم، والتأنيس المخارج
الصحيحة لهم.“

وَمُخْتَلِفٌ، وما يُنَاسِبُ ذلك. هذا مُعْظَمُ ما يَنْظُرُ فيه أَهْلُ الْحَدِيثِ وَغَالِبُهُ. وَكَانَتْ أحوالُ ثَقَلَةِ الْحَدِيثِ في عَصُورِ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَعْرُوفَةً، كُلٌّ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِهِ. فَيُنْهَمُ بِالْحِجَازِ، وَمِنْهُمْ بِالْبَصْرَةِ، وَالكُوفَةِ مِنَ الْعِرَاقِ، وَمِنْهُمْ بِالشَّامِ، وَمِصْرَ، وَالْجَمِيعُ مَعْرُوفُونَ مَشْهُورُونَ في أَغْصَارِهِمْ. وَكَانَتْ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ في أَغْصَارِهِمْ في الْأَسَانِيدِ أَغْلَى تَمَنُّ سِوَاهُمْ وَأَمَنٌ في الصَّحَّةِ، لَاشْتِدَادِهِمْ في شُرُوطِ الثَّقَلِ مِنَ الْعَدَالَةِ وَالصَّبْطِ، وَتَجَافِيهِمْ عَنِ قَبُولِ الْمَجْهُولِ الْحَالِ في ذَلِكَ.

وسيد^(١) الطريقة الحجازية بعد السلف، الإمام مالك، عالم المدينة رضي الله عنه، ثم أصحابه، مثل الإمام محمد بن إدريس الشافعي * والقنبري وابن وهب، ومن بعدهم * الإمام أحمد بن حنبل، وأمثالهم.

10 وكان علم الشريعة في مبدئ [هذا] ^(ج) الأمر نقلاً صريحاً؛ وثمر لها السلف وتحرروا الصحيح حتى اكملوها. وكتب مالك رحمه الله كتاب^(د) الموطأ، وأودعهُ

(١) في ي: سند (ب) سقط ما بين النجمين من ي (ج) من ي (د) في ج ي: كتابه.

= ثم^(١) من علوم الحديث نصريف هذا القانون في الكلام على الأحاديث واحداً واحداً في أبوابها وتراجيحها في تقاسير هذه المسانيد، كما فعله الحافظ أبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن خزم، والقاضي عياض، ومُخَيِّ الدِّين التَّوَوِّي، وابنُ العطاء من بعدهما. وكثيرٌ من أَيْتَةِ الْمَغَارِبَةِ وَالْمَشَارِقَةِ، وَإِنْ كَانَ في كلامهم على تلك الأحاديث غير ذلك من فقه مُتَوَنِّها وَلُفَّتْهَا وَإِعْرَاجِهَا، إِلَّا أَنَّ كَلَامَهُمْ في أَسَانِيدِهَا بِصِنَاعَةِ الْحَدِيثِ أَوْعَبُ، وَأَكْثَرُ هَذِهِ.....^(ب) علوم الحديث المتداولة بين أَيْتَةِ الْأَغْصَارِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ.

(١) من هنا إلى الآخر، حاشية بخط نسخ متأخر (ب) كلمة غير مفروضة.

أصول الأخكام من الصحيح المتفق عليه، ورَبَّته على أبواب الفقه. ثم غني الحقاظ
بمعرفة طُرُق الأحاديث وأسانيدها المختلفة. وربما يقع إسناده الحديث من طرق
متعددة وعن رِوَاة مُختلفين، وقد يقع الحديث أيضاً في أبواب متعددة باختلاف
المعاني التي اشتمل عليها. / وجاء محمد بن إسماعيل البخاري إمام المحدثين لغضره،

[300ب]

5 فخرج أحاديث السُّنَّة على أبوابها في مُسنده الصحيح، بجميع الطُّرُق التي للحجازيين
والعراقيين والشَّاميين. واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه⁽¹⁾، وكرَّرَ
الأحاديث يسوقها في كلِّ باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمَّنهُ الحديث، فتكرَّرت
لذلك أحاديثه، حتَّى يُقال: إنَّه اشتمل على سبعة آلاف حديث ومائتين، منها ثلاثة
آلاف متكررة، وفَرَّق الطرق والأسانيد عليها مُختلفة في كلِّ باب.

10 ثم جاء الإمام مسلم بن الحجاج القُشَيْرِيُّ رحمه الله، فألَّف مُسنده الصحيح،
حذا فيه حَذْو البخاري في ثقل المُجمَع عليه، وحَذَف المتكرر منها، وجمع الطُّرُق
والأسانيد، وبوَّه على أبواب الفقه وتراجمه. ومع ذلك فلم يَشْتَوْعِبَا الصَّحيح كُلَّهُ،
وقد استدرك النَّاسُ عليهما في ذلك. ثمَّ كتب أبو داود السَّجِسْتَانِيُّ، وأبو عيسى
الترمذِيُّ، وأبو عبد الرحمن النَّسَائِيُّ في السُّنَنِ بأَوْسَع من الصحيح، وقَصَّدوا ما
15 توفَّرَتْ فيه شروطُ العمل، إمَّا من الرِّثْبَةِ العالية في الإسناد، وهو الصحيح كما هو
مَعْرُوف، وإمَّا من الَّذي دونه من الحَسَنِ وَغَيْرِهِ، ليكون ذلك إماماً للسُّنَّة والعملِ
بها. وهذه هي [المسانيد]^(ب) المشهورة في المِلَّة، وهي أَمَهاثُ كُتُبِ الحديثِ في
السُّنَّة. فإنَّها وإن تعدَّدت فترجعُ إلى هذه في الأغلب.

(1) سقط من ج (ب) من ج ي، وفي ط: الأسانيد.

ومعرفة هذه الشروط والاضطلاحات كلها هي علم الحديث. وربما تفرّد عنها
 التأسخُ والمنسوخُ فيجعلُ فتاً برأيه، وكذا الغريبُ، وللتاس فيه تواليف مشهورة،
 ثم المؤلفُ والمختلَف. وقد ألف التاس في علوم الحديث وأكثروا. ومن فحول علمائه
 وأيّمهم أبو عبدالله الحاكم، وتواليفه فيه مشهورة، وهو الذي هدّبه وأظهر محاسنه.
 5 وأشهرُ كتابٍ للمتأخّرين فيه، كتابُ أبي عمرو ابن الصّلاح، كان لعهْد أوائلِ المائة
 السّابعة، وثلاثةٌ محيي الدين التّوويّ يمثل ذلك. والفرُّ شريفٌ في مغزاه لأنّه معرفة
 ما تحفّظ به السّننُ المنقولة عن صاحب الشريعة.

وقد انقطع لهدّ القهْد / تخرجُ شَيْءٌ من الأحاديث واستدراكها على المتقدّمين؛ [1301]
 إذ العادة تشهدُ بأنّ هؤلاء الأيّمة على تعدّدهم وتلاحقِ عُصورهم وكفائهم واجتهادهم
 10 لم يكونوا ليغفّلوا شيئاً من السّنّة أو يتركوه حتّى يغير عليه المتأخّر؛ هذا بعيدٌ عنهم.
 وإنّما تنصرف العناية لهذا القهْد إلى تصحيح الأمّهات المكتوبة، وضبطها بالرواية عن
 مصنّفيها، والتّظير في أسانيدِها إلى مؤلّفيها، وغرض ذلك على ما تفرّر في علوم
 الحديث من الشُّروط والأحكام، لتتّصل الأسانيدُ محكمة إلى مُنتهاها. ولم يزدوا في
 ذلك على العناية بأكثر من هذه الأمّهات الخمس إلا في القليل.

15 فأمّا البخاري، وهو أعلاها رتبة، فاستصعب التّاس شرحه، واستغلّقا منحا،
 من أجل ما يحتاجُ إليه من معرفة الطّرق المتعدّدة، ورجالها من أهل الحجاز
 والسّام والعراق، ومعرفة أحوالهم واختلاف التّاس فيهم، وكذلك يحتاجُ إلى إمعان
 النّظر في التّفقه في تراجمه، لأنّه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسننٍ أو طريقٍ،

ثم يترجم أخرى ويوردُ فيها ذلك الحديث بعينه لما تَضَمَّنَهُ من المعنى الذي تَرَجَّم به الباب، وكذلك في ترجمة وترجمة إلى أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها. ومن شَرَحَهُ ولم يَسْتَوْفِ هذا فيه، فلم يُوفِ حقَّ الشرح، كابن بَطَّال وابن المهلب وابن التين، ونحوهم. ولقد سمعتُ كثيراً من شيوخنا، رحمهم الله، يقولون: شرح كتاب البخاري، ذِنٌّ على الأمة. يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوفِّ ما يَحِبُّ له من الشرح بذلك الاعتبار.

أما⁽¹⁾ صحيح مُسلم، فكثُرَت عنايةُ علماء المغرب به، وأكْبَرُوا عليه، وأَجْمَعُوا على تفضيله على كتاب البخاري. قال ابن الصلاح⁽¹⁾: وإِنَّمَا يُفَضَّلُ على كتاب البخاري بما وَقَعَ فيه من تجريده عمَّا مَرَّحَ به البخاري كتابه من غير الصَّحيح ثَمَّا لم يَكْتُبْه على شرطه. وأكثر ما وَقَعَ له في التَّراجُم.

[301 ب] وأَمَلَى الإمام المازري من فقهاء المالكية / عليه شَرْحاً وسمَّاه: المُعْلَم بفوائد مُسلم، واشتَقَلَ على عُيُونٍ من علم الحديث ومُتَيْنٍ من^(ب) الفقه. ثم أَكْمَلَهُ القاضي عياض من بغده وسمَّاه: إكمال المُعْلَم. وتلاهما مُحبي الدين التَّوَوِيُّ بشرح استَوْفَى ما في الكتابين، وزاد عليهما، وجاء شَرْحاً وافياً.

وأما كُتُبُ السُّنَنِ الأخرى وفيها مُعْظَم ما خِذَ الفُقهَاء، فأكثرُ شَرْحها في 15 كُتُبِ الفقه، إلَّا ما يَخْتَصُّ بعلم الحديث، فكَتَبَ النَّاسُ عليها، واستَوْفَوْا من ذلك ما

(1) في ي: وإِنَّمَا (ب) سقط من ج .

(1) المُقَدِّمَة : ص 161 .

يُحتاج إليه من علوم الحديث وموضوعاتها، والمسانيد التي اشتملت على الأحاديث
المعمول بها من السُنَّة.

واعلم أنَّ الأحاديث قد تَمَيَّزَتْ مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف
ومغلول^(١) وغيرها ، مَيَّزَهَا أئمة الحديث وحمَّادُهم ، وعَرَفُوهَا ولم يَبْقَ طريقٌ في
5 تَصْحِيحِ مَا لَمْ يَصِحَّ مِنْ قَبْلُ ، ولقد كَانَ الْأئِمَّةُ فِي الْحَدِيثِ يَتَرَفَّعُونَ الْأَحَادِيثَ بِطُرُقِهَا
وَأَسَانِيدِهَا ، بِحَيْثُ لَوْ رُوِيَ حَدِيثٌ بِغَيْرِ سَنَدِهِ وَطَرِيقِهِ تَقَطَّعُوا إِلَى أَنَّهُ قَدْ قَلِبَ عَنْ
وَضْعِهِ . وَلقد وَقَعَ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ الْبُخَارِيِّ حِينَ وَرَدَ عَلَى بَغْدَادَ ،
وَقَصَدَ الْحَدَّثُونَ أَمْتِحَانَهُ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أَحَادِيثَ قَلَّبُوا أَسَانِيدَهَا ، فَقَالَ : لَا أَعْرِفُ
هَذِهِ ، وَلَكِنْ حَدَّثَنِي فَلَانٌ ، ثُمَّ أَتَى بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ عَلَى الْوَضْعِ الصَّحِيحِ ، وَرَدَّ
10 كُلَّ مِثْنٍ إِلَى سَنَدِهِ ، فَأَقْرَأُوا لَهُ بِالْإِمَامَةِ^(٢) .

واعلم أيضاً أنَّ الْأئِمَّةَ الْمُجْتَهِدِينَ تَفَاوَتُوا فِي الْإِكْتِفَارِ مِنْ هَذِهِ الْبِضَاعَةِ وَالْإِفْلَالِ ،
فَأَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(ب) يَقَالُ : إِنَّهُ إِنَّمَا بَلَغَتْ رَوَايَتُهُ إِلَى سَبْعَةِ عَشَرَ حَدِيثًا أَوْ
نَحْوَهَا ، وَمَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّمَا صَحَّ عَنْدهُ مَا فِي كِتَابِ الْمُوطَّأِ ، وَغَايَتُهَا ثَلَاثُمِائَةٍ
حَدِيثٍ^(ج) أَوْ نَحْوَهَا ، وَاحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ [رَحِمَهُ اللَّهُ]^(د) فِي مُسْنَدِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ
15 حَدِيثٍ ، وَالْكُلُّ عَلَى مَا أَذَاهُ إِلَيْهِ اخْتِبَاهُ ذُمْ فِي ذَلِكَ .

(١) كُفَا ، وَمُصْطَلَحُ الْحَدِيثِينَ : مُغْلُولٌ (ب) سَقَطَ مِنْ ج ي (ج) سَقَطَ مِنْ ج ط ، وَفَرَاغَ كَلِمَتَيْنِ فِي ي ، وَالتَّكْمَلَةُ مِنْ ع
(د) مِنْ ي .

(١) الْخَبَرُ فِي تَارِيخِ مَدِينَةِ السَّلَامِ لِلخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ 2 : 340 ، وَسِيرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ لِلذَّهَبِيِّ 12 : 408 .

وقد يقول بعض المتعصين المتعسفين أنّ منهم من كان قليل البضاعة في الحديث ، ولهذا قلّت روايته . ولا سبيل إلى هذا المعتقّد في كبار الأئمة ، لأنّ الشريعة / إنّما تؤخذ من الكتاب والسنة ، ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيعتنّ عليه طلبه وروايته والجّد والتّشهير في ذلك ، ليأخذ الدّين عن أصول صحيحة ، ويتلقّى الأحكام عن صاحبها المبلّغ لها عن الله . وإنّما أقلّ منهم من أقلّ 5 الزّواية لأجل المطاعين التي تعترضه فيها والعلل التي تغمض في طُرُقها، سيّما والجرّح مقدّم عند الأكثر ، فيؤدّيه الاجتهاد إلى ترك الأخذ بما يغرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد، ويكثر ذلك ⁽¹⁾، فتقلّ روايته لضعف الطّرق. هذا مع أنّ أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق، لأنّ المدينة دار الهجرة ومأوى الصحابة، ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد أكثر. والإمام أبو حنيفة إنّما 10 قلّت روايته لما شدّد في شروط الزّواية والتّخفّل، * [وضعّف الحديث إذا عارضه العقل القطعي ^(ب)] * ^(ج) فاستضعب ^(د)، وقلّت من أجلها روايته، فقلّ حديثه، لا أنّه ترك رواية الحديث متعمّداً، فحاشاه من ذلك. ويدلّك على أنّه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه واعتباره ردّاً وقبولاً. وأما غيره من الحديثين وهم الجمهور، فتوسّعوا في الشروط وكثّر حديثهم ، والكُلّ عن اجتهاد . وقد 15 توسّع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم. وروى الطحاوي فأكثر وكتب مُسنّده، وهو جليل القدر، إلّا أنّه لا يغدّل الصّحيحين، لأنّ الشروط التي اعتمدها

(1) في ي: وكثّر لذلك (ب) في ج: العقل القطعي (ج) سقط ما بين النجمين من ط ي (د) من ي. وفي ط ج: فاستضعبت .

البخاري ومُسْلِمٌ في كتابيها مُجْتَمَعٌ عليها بين الأئمة كما قالوه، وشُرُوطُ الطَّحَاوِيِّ غَيْرُ مُتَّفَقٍ عليها، كالرَّوَايَةِ عَنِ الْمُسْتَوْرِ الْحَالِ وَغَيْرِهِ. فلهذا قُدِّمَ الصَّحِيحَانِ، بَلْ وَكُنْتُ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةَ عَلَيْهِ، لِتَأْخُرَ شَرْطُهُ عَنْ شُرُوطِهِمْ. وَمَنْ أَجَلُ هَذَا قِيلَ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهَا مِنْ جَمْعَةِ الْإِجْمَاعِ عَلَى صِحَّةِ مَا فِيهَا عَلَى الشُّرُوطِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا. فَلَا تَأْخُذُكَ رَيْبَةٌ فِي ذَلِكَ؛ فَالْقَوْمُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْظَّنِّ⁽¹⁾ الْجَمِيلِ بِهِمْ، وَالتَّحَاسُّ الْمَخَارِجِ / الصَّحِيحَةُ لَهُمْ. وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ.

[302ب]

13 • الْفِقْهُ وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ^(ب)

وَالْفِقْهُ هُوَ مَعْرِفَةُ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ، بِالْوُجُوبِ، وَالْحُظْرِ، وَالتَّذَبُّعِ، وَالْكَرَاهَةِ، وَالْإِبَاحَةِ. وَهِيَ مُتَلَقَّاةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا نَصَبَهُ الشَّارِعُ لِمَعْرِفَتِهَا مِنَ الْأَدِلَّةِ. فَإِذَا اسْتُخْرِجَتْ الْأَحْكَامُ مِنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ قِيلَ لَهَا: فِقْهٌ.

وَكَانَ السَّلَفُ يَسْتُخْرِجُونَهَا مِنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِيهَا بَيْنَهُمْ لَا يَبْدُ مِنْ وَقْعِهِ، ضَرُورَةٌ أَنَّ الْأَدِلَّةَ غَالِبُهَا مِنَ التَّصَوُّصِ، وَهِيَ بَلُغَةُ الْعَرَبِ، وَفِي [اِقْتِضَاءَاتِ أَلْفَاظِهَا]^(ج) خِلَافٌ بَيْنَهُمْ مَعْرُوفٌ. وَأَيْضاً فَالسُّنَّةُ مُخْتَلِفَةٌ الطَّرِيقِ فِي الثَّبُوتِ، وَتَتَعَارَضُ فِي الْأَكْثَرِ أَحْكَامُهَا، فَتَحْتَاجُ إِلَى التَّرْجِيحِ، وَهُوَ مُخْتَلَفٌ. وَأَيْضاً فَالْأَدِلَّةُ مِنْ غَيْرِ التَّصَوُّصِ مُخْتَلَفٌ فِيهَا. وَأَيْضاً فَالْوَقَائِعُ الْمُتَّجِدَّةُ لَا تَوْفِي بِهَا التَّصَوُّصُ، وَمَا

(1) ي: بالنظر (ب) كتب المؤلف قسماً كبيراً من هذا الفصل في الأصل ع خطه (ج) من ع ج ي ، وفي ظ: الكثير من معانيها .

كان منها غير داخل في التصوص فيُخْتَلُ على مَنصوص [لمشابهة]^(أ) بينها. وهذه كلها مَثارَات^(ب) لِلْخِلَافِ صَرُورِيَّةُ الْوُقُوعِ. ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم.

- ثم إنَّ الصَّحَابَةَ لم يكونوا كُلُّهم أَهْلُ فُتْنًا ، ولا كان الدِّينُ يُؤْخَذُ عن جميعهم ، وإِنَّمَا كان ذلك مُخْتَصًّا مِنْهُمْ بِالْحَامِلِينَ لِلْقُرْآنِ ، الْعَارِفِينَ بِنَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ ، وَمُتَشَابِهِهِ 5 وَمُخْتَلِفِهِ وَسَائِرِ دَلَالَاتِهِ ، بِمَا تَلَقَّوْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ مِمَّنْ سَمِعَهُ مِنْهُ مِنْ عَلَيْهِمِمْ . وَكَانُوا يُسَمُّونَ لَذَلِكَ الْقِرَاءَ ، أَيَّ الدِّينِ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ . لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً ، فَاخْتَصَّ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ قَارِئًا لِلْكِتَابِ بِهَذَا الْاسْمِ ، لِقَرَابَتِهِ يَوْمئِذٍ . وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ صَدْرَ الْمِلَّةِ .
- ثم عَظُمَتْ أَمْصَارُ الْإِسْلَامِ ، وَذَهَبَتْ الْأُمِّيَّةُ عَنِ الْعَرَبِ بِمُارَسَةِ الْكِتَابِ ، وَتَمَكَّنَ الْأَسْتِنبَاطُ ، وَكَمَلَ الْفِقْهُ وَأَصْبَحَ صِنَاعَةً وَعِلْمًا ، فَبَدَّلُوا بِاسْمِ الْفُقَهَاءِ 10 وَالْعُلَمَاءِ مِنَ الْقُرَّاءِ .

[1303]

- وانقسم الفقه فيهم إلى طريقتين : طريقة أهل الرأي / والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة [أهل]^(ج) الحديث ، وهم أهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في أهل العراق ، لما قَدَمْنَاهُ ، فَاسْتَكْتَرُوا مِنَ الْقِيَاسِ وَمَهَرُوا فِيهِ . فَلِذَلِكَ قِيلَ لَهُمْ : أَهْلُ الرَّأْيِ . وَمُقَدِّمُ جِبَاعَتِهِمُ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْمَذْهَبُ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ ، الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَإِمَامُ 15 أَهْلِ الْحِجَازِ ، مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، وَالشَّافِعِيُّ مِنْ بَعْدِهِ .

(أ) من ع. وفي طي ج: مشابهة (ب) من طي. وفي ع: إثارات، وفي ج: شارَات (ج) سقط من ط .

ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به، وهم الظاهرية، وجعلوا مدارك الشريعة كلها منحصرة في الخصوص والإجماع، وزدوا القياس الجلي والعلّة المنصوصة إلى النص، لأنّ النص على العلّة نصّ على الحكم في جميع محالّها. وكان إمام هذا المذهب داود بن عليّ وابنه وأصحابها.

5 فكانت هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الأمة.

وشدّ أهل البيت بمذهب ابتدعوه وفقه انفردوا به، وبنّوه على مذهبه في تناول بغض الصحابة بالفتح، وعلى قولهم بعضمة الأئمة ورفع الخلاف عن أقوالهم. وهي كلها أصول واهية.

10 وشدّ بمثل ذلك الخوارج. ولم يخفل الجمهور بمذاهبهم، بل أوسعوها جانب الإنكار والفتح، فلا يعرف شيء من مذاهبهم ولا تروى كتبهم ولا أثر لشيء منها إلا في مواطنهم.

فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولهم قائمة في المغرب والمشرق واليمن، والخوارج كذلك. ولكلّ منهم كتب وتوايف وآراء في الفقه غريبة.

15 ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أيقته وإنكار الجمهور على منتهى، ولم يبق إلا في الكتب الجلدة. وربما يغف كثير من البطالين من يكلف بانتهال مذهبهم على تلك الكتب، يروم أخذ فقههم منها ومذهبهم، فلا يخلو بطلان، ويصير إلى مخالفة الجمهور وإنكارهم عليه. وربما عدّ بهذه التخلّة في أهل البدع، بتلقينه العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين. وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس،

[303ب] على غُلُو رُبُوبِيَّة / في حِفْظ الحديث ، وصَارَ إلى مَذْهَبِ أَهْلِ الظَّاهِر ، ومَهَر فيه
 بِاجْتِهَادِ رَعْمَهُ فِي أَقْوَالِهِمْ؛ وَخَالَفَ إِمَامَهُمْ دَاوُدَ ، وَتَعَرَّضَ لِلكَثِيرِ مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ،
 فَتَقَمَّ النَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَأَوْسَعُوا مَذْهَبَهُ اسْتِهْجَانًا وَإِنْكَارًا، وَتَلَقَّوْا كُتُبَهُ بِالْإِعْفَالِ
 وَالتَّرْكِ، * حَتَّى إِنَّمَا لِيَخْطُرَ بَيْنَهُمَا بِالْأَسْوَاقِ، وَرُبَّمَا تُمَرَّقُ بَعْضُ الْأَخْيَانِ^(١).

5 ولم يَبْقَ إِلَّا مَذَاهِبُ أَهْلِ الرَّأْيِ مِنَ الْعِرَاقِ، وَأَهْلِ الْحَدِيثِ مِنَ الْحِجَازِ.
 فَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ، فَإِمَامُهُمُ الَّذِي اسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ مَذَاهِبُهُمْ، أَبُو حَنِيفَةَ الثُّغْلَانِيُّ
 ابْنُ ثَابِتٍ. فَقَامَهُ فِي الْفِقْهِ لَا يُلْحَقُ، شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ أَهْلُ جِلْدَتِهِ، وَخُصُوصًا مَالِكًا
 وَالشَّافِعِيَّ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْحِجَازِ ، فَكَانَ إِمَامُهُمْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيُّ ، إِمَامُ دَارِ الْهِجْرَةِ
 رَحِمَهُ اللَّهُ. وَاخْتَصَّ بِزِيَادَةِ مُدْرِكٍ آخَرَ لِلأَخْكَامِ غَيْرِ الْمَدَارِكِ الْمُغْتَبَرَةِ عِنْدَ غَيْرِهِ،
 10 وَهُوَ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ. لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّهُمْ فِيمَا يَتَّفِقُونَ^(ب) عَلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ مُتَابِعُونَ
 لِمَنْ قَبْلَهُمْ ضَرُورَةٌ ، لَدِينِهِمْ [وَاقْتِدَائِهِمْ]^(ج)، وَكَذَا إِلَى الْجِيلِ الْمُبَاشِرِينَ لِفِعْلِ التَّيِّبِ
 ﷺ، الْآخِذِينَ ذَلِكَ عَنْهُ . وَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مِنْ أُصُولِ الْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ. وَظَنَّ كَثِيرٌ
 أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ، فَأَنْكَرَهُ. لِأَنَّ دَلِيلَ الْإِجْمَاعِ لَا يَخُصُّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ
 15 سِوَاهُمْ، بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِلْأُمَّةِ.

وَعَلِمْنَا أَنَّ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا هُوَ الْإِتِّفَاقُ عَلَى الْأَمْرِ الدِّينِيِّ عَنْ اجْتِهَادٍ. وَمَالِكٌ إِرْحَمَهُ
 اللَّهُ^(د) لَمْ يَغْتَبِرْ عَمَلُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا اعْتَبَرَهُ مِنْ حَيْثُ اتِّبَاعُ

(١) مَا بَيْنَ التَّحْمِينِ وَرَدِّ فِي ظَعْنٍ، وَشَطُوبٍ فِي يَ، (ب) فِي يَ: يَنْفَقُونَ مَحْمَلَةً. وَفِي جَ: يَنْفَقُونَ (ج) فِي ظَ: اقْتِدَارُهُمْ (د) مَنْ يَ عَ.

الجيل بالمشاهدة للجيل بالمشاهدة، إلى أن ينتهي إلى الشارع صلوات الله عليه،
 وضرورة اقتيادهم تُعَيِّن ذلك. نعم، المسألة ذُكِرت في باب الإجماع، لأنه أَلْبَقُ
 الأبواب بها من حيث ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الإجماع. إلا أن اتفاق
 أهل الإجماع عن اجتهاد ورأي^(١)، بالنظر في الأدلة؛ واتفاق هؤلاء في فعل أو
 ترك، مُستندين إلى مشاهدة من قبلهم. ولو ذُكرت المسألة في باب فعل النبي ﷺ
 5 وتقريره^(ب)، أو مع الأدلة / المختلف فيها، مثل شَرَعَ من قبلنا، ومذهب الصحابي،
 والاستصحاب، لكان أَلْبَقُ بها. * والله الموفق للصواب^(ج).

[١304]

ثم كان من بعد مالك بن أنس، محمد بن إدريس الموطبي الشافعي، رحمه الله،
 رحل إلى العراق من بعد مالك، ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم، ومزج
 10 طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق. واختص بمذهب، وخالف ما كان رحمه الله
 في كثير من مذهب^(د).

وجاء من بعدهما أحمد بن حنبل [رحمه الله]^(هـ)، وكان من عليّة المحدثين.
 وقرأ أصحابه على أصحاب أبي حنيفة، مع وفور بضاعتهم من الحديث. [فاختصوا]^(و)
 بمذهب آخر.

ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودرس المقلدون لمن سواهم.
 15 وسدّ الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من شعب الاضطلاحات في العلوم، ولما
 عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن
 لا يوثق برأيه ولا بدينه؛ فصرّحوا بالعجز والإغوار، وزدوا الناس إلى تقليد هؤلاء،

(١) في ي: ونظر (ب) سقط من ج (ج) سقط من ج ي (د) مذهبه (هـ) من ي (و) في ط: فاخص.

كُلٌّ ومن اخْتَصَّ به من المقلِّدين، وخطروا أن يُتداولَ تقليدُهم لما فيه من التلاعُبِ. ولم يَبْقَ إِلَّا نَقْلُ مذاهِبهم، وعَمِلَ كُلُّ مُقَلِّدٍ بمذهبٍ من قُلْدِهِ منهم بعد تَضَحِيحِ الأصولِ واتِّصَالِ سَنَدِهَا بِالرَّوَايَةِ، لَا مَحْصُولَ الْيَوْمِ لِلْفِقْهِ غَيْرُ هَذَا. وَمُدَّعِي الاجْتِهَادِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَرْدُودٌ عَلَى عَقِبِهِ مَجْجُورٌ تَقْلِيدِهِ.

5 وقد صار أَهْلُ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ عَلَى تَقْلِيدِ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ.

فَأَمَّا ابْنُ خَنْبَلٍ، فَقُلْدُهُ قَلِيلٌ، الْبُعْدُ مَذْهَبَهُ عَنِ الْاجْتِهَادِ، وَأَصَالَتُهُ فِي مُعَاَصَدَةِ الرِّوَايَةِ وَالْأَخْبَارِ بَعْضاً بَعْضاً^(أ) وَأَكْثَرُهُم بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ مِنْ بَغْدَادَ وَنَوَاحِيهَا. وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ جَفْظاً لِلشَّيْءِ وَرَوَايَةً لِلْحَدِيثِ أَوْ مَيْلًا بِالِاسْتِنَابِ إِلَيْهِ عَنِ الْقِيَاسِ مَا أُمْكِنَ. وَكَانَ لَهُمْ بِبَغْدَادَ كَثْرَةٌ وَصَوْلَةٌ، حَتَّى كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَ الشَّيْبَعَةِ فِي نَوَاحِيهَا، وَعَظُمَتِ الْفِتْنَةُ بِبَغْدَادَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ. ثُمَّ انْقَطَعَ ذَلِكَ عِنْدَ اسْتِيلَاءِ الطُّظَرِ^(ب) عَلَيْهَا، وَلَمْ يَرَجَعْ، وَصَارَتْ كَثْرَتُهُمْ بِالشَّامِ^(ب).

وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ، فَقُلْدُهُ الْيَوْمَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمَةُ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَبِلَادُ الْعَجَمِ كُلِّهِمْ، لَمَا كَانَ مَذْهَبُهُ أَخْصَّ بِالْعِرَاقِ وَدَارِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ يُلْمِيزُهُ صَحَابَةُ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ. فَكَثُرَتْ تَوَالِفُهُمْ وَمُنَاطَرَاتُهُمْ مَعَ الشَّافِعِيَّةِ، وَ[خَسَنَتْ] ^(ج) / مَنَاجِيهِمْ ^(د) فِي الْخِلَافِيَّاتِ، وَجَاءُوا مِنْهَا بِعِلْمٍ مُسْتَظَرَّفٍ وَأَنْظَارٍ غَرِيبَةٍ. وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ. وَبِالْمَغْرِبِ مِنْهَا شَيْءٌ قَلِيلٌ، نَقَلَهُ إِلَيْهِ الْقَاضِي ابْنُ الْغَرْنَبِيِّ^(١) وَأَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِي فِي رَحْلَتَيْهِمَا.

(أ) مِنْ يَ . (ب) مِنْ عَ جَ . وَسَقَطَ مِنْ طَ يَ (ج) سَقَطَ مِنْ طَ (د) كَذَا . وَلَعَلَّهَا : مِنْحَتُهُمْ .

وأما الشافعي [رحمه الله]^(١)، فُقِلَّادُهُ بِمَصْرَ أَكْثَرَ مِمَّا سِوَاهَا. وَقَدْ كَانَ انْتَشَرَ
مَذْهَبُهُ بِالْعِرَاقِ وَخُرَّاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَقَاسَمُوا الْخَنْفِيَّةَ الْفَتْوَى وَالتَّدْرِيسَ فِي
جَمِيعِ الْأَمْصَارِ، وَعَظُمَتِ مَجَالِسُ الْمُنَاطَرَاتِ بَيْنَهُمْ، وَشُجِنَتْ كُتُبُ الْخِلَافَاتِ بِأَنْوَاعِ
اسْتِدْلَالِهِمْ. ثُمَّ دَرَسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِدُرُوسِ الْمَشْرِقِ وَأَقْطَارِهِ.

5 [وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي لما نزل^(ب) على بتي عبد الحكم بمصر،
أخذ عنه جماعة* منهم. وكان من تلميذه بها البونيطي، والمزني، وغيرهم. وكان بها من
المالكية جماعة*^(ج) من بتي عبد الحكم، وأشهب، وابن القاسم، وابن المؤاز، وغيرهم،
ثم الحارث بن مسكين، وبنوه،* ثم القاضي أبو إسحاق ابن شغبان وأصحابه*^(د). ثم
انقرض فقه أهل السنة [والجماعة]^(هـ) من مصر بظهور دولة الرافضة. وتداول بها فقه
10 أهل البيت، وكاد من سواهم أن يتلاشوا ويذهبوا. وانتحل إليها القاضي عبد
الوهاب من بغداد، آخر المائة الرابعة، على ما علم من الحاجة والتقلب في المعاش.
فتأذن^(و) خلفاء العبديين بإكرامه وإظهار فضله، نعيًا على بتي العباس في أطراح
مثل هذا الإمام والاعتماد به. فتفقت سوق المالكية بمصر قليلًا، إلى^(ز) أن
انقرضت^(ح) دولة العبديين من الرافضة على يد صلاح الدين ابن أيوب. فذهب
15 منها فقه أهل البيت، [وعاد]^(ط) فقه الجماعة إلى ظهوره بينهم. وتوفر من ذلك فقه
الشافعي وأصحابه من أهل العراق والشام، فعاد إلى* أحسن ما كان^(ي)، ونفق

(أ) من ي (ب) سقط من ط (ج) سقط ما بين النجمين من ي (د) من ج ع، وسقط من ط ي (هـ) من ج ع، وسقط
من ط ي (و) ج: فبادر (ز) من ج ع، وسقط من ط ي (ح) ي: ذهب (ط) هذه الجملة مسطوية في ع، وفي ي ط:
ورجع إليهم فقه الشافعي وأصحابه (ي) سقط ما بين النجمين من ج .

سوفه. [وجلب كتاب الرافعي منها إلى الشام ومصر]^(أ)، واشتهر منهم مُخي الدين
التووي من الحلبه التي ربت في ظلّ النّولة الأيوبيّة بالشّام، وعزّ الدين ابن عبد
السلام [أيضاً]^(ب)، ثمّ ابن الرّفعة بمصر، وتقيّ الدين ابن دقيق العيد، ثمّ تقيّ الدين
الشّنبكي من بغديهما، إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد، وهو
سراج الدين البلقيني. فهو اليوم كبير الشّافعيّة [بها]^(ج)، لا بل كبير العلّماء من أهل
5 العصر.

وأما مالك (رحمه الله)^(د)، فاختصّ مذهبه^(هـ) بأهل المغرب والأندلس، وإن
كان يوجد في غيرهم. إلاّ أنهم لم يقلّوا غيره إلّا في القليل، لما أنّ رخلتهم غالباً
كانت إلى الحجاز، وهو منتهى سقرهم. والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى
10 العراق، ولم يكن العراق في طريقهم. / فاقترضوا على الأخذ من علماء المدينة،
وشيوخهم يومئذ وإمامهم مالك، [وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده]^(و). فرجع إليه
أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره تمن لم تصل إليهم طريقته. وأيضاً فالبداوة
كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل
العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة. ولهذا لم يزل المذهب المالكي
عندهم غصّاً ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب.
15

ولما صار مذهب كلّ إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه، ولم يكن لهم
سبيل إلى الاجتهاد والقياس، فاحتاجوا إلى تنظير المسائل في الإلحاق وتثريتها عند

(أ) سقط من ظي (ب) من ج (ج) في طح ي: بمصر (د) من ي (هـ) ي: بمذهب أهل (و) من ع ج ي،
وسقط من ط .

الاشتباه، بقدر الاستناد إلى الأصول المقررة من مذهب إمامهم. وصار ذلك كله يحتاج إلى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التفسير والتفقه، واتباع مذهب⁽¹⁾ إمامهم فيها ما استطاعوا. وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد.

وأهل المغرب جميعاً مقلدون للمالك رضي الله عنه. وقد كان تلميذه اقرقوا 5 بمصر والعراق. فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته، مثل ابن حوزامنداد، وابن المنتاب، والقاضي أبو بكر الأبهري، والقاضي أبو الحسن بن القصار، والقاضي عبد الوهاب، ومن بعدهم. وكان بمصر ابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم، والحارث بن مسكين، وطبقته. ورحل من الأندلس [يحيى بن يحيى الليثي، ولقي مالكا وروى عنه كتاب الموطأ، وكان من جلة أصحابه. ورحل بعده^(ب) عبد الملك 10 ابن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك بالأندلس، ودون فيه كتاب الواضحة. ثم دون العنبي، من تلاميذه، كتاب العنبيّة.

ورحل من إفريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي خنيفة أولاً، ثم انتقل إلى مذهب مالك، وكتب عن ابن القاسم في سائر أبواب الفقه. وجاء إلى القيروان بكتاب، وسُمي الأسديّة، نسبة إلى أسد بن الفرات. / فقرأها سحنون على 15 أسد، ثم ارتحل إلى المشرق، ولقي ابن القاسم وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأسديّة، فرجع عن كثير منها. وكتب سحنون مسائله ودونها، وأثبت ما رجع عنه منها. وكتب معه ابن القاسم إلى أسد أن يمحو من أسديّته ما رجع عنه، وأن يأخذ بكتاب

(1) مذاهب (ب) من حاشية ع خطه، ولم تنبها ط ج ي .

سَخَنُونَ . فَأُتِيَ مِنْ ذَلِكَ ، فَتَرَكَ النَّاسُ كِتَابَهُ وَاتَّبَعُوا مَدُونَةَ سَخَنُونَ ، عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنْ اخْتِلَاطِ الْمَسَائِلِ فِي الْأَنْوَابِ . فَكَانَتْ تُسَمَّى الْمَدُونَةُ وَالْمُخْتَلِطَةُ . وَعَكَفَ أَهْلُ الْقَيْرَوَانِ عَلَى هَذِهِ الْمَدُونَةِ ، وَأَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْوَاضِحَةِ وَالْعُتْبِيَّةِ .

ثُمَّ اخْتَصَرَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمَدُونَةَ وَالْمُخْتَلِطَةَ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالْمُخْتَصَرِ ، وَلَخَّصَهُ أَيْضاً أَبُو سَعِيدٍ الْبَرَادِيعِيُّ ، مِنْ فُقَهَاءِ الْقَيْرَوَانِ ، فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِالتَّهْذِيبِ . وَاعْتَمَدَهُ 5 الْمَشَيْخَةُ مِنْ أَهْلِ إِفْرِيقِيَّةٍ ، وَأَخَذُوا بِهِ وَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ اعْتَمَدَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ كِتَابَ الْعُتْبِيَّةِ ، وَهَجَرُوا الْوَاضِحَةَ وَمَا سِوَاهَا .

وَلَمْ يَزَلْ عُلَمَاءُ الْمَذْهَبِ يَتَعَاهَدُونَ هَذِهِ الْأُمَهَاتِ بِالشَّرْحِ وَالْإِيضَاحِ وَالْجَمْعِ . فَكَتَبَ أَهْلُ إِفْرِيقِيَّةٍ عَلَى الْمَدُونَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ ، مِثْلُ ابْنِ يُونُسَ ، وَاللَّخْمِيِّ ، وَابْنِ مُخْرَزٍ ، وَالتَّوْنُسِيِّ ، وَابْنِ بَشِيرٍ وَأَمْثَالِهِمْ . وَكَتَبَ أَهْلُ الْأَنْدَلُسِ عَلَى الْعُتْبِيَّةِ مَا 10 شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبُوهُ ، مِثْلُ ابْنِ رُشْدٍ وَأَمْثَالِهِ .

وَجَمَعَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ جَمِيعَ مَا فِي الْأُمَهَاتِ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْخِلَافِ وَالْأَقْوَالِ فِي كِتَابِ التَّوَادِيرِ . فَاشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَقْوَالِ الْمَذْهَبِ ، وَافْتَرَعَ⁽¹⁾ الْأُمَهَاتِ كُلَّهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ . وَنَقَلَ ابْنُ يُونُسَ مُعْظَمَهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْمَدُونَةِ .

وَزَحَرَتْ بِحَارِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي الْأَفْقَيْنِ إِلَى اقْتِرَاضِ ذَوْلَةِ قُرْطُبَةَ 15 وَالْقَيْرَوَانِ . ثُمَّ تَمَسَّكَ بِهِمَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ بَعْدَ ذَلِكَ .

(1) مِنْ ع. ج. ، وَفِي ظ. ي. : مَرَّغ .

إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب، لخص فيه طُرُق أهل المذهب في كل باب، وتغديد أقوالهم في كل مسألة، فجاء كالبرنامج للمذهب.

وكانت الطريقة المالكية^(١) بقيت في مصر من لدن الحارث بن مسكين، وابن ميسر، وابن اللهب، وابن زشيق، وابن شاس، وكانت الإسكندرية في بني عوف وبني سند^(ب)، وابن عطاء الله، ولا أدري عن أخذها أبو عمرو بن الحاجب، / لكنه جاء بعد انقراض دولة الغُبَيدِيِّين، وذهب فقه آل البيت، وظهور فقهاء السُّنَّة من الشَّافعية والمالكية^(١).

[306]

5

(١) أوجز ابن خَلِّون في سباق نسختي ط ي حديثه عن المذهب المالكي في هذا الموضع. ويبدو أنه أعاد النظر فيما كان كسبه في هذا الجزء من الفصل وتوقع فيه. فلم تحمه على متن ط ي المتطابقين اجتناباً لتكرار بعض المحتوى، وأقردها هنا عن نسختي ع ج منفصلاً، وموقعه بين حرفي (١ - ١) :

وتتميزت للمذهب المالكي ثلاث طُرُق: للقرَّوين، وكبيرهم سَخْنُون الآخِذُ عن ابن القاسم. وللقرطبيين (في ج: القرطبيين)، وكبيرهم ابن حبيب الآخِذُ عن مالك، ومُطَرِّف، وابن الماجشون، وأضيق. وللعراقيين (في ج: العراقيين)، وكبيرهم القاضي إسماعيل وأصحابه. وكانت طريقة المصريين تابعة للعراقيين. وإنَّ القاضي عبد الوهاب انتقل إليها من بغداد آخر المائة الرابعة، وأخذ أهلها عنه. وكانت الطريقة المالكية بمصر من لدن الحارث بن مسكين، وابن ميسر، وابن اللهب، وابن زشيق. وكانت خافية بسبب ظهور الزائفة وفقه أهل البيت.

وأما طريقة العراقيين، فكانت مهجورة عند أهل القبروان والأندلس، لبُعدها عنهم وخفاء مدارِكها وقلة إطلاعيهم على مأخذهم فيها. والقوم أهل اجتهد، وإن كان خاضاً، لا يَزُون التثليد ولا يَرْضُونه طرِيقاً. ولذلك (في ج: فلذلك) نجد أهل المغرب والأندلس لا يأخذون برأي العراقيين فيما لا يجدون فيه رواية عن الإمام، أو واحد (في ج: أحد) من أصحابه.

ثم امتزجت الطرق بعد ذلك، ورحل أبو بكر الطرطوشي من الأندلس في المائة السادسة، ونزل التبت المقدس وأوطنه. وأخذ عنه أهل مصر والإسكندرية، ومزجوا طريقته الأندلسية =

(ب) من ي.

ولما جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة، عكف عليه الكثير من طلبته المغرب، وخصوصاً أهل بجاية، لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه إلى المغرب، فإنه كان قرأ على أصحابه بمصر، ونسخ مختصره ذلك وجاء به، فانتشر بقطر بجاية في تلميذه، ومنهم انتقل إلى سائر أنصار المغرب. وطلبه الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه،⁵ لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه. وقد شرحه جماعة من شيوخهم،

= بطريقتهم المصرية. وكان من جلة أصحابه الفقيه سند، صاحب الطران، وأصحابه. وأخذ عنهم جماعة، كان منهم بتو عوف وأصحابهم. وأخذ عنهم أبو عمرو ابن الحاجب، وبقده شهاب الدين القرافي. واتصل ذلك في تلك الأغصان.

وكان فقه الشافعية قد اقرض أيضاً بمصر منذ ذلة العبيديين⁽¹⁾، أهل البيت. فظهر بعدهم في الفقهاء الذين جددوه كتاب الزاوي، فقيه أهل خراسان منهم. وظهر بالشام مخيي الدين النووي، من تلك الحلية.

ثم امتزجت طريقة المغاربة من المالكية أيضاً بطريقة العراقيين من لدن الشرمساجي، كان بالإسكندرية ظاهراً في الطريقة المغربية والمصرية. فبنى المستنصر الغبايي، أبو المستنصر وابن الظاهر، منزسته ببغداد، واشتدعها لها من خلفاء العبيديين الذين كانوا يومئذ بالقاهرة، فأذنوا له في الرحيل إليه. فلما قديم بغداد، ولأه تدريس المستنصرية، وأقام هنالك إلى أن استولى هولاكو على بغداد سنة سب و تحسين من المائة السابعة، وخلص من تبار تلك التكية وخلق سبيله. فعاش هنالك إلى أن مات في أيام ابنه أحمد أبغا.

ولتخصت طرق هؤلاء المصريين بمتزجة بطرق المغاربة، كما ذكرناه، في مختصر أبي عمرو ابن الحاجب، يذكر فقه الباب في مسائله* المتروكة، ويذكر الأقوال في كل مسألة*^(ب) على تعددها، فجاء كالبرنامج للمذهب.

(1) سقط من ج (ب) سقط ما بين النجيين من ج .

كاتب عبد السلام، وابن راشد، وابن هارون، وكلهم من مشيخة أهل تونس. وسابق خلّتهم⁽¹⁾ في الإجابة في ذلك*^(ب) ابن عبد السلام. وهم مع ذلك يتعهدون كتاب التهذيب في دروسهم. والله يهدي من يشاء.

وأما علم الفرائض، وهو معرفة فروض الوراثة، وتصحيح سهام الفريضة 5 من كم تصح باعتبار فروضها الأصول أو مناسخها. وذلك إذا هلك أحد الورثة، وانكسرت سهامه على فروض ورثته، فإنه حينئذ يحتاج إلى حُساب يُصحّح الفريضة الأولى حتى يصل أهل الفروض جميعاً في الفريضتين إلى فروضهم من غير تجزئة. وقد تكون هذه المناسخات أكثر من واحدٍ واثنين. وتتعدّد كذلك بعدد أكثر، ويقدر ما تتعدّد تحتاج إلى الحُساب.

10 وكذا إذا كانت الفريضة ذات وجهين، مثل أن يقرّ بعض الورثة بوارث ويُبكره الآخر، فنصح على الوجهين حينئذٍ ويُنظر مبلغ السهام، ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل الفريضة. وكل ذلك مُحْتَاجٌ إلى الحُساب. فأفردوا هذا الباب من أبواب الفقه لما اجتمع فيه إلى الفقه من الحُساب وكان غالباً / فيه، وجعلوه فتاً منفرداً.

[306 ب]

15 وللتاس فيه تواليف كثيرة، أشهرها عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت، ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي، ثم الجعدي. ومن متأخري إفريقية ابن المتّم الطرابلسي، وأمثالهم.

(1) ع: أهل خلّتهم (ب) سقط ما بين الجعنين من ج.

وأما الشافعية والحنفية والحنابلة، فلمهم فيه تواليف كثيرة وأعمال عظيمة ضعبة،
شاهدة لهم باتساع النزع في الفقه والحساب، وخصوصاً أبا المعالي - رحمه الله -
وأمثاله من أهل المذاهب.

وهو قرنٌ شريفٌ جُتمع فيه بين المعقول والمنقول، والوصول به إلى الحُصوق في
الوراثات عندما تُجهل الحُطوط وتُشكل على القاسمين * بوجوه صحيحة يقينية^(١).
5 وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية. ومن المصنفين من يَنجُح فيها إلى الغلو في
الحساب، وفرض المسائل التي تُحتاج في استخراج المجهولات من فُتُون الحساب،
كالجبر والمُقابلة، والتصرف في الجذور، وأمثال ذلك، فيملأون بها تواليفهم. وهو وإن
لم يكن مُتداولاً بين الناس، ولا يُعَيَّد فيها يتداولونه من وراثتهم لغرابته وقلة وقوعه،
فهو يُعَيَّد المِرانَ وتَحصيل الملكة في المتداول على أَهْلِ الوجوه.

10

وقد يَحْتَجُّ الأكثر من أهل هذا القرن على فضله بالحديث المنقول عن أبي
هُرَيْرَةَ: "أَنَّ الْفَرَائِضَ ثُلُثُ الْعِلْمِ، وَأَنَّهَا أَوَّلُ مَا يُنْسَى". وفي رواية: يَضْفُ الْعِلْمُ.
خَرَّجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ^(١)، واحتجَّ به أهلُ الفرائض بناءً على أَنَّ المراد بالفرائض

(١) سقط من ي .

(1) لم يثق عليه من رواية أبي كعب، ولكنه روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة: قال رسول الله
ﷺ: "يا أبا هريرة، تعلّموا الفرائض وعَلِّمُوهُ فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَهُوَ يُنْسَى، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ
أُمَّتِي". أخرجه ابن ماجة (2719)، والدارقطني 4: 67، والحاكم في المستدرک 4: 332، والبيهقي في سننه
الكبرى 6: 209، والمزي في تهذيب الكمال 7: 40، وإسناده ضعيف لضيف حفص بن عمر بن أبي
الغطفار رواه عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. وأما "ثلث العلم" فقد وردت من قول طاووس
وقتادة كما في سنن البيهقي 6: 209 .

فروض الوراثة. والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد، وأن المراد بالفرائض إنما هي الفروض التكليفية في العبادات والعادات والموارث وغيرها، وبهذا المعنى تصح فيها التضمين والتثنية. وأما فروض الوراثة، فهي أقل من ذلك كله بالنسبة إلى علم الشريعة كلها؛ ويعين هذا المراد أن حُلَّ لفظ الفرائض على هذا الفن المخصوص أو

- 5 تخصيصه بفروض / الوراثة، إنما هو اصطلاح ناشئ للفقهاء عند حدوث الفنون والاضطرابات. ولم يكن صدر الإسلام يُطلق هذا اللفظ إلا على عموم، مشتقاً من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع. وما كان المراد [به]⁽¹⁾ في إطلاقه إلا جميع الفروض، كما قلناه. وهي حقيقة الشرعية. فلا ينبغي أن يُحمل إلا على ما كان يُحمل في عصرهم، فهو الأليق بمراهم منه. والله أعلم.

10 14 أصول الفقه وما يتعلق به من المحدثات والمخالفات

اعلم أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية [وأجلها قدراً وأكثرها فائدة]. وهو النظر في الأدلة الشرعية⁽¹⁾ من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف.

وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن، ثم السنة المبينة له. فعلى عهد النبي ﷺ كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن، ويبيّن بقوله 15 وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس. ومن بعده - صلوات الله عليه - تعذر الخطاب الشفاهي، وانحفظ القرآن بالتواتر. وأما السنة، فأجمع

(1) سقط من ط.

الصَّحَابَةُ - رضوانُ الله عليهم - على وُجوبِ العملِ بما يَصِلُ إلينا منها قولاً أو فعلاً
بالتَّوَلَّى الصَّحِيحِ الَّذِي يَغْلِبُ على الظَّنِّ صِدْقُهُ. وتَعَيَّنَتْ ذِلالَةُ الشَّرْعِ في الكتاب
والسُّنَّةِ بهذا الاعتبار.

ثُمَّ تَوَلَّى الإِجْمَاعُ مَنْزِلَتَهُمَا لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ على التَّكْريرِ على مُخَالَفَتِهِمْ^(١). ولا

يَكُونُ مِثْلُ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مُسْتَنَدٍ، لَأَنَّ مِثْلَهُمْ لَا يَتَّفِقُونَ عَنْ غَيْرِ دَلِيلٍ ثَابِتٍ، مع 5
شَهَادَةِ الْأَدْلَةِ بِعُضْمَةِ الْجَمَاعَةِ؛ فَصَارَ الإِجْمَاعُ دَلِيلًا ثَابِتًا فِي الشَّرْعِيَّاتِ.

ثُمَّ نَظَرْنَا فِي طُرُقِ اسْتِدْلَالِ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِذَا هُمْ
يُقَاسِمُونَ الْأَشْيَاءَ مِنْهَا^(ب) بِالأَشْبَاهِ، وَيُنَظِّرونَ الْأَمْثَالَ بِالأَمْثَالِ لِإِجْمَاعِ مِنْهُمْ،
وَتَسْلِيمِ [بَعْضِهِمْ]^(ج) لِبَعْضٍ فِي ذَلِكَ. فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ بَعْدَهُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ

عليه - لَمْ تَتَدْرَخْ فِي التَّصَوُّصِ / الثَّابِتَةِ، فَقَاسَمُوهَا بِمَا ثَبَّتَ، وَأَلْحَقُوهَا بِمَا نَصَّ عَلَيْهِ 10 [307 ب]

بَشْرُوطٍ فِي ذَلِكَ الْإِلْحَاقِ، يُصَحِّحُ بَلْكَ الْمَسَاوَةِ بَيْنَ الشُّبُهَيْنِ أَوْ الْمِثْلَيْنِ حَتَّى يَغْلِبَ
عَلَى الظَّنِّ أَنَّ حَكَمَ اللَّهِ فِيهَا وَاحِدٌ. وَصَارَ ذَلِكَ دَلِيلًا شَرْعِيًّا لِإِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ
الْقِيَاسُ، وَهُوَ رَابِعُ الْأَدْلَةِ.

وَاتَّفَقَ جِهَةٌ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ هِيَ أَصُولُ الْأَدْلَةِ، وَإِنْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِي

الإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ، إِلَّا أَنَّهُ شُدُودٌ. وَأَلْحَقَ بَعْضُهُمْ هَذِهِ [الْأَدْلَةَ]^(د) الْأَرْبَعَةَ، أَدْلَةً أُخْرَى 15
لَا حَاجَةَ بِنَا عَلَى ذِكْرِهَا، لِضَعْفِ مَذْرُوعِهَا^(هـ) وَشُدُودِ الْقَوْلِ بِهَا^(و).

(١) ظ: مخالفتهم (ب) من ط ج ي، وسقط من ع (ج) في ط: بعض (د) سقط من ط ع ي (هـ) من ط ج، وفي ع ي:
مذاركها (و) ي: فيها .

فكان من أول مباحث هذا الفن النظر في كَوْن هذه أدلة.

فأما الكتاب، فدليله المعجزة القاطعة في مثنيه، والتواتر في نقله. فلم يَبْقَ فيه مجال للاختيال.

وأما السُّنَّة وما نُقِلَ إلينا منها، فالإجماع على وجوب العمل بما يَصِحُّ منها، كما
5 قَدَمْنَا، معْتَصِداً بما كان عليه العمل في حياته - صلوات الله عليه - من إنفاذ الكتب
والرُّسُل إلى التَّوَّاحِي بالأحكام والشرائع آمراً وناهياً.

وأما الإجماع، فلاشاقهم - رضوان الله عليهم - على إنكار مُخَالَفَتِهِمْ، مع
العِصْمَةِ الثَّابِتَةِ لِلْأُمَّةِ.

وأما القياس، فبإجماع الصحابة - رضي الله عنهم - عليه كما قَدَمْنَاهُ.

هذه أصول الأدلة. 10

ثم إنَّ المنقولَ من السُّنَّةِ يحتاجُ إلى توضيحِ الخبرِ بالنظر في طُرُق الثَّقَلِ
وعَدالةِ التَّافِلِينَ، لتمييزِ الحالةِ الْمُخْصَلَةِ لِلظَّنِّ بِصِدْقِهِ الَّتِي هِيَ مَنَاطُ وَجُوبِ الْعَمَلِ
بِالْخَبَرِ. وهذه أيضاً من قَوَاعِدِ الْفَنِّ. ويلحق بذلك عند التَّعَارُضِ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ وَطَلَبِ
الْمُتَقَدِّمِ مِنْهَا مَعْرِفَةُ التَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ، وهي من فُصُولِهِ أيضاً وَأَبْوَابِهِ.

ثم بعد ذلك؛ يَتَعَيَّنُ النَّظَرُ فِي ذَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ. وذلك أنَّ استيفادة المعاني على 15

الإطلاق من تراكيب الكلام على الإطلاق، تَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَاتِ الْوَضْعِيَّةِ
مُفْرَدَةً وَمُرَكَّبَةً. والقوانينُ النَّسَابِيَّةُ فِي ذَلِكَ هِيَ عُلُومُ النَّخْوِ وَالتَّصْرِيفِ / وَالْبَيَانِ.
وحيث كان اللسانُ مُلْكَةً لِأَهْلِهِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ عُلُومًا وَلَا قَوَانِينًا، وَلَمْ يَكُنِ الْفَقِيهُ حِينَئِذٍ

بحُتاج إليها، لَأَنها جِبِلَّةٌ وَمَلَكَةٌ. فلَمَّا فَسَدَتِ الْمَلَكَةُ في لسانِ الْعَرَبِ، قَيَّدَها
الْجَاهِلِيَّةُ الْمُتَجَرِّدُونَ لذلك، بِثَقُلِ صَحِيحٍ وَمَقايِسِ مُسْتَنْبَطَةٍ صَحِيحَةٍ، وَصارتِ عِلْمُها
يَحْتَاجُ إليها الْفَقِيهُ في مَعْرِفَةِ أَحْكامِ اللَّهِ.

ثمَّ إِنَّ هُنا اسْتِفادَةَ أُخْرى خَاصَّةً مِنْ تراكيبِ الْكَلَامِ، وَهي اسْتِفادَةُ الْأَحْكامِ
الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَعاني مِنْ أدْلَتِها الْخَاصَّةِ بَيْنَ تراكيبِ الْكَلَامِ، وَهو الْفَقْهُ. وَلا تَكْفِي فِيهِ
5 مَعْرِفَةُ الدَّلالاتِ الْوَضْعِيَّةِ عَلى الْإِطْلاقِ، بَلْ لابدُّ مِنْ مَعْرِفَةِ أُمُورٍ أُخْرى تُتَوَقَّفُ
عَليها تلكَ الدَّلالاتُ الْخَاصَّةُ، وَها تُسْتَفادُ الْأَحْكامُ بِحَسَبِ ما أَصَلَ أَهْلُ الشَّرْعِ
وَجَهَابَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذلكَ، وَجَعَلُوهُ قَوانينَ لِهذهِ الْاسْتِفادَةِ؛ مِثْلُ أَنَّ اللَّغَةَ لا تُثَبِّتُ
قِيَاساً، وَالْمُشْتَرَكُ لا يُرادُ بِهِ مَعْنِيَةٌ مَعاً، وَالواوُ لا تُقْتَضِي التَّرتِيبَ، وَالْعامُّ إِذا أُخْرِجَتْ
أَفْرادُ الْخَاصِّ مِنْه هل يَنْتَبِئُ حُجَّةً فِما عَداها، وَالأَمْرُ لِلْوَجوبِ أَوِ التَّذَبُّبِ، وَلِلْقُصورِ أَوِ
10 التَّراخي، وَالنَّهْيُ يَقْتَضِي الْفَسادَ أَوِ الصَّحَّةَ⁽¹⁾، وَالْمُطْلَقُ هل يُحْمَلُ عَلى الْمُقَيَّدِ،
وَالنَّصُّ عَلى الْعِلَّةِ كافٍ في التَّعدي أَوِ لا؟ وَأَمثالُ ذلكَ. فَكانتِ كُلُّها مِنْ قَواعدِ هَذا
الْفَرْقِ. وَلَكِنْها مِنْ مَباحِثِ الدَّلالةِ كانَتْ لُغَوِيَّةً.

ثمَّ إِنَّ النِّظَرَ في الْقِياسِ مِنْ أَعْظَمِ قَواعدِ هَذا الْفَرْقِ. لَأَنَّ فِيهِ تَحْقِيقَ الْأَصْلِ
وَالفَرْعِ فِما يَمُنَّ بِأَسْئالِ مِنْ الْأَحْكامِ، وَتَتَقَيحُ الْوُصفُ الَّذِي يَغْلِبُ عَلى الظَّنِّ أَنَّ
15 الْحُكْمَ عُلِّقَ بِهِ في الْأَصْلِ مِنْ بَيْنِ أَوْصافِ ذلكَ الْحَلِّ، وَوُجُودَ ذلكَ الْوُصفِ في
الْفَرْعِ مِنْ غَيْرِ مُعارِضٍ يَمْنَعُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَليه، إِلى مَسائِلِ أُخْرى مِنْ تَواعِ
ذلكَ، كُلُّها قَواعدُ لِهَذا الْفَرْقِ.

(1) اِختِلافِ الْأَصولِيِّينَ كانَ في هَلِ النِّهْيِ يَقْتَضِي الْفَسادَ أَوِ الْبِطْلاقَ؟

واعلم أنّ هذا الفنّ من الفنون المُستَحْدَثَة في المِلَّة. وكان السَّلف في غِنْيَة

[308 ب]

عنه ، بما أنّ استفادة المعاني / من الألفاظ لا يُحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من
المَلَكَة اللّسانيّة . وأمّا القوانين التي يُحتاج إليها في استفادة الأحكام خصوصاً ،
فَعَنَّهُمْ أَخَذَ مُعْظَمُهَا. وأمّا الأسانيدُ، فلم يكونوا يُحتاجون إلى النظر فيها، لقُرْب العَصْرِ
5 ومُمارَسَةِ الثَّقَلَة وخِبْرَتِهِمْ بِهِمْ . فلَمَّا انْقَرَضَ السَّلفُ وَذَهَبَ الصَّدْرُ الأوَّلُ ، وانقلبت
العلومُ كُلُّهَا صناعيّةً، كما قرّرناه من قبلُ، احتاج الفقهاء والمُجتهدون إلى تحصيل
هذه القوانين والقواعد لاستفادة الأحكام من الأدلّة. فكتبوها فنّاً قائماً برأسه سَمَّوْهُ
أصولَ الفقه.

10 وكان أوَّل من كتب فيه الشافعيّ، رضي الله عنه، وأُملى فيه رسالته المشهورة،
تكلّم فيها في الأوامر والنواهي، والبيان، والخبر، والنسخ⁽¹⁾، وحُكِمَ العِلَّةُ المنصوصة
من القياس. ثمّ كَتَبَ فقهاء الحنفيّة فيه، وحَقَّقُوا تلك القواعد وأوسعوا القولَ فيها.

وكتب المتكلمون أيضاً كذلك؛ إلّا أنّ كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وألْيَقُ
بالفروع، لكثرة الأمثلة منها والشواهد، وبناء المسائل فيها على الثبوتِ الفقهيةِ.
والمُتَكَلِّمُونَ يُجَرِّدُونَ صَوْرَ تلك المسائل عن الفقه، ويميلون إلى الاستدلال العقليّ
15 ما أمكن، لأنّه^(ب) قالِبُ فنونهم ومُقتَضَى طريقتهم.

فكان لفقهاء الحنفيّة فيها يدٌ طوْلَى من الغوص على الثبوتِ الفقهيةِ والتقاط
هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن. وجاء أبو زيد الدبوسيّ، من أَيْمَنِهِمْ،

(أ) سقط من ج (ب) لأن العقل .

فكتب في القياس بأوسع من جميعهم، وتَمَّ الأبحاث والشروط التي يحتاج إليها فيه.
فكملت صناعة أصول الفقه بكماله، وتهذبت مسائله، وتمهّدت قواعده.

وعني الناس بطريقة المتكلمين فيه. وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون
كتاباً: البرهان لإمام الحرمين، والمستصفي للغزالي، وهما من الأشعرية، وكتاباً:
العقد⁽¹⁾ لعبد الجبار، وشرحه المغتمد لأبي الحسين البصري، وهما من / المعتزلة. 5 [309]
وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأزكاته.

ثم لخص هذه الكتب الأربعة فخلان من المتكلمين المتأخرين، وهما الإمام
فخر الدين ابن الخطيب في كتاب المَحْصول، وسيف الدين الآمدي في كتاب
الإحكام، واختلقت طرائقهما في الفن بين التحقيق والحجاج. فابن الخطيب أميل إلى
الاستكثار من الأدلة والاحتجاج، والآمدي مولع بتحقيق المذاهب وتفرع المسائل. 10
فأما كتاب المَحْصول، فاختصره تلميذ الإمام، مثل سراج الدين الأزموي في كتاب
التحصيل، وتاج الدين الأزموي في كتاب الحاصل. واقتطف شهاب الدين القرافي
منها مقدمات وقواعد في كتاب صغير سماه التنقيحات. وكذلك فعل البيضاوي
في كتاب المنهاج. وعني المبتدئون بهذين الكتابين، وشرّحهما كثير من الناس. وأما
كتاب الإحكام للآمدي، وهو أكثر تحقيقاً في المسائل، فلخصه أبو عمرو بن 15
الحاجب في كتابه المعروف بالمختصر الكبير؛ ثم اختصره في كتاب آخر تداوله
طلبة العلم، وعني أهل المشرق والمغرب بمطالعته وشرّحه. وحصلت زبدة طريقة
المتكلمين في هذا الفن، في هذه المختصرات.

(1) كذا في ظ ج ي، وهو الصحيح، وفي ع: العهد.

وأما طريقة الحنفية، فكتبوا فيها كثيراً. وكان من أحسن كتابة المتقدمين فيها،
توالمف أبي زيد الدبوسي، وأحسن توالمف^(١) المتأخرين توالمف سيف الإسلام
البرذوي، من أئمتهم، وهو مستوعب. وجاء ابن الساعاتي، من فقهاء الحنفية، فجمع
بين كتاب الإحكام وكتاب البرذوي في الطريقتين، وسوى كتابه بالبدع. فجاء من
أحسن الأوزاع وأندعها. وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولونه قراءة ونحاً؛ وولع كثير
5 من علماء العجم بشرحه. والحال على ذلك لهذا العهد.

* هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته وتعدد توالمف فيه^(ب) المشهورة
لهذا^(ج) العهد فيه. والله يتفطننا بالعلم ويجمعنا من أهله، بمتة.

/ وأما الخلافات، فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر
10 فيه الخلاف بين المجتهدين، باختلاف مداركهم وأنظارتهم، خلافاً لا بد من وقوعه لما
قدمناه. واتسع ذلك في الملة أساعاً عظيماً، وكان للمقلدين أن يقلبوا من شاءوا منهم.
ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من حسن
الظن بهم، اقتصر الناس على تقليدهم. ومنع من تقليد سواهم، لذهاب الاجتهاد
بصعوبته^(د) وتشتت العلوم التي هي موارده باتصال الزمان، وافتقار من يقوم على
15 سوى هذه المذاهب الأربعة. فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصولاً للملة، وأجري
الخلاف بين المتسكنين بها والآخرين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص
الشرعية والأصول الفقهية.

(١) في ج ي: كتابة (ب) في ج ي: التوالمف (ج) سقط ما بين النجمين من ظ (د) ي: لصورته.

وجرت بينهم المناظرات في توضيح كلٍّ منهم مذهب إماميه، تجري على أصولٍ صحيحة وظرائق قويمه، ويحتاج بها كلٌّ على صحة مذهبه الذي قلده وتمسك به، وأجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه، فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك، وأبو حنيفة يوافق أحدها. وتارة بين مالك وأبي حنيفة، أو الشافعي يوافق أحدها، وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة⁽¹⁾ ومالك يوافق أحدهما. 5 وكان في هذه المناظرات بيان ماخذ هؤلاء الأئمة ومثارا اختلافهم ومواقع اجتهادهم.

وكان هذا الصنف من العلم يُسمى بالخلافات. ولا بُدَّ لصاحبه من معرفة القواعد التي يوصلُ بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد. إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدليته. وهو لعفري علم جليل الفائدة في تعرّف ماخذ الأئمة 10 وأدلتهم ويران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه.

[1310] وتواليف الحنفية فيه^(ب) والشافعية / أكثر من تواليف المالكية. لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير من فروع مذهبهم، كما عرفت. فهم لذلك أهل النظر والبحث. وأما المالكية، فالأثر أكثر مُعْتَمِدِهِمْ وَلَيْسُوا بِأَهْلٍ نَظَر. وأيضاً، فأكثرهم أهل المغرب، وهم بادية عقل من الصنائع إلا في الأقل. 15

وللغزالي [رحمه الله]^(ج) فيه كتاب المأخذ، ولأبي بكر بن العربي، من المالكية، كتاب التلخيص، جلبه من المشرق، ولأبي زيد الدؤوبي كتاب التعلية، ولابن

(1) سقط من ظ (ب) سقط من ي (ج) من ي .

القَصَار، من شيوخ المالكيّة، عيّن الأدلة. وقد جمع ابن الساعاتي في مُختصره في أصول الفقه جميع ما يتبني عليها من الفقه الخلافيّ، مُدرجاً في كلّ مسألة منه ما يتبني عليها من الخلافيات.

وأما المجدل، وهو معرفته آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية 5 وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الردّ والقبول متّسعاً، وكلّ واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب مُرسِلَ عنانه في الاختجاج، ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأيّم أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول، وكيف يكون حال المُستدلّ والمُجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مُستديلاً، وكيف يكون مخصوماً منقطعاً، ومحلّ 10 اعتراضه أو مُعارضته، وأين يجب عليه الشكوت، ولخصه الكلام والاستدلال. ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال، التي يتوصّل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره.

وهي طريقان: طريقة البردويّ، وهي خاصّة بالأدلة⁽¹⁾ الشرعية من النص والإجماع والاستدلال. وطريقة القميديّ، وهي عامّة في كلّ دليل يُستدلّ به من أيّ علم كان، وأكثره استدلال. وهو من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس 15 الأمر كثيرة. وإذا اعتُبر بالنظر / المنطقيّ، كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي [310ب] والسوفسطائيّ. إلّا أنّ صور الأدلة والأفئسة فيه محفوظة مراعاةً يتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي.

(1) في ج ي : بالالة .

وهذا الغميدى هو أول من كتب فيها، ونُسبت الطريقة إليه، ووضع كتابه
المسمى بالإرشاد مختصراً. وتبعه من بعده من المتأخرين، كالشافعي وغيره، جاءوا
على أثره وسلكوا مسلكه. وكثرت في الطريقة التواليف، وهي لهذا العهد مهجورة
لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية؛ وهي مع ذلك كاليثة وليست ضرورية.
﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف، من الآية 21].

5

15 • عِلْمُ الْكَلَامِ

وهو علم يتضمّن الججاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرّد على
المبتدعة المخرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. فلنقدّم هنا لطيفة في بزهان عقلي
يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ، ثم نرجع إلى تحقيق علم الكلام
وفيما ينظر، ونشير إلى سبب حدوثه في الملة وما دعا إلى وضعه، فنقول:

اعلم أنّ الحوادث في عالم الكائنات، سواء كانت من الدّوات أو الأفعال البشريّة
أو الحيوانيّة، فلا بدّ لها من أسباب بهذا المعنى متقدّمة عليه، بها يقع في مُستقرّ
العادّة وعنها يتمّ كونه. وكلّ واحد من تلك الأسباب [حادث أيضاً، فلا بدّ له من
أسباب أخرى. ولا تزال تلك الأسباب]⁽¹⁾ مُزَيَّجَةٌ حتّى تنتهي إلى مُسبّب الأسباب
وموجدها وخالقها سبحانه، لا إله إلاّ هو. وتلك الأسباب في ارتقائها تتضاعف

15

(1) سقط من ط.

فَتَنْفَسُحُ طَوْلًا وَعَرْضًا، وَيَحَارُ الْعَقْلُ فِي إِدْرَاكِهَا وَتَعْدِيدِهَا. فَإِذَنْ، لَا يَخْصُرُهَا إِلَّا الْعِلْمُ الْمَحِيطُ، سَيِّمًا الْأَفْعَالُ الْبَشَرِيَّةَ وَالْحَيَوَانِيَّةَ. فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبَابِهَا فِي الشَّاهِدِ الْقُصُودَ وَالْإِرَادَاتِ، إِذْ لَا يَتِمُّ كَوْنُ الْفِعْلِ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَالْقَصْدِ إِلَيْهِ. وَالْقُصُودُ وَالْإِرَادَاتُ أُمُورٌ نَفْسَانِيَّةٌ نَاشِئَةٌ فِي الْغَالِبِ عَنْ تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ / يَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا. [311 أ]

5 وتلك التَّصَوُّرَاتُ هِيَ أَسْبَابُ قَصْدِ الْفِعْلِ. وَقَدْ تَكُونُ أَسْبَابُ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ تَصَوُّرَاتٍ أُخْرَى. وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ، فَمَجْهُولٌ سَبَبِيَّةً، إِذْ لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ عَلَى مَبَادِي الْأُمُورِ النَّفْسَانِيَّةِ وَلَا عَلَى تَرْتِيبِهَا. إِنَّمَا هِيَ أَشْيَاءٌ يُلْقِيهَا اللَّهُ فِي الْفِكْرِ، يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَالْإِنْسَانُ عَاجِزٌ عَنْ مَعْرِفَةِ مَبَادِيهَا وَغَايَاتِهَا. وَإِنَّمَا يُحِيطُ عِلْمًا فِي الْغَالِبِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ طَبِيعِيَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَتَقَعُ فِي مَدَارِكِنَا عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ، 10 لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ مَخْصُورَةٌ لِلنَّفْسِ وَتَحْتَ طَوْرِهَا. وَأَمَّا التَّصَوُّرَاتُ، فَيُطَاقُهَا أَوْسَعُ مِنَ النَّفْسِ، لِأَنَّهَا لِلْعَقْلِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ طَوْرِ النَّفْسِ. فَلَا تَكَادُ النَّفْسُ تُدْرِكُ الْكَثِيرَ مِنْهَا، فَضْلًا عَنِ الْإِحَاطَةِ.

وَتَأْتِلُ مِنْ ذَلِكَ حِكْمَةُ الشَّارِعِ فِي نَهْيِهِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ وَالْوُقُوفِ مَعَهَا. فَإِنَّهُ وَإِذْ يَهَيِّمُ فِيهِ الْفِكْرُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ بَطَائِلٌ، وَلَا يَنْظُرُ بِحَقِيقَةٍ⁽¹⁾. ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 91]. 15

وَرُبَّمَا انْقَطَعَ فِي وَقُوفِهِ عَنِ الِارْتِقَاءِ إِلَى مَا فَوْقَهُ، فَزَلَّتْ قَدَمُهُ وَأَصْبَحَ فِي الضَّالِّينَ الْهَالِكِينَ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْحِزْمَانِ وَالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ. وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ هَذَا الْوُقُوفَ أَوْ الرَّجُوعَ عَنْهُ^(ب) فِي قُدْرَتِكَ أَوْ اخْتِيَارِكَ، بَلْ هُوَ لَوْ يَخْصُلُ لِلنَّفْسِ، وَصَبْغَةٌ

(1) فِي ع: بِحَقِيقَتِهِ (ب) فِي ط ج ي، وَسَقَطَ مِنْ ع.

تَسْتَحْكِمُ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْأَسْبَابِ عَلَى نِسْبَةٍ لَا نَعْلَمُهَا، إِذْ لَوْ عَلِمْنَاهَا لَتَحَرَّزْنَا مِنْهَا. فَلْيَتَحَرَّزْ مِنْ ذَلِكَ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا جُمْلَةً.

- وأيضاً فوجهُ تأثيرِ هذه الأسبابِ في الكثير من مُسَبِّبَاتِهَا مَجْهُولٌ، لأنها إِنَّمَا يوقَّفُ عليها بِالْعَادَةِ، وقَضِيَّةُ الاقْتِرَانِ الشَّاهِدِ بِالِاسْتِنَادِ فِي الظَّاهِرِ، وَحَقِيقَةُ التَّأثيرِ وَكَيْفِيَّتُهُ، مَجْهُولَةٌ. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية 85]. 5
- فلذلك أَمَرْنَا بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا وَإِلْغَائِهَا جُمْلَةً، وَالتَّوَجُّهَ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ كُلِّهَا وَفَاعِلِهَا وَمُوجِدِهَا، لَتَرْسَخَ صَبْغَةُ التَّوْحِيدِ فِي النَّفْسِ عَلَى مَا عَلَّمْنَا / الشَّارِعُ الَّذِي [311ب]
- هُوَ أَعْرَفُ بِمَصَالِحِ دِينِنَا وَطُرُقِ سَعَادَتِنَا لِاطِّلاَعِهِ عَلَى مَا وَرَاءَ الْحِجَسِ. قَالَ ﷺ: (1):
- "مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ". فَإِنْ وَقَفَ عِنْدَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ، فَقَدْ انْقَطَعَ، وَحُقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْكُفْرِ. وَإِنْ سَبَحَ فِي بَحْرِ النَّظَرِ وَالبَحْثِ عَنْهَا وَعَنْ أَسْبَابِهَا 10
- وَتَأْثِيرَاتِهَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، فَأَنَا الضَّامِنُ لَهُ أَلَّا يَعُودَ إِلَّا بِالْخَبِيثَةِ. فَلِذَلِكَ نَهَانَا [الشَّارِعُ] (1)
- عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْأَسْبَابِ، وَأَمَرْنَا بِالتَّوْحِيدِ الْمُطْلَقِ. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

- وَلَا تَتَّقَنَّ بِمَا يَزْعُمُ لَكَ الْفِكْرُ مِنْ أَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَأَسْبَابِهَا،
- وَالْوُقُوفُ عَلَى تَفْصِيلِ الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَسَفَهِ رَأْيِهِ فِي ذَلِكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْوُجُودَ عِنْدَ كُلِّ 15

(1) فِي ظ وَحْدَهَا: الشَّرْعُ .

(1) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (26) مِنْ حَدِيثِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (4041) مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبِ الْأَنْصَارِيِّ، وَ 20 (79) مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ 5: 229، وَالنَّسَائِيُّ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ (1134)، وَابْنُ خُرَيْمَةَ فِي التَّوْحِيدِ 2: 787، وَابْنُ مَنْدَةَ فِي الْإِيمَانِ (94) .

مُذْرِكٍ فِي بَادئِ رَأْيِهِ أَنَّهُ مُنَحْصَرٌّ فِي مَدَارِكِهِ، لَا يَغْدُوهَا. وَالْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ. أَلَا تَرَى الْأَصَمَّ كَيْفَ يَنْحَصِرُ الْوُجُودَ عِنْدَهُ فِي الْمَحْسُوسَاتِ الْأَزْجِ وَالْمَعْقُولَاتِ، وَسَقَطَ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمَسْمُوعَاتِ؟ وَكَذَلِكَ الْأَعْمَى [الْأَكْمَه] ^(١) أَيْضاً، يَسْقُطُ مِنَ الْوُجُودِ عِنْدَهُ صِنْفُ الْمُرْتَبَاتِ، وَلَوْلَا مَا يُرْذَلُ إِلَى ذَلِكَ، تَقْلِيدُ الْآبَاءِ وَالْمَشْيِخَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِمُ وَالْكَافَّةِ لَمَا أَقْرَأُوا بِهِ. لَكِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكَافَّةَ فِي إثْبَاتِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ، لَا بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ وَطَبِيعَةِ إِدْرَاكِهِمْ. وَلَوْ سئِلَ الْحَيَوَانُ الْأَنْجَمَ وَنَطَقَ، لَوَجَدْنَاهُ مُذَكِّراً صِنْفَ الْمَعْقُولَاتِ، وَسَاقِطَةً لَدَيْهِ بِالْكَامِلَةِ.

وَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ، فَلَعَلَّ هُنَاكَ ضَرْباً مِنَ الْإِدْرَاكِ غَيْرِ مُذْرِكَاتِنَا ^(ب)، لِأَنَّ إِدْرَاكَاتِنَا ^(ج) مَخْلُوقَةٌ مُخَدَّتَةٌ، وَخَلَقَ اللَّهُ ﴿ أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [سورة غافر، 10 من الآية 57]، وَالْحَضَرُ مَجْهُولٌ، وَالْوُجُودُ أَوْسَعُ نِطَاقاً مِنْ ذَلِكَ. ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ [سورة البروج، الآية 20]. فَاتَّهَمُوا إِدْرَاكَكَ وَمُذْرِكَاتِكَ فِي الْحَضَرِ، وَاتَّبَعَ مَا أَمَرَ الشَّارِعُ بِهِ فِي اغْتِنَادِكَ وَعَمَلِكَ، فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَى سَعَادَتِكَ، وَأَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُكَ، لِأَنَّهُ مِنْ طَوْرِ فَوْقِ إِدْرَاكَكَ وَمِنْ نِطَاقٍ أَوْسَعُ مِنْ نِطَاقِ عَقْلِكَ. / وَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِي الْعَقْلِ وَمَدَارِكِهِ، بَلِ الْعَقْلُ مِيزَانٌ صَحِيحٌ، وَأَحْكَامُهُ يَقِينِيَّةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا. غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَقْلَعُ أَنْ تَرَى بِهِ أُمُورَ التَّوْحِيدِ وَالْآخِرَةِ، وَحَقِيقَةَ الثَّبُوتِ وَحَقَائِقَ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَكُلِّ مَا وَرَاءَ طَوْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ طَمَعٌ فِي مُحَالٍ. وَمِثَالُ ذَلِكَ مِثَالُ رَجُلٍ رَأَى الْمِيزَانَ الَّذِي يوزَنُ بِهِ الذَّهَبُ، فَطَمَعُ أَنْ يَرَى بِهِ الْجِبَالَ، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ فِي أَحْكَامِهِ

(١) مخرج خطه في ع، وسقط من ط ج ي (ب) في ظ: مدركاها (ج) ظ: إدراكها .

غيرُ صادقٍ، لكن للعقل حدٌ يقف عنده ولا يتعدى طوره، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته. فإنه ذرةٌ من ذرات الوجود الحاصل منه. وتغطّن من هذا الغلط من يُقدّم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه، فقد يتبيّن لك الحق من ذلك.

- 5 وإذا تبين ذلك ، فلعن الأسباب إذا تجاوزت في الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا، خزجت عن أن تكون مُدرّكة، فيضلّ العقل في بيداء الأوهام، ويحار ويتقطع. فإذن، التوحيد هو العجز عن إدراك الأسباب وكميّات تأثيراتها، وتفويض ذلك إلى خالقها المحيط بها، إذ لا فاعل غيره، وكلها ترتقي إليه وترجع إلى قدرته. وعلمنا به إنّما هو من حيث صدورنا عنه لا غير. وهذا هو معنى ما قيل عن بعض الصديقين: العجز عن [درك] ⁽¹⁾ الإدراك ⁽²⁾.
- 10

ثم إنّ المُعتبر في هذا التوحيد، ليس هو الإيمان فقط، الذي هو تصديق حكّمي، فإنّ ذلك من حديث النفس. وإنّما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس. كما أنّ المطلوب من الأعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والالتقاد، وتفرغ القلب من شواغل ما سوى المعبود، حتى ينقلب المريد السالك رباتياً.

15

(1) زيادة اقتضاها أصل النص ومعناه .

(2) عزّاه غير واحد هذا القول لأبي بكر الصديق، وما أظنّه قاله، فقول المؤلف: بعض الصديقين، أجود. وتمّ عزّاه إلى أبي بكر: الإسفرائيني في "التبصير في الدين" 160، والغزالي في "المقصد الأسنى" 54، وعلي القاري في "الرّد على من قال بوحدة الوجود" 1: 18، 74، 90.

والفرق بين الحال والعلم في العقائد ، فرق ما بين القول والاتصاف .

وشرحه، أن كثيراً من الناس / يعلم أن رحمة اليتيم والمساكين قربة إلى الله مندوب [312ب] إليها، ويقول [بذلك]⁽¹⁾ ويعترف به ويذكر ما أخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيمًا أو مسكيناً من أبناء المستضعفين لفر عنه واستنكف أن يباشره، فضلاً عن التمسح عليه للرحمة، وما بعد ذلك من مقامات العطف والحنو والصدقة. فهذا إنما حصل^(ب) له - من رحمة اليتيم - مقام العلم، ولم يحصل له مقام الحال والاتصاف. ومن الناس من يحصل [له] مع مقام العلم والاعتراف، بأن رحمة المسكين قربة إلى الله، مقام آخر أعلى من الأول، وهو الاتصاف بالرحمة وحصول ملكها. فمتى رأى يتيمًا أو مسكيناً بادر إليه ومسح عليه وأتمس الثواب في الشفقة عليه، لا يكاد يضرب عن ذلك ولو دفع عنه . ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده.

وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به. والعلم حاصل عن الاتصاف ضرورة، وهو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف. وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مراراً غير منحصرة، فتترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق، وبجيء العلم الثاني النافع في الآخرة. فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والتفع. وهذا علم أكثر الثُّظار، والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العبادة.

(1) من ع ج ي ، وسقط من ظ (ب) في ع: يحصل .

واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلف به إنما هو في هذا. فما طلب اعتقاده فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف، وما طلب عمله من العبادات، فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقق بها. ثم إن الإقبال على العبادات والمواظبة عليها هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة. قال عليه السلام (1) في رأس العبادات: "جعلت فرة عيني في الصلاة". فإن الصلاة صارت له صفة وحالاً يجذ 5 فيها منتهى لذته وقرّة عينه. وأين / هذه من صلاة الناس، ومن لهم بها ﴿قَوَّبِلَ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [سورة الماعون، الآيتان 4، 5]. اللهم وقّنا و ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [سورة الفاتحة، الآيتان 6، 7].

10 فقد تبين لك من جميع ما قرّناه، أن المطلوب في التكليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس، ينشأ عنها علم اضطراري للنفس، هو التوحيد، وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة، وأن ذلك سواء في التكليف القلبية أو البدنية. وتتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكليف كلها ويتبوعها هو بهذه المثابة، وأنه ذو مراتب: أولها، التصديق القلبي الموافق للسان، وأعلها 15 حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي وما يتبعه من العقل، مسئولية على القلب، فتستتبع الحوارخ، وتندرج في طاعتها جميع التصرفات، حتى تنخرط الأفعال كلها

(1) حديث حسن أخرجه أحمد في مسنده 3: 128، 199، 285، والنسائي في المجتبى 7: 61-62، والطبراني في المعجم الأوسط (5768)، وفي المعجم الصغير (741)، والحاكم في المستدرک 2: 160، والخطيب البغدادي في تاريخ مدينة السلام 14: 343 من حديث أنس بن مالك.

في طاعة ذلك المُصَدِّقِ الإِمَانِي. وهذا أرفع مراتب الإيمان، وهو الإيمان الكامل الذي لا يُقَارَفُ المؤمنُ معه كبيرة ولا صغيرة، إذ حصولُ المَلَكَةِ ورسوخها مانعٌ مع الانحراف عن مَنَهِجِهَا طَرَفَةً عَيْنٍ. قال ﷺ⁽¹⁾: "لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ". وفي حديث هِرْقُل⁽²⁾، لما سأل أبا سُفْيَانَ بنَ حَرْبٍ عن النَّبِيِّ ﷺ وأحواله، فقال في أصحابه: هل يَزْنِي أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لَدِينِهِ [بعد أن يَدْخُلَ فِيهِ]⁽³⁾؟ قال: لا. قال: وكذلك الإيمان حين تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ. وَمَعْنَاهُ أَنَّ مَلَكَةَ الإيمان إذا اسْتَقَرَّتْ عَسَرَ عَلَى النَّفْسِ [مُخَالَفَتُهَا]^(ب)، شَأْنَ الْمَلَكَاتِ إِذَا اسْتَقَرَّتْ، فَإِنَّهَا تَحْصُلُ بِمَثَابَةِ الْجِبَلَةِ وَالْفِطْرَةِ. وهذه هي الزَّيْنَةُ الْعَالِيَةُ مِنَ الْإِيمَانِ، وهي في الزَّيْنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعِصْمَةِ، لِأَنَّ الْعِصْمَةَ وَاجِبَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَجُوباً سَابِقاً، وهذه حَاصِلَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ حُصُولاً تَابِعاً لأَعْمَالِهِمْ وَتَصَدِيقِهِمْ.

فبهذه المَلَكَةِ ورسوخها يَفْعُ التَّفَاوُتُ فِي الْإِيمَانِ [الَّذِي]^(ج) يُتَلَى عَلَيْكَ / من أقاويل السَّلَفِ. وفي تراجم البخاري [رضي الله عنه]^(د) في باب الإيمان⁽³⁾، [313ب] كثيرٌ منه، مثل: أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ⁽⁴⁾، وأنه يَزِيدُ وَيَنْقُصُ⁽⁵⁾، وَأَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ

(1) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (ب) من ع، وفي ظ: مخالفتها (ج) كذا في ع، وفي ط ج ي: كالذي (د) من ي.

(2) في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري 3: 135، 178، 195، 204 حديث رقم (6810) ومسلم (57).

(3) قطعة من حديث هرقل الطويل الذي أخرجه البخاري في صحيحه (7) ومسلم (1773).

(4) هو أول كتاب في صحيح البخاري 1: 8.

(5) المصدر نفسه 1: 8.

(6) المصدر نفسه 1: 17.

من الإيمان⁽¹⁾، وَأَنَّ تَطَوُّعَ رَمَضَانَ من الإيمان⁽²⁾، والحياة من الإيمان⁽³⁾. والمراد بهذا كله الإيمان الكامل الذي أشرنا إليه وإلى حصول ملكيته، وهو فعلي. وأما التصديق الذي هو أول مراتبه، فلا تفاوت فيه. فمن اعتبر أوائل الأسماء، وحمله على التصديق، منع من التفاوت، كما قال أئمة المتكلمين، ومن اعتبر أواخر الأسماء وحمله على هذه الملكة التي هي الإيمان الكامل، ظهر له التفاوت. وليس ذلك بقادر 5 في اتحاد حقيقته الأولى التي هي التصديق، إذ التصديق موجود في جميع رتبته، لأنه أقل ما يتطلق عليه اسم الإيمان، وهو المختص من عهد الكفر، والفيصل بين الكافر والمؤمن. فلا يجزئ أقل منه، وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تفاوت. وإنما التفاوت في الحال الحاصلة عن الأعمال، كما قلناه؛ فافهمه.

10 واغلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذي في الرتبة الأولى الذي هو تصديق، وعين أموراً مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا، مع الإقرار بها بالسينتات، وهي العقائد التي تقرر في الدين. قال ﷺ حين سئل عن الإيمان، فقال⁽⁴⁾: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره". وهذه هي العقائد الإيمانية المبرزة في علم الكلام.

(1) صحيح البخاري 1: 16 .

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه 1: 12 .

(4) أخرجه مسلم في الإيمان (10) من حديث ابن عمر (8) بهذا اللفظ، وأخرجه بمثله أيضاً (10) من حديث أبي هريرة، وأخرجه هو (9) والبخاري في صحيحه 1: 19 حديث (50) من حديث أبي هريرة أيضاً، وليس فيه: وتؤمن بالقدر خيره وشره .

ولنُسِرَ إليها مُجْمَلَةٌ لِيَتَبَيَّنَ لَكَ حَقِيقَةُ هَذَا الْفَرَقِ وَكَيْفِيَةُ حُدُوثِهِ، فنقول: اعْلَمْ أَنَّ الشَّارِعَ لَمَّا أَمَرْنَا بِالْإِيمَانِ بِهَذَا الْخَالِقِ، الَّذِي رَدَّ الْأَفْعَالَ كُلَّهَا إِلَيْهِ، وَافْرَدَهُ بِهَا، كَمَا قَدَّمْنَاهُ، وَعَرَّفْنَا أَنْ فِي هَذَا الْإِيمَانِ نَجَاتًا إِذَا خَضَرْنَا عِنْدَ الْمَوْتِ، لَمْ يَعْرِفْنَا بِكُنْهِ حَقِيقَةِ هَذَا الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ، إِذْ ذَلِكَ مُتَعَدِّرٌ عَلَى إِذْرَاكَ / وَمِنْ قَوْصِ طَوْرُنَا. فَكَلَّفْنَا [1314]

5 أَوَّلًا اعْتِقَادَ تَثْبِيهِ فِي ذَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَإِلَّا لَمَّا صَحَّ أَنَّهُ خَالِقٌ لَهُمْ، لَعَدَمَ الْفَارِقِ عَلَى ذَلِكَ التَّشْدِيرِ. ثُمَّ تَثْبِيهِ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ، وَإِلَّا لِشَابَهَةِ الْمَخْلُوقِينَ. ثُمَّ تَوْحِيدِهِ [بِالْأُلُوْهِيَةِ]⁽¹⁾، وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ الْخَلْقُ لِلتَّمَانُعِ. ثُمَّ اعْتِقَادَ أَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ، فَبِذَلِكَ تَمَّ الْأَفْعَالَ شَاهِدَ أَفْضِيَّتِهِ، لِكَمَالِ الْإِبْدَادِ وَالْخَلْقِ. وَمُرِيدٌ، وَإِلَّا لَمْ يَتَخَصَّصْ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ. وَمُقَدَّرٌ لِكُلِّ كَائِنٍ، وَإِلَّا فَالْإِرَادَةُ حَادِثَةٌ. وَأَنَّهُ يَعِيدُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ، تَكْمِيلًا لِعِنَايَتِهِ بِالْإِبْدَادِ الْأَوَّلِ. وَلَوْ كَانَ لِلْفَنَاءِ الصَّرْفُ كَانَ عَثْبًا، فَهُوَ لِلْبَقَاءِ السَّرْمَدِيِّ بَعْدَ

10 الْمَوْتِ. ثُمَّ اعْتِقَادَ بَعْثِهِ الرُّسُلَ لِلتَّجَاةِ مِنْ شَقَاءِ هَذَا الْمَعَادِ، لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِهِ بِالشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ. وَعَدَمَ مَعْرِفَتِنَا بِذَلِكَ، وَتَمَامَ لُطْفِهِ بِنَا فِي الْإِنْبَاءِ بِذَلِكَ، وَبَيَانِ الطَّرِيقَيْنِ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ لِلتَّعِيمِ، وَجَهَنَّمَ لِلْعَذَابِ. هَذِهِ^(ب) أَمْهَاتُ الْعَقَائِدِ الْإِيمَانِيَّةِ، مُعَلَّلَةٌ بِأَدِلَّتِهَا الْعَقْلِيَّةِ. وَأَدِلَّتُهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرٌ.

15 وَعَنْ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ أَخَذَهَا السَّلَفُ، وَأَرْشَدَ إِلَيْهَا الْعُلَمَاءُ، وَحَقَّقَهَا الْأَيُّمَةُ. إِلَّا أَنَّهُ غَرَضٌ بَعْدَ ذَلِكَ خِلَافٌ فِي تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْعَقَائِدِ، أَكْثَرُ مَثَارِهَا مِنَ الْآيِ الْمُتَشَابِهَةِ. فَدَعَا ذَلِكَ إِلَى الْحِصَامِ وَالتَّنَازُلِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالْعَقْلِ، زِيَادَةً إِلَى الثَّقَلِ. فَحَدَثَ بِذَلِكَ عِلْمُ الْكَلَامِ. وَلِنُبَيِّنَ لَكَ تَفْصِيلَ هَذَا الْمُجْمَلِ.

(1) كَذَا فِي ع ج، وَفِي ط ي: بِالْإِبْدَادِ (ب) فِي ع: فَهَذِهِ.

وذلك أَنَّ القرآنَ وَرَدَ فيه وَصْفُ الْمَغْبُودِ بِالتَّنْزِيهِ الْمُنْطَلِقِ الظَّاهِرِ الدَّلَالَةُ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فِي آيٍ كَثِيرَةٍ. وَهِيَ سُلُوبٌ كُلُّهَا وَصَرِيحَةٌ فِي بَابِهَا. فَوَجِبَ الْإِيمَانُ بِهَا. وَوَقَعَ فِي كَلَامِ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تَفْسِيرُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا. ثُمَّ وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ آيٌ أُخْرَى قَلِيلَةٌ ، تَوْهَمُ التَّشْبِيهَ مَرَّةً فِي النَّاتِ ، وَآخَرَى فِي الصِّفَاتِ . فَأَمَّا السَّلَفُ ، فَغَلَّبُوا أُدِلَّةَ التَّنْزِيهِ لِكَثْرَتِهَا / وَوَضَّحُوا دَلَالَاتِهَا ، وَعَلِمُوا 5 اسْتِحَالَةَ التَّشْبِيهِ ، وَقَضَوْا أَنَّ الْآيَاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ، فَأَمَنُوا بِهَا وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِمَعْنَاهَا بِتَحْثٍ وَلَا تَأْوِيلٍ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ: أَمَرُوا⁽¹⁾ كَمَا جَاءَتْ، أَيْ: آمَنُوا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِتَأْوِيلِهَا وَلَا تَغْيِيرِهَا، لِجَوَازِ أَنْ تَكُونَ ابْتِلَاءً. فَيَجِبُ الْوَقْفُ وَالْإِدْعَاؤُ لَهُ.

وَشَدَّ لَتَضَرَّهُمْ مَبْتَدَعَةٌ اتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنَ الْآيَاتِ • وَتَوَعَّلُوا فِي التَّشْبِيهِ⁽²⁾ ، 10 ففَرَّقُوا شَبَّهُوا فِي النَّاتِ بِاعْتِقَادِ الْيَدِ وَالْقَدَمِ وَالْوَجْهِ ، عَمَلًا بِظَوَاهِرِ وَرَدَتْ بِذَلِكَ. فَوَقَّعُوا فِي التَّجْسِيمِ الصَّرِيحِ وَمُخَالَفَةِ آيِ التَّنْزِيهِ. لِأَنَّ مَعْقُولِيَّةَ الْجِسْمِ تَقْتَضِي الثَّقُصَ وَالْإِفْتِقَارَ. وَتَغْلِيْبُ^(ب) آيَاتِ السُّلُوبِ فِي التَّنْزِيهِ الْمُنْطَلِقِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ مَوَارِدَ وَأَوْضَحُ دَلَالَةٍ ، أَوَّلَى مِنْ^(ب) التَّغْلُقِ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الَّتِي لَنَا غُثْيَةٌ عَنْهَا^(ج) ، وَجَمَعَ بَيْنَ التَّلِيلَيْنِ بِتَأْوِيلِهَا. ثُمَّ يَقْرَءُونَ مِنْ شِنَاعَةِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: جَسَمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ. وَلَيْسَ ذَلِكَ 15 بِدَافِعٍ عَنْهُمْ ، لِأَنَّهُ قَوْلٌ مُتَنَاقِضٌ ، وَجَمَعَ بَيْنَ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ ؛ إِنْ كَانَا لِمَعْقُولِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ

(1) سقط ما بين البجيين من ع (ب) ما بين الباءين حاشية في ع بخطه (ج) سقط من ط ي ج .

(2) استعملها سفيان بن عيينة في الأخبار عن الصفات (الْمَزَيِّ: تهذيب الكمال 1: 514) والزهرري ومكحول (الذهبي: سير أعلام النبلاء 5: 162، 7: 247) ومالك والثوري والليث والأوزاعي (تذكرة الحفاظ 1: 304).

الجِسم، وإن خالفاً بينها وثقياً المعقوليّة المتعارفة فقد وافقونا في التنزيه. ولم يبق إلا جفّلهم لفظَ الجسم اسماً من أسمائه، ويتوقّف مثله على الأذن. وفريقٌ منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات، كإثبات الجهة والاستواء والتزول والصّوب والحزب، وأمثال ذلك. وآل قولهم إلى التّجسيم، فنزّعوا مثل الأولين إلى قولهم: صوت لا كالأصوات، جهة لا كالجّهات، نزول لا كالنزول، ينعنون من الأجسام. واندفع ذلك بما دُفع [به] ^(أ) الأول. ولم يبق في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم، والإيمان بها كما هي، لئلا يكثر التّقي لمعانيها على ثقيها مع أنّها صحيحة ثابتة من القرآن. وإلى هذا ينظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد، وكتاب / المختصر [1315] له، وفي كُتب الحافظ ابن عبد البر، وغيرهم. فإنّهم يؤمّون على هذا المعنى. ولا تُغيض عينك عن القرائن الدّالة على ذلك في عُضون كلامهم.

ثمّ لما كثرت العلوم والصنائع، وولّع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء، وآلف المتكلّمون في التنزيه، حدّث بدعة المغترّة في تعميم هذا التنزيه في أي السّلوب. فقصّوا بتّني صفات المعاني، من العلم والقُدرة والإرادة والحياة، زائدة على أحكامها، لما يلزم عن ^(ب) ذلك من تعدّد القديم برغمهم. وهو مردود بأنّ الصفات ليست نفس الذات ولا غيرها. وقصّوا بتّني صفة الإرادة، فلزمهم نفي القدر، لأنّ معناه سبق الإرادة للكائنات. وقصّوا بتّني السّمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام، وهو مردود بأنّ الصفات ليست نفس الذات ولا غيرها. وقصّوا

(أ) من ع وحدها (ب) ع: على .

بتفي صفة الإرادة، فَلَزِمَهُمْ نفي القدر، لأنَّ مَعْنَاهُ سَبْقُ الإرادة للكائنات. وقَضُوا
 بتفي السَّمْعِ والبَصَرِ لكونها من عوارض الأجسام، وهو مردودٌ لعدم اشتراط البنية
 في مَذلول هذا اللَّفْظ، وإنَّما هو إدراكٌ للمسموع أو المُبْصِر. وقَضُوا بتفي الكلام
 لشيء ما في السَّمْعِ والبَصَرِ، ولم يَقُولُوا صفة الكلام التي تقوم بالنفس، فقَضُوا بأنَّ
 5 القرآن مخلوقٌ؛ بدعةٌ صَرَّحَ السَّلف بِجَلالِها. وعَظُمَ ضررُ هذه البدعة، وَلَقِئَها بعضُ
 الخلفاء عن بغضِ أَيْمَتِهِم، فَحُمِلَ عليها النَّاسُ، وَخالفَهُم أَيْمَةُ الدِّينِ ⁽¹⁾، فاستباح
 بِجَلالِهم أَبْشارَ كثيرٍ مِنْهم ودماءَهم. وكان ذلك سَبَباً لانتهاضِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِالْأدِلَّةِ
 العقلية على هذه العقائد دُفْعاً في صُذور هذه البدع. وقام بذلك الشَّيْخُ أَبُو الحَسَنِ
 الأشْعَرِيُّ، إمامُ المتكلمين، فتوسَّطَ بين الطُّرُق، ونفى التشبيه، وأثبت الصفات
 10 المعنوية، وقصر التَّزْيِيَةَ على ما قَصَرَهُ عليه السَّلف. وشهدت له الأدلةُ المُخَصَّصةُ
 لعمومه، فأثبت الصفات الأربعة المعنوية، والسَّمْعَ والبَصَرَ والكلامَ القائمَ بالنفس،
 بطريق العقل والتَّقل. وردَّ على المُبتدعة في ذلك كُلِّه. وَكَلَّمَ معهم فيا مَهْدُوهُ لهذه
 البدع من القول بالصلاح والأصلح، والتَّحْسِينِ والتَّشْبِيح. وَكَلَّمَ العقائد في البُغْثَةِ،
 وَأُخْوالِ / المعادِ، والجَنَّةِ والنَّارِ، والثَّوابِ، والعقاب. وألحق بذلك الكلام
 [315ب] في الإمامة، لما ظَهَرَ حينئذٍ من بدعة الإمامية في قولهم: إنَّها من عقائد الإيمان،
 15 وإنَّها يجبُ على النَّبيِّ تَعْيِينُها والخروجُ عن العَهْدَةِ فيها لمن هِيَ لَهُ، وكذلك على
 الأئمة.

(1) ي: السلف.

وقصارى أمر الإمامة أنها قضية مصلحية إجماعية، ولا تلحق بالعقائد؛ فلذلك
الحقوها بمسائل هذا الفن.

وسموا مجموعته علم الكلام، إما لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلام
صرف، وليست براجعة إلى عمل. وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم
5 في إثبات الكلام التفسافي.

وكثر أتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري، واقتفى طريقته من بعده تلميذه،
كبن مجاهد وغيره. وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني، فنصّر للإمامة في
طريقته، وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار في
ذلك، مثل إثبات الجوهر الفرد، والحلاء، وأن الغرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا
10 يتبقى زمنين، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم. وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد
الإيمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة عليها، وأن بطلان الدليل يؤذن
ببطلان المذلول. فكلمت هذه الطريقة، وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم
الدينية. إلا أن صور الأدلة فيها بعض الأحيان على غير الوجه الصناعي، لسناجة
القوم، ولأن صناعة المنطق التي تسبر بها الأدلة وتعتبر بها الأقيسة، لم تكن حينئذ
15 ظاهرة في الملة. ولو ظهر منها بعض الشيء فلم⁽¹⁾ يأخذ بها المتكلمون، للملاستها
للعلوم الفلسفية المبانيّة لعقائد الشرع بالجملة. فكانت عندهم مجورة لذلك. ثم جاء
بغذ القاضي أبي بكر من أئمة الأشعرية، إمام الحرمين أبو المعالي، وأملى في الطريقة

(1) ع. لم .

كتاب الشامل، وأوسع⁽¹⁾ القول فيه. ثم لخصه في كتاب الإرشاد. واتخذ الناس
 إماماً لعقائدهم. ثم انتشر من بعد ذلك علم المنطق / في الملة، وقرأه الناس، وفرقوا
 بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومغيار للأدلة فقط، تُشبر به الأدلة منها
 كما تُشبر من سواها. ثم نظروا في تلك القواعد المقدمات في فن الكلام للأقدمين،
 فخالفوا الكثير منها بالبراهين التي أدّعاهم إلى ذلك. وربما أن كثيراً منها مُقتبس من
 5 كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات. فلما سبروها بمغيار المنطق زدّهم إلى ذلك
 فيها، ولم يقتدوا بطلان المدلول من بطلان دليله، كما صار إليه القاضي.
 فصارت هذه الطريقة في مضطلّجهم مباينة للطريقة الأولى، وتُسمى طريقة
 المتأخرين. وربما أدخلوا فيها الردّ على الفلاسفة فيما يُخالفون فيه من العقائد الإيمانية،
 وجعلوهم من خصوم العقائد، لتناسب الكثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم.
 10

وأوّل من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي (رحمه الله)^(ب)
 وتبعه الإمام ابن الحطّيب، وجماعة فقلّوا أثرهم واعتمدوا تقليدهم. ثم توغلّ المتأخرون
 من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة، والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين،
 فحسبوه فيها واحداً من اشتباه المسائل فيها.

واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلّون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على
 15 وجود الباري وصفاته، وهو نوع استدلالهم غالباً، والجسم الطبيعي الذي يتنظر فيه
 الفيلسوف في الطبيعيات هو بعض من هذه الكائنات. إلا أن نظره فيها مخالف

(1) ع: وسع (ب) من ي.

لنَظَرِ المتكَلِّم، هو يَنْظُرُ في الجِسم من حيثُ يَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ، والمتكَلِّمُ يَنْظُرُ فيه من حيثُ يَدُلُّ على الفاعِل. وكذا نَظَرَ الفَيْلَسُوفُ في الإلهِيَّاتِ، إِنَّمَا هو نَظَرٌ في الوجودِ المُطْلَقِ وما يَتَقَضِيهِ لِدَائِهِ، ونَظَرَ المتكَلِّمُ في الموجودِ من حيثُ يَدُلُّ على الموجدِ.

5 وبالجملة، فموضوعُ عِلْمِ الكلامِ عندَ أَهْلِهِ إِنَّمَا هو العقائِدُ الإيمانيَّةُ بعد / فرضها [316ب] صحيحةً من الشرع، من حيثُ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهَا بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، فَتُدْفَعُ الْبَدْعُ وَتُرَالُ الشُّكُوكُ وَالشُّبُهَةُ عَنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ.

10 وإذا تأملتَ حالَ القَرَنِ في حُدُوثِهِ وكيف تَدْرَجُ كَلَامُ النَّاسِ فِيهِ صُدْرًا بعد صُدْرٍ، وَكُلُّهُمْ يَقْرِضُ الْعَقَائِدَ صَحِيحَةً وَيَسْتَنْهِضُ الْحُجَجَ وَالْأَدِلَّةَ، عِلِمَتْ حِينَئِذٍ صِحَّةُ مَا قَرَرْنَاهُ لَكَ فِي مَوْضِعِ الْقَرَنِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْدُو. وَلَقَدْ اخْتَلَطَتِ الطَّرِيقَتَانِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَالتَّبَسَّثَ مَسَائِلُ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ، بِحَيْثُ لَا يَتَجَيَّرُ أَحَدُ الْفَنِيِّينَ مِنَ الْآخَرِ، وَلَا يُحْصَلُ طَالِبُهُ عَلَيْهِ مِنْ كُنْهِمُ، كَمَا فَعَلَهُ الْبَيْضَاوِيُّ فِي الطَّوَالِغِ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَجَمِ فِي جَمِيعِ تَوَالِيْفِهِمْ.

15 إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ قَدْ يُعْنَى بِهَا بَعْضُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، لِلإِطْلَاعِ عَلَى الْمَذَاهِبِ وَالْإِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ الْحِجَاجِ لَوْفُورِ ذَلِكَ فِيهَا. وَأَمَّا مُحَازَةُ طَرِيقَةِ السَّلَفِ بِعَقَائِدِ عِلْمِ الْكَلَامِ، فَإِنَّمَا هُوَ ⁽¹⁾ فِي الطَّرِيقَةِ الْقَدِيمَةِ لِلْمُتَكَلِّمِينَ، وَأَصْلُهَا كِتَابُ الْإِرْشَادِ وَمَا حَذَا

(1) ع: هي.

حَذُوهُ. ومن أراد إدخال الردّ على الفلاسفة في عقائده، فعليه بكتب الفرائي والإمام
ابن الخطيب، فإنّها وإن وُقِعَ فيها مُخَالَفَةٌ للاضطلاح القديم، فليس فيها من
الاختلاط في المسائل والالتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخّرين من
تقدّمهم.

- 5 وعلى الجُملة، فينبغي أن تعلّم أنّ هذا العلم الذي هو علم الكلام غير
ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ المُلجدة والمُبتدعة قد انقَضُوا، والأَيمة من
أهل السُنّة كفّونا شأنهم فيما دَوّنوا وكتبوا. والأدلة العقلية، إنّما احتيج إليها لما دافعوا
ونصروا. وأما الآن، فلم يبقَ منها إلّا كلامٌ يَزِرُّ البارئ عن الكثير من إيهاماته
وإطلاقاته. ولقد سأل الجنيّد عن قوم مرّ بهم من المتكلمين يُفيضون فيه، فقال: ما
هؤلاء ؟ فقيل : قومٌ يَزْهون / الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص. 10 [1317]
فقال ⁽¹⁾ : نفى العيب حيث يستحيل العيب عيبٌ . لكن فائدتَه في أحاد الناس
وطلبة العلم فائدة مُغْتَبَرَةٌ ، إذ لا يَحْسُنُ بجامل السُنّة الجهلُ بالحجج النظرية على
عقائدها. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 68].

(1) نقل المقرئ من كتاب المحاضرات لجده، قوله: قيل لصوفي: لم تقول الله الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟
فقال: نفى العيب حيث يستحيل العيب عيبٌ (نفع الطيب 5: 385).

16 ﴿فَصَلِّ﴾، فِي كَشَفِ الْغَطَاءِ عَنِ الْمُتَشَابِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،
وَمَا حَدَّثَ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ طَوَائِفِ السُّنَّةِ وَالْبَتْدَعَةِ فِي الْأَعْتِقَادَاتِ

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ إِلَيْنَا نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ، يَدْعُونَا إِلَى النَّجَاةِ وَالْفَوْزِ
بِالتَّعَمُّقِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ بِاللِّسَانِ الْغَرِيْبِ الْمُبِينِ، يُخَاطِبُنَا فِيهِ بِالتَّكْلِيفِ
5 الْمُفْضِيَةِ بِنَا إِلَى ذَلِكَ. وَكَانَ فِي خِلَالِ هَذَا الْخِطَابِ وَمِنْ ضَرُورَاتِهِ ذِكْرُ صِفَاتِهِ
سُبْحَانَهُ وَأَسْمَائِهِ لِيَعْرِفُنَا بِذَاتِهِ، وَذِكْرُ الرُّوحِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِنَا، وَذِكْرُ الْوُحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ
الْوَسَائِطِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُسُلِهِ إِلَيْنَا، وَذَكَرَ لَنَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَإِنْذَارَاتِهِ، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَنَا الْوَقْتَ
فِي شَيْءٍ مِنْهَا. وَبُكِّتَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حُرُوفٌ مِنَ الْهَجَاءِ مُقَطَّعَةٌ فِي أَوَّلِ بَعْضِ
سُورِهِ لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى فَهْمِ الْمُرَادِ بِهَا. وَنَمَى هَذِهِ الْأَنْوَاعُ كُلُّهَا مِنَ الْكِتَابِ مُتَشَابِهَةٌ وَدَمَ
10 عَلَى اتِّبَاعِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَكِّمُتُ مِنْ أَمْرِ
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ
الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا
بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران، الآية 7]. وَحَمَلَ
الْعُلَمَاءُ مِنْ سَلَفِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى أَنَّ الْحِكْمَاتِ هِيَ الْمَبْنِيَّاتُ الثَّابِتَةُ
15 الْأَحْكَامُ. وَلِذَلِكَ قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي اضْطِلَالِهِمُ: الْمُحْكَمُ، الْمُتَضَخُّ الْمَغْنَى⁽¹⁾. وَأَمَّا
الْمُتَشَابِهَاتُ فَلَهُمْ فِيهَا عِبَارَاتٌ، فَقِيلَ: هِيَ الَّتِي تَفْتَقِرُ إِلَى نَظَرٍ وَتُسِيرٍ يُصَحِّحُ مَعْنَاهَا

(1) هَذَا الْفَصْلُ انْفَرَدَتْ بِهِ نَسْخَةُ ع، وَلَمْ يَرِدْ فِي ط ح ي .

(1) لَعَلَّه نَقَلَهُ مِنَ الْمَحْرَرِ الْوَجِيزِ 1: 43، وَهُوَ فِي تَفْسِيرِ الْبَغْوِيِّ 1: 279، وَتَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ 4: 11 .

لتعاضدها مع آية أخرى أو مع العقل، فتخفى دلالتها وتشبهه. وعلى هذا قال ابن عباس⁽¹⁾: **الْمُتَشَابِهُ يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ**. وقال مجاهد وعكرمة: **كُلُّ مَا سَوَى آيَاتِ الْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ مُتَشَابِهٌ**. وعليه القاضي أبو بكر، وإمام الحرمين⁽²⁾. وقال الثوري والشعبي وجاعة من علماء السلف: **الْمُتَشَابِهُ مَا لَمْ يَكُنْ سَبِيلًا إِلَى عِلْمِهِ، كَشُرُوطِ السَّاعَةِ، وَأَوَاقَاتِ الْإِنذَارَاتِ، وَحُرُوفِ الْهَجَاءِ فِي أَوَائِلِ الشُّورِ**⁽³⁾. وقوله في الآية: 5 **﴿ هُنَّ أُمَّ الْكَتَّابِ ﴾** أي: معظمه وغالبيه، والمتشابه أقله، وقد يردُّ إلى المخكم. ثم دَمَّ المتبعين للمتشابه بالتأويل، أو بحملها على معانٍ لا تفهم منها في لسان العرب الذي حوطينا به، وسمَّاهم أهل رَيع، أي مِيلَ عن الحق من الكُفَّار والزنادقة وخملة أهل البدع، وأن فعلهم ذلك قصدًا للفِتنة التي هي الشُّرك أو اللُّبْس على المؤمنين، أو قصدًا لتأويلها بما يشتهونه، فيفتنون⁽⁴⁾ به في بدعتهم. ثم أخبر سبحانه بأنه استأثر 10 بتأويلها ولا يعلمه إلا هو، فقال: **﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾**. ثم أتى على العلماء بالإيمان بها فقط، فقال: **﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ﴾** ولهذا جعل السلف **﴿ وَالرَّاسِخُونَ ﴾** مُستأثَرًا، ورجَّحوه على العطف، لأنَّ الإيمان بالغيب أبلغ في النقاء، ومع عطفه إنما يكون إيمانًا بالشاهد، لأنهم يعلمون التأويل حينئذ فلا

(1) وردت في ع محلة غير مقرومة .

(1) تفسير ابن حاتم 2: 593، وتفسير الطبري 3: 172، والبر المنثور للسيوطي 2: 144 .

(2) المحرر الوجيز 1: 400، وتفسير النعلبي 3: 10، البر المنثور 2: 145 .

(3) نقله من المحرر الوجيز 1: 401 لأنه لم يذكر الأسماء غيره. وهو في تفسير الطبري 3: 174، وتفسير البغوي

1: 279، وأحكام القرآن للجصاص 2: 283 .

يَكُونُ غَيْبًا . وَيَقْصُدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ كُلُّ مَن عِنْدَ رَبِّنَا ﴾ . ويدلّ على أنّ التَّأْوِيلَ فيها غيرُ معلومٍ للبشر، إذ الألفاظُ اللَّغَوِيَّةُ إِنَّمَا يُفْهَمُ منها المعاني الَّتِي وَضَعَهَا العربُ لها، فإذا استحالَ إسنَادُ الْحَبَرِ إلى مُخْبِرٍ عنه حَجَلْنَا مدلولَ الكلام حينئذٍ. وإن جَاءَنَا من عند الله فَوْضُنَا عِلْمَهُ إِلَيْهِ، ولا نَشْغَلُ أَنْفُسَنَا بِمَدْلُولِ نَلْتَمِسُهُ لَهُ ؛ فلا سَبِيلَ لَنَا إلى ذلك . وقد قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : إذا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ 5 في الْقُرْآنِ ، فَهَمُّ الَّذِينَ عَنِ اللهِ ، فَاحْذَرُوهُمْ⁽¹⁾ . هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ فِي الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ . وَجَاءَ فِي السَّنَةِ أَلْفَاظٌ مِثْلُ ذَلِكَ ، مَحْمَلُهَا⁽²⁾ عَنْهُمْ مَحْمَلُ الْآيَاتِ ، لِأَنَّ الْمَنْعَ وَاحِدًا .

وإذا تَقَرَّرَتْ أَصْنَافُ الْمُتَشَابِهَاتِ عَلَى مَا قُلْنَا، فَلتَرْجِعْ إلى اخْتِلَافِ النَّاسِ 10 فِيهَا . وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ مِنْهَا عَلَى مَا ذَكَرُوهُ إِلَى السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا وَأَوْقَاتِ الْإِنْذَارَاتِ ، وَعِدِّ الزَّيَانَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَلَيْسَ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، مِنَ الْمُتَشَابِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِيهِ لَفْظًا مُحْتَمَلٌ وَلَا غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا هِيَ أَزْمَنَةُ لِحَادِثَاتِ اسْتَأْثَرِ اللهُ بِعِلْمِهَا بَنَصَّهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ⁽²⁾ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 187]. وَالْعَجَبُ مِمَّنْ عَدَّهَا فِي الْمُتَشَابِهِ . وَأَمَّا الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ أَوَّلَ السُّورِ فَحَقِيقَتُهَا حُرُوفُ 15 الْهَجَاءِ ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ مُرَادَةً . وَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ⁽³⁾ : فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى بَعْدِ

(1) ع: مجملها .

(1) هو في الصحيحين : البخاري (4547) ومسلم (1665) .

(2) ينظر مثلاً، البخاري 1: 20 حديث (50)، ومسلم (10) و (14) .

(3) الكشف 1: 69 -

الغاية في الإعجاز، لأن القرآن المنزل مؤلف منها، والبشر فيها سواء، والتفاوت موجود في دلالتها بعد التأليف. وإن عدل عن هذا الوجه الذي تضمن الدلالة على الحقيقة، فإنما يكون بنقل صحيح، كقولهم في قوله ﷻ: إنه ندا من طاهر وهادي، وأمثال ذلك، والنقل الصحيح مُتَعَدَّر، فيجوز التشابه من هذا الوجه. وأما الوحي والملائكة والروح والجن فاشتباهاً من خفاء دلالتها الحقيقية، لأنها غير متعارفة، فجاء التشابه فيها من أجل ذلك. وقد أُلْحَقَ بعض الناس بها كل ما في معناها من أحوال القيامة والجنة والنار والدجال والفتن والشروط، وما هو بخلاف العوائد المألوفة؛ وهو غير بعيد؛ إلا أن الجمهور لا يوافقونهم عليه، وسيما المتكلمون، فقد عَيَّنوا محامليها على ما تراه في كتبهم. ولم يَتَّقَ من التشابه إلا بالصفات التي وصف الله بها نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه مما يُوهَمُ ظاهره نقصاً أو تعجيزاً. وقد 10 اختلف الناس في هذه الظواهر من بعد السلف الذين قررنا مذهبهم، وتنازعوا وَطَرَقَتِ الْبِدْعُ إِلَى الْعَقَائِدِ. فَلَنُشِيرَ إِلَى بَيَانِ مَذْهَبِهِمْ وَإِثَارِ الصَّحِيحِ مِنْهَا عَلَى الْفَاسِدِ، فنقول، وما توفيقي إلا بالله:

أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ بِأَنَّهُ عَالِمٌ قَادِرٌ مَرِيدٌ حَيٌّ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتَكَلِّمٌ جَلِيلٌ كَرِيمٌ جَوَادٌّ مُنِيعٌ عَزِيزٌ عَظِيمٌ؛ وَكَذَلِكَ أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْبَدْنَ 15 وَالْعَيْنَيْنِ وَالْوَجْهَ وَالْقَدَمَ وَالسَّاقَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. فَهِيَ مَا يَقْتَضِي (١) صَحَّةَ الْأُلُوهِيَّةِ مِثْلَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ ثُمَّ الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ شَرْطُ جَمِيعِهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ

(١) في ع: يقتضي .

صِفَةُ الْكَمَالِ كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ. وَمِنْهَا مَا يُوهِمُ التَّقْصُّ كَالِاسْتِواءِ وَالتَّزَوُّلِ
وَالْمَجِيءِ، وَكَالْوَجْهِ وَالتَّيْدَيْنِ وَالْعَيْنَيْنِ الَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْمُخْذَنَاتِ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَا نَرَى
رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا نُضَامُ فِي رُؤْيَتِهِ.

فَأَمَّا السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، فَأَثْبَتُوا لَهُ صِفَاتِ الْأُلُوْهِيَّةِ وَالْكَمَالِ
5 وَفَوَّضُوا إِلَيْهِ مَا يُوْهَمُ التَّقْصُّ سَاكِنِينَ عَنْ مَذَلُولِهِ. ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِمْ،
وَجَاءَ الْمُعْتَرِةُ فَأَثْبَتُوا هَذِهِ الصِّفَاتِ أَخْكَاماً ذَهْنِيَّةً مُجَرَّدَةً، وَلَمْ يُثْبِتُوا صِفَةً تَقُومُ لِذَاتِهِ،
وَسَمَّوْا ذَلِكَ تَوْحِيداً. وَجَعَلُوا الْإِنْسَانَ خَالِقاً لِأَفْعَالِهِ وَلَا تَعَلَّقُوا بِهَا قُدْرَةَ اللَّهِ، سَيِّئاً
الشَّرُّورُ وَالْمَعَاصِي مِنْهَا، إِذْ يَمْتَنِعُ عَلَى الْحَكِيمِ فَعْلُهَا. وَجَعَلُوا مِرَاعَاةَ الْأَضْلَحِ لِلْعِبَادِ
وَاجِبَةً عَلَيْهِ، وَسَمَّوْا ذَلِكَ عَذْلاً، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَوَّلَ يَقُولُونَ بِنُفْيِ الْقَدْرِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ
10 مُسْتَأْتَفٌ بِعِلْمِ حَادِثٍ وَقُدْرَةِ إِرَادَةٍ كَذَلِكَ كَمَا وَزَدَ فِي الصَّحِيحِ⁽¹⁾، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ
عُمَرَ تَبَرَّأَ مِنْ مَغْبَدِ الْجَهَنِّيِّ وَأَصْحَابِهِ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ. وَانْتَهَى نُفْيُ الْقَدْرِ إِلَى وَاصِلِ بْنِ
عَطَاءٍ الْغَزَالِ مِنْهُمْ تَلْمِيزِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ لِعَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، ثُمَّ آخِراً إِلَى مَغَمَرِ
السُّلَمِيِّ، وَرَجَعُوا عَنِ الْقَوْلِ بِهِ. وَكَانَ مِنْهُمْ أَبُو الْهَذِيلِ الْغَلَّافُ، وَهُوَ شَنِخُ الْمُعْتَرِةِ،
أَخَذَ الطَّرِيقَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ خَالِدِ الطَّوِيلِ عَنْ وَاصِلِ، وَكَانَ مِنْ نُفَاةِ الْقَدْرِ، وَاتَّبَعَ رَأْيِي
15 الْفَلَاسِيفَةِ فِي نُفْيِ الصِّفَاتِ الْوُجُودِيَّةِ لظُهُورِ مَذَاهِبِهِمْ يَوْمَئِذٍ. ثُمَّ جَاءَ إِبْرَاهِيمُ النَّظَّامُ
وَقَالَ بِالْقَدْرِ وَاتَّبَعُوهُ، وَطَالَعَ كَتَبَ الْفَلَاسِيفَةِ وَشَدَّدَ فِي نُفْيِ الصِّفَاتِ، وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ
الِاعْتِزَالِ. ثُمَّ جَاءَ الْحَاجِظُ وَالْكَفَيْيُّ وَالْجَبَّائِيَّةُ. وَكَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ تُسَمَّى عِلْمَ الْكَلَامِ، إِمَّا

(1) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (1) وَالتِّرْمِذِيُّ (2610) وَأَبُو دَاوُدَ (4695) وَ (4696) وَ (4697).

لما فيها من الججاج والجدال، وهو الذي يُسَمَّى كلاماً؛ وإما لأنَّ أصلَ طريقَتهم نقي
صفة الكلام. فلهذا كان الشافعي يقول⁽¹⁾: حَقُّهم أن يُضَرَّبوا بالجريد ويُطَافَ بهم.
وقرَّر هؤلاء طريقَتهم، وتتابع ذلك في أتباعهم وأئبتوا منها وزدوا. إلى أن ظهر الشيخ
أبو الحسن الأشعري، وناظر بعض مشيختهم في مسائل الصلاح والأصلح، فرفض
طريقَتهم، وكان على رأي عبد الله بن سعيد بن كُلاب، وأبي الغتاس القلانسي،
5 والحارث بن أسد المحاسبي، من أتباع السلف وعلى طريقة السُّنَّة، فأيدَ مقالهم
بالحجج الكلامية، وأثبت الصفات القائمة بذات الله تعالى من العلم والقُدرة والإرادة
والحياة التي بها يتم دليل التماثل وتصحَّ المعجزات للأنبياء. وكان من مذهبهم إثباتُ
الكلام والسمع والبصر، لأنها وإن أُوهمَ ظاهرها التقصُّ بالصوت والحرف الجسائنين،
فقد وُجد للكلام عند الغرب مدلول آخر غير الحرف والصوت، وهو ما يدور في
10 الحَلَد، والكلام حقيقة فيه دون الأول. فأثبتوه لله تعالى، وانتفى إيهامُ التقصُّ، وأثبتوا
هذه الصفة قديمة عاتمة التعلُّق، شأن الصفات الأخرى، وصار القرآنُ اسماً مشتركاً
بين القديم القائم بذات الله، وهو الكلام التَّفسيي، والمحدث الذي هو الحروف
المؤلَّفة المقرَّوءة بالأضواء. فإذا قيل: قديمٌ، فالمراد الأولُ، وإذا قيل: مقروء مسموعٌ
فلذالَّة القراءة والكتابة عليه. وتورَّع الإمام أحمدُ من إطلاق لفظِ الحدث عليه؛
15 لأنه لم يُسمع من السلف قبله [أنه]⁽²⁾ يقول: إن المصاحف المكتوبة قديمة، ولا أن

(1) قراءة تقريبية من حاشية ع .

(2) أبو نعيم: حلية الأولياء 9: 116، وشرف أصحاب الحديث: للخطيب البغدادي 78، والغزالي: إحياء علوم

الدين 1: 95، وسير أعلام النبلاء 10: 29 .

القراءة الجارية على الأليسة قديمة، وهو يشاهدها مُحدثة. وإِنَّمَا منته من ذلك الورد
 الذي كان عليه. وأما غير ذلك فإنكار للضروريات، وحاشاه منه. وأما السمع
 والبصر، وإن كان يوم إدراك الجارحة، فهو يدل أيضاً لغة على إدراك المسموع
 والمبصر، وينتهي إيهام التخصيص حينئذٍ، لأنه حقيقة لغوية فيها. وأما لفظ الاستواء،
 5 والهيء، والنزول، والوجه، واليدن، والعينين، وأمثال ذلك، فعدلوا عن حقائقها
 اللغوية لما فيها من إيهام التخصيص بالتشبيه إلى مجازاتها على طريقة العرب، حيث
 تتعد حقائق الألفاظ، فيرجعون إلى المجاز، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ﴾
 [سورة الكهف، من الآية 77] وأمثاله طريقة معروفة لهم غير منكورة ولا مبتدعة. وحلهم
 على هذا التأويل، وإن كان مخالفاً لمذهب السلف في التفويض، أن جماعة من
 10 من أتباع السلف وهم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ارتبكوا في محمل هذه
 الصفات، فحملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيفية، فيقولون في
 ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 54]: ثبت له استواء بحسب مذكول
 اللفظ، فراراً من تعطيله؛ ولا نقول بكيفيته فراراً من القول بالتشبيه الذي تنفيه
 آيات السلوب، من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة النورى، من الآية 11]،
 15 ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية 91]؛ تعالى الله عما يقول
 الظالمون؛ ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ﴾ [سورة الإخلاص، الآية 3]. ولا يعلمون مع
 ذلك أنهم ولجوا من باب التشبيه في قولهم بإثبات استواء، والاستواء عند أهل اللغة
 إنما هو موضوعه الاستقراء والتَّمَكُّن، وهو جنسائي. وأما التَّعْطِيلُ الذي يُشْتَعَوْنَ
 بإلزامه، وهو تعطيل اللفظ، فلا محذور فيه، وإنما المحذور في تعطيل الآلهة. وكذلك

يُسْتَعَوْنَ بِالْإِزَامِ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا يُطَاقُ؛ وَهُوَ تَقْوِيَةٌ؛ لِأَنَّ الشَّابَّةَ لَمْ يَنْقَعْ فِي التَّكْلِيفِ .
ثُمَّ يَدْعَوْنَ أَنَّ هَذَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ، وَحَاشَ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا مَذْهَبُ السَّلَفِ
مَا قَرَّزَنَاهُ أَوَّلًا مِنْ تَقْوِيضِ الْمُرَادِ بِهَا إِلَى اللَّهِ، وَالتَّسْكُوتِ ⁽¹⁾ عَنْ فَهْمِهَا. وَقَدْ يَحْتَجُّونَ
لِإِبْطَاتِ الْإِسْتِثْوَاءِ لِلَّهِ بِقَوْلِ مَالِكٍ: الْإِسْتِثْوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَثِيفُ مَجْهُولٌ ⁽²⁾؛ وَلَمْ يُرِدْ مَالِكٌ
أَنَّ الْإِسْتِثْوَاءَ مَعْلُومٌ الثَّبُوتَ لِلَّهِ، وَحَاشَا مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَغْلُمُ مَدْلُولَ الْإِسْتِثْوَاءِ؛ وَإِنَّمَا 5
أَرَادَ أَنَّ الْإِسْتِثْوَاءَ مَعْلُومٌ مِنَ اللَّغَةِ وَهُوَ الْجِسْمَانِي، وَكَيْفِيَّةِ، أُنْيَ حَقِيقَتِهِ، لِأَنَّ حَقَائِقَ
الْصِّفَاتِ كُلَّهَا كَيْفِيَّاتٌ، وَهِيَ مَجْهُولَةُ الثَّبُوتِ لِلَّهِ. وَكَذَلِكَ يَحْتَجُّونَ عَلَى إِثْبَاتِ الْمَكَانِ
بِحَدِيثِ السُّودَاءِ ⁽²⁾، وَأَنَّهُمَا لَمَّا قَالَا لَهَا ﷺ: "أَيْنَ اللَّهُ؟" وَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ: "أَعْنَيْتُهَا
فَأَيْهَا مُؤْمِنَةٌ". وَالتَّبَيُّ ﷺ لَمْ يُثَبِّثْ لَهَا الْإِيمَانَ بِإِثْبَاتِهَا الْمَكَانَ لِلَّهِ، بَلْ لِأَنَّهُ آمَنَتْ بِمَا جَاءَ
مِنْ ظَوَاهِرِ أَنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، فَدَخَلَتْ فِي جُمْلَةِ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْمُتَشَابِهِ 10
مِنْ غَيْرِ كَشْفٍ عَنْ مَغْنَاهُ، وَالْقَطْعُ بِنَتْنِ الْمَكَانِ حَاصِلٌ مِنْ دَلِيلِ الْعَقْلِ التَّائِي
لِلْإِفْتِقَارِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ السُّلُوبِ الْمُؤَدَّةِ بِالتَّنْزِيهِ، مِثْلُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾
[سُورَةُ الشُّورَى، مِنْ آيَةِ 11] وَأَشْبَاهُهُ، وَمِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ، مِنْ آيَةِ 3]، إِذِ الْمَوْجُودُ لَا يَكُونُ فِي مَكَائِنَ، فَلَيْسَتْ "فِي"
هِنَا لِلْمَكَانِ قِطْعًا وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ. ثُمَّ طَرَدُوا ذَلِكَ الْمَحْمَلِ ^(ب) الَّذِي ابْتَدَعُوهُ فِي ظَوَاهِرِ 15
الْوُجْهِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالْيَدَيْنِ وَالْمَجْيِئِ وَالتَّزْوِلِ وَالْكَلَامِ بِالْحَرْفِ وَالصُّوْتِ، يَجْعَلُونَ لَهَا

(1) كَتَبَهَا فِي الْحَاشِيَةِ بِخَطِّهِ بِالضَّادِ: الصَّكُوتُ (ب) نَظَرْنَا أَيْضًا فِي حَاشِيَةِ ع: بِالْمَحْمَلِ .

(1) الْإِسْتِثْوَاءُ لَابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ 2: 529، تَرْتِيبُ الْمَدَارِكِ 1: 170 .

(2) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ صَحِيحٍ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ 5: 447، وَمُسْلِمٌ (537)، وَأَبُو دَاوُدَ (930)، وَالنَّسَائِيُّ 3: 14-18 .

مَذْلُولَاتٍ أَعَمَّ مِنَ الْجِنْسِيَّةِ، وَيُزْهَوُهُ عَنْ مَذْلُولِ الْجِنْسِيَّاتِ مِنْهَا. وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ. وَقَدْ ذَرَجَ عَلَى ذَلِكَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ مِنْهُمْ. وَنَافَرَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالْحَنْفِيَّةَ وَرَفَضُوا عَقَائِدَهُمْ فِي ذَلِكَ. وَوَقَعَ بَيْنَ مُتَكَلِّمِي الْحَنْفِيَّةِ بِيْحَارِي وَبَيْنَ الْإِمَامِ مُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيِّ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ⁽¹⁾.

5 وَأَمَّا الْمَجَسَّمَةُ، فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي إِثْبَاتِ الْجِنْسِيَّةِ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ لَا كَالْأَجْسَامِ؛ وَلَقَطُ الْجِسْمِ لَمْ يَثْبُثْ فِي مَقُولِ الشَّرْعِيَّاتِ. وَإِنَّمَا جَزَّأَهُمْ عَلَيْهِ إِثْبَاتُ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ؛ فَلَمْ يَتَّقَصِرُوا عَلَيْهَا، بَلْ تَوَعَّلَّوْا وَأَثْبَتُوا الْجِنْسِيَّةَ، يَزْعُمُونَ فِيهَا مِثْلَ ذَلِكَ، وَيُزْهَوُهُ بِقَوْلِ مُتَنَاقِضٍ سَفْسَافٍ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: جِسْمٌ لَا كَالْأَجْسَامِ، وَالْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ هُوَ الْعَمِيقُ الْمَحْدُودُ، وَغَيْرُ هَذَا التَّفْسِيرِ، مِنْ أَنَّهُ الْقَائِمُ بِالذَّاتِ، أَوِ الْمَرْكَبُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَاضْطِلَّاحَاتٌ لِلْمُتَكَلِّمِينَ يُرِيدُونَ بِهَا غَيْرَ الْمَذْلُولِ اللَّغَوِيِّ. فَلِهَذَا 10 كَانَ الْمَجَسَّمَةُ أَوْغَلَ فِي الْبِدْعَةِ، بَلْ وَالْكَفْرِ، حَيْثُ أَثْبَتُوا لِلَّهِ وَضْعاً مُوَهِّماً يُوهِمُ التَّقْصُّ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِهِ وَلَا كَلَامِ نَبِيِّهِ.

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ الْفَرْقُ بَيْنَ مَذَاهِبِ السَّلَفِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ السُّنِّيَّةِ وَالْمُحَدِّثِينَ، وَالْمُبْتَدِعَةِ مِنَ الْمُغْتَرَّةِ وَالْمَجَسَّمَةِ بِمَا أَطْلَعْنَاكَ عَلَيْهِ.

(1) لَمْ يَقَعْ بَيْنَ الْحَنْفِيَّةِ وَالْبُخَارِيِّ فِي بُحَارَى نَزَاعٍ، وَإِنَّمَا وَقَعَ مَعَ أَمِيرِ بُحَارَى خَالِدِ بْنِ أَحْمَدَ كَمَا فِي تَارِيخِ الْحَطِيبِ 2: 355، وَوَقَعَ نَزَاعٌ مَعْرُوفٌ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الْأَهْلِيِّ بَنِيْسَابُورَ. انْظُرْ أَيْضاً: تَارِيخِ الْحَطِيبِ 2: 352.

وفي الحديثين غلاة يسئون المشبهة لتضريحهم بالنشيبه؛ حتى إنه يحكى عن
 بغضهم أنه قال⁽¹⁾: اغفوا عن اللحية والفرج وسلوا عما بدا لكم من سواها. وإن لم
 يتأول ذلك لهم بأنهم يريدون حصر ما ورد من هذه الظواهر الموهمة وحملها على
 ذلك المخمل الذي لا يقيمتهم ، وإلا فهو كقتر صريح والعياذ لله . وكُتِبَ أهل السنة
 مشحونة بالججاج على هذه البذع ونسب الزد عليهم بالأدلة الصحيحة . وإنا أومأنا
 إلى ذلك إيماء يتقير به فصول المغالة وحملها. ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدٰنَا لِهٰذَا وَمَا
 كُنَّا لِنَهْتَدِىْ لَوْلَا اَنْ هَدٰنَا اللّٰهُ ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 43].

وأما الظواهر الحفّية الدلالة، كالوحي والملائكة والروح والجن والبرزخ وأحوال
 القيامة والدجال والفتن والشروط وسائر ما هو متعذر على الفهم أو مخالف
 للعادات : فإن حملناه على ما ذهب إليه الأشعرية في نقاصه ، وهم أهل السنة ،
 فلا تشابه؛ وإن قلنا فيه بالتشابه فلنوضح القول في كشف الحجاب عنه، فنقول:

اغلم أن العالم البشري أشرف العوالم من الموجودات وأرفعها. وهو، وإن
 اتحدت حقيقة الإنسانية فيه، فله أطوار يخالف كل واحد منها الآخر بأحوال
 تختص به، حتى كأن الحقائق فيها مختلفة.

فالطور الأول: عالمه الجنائي بحسب الظاهر وفكره المعاشي وسائر قصر فانيه
 التي أعطاه إياها وجوده الحاضر.

(1) المقولة منسوبة لداود الجواربي . (الشهرستاني: الملل والنحل 1: 105) .

الطُّورُ الثَّانِي: عَالَمُ النَّوْمِ، وَهُوَ تَصَوُّرُ الْخَيَالِ بِإِنْفَادِ تَصَوُّرَاتِهِ جَائِلَةً فِي بَاطِنِهِ، فَيَذَرُكُ مِنْهَا بِحَوَاسِهِ الظَّاهِرَةَ مُجَرَّدَةً عَنِ الْأَزْمَنَةِ وَالْأَمَكِنَةِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الْجَسْمَانِيَّةِ، وَيُشَاهِدُهَا فِي مَكَانٍ لَيْسَ هُوَ فِيهِ، وَيُحَدِّثُ لَهُ الصَّالِحُ مِنْهَا الْبُشْرَى بِمَا يَتَرَقَّبُ مِنْ مَسَرَّاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ، كَمَا وَعَدَ بِهِ الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ. 5

وهذان الطَّورانِ عَامَانِ فِي جَمِيعِ أَشْخَاصِ الْبَشَرِ، وَهِيَ مُخْتَلِفَانِ فِي الْمَدَارِكِ كَمَا نَرَاهُ.

الطُّورُ الثَّالِثُ: طَوْرُ النَّبَوَةِ، وَهُوَ خَاصٌّ بِأَشْرَفِ صِنْفِ الْبَشَرِ، بِمَا خَصَّصَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ مَقَرَّفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَتَرْزُلِ مَلَائِكَتِهِ عَلَيْهِمْ بِوَحْيِهِ، وَتَكْلِيفِهِمْ بِإِصْلَاحِ الْبَشَرِ فِي أَحْوَالِ كُلِّهَا مَغَايِرَةً لِأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ الظَّاهِرَةِ.

الطُّورُ الرَّابِعُ: طَوْرُ الْمَوْتِ الَّذِي يَفَارِقُ أَشْخَاصَ الْبَشَرِ فِيهِ حَيَاتِهِمُ الظَّاهِرَةَ 10 إِلَى وُجُودٍ قَبْلَ الْقِيَامَةِ، يُسَمَّى الْبَرْزَخَ، يَنْتَعِمُونَ فِيهِ وَيُعَذِّبُونَ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، ثُمَّ يُفْضَوْنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ دَائِرُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ نَعِيماً وَعَذَاباً فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ.

وَالطَّورانِ الْأَوَّلَانِ شَاهِدُهُمَا وَجَدَانِيٌّ. وَالطُّورُ الثَّالِثُ التَّبَوُّيُّ شَاهِدُهُ الْمَعْجِزَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمُخْتَصَّةُ بِالْأَنْبِيَاءِ. وَالطُّورُ الرَّابِعُ شَاهِدُهُ مَا تَرَزَّلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ فِي الْمَعَادِ وَأَحْوَالِ الْبَرْزَخِ وَالْقِيَامَةِ، مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِهِ كَمَا نَبَّهَنَا اللَّهُ عَلَيْهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ الْبَغْفَةِ. وَمَنْ أَوْضَحَ الْأَدِلَّةَ عَلَى صِحَّتِهَا أَنَّ أَشْخَاصَ الْإِنْسَانِ 15 لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَجُودٌ آخِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ غَيْرَ هَذَا الْمَشَاهِدِ، تَتَلَقَّى فِيهِ أَحْوَالاً تَلِيقُ بِهِ، لَكِنْ إِيجَادُهُ الْأَوَّلُ عَيْنًا؛ إِذَا الْمَوْتُ إِذَا كَانَ عَدَمًا كَانَ مَالُ الشَّخْصِ إِلَى الْقَدَمِ؛ فَلَا يَكُونُ لَوْجُودِهِ الْأَوَّلُ حِكْمَةً؛ وَالْعَبَثُ عَلَى الْحَكِيمِ مُحَالٌ. وَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْأَطْوَارُ

الْأَرْزَعَةُ، فَلْنَأْخُذْ فِي بَيَانِ مَدَارِكِ الْإِنْسَانِ فِيهَا كَيْفَ تَخْتَلِفُ اخْتِلَافاً بَيِّناً يَكْشِفُ لَكَ غَوْرَ الْمُنْشَاهِ:

فَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الْأَوَّلِ فَوَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [سورة النحل، من الآية 78]. فبهذه المدارك يَسْتَوِلِي عَلَى مَلَكَاتِ الْمَعَارِفِ 5 وَيَسْتَكْمِلُ حَقِيقَةَ إِنْسَانِيَّتِهِ وَيُوَفِّي حَقَّ الْعِبَادَةِ الْمُفَضِّضَةِ بِهِ إِلَى التَّجَادَةِ .

وَأَمَّا مَدَارِكُهُ فِي الطُّورِ الثَّانِي، وَهُوَ طَوْرُ النَّوْمِ، فَهِيَ الْمَدَارِكُ الَّتِي فِي الْحِسِّ الظَّاهِرِ بَعْنِيهَا؛ لَكِنْ لَيْسَتْ فِي الْجَوَارِحِ كَمَا هِيَ فِي الْيَقَظَةِ. لَكِنْ الرَّائِي يَتَبَيَّنُ كُلُّ شَيْءٍ أَذْرَكَهُ فِي نَوْمِهِ، لَا يَشْكُ فِيهِ وَلَا يَزْتَابُ، مَعَ خُلُوعِ الْجَوَارِحِ عَنِ الِاسْتِعْمَالِ الْعَادِيِّ لَهَا. وَالتَّائِسُ فِي حَقِيقَةِ هَذِهِ الْحَالَةِ فَرِيقَانِ: 10

الْحُكَمَاءُ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الصُّورَ الْخَيَالِيَّةَ يَذْفَعُهَا الْخَيَالُ بِمَحْرَكَةِ الْفِكْرِ إِلَى الْحِسِّ الْمَشْتَرَكِ، الَّذِي هُوَ الْفَضْلُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ وَالْحِسِّ الْبَاطِنِ، فَيَتَصَوَّرُ مُحسوسُهُ بِالظَّاهِرِ فِي الْحَوَاسِّ كُلِّهَا. وَيَشْكُلُ عَلَيْهِمْ هَذَا أَنَّ الْمَرَائِي الصَّادِقَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ اللَّهِ أَوْ مِنَ الْمَلِكِ أَرْسَخَ وَأَثْبَثَ فِي الْإِذْرَاكِ مِنَ الْمَرَائِي الْخَيَالِيَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، مَعَ أَنَّ الْخَيَالَ فِيهَا عَلَى مَا قَرَّرُوهُ وَاجِدٌ. 15

الْفَرِيقُ الثَّانِي: الْمُتَكَلِّمُونَ أَجْمَلُوا فِيهَا الْقَوْلَ، وَقَالُوا: هُوَ إِدْرَاكُ الْخَلْقَةِ اللَّهِ فِي الْحَاسَّةِ فَيَقَعُ كَمَا يَقَعُ فِي الْيَقَظَةِ. وَهَذَا أَلْبَقٌ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَتَصَوَّرُ كَيْفِيَّتَهُ. وَهَذَا الْإِذْرَاكِ التَّوْنِي أَوْضَحُ شَاهِدٍ عَلَى مَا يَقَعُ بَعْدَهُ مِنَ الْمَدَارِكِ الْحِسِّيَّةِ فِي الْأَطْوَارِ.

وأما الطُّورُ الثَّالثُ، وهو طُورُ الأنبياء، فالمداركُ الحِسِّيَّةُ فيها مجهولةٌ الكَيْفِيَّةُ
عندنا، وَجَدائِيَّةٌ عندهم بأَوْضَحَ من اليقين. فَرى النَّبِيُّ اللهُ والملائكةُ، ويسمَعُ كلامَ
اللهِ مِنْهُ أو من الملائكةِ، وَيَرى الجَنَّةَ والنَّارَ والعَرْشَ والكُرْسِيَّ، ويخترِقُ السَّمَاوَاتِ
السَّبْعَ في إسرائِهِ، ويركَبُ البُرَاقَ فيها، وَيَلْقَى التَّيِّينَ هنالك، وَيُصَلِّيَ بِهِمْ، وَيُذَرِّكُ
5 أنواعَ المداركِ الحِسِّيَّةِ كما يُذَرِّكُ في طُورِهِ الجِسْمَانِيَّ والنُّومِيَّ بعِلْمِ ضَرُورِيٍّ يَخْلُقُهُ اللهُ
له، لا بالإدراكِ العاديِّ للبَشَرِ في الجوارِحِ. ولا تَلْتَفِتْ في ذلك إلى ما يَقُولُهُ ابنُ
سِينَا⁽¹⁾ من تَنْزِيلِهِ أَمْرَ النُّبُوَّةِ على أَمْرِ التَّوَمِ في دَفْعِ الخِيَالِ صُورَهُ إلى الحِسِّ
المُشْتَرَكِ. فَإِنَّ الكلامَ عَلَيْهِمْ هُنَا أَشَدُّ من الكلامِ في التَّوَمِ، لأنَّ هَذَا التَّنْزِيلَ طَبِيعَةٌ
وَاحِدَةٌ كما قَرَّرْنَاهُ. فَيَكُونُ على هَذَا حَقِيقَةُ الوَحْيِ والرُّؤْيَا من النَّبِيِّ وَاحِدَةٌ في يَقِينِهَا
10 وَحَقِيقَتِهَا، وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ على ما عَلِمَتْ من رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ قُبَيْلَ الوَحْيِ بِسِتَّةِ
أَشْهُرٍ، وَأَنَّهُا كَانَتْ بَدْءَ الوَحْيِ وَمَقْدَمَتَهُ. وَيُشْعِرُ ذَلِكَ بِأَنَّهَا دَوْنُهُ في الْحَقِيقَةِ.

وكذلك حال الوَحْيِ في نَفْسِهِ. فَقَدْ كَانَ يَضَعُ عَلَيْهِ، وَيُقَاسِي مِنْهُ شِدَّةً، كما
في الصَّحِيحِ⁽²⁾، حَتَّى كَانَ الْقُرْآنُ يَنْزِلُ آيَاتٍ مَقْطَعَةً، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَزَلَتْ عَلَيْهِ
﴿بَرَاءَةٌ﴾ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ جَمَلَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ يَسِيرُ على نَاقَتِهِ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ
15 تَنْزِيلِ الْفِكْرِ إِلَى الْخِيَالِ فَقَطْ وَمِنْ الْخِيَالِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَ هَذِهِ
الْحَالَاتِ فَرْقٌ.

(1) الإشارات والتنبيهات - القسمان 3 و 4، ص 878 - 880.

(2) يعني صحيح مسلم (448) وهو من قول ابن عباس، وتقدم التخریج في الجزء الأول من الكتاب الأول 1:

وَأَمَّا الطَّوْرُ الرَّابِعُ، وهو طَوْرُ الأَمْوَاتِ فِي بَزْزَخِهِمْ، الَّذِي أَوَّلُهُ الْقَبْرُ، وَهُمْ مُجَرَّدُونَ عَنِ الْبَدَنِ، أَوْ فِي بَعْثِهِمْ عِنْدَمَا يَرْجِعُونَ إِلَى الْأَجْسَامِ، فَمَدَارِكُهُمُ الْحِسِّيَّةُ مُوجُودَةٌ لَهُمْ. فَيَرَى الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ [الْمَلَائِكِينَ] ⁽¹⁾ يُسَائِلُونَهُ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ بَعَيْنَيَّ رَأْسِهِ، وَيَرَى شُهُودَ الْجَنَازَةِ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَخَفَقَ نَعَالِهِمْ فِي الْإِنْصِرَافِ عَنْهُ، وَيَسْمَعُ مَا يُذَكِّرُونَهُ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ أَوْ مِنْ تَقْرِيرِ الشَّهَادَتَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَفِي 5 الصَّحِيحِ ⁽¹⁾: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ عَلَى قَلْبِ بَدْرِ وَفِيهِ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَنَادَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتَكَلِّمُ هَؤُلَاءِ الْحَيَفَ؟! فَقَالَ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَتُّمُّ بِأَسْمَاعِهِمْ لَمَّا أَقُولُ". ثُمَّ فِي الْبَعْثَةِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَايِنُونَ بِأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، كَمَا كَانُوا يُعَايِنُونَ فِي الْحَيَاةِ، مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ عَلَى مَرَاتِبِهِ وَعَذَابِ النَّارِ عَلَى مَرَاتِبِهِ، وَيَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ وَيَرَوْنَ رَبَّهُمْ، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ ⁽²⁾: "إِنَّكُمْ تَرَوْنَ 10 رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ". وَهَذِهِ الْمَدَارِكُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهِيَ حِسِّيَّةٌ مِثْلُهَا، وَتَقَعُ فِي الْجَوَارِحِ بِالْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ ^(ب) اللَّهُ كَمَا قُلْنَا. وَسِرُّ هَذَا، أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ ... ^(ج) تَنْشَأُ بِالْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ.

(أ) فِي الْأَصُولِ: الْمَلَكُ، وَمَوْقِعُ الْمَفْعُولِ بِهِ وَاضِحٌ بِالْعَطْفِ النَّالِي فِي التَّصْرِ، فَأَصْلَحْنَاهُ (ب) فِي ع: يَخْلُقُهُ (ج) ذَكَرَ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ لَفْظَةً: هِيَ، فَأَصْبَحَتْ الْعِبَارَةُ بِهَا قَلْقَةً، فَأَسْقَطْنَاهَا لِلْعَاشِيَةِ.

(1) حَدِيثٌ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (3065) وَمُسْلِمٌ (2875) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ زَيْدِ بْنِ سَهْلٍ. وَتَمَامُ تَخْرِيجِهِ فِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ (1551).

(2) الْبُخَارِيُّ 1: 145 حَدِيثٌ (554) وَ 1: 150 حَدِيثٌ (573) وَ 6: 173 حَدِيثٌ (4851) وَ 9: 156 حَدِيثٌ (7435) وَ (7436) وَمُسْلِمٌ (633) مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ.

فإذا فارقت البدن بنوم أو موت، أو صار النُّبي حالة الوحي من المدارك البشريّة إلى المدارك الملكيّة، فقد / استَضَحبت ما كان معها من المدارك البشريّة مُجَرَّدَةً عن الجوارح، فيُذركَ بها في ذلك الطُّور أي إدراكٍ شاءت منها أرفع من إدراكها وهي في الجسد؛ قاله الغزالي⁽¹⁾ رحمه الله. وزاد على ذلك أن للنفس الإنسانيّة صورة تبقى لها بعد المفارقة، فيها الغيتان والأذنان وسائر الجوارح المُذركَة، أمثالاً لما كان في البدن وصوراً. وأنا أقول: إنّما يشيرُ بذلك إلى الملكات الحاصلة من تَصْرِيف هذه الجوارح في بدنها زيادةً على الإدراك. فإذا تَقَطَّعتْ لهذا كله، علمت أن هذه المدارك موجودة في الأطوار الأربعة، لكن ليس على ما كانت في الحياة الدُّنيا، وإنّما هي تختلف بالقوّة والضعف بحسب ما يعرضُ لها من الأحوال. ويشيرُ المتكلِّمون إلى هذا إشارةً مجمّلة بأن الله يخلق فيها علماً ضرورياً بذلك المُذرك، أي مُذركَ كان. 10

ويقننون به هذا القدر الذي أَوْصَحناه.

وهذه بُبْدَةٌ أو مانأنا بها إلى ما يُوَضِّحُ القول في المُتَشابه. ولو أَوْسَعنا الكلام فيه لَقُصِّرَتِ المداركُ عنه. فلنُضَرِّعْ إلى الله في الهداية والفهم عن أنبيائه وكتابه بما حصل به الحق في توحيدنا والظفر بنجاتنا. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾⁽¹⁾ [سورة البقرة، 15

من الآية 213].

(1) آخر الفصل المنقول عن ع وحدها .

(1) جهات الفلاسفة 226 .

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين^(١) ومن بعدهم طريقة الحق والهداية. وأصلها العكوف على العبادة، والانتقطاع إلى الله، والإغراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة [وجاه ومال]^(ب)، والانفراد 5 عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجتج الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقلبون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

قال الشيرازي^(١) رحمه الله : ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ؛ والظاهر أنه لَقَب . ومن قال: اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة أو من 10 الصِّف، فبعيد من جهة القياس اللغوي. قال: وكذلك من الصوف، لأنهم لم يختصوا بلُنبسه.

[قلت: والأظهر - إن قيلَ بالاشتقاق - أنه من الصوف. وهم في الغالب مُختصون بلُنبسه]^(ج)، لما كانوا عليه من مخالفة الناس^(د) في لبس فاخر الثياب إلى لُبس الصوف.

15

(أ) سقط من ج (ب) في ع ج ي: ومال وجه (ج) سقط من ط (د) كنا في ع ط ج، وفي ي: القياس .

فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والاشتراد عن الحلق والإقبال على العبادة،
 اخضعوا بمواجد مذكرات لهم. وذلك أنّ الإنسان بما هو إنسان، إنّما يتميز عن سائر
 الحيوان بالإدراك. وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك
 والوهم، وإدراك للأحوال القائمة به من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا
 والغضب / والصبر والشكر، وأمثال ذلك. فالمفنى⁽¹⁾ العاقل والمتصرف في البدن، [317ب]
 ينشأ من إدراكات وإرادات وأحوال، وهي التي تتميز بها الإنسان كما قلناه. وبعضها
 ينشأ عن بعض، كما ينشأ العلم عن الأدلة، والفرح أو الحزن عن إدراك المولى
 والمثلث به، والنشاط عن الجمام، والكسل عن الإغيا. وكذلك المريد في مجاهدته
 وعبادته، لا بد أن ينشأ له عن كل مجاهدة حال هي نتيجة لتلك المجاهدة. وتلك
 الحال، إما أن تكون نوع عبادة فتزسخ وتصبح مقاماً للمريد، وإما أن لا تكون عبادة،
 10 (وإنما تكون)^(ب) صفة حاصلة للنفس من فرح أو سرور أو نشاط أو كسل، أو
 غير ذلك.

والمقامات، لا يزال المريد يترقى فيها من مقام إلى مقام، إلى أن ينتهي إلى
 التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. قال عليه السلام: "من مات يشهد أن لا
 15 إله إلا الله دخل الجنة"⁽¹⁾. فالمريد لا بد له من الترقى في هذه الأطوار، وأصلها كلها
 الطاعة والإخلاص، ويتقدمها الإيمان ويصاحبها، وتنشأ عنها الأحوال، والصفات
 نتائج وثمرات، ثم تنشأ عنها أخرى وأخرى إلى مقام التوحيد والعزاف. وإذا وقع

(1) في ج ي: الفجرة (ب) من ط ج ي. وفي ع: وإما أن تكون.

(1) تقدم تخرجه في صفحة (231).

تصير في النتيجة أو خلل، فيعلم أنه إنما أتى من قبل التفسير في الذي قبله، وكذلك في الخواطر التفسيرية والواردات القلبية. فلها يحتاج المريد إلى محاسبة نفسه في سائر أغاليه وينظر في [حقائقها]^(١)، لأن حصول النتائج عن الأعمال ضروري، وقصورها من الخلل فيها كذلك. والمريد يجد ذلك بذوقه، ويحاسب نفسه على أسبابه. ولا يشارِكهم في ذلك إلا القليل من الناس، لأن الغفلة عن هذا كانت 5 شاملة.

وغاية أهل العبادات إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع، أنهم يأتون بالطاعات مُخْلِصَةً من نظر الفقه في الإجزاء والامتنال، وهؤلاء يبحسون عن / نتائجها بالأذواق والمواجد، ليطلعوا على أنها [خالصة]^(ب) من التفسير أو لا. فظهر أن أصل طريقهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد 10 التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للفريد مقاماً ويترقى منها إلى غيرها.

ثم لم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور [في التعليم]^(ج) بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرّض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحاً على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه. فلها اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس يوجد لغيرهم من أهل الشريعة الكلام 15 فيه. وصار علم الشريعة على صنفين: صنف^(د) مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف^(د) مخصوص بالقوم

(١) من ع، وفي ط: خالها (ب) من ع، وفي ط: خالية (ج) حاشية في ع بخطه، لم تذكرها ط ج ي (د) ي: صف .

في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقّي فيها^(١) من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كتبت العلوم ودونّت، وآلف الفقهاء في الفقه وأصوله، والكلام، والتفسير، وغير ذلك، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم. فمنهم من كتب في أحكام الوزع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية، له، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجهتهم في الأخوال، كما فعله القسيري في كتاب الرسالة، والشهري في كتاب عوارف المعارف، وأمثالهم. وجع الغزالي (رحمه الله)^(ب) بين الأمرين في كتاب الإخياء، فدوّن فيه أحكام الوزع والاقتداء، ثم بيّن آداب القوم وسننهم، وشرح^(ج) اصطلاحاتهم في عباراتهم. وصار علم التصوّف / في الملة علماً مدوّناً بعد [318ب] أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنّما تتلقّى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك.

ثم إنّ هذه المجاهدة والخلوّة^(د) والذكر، يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطّلاع على عوالم من أمور الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم. وسبب هذا الكشف أنّ الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى

(١) ي: منها (ب) من ي (ج) في ع: في شرح (د) سقط من ع .

الباطن، ضَعُفَتْ أحوالُ الحِسِّ وَقَوِيَتْ أحوالُ الروحِ وغَلَبَ سُلْطَانُهُ وَتَجَدَّدَ نَشْوُهُ،
وَأَعَانَ عَلَى ذَلِكَ الذِّكْرُ، فَإِنَّهُ كَالْغِذَاءِ لِنَتْمِيَةِ الرُّوحِ. وَلَا يَزَالُ فِي نُمُوٍّ وَتَزْيِيدٍ إِلَى أَنْ
يَصِيرَ⁽¹⁾ شُهوْدًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عِلْمًا وَيَكْشِفُ حِجَابَ الحِسِّ، وَيَمُتُّ وَجُودَ النَفْسِ الَّذِي
لَهَا مِنْ ذَاتِهَا، وَهُوَ غَيْنُ الْإِذْرَاكِ، فَيَتَعَرَّضُ حِينَئِذٍ لِلْمَوَاهِبِ الرَّبَّائِيَةِ وَالْغُلُومِ اللَّدِّيَّةِ
وَالْفَتْحِ الْإِلَهِيِّ، وَتَقْرُبُ ذَاتُهُ فِي تَحَقُّقِ حَقِيقَتِهَا مِنَ الْأَفْقِ الْأَعْلَى، أَفْقِ الْمَلَائِكَةِ.

وهذا الكَشْفُ كَثِيرًا مَا يَفْرِضُ لِأَهْلِ الْمُجَاهَدَةِ، فَيُذَكِّرُونَ مِنْ حَقَائِقِ الْوُجُودِ
مَا لَا يُذَكِّرُ سِوَاهُمْ. وَكَذَلِكَ يُذَكِّرُونَ كَثِيرًا مِنَ الْوَاقِعَاتِ قَبْلَ وَقْعِهَا، وَيَتَصَوِّفُونَ
بِهِمْهُمُ وَقُوَى نَفْسِهِمْ فِي الْمَوْجُودَاتِ السَّفَلِيَّةِ وَتَصِيرُ طُوعُ إِرَادَتِهِمْ. فَالْعُظَاءُ مِنْهُمْ لَا
يَعْتَبِرُونَ هَذَا الْكَشْفَ وَلَا التَّصَرُّفَ، وَلَا يُخْبِرُونَ عَنْ حَقِيقَةِ شَيْءٍ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالْكَتْمِ
فِيهِ، بَلْ يَبْعُدُونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مُحَنَةً، وَيَتَعَوَّدُونَ مِنْهُ إِذَا هَاجَمَهُمْ. وَقَدْ كَانَ
الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمُجَاهَدَةِ، وَكَانَ خَطْلُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْكِرَامَاتِ
أَوْفَرَ الْخَطُوطِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ تَنْعَ لَهُمْ بِهَا عِنَايَةٌ. وَفِي فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَثِيرٌ مِنْهَا. وَتَبِعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الطَّرِيقَةِ مِمَّنْ اشْتَمَلَتْ رِسَالَةُ الشُّشَيْرِيِّ
عَلَى ذِكْرِهِمْ وَمَنْ تَبَعَ طَرِيقَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ.

ثُمَّ إِنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ انْصَرَفَتْ عِنَايَتُهُمْ إِلَى كَشْفِ الْحِجَابِ وَالْكَلامِ فِي
الْمَدَارِكِ الَّتِي وَرَاءَهُ، وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُ الرِّيَاضَةِ عِنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ تَعْلِيمِهِمْ فِي
إِمَانَةِ الْقُوَى الْجِسِّيَّةِ وَتَغْذِيَةِ الرُّوحِ الْعَاقِلِ بِالذِّكْرِ، حَتَّى يَحْصُلَ لِلنَفْسِ إِدْرَاكُهَا الَّذِي

(1) ع: نصير .

لها من ذاتها بتمام نُشُوها وتغذيتها. فإذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداريكها حينئذٍ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود وتصوروا حقائقه كلها من العرش إلى الطُّش⁽¹⁾. هكذا قال الغزالي [رحمه الله]⁽¹⁾ في كتاب الإحياء بعد أن ذكر صورة الرياضة.

5 ثم إن هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة، لأن الكشف قد يحصل لصاحب [الجوع والحلوة]^(ب) وإن لم تكن هناك استقامة، كالسحرة والتصارى وغيرهم من المتراضين، وليس مرادنا إلا الكشف الناشئ عن الاستقامة. ومثاله أن المرأة الضعيلة إذا كانت محدبة أو مقعرة وحوزي بها جمه المزي، فإنه يتشكل فيها مغوجاً على غير صورته، وإذا كانت مسطحة تشكل فيها المزي صحيحاً. فالاستقامة للنفس كالانسياط للمرأة فيما يتطبع فيها من الأحوال. 10

ولما غني المتأخرون بهذا النوع من الكشف، تكلموا في حقائق الموجودات العلوية والسفلية، وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي، وأمثال ذلك، وقصرت مداركهم من لم يشاركتهم في طريقتهم عن فهم أدواقهم ومواجهتهم في ذلك. فأهل الثنيا بين منكري عليهم ومسلم لهم. وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً، إذ هي من قبل الوجودات. 15

(1) من ي (ب) من ع، وفي ح ي ط: الحلوة والجوع.

(1) كنا في الأصول، ولا معنى للطش، وهو المطر الخفيف والذي لا تقابل بينه وبين العرش، وعبارة الغزالي في الإحياء (4: 303) أصوب، فقد أوردها في باب المستحق للمحبة، بصيغة: من ذروة العرش إلى منتهى العرش.

التفصيل وتحقيق^(١):

يقع كثيراً في كلام أهل العقائد من علماء الحديث والنبه، أن الله تعالى مبينٌ لمخلوقاته، ويقع للمتكلمين أنه لا مباين ولا متصل، ويقع للفلاسفة أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ويقع للمتأخرين من المتصوفة أنه مُتَّحِدٌ بالمخلوقات، إما بمغنى الحلول فيها، أو بمغنى أنه هو نفسها، وليس هناك غيره جملةً ولا تفصيلاً. 5
فلنبتن تفصيل هذه المذاهب، ونشرح حقيقة كل واحدٍ منها، حتى تتضح معانيها، فنقول:

إن المباينة نقال لمعنيين، أحدهما: المباينة في الحيز والجهة، ويقابله الاتصال. وتُشعر هذه المقالة على هذا التقدير بالمكان، إما صريحاً وهو تجسيم، أو لزوماً وهو تشبيه من قبيل القول بالجهة. وقد نُقل مثله عن بعض علماء السلف من التصريح 10 بهذه المباينة. فيختلِ غير هذا المعنى. ومن أجل ذلك أنكر المتكلمون هذه المباينة، وقالوا: لا يقال في الباري: إنه مبينٌ لمخلوقاته ولا متصلٌ بها، لأن ذلك إما يكون للمُتَحَرِّزَاتِ. وما يقال من أن المحل لا يخلو عن الانضمام بالمعنى وضده، فهو مشروطٌ بصحة الانضمام أولاً. وأما مع امتناعه فلا. بل يجوز الخلو عن المعنى وضده، كما يقال في الجاد: لا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، ولا مُدْرِك ولا 15 مؤوف^(ب). وصحة الانضمام بهذه المباينة مشروطٌ بالحصول في الجهة على ما نقول

(١) انشرت نسخة هذا النص مُضافاً على وجهي بطاقة بخط ابن خلدون، وسقط من طح ي (ب) كذا بخطه، ومعناه غير واضح.

من مَذْلُولِهَا. والبارئُ سُبْحَانَهُ مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ. ذَكَرَهُ ابْنُ التَّلْفِيسَانِيِّ فِي شَرْحِ اللَّعْنِ
لِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ، وَقَالَ: وَلَا يُقَالُ فِي الْبَارئِ: مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ وَلَا مُتَّصِلٌ بِهِ، وَلَا دَاخِلٌ
فِيهِ وَلَا خَارِجٌ عَنْهُ. وَهُوَ مَعْنَى مَا يَقُولُهُ الْفَلَّاسِفَةُ أَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ،
بِنَاءٍ عَلَى وُجُودِ الْجَوَاهِرِ غَيْرِ الْمُتَحَيِّزَةِ. وَأَنْكَرَهَا الْمُتَكَلِّمُونَ، لِمَا يُلْزَمُ مِنْ مُسَاوَاتِهَا
5 لِلْبَارئِ فِي اخْتِصَاصِ الصِّفَاتِ. وَهُوَ مُبْسُوطٌ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ.

وَأَمَّا الْمَعْنَى الْآخَرُ لِلْمُبَايَنَةِ، فَهُوَ الْمُبَايَنَةُ وَالْمُخَالَفَةُ. فَيُقَالُ: الْبَارئُ مُبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ
فِي ذَاتِهِ وَهُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيُقَابِلُهُ الْإِتِّحَادُ وَالْإِمْتِزَاجُ وَالْإِخْتِلَاطُ. وَهَذِهِ
الْمُبَايَنَةُ هِيَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحَقِّ كُلِّهِمْ مِنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ أَهْلِ الشَّرَائِعِ
وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالتَّصَوُّفَةِ الْأَقْدَمِينَ، كَأَهْلِ الرِّسَالَةِ وَمَنْ نَحْنَا مِنْهُمْ.

10 وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا الْمَدَارِكَ الْوُجْدَانِيَّةَ عِلْمِيَّةً
نَظَرِيَّةً، إِلَى أَنَّ الْبَارئَ تَعَالَى مُتَّحِدٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ فِي هُوِيَّتِهِ وَوُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ، وَرُبَّمَا
يُزْعَمُونَ أَنَّهُ مَذْهَبُ الْفَلَّاسِيفَةِ قَبْلَ أَرِسْطُو، مِثْلَ أَفْلَاطُونٍ وَسُقْرَاطِ، وَهُوَ الَّذِي
يَعْنِيهِ الْمُتَكَلِّمُونَ حَيْثُ يَقُولُونَهُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَيُحَاوِلُونَ الرَّدَّ عَلَيْهِ، لَا أَنَّهُ ذَاتَانِ
تُتَنَفَّى إِحْدَاهُمَا أَوْ تُتَدْرَجُ أُخْرَى فِي الْجُزْءِ. فَإِنَّ تِلْكَ مُغَايِرَةٌ صَرِيحَةٌ، وَلَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ.
15 وَهَذَا الْإِتِّحَادُ هُوَ الْحُلُولُ الَّذِي يَدَّعِيهِ النَّصَّارَى فِي الْمَسِيحِ. وَهُوَ أَغْرَبُ، لِأَنَّهُ
حُلُولٌ قَدِيمٌ فِي مُخَدَّثٍ، أَوْ اتِّحَادٌ بِهِ. وَهُوَ أَيْضاً عَيْنُ مَا يَقُولُهُ الْإِمَامِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ
فِي الْإِيْمَةِ.

وَقَرِيرُ هَذَا الْإِتِّحَادِ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى طَرِيقَيْنِ:

الأولى، أنَّ ذات القديم كائنة في المحدثات محسوسها ومفقولها، متحدة بها في التصورين، وهي كلها مظاهر له، وهو القائم عليها، أي المقوم لوجودها، بمعنى أنها لولاه كانت غدماً. وهو رأي أهل الحلول.

الثانية، طريق أهل الوحدة المطلقة. وكأنهم استشعروا من تقرير أهل الحلول

- الغيرية المنافية لمعقول الاتحاد، فنقوها بين القديم وبين المخلوقات في الذات والوجود 5 والصفات، وغالطوا في غيرية المظاهر المذكورة للحس والعقل، بأن ذلك من المدارك البشرية، وهي أوهام. ولا يريدون الوهم الذي هو قسيم العلم والظن والشك، وإنما يريدون أنها كلها غدَم في الحقيقة، وجود في المذكرك البشري فقط، ولا وجود بالحقيقة إلا للقديم، لا في الظاهر ولا في الباطن، كما نقرره بعد بحسب الإمكان.
- والتعويل في تعقل ذلك على النظر والاستدلال كما في المدارك البشرية غير مفيد، 10 لأن ذلك إنما ينقل من المدارك الملكية، وإنما هي حاصلة للأنبياء بالفطرة، ومن تقدمهم للأولياء بهدائهم. وقصدُهم من يقصد الحصول عليها بالطريقة العلمية ضلالاً^(١).

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذاهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه

/ فأتى بالأغص فالأغص بالنسبة إلى أهل النظر والاضطلاحات والعلوم ، [319ب]

- كما فعل الفرغاني، شارح قصيدة ابن الفارض في التبياجة التي كتب في صدر ذلك 15 الشرح . فإنه ذكر في صدور الوجود عن الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية التي هي مظهر الأحدثية ، وهما معاً صادران عن الذات الكريمة

(١) انتهى محتوى البطاقة التي اقردت نسخة ع بها ومخطه، وسقطت من ط ج ي .

التي هي عين الوخدة لا غير. ويُسمون هذا الصدور بالتجلي. وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه، وهو يتصمّن الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور، لقوله في الحديث الذي يتناقلونه: "كث كزاً مخفياً فأخبت أن أعرف، فخلقت الخلق ليغرفوني"⁽¹⁾. وهذا الكمال في الإيجاد المتّزل في الوجود وتفصيل الحقائق، وهو عندهم عالم المعاني والحضرة العائنة والحقيقة المحمدية. وفيها حقائق الصفات، والروح، والقلم، وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين، والكمل من أهل الملة⁽²⁾ المحمدية. وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية. وتصدّر عن هذه الحقائق حقائق⁽³⁾ أخرى في الحضرة الهباتية، وهي مرتبة المثال، ثم عنها الغرش، ثم الكرسي، ثم الأفلاك، ثم عالم العناصر، ثم عالم التركيب. هذا في عالم الرُقي. فإذا تجلّت، فهي في عالم الفنى. [انتهى (ج)].

10 ويُسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات. وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه، ويُعَد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل. ورُبّما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب، [فإنه لا يعرف في شيء من مناجيه]⁽⁴⁾.

وكذلك ذهب آخرون منهم إلى القول بالوخدة المطلقة، وهو رأي أغرب من الأول في ثقّله وتعاريفه. يزعمون فيه أنّ⁽⁵⁾ الوجود كله [له]⁽⁶⁾ قوى في تفصيله، بها كانت حقائق الموجودات / وصورها وموادها.

[320]

(1) في ج: الأئمة (ب) سقط من ج (ج) سقط من ط ج ي (د) من ع، و سقط من ط ج ي (هـ) سقط من ج (و) سقط من ط.

(2) حديث موضوع ذكره ابن عثاق في تنزيه الشريعة 1: 148، وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (232) والفقي في تذكرة الموضوعات 11، وأورده ابن العربي في الفتوحات الباب 198 بمعناه.

والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى. وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان وجودها. ثم إن المركبات فيها تلك القوى مُتَضَمِّنَةٌ في القوة التي كان بها التركيب، كالقوة المعدنية، فيها قوى العناصر بهيولها وزيادة القوة المعدنية، ثم القوة الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها. وكذا القوة الإنسانية مع الحيوانية، ثم الفلك يتضمّن القوة الإنسانية وزيادة. وكذا النوات الروحانية. والقوة الجامعة لكل 5 من غير تفصيل هي القوة الإلهية. فهي التي انبثت في جميع الموجودات، كلّيةً وجزئيةً، وجمعتها وأحاطت بها من كلّ وجه، لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء، ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة. فالكل واحد، وهو نفس ذات الإلهية. وهي في الحقيقة واحدة بسيطة، والاعتياز هو المفضل لها، كالإنسانية مع الحيوانية. ألا ترى أنها مُنْدرِجَةٌ فيها وكائنة بكونها ؟ فتارة يُمَثِّلُونَهَا بالجنس مع النوع في كلّ موجود، كما ذكرناه، 10 وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال. وهم في هذا كلّهم يقرّون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه. وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال.

والذي يظهر من كلام ابن دهاق⁽¹⁾ في شرح هذا المذهب، أن حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيهة بما يقوله الحكماء في الألوان، من أن وجودها مشروط بالضوء، فإذا غُيِمَ الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه. وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلّها 15 مشروطة بوجود المذرك الحسي، بل والموجودات المعقولة والمتوهمة أيضاً مشروطة بوجود المذرك العقلي. فإذن، الوجود المفضل كلّ مشروط بالمذرك البشري. فلو فرضنا عدم المذرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل / في الوجود، بل هو بسيط واحد. [320ب]

(1) كذا ضبطه ابن خلدون، وفي الإحاطة (1: 333) بتشديد الهاء .

فالْحَرُّ والْبَرْدُ، وَالصَّلَابَةُ واللِّينُ، بَلْ والأَرْضُ والماءُ، والتَّارُّ والسَّاءُ
والْكَوَاكِبُ، إِنَّمَا وُجِدَتْ لَوْجُودِ الحَوَاسِّ الْمَذْكُورَةِ لَهَا، لَمَّا جُعِلَ فِي الْمَذْكُورِ مِنْ
التَّفْصِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْوُجُودِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْمَدَارِكِ فَقَطْ. فَإِذَا قُيِّدَتِ الْمَدَارِكُ
المُفَصَّلَةُ، فَلَا تَفْصِيلَ، إِنَّمَا هُوَ إِدْرَاكٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنَا لَا غَيْرُهُ. وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ بِحَالِ
5 التَّائِمِ، فَإِنَّهُ إِذَا نَامَ وَقَدْ الْجَسَ الظَّاهِرَ فَقَدْ كَلَّ مَحْسُوسٌ وَهُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، إِلَّا
مَا يُفْضَلُ لَهُ الْخِيَالُ. قَالُوا: فَكَذَلِكَ الْيَقْظَانُ، إِنَّمَا يَغْتَبِرُ تِلْكَ الْمَذْكُورَاتِ كُلَّهَا عَلَى
التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ مَذْكُورَةِ الْبَشَرِيِّ. وَلَوْ قَدْ قُيِّدَ مَذْكُورَةُ [الْبَشَرِيِّ] ⁽¹⁾ فَقَدْ التَّفْصِيلُ. وَهَذَا
هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: الْوَهْمُ، لَا الْوَهْمُ الَّذِي هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ.

هَذَا مُلَخَّصُ رَأْيِهِمْ عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ دِهَاقٍ، وَهُوَ فِي غَايَةِ السَّقُوطِ.
10 لَأَنَّا قَطَعْنَا بُوجُودَ الْبَلَدِ الَّذِي نَحْنُ مُسَافِرُونَ عَنْهُ وَإِنِّيهِ يَقِينًا مَعَ غَيْبَتِهِ عَنْ أَغْيَانِنَا،
وَبُوجُودِ السَّمَاءِ الْمُظَلَّةِ وَالْكَوَاكِبِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْغَائِبَةِ عَنَّا. وَالْإِنْسَانُ قَاطِعٌ بِذَلِكَ،
وَلَا يَكْبُرُ أَحَدٌ نَفْسَهُ فِي الْيَقِينِ.

مَعَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرِيدَ عِنْدَ الْكَشْفِ
رَبَّمَا يُفَرِّضُ لَهُ تَوْهَمُ هَذِهِ الْوَحْدَةِ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْجَمْعِ. ثُمَّ تَرْتَقَى عَنْهُ إِلَى
15 التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَيُعْبَرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِمَقَامِ الْفَرْقِ، وَهُوَ مَقَامُ الْعَارِفِ الْحَقِّقِ.
وَلَا بُدَّ لِلْمُرِيدِ عِنْدَهُمْ مِنْ عَقَبَةِ الْجَمْعِ، وَهِيَ عَقَبَةُ ضَعْفَةٍ، لِأَنَّهُ يُخْشَى عَلَى الْمُرِيدِ مِنْ
وَقُوفِهِ عِنْدَهَا، فَتَخَسَّرُ صَفَقَتُهُ. فَقَدْ تَبَيَّنَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ.

(1) مِنْ ج .

ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء^(ب) الحس، تَوَعَّلُوا في ذلك ، وذهب الكثير منهم إلى الحلول والوَخْدَةِ ، كما أَشْرْنَا إليه ، وملأوا الصُّحُفَ منه ، مثل الهَرْوِيِّ / في كتاب المقامات ، له ، وغيره ، وتابعهم ابن^[1321] العربيّ ، وابنُ سَبْعِينَ وتلميذُهُما ، ثم ابنُ العَفِيفِ ، وابنُ الفَارِضِ ، والنَّجْمُ الإِسْرَائِيلِيّ 5 في قصائدهم. وكان سلفُهُم مُخَالِطِينَ للإِسْنَاعِيَّةِ المتأخِرِينَ من الرَّافِضَةِ ، اللَّائِسِينَ أيضاً بالحلول والهِئَةِ الأَيْمَةِ ، مَذْهَباً لم يُعْرَفْ لأَوَّلِهِمْ. فَأُشْرِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مذهب الآخر ، واختلط كلامُهُم ، وتشابهت عقائِدُهُم.

وظهر في كلام المتصوفة القولُ بِالْقُطْبِ ، ومعناه رأسُ العارفين ، يزعمون أنه لا يُمكن أن يُساوِيَهُ أَحَدٌ في مقامِهِ في المَعْرِفَةِ حَتَّى يَقْبُضَهُ اللهُ. ثم يُوَرِّثُ مقامَهُ لآخر 10 من أهل العِزْفَانِ. وقد أشار إلى ذلك ابنُ سينا في كتابِ الإِشَارَاتِ في فُصولِ التَّصَوُّفِ منها ، فقال^(١) : جَلَّ جَنَابُ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ شِرْعَةً لِكُلِّ وَارِدٍ ، أَوْ يُطَّلَعَ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ. وهذا الكلامُ^(ج) لا تقومُ عليه حُجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ وَلَا دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَنْوَاعِ الْخُطَابَةِ . وهو بَغِينُهُ مَا يَقُولُهُ الرَّافِضَةُ فِي تَوَارِثِ الْأَيْمَةِ عِنْدَهُمْ. فانظر كيف سَرَقَتْ طِبَاعُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ هَذَا الرَّأْيَ مِنَ الرَّافِضَةِ وَذَاتُوا بِهِ. 15

(١) العنوان من ع وحدها (ب) ط: وراعه (ج) ح: ي: كلام .

(1) الإِشَارَاتِ وَالتَّنْبِيهَاتِ ، الْقِسْمَانِ 2 ، 3 ، ص : 851 ، وفيها : شريعة لكل وارد .

ثُمَّ قَالُوا بِتَرْتَبِ وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قال الشيعة في التُّبَاءِ،
 حَتَّى إِنَّهُمْ لَمَّا أَسْنَدُوا لِيَاكُ خِرْقَةَ التَّصَوُّفِ لِيَجْعَلُوهُ أَصْلًا لَطَرِيقَتِهِمْ وَنَحْلَتِهِمْ وَقَفُوهُ
 عَلَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَهُوَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً . وَإِلَّا فَعَلِيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 لَمْ يُخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ بِنَخْلَةٍ وَلَا طَرِيقَةٍ فِي لَبُوسٍ وَلَا حَالٍ ، بَلْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ
 5 وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَرْهَدَ النَّاسَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَكْثَرَهُمْ عِبَادَةً . وَلَمْ يُخْتَصَّ
 أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي الدِّينِ بِشَيْءٍ يُؤَثَّرُ عَنْهُ عَلَى الْخُصُوصِ ، بَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ أَسْوَةً فِي
 الدِّينِ وَالْوَرَعِ وَالزُّهْدِ وَالْجَاهِدَةِ ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ سِيرَتُهُمْ وَأَخْبَارُهُمْ . نَعَمْ ، إِنَّ الشَّيْعَةَ
 يَخْتَلُونَ بِمَا يَقُولُونَ مِنْ ذَلِكَ اخْتِصَاصَ عَلِيٍّ بِالْفَضَائِلِ / دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ ، [321ب]
 ذَهَاباً مَعَ عَقَائِدِ الشَّيْعِ الْمَعْرُوفَةِ لَهُمْ .

10 (١) [وَالَّذِي يَظْهَرُ ، أَنَّ الْمُتَصَوِّفَةَ بِالْعِرَاقِ لَمَّا ظَهَرَتِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ مِنَ الشَّيْعَةِ ،
 وَظَهَرَ مِنْ كَلَامِهِمْ فِي الْإِمَامَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ ، فَاقْتَبَسُوا مِنْ ذَلِكَ
 الْمَوَازِنَةَ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، وَجَعَلُوا الْإِمَامَةَ لِسِيَاسَةِ الْخَلْقِ فِي الْاِتِّقَادِ إِلَى
 الشَّرْعِ ، وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَقَعَ اخْتِلَافٌ كَمَا تَقَرَّرَ فِي الشَّرْعِ ، ثُمَّ جَعَلُوا هَذَا
 الْقُطْبَ لِتَغْلِيمِ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ ، لِأَنَّهُ رَأْسُ الْعَارِفِينَ . وَأَفْرَدُوهُ بِذَلِكَ تَنْشِيهًا بِالْإِمَامِ فِي
 15 الظَّاهِرِ ، مِنْ أَنْ يَكُونَ (ب) عَلَى وَزَانِهِ . وَإِنَّا سَتَمُوهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْمَعْرِفَةِ عَلَيْهِ . وَجَعَلُوا
 الْأَبْدَالَ كَالْتُّبَاءِ ، مَبَالِغَةً فِي التَّشْبِيهِ] .

(١) حاشية افردت بها نسخة ع وحدها، والغريب أنه توجد إشارة للشرح في هذا الموقع متجهة عكس موقع الحاشية (ب) فراءة
 تقريبية لاطلاس الكلمة في الأصل .

فتأمل ذلك من كلام هؤلاء^(أ) المتصوفة، [واعلم أننا يشهد لك بما قلته كلام هؤلاء المتصوفة]^(ب) في أمر الفاطمي وما شنعوا به كتبهم من ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي ولا إثبات. وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق.

[تذيل]^(ج)

5

^(د) وقد رأيت أن أجب هنا فصلاً من كلام شيخنا العارف، كبير الأولياء بالأندلس، أبي مهدي، عيسى بن الزيات، كان يقع له أكثر الأوقات على أبيات الهروي التي وقعت له في كتاب المقامات، له، توهم القول بالوخدة المطلقة أو تكاد تُصرَّح بها. وهي قوله⁽¹⁾: [من السريع]

10

ما وَحَدَ الواحدَ من واحدٍ إِذْ كُلُّ من وَحَدَهُ جاحِدٌ
توحيدٌ من يَنْطقُ عن نَعْتِهِ تَثْنِيَةٌ أَبْطَلَهَا الواحدُ
توحيدُهُ إِثَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ من يَنْعَتُهُ لاجِدٌ

فيقول رحمه الله على سبيل الغدير عنه: استشكل الناس إطلاق لفظ الجحود على كل من وَحَدَ الواحدَ ، ولفظ الإلحاد على من نَعَتَهُ وَوَصَفَهُ . واستنبشوا هذه الأبيات، وحملوا على قائلها واستخفوه. ونحن نقول على رأي هذه الطائفة: إن معنى

15

(أ) سقط من ج (ب) من ط ح، وسقط من ع ي (ج) العنوان من ع وحدها (د) أوردت النسخ ط ع ج كامل نص هذا التذيل، وسقط من ي .

(1) التلمساني : شرح منازل السائرين إلى الحق المبين للهروي 2: 609

التوحيد عندهم انتفاء عَيْنِ الحُدُوثِ بِثُبُوتِ عَيْنِ الْقَدَمِ، وَإِنَّ الْوُجُودَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ
واحدةٌ، وآيَتُهُ واحدةٌ. وقد قال أبو سعيد الخِرَازي، من [كِبَارِ الْقَوْمِ] ^(١): الْحَقُّ عَيْنُ ^(ب)
ما ظَهَرَ وَعَيْنُ ^(ب) ما بَطَنَ. وَيَرَوْنَ أَنَّ وَقُوعَ التَّعَدُّدِ فِي تِلْكَ الْحَقِيقَةِ وَوُجُودَ الْإِثْنَيْنِ
وَهُمَّ بِاعْتِبَارِ خَضْرَاءِ الْحِسِّ بِمَنْزِلَةِ صُورِ الظَّلَالِ وَالصَّدَى وَصُورِ الْمَرَايِي. وَأَنَّ كُلَّ
5 ما سِوَى عَيْنِ الْقَدَمِ إِذَا اسْتَبْعَ فَهُوَ عَدَمٌ. وَهَذَا مَعْنَى "كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ"،
وهو الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ عَنْدهم. وَمَعْنَى قَوْلِ لَبِيدٍ الَّذِي صَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(١)
[فِي قَوْلِهِ (ج)]:

الْأَكْلُ شَيْءٌ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ

قالوا: فَمَنْ وَحَدَ وَنَعَتْ فَقَدْ قَالَ بِمُوحِدٍ مُخَدَّبٍ هُوَ نَفْسُهُ، وَتَوْحِيدٌ مُخَدَّبٌ هُوَ
10 فِعْلُهُ، وَمُوحِدٌ قَدِيمٌ هُوَ مَغْبُودُهُ. / وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَعْنَى التَّوْحِيدِ انْتِفَاءُ عَيْنِ الْحُدُوثِ، [322] أ
وَعَيْنُ الْحُدُوثِ الْآنَ ثَابِتَةٌ، بَلْ وَمُتَعَدِّدَةٌ، وَالتَّوْحِيدُ مَجْهُودٌ، وَاللَّدَعْوَى كَالذِّبَةِ، كَمَنْ
يَقُولُ لَغَيْرِهِ وَهِيَ مَعًا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ^(٢): لَيْسَ فِي الْبَيْتِ غَيْرُكَ، فَيَقُولُ الْآخِرُ بِلِسَانِ
حَالِهِ: لَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا لَوْ عُدِمَتْ أَنْتَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: خَلَقَ اللَّهُ
الزَّمَانَ: هَذِهِ أَلْفَاظٌ تُنَاقِضُ أَصُولَهَا، لِأَنَّ خَلْقَ الزَّمَانِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الزَّمَانِ، وَهُوَ فِعْلٌ

(١) ظ: كِبَارِهِمْ (ب) ظ: غَيْرِ (ج) سَقَطَ مِنْ ظ (د) سَقَطَ مِنْ ع ج .

(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا ... وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: الْبَخَارِيُّ (3841) وَ (6741) وَمُسْلِمٌ (2256) وَعِزُّ الْبَيْتِ: وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ. (انظر شرح ديوان لبید العامري 256)، والبيت من قصيدة يري بها النعمان بن المنذر، طالعها:

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْحَبَ فَيُفْضَى أَمْ ضَلَّالٌ وَبَاطِلُ

لأَبَدٍ من وقوعه في الزمان. وإِنَّمَا حَمَلَ عَلَى ذَلِكَ ضَيْقُ الْعِبَارَةِ عَنِ الْحَقَائِقِ، وَغَجَزِ
اللُّغَاتِ عَنِ تَأْثِيرَةِ الْحَقِّ فِيهَا وَبِهَا.

فَإِذَا تَحَقَّقَ أَنَّ الْمَوْحَدَ هُوَ الْمَوْحَدُ وَغَدِمَ مَا سِوَاهُ جَمْلَةً، صَحَّ التَّوْحِيدُ حَقِيقَةً.
وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ. وَلَا خَرَجَ عَلَى مَنْ وَحَّدَ الْحَقَّ مَعَ بَقَاءِ
الرُّسُومِ وَالْآثَارِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابٍ: حَسَنَاتُ الْأَنْبَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ، لِأَنَّ ذَلِكَ 5
لَا زِمَ التَّقْيِيدِ وَالْمُؤَدِّيَةِ وَالشَّفَعِيَّةِ. وَمَنْ تَرَقَّى إِلَى مَقَامِ الْجَمْعِ كَانَ فِي حَقِّهِ نَقْصًا، مَعَ
عِلْمِهِ بِمَزْنَتِهِ، وَأَنَّهُ تَلْبِيسٌ تَسْتَلْزِمُهُ الْعِبَادِيَّةُ وَيَرْفَعُهُ الشَّهَادَةُ وَيُظْهِرُ مِنْ دَسِّ حُدُوثِهِ
عَيْنَ الْجَمْعِ.

وَأَعْرِقُ الْأَصْنَافِ فِي هَذَا الزَّمْعِ، الْقَائِلُونَ بِالْوَحْدَةِ الْمُطْلَقَةِ، وَمَدَارُ الْمَعْرِفَةِ بِكُلِّ
اعْتِبَارٍ عَلَى الْإِتِّهَاءِ إِلَى الْوَاحِدِ. وَإِنَّمَا صَدَرَ هَذَا الْقَوْلُ مِنَ التَّائِيْمِ عَلَى سَبِيلِ 10
التَّخْرِيطِ وَالتَّنْبِيهِ وَالتَّفْطِيلِ لِمَقَامٍ أَعْلَى، تَرْفَعُ فِيهِ الشَّفَعِيَّةُ وَيَخْصُلُ التَّوْحِيدُ الْمُطْلَقُ
غَيْبًا لَا خُطَابًا وَعِبَارَةً. فَمَنْ سَلَّمَ اسْتِرَاحَ، وَمَنْ نَارَغَتْهُ حَقِيقَتُهُ أَنْسَ بِقَوْلِهِ: كُنْتُ
سَمِعُهُ وَبَصَرُهُ⁽¹⁾. وَإِذَا عَرَفْتَ الْمَعَانِي لَا مُشَاحَّةَ فِي الْأَلْفَاظِ. وَالَّذِي يُفِيدُهُ هَذَا
كُلُّهُ تَحَقُّقُ أَمْرِ فَوْقَ هَذَا الطَّوْرِ لَا نُطْقَ فِيهِ وَلَا خَبَرَ عَنْهُ. وَهَذَا الْمِقْدَارُ مِنَ الْإِشَارَةِ
كَافٍ؛ وَالتَّعَمُّقُ فِي مِثْلِ هَذَا حِجَابٌ، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَعَ فِي الْمَقَالَتِ الْمَعْرُوفَةِ. 15
انتهى كلام الشيخ أبي مهدي ابن الزيات⁽¹⁾. ونقلته^(ب) من كتاب الوزير ابن

(1) سقط من ع (ب) سقط من ع ح .

(1) قطعة من الحديث القدسي: "من عاذ لي ولينا" الذي تفرّد به البخاري: 8: 131 حديث رقم (6502) .

الخطيب الذي أُلِّفه / في المحبّة، وسَمَاهُ^(١) التعريف بالحَبِّ الشريف. وقد سَمِعْتُهُ من [322ب] شَيْخِنَا أَبِي مَهْدِي مِرَارًا، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ [أَنْ]^(٢) رَسَمَ الْكِتَابِ أَوْعَى لَهُ لَطُولَ عَهْدِي بِهِ. [والله الموفق]^(ب).

^(ج) تَمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْفُنَائِ انْتَدَبُوا لِلزَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَاتِ وَأَمْثَالِهَا، وَشَمَلُوا بِالتَّكْثِيرِ سَائِرَ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي الطَّرِيقَةِ. وَالْحَقُّ أَنَّ الْكَلَامَ مَعَهُمْ فِيهِ تَفْصِيلٌ. فَإِنَّ كَلَامَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ:

أَحَدُهَا: الْكَلَامُ عَلَى الْمَجَاهِدَاتِ، وَمَا يَخْصُلُ مِنَ الْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِدِ، وَمُحَاسِنَةِ التَّنَفُّسِ عَلَى الْأَعْمَالِ لِتَخْصُلَ تِلْكَ الْأَذْوَاقُ الَّتِي تَصِيرُ مَقَامًا، وَيَتَرَقَّى مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا قُلْنَا.

10 وَثَانِيهَا: الْكَلَامُ فِي الْكَشْفِ وَالْحَقَائِقِ الْمَدْرَكَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، مِثْلَ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْعَرْشِ، وَالْكَرْسِيِّ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالْوُخْيِ، وَالتَّبَوُّةِ، وَالتَّوْحِجِ، وَحَقَائِقِ كُلِّ مَوْجُودٍ غَائِبٍ أَوْ شَاهِدٍ، وَتَرْتِيبِ الْأَكْوَانِ فِي صُدُورِهَا عَنْ مُوجِدِهَا وَمَكُونِهَا، كَمَا مَرَّ. وَثَالِثُهَا: التَّصَرُّفَاتُ فِي الْعَوَالِمِ وَالْأَكْوَانِ بِأَنْوَاعِ الْكَرَامَاتِ.

15 وَرَابِعُهَا: الْفَاطُ مَوْهِمَةُ الظَّاهِرِ، صَدَرَتْ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ أَيْمَةِ الْقَوْمِ، يُعْتَبِرُونَ عَنْهَا فِي اضْطِلَاحِهِم بِالشَّطَطَاتِ تُشْتَشْكَلُ ظَوَاهِرُهَا، فُتُكْزَرُ، وَمُحَسَّنٌ، وَمُتَأَوَّلٌ.

(أ) من ج ع، وسقط من ط (ب) من ع ج وسقط من ط (ج) بدء استئناف نسخة ي للنص بعد اقتطاعها.

(1) ابن الخطيب: التعريف 499.

فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأدواق والمواجه في نتائجها، ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها، فأمر لا مدفع فيه لأحد. وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق بها هو عين السعادة.

وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات، فأمر صحيح غير منكر، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها، فلئس ذلك من الحق. وما 5 احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني من أئمة الأشعرية على إنكارها بالتياسها بالمعجزة⁽¹⁾، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتخدي، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا: ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور، لأن دلالة المعجزة / على الصدق عقلية، فإن صفة نفسها التصديق. فلو [323] وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة النفس، وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد 10 بوقوع الكثير من هذه الكرامات، وإنكارها نوع مكابرة. وقد وقع للصحابه وأكابر السلف كثير من ذلك؛ وهو معلوم مشهور.

وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات، فأكثر كلامهم فيه من نوع التشابه لما أنه وجداني عندهم. وفاقد الوجدان بمغزل عن أدواقهم فيه. واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه، لأنها لم توضع إلا للمتعارف، 15 وأكثره من المخسوسات. فينبغي أن لا نعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من التشابه. ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة، فأكرم بها سعادة.

(1) انظر الرسالة الفشرية: 158 (باب كرامات الأولياء).

وأما الألفاظ الموهبة التي يعبرون عنها بالشطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشّرع، فاعلم أنّ الإنصاف في شأن القوم أنّهم أهل غيبة عن الحسّ، والواردات تملّكهم حتّى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه. وصاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور. فمن علم منهم فضله واقْتِداؤه، حُمل على القصد الجميل من هذا وأمثاله، وأنّ العبارة عن المواجه صعبة لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد [البسطامي] ⁽¹⁾ ⁽¹⁾ وأمثاله. ومن لم يعلم فضله ولا اشتبه، فمواخذ بما صدر عنه من ذلك، إذ لم يتبين لنا ما يحمله على تأويل كلامه. وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسّه ولم تملكه الحال، فمواخذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوّفة بقتل الحلاج، لأنّه تكلم في حضور وهو مالك لحاله. والله أعلم.

10 وسأل المتصوّفة من أهل الرسالة، أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل، لم يكن لهم جزئ على كشف الحجاب، ولا هذا التوع من الإدراك. إنّما همّهم الاتّباع والاقْتِداء ما استطاعوا. / ومن غرض له شيء من ذلك أغرض عنه ولم يحفل به، [323ب] بل يبرّون منه، ويرون أنّه من العوائق والمخن، وأنّه إدراك من إدراكات النّفس مخلوق حادث، وأنّ الموجودات لا تتحصّر في مدارك الإنسان، وعلم الله أوسع، وخلق أكبر، وشرعيته بالهداية أمّلك. فلم ينطقوا بشيء مما يذكرون، بل خطرنا 15 الحوض في ذلك، ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الحوض فيه والوقوف عنده. بل يلتزمون طريقتهنّ كما كانوا في عالم الحسّ قبل الكشف من

(1) من ع، وسقط من ط ج ي .

(1) كان يقول: سبحاني ما أعظم شاني ! انظر الصفدي : الوافي 16 : 516 .

الاتباع والافتداء، ويأمرُونَ أصحابَهُم بالتزامها. وهكذا ينبغي أن تكونَ حالُ المريد.
واللهُ الموفقُ.

18 • علمُ تعبيرِ الرؤيا

هذا العلمُ من العلومِ الشرعيّةِ ، وهو حادثٌ في المِلَّةِ عندما صارت العلومُ صنائعَ وكتبَ الناسِ فيها . وأمّا الرؤيا والتعبيرُ لها فقد كان موجوداً في السلف كما هو في الحلف . ورُبّما كان في المللِ والأممِ من قَبْلُ ، إلّا أنه لم يصلِ إلينا للاكتفاء فيه بكلامِ المُعَبِّرِينَ من أهلِ الإسلام . وإلّا فالرؤيا موجودةٌ في صَنِيفِ البشرِ على الإطلاق ، ولا بُدَّ من تعبيرِها . وقد كان يُوسُفُ الصديقُ صلواتُ الله عليه يُعَبِّرُ الرؤيا ، كما وقَعَ في القرآن . وكذا ثَبَتَ في الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وعن أبي بَكْرٍ رضي الله عنه ⁽¹⁾ .

والرؤيا مَذْرُوعٌ من مَدَارِكِ الغَيْبِ . وقال ﷺ ⁽²⁾ : "الرؤيا الصّالحةُ جُزْءٌ من 10
سِتَةِ وأربعينَ جزءاً من التَّوْبَةِ" . وقال ⁽³⁾ : "لم يَبْقَ من المُنْشَرَاتِ إلّا الرؤيا الصّالحةُ ، يراها الرّجلُ الصّالحُ أو تُرى له" . وأوَّلُ ما بُدئَ به النَّبِيُّ ﷺ من الوُحْيِ الرؤيا .

(1) ينظر في ذلك مجمل كتاب "التعبير" في صحيح البخاري 9: 37-58 ففيه عشرات الأحاديث التي عبرها رسول الله ﷺ وأبو بكر أيضاً .

(2) أخرجه مالك في الموطأ (2746) برواية الليثي ، وأحمد 3: 149 والبخاري (6983) وابن ماجه (3893) وغيرهم .

(3) أخرجه مالك في الموطأ (2749) برواية الليثي من حديث عطاء بن يسار مرسلاً . وأخرج البخاري (6990) من حديث أبي هريرة القسم الأول منه . وقال ابن عبد البر: وحديث عطاء بن يسار المذكور في هذا الباب يتصل معناه من وجوه ثابته من حديث ابن عباس ، وحذيفة ، وابن عمرو ، وعائشة ، وأم كرز الخزاعية . (التمهيد 5: 56) .

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح⁽¹⁾. وكان ﷺ إذا افتل من صلاة الغداة يقول لأصحابه: "هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟"⁽²⁾ يسألهم عن ذلك ليستبشّر بما يقع من ذلك مما فيه ظهور الدين وإعزازه.

- / وأما السبب في كون الرؤيا مذكراً للغيب، فهو أن الروح القلبي، وهو [324] البخار اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللخمي، ينتشر في الشريانات ومع الدم في سائر البدن، وبه تكمل أفعال القوى الحيوانية وإحساسها. فإذا أدركه الملال بكثرة التصرف في الإحساس بالحواس الخمس، وتصريف القوى الظاهرة، وغشي سطح البدن ما يغشاه من بزد الليل، انخس الروح من سائر أقطار البدن إلى مركزه القلبي يستجم بذلك لمعاودة فعله، فتعطلت الحواس الظاهرة كلها. وذلك هو معنى النوم، كما تقدم في أول الكتاب. 10

ثم إن هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الإنسان. والروح العاقل مدرك لجميع ما في عالم الأمر بذاته، إذ حقيقته وذاته أنه عين الإدراك. وإنما يمنع من ثقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه. فلو قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه، لرجع إلى حقيقته، وهو عين الإدراك، فيقبل كل مدرك. 15 فإذا تجرد عن بعضها خفت شواغله، فلائذ له من إدراك لمحة من عاليه بقدر ما تجرد له. وهو في هذه الحالة قد خفت عنه شواغل الحس الظاهر

(1) أخرجه البخاري (3) و (4670) و (6581) ومسلم (160) والترمذي (3632) وفيه تمام تحريجه .
(2) أخرجه مالك في الموطأ (2748 برواية الليثي) وأحمد 2: 325 من حديث أبي هريرة، وأخرجه البخاري (845) و (1386) و (2085) و (2791) ومسلم (2275) من حديث سمرة بن جندب . وله طرق أخرى.

كلها، وهي الشاغل الأعظم. فاستعدَّ لقبول ما هنالك من المدارك اللَّائِقَة به من عالمه. وإذا أدرك ما يُدرك من عوالمه^(أ)، رجع به إلى بدنه، إذ هو ما دام في بدنه جسائياً، لا يمكنه التَّصَرُّف إلا بالمدارك الجسائية. والمدارك الجسائية للعلم إنما هي الدِّماغية، والمتصرِّف منها هو الخيال. فإنه يتنزع من الصُّور المحسوسة صُوراً خياليةً، ثم يَدْفَعُها إلى [الحافظة]^(ب) تحفظها له إلى وقت الحاجة إليها عند التَّطَرُّ 5 والاستِذلال. وكذلك تُجَرِّدُ النَّفْسُ منها صُوراً أخرى نفسائيةً عقليةً، فيترقى التجريدُ من المحسوس / إلى المَقُول، والخيالُ واسِطةٌ بينهما. وكذلك إذا أدركتِ النَّفْسُ من عالمها ما تُدركه، أَلْقَتْهُ إلى الخيال، فيصوِّره بالصُّور المناسبة له، ويدفعه إلى الحِسِّ المُشْتَرَك، فیراه النَّائِمُ كأنه محسوس، فيتَنَزَّلُ [هذا]^(ج) المُدْرَك من الروح العقلِي إلى الحِسِّ، والخيالُ أيضاً واسِطةٌ.

10

هذا حقيقةُ الرُّؤْيَا؛ ومن هذا التَّقرير، يظهر لك الفرقُ بين الرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ وأضغاثِ الأَخْلَامِ الكاذِبَةِ. فإنها كُلُّها صُورٌ في الخيالِ حالةُ التَّوَم. لكن إن كانت تلك الصُّورُ منتزلةً من الروح العقلِي المدركِ فهي رُؤْيَا، وإن كانت مأخوذةً من الصُّور الَّتِي في الحافظة الَّتِي كان الخيالُ أودعها إياها مُنْذُ اليَقَظَةِ، فهي أضغاثُ 15 أَخْلَامٍ.

^(د) * [وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ] علاماتٌ تُوْذِنُ بِصِدْقِهَا وَتَشْهَدُ بِصَحَّتِهَا،

(أ) ج: عالمه (ب) ط: الحافظ (ج) من ع، وسقط من ط ي ج (د) هذا النص مبرج في متن نسخة ع، ومضاف في بطاقة على نسخة ج، وسقط من ط ي (ه) ج: والرُّؤْيَا الصادقة .

فَيَسْتَشْعِرُ الزَّائِي الْبَشَارَةَ مِنْ اللَّهِ بِمَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ فِي تَوَمِهِ. فَمِنْهَا: سُرْعَةُ انْتِبَاهِ الزَّائِي
عِنْدَمَا يُدْرِكُ الرُّؤْيَا، كَأَنَّهُ يُعَاجِلُ الرَّجُوعَ إِلَى الْحِسِّ بِالْيَقِظَةِ، وَلَوْ كَانَ مُسْتَعْرِفًا فِي
تَوَمِهِ لَيُثَلَّ مَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ. فَيَفْزِعُ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ إِلَى حَالَةِ الْحِسِّ
الَّتِي تَبْقَى النَّفْسُ فِيهَا مُنْعَمِسَةً بِالْبَدَنِ وَعَوَارِضَهُ. وَمِنْهَا: ثُبُوتُ ذَلِكَ الْإِدْرَاكِ وَدَوَامُهُ
بِالْإِطْبَاعِ تِلْكَ الرُّؤْيَا بِتَفَاصِيلِهَا فِي حِفْظِهِ، فَلَا يَتَخَلَّلُهَا سَهْوٌ وَلَا نِسْيَانٌ، وَلَا يَحْتَاجُ
إِلَى إِخْصَارِهَا بِالْفِكْرِ وَالتَّذَكُّرِ، بَلْ تَبْقَى مُتَصَوِّرَةً فِي ذَهْنِهِ إِذَا انْتَبَهَ، وَلَا يَقْرُبُ عَنْهُ
مِنْهَا شَيْءٌ، لِأَنَّ الْإِدْرَاكَ التَّقْسَائِيَّ لَيْسَ بِزَمَانِيٍّ، وَلَا يُلْحَقُهُ تَرْتِيبٌ، بَلْ يُدْرِكُهُ دُفْعَةً
فِي زَمَنِ فَرْدٍ.

وَأَضْغَاثُ الْأَخْلَامِ زَمَانِيَّةٌ، لِأَنَّهَا فِي الْقُوَى الدَّمَاعِيَّةِ، يَسْتَخْرِجُهَا الْخِيَالُ مِنْ
الْحَافِظَةِ إِلَى الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ، كَمَا قُلْنَا. وَأَفْعَالُ الْبَدَنِ كُلُّهَا زَمَانِيَّةٌ، فَيُلْحَقُهَا التَّرْتِيبُ
فِي الْإِدْرَاكِ، وَالْمُتَقَدِّمُ وَالْمُتَأَخَّرُ، وَيَعْرِضُ النَّسْيَانُ الْعَارِضُ لِلْقُوَى الدَّمَاعِيَّةِ. وَلَيْسَ
كَذَلِكَ مَدَارِكُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ، إِذْ لَيْسَتْ بِزَمَانِيَّةٍ وَلَا تَرْتِيبُ فِيهَا. وَمَا يَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ
الْإِدْرَاكِاتِ فَيَنْطَبِعُ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي أَقْرَبِ مِنْ لَفْحِ الْبَصَرِ. وَقَدْ تَبَقَّى الرُّؤْيَا بَعْدَ
الِاتِّبَاهِ حَاضِرَةً فِي الْحِفْظِ إِيَّامًا مِنَ الْعَمْرِ، لَا تَشْدُ بِالْغَفْلَةِ عَنِ الْفِكْرِ بَوَاحٍ إِذَا كَانَ
الْإِدْرَاكِ الْأَوَّلُ [لَهَا] ⁽¹⁾ قُوًيًا. وَإِذَا كَانَ إِنْبَاءُ يَتَذَكَّرُ الرُّؤْيَا بَعْدَ الْإِنتِبَاهِ مِنَ التَّوَمِ بِإِعْمَالِ
الْفِكْرِ وَالْوَجْهَةِ إِلَيْهَا، أَوْ يَنْسَى الْكَثِيرَ مِنْ تَفَاصِيلِهَا حَتَّى يَتَذَكَّرَهَا، فَلْيَنْسَ الرُّؤْيَا
بِصَادَقَةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ أَضْغَاثِ الْأَخْلَامِ.

(1) مِنْ ج .

وهذه العلامات من خواص الوحي . قال الله تعالى لَنَبِيِّهِ : ﴿ لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لَيَجْعَلْ بِهِ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ ، وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [سورة القيامة، الآيات 16- 19] . والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي، كما في الصحيح . قال ﷺ⁽¹⁾ : "الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" . فلخواصها أيضاً نسبة إلى خواص النبوة بذلك القدر . فلا تَسْتَبْعِدُ ذلك ، فهذا وَجْهُهُ . والله 5 الخالق لما يَشَاءُ⁽¹⁾ .

وأما معنى التعبير ، فاعلم أنَّ الروحَ العقليَّ إذا أدركَ مُدْرَكَهُ وألقاهُ إلى الخيال فصَوَّرَهُ ، فَإِنَّمَا يُصَوِّرُهُ في الصَّوْرِ الْمُنَاسِبَةِ لذلك المَعْنَى بعضُ الشَّيْءِ . كما يدرك مَعْنَى السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ ، فيصَوِّرُهُ الْخَيَالُ بِصُورَةِ الْبَحْرِ ، أو يُدْرِكُ الْعِدَاةَ فيصَوِّرُهَا الْخَيَالُ في صورة الْحَيَّةِ . فإذا اسْتَبْقِظَ وهو لم يَعْلَمْ من أَمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَأَى الْبَحَرَ أو الْحَيَّةَ ، فيَنْظُرُ 10 الْمَعْبَرُ بِقُوَّةِ التَّشْبِيهِ بعد أن يَلْتَقِنَ أَنَّ الْبَحَرَ صُورَةٌ مُحَسَّسَةٌ وَأَنَّ الْمُدْرِكَ وِراءَهَا ، وَيَهْتَدِي^(ب) بِقَرَائِنٍ أُخْرَى تَعَيَّنُ لَهُ الْمُدْرِكُ ، فيقول مثلاً: هو السُّلْطَانُ ، لأنَّ الْبَحَرَ خَلَقَ عَظِيمٌ يُنَاسِبُ أن يَشَبَّهُ به السُّلْطَانُ . وكذا الْحَيَّةُ ، يُنَاسِبُ أن تُشَبَّهُ بِالْعِدُوِّ لِعَظَمِ^(ج) ضَرَرِهَا . وكذا الْأَوَانِي تُشَبَّهُ بِالنِّسَاءِ ، لِأَنَّهُنَّ أَوْعِيَةٌ . وأمثال ذلك .

ومن المَرَاتِي ما يَكُونُ صَرِيحاً لَا تَقْتَضِيهِ إِلَى تَغْيِيرِ جَلَالِهَا وَوُضُوحِهَا ، أو قُرْبِ 15 [النِّسْبَةِ]^(د) فيها بين الْمُدْرِكِ وَشِبْهِهِ . ولهذا وَقَعَ في الصَّحِيحِ : "الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ : رُؤْيَا مَنْ

(1) نهاية النقص المدرج في متن نسخة ع ، والمضاف في بطاقة على نسخة ج ، وقد سقط من ط ي (ب) في ي : وهو عتدي (ج) في ع : لعظيم (د) ط ي : التشبيه .

(1) تقدّم تخرجه في صفحة 281 حاشية 2 .

الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان⁽¹⁾. فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل، والتي من الملك هي / الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير، [325] والرؤيا التي من الشيطان هي الأضغاث.

واغلم أيضاً أن الخيال إذا ألقى إليه الروح مذركه، فإنما يصوره في القوالب 5 المعتادة للجس. وما لم يكن الحس أذركه قط من القوالب فلا يصور فيه شيئاً. فلا يمكن من ولد أغمى أكه⁽¹⁾ أن يصور له السلطان بالبحر، ولا العدو بالحية، ولا النساء بالأواني، لأنه لم يذك شيئاً من هذه، وإنما يصور له الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبتها من جنس مداركه التي هي المسموعات والمشموماث. وليتحفظ المعبر من مثل هذا، فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه.

ثم إن علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة ما يقص عليه. وتأويله كما 10 يقولون: البحر يدل على السلطان. وفي موضع آخر يقولون: البحر يدل على الغيظ، وفي موضع آخر على الهمة والأمر الفادح. ومثل ما يقولون: الحية تدل على العلو. وفي موضع آخر يقولون: *تدل على الحياة. وفي موضع آخر يقولون *^(ب): هي كاتم سر، وأمثال ذلك. فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية، ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي تُعبر من هذه ما هو ألقى بالرؤيا. وتلك القرائن، منها في النقطة، ومنها في 15 النوم، ومنها ما يتقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلقت فيه. وكل ميسر لما خلق له.

(1) حاشية مضافة في ع لم تدرجها ط ج ي (ب) من ع ط، واغفلها ج ي.

(1) البخاري 9: 48 (7017)، مسلم (2263)، وتقدم في الجزء الأول 1: 186 (1).

ولم يزل هذا العلم يتناقل بين السلف، وكان محمد بن سيرين فيهم من أشهر العلماء به . وكُتِبَتْ عنه في ذلك قوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد . وآلف الكيرماني فيه من بعده، ثم آلف المتأخرون وأكثروا. والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني، من علماء أهل القيروان، مثل المفتع⁽¹⁾ وغيره. وكتاب الإشارة للسالبي من أشنع الكتب فيه [وأخصرها]. وكذلك كتاب المزقة العليا 5 لابن راشد، من مشيختنا بتونس^(ب).

[325ب] وهو علم مضيء بنور النبوة ، للمناسبة التي بينهما ، ولكونها / كانت من مدارك الوحي، كما ثبت في الصحيح⁽¹⁾. ﴿وَاللَّهُ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سورة التوبة، من الآية 78].

19 ● العلوم العقلية وأصنافها

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان من حيث إنه ذو فكر، فهي غير مختصة ببلد، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم، ويستنون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني مذ كان عمرأ الحليقة. وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة.

(1) سقط من ج (ب) من ع وحدها، لم تدرجه ط ي ج .

(1) يشير إلى حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ: "الرويا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة". وتقدم تخريجها في صفحة (281) .

وهي مُشْتَمِلَةٌ على أَرْبعة علوم:

الأول، عِلْمُ الْمَنْطِق. وهو عِلْمٌ يَغْصُمُ الذَّهْنَ عَنِ الْخَطَا فِي اقْتِنَاصِ الْمَطَالِبِ الْمَجْهُولَةِ مِنَ الْأُمُورِ الْحَاصِلَةِ الْمَعْلُومَةِ^(أ). وفَائِدَتُهُ تَمْيِيزُ الْخَطَا مِنَ الصَّوَابِ فِيمَا يَلْتَمِسُهُ التَّائِظُ فِي الْمَوْجُودَاتِ وَعَوَارِضِهَا^(ب) لِيَقِفَ عَلَى تَحْقِيقِ الْحَقِّ فِي الْكَائِنَاتِ [نَفْسِيًا وَثُبُوتًا] ^(ج) بِمُنْتَهَى فِكْرِهِ. 5

ثمَّ التَّنَظُّرُ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، إِمَّا فِي الْمُحْسُوسَاتِ مِنَ الْأَجْسَامِ الْغُنْصَرِيَّةِ وَالْمَكُونَةِ عَنْهَا مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ، وَالْأَجْسَامِ الْفَلَكيَّةِ، وَالْحَرَكَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ، أَوْ التَّنْقِيسِ الَّتِي تَتَّبَعُ عَنْهَا الْحَرَكَاتُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ. وَيُسَمَّى هَذَا الْقُلُّ بِالْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ، وَهُوَ الْعِلْمُ الثَّانِي مِنْهَا.

وإِذَا أَنْ يَكُونَ التَّنَظُّرُ فِي الْأُمُورِ الَّتِي وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّاتِ، وَيُسَمُّوهُ الْعِلْمَ الْإِلَهِيِّ، وَهُوَ الْعِلْمُ الثَّالِثُ مِنْهَا. 10

وَالْعِلْمُ الرَّابِعُ، وَهُوَ التَّائِظُ فِي الْمَقَادِيرِ. وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعَةِ عُلُومٍ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى التَّعَالِيمَ.

أَوَّلُهَا: عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ، وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْمَقَادِيرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، إِمَّا الْمُتَفَصِّلَةَ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا مَعْدُودَةً، أَوْ الْمُتَّصِلَةَ^(د). وَهِيَ إِمَّا ذُو بُعْدٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْخَطُّ، أَوْ ذُو بُعْدَيْنِ، وَهُوَ السَّطْحُ، أَوْ ذُو أَبْعَادٍ ثَلَاثَةٍ، وَهُوَ الْجِسْمُ التَّعْلِيْمِيُّ. يُنَظَرُ فِي هَذِهِ 15

(أ) سقط من ج (ب) كذا في ط ج ي، وفي ع: التصورات والتصديقات اللَّائِيَّةُ والعرضية، ليف (ج) من ع، وسقط من ط ج ي (د) ع: متصلة.

المقادير وما يَغْرِضُ لها، إمّا من حيث ذاتها ، أو من حيث نسبة بعضها إلى بعض.

وثانيها: علم الأهرتاطيقى، وهو معرفة ما يَغْرِضُ للكَمِّ المنفصل الذي هو [1326] العدّد، ويوجد له من الخواصّ والعوارض / اللّاحقة.

وثالثها: علم الموسيقى، وهو معرفة نِسَبِ⁽¹⁾ الأصوات والتّغَمُّ بعضها من 5 بعض، وتقدّيرها بالعدّد. وثمّ رتبه معرفة تلاحين الغناء.

ورابعها: علم الهيئة، وهو تعيين الأشكال للأفلاك، وحصر أوضاعها، وتعدّها لكلِّ كوكبٍ من السّيّارة [الثّابتة]^(ب)، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السّماوية المشاهدة الموجودة لكلِّ واحدٍ منها ، ومن رُجوعها واستقامتها وإقبالها وإذبارها.

10

فهذه أصول العلوم الفلّسفيّة، وهي سبعة: المنطق، وهو المقدّم، وتعدّه التّعاليم. فالأهرتاطيقى أولاً، ثمّ الهندسة، ثمّ الهيئة، ثمّ الموسيقى، ثمّ الطبيعيات، ثمّ الإلهيات.

ولكلّ واحدٍ منها فروع تتفرّع عنه. فمن فروع الطبيعيات الطّب، ومن فروع 15 علم العدّد علم الحساب، والفرائض، والمعاملات. ومن فروع الهيئة الأزياج ، وهي قوانين لحسابات حركات الكواكب وتقدّيلها، ليوفّق على مواضعها متى قصد ذلك. ومن فروع النّظر في النّجوم علم الأخكام النّجومية.

(1) من ط ج ي ، وفي ع: بنسبة (ب) من ع، وسقط من ط ج ي .

ونحن نتكلّم عليها واحداً بعد واحدٍ إلى آخرها.

واعلم أنّ أكثرَ من عُنيَ بها في الأجيال [الذين]^(أ) عرفنا أخبارَهم، الأُمّتانِ العظيمَتانِ في الدّولةِ قَبْلَ الإسلامِ، وهما فارسُ والرومِ. فكانت أسواقُ العلومِ نافقةً لديهم على ما بلغنا، لما كان العُمُرانُ موفوراً فيهم، والدّولةُ والسّلطانُ قُبيلَ الإسلامِ 5 وعَصَرِهِ لهنّ. فكان لهذه العلومِ بُحورٌ زاخرةٌ في آفاقِهم وأمصارِهم.

وكان للكَلْدَانِيَيْنِ ومن قَبْلَهُم من السّريانيّين ومن عاصرَهُم من القِبْطِ، عنايةٌ بالسّحر والتّجامةِ، وما يتبَعُها من التّأثيراتِ والطَّلَسَماتِ. وأخذ ذلك عنهم الأُمَمُ، من فارسِ ويونانِ، واختصّ به القِبْطُ، وطَمَأَ بِجَرُها فيهم، كما وَقَعَ في المثلُوفِ من خَبَرِ هاروتَ / وماروتَ وشأنِ السّحرةِ، وما نَقَلَهُ أَهْلُ العالَمِ^(ب) من شأنِ البرابي^(ج) [326ب] بصعيدِ مِصرَ. ثمّ تَتَابَعَتِ المِلَلُ بِحَظَرِ ذلك وتَحْرِيمِهِ، فدرَسَتْ علومُهُ وبَطَلَتْ كأن لم تَكُنْ، إلّا بقايا يَتَنَاقَلُها مُنْتَحِلُو هذه الصّنائِعِ، اللهُ أَغْلَمُ بِصِحَّتِها. مع أنّ سِوَفَ الشّرعِ قائِمةٌ على ظُهورِها ومِائِعةٌ من [اختيارِها]^(د).

وأما الفُرسُ، فكان شأنُ هذه العلومِ العَقْلِيَّةِ عِنْدَهُم عَظِيماً ونِطاقُها مُتَسِعاً، لما كانت^(هـ) عليه دُولُهُم من الضّخامةِ واتّصالِ المُلُكِ. ولقد يُقالُ: إنّ هذه العلومَ إمّا وَصَلَتِ إلى يونانَ منهم، حينَ قَتَلَ الإسكندرُ داراً وغَلَبَ على مَمْلَكَةِ الكِينيَّةِ، 15 فاستَوَلَى على كَثِبِهِم وعلومِهِم. إلّا أنّ المسلمينَ لما افْتَتَحُوا بلادَ فارسِ وأصابوا من

(أ) من ع، وفي ط ج ي: ألّذي (ب) من ط ج ي، وفي ع: العَلَم (ج) في ع: البرابي (د) من ع، وفي ط ج ي: اختباها (هـ) في ج: كان .

كتبهم وصحائف علومهم ما لا يأخذه الحصر، كتب سعد ابن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنفيذها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها^(١) في الماء، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضللاً فقد كفناه الله؛ فطرحوها في الماء أو في النار، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا.

5

وأما الروم، فكانت الدولة منهم^(ب) ليونان أولاً. وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب، وحملها مشاهير من رجالهم، مثل أساطين الحكمة وغيرهم. واختص فيها المشاءون، منهم أصحاب الرواق، بطريقة حسنة في التعليم، كانوا يقرأون في رواق يظلهم من الشمس والبرد على ما زعموا. واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم في تلميذه إلى سُقراط الدن، ثم إلى تلميذه أفلاطون، ثم إلى 10 تلميذه أرسطو، ثم إلى تلميذه الإسكندر الأفروديسي وتامسطيوس، وغيرهم. وكان أرسطو معلماً للإسكندر، ملكهم الذي غلب الفرس على ملكهم وانتزع الملك من أيديهم. وكان أرسطو في هذه العلوم قدماً وأبعدهم فيها صيتاً وشهرة. وكان يسمى [327] / المعلم الأول، فطار له في العالم ذكر.

ولما انقرض أمر اليونانيين، وصار الأمر للقيصرية، وأخذوا بدين التصراعية، 15 هجروا^(ج) تلك العلوم كما تقتضيها الملل والشرائع فيها، وبقيت في صُحفها ودواوينها مغلدة باقية في خزائنها. ثم ملكوا الشام وكُتب هذه العلوم باقية فيهم.

(١) من ط ج ي، وفي ع: اطرحوها (ب) ج: فهم (ج) ط: وهجروا.

ثم جاء الله بالإسلام، وكان لأهلِهِ الظُّهُورُ الَّذِي لَا كِفَاءَ لَهُ. وَابْتَدَأُوا الرُّومَ مُلْكُهُمْ فِيمَا ابْتَدَأُوا لِلْأُمَمِ. وَابْتَدَأَ أَمْرُهُمْ بِالسِّدَاجَةِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الصَّنَائِعِ، حَتَّى إِذَا تَبَخَّخَ السُّلْطَانُ وَاللَّوْثَةُ، وَأَخَذُوا مِنَ الْحَضَارَةِ بِالْحِطِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لغيرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَتَقَنَّنُوا فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ، تَشَوَّفُوا إِلَى الْإِطْلَاقِ عَلَى هَذِهِ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ بِمَا سَمِعُوا 5 مِنَ الْأَسَاقِفَةِ وَالْأَقْسَمَةِ الْمُعَاهِدِينَ بَعْضَ ذِكْرِ مُنْهَا، وَمَا تَنَسَّمُوا إِلَيْهِ أَفْكَارُ الْإِنْسَانِ فِيهَا. فَبَعَثَ أَبُو جَعْفَرُ الْمَنْصُورُ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِكُتُبِ النِّعَالِمِ مُتَرَجِّمَةً. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِكِتَابِ أَوْفَلِيدَش، وَبَعْضِ كُتُبِ الطَّبِيعِيَّاتِ. وَقَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ وَاطَّلَعُوا عَلَى مَا فِيهَا، وَازْدَادُوا جِزْصاً عَلَى الطُّفَرِ بِمَا بَقِيَ [مِنْهَا] ⁽¹⁾.

وجاء المأمون من بغداد ذلك، وكانت له في العلم رغبة بما كان يُنتَجَلُهُ. فَانْبَعَثَ 10 لِهَذِهِ الْعُلُومِ جِزْصاً، وَأَوْفَدَ الرَّسَلَ عَلَى مَلُوكِ ^(ب) الرُّومِ فِي اسْتِخْرَاجِ عُلُومِ الْيُونَانِيِّينَ وَائْتِسَاجِهَا بِالْحِطِّ الْعَرَبِيِّ. وَبَعَثَ الْمُتَرَجِّمِينَ لَذَلِكَ، فَأَوْعَى مِنْهُ وَاسْتَوْعَبَ. وَعَكَّفَ عَلَيْهِمُ النَّظَارَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَحَذَقُوا فِي فُنُونِهَا، وَانْتَهَتْ إِلَى الْغَايَةِ أَنْظَارُهُمْ فِيهَا. وَخَالَفُوا كَثِيراً مِنْ آرَاءِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ، وَاخْتَصَّصُوا بِالرَّدِّ وَالْقَبُولِ لَوْقُوفِ الشُّهُرَةِ عِنْدَهُ. وَدَوَّنُوا فِي ذَلِكَ الدَّوَاوِينَ، وَأَزَوَّنَا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ.

وكان من أكابرِهِمْ فِي الْمِلَّةِ أَبُو نَصْرِ الْفَارَابِيُّ، وَأَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا بِالْمَشْرِقِ، 15 وَالْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رُسْدَنَ، وَالْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الصَّائِغِ بِالْأَنْدَلُسِ، / إِلَى آخِرِينَ [327ب] بَلَّغُوا الْغَايَةَ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ، وَاخْتَصَّصُوا هَؤُلَاءِ بِالشُّهُرَةِ وَالذِّكْرِ. وَاقْتَصَرَ كَثِيرٌ عَلَى

(1) من ع ج ي، وفي ظ: فيها (ب) ج: ملك .

اِثْبَاطُ التَّعَالِيمِ وما يَتَضَافُ إِلَيْهَا مِنْ عُلُومِ التَّجَامَةِ وَالشَّخَرِ وَالطَّلَسَاتِ. وَوَقَفَتْ
الشُّهُرُ فِي هَذَا الْمُتَخَلِّ عَلَى [جَابِرِ بْنِ حَيَّانٍ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ]^(١)، وَعَلَى مُسَلِّمَةَ
[ابن أحمد]^(ب) الْمَجْرِيَّةِ، مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ وَتَلْمِيزِهِ. وَدَخَلَ عَلَى الْمِلَّةِ - مِنْ هَذِهِ
الْعُلُومِ وَأَهْلِهَا - دَاخِلَةٌ. وَاسْتَهْوَتْ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ بِمَا جَنَحُوا إِلَيْهَا وَقَلَّبُوا آرَاءَهَا. وَالذَّنْبُ
فِي ذَلِكَ لَمْ يَزْكَبْهُ. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلْكَوْهُ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 137]. 5

ثُمَّ إِنَّ الْمَغْرِبَ وَالْأَنْدَلُسَ، لَمَّا رَكَذَتْ رِيحُ الْعُمَرَانِ بِهِ وَتَنَاقَصَتِ الْعُلُومُ بِتَنَاقُصِهِ،
اِضْطَحَلَّ ذَلِكَ مِنْهُ، إِلَّا قَلِيلاً مِنْ رُسُومِهِ تَجَدُّهَا فِي تَفَارِيقِ مِنَ النَّاسِ، وَتَحْتَ رِقْبَةٍ
مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ.

وَيَبْلُغُنَا عَنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ أَنَّ بَضَائِعَ هَذِهِ الْعُلُومِ لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُمْ مَوْفُورَةً، وَخُصُوصاً
فِي عِرَاقِ الْعَجَمِ وَمَا بَعْدَهُ فَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَأَتَمَّ عَلَى تَبَّحٍ مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالتَّقْلِيَّةِ، 10
لِتَوْفُرِ عُمَرَانِهِمْ وَاسْتِخْكَامِ الْحَضَارَةِ فِيهِمْ.

وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِمِصْرَ عَلَى تَوَالِيفٍ فِي الْمَقُولِ مُتَعَدِّدَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ عُظَمَاءِ هَرَاةٍ،
مِنْ بَلَدِ خُرَاسَانَ، يُشْهِرُ^(ج) بِسَعْدِ الدِّينِ التُّفَازَانِيِّ، مِنْهَا^(د) فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَأَصُولِ
الْفِقْهِ وَالْبَيَانِ، تَشْهَدُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَاسِخَةً فِي هَذِهِ الْعُلُومِ. وَفِي أَثْنَانِهَا مَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ
لَهُ اِطْلَاعاً عَلَى^(هـ) الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَتَضَلُّعاً بِهَا، وَقَدْ مَأَّ عَالِيَةً فِي سَائِرِ الْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةِ. 15
﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 13].

(١) مخرج بخطه في ع، لم نقله ط ج ي (ب) سقط من ط وحدها (ج) في ع ج ي : يُنْهَر (د) سقط من ج
(هـ) في .

و^(١) كذلك يَتَلَعَّنَا لهذا العهد، أَنَّ هذه العلوم الفلسفية ببلاد الفرنجة من أرض رومة وما إليها من العذوة الشمالية نافقة الأسواق، وَأَنَّ رُسومها هنالك مُتَجَدِّدَةٌ، ومجالس تعليمها مُتَعَدِّدَةٌ، ودواوينها جامعة، وحماتها [مُتَوَقِّرُونَ]^(ب)، وطلبتها مُتَكَثِّرُونَ. والله أعلم بما هنالك. [وهو]^(ج) ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص، من الآية 68].

[328]

5 20 / العلومُ العَدَدِيَّةُ

وأولُّها الأسمُ تماطيطي. وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التآليف، إما على التوالي أو بالتضعيف.

مثل: أَنَّ الأعداد إذا تَوَالَتْ مُتَفَاضِلَةً بعدد واحد، فَإِنَّ جَمْعَ الطَّرَفَيْنِ منها مُساوٍ^(د) لجمع كلِّ عددين، يُعْذِها من الطَّرَفَيْنِ بُعْدٌ واحدٌ.

ومثلُ ضِعْفِ الواسِطة ، إن كان عِدَّةُ تلك الأعداد فرداً ، مثل الأعداد على تواليها، والأزواج على تواليها، * والأفراد على تواليها^(هـ).

ومثل أَنَّ الأعداد إذا تَوَالَتْ على نِسْبَةٍ واحدة [بأن]^(و) يَكُونُ أولُها نِصْفَ ثانيها، وثانيها نِصْفَ ثالثها، إلى آخرها، أو يَكُونُ أولُها ثُلثَ ثانيها، وثانيها ثُلثَ ثالثها، إلى آخرها، فَإِنَّ ضَرْبَ الطَّرَفَيْنِ أحدهما في الآخر، كضرب كلِّ عددين يُعْذِها من الطَّرَفَيْنِ بُعْدٌ واحدٌ أحدهما في الآخر.

(١) سقط العطف من ع (ب) من ع، وفي ط: متوقرون (ج) في ط: والله ﴿يَخْلُقُ ... (د) ج: منساو (هـ) ما بين النجيين سقط من ع (و) من ع وحدها.

ومثل مربع الواسطة إن كانت العدة فرداً، وذلك مثل أعداد زَوْج الزَّوج المتوالية من اثنين، فأربعة، فثمانية، فسيئة عشر.

ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات والمخمسات والمسدسات، إذا وضعت متتالية في سطورها، بأن تجمع من الواحد إلى العدد الأخير فيكون مثلثه. وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الأضلاع،
5 ثم تزيد على كل مثلث مثلث الضلع الذي قبله فيكون مربعه، وتزيد على كل مربع مثلث الذي قبله فيكون مخمسه، وهلم جرا. وتتوالى الأشكال على توالي الأضلاع. ويحدث جدول ذو طول وعرض. ففي عرضه الأعداد على تواليها، ثم المثلثات على تواليها، ثم المربعات، ثم المخمسات، إلى آخرها. وفي طوله كل عدد وأشكاله بالغا ما بلغ. ويحدث في [جميعها]⁽¹⁾ وقسمة بعضها على بعض^(ب) طولاً وعرضاً خواص غريبة
10 استقرت منها وتقررت في دواوينهم مسائلها^(ج).

وكذلك ما يحدث للزوج، والفرد، وزوج / الزوج، وزوج الفرد، لزوج الزوج والفرد. فإن لكل منها خواص تختص^(د) به تضمنها هذا الفن^(هـ) ولنست في غيره.

وهذا الفن أول أجزاء التعاليم وأبينها. ويدخل في براهين الحساب. وللحكام
15 المتقدمين والمتأخرين فيه تاليف؛ وأكثرهم يدرجونه في التعاليم ولا يقدرونه بالتأليف. فقل ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاة، وغيره من المتقدمين. وأما المتأخرون

(1) من ع ي، وفي ط ج: جميعها (ب) كترت ع بعده كلمة قسمة ولا معنى له (ج) في ج: بمسائلها (د) كلنا في ع، وفي ج ي: تختص (هـ) من: ع ج ي، وسقط من ط.

فهو عندهم مَهْجُورٌ، إذ^(١) هو غيرُ متداولٍ، ومنفعته في البراهين لا في الحساب، فمَهْجُورُهُ لذلك بعد أن استخلصوا رُبْدَتَهُ في البراهين الحِسَابِيَّةِ، كما فعَلَهُ ابْنُ البَتَّاءِ في كتابِ رَفْعِ الحِجَابِ، وغيره. والله أعلم.

ومن فُرُوعِ علمِ العدد: صناعَةُ الحساب. وهي صناعَةُ عَمَلِيَّةٍ في حُسْبَانِ الأعدادِ بالصَّمِّ والتَّفْرِيقِ، فالصَّمُّ يكونُ في الأعدادِ بالإفرادِ، وهو الجَمْعُ. وبالتَّضْعِيفِ، أي: يُضَاعَفُ عددٌ بِأَحَادٍ عددٍ آخر. وهذا هو الضَّرْبُ. والتَّفْرِيقُ أيضاً يكونُ في الأعدادِ، إمَّا بالإفرادِ، مثل إزَالَةِ عددٍ من عددٍ ومعرفةِ الباقي، وهو الطَّرْحُ، أو تفصيلِ عددٍ بأجزاء متساوية تكونُ عِدَّتُهَا محصَلةً، وهو القِسْمَةُ.

وسواءً كان هذا الصَّمُّ والتَّفْرِيقُ في الصحيح من العددِ أو الكسْرِ.

ومعنى الكسْرِ، نسبةُ عددٍ إلى عددٍ، وتلك النسبة تُسَمَّى كسراً. وكذلك يكونُ الصَّمُّ والتَّفْرِيقُ في الجذورِ، ومعناها العددُ الذي يُضْرَبُ في مثله فيكونُ منه العددُ المربَّعُ.

[والعددُ الذي يكونُ مُصَرَّحاً به يُسَمَّى المُنْطَقَ، ومُرَبَّعُهُ كذلك. ولا يُحتاجُ فيه أن يكلفَ عملٌ بالحُسْبَانِ. والذي لا يكونُ مُصَرَّحاً به يُسَمَّى الأصَمَّ. ومُرَبَّعُهُ إمَّا مُنْطَقٌ، مثل جذرِ ثلاثة الذي مرَبَّعُهُ ثلاثة، وإمَّا أصَمٌ، مثل جذرِ ثلاثة الذي مرَبَّعُهُ جذرُ ثلاثة. وهو أصَمٌ، ويحتاجُ إلى عملٍ من الحُسْبَانِ^(ب)، فإنَّ تلكَ الجذورُ أيضاً يدخلُها الصَّمُّ والتَّفْرِيقُ.

(١) ج: وهو (ب) يخرج في حاشية ع بخطه، وسقط من ط ج ي.

وهذه الصناعة [الجسائية^(أ)] حادثة، اختيج إليها للصنبان في المعاملات،
وألف فيها الناس كثيراً وتداولوها^(ب) في الأمصار بالتعليم للولدان . ومن
أحسن التعليم عندهم الابتداء بها، لأنها معارف متَّصحة وبراهينها منتظمة.
فينشأ عنها في الغالب عقلٌ مضيءٌ درَّب على الصواب . وقد يقال: إنَّ من أخذ
نفسه بتعليم الحساب أوَّل أمره أنه يغلب عليه الصدقُ / لما في الحساب من
صحة المباني ومناقشة النفس، فيصير له ذلك خلقاً ويتعوَّد الصدق ويلازمه
مذهباً.

ومن أحسن التواليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب، كتاب الحصار
الصغير. ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد . ثم شرَّحه
بكتاب سماء رفع الجباب، وهو مُستغلق على المبتدئ ، بما فيه من البراهين الوثيقة
المباني، وهو كتابٌ جليل القدر، أدرَكنا المشيخة تُعظِّمه، وهو^(ج) جديرٌ بذلك.
*وساق في المؤلف رحمه الله كتاب فقه الحساب لابن مُنعم، وكتاب^(د) الكامل
للأخْذَب^(هـ)، ولخص براهينها وغيرها^(و) عن اصطلاح الحروف فيها إلى عللٍ مغنوية
[ظاهرة]^(ز) هي العبارة بالحروف ولُبابها^(ح)، وهي كلها مُستغلة*^(ط).

وإنما جاءها الاستيفاء من طريق البرهان، شأن علومِ التَّعاليم. لأنَّ مسألتها
وأعمالها واضحةٌ كلها. وإذا قُصِدَ شرحها، فإنَّها هو إعطاء العَلَل في تلك الأعمال. وفي

(أ) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (ب) ي: فتداولوها (ج) في ي: وهو كتاب، ومشطوبة في ط (د) سقط من ع
(هـ) في ع: الأجر (و) في ج: وغيرها (ز) من ع ج (ح) ع ج: ورُبَّنتها (ط) ما بين النجيين حاشية في ط بخط ابن
خليلون عُلِّل فيها نص ع وضبطه؛ وسقطت الحاشية كلها من ي.

ذلك من العُسْرِ على الفَهْم ما لا يوجَدُ في أَعْمَالِ المسَائِلِ . فتَأَمَّلْهُ . والله يَهْدِي بنوره
من يشاء .

ومن فروعِهِ: **الْمَجْرُ والمُقَابَلَةُ** . وهي صِنَاعَةٌ يُسْتَخْرَجُ بها العَدَدُ المَجْهُولُ من قِبَلِ
المَعْلُومِ المَفْرُوضِ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا نِسْبَةٌ تُقْضَى ذَلِكَ . فاضطلحوا فيها على أَنْ جَعَلُوا
5 المَجْهُولَاتِ مَرَاتِبَ من طَرِيقِ التَّضْعِيفِ بالضَّرْبِ . أَوَّلُهَا العَدَدُ ، لِأَنَّهُ ^(أ) به يَتَقَيَّنُ
المَطْلُوبُ المَجْهُولُ باستِخْرَاجِهِ من نِسْبَةِ المَجْهُولِ إِلَيْهِ . وثَانِيهَا الشَّيْءُ ، لِأَنَّ كُلَّ مَجْهُولٍ
فَهُوَ من حَيْثُ إِبْهَامُهُ شَيْءٌ . وهو أَيْضاً [جَذْرٌ] ^(ب) لما يَلْزَمُ من تَضْعِيفِهِ في المَرْتَبَةِ
الثَّانِيَةِ . وثَالِثُهَا المَالُ ، وهو مُرَبِّعٌ مِنْهُمْ .

وما بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَى نِسْبَةِ الأَسِّ في المَضْرُوبِينَ . ثُمَّ يَقَعُ العَمَلُ المَفْرُوضُ في
10 المَسْأَلَةِ ، فيُخْرَجُ إلى مُعَادِلَةٍ بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ أو أَكْثَرَ من هَذِهِ الأَجْنَاسِ . فَيُقَابِلُونَ بَعْضُهَا
بِبَعْضٍ ، وَيَجْرُونَ ما فِيهَا من الكَسْرِ حَتَّى يَصِيرَ صَحِيحاً . وَيَحْطُونَ المَرَاتِبَ إلى أَقَلِّ
الأَسَوسِ إِنْ أُمْكِنَ ، حَتَّى تَصِيرَ إلى الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الجَبْرِ عِنْدَهُمْ ، وهي
العَدَدُ ، والشَّيْءُ ، والمَالُ .

فَإِنْ كَانَتِ المَعَادِلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَوَاحِدٍ ، تَعَيَّنَ . فَالْمَالُ أوِ الجَذْرُ يَزُولُ إِبْهَامُهُ
15 بِمَعَادِلَةِ العَدَدِ وَيَتَعَيَّنُ . وَالْمَالُ إِنْ عَادَلَ الجُنُورَ ، فَيَتَعَيَّنُ بَعْدَهَا .

/ وَإِنْ كَانَتِ المَعَادِلَةُ بَيْنَ وَاحِدٍ وَاثْنَيْنِ ، أَخْرَجَهُ العَمَلُ الهِنْدُسِيُّ ^(ج) من طَرِيقِ [329ب]

(أ) ي: لأن (ب) ظ: جذور (ج) كتب الناصح الجملة في ظ مقلوبة هكذا: بين واحد واثنين أخرجه العمل الهندسي وإن كانت
المعادلة .

تفصيل الضرب في الاثنين وهي منهمة، فيعينها ذلك الضرب المفصل. ولا تمكن
المعادلة بين اثنين واثنين.

وأكثر ما انتهت المعادلة عندهم إلى ست مسائل. لأن المعادلة بين عدد وجذر
ومال مفردة أو ⁽¹⁾ مركبة تحيئ ستة.

5 وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله الخوارزمي. وبغده أبو كامل شجاع
ابن أسلم. وجاء التأس على أثره فيه. وكتابه في مسائله الست من أحسن الكتب
الموضوعة فيه. وشرحه كثير من أهل الأندلس فأجادوا. ومن أحسن شروحاته
كتاب القرشي.

وقد بلغنا أن بعض أئمة العالم من أهل المشرق أنهى المعادلات ^(ب) إلى أكثر
10 من هذه الستة أجناس وبلغها إلى فوق العشرين ، واستخرج لها كلها أعمالاً وثيقة
براهين هندسيّة. والله ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية 1].

ومن فروعه أيضاً: المعاملات. وهو ^(ج) تصرف الحساب في معاملات المدين
في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه القدد من المعاملات،
تصرف في ذلك صناعة الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور
15 وغيرها.

والغرض من تكثير المسائل المفروضة فيها حصول المران والدزنية بتكرار العمل
حتى ترسخ الملكة في صناعة الحساب.

(1) من طع، وفي ج ي و (ب) في ط ع، وفي ج ي: المعاملات (ج) ج: وهي .

ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس توالف فيها متعدّدة، من أشهرها معاملات الزّهراوي، وابن السّمح، وأبي مُسلم بن خلدون، من تلميذ مسلمة المخريطي، وأمثالهم.

ومن فروعه أيضاً: الفرائض. وهي صناعةٌ حسابيّة في توضيح السّهام لدّوي 5
 الفروض في الوراثة⁽¹⁾ إذا تعدّدت وهلك بعض الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته، أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحمها على المال كلّ، أو كان في الفريضة / إقرار أو إنكار من بعض الورثة دون بعض. فيحتاج في ذلك [كله]^(ب) إلى عمل [330] تُعَيَّن به سهام الفريضة إلى كمّ تصحّ، وسهام الورثة من كلّ بطنٍ مُصحّحاً حتّى تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة.

فدخلها من صناعة الحساب جزءٌ كبيرٌ من صحيحه وكُسوره و[جذوره]^(ج) 10
 ومغلوله ومجهوله، ويترتب على ترتب أبواب الفرائض الفقهيّة ومسائله.

فتشتمل حينئذ هذه الصّناعة على جزء من الفقه، وهو أحكام الوراثة في الفروض والقول والإقرار والإنكار والوصايا والتدبير، وغير ذلك من مسائلها، وعلى جزء من الحساب، وهو توضيح الشّهان باعتبار الحكم الفقهيّ.

وهي من أجلّ العلوم. وقد يورد أهلها أحاديث نبويّة تشهد بفضْلِها، مثل: 15
 "الفرائض ثلث العلم، وأنها أوّل ما يُرفع من العلوم"⁽¹⁾، وغير ذلك. وعندي أنّ

(1) ع: الوراثة (ب) سقط من ط (ج) في ط: حدوده.

(1) تقدّم تخريجه في صفحة 219.

ظواهر تلك الأحاديث كلها إنما هي في الفرائض الغيبية، كما تقدّم، لا فرائض الوراثة؛ فإنها أقل من أن تكون في كُتُبها ثلث العلم. وأما الفرائض الغيبية، فكبيرة.

وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا. ومن أحسن التّوَالِيفِ

فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت، ومختصر القاضي أبي القاسم 5 الحوفي، وكتاب ابن المنّمر والجعدي والصّودي، وغيرهم. لكنّ الفضل للحوفي، وكتابه مقدّم على جميعها. وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله، محمد بن سلمان السّطي، كبير مشيخة فاس، فأوضح وأوعب. وإمام الحرمين فيها تواليف على مذهب الشافعي، تشهد بأساع باعه في العلوم، ورُسوخ قديمه. وكذا للحنفية والحنابلة.

10

ومقامات الناس في العلوم مختلفة. والله يهدي من يشاء.

21 • العلوم الهندسية

هذا العلم هو الناظر في المقادير؛ إما المتصلة، كالخط والسطح والجسم، أو المنفصلة كالأعداد، وفيما يعرض / لها من القوارض الذاتية.

[330ب]

15

مثل أن كلّ مثلث فزواياه مثل قائمتين.
ومثل أن كلّ خطين متوازيين لا يلتقيان في جهة، ولو خرجا إلى غير نهاية.
ومثل أن كلّ خطين متقاطعين، فالزاويتان المتقابلتان منها متساويتان.

ومثل أنَّ الأربعة المقادير المتناسبة، ضَرَبُ الأوَّل منها في الثَّالث كضَرْبِ
الثَّاني في الرَّابِع.

وأمثال ذلك.

والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصَّناعة كتاب أوفليديش، ويُسمَّى كتاب
5 الأصول والأركان ، وهو أبسطُ ما وُضِعَ فيها للمتعلِّمين ، وأوَّل ما تُرجم من كتب
اليونانيين في المِلَّة أيام أبي جعفر المنصور. ونُسَخُه مُختلفة باختلاف المترجمين. فمنها
لحنين بن إسحاق، ولثابت بن قُرَّة، وليوسف بن الحجاج.

ويشتملُ على خمس عشرة مقالة؛ أربعة في السُّطوح، وواحدة في الأقدار
المتناسبة، وأخرى في نسبِ السُّطوح بعضها إلى بعض، وثلاث في الغدد، والعاشر
10 في المنطقات والقوية على المنطقات، ومغناه الجذور ، وخمس في الجسَّات . وقد
اختصره النَّاس مختصرات كثيرة، كما فعله ابنُ سينا في تعاليم الشِّفاء، أفردَ له جزءاً
منها واختصَّه به. وكذلك ابنُ الصَّلْب في كتاب الاختصار، وغيرهم. وشرَّحه آخرون
شروحاً كثيرة. وهو مبدأ العلوم الهندسيَّة بإطلاق.

واعلم أنَّ الهندسة تُفيد صاحبها إضاءةً في عقله واستقامةً في فكره . لأنَّ
15 براهينها كلّها بيَّنة الانتيظام ، جلَّةُ الترتيب ، لا يكادُ الغلطُ يدخلُ أقيستها لترتيبها
وانتيظامها. فبيدُ الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقله على ذلك المنهج.
ولقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون: من لم يكن مُهندساً فلا يدخلن
منزلنا. وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسته علم الهندسة للفكر بمثابة الصَّابون

[1331] / للثوب الذي يغسل منه الأقدار ويُقَيِّهِ من الأضرار والأذران. وإنَّما ذلك لما أشرنا إليه من ترتبه وانتظامه.

ومن فروع هذا الفن، الهندسة المخصوصة بالأشكال الكريّة والمخروطات. أمّا الأشكال الكريّة، ففيها كتابان من كتب اليونانيّين، لتاودوسيّوس وميلاؤش في سطوحها وقطوعها. وكتاب تاودوسيّوس مقدّم في التعليم على كتاب ميلاؤش، 5 لتوقّف كثير من براهينه عليه. ولا بدّ منها لمن يريد الخوض في علم الهيئة، * لأنّ براهينها متوقّفة عليها⁽¹⁾. فإنّ الكلام في الهيئة *^(ب) كله كلام في الكرات السماوية وما يعرّض فيها من القطوع والتوائر بأسباب الحركات، كما نذكره. فقد يتوقّف على معرفة أحكام الأشكال الكريّة، سطوحها وقطوعها.

وأما المخروطات، فهو من فروع الهندسة أيضاً. وهو علم ينظر فيما يقع في 10 الأجسام المخروطية من الأشكال والقطوع. ويبرهن على ما يعرّض لذلك من العوارض براهين هندسيّة متوقّفة على التعليم الأوّل. وفائدتها تظهر في الصنائع العمليّة التي موادّها الأجسام، مثل التجارة والبناء، وكيف تُصنّع التماثيل الغريبة والهياكل التاذرة، وكيف يُتحجّل على جرّ الأثقال ونقل الهياكل بالهندام والميخال، وأمثال ذلك.

وقد أفرّد بعض المؤلفين في هذا الفن كتاباً في الجيل العمليّة، يتضمّن من 15 الصناعات الغريبة والجيل المستظرفة كلّ عجيب. وربّما استغلّق على الفهوم لصعوبة براهينه الهندسيّة. وهو موجود بأيدي التائس، وينسبونه لبني شاكر.

(1) ط: عليها (ب) سقط ما بين الجيمين من ج .

ومن فُروع الهندسة: المساحة، وهو فنٌ يُحتاج إليه في مَنَح الأرض^(١).
ومَغْنَاهُ استخراجُ مقدارِ أرضٍ مَعْلُومَةٍ بنسبةٍ شِبْرٍ أو ذراعٍ أو غيرِهما، أو نسبة
أرضٍ من أرضٍ / إذا قُوِيَتْ بِمَثَلِ ذَلِكَ.

[331ب]

وَيُحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ فِي تَوْظِيفِ الْحَرَاجِ عَلَى الْمَزَارِعِ وَالْقُدُنِ وَبَسَاتِينِ الْغَرَاةِ،
5 وَفِي قِسْمَةِ الْحَوَائِطِ وَالْأَرْضِ بَيْنَ الشُّرَكَاءِ أَوْ الْوَرَثَةِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.
وَلِلنَّاسِ فِيهَا مَوْضِعَاتٌ حَسَنَةٌ وَكَثِيرَةٌ.

الْمَنَاطِرُ^(ب) مِنْ فُروع الهندسة، وهو عِلْمٌ يَتَّبِعُ بِهِ أَسْبَابُ الْغَلَطِ فِي الْإِدْرَاكِ
الْبَصَرِيِّ بِمَعْرِفَةِ كَيْفِيَّتِهِ وَقَوْعِهَا، بِنَاءً عَلَى أَنَّ إِدْرَاكَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِمَخْرُوطِ شُعَاعِيٍّ،
رَأْسُهُ نَقْطَةُ الْبَاصِرِ، وَقَاعِدَتُهُ الْمَرْثِيَّةُ. ثُمَّ يَقَعُ الْغَلَطُ كَثِيرًا فِي رُؤْيَةِ الْقَرِيبِ كَبِيرًا وَالتَّعْيِدِ
10 صَغِيرًا. وَكَذَلِكَ رُؤْيَةُ الْأَشْبَاحِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَ الْمَاءِ وَوَرَاءَ الْأَجْسَامِ الشَّافَةِ كَبِيرَةٌ،
وَرُؤْيَةُ النَّقْطَةِ التَّارِزَةِ مِنَ الْمَطَرِ خَطَأً مُسْتَقِيمًا، وَالشَّعْلَةُ دَائِرَةٌ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

فَيَتَّبِعُ فِي هَذَا الْعِلْمِ أَسْبَابُ ذَلِكَ وَكَيْفَيَّاتُهُ بِالْبَرَاهِينِ الْهَنْدَسِيَّةِ. وَيَتَّبِعُ بِهِ أَيْضًا
اخْتِلَافُ الْمَنْظَرِ فِي الْقَمَرِ بِاخْتِلَافِ الْغُرُوضِ الَّذِي تَتَّبِعِي عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ رُؤْيَةِ الْأَهْلَةِ،
وَحُصُولُ الْكُسُوفَاتِ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَمْثَالِ هَذَا.

15 وَقَدْ أَلَّفَ فِي هَذَا الْقَنْ كَثِيرٌ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ.

وَأَشْهُرُ مِنْ أَلْفٍ فِيهِ مِنَ الْإِسْلَامِيِّينَ ابْنُ الْهَيْثَمِ. وَلِغَيْرِهِ فِيهِ أَيْضًا تَوَالِيفٌ.
وهو من هذه العلوم الرياضية وتقاريعها.

(١) كذا في طع ج، وفي ي: الأراضي (ب) كذا جاءت الجملة اسمية في ط ج ي، وفي ع: ومن فُروع الهندسة المناظر.

وهو علمٌ ينظرُ في حركاتِ الكواكبِ الثابتةِ والمتحيرةِ. ويُستدلُّ بكيفياتِ تلك الحركاتِ على أشكالِ وأوضاعِ للأفلاكِ لزمَّتْ عنها هذه الحركاتِ المحسوسة بطرقِ هندسيّةٍ. كما يبرهنُ على أنَّ مركزَ الأرضِ مُباينٌ لمركزِ فَلَكَ الشَّمْسِ بِوُجُودِ حَرَكَةِ الإقبالِ والإدبارِ . وكما يُستدلُّ بالرجوعِ والاستقامةِ للكواكبِ^(أ) على وجودِ أفلاكِ 5 صغيرةٍ حاملةٍ لها ، متحركةٍ داخلَ فَلَكيها الأَظَم . وكما يبرهنُ على وجودِ الفلكِ الثامنِ بحركةِ الكواكبِ الثابتةِ . وكما يبرهنُ على تعدُّدِ الأفلاكِ / للكوكبِ الواحدِ [332] بتعدُّدِ الميولِ لَهُ. وأمثالِ ذلك.

وإدراكُ الموجودِ من الحركاتِ وكيفياتِها وأجناسِها إنّما هو بالترصّدِ. فإنَّما إنّما علّمنا حركةَ الإقبالِ والإدبارِ به، وكذا ترتّبُ الأفلاكِ في طبقاتِها، وكذا الرجوعُ والاستقامةُ، 10 وأمثالُ ذلك.

وكان اليونانيّونَ يعتنونَ بالترصّدِ كثيراً، ويتَّخذونَ له الآلاتِ التي توضعُ لترصّدَ بها حركةَ [الكوكبِ]^(ب) المعيّنِ. وكانت تُسمّى عندهم ذاتُ الجَلَقِ. وصنّاعُهُ عملُها والبرهانُ عليه في مُطابَقَةِ حركتها بحركةِ الفَلَكَ منقولٌ بأيدي الناسِ.

وأما في الإسلامِ ، فلم تُنقَضْ به عنايةٌ إلّا في القليلِ . وكان في أيامِ المأمونِ شيءٌ 15 منه. وصنّعتِ هذه الآلةُ^(ج) المعروفةُ بذاتِ الجَلَقِ، وشرعَ في ذلك فلم يَمُتْ. ولمّا مات ذهبَ رسمُهُ وأُغْفِلَ، واعتمدَ من بعده على الأرصَادِ القَدِيمَةِ. وليسَتْ بِمُغْنِيَةٍ

(أ) في ع: للكوكب (ب) في ط ج: الكواكب (ج) في ع: الأداة. خطأ .

لاختلاف الحركات باتصال الأخقاب، وإن مطابقة حركة الآلة في الرُّضد لحركة
الأفلاك والكواكب إنما هو بالتقريب، ولا يُعطي التحقيق. فإذا طَالَ الزَّمان أَظْهَرَ⁽¹⁾
تفاوت ذلك التقريب.

وهذه الهيئة صناعة شريفة، وليست على ما يفهم، في المشهور، أنها تُعطي
5 صورة السماوات وترتيب الأفلاك بالحقيقة، بل إنما تُعطي أن هذه الصور والهيئات
للأفلاك لزمت عن هذه الحركات. وأنت تعلم أنه لا ينبغي أن يكون الشيء الواحد
لزاماً لمختلفين. وإن قلنا: إن الحركات لازمة، فهو استدلال باللزام على وجود
المزوم، ولا يُعطي الحقيقة بوجه. على أنه علم جليل، وهو أحد أركان التعاليم.

ومن أحسن التّواليف فيه كتاب المَجْسطي، منسوب لبطلَميوس. وليس من
10 ملوك اليونانيين الذين أسأوهم بطلَميوس، على ما حَقَّقه شُراح الكتاب. وقد
اختصره الأيُّمة من حُكماء الإسلام، كما فعَلَهُ ابنُ سينا، / وأدرَجَهُ في تعاليم الشِّفاء،
ولخصه ابنُ رشد أيضاً من حُكماء الأندلس، وابنُ السَّمح، وابنُ الصَّلْت في كتاب
الاقتصار. ولابن الفرغاني هيئة ملخّصة، قرَّبها وحذَف براهينها الهندسيّة^(ب).

والله ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق، الآية 5].

15 ومن فُرُوعه: علمُ الأَزياج، وهي صناعة حسابيّة على قوانين عدديّة فيما
يُخَصُّ كلَّ كوكب من طريق حركته وما أدّى إليه بَزْهاُنُ الهيئة في وضعه من سرعة
وبُطْء، واستقامة ورجوع، وغير ذلك. يُعرَف به^(ج) مواضع الكواكب في أفلاكها

(1) كنا في طع، وفي ج ي: ظهر (ب) سقط من ج (ج) ع: بها .

لأَيِّ وَقْتٍ فُرِضَ مِنْ قَبْلِ حُسْبَانِ حَرَكَاتِهَا عَلَى تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْمُسْتَخْرَجَةِ مِنْ كُتُبِ
الْهَيْئَةِ.

ولهذه الصَّنَاعَةُ قَوَانِينٌ كَالْمَقْدَمَاتِ وَالْأَصُولِ لَهَا فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ
وَالْتَوَارِيخِ الْمَاضِيَةِ ، وَأَصُولٌ مُتَقَرَّرَةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَوْجِ وَالْحَضِيضِ وَالْمِيُولِ وَأَصْنَافِ
الْحَرَكَاتِ ، وَاسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، يَضْعُوبُهَا فِي جَدَاوِلَ مُزَيَّنَةٍ تَسْهِيلاً عَلَى
5 الْمُتَعَلِّمِينَ ، وَتُسَمَّى الْأَرْيَاجُ وَيُسَمَّى اسْتِخْرَاجُ مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ لِلْوَقْتِ الْمَفْرُوضِ بِهِذِهِ
الصَّنَاعَةُ تَغْدِيلاً وَتَقْوِيماً.

وَلِلنَّاسِ فِيهِ تَوَالِيْفٌ كَثِيرَةٌ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، مِثْلُ الْبُتَّانِيِّ وَابْنِ الْكَمَّادِ.

وَقَدْ عَوَّلَ الْمُتَأَخِّرُونَ لِهَذَا الْعَهْدِ بِالْمَغْرِبِ عَلَى زَيْنِجٍ مَنْسُوبٍ لِابْنِ إِسْحَاقَ ،
وَيَزْعَمُونَ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ عَوَّلَ فِيهِ عَلَى الرُّضْدِ ، وَأَنَّ يَهُودِيًّا كَانَ بِصِبْلِيَّةٍ مَاهِراً فِي
10 الْهَيْئَةِ وَالتَّعَالِيمِ ، وَكَانَ قَدْ عَنِيَ بِالرُّضْدِ ، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِمَا يَصِحُّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ
أَخْوَالِ الْكَوَاكِبِ وَحَرَكَاتِهَا ؛ فَكَأَنَّ أَهْلَ الْمَغْرِبِ لَئِنْكَ عُنُوا بِهِ لَوْثَاقَةً مَبْنَاهُ فِيهَا^(أ)
يَزْعَمُونَ . وَلَخَصَّصَهُ ابْنُ الْبَتَاءِ فِي آخِرِ سَمَاءِ الْمَنَاجِ . فَوَلَّغَ بِهِ النَّاسُ لِمَا سَهَّلَ مِنَ الْأَعْمَالِ فِيهِ .
وَإِنَّمَا يُجْتَاجُ إِلَى مَوَاضِعِ الْكَوَاكِبِ مِنَ الْقَلَالِكِ لِتُبْنَى عَلَيْهَا الْأَحْكَامُ التَّجُومِيَّةُ ،
وهي^(ب) مَعْرِفَةُ الْآثَارِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا بِأَوَاضِعِهَا فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ ، مِنْ الْمَلَلِ وَالْأَوَّلِ
15 [1333] وَالْمَوَالِيدِ الْبَشَرِيَّةِ / * وَالْكَوَانِينِ الْحَادِثَةِ *^(ج) ، كَمَا نُبَيِّنُهُ بَعْدَ ، وَتَوْضِیحُ فِيهِ أُدْلِتُهُمْ ، إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(أ) : ي. : على ما (ب) في ع ج ي. : وهو (ج) سقط من ي .

23 • علم المنطق

وهو قوانين يُعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات
والخجج المفيدة للتضديقات.

وذلك أن^(١) الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات بالحواس الخفيس. وجميع
5 الحيوانات مُشتركة في هذا الإدراك من التاطق وغيره. وإنما يُمَيِّز الإنسان عنها
بإدراك الكلّيات، وهي مُجرّدة من المحسوسات. وذلك بأن يحصل في [الخيال]^(ب)
من الأشخاص المتفقه صورة منطبعة^(ج) على جميع تلك الأشخاص المحسوسة، وهي
[الكلّي]^(د). ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص^(هـ) المتفقه وأشخاص أخرى توافقها
في بعض، فتحصل له صورة تنطبق أيضاً عليها باعتبار ما اتفق فيه. ولا يزال يزدق
10 في التجريد إلى الكلّي الذي^(و) لا يجد كلياً آخر معه يوافقه، فيكون لأجل ذلك
بسيطاً.

وهذا مثل ما تجرّد من أشخاص الإنسان صورة النوع المنطبقة عليها؛ ثم
ينظر بينه وبين الحيوان وتجرّد صورة الجنس المنطبق عليها، ثم بينها وبين النبات،
إلى أن ينتهي إلى الجنس العالي، وهو الجوهر، فلا يجد كلياً يوافقه في شيء، فيقف
15 العقل هنالك عن التجريد.

(١) في ع: لأن (ب) ظ: الذهن (ج) كذا في ط ج ي. وفي ع: منطبعة (د) من ع، وفي ظ: الكل (هـ) في ع: الأشخاص
المحسوسة، وشطب التمت واسقط من ط ج ي (و) سقط من ج.

ثُمَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ، لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْفِكْرَ الَّذِي بِهِ يَدْرِكُ الْعُلُومَ وَالصَّنَائِعَ، وَكَانَ الْعِلْمُ إِمَّا تَصَوُّراً لِلْمَاهِيَاتِ، وَيُعْنَى بِهِ إدْرَاكٌ سَادَجٌ مِنْ غَيْرِ حَكْمٍ مَعَهُ، وَإِمَّا تَصْدِيقَ، أَيْ حَكْمَ بَيُّوْبٍ أَمْرٍ لِأَمْرٍ. فَصَارَ سَعْيُ الْفِكْرِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبَاتِ إِمَّا بِأَنْ تُجْمَعَ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ التَّأْلِيفِ، فَتَحْصَلَ صُورَةٌ فِي الدَّهْنِ كَلِيَّةٌ مُنطَبِقَةٌ عَلَى أَفْرَادٍ فِي الْخَارِجِ، فَتَكُونُ تِلْكَ الصُّورَةُ الدَّهْنِيَّةُ مُفِيدَةً لِمَعْرِفَةِ مَا هِيَ تِلْكَ 5 الْأَشْخَاصُ. وَإِمَّا بِأَنْ يُحْكَمَ بِأَمْرٍ عَلَى أَمْرٍ فَيَثْبُتَ لَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ تَصْدِيقاً. وَغَايَتُهُ فِي الْحَقِيقَةِ رَاجِعَةٌ إِلَى التَّصَوُّرِ، / لِأَنَّ فَايِدَةَ ذَلِكَ إِذَا حَصَلَ فَإِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، الَّتِي هُوَ مُقْتَضَى الْعِلْمِ [الْحِكْمِيِّ] ^(١).

وهذا السَّعْيُ مِنَ الْفِكْرِ قَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ، وَقَدْ يَكُونُ بِطَرِيقٍ فَاسِدٍ. فَاقْتَضَى ذَلِكَ تَمَيُّزَ الطَّرِيقِ الَّتِي ^(ب) يَسْعَى بِهَا ^(ج) الْفِكْرُ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ الْعِلْمِيَّةِ 10 لِيَتَمَيَّزَ فِيهَا الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ. فَكَانَ ذَلِكَ قَانُونُ الْمُنْطِقِ.

وَتَكَلَّمَ فِيهِ الْمُتَقَدِّمُونَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ جُمْلًا جُمْلًا وَمُقْتَرَفًا. وَلَمْ تُهْدَبْ طَرَفُهُ وَلَمْ تُجْمَعْ مَسَائِلُهُ حَتَّى ظَهَرَ فِي يُونَانَ أَرِسْطُو. فَهَدَّبَ مَنَاجِيَتَهُ، وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفَصُولَهُ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْعُلُومِ الْحِكْمِيَّةِ وَفَاتَحَتْهَا ^(٢). وَلِذَلِكَ يُسَمَّى بِالْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ. وَكَتَابُهُ الْخُصُوصُ بِالْمُنْطِقِ يَسَمَّى الْقَصَصِ. وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ: ثَلَاثَةٌ ^(هـ) مِنْهَا فِي 15 صُورَةِ الْقِيَاسِ، وَخَمْسَةٌ ^(و) فِي مَادَّتِهِ.

(١) من ع، وسقط من ط ج ي (ب) في النسخ جميعاً: الذي، ولا يستقيم نحواً (ج) من ط ج ي، وفي ع: به (د) ج: فاتحته

(هـ) من ط، وفي ع ج ي: أربعة (و) في حاشية ج: أربعة.

وذلك أنَّ المطالبَ التَّصَدِيقِيَّةَ على أنحاء. فمنها ما يكون المطلوبُ فيه اليقينَ بطَبْعِهِ. ومنها ما يكون المطلوبُ فيه الظَّنُّ، وهو على مراتب. فيُنظر في القياس من حيثُ المطلوبُ الَّذي يفيدُه، وما يَتَّبَعِي أن تكون مُقَدِّماتُه بذلك الاغْتِبَارِ، ومن أي جنس تكون من العِلْمِ أو الظَّنِّ. وقد يُنظرُ في القياس لا باغْتِبَارِ مطلوبٍ مخصوصٍ، بل من جهة إنتاجه خاصَّةً. ويُقال للتَّنَظُّرِ الأوَّلِ: إنَّه من حيثُ المادَّةُ، ويعني به المادَّةُ 5 المتَّيَّجَةُ للمطلوبِ المخصوص من يقينٍ أو ظنٍّ. ويُقال للتَّنَظُّرِ الثَّانِي: إنَّه من حيثُ الصُّورَةُ وإنتاج القياس على الإطلاق. فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية.

الأوَّلُ: في الأجناس العالية^(١) التي^(ب) ينتهي إليها تجرُّدُ المحسوسات في الذَّهْنِ. وهي التي ليس فوقها جنس. ويسمى كتابُ المَقُولَاتِ.

والثَّانِي: في القضايا التَّصَدِيقِيَّةَ وَأَصْنَافِهَا. ويسمى كتابُ العِبَارَةِ. 10

والثَّالِثُ: في القياس وصورة إنتاجه على الإطلاق. ويسمى كتابُ القِياس. وهذا آخرُ التَّنَظُّرِ من حيثُ الصُّورَةُ.

ثم الرَّابِعُ: /كتابُ البرهانِ. وهو التَّنَظُّرُ في القِياسِ المتَّيَّجِ لليقين، وكيف يجبُ [1334] أن تكون مُقَدِّماتُه يقينيةً. ويختصُّ بشروطٍ أخرى لإفادَةِ اليقين، مذكورة فيه. مثل كونها ذاتيةً، وأوليةً، وغير ذلك. وفي هذا الكتاب الكلامُ في المَعْرِفَاتِ والمَحْدُودِ، إذ 15 المطلوبُ فيها إنَّما هو اليقين، لوجوب المطابقة بين الحدِّ والمَحْدُودِ، لا يَحْتَمِلُ غَيْرَهَا. فلذلك اِخْتُصِّصَتْ عند المتقدمين بهذا الكتاب.

(١) سقط من ج (ب) من ط ع، وفي ج ي: الذي .

والخامس: كتابُ الجَدَل. وهو القياسُ المفيدُ قُطْعَ المُشَاغِبِ وإفحامَ الخصمِ، وما يجبُ أن يُستعملَ فيه من المشهورات. ويختصُّ أيضاً من جهةِ إفادتهِ لهذا الغرضِ بشروطٍ أخرى هي مذكورةٌ هناك. وفي هذا الكتابُ تُذكرُ المواضعُ التي يستنبطُ منها صاحبُ القياسِ قياسه * بتمييز^(أ) الجامع بين طرفي المطلوب المسمى بالوسط * (ب). وفيه عكوسُ القضايا.

5

والسادس: كتابُ السُّسْطَةِ. وهو القياسُ الذي يُفيدُ خلافَ الحقِّ، ويُعَالِطُ به المناظرُ صاحبه، وهو فاسدٌ بالغرضِ و^(ج)الموضوع. وإنما كُتِبَ ليعرَفَ به القياسُ المغالطي، فيحذَر منه.

السابع: كتابُ الحُطَابَةِ. وهو القياسُ المفيدُ ترغيبَ الجُفُهور وحثِّهم على المرادِ منهم، وما يجبُ أن يُستعملَ في ذلك من المقالات.

10

والثامن: كتابُ الشُعْرِ. وهو القياسُ الذي يُفيدُ التمثيلَ والتشبيهَ، خاصَّةً للإقبالِ على الشَّيءِ أو الثَّغَرِ عنه، وما يجبُ أن يُستعملَ فيه من القضايا التخيليةِ. هذه كتبُ المنطقِ الثَّمانية عند المتقدمين.

ثم إنَّ حكماءَ اليونانيين ، بعد أن تهذَّبَت الصَّنَاعَةُ ورُبِّتَتْ ، رأوا أَنَّهُ لا بُدَّ من الكلامِ في الكَلِّيَّاتِ الخمسِ المُفيدةِ لِلتَّصَوُّرِ * (د) المطابقِ لِلْمَاهِيَّاتِ [في الخارجِ] (هـ) أو لأجزائها أو عوارِضها وهي : الجنسُ ، والفضلُ ، والتنوُّعُ ، والخاصَّةُ ، والغرَضُ

15

(أ) سقط من ج (ب) سقط ما بين النجمين من ي (ج) سقط العاطف من ج ي (د) سقط ما بين النجمين من ي (هـ) من ع وسقط من ط .

العام^(١) فاستدركوا فيها مقالة تختص بها مقدمة بين يدي القر، فصارت مقالته
تسعا.

وترجمت كلها في الملة الإسلامية، وتناولها فلاسفة الإسلام بالشرح
والتلخيص، كما فعله^(ب) الفارابي، وابن سينا، ثم ابن رشد، من فلاسفة الأندلس.

5 ولاين سينا / كتاب الشفاء، استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها. [334ب]

ثم جاء المتأخرون، فغيروا اصطلاح المنطق، وألحقوا بالتظر في الكليات
الخميس ثمرته، وهي الكلام في الحدود والرسم، فقلوها من كتاب البرهان، وحذفوا
كتاب المقولات، لأن نظر المنطقي فيه بالعرض لا بالذات، وألحقوا في كتاب العبارة
الكلام في العكس، وإن كان من كتاب الجدلي في كتب المتقدمين، لكنه من توابع
10 الكلام في القضايا بنبض الوجه.

ثم تكلموا في القياس من حيث إنتاجه للمطالب على العموم، لا بحسب مائة.
وحذفوا النظر فيه بحسب المادة، وهي الكتب الخمسة: البرهان، والجدل،
والخطابة، والشعر، والسفسطة. وربما يلم بعضهم بالنسب منها إماماً، وأغفلوها كأن
لم تكن، [وهي ج] المهم المعتمد في القر.

15 ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاماً مستبخر^(د)، ونظروا فيه من حيث إنه
قر برأيه، لا من حيث إنه آلة للعلوم. فطال الكلام فيه واتسع. وأول من فعل
ذلك الإمام فخر الدين ابن الخطيب، ومن بعده أفضل الدين الحونجي، وعلى كتبه

(١) نهاية السقط من ي (ب) ج: نقله (ج) في ظ: وهو (د) سقط من ج .

معمد المشاركة لهذا العهد . وله في هذه الصناعة: كتاب كشف الأشرار، وهو طويل، ومختصر الموجز، وهو حسن في التعلم، ثم مختصر الجمل، في قدر أربعة أوراق، أخذ بمجامع القرآن وأصوله، يتداوله المتعلمون لهذا العهد فينتفعون به. وهجرت كتب المتقدمين وطرفهم كأن لم تكن. وهي مفتلة من شرة المنطق وفائدية كما قلناه . والله الهادي للصواب.

5

فائدة^(أ)

ثم^(ب) اعلم أن هذا القرن قد اشتد النكير على انتحاله من^(ج) متقدمي المتكلمين أئمة السلف^(ح)، وبالغوا في الطعن عليه والتحذير منه، وحظروا تعلمه وتعليمه. وجاء المتأخرون من بتديهم من لدن الغزالي والإمام ابن الخطيب، فسأتموا في ذلك بغض الشيء، وأكّبت الناس على انتحاله من يومئذ، إلا قليلاً يجنحون فيه إلى رأي¹⁰ المتقدمين، / فينفرون عنه ويبالغون في إنكاره . فلنبين لك نكتة القبول والرد في ذلك، لتعلم مقاصد العلماء فيما يذهبون إليه^(د) .

وذلك أن المتكلمين لما وضعوا علم الكلام لتضر العقائد الإيمانية بالحجج العقلية، كانت طريقتهم في ذلك بأدلة خاصة ذكروها في كتبهم، كالدليل على حدث^(هـ) العالم بإثبات الأغراض وحدثها وامتناع خلوص الأجسام عنها ، وما لا يخلو عن¹⁵

(أ) كذا في ط، وفي ع: فصل ، ولم يميز في ج، وسقط كامل نص الفائدة من ي (ب) سقط من ع (ج) ع: ج: مقدي الشلف والمتكلمين (د) ع: ج: في مذاهم (هـ) كذا في الأصول، ويعني حدوث .

الحوادث حادث، [وكاِثباتهم التوحيد]^(أ) بدليل الثَّانِع، وإثبات الصفات [القديمة]^(أ) بالجوامع الأربعة، إلحاقاً للغائب بالشَّاهد، وغير ذلك من أدلَّتْهم المذكورة في كُتُبهم.

ثم قرروا تلك الأيَّةَ بتمهيد قواعد وأصول هي كالمقدمات لها، مثل إثبات الجوهر الفرد، والزمن الفرد، والخلاء، [ونفي الطبيعة والتركيب العقلي للماهيات]^(ب)،
5 وأنَّ العَرَض لا يَبْقَى زَمَنَيْنِ، وإثبات الحالي، وهي صِفَةُ [الموجود]^(ج) لا موجودة ولا معدومة، وغير ذلك من قواعدهم التي بنَّوا عليها أدلَّتْهم الخاصَّة.

ثم ذهب الشيخ أبو الحسن، والقاضي أبو بكر، والأستاذ أبو إسحاق، إلى أنَّ أدلَّةَ العقائد منَعَكْسَةُ عليها^(د)، بمعنى أنَّها إذا بطلتْ بطلَ مَذْلُولُها. ولهذا رأى القاضي أبو بكر أنَّها^(هـ) تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ^(هـ) العقائد، والقدح فيها قدح في العقائد لإنسانها
10 عليها.

وإذا تأملتْ المنطق، وجذته كلُّهُ يدور على التركيب العقلي، وإثبات الكلِّي الطبيعي في الخارج لينطبق عليه الكلِّي الذهني المنقسم إلى الكلِّيات الخمس، التي هي: الجنس، والتوَعُّ، والفضل، والخاصَّة، والعَرَض العام. وهذا باطل عند المتكلمين. والكلِّي النَّاتِي عندهم إمَّا هو اغْتِيَارٌ ذهني ليس في الخارج ما يطابقه، أو
15 حالٌّ عند من يقول بها، فتبطلُ الكلِّيات الخمس والتعريف المنبئ عنها والمقولات العشر. وبطلَ العَرَض النَّاتِي، فتبطلُ بِطُلَايَه القضايا [الصَّرُورِيَّة النَّاتِيَّة]^(د) المشتركة

(أ) سقط من ظ (ب) سقط من ظ (ج) من ع، وفي ج: لموجود، وسقط من ظ (د) سقط من ع ج (هـ) ع: بمثابة (و) سقط من ظ .

في البرهان عندهم . وتطلُّ العلةُ العقليةُ ، فيبتطلُ كتابُ البرهانِ ^(أ) وتبتطلُ المواضعُ التي يؤخذُ منها الوُسْطُ الجامعُ بينَ طَرَفَي المطلوبِ في / القياسِ ، وهو لبابُ كتاب الجدَل . ولا يَبْقَى من القياسِ إلَّا الصَّوْريُّ فقط ^(ب) ، ومن التعريفاتِ المساوي في الصَّادِقيَّةِ على أفرادِ المحدودِ ، لا يكونُ أعمُّ ^(ب) فيكثرُ ، ولا أخصُّ فيخرجُ بعضها . وهو الذي يعبّرُ عنه التحاؤُّ بالجمع والمنع ، والمتكلمون بالطرد والعكس .

5

وتشهدُ أركان المنطقِ جُمْلَةً . وإن أثبتنا هذه كما في علم المنطقِ ، أثبتنا كثيراً من مقدّمات المتكلمين في التَّكْثِيرِ على انتحال المنطقِ ، وعدّوه بدعةً أو كُفْراً على ما يصحُّ من انعكاس الأدلّةِ على العقائد ، كما قدّمناه .

والتأخرون من لَدُن الغزالي لما أنكروا انعكاس الأدلّةِ ، ولم يُلْزَم عندهم من بطلانِ الدَّلِيلِ بطلانُ مَذْلُوه ، وظَهَرَ لهم صحّةُ ^(ج) رأي أهل المنطقِ في التَّزْكِيْبِ 10 العقلِ ووجودِ الماهيّاتِ الطَّبيعيّةِ [وكليّاتها] ^(د) في الخارجِ ، لم يكن المنطقُ عندهم منافياً ^(هـ) للعقائد الإيمانيّةِ ، وإن كان مُنافياً لبغض أدلّتها كما رأيتُ ^(و) ، بل قد يَسْتَدِلُّونَ ^(ز) على إنطالِ كثيرٍ من هذه ^(ح) المقدّماتِ الكلاميّةِ ، كما يستدلّون على نقيّ الجوهرِ الفَرْدِ ، وبإثباتِ الحلاءِ وبقاءِ الأغراضِ وغيرها ، و[يَسْتَبْدِلُونَ] ^(ط) من

(أ) وردت هذه الجملة المحصورة بين الألفين في ع وفي ج كما يلي : وتبتطل المواضع التي هي لباب كتاب الجدَل وهي التي يؤخذ منها الوُسْطُ الجامع بين الطرفين في القياس ولا يبقى القياس الصوري (ب) في ع : أعم منها فيدخل غيرها ، ولا أخص فيخرج بعضه (ج) ع : وصحَّ عندهم (د) سقط من ط (هـ) في ج ع : فضوا بأن المنطق غير منافي (و) من ط وحدها (ز) سقط من ع ، وفيها بعدها : بل قد يستدل (ح) ع : تلك (ط) من ج ، وفي ط : ويستبدلون .

أدلة المتكلمين على العقائد بأدلة أخرى يُصحّحونها بالنظر والقياس العقليّ ، ولم يَنَدَحْ ذلك عندهم في العقائد السنيّة بوجهٍ . وهذا رأي الإمام والغزاليّ وتابعيهما لهذا العهد . فتأمل ذلك ، واغرف مدارك العلماء وما أخذهم فيها يذهبون إليه . والله الهادي والموفق للصواب .

5 24 • الطَّبيعَاتُ

وهو علمٌ يَنَحْثُ عن الجنس من جهة ما يُلْحَقُهُ من الحركة والسكون . فينظر في الأجسام السماويّة و^(أ) العنصريّة ، وما يتولّد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومغذٍ ، وما يتكوّن في الأرض من العيون والزلازل ، وفي الجوّ من / السحاب [1336] والبخار والرعد والبرق والصواعق ، وغير ذلك ^(ب) ، وفي مبدإ الحركة للأجسام ، وهو النفس على تنوّعها في الإنسان والحيوان والثبات . 10

وكُتِبَ أرسطو^(ج) فيه موجودة بين أيدي الناس ، تُرجمت مع ما تُرجم من علوم الفلسفة أيام المأمون . وألّف الناس على حذوها ، مُستتبِعِينَ لها بالبيان والشرح^(د) . وأوعب من ألّف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء ، جمع فيه العلوم السبعة للفلاسيقة ، كما قدّمنا ؛ ثم لَخَصَهُ في كتاب النجاة وفي كتاب الإشارات . وكأنّه يُخالِفُ أرسطو^(ج) في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها . 15

(أ) سقط العطف من ع (ب) ج : وفي ذلك (ج) ضبطه في نسخة ع بالحركات : أرسطو (د) من ع وحدها ، وسقط من ط ج ي .

وأما ابنُ رُشدٍ، فلتخص كُتبُ^(أ) أرسطو^(ب) وشرّحها مُتبعاً له غيرَ مُخالفٍ.
وَأَلَّفَ التَّاسِعَ بَعْدَهُ^(ج) فِي ذَلِكَ كَثِيراً. لَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ وَالْمَعْتَبَرَةُ فِي
الصَّنَاعَةِ.

ولأهلِ المَشْرِيقِ عنايةٌ بكتَابِ الإِشَارَاتِ لابنِ سِينَا. وللإمامِ ابنِ الحَظِيبِ عليه
سَرَحٌ حَسَنٌ، وكذا الأَمِيدِيُّ. وَشَرَحَهُ نَصِيرُ الدِّينِ الطَّوْسِيُّ المعروفُ بِخَوَاجِه، مِنْ
أَهْلِ الْعِرَاقِ. وَبَحَثَ مَعَ الْإِمَامِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِهِ، فَأَوْفَى عَلَى أَنْظَارِهِ وَجُوهِهِ.
﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76].

25 • عِلْمُ الطَّبِّ

وهي صناعةٌ تَنْظُرُ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ يَقْرَضُ وَيَصْبَحُ. فَيَحَاوُلُ صَاحِبُهَا
عَلَى حِفْظِ الصَّحَّةِ وَبَرَاءِ الْمَرَضِ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ، بَعْدَ أَنْ يُبَيِّنَ الْمَرَضَ الَّذِي يَخْصُ
كُلَّ غُضْوٍ^(د) مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ، وَأَسْبَابَ تِلْكَ الْأَمْرَاضِ الَّتِي تُنْشَأُ عَنْهَا، وَمَا لِكُلِّ
مَرَضٍ مِنَ الْأَدْوِيَةِ، مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْزِجَةِ الْأَدْوِيَةِ وَقُوَاهَا، وَعَلَى الْمَرَضِ
[بِالْعِلَامَاتِ الْمُؤَدِّتَةِ]^(هـ) بِتَضَجِّهِ وَقَبُولِهِ التَّوَاءِ أَوْ لَا فِي السَّحْنَةِ وَالْفَضْلَاتِ وَالتَّبْنُصِ،
مُحَازِينَ لِذَلِكَ^(و) الْقُوَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ^(ز)، فَإِنَّهَا الْمَدْبَرَةُ فِي حَالَتِي الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ. وَإِنَّمَا
الطَّبِيبُ مُجَادِبُهَا وَبُعَيْتُهَا بَعْضَ الشَّيْءِ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْمَادَّةِ وَالْفَضْلِ وَالسَّنِّ.
وَيُسَمَّى الْعِلْمُ الْجَامِعُ لِهَذَا كُلِّهِ عِلْمَ الطَّبِّ.

(أ) فِي ج: كِتَاب (ب) ضَمَّطَ فِي نَسْخَةٍ عَ بِالْحَرَكَاتِ: أَرِسْطُو (ج) سَقَطَ مِنْ ج ي (د) مِنْ ع، وَفِي ط ج ي: كُلُّ عَضْوٍ
عَضْو (هـ) بِيَاضٍ فِي ط (و) ع: بِذَلِكَ (ز) مِنْ ط، وَفِي ع ج ي: قُوَّةُ الطَّبِيعَةِ.

وَرَبَّمَا أَفْرَدُوا بَغْضَ الْأَغْضَاءِ / بالكلام ، وَجَعَلُوهُ عِلْماً خَاصّاً ، كَالْعَيْنِ وَعَلَيْهَا
وَأَكْحَالِهَا.

وكذلك أَلْحَقُوا بِالْفَرْغِ مَنَافِعَ الْأَغْضَاءِ. وَمَعْنَاهُ الْمَنْفَعَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خُلِقَ كُلُّ
عَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ الْحَيَوَانِيِّ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ مَوْضُوعِ عِلْمِ الطَّبِّ، إِلَّا أَنَّهُمْ
5 جَعَلُوهُ مِنْ لَوَاجِحِهِ وَتَوَابِعِهِ.

أولجالينوس في هذا الفَرْغِ كِتَابٌ جَلِيلٌ عَظِيمُ الْمَنْفَعَةِ^(أ). وَهُوَ إِمَامُ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ الَّتِي تُرْجِمَتْ كُتُبُهُ فِيهَا مِنْ [الْأَفْئِدَةِ]^(ب). وَيُقَالُ: كَانَ مُعَاَصِرًا لِعِيسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَيُقَالُ: مَاتَ بِصِقْلِيَّةٍ فِي سَبِيلِ تَقْلُبِ وَمُطَاوَعَةِ اغْتِرَابِ. وَتَوَالِيْفُهُ فِيهَا هِيَ
الْأُمَمَاتُ الَّتِي اقْتَدَى بِهَا جَمِيعُ الْأَطِبَّاءِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ أَيْمَةً جَاءُوا مِنْ وَرَاءِ الْغَايَةِ ، مِثْلَ الرَّازِيِّ
10 وَالْمَجُوسِيِّ وَابْنِ سِينَا. وَمِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ أَيْضاً كَثِيرٌ، وَأَشْهُرُهُمْ ابْنُ زُهْرٍ.
وَهِيَ لِهَذَا الْعَهْدِ فِي الْمَدِينِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَأَنَّهَا نَقَصَتْ لِحُقُوفِ الْعُمْرَانِ وَتَنَاقُصِهِ.
وَهِيَ مِنَ الصَّنَائِعِ الَّتِي لَا تَسْتَدْعِيهَا إِلَّا الْحَضَارَةُ وَالتَّرَفُّ، كَمَا تَبَيَّنَتْ بَعْدُ.

1. فَضْلٌ^(ج)

وَلِلْبَلَادِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْعُمْرَانِ طِبٌّ يَنْتُونُوهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ عَلَى تَجَرِبَةٍ قَاصِرَةٍ عَلَى
15 بَعْضِ الْأَشْخَاصِ ، وَتَتَدَاوَلُونَهُ مَتَوَازِئاً عَنْ مَشَايِخِ الْحَيِّ وَعَجَائِزِهِ . وَرَبَّمَا يَصْخُ مِنْهُ

(أ) مِنْ ع. وَسَقَطَ مِنْ ط ج ي (ب) فِي ع: جَالِينُوسُ، ثُمَّ شَطِبَتْ وَبَقِيَ فِي ط ج ي (ج) فِي ع ط وَحْدَهُمَا .

البغض، إلا أنه ليس على قانونٍ طبيعيٍّ، ولا عن مُوافقةٍ للمزاج. وكان عند العرب من هذا الطَّبِّ كثيرٌ. وكان فيهم أطباءٌ معروفون، كالحارث بن كلدة وغيره.

والطَّبُّ المنقولُ في الشرعيات^(١) من هذا القبيل، وليس من الوخي في شيء،
 إنما هو أمرٌ كان عاديًّا للعرب، ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله
 التي هي عادةٌ جيله، لا من جهة أن ذلك مشروعٌ على ذلك النحو من العمل. فإنه 5
 ﷺ إنما بعث ليُعرفنا الشرائع، ولم يُبعث لتعريف الطَّبِّ ولا غيره من العادات.
 وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: "أنتم أعلم بأمر دُنياكم"^(٢). فلا
 ينبغي أن / يُحمَل شيءٌ من الطَّبِّ الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على [1337]
 أنه مشروع، فليس هناك ما يدلُّ عليه. اللهم إلا إن استُعملَ على جهة التبرُّك
 و^(ب) بصدق العقْدِ الإيماني، فيكون له أثرٌ عظيمٌ في التشعُّع. وليس ذلك من الطَّبِّ 10
 المراجعي، وإنما هو من آثار [الصدق في الكلمة الإيمانية]^(ج)، كما وقع في مداواة
 المنبتون بالغسل^(٢) [ونحوه]^(د). والله الهادي إلى الصواب.

(أ) كذا في ط ج ي، وفي ع: التوثبات (ب) سقط من ج (ج) من ع، وياض في ط (د) من ع ج، وسقط من ط ي.

(1) أخرجه مسلم (2363) من حديث أنس بن مالك.

(2) في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري. البخاري 7: 159، 165، مسلم (2217).

26 • [علم^(أ) الفلاحة

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات. وهي^(ب) التَّنْظَرُ في التَّابِ من حيث تَمَيُّنُهُ ونُشُوؤُهُ بالسُّقْيِ والعلاجِ واستِجَادَةِ المُنْتَبِ وصِلَاحِيَةِ القَضَلِ وتَعَاهِدِهِ * بما يُضْلِحُهُ وَيُيَمُّهُ من ذلك كُلِّهِ *^(ج). وكان للمتقدمين بها عنايةٌ كبيرةٌ. وكان التَّنْظَرُ فيها 5 * عامًّا عندهم في التَّابِ *^(د) من حِجَّةِ غَزَسِهِ وتَمَيُّنِهِ و[من]^(هـ) حِجَّةِ خَوَاصِهِ وَرُوحَانِيَّتِهِ وَمُشَاكَلَتِهَا لِرُوحَانِيَّاتِ الكَوَاكِبِ والهَيَاكِلِ المُسْتَعْمَلِ ذلك في بابِ السَّخْرِ، فَعُظِّمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ لِأَجْلِ ذلك.

وَتَرَجَمَ من كُتُبِ اليونَانِيَّاتِ كِتَابُ الفِلاحةِ التَّنْبِيْطِيَّةِ، منسوبٌ لِعُلَمَاءِ التَّنْبِطِ، مُشْتَمِلَةٌ من ذلك على عِلْمٍ كَبِيرٍ. وَلَمَّا نَظَرَ أَهْلُ المِلَّةِ فِيهَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الكِتَابُ، وَكَانَ 10 بَابُ السَّخْرِ مَسْدُودًا وَالتَّنْظَرُ فِيهِ مَحْظُورًا، فَاقْتَصَرُوا مِنْهُ عَلَى الكَلَامِ فِي التَّابِ مِنْ حِجَّةِ غَزَسِهِ وَعِلَاجِهِ وَمَا يَفْرِضُ لَهُ فِي ذلك، وَحَذَفُوا الكَلَامَ فِي الفَرْقِ الْآخِرِ مِنْهُ جُمْلَةً.

وَاخْتَصَرَ ابْنُ العَوَامِ كِتَابُ الفِلاحةِ التَّنْبِيْطِيَّةِ عَلَى هَذَا المِنَاجِ، وَبَقِيَ الفَرْقُ الْآخِرُ مِنْهَا مُغْفَلًا. فَقُلَّ مِنْهُ مَسْلَمَةٌ فِي كُتُبِهِ السَّحَرِيَّةِ أَمْهَاتٍ مِنْ مَسَائِلِهِ، كَمَا نَذَكَرَ عِنْدَ الكَلَامِ عَلَى السَّخْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَكُتُبُ المُنَآخَرِينَ فِي الفِلاحةِ كَثِيرَةٌ، وَلَا يَغْدُونَ فِيهَا الكَلَامَ فِي الْغِرَاسِ 15 وَالْعِلَاجِ وَحِفْظِ التَّابِ مِنْ جَوَانِحِهِ وَغَوَائِقِهِ وَمَا يَفْرِضُ فِي ذلك كُلِّهِ. وَهِيَ مَوْجُودَةٌ.

(أ) من ع، وسقط من ظ ج (ب) ظ: وهو (ج) فيها بين النجمين في ج ي: يمثل ذلك (د) سقط ما بين النجمين من ع (هـ) من ج ي، وسقط من ع ظ .

27 • عِلْمُ الْإِلَهِيَّاتِ

وهو عِلْمٌ يَنْظُرُ - بِرُغْمِهِمْ - فِي الْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ. فَأَوَّلًا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ لِلْجَسَمِيَّاتِ [337ب] وَالرُّوحَانِيَّاتِ / مِنَ الْمَاهِيَّاتِ، وَالْوَحْدَةِ، وَالكَثَرَةِ، وَالْوَجُوبِ، وَالْإِمْكَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مَبَادِي الْمَوْجُودَاتِ، وَأَمَّا رُوحَانِيَّاتٌ. ثُمَّ فِي كَيْفِيَّةِ صُذُورِ الْمَوْجُودَاتِ عَنْهَا وَتَرْتِيبِهَا. ثُمَّ فِي أَحْوَالِ التَّنَاسُّلِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَجْسَامِ وَغَوْدِهَا إِلَى الْمُبْدَأِ.

وهو عِنْدَهُمْ عِلْمٌ شَرِيفٌ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَقْفَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الْوُجُودِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ بِرُغْمِهِمْ. وَسَيَأْتِي الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ. وَهُوَ تَالٍ لِلطَّبِيعِيَّاتِ فِي تَرْتِيبِهِمْ. وَلِذَلِكَ يُسَمَّوْنَهُ عِلْمٌ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ. وَكُنْتُ الْمَعْلَمُ الْأَوَّلُ فِيهِ مَوْجُودٌ بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ؛ وَلَخَّصَهَا ابْنُ سِينَا فِي كِتَابِ الشِّفَاءِ وَالتَّجَاوُزِ، وَكَذَلِكَ لَخَّصَهَا ابْنُ رُشْدٍ مِنْ حِكْمَاءِ الْأَنْدَلُسِ.

وَلَمَّا وَضَعَ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي عُلُومِ الْقَوْمِ وَدَوَّنُوا فِيهَا، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ الْغَزَالِيُّ مَا رَدَّهُ مِنْهَا، ثُمَّ خَلَطَ الْمُتَأَخَّرُونَ [فِي عُلُومِ الْقَوْمِ] ⁽¹⁾ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَسَائِلَ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَسَائِلِ الْفَلَسَفَةِ، لَاشْتِرَاكِهَا فِي الْمُبَاحِثِ، وَتَشَابُهَ مَوْضُوعِ عِلْمِ الْكَلَامِ بِمَوْضُوعِ الْإِلَهِيَّاتِ وَمَسَائِلِهَا بِمَسَائِلِهَا، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا فَرْقٌ وَاحِدٌ. وَغَيَّرُوا تَرْتِيبَ الْحِكَمَاءِ فِي مَسَائِلِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالْإِلَهِيَّاتِ، وَخَلَطَوْهَا فَنَاءً وَاجِدًا، قَدَّمُوا فِيهِ الْكَلَامَ فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ أَتَبَعُوهُ بِالْجَسَمِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا، ثُمَّ بِالرُّوحَانِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا، إِلَى آخِرِ الْعِلْمِ، كَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْمُبَاحِثِ الْمَشْرِقِيَّةِ، وَجَمِيعُ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ غُلَمَاءِ الْكَلَامِ.

(1) مِنْ ي .

وصار علم الكلام مُختلطاً بمسائل الحكمة، وكُتِبَ محشوةً بها، كأنَّ الغرض من موضوعها ومسائلها واحد. والتبس ذلك على الناس، وهو غير صواب. لأنَّ مسائل علم الكلام إمَّا هي عقائد مُتلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع [فيها]^(١) إلى العقل ولا تقويل عليه، بمعنى أنَّها لا تثبت إلَّا به. فإنَّ العقل معزول عن الشرع

5 وأنظاره، وما تحدَّث فيه المتكلمون من إقامة الحجج، فليس بحثاً عن الحق / فيها، [338]

ليُعلم بالدليل بعد أن لم يكن مغلوماً كما هو شأنُ الفلاسفة، بل إمَّا هو التماس حُجَّة عقلية تغضدُ عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها، وتدفع شبه أهل البدع عنها، الذين زعموا^(ب) أنَّ مداركهم فيها عقلية، وذلك بعد أن تُقرضُ صحيحةً بالأدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها؛ وكثير ما يبن المقامين. وذلك أنَّ مدارك صاحب الشريعة أوسع، لآساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية. فهي^(ج) فوقها ومحيطة

10 بها، لاستيفادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف والمدارك المحيط بها. فإذا هدانا الشارعُ إلى مُدرك فينبغي أن نُقدِّمه على مداركنا وثبُّ به دونها ولا ننظر في تضحيه بِمدرك العقل ولو عارضه، بل نعتقد ما أمزنا به اعتقاداً وعِلماً ونسكت عما لم نفهم من ذلك، ونقوضه إلى الشارع، ونقرُّ العقل عنه.

15 والمتكلمون إمَّا دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الردِّ عليهم من جنس معارضاتهم، واستدعى ذلك الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها.

(١) كذا في ج ي، وفي ظ: منها (ب) في ع: يزعمون (ج) في ج: فهو .

وأما النظر في مسائل الطبعيات والإلهيات بالتصحيح والبطلان، فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين. فاعلم ذلك لتمييز به بين الفئتين، فإنهما⁽¹⁾ مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف، والحق مغايرة كل منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل. وإنما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند الاستدلال، وصار احتجاج أهل الكلام كآلة إنشاء لطلب الاعتقاد بالدليل. وليس كذلك، بل 5 إنما هو رد على الملجدين، والمطلوب مفروض الصديق مغلوم.

[338ب] وكذا جاء المتأخرون من غلاة المتصوفة / المتكلمين بالمواد أيضاً، فخلطوا مسائل الفئتين بفهمهم، وجعلوا الكلام واحداً فيها كلها، مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والحلول والوحدانية وغير ذلك. والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة، وأبعدها من جنس الفنون والعلوم مدارك المتصوفة، لأنهم يدعون فيها 10 الوجدان، ويقرون عن الدليل. والوجدان بعيد عن المدارك العلمية وأنحائها وتوابعها، كما يتناهى وتبينه. والله الهادي إلى الصواب بمنه.

28 • علوم السحر والطلسمات (ب)

وهي علم بكيفية استعدادات تشتد النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين، أو بمعين من الأمور السبائية. والأول هو السحر، 15 والثاني هو الطلسمات.

(1) في ع: وإتيا (ب) جاء في ي: بلامين: الطلسمات، كما ذكرت في كامل النص.

ولما كانت هذه العلوم مجبورة عند الشرائع، لما فيها من الضرر، ولما يُشترط فيها من الوجهة إلى غير الله، من كوكب أو غيره، كانت كُتُبُها كالمفقودة بين الناس، إلا ما وُجد في كُتُب الأُمم الأقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام، مثل التَّبْطِ^(أ) والكَلْدَانِيَيْنِ. فإن جميع من تقدّمه من الأنبياء لم يُشرعوا الشرائع ولا جاءوا بالأحكام، إنما كانت كُتُبهم مواعظ وتوحيداً لله وتذكيراً بالجنة والتار.

وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السُريانيّين والكَلْدانيّين، وفي أهل مصر من القبط، وغيرهم. وكان لهم فيها التّواليف والآثار. ولم يترجم لنا من كُتُبهم فيها^(ب) إلا القليل، مثل الفلاحة التَّبْطِيَّة [البن وخشبة]^(ج)، من أوضاع أهل بابل. فأخذ الناس هذا العلم منها وتقتنوا فيه، ووُضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السُّنْبُغِيَّة، وكتاب طُفْطُم الهندي في صور الدّرج والكواكب، وغيرهم.

ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان، كبير السّحرة في هذه المِلَّة. فتصفّح كتب القوم، واستخرج الصّناعة، وغاض على زُبْدتها. واستخرجها^(د) ووضع فيها عدّة من التّواليف، وأكثّر الكلام فيها وفي صناعة الكيمياء، لأنها من ثوابها. لأنّ إحالة الأجسام التّوعِيَّة من صورة إلى أخرى إنّما يكون بالقوى التّفسّيسيّة لا بالصّناعة العمليّة. فهو من قبيل السّحر، كما نذكره في موضعه.

(أ) ي: التَّبْط (ب) في ج: منها (ج) من ع وحدها (د) ي ج: فاستخرجها.

ثم جاء مَسْلَمَةُ بن أَحْمَدَ المَجْرِيّ ، إمام أهل الأندلس في التعاليم
والسُخْرِيَّاتِ ، فَلَخَصَ جميع تلك الكتب وهدّتها ، وجمع طُرُقَهَا في كتابه الذي سَمَّاهُ
غَايَةَ الحَكِيمِ . ولم يَكُتِبْ أحدٌ في هذا العِلْمِ بَعْدَهُ .

وَلُنَقِّدُ هُنَا مَقْدَمَةً يَتَبَيَّنُ لَكَ بِهَا ^(ب) حَقِيقَةُ السُّخْرِ .

وذلك أَنَّ التَّقْوُسَ البَشَرِيَّةَ ، وإن كانت واحدةً بالتَّوَعُّعِ ، فَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ بِالْخَوَاصِّ .
وهي أَصْنَافٌ ، كُلُّ صِنْفٍ مَخْتَصٌّ بِخَاصِّيَّةٍ لَا تَوْجُدُ فِي الصَّنِفِ الْآخَرِ . وصارت تلك
الْخَوَاصُّ فَطْرَةً وَجِبِلَّةً لِصِنْفِهَا .

فنفوسُ الْأَنْبِيَاءِ ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، لَهَا خَاصِيَّةٌ تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ الزَّائِيَّةِ ،
وَمُخَاطَبَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، كَمَا مَرَّ ، وَمَا يَنْبَغُ ذَلِكَ مِنْ
التَّأْثِيرِ فِي الْأَكْوَانِ .

10

[وَنَفُوسُ السُّخَرَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ التَّأْثِيرِ فِي الْأَكْوَانِ] ^(ج) وَاسْتِجْلَابِ رُوحَانِيَّةِ
الْكَوَاكِبِ لِلتَّصَرُّفِ بِهَا وَالتَّأْثِيرِ بِقُوَّةِ نَفْسَانِيَّةٍ أَوْ شَيْطَانِيَّةٍ . فَأَمَّا تَأْثِيرُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَمُبْدٍ
إِلَهِيٌّ وَخَاصِيَّةُ رَبَانِيَّةٍ . وَنَفُوسُ الْكُهَنَةِ لَهَا خَاصِيَّةُ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْمُغَيَّبَاتِ بِقُوَّةِ
شَيْطَانِيَّةٍ ، وَهَكَذَا كُلُّ صِنْفٍ مَخْتَصٌّ بِخَاصِّيَّةٍ لَا تَوْجُدُ فِي الْآخَرِ .

15

وَالْتَقْوُسُ السَّاجِرَةُ عَلَى مَرَاتِبَ ثَلَاثَةٍ يَأْتِي شَرْحُهَا :

فَأَوَّلُهَا الْمُؤَثَّرَةُ بِالْهَمَّةِ فَقَطْ ، مِنْ غَيْرِ آلَةٍ وَلَا مُعِينٍ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ
الْفَلَاسِيفَةُ السُّخْرَ .

(أ) سقط حرف العطف من ج (ب) في ع ي : منها (ج) من ع ج ي ، وسقط من ظ .

والتَّالِي بُعِينٍ مِنْ [مِزَاجٍ] ^(١) الْأَفْلَاقِ أَوْ الْغَنَاصِرِ أَوْ خَوَاصِّ الْأَعْدَادِ، وَيُسَمُّوهُ
الطَّلْسُمَاتِ. وَهُوَ أضعفُ رتبةً مِنَ الْأَوَّلِ.

وَالثَّالِثُ تَأْثِيرٌ فِي الْقُوَى الْمُتَخَيَّلَةِ . [يَعْمَدُ] ^(ب) صَاحِبُ هَذَا التَّأْثِيرِ إِلَى الْقُوَى
الْمُتَخَيَّلَةِ، فَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِنَوْعٍ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَيُلْقِي فِيهَا أَنْوَاعاً مِنَ الْخِيَالَاتِ / وَالْمُحَاكَاةِ
5 وَضُوراً مِمَّا يَقْصُدهُ ^(ج) مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَنْزِلُهَا إِلَى الْحِسِّ مِنَ الزَّائِنِ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ الْمُؤَثَّرَةِ فِيهِ.
فَيَنْظُرُ الزَّارُونَ كَأَنَّهُمَا فِي الْخَارِجِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ، كَمَا يُحَكِّى عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يَرِي
الْبَسَائِثَ وَالْأَنهَارَ وَالْقُصُورَ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. وَيُسَمَّى هَذَا عِنْدَ الْفَلَاسِيفَةِ
الشَّغْوَذَةَ، أَوْ الشَّغْبَذَةَ. هَذَا تَفْصِيلُ مَرَاتِبِهِ.

ثُمَّ هَذِهِ الْخَاصِيَّةُ تَكُونُ فِي السَّاحِرِ بِالْقُوَّةِ، شَأْنُ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، وَإِنَّمَا
10 تَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ بِالرِّيَاضَةِ. وَرِيَاضَةُ السَّخْرِ كُلُّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْأَفْلَاقِ
وَالنُّكُوكِ وَالْعَوَالِمِ الْعُلُويَّةِ وَالشَّيَاطِينِ بِأَنْوَاعِ التَّعْظِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ.
فَهِىَ لِذَلِكَ وَجْهَةٌ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَسُجُودٌ لَهُ. وَالْوَجْهَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ كُفْرٌ. فَلهَذَا كَانَ
السَّخَرُ كُفْراً، وَالْكُفْرُ مِنْ مَوَادِّهِ وَأَسْبَابِهِ، كَمَا رَأَيْتَ. وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قَتْلِ
السَّاحِرِ، هَلْ هُوَ لِكُفْرِهِ السَّابِقِ عَلَى فِعْلِهِ، أَوْ لِتَصَرُّفِهِ بِالْإِفْسَادِ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنْ
15 الْفَسَادِ فِي الْأَنْوَانِ؟ وَالْكُلُّ حَاصِلٌ مِنْهُ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الْمَرْتَبَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنَ السَّخْرِ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْخَارِجِ، وَالْمَرْتَبَةُ الْآخِرَةُ
الْقَائِلَةُ لَا حَقِيقَةَ لَهَا، اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي السَّخْرِ، هَلْ لَهُ حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّمَا هُوَ تَخْيِيلٌ؟

(١) مِنْ ج ع ي. وَفِي ظ: سِرَاج (ب) مِنْ ج ع ي، وَفِي ظ: يَعْمَل (ج) ي: يَقْصُدهُ .

فالقائلون بأن له حقيقةً، نظروا إلى المرتبتين الأولتين؛ والقائلون بأنه لا حقيقة له، نظروا إلى الرتبة الثالثة الأخيرة. فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر، بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب. والله أعلم.

واعلم أن وجود السحر لا ميزة فيه بين العقلاء، من أجل التأثير الذي ذكرناه. وقد نطق به القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ السَّيِّطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِأَيْلِهَتِهِمْ وَمِمَّا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة، من الآية 102].

5 وسُمِّيَ رسولُ الله ﷺ، حتى كان يُخَيَّلُ إليه أنه يفعلُ الشيءَ ولا يفعله، وجعل سحره في مشطٍ مُشَافَةٍ⁽¹⁾ وجُفِّ طُلْعَةٍ. ودُفِنَ في بئرِ ذُرْوَانَ⁽²⁾، فأنزل الله عزَّ وجلَّ [عليه]^(ب) في المَعُودَتَيْنِ ﴿وَمِنْ سِحْرِ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [سورة الفلق، الآية 4]. قالت عائشة رضي الله عنها: فكان لا يقرأ على عُقْدَةٍ من تلك العُقَدِ التي سُحِرَ فيها إلا انْحَلَّتْ.

(أ) ي: ع. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ سُمِّيَ سَحِيرَ (ب) سقط من ط .

(1) وفي رواية: ومُشَاطَةٌ .

(2) إلى هذا الموضع، الحديث معروف في البخاري 4: 123 و 148 و 7: 176 و 177 و 178 و 8: 22 و 103 ومسلم (2189). أما قول عائشة فليس في الصحيح؛ إنما أورده ابن كثير في تفسيره (8: 538) وعزاه للثعلبي، وذكر أنه أورده بغير إسناد .

وأما وجود السّخر في أهل بابل، وهم الكلدانيّون من النّبط والسّريانيّين، فكثيرٌ ، نطقٌ به القرآن ، وجاءت به الأخبار . وكان للسّخر في بابل ومصر أزمان بغثة موسى عليه السلام سوق نافقة . ولهذا كانت مُعجزته من جنس ما يدعون ويتناغون فيه. وتبي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك. 5

ورأينا بالبيان من يَصوّر صورة الشّخص المسحورٍ بخواصّ أشياء مقابلة لما نواه وحاوله، موجودةً بالمسحور، أمثال تلك المعاني من أسماء وصفات في التّأليف والتفريق، ثم يتكلّم على تلك الصّورة التي أقامها مقام الشّخص المسحور عيّناً أو معيّ، ثم ينقُث من ريقه بعد اجتماعه في فيه بتكرار مخارج حروف ذلك الكلام السيّء ، وينقُث على ذلك المعنى في سبب أعدّه لذلك تفاولاً بالغفد والّزام وأخذ العهد على من أشرك به من الجنّ في نقْثه في فعله ذلك، استبشعاراً للعزيمة بالقزم. ولتلك البنية والأسماء السيّئة روحٌ خبيثةٌ يخرج منه مع التفخ متعلّقةً بريقه الخارج من فيه بالتفخ، فتزل عنها أرواحٌ خبيثةٌ⁽¹⁾، ويقع عن ذلك بالمسحور ما يُحاوله السّاحر.

15 وشاهدنا أيضاً من المنتجلين للسّخر وعمله من يُشير إلى كساء أو جلدي ويتكلّم عليه في سرّه، فإذا هو مقطوعٌ متخرق^(ب). ويشير إلى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالنفخ، فإذا معاها ساقطةً من بطونها على الأرض.

(1) من ع ج ي، وسقط من ط (ب) ي: مُخرق .

وسمغنا أَنْ بأَرْضِ الهِنْدِ لهذا العهد/ من يُشير إلى إنسانٍ، فَيُنْحَبْ قَلْبُهُ وَيَقْعَ
مَيِّتًا، وَيَنْقُبْ عَنْ قَلْبِهِ فَلَا يُوجَدُ فِي حَشَاةٍ. وَيُشِيرُ إِلَى الزُّمَانَةِ، وَتُفْتَحُ، فَلَا يُوجَدُ
من حُبُوبِهَا شَيْءٌ.

وكذلك سَمِغْنَا أَنْ بأَرْضِ السُّودَانِ وَأَرْضِ التُّرْكِ من يَسْخَرُ السَّحَابَ فَيَمِطُرُ⁽¹⁾

الأَرْضَ الْمَخْصُوصَةَ.

5

وكذلك رأينا من عمل الطَّلْسَنَاتِ عَجَائِبَ فِي الْأَعْدَادِ الْمُتَحَابَّةِ، وَهِيَ رَ لَ، رَ
قَ دَ، أَحَدُ الْعَدَدَيْنِ مَائَتَانِ وَعَشْرُونَ وَالْآخَرُ مَائَتَانِ وَأَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ. وَمَعْنَى الْمُتَحَابَّةِ:
أَنْ أَجْزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ الَّتِي فِيهِ مِنْ نَضِيفٍ، وَزُبْعٍ، وَسُدُيسٍ، وَخُمْسٍ، وَأَمْثَالِهَا إِذَا
جُمِعَ كَانَتْ مُسَاوِيَةً لِلْعَدَدِ الْآخَرِ صَاحِبِهِ. فَتُسَمَّى لِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُتَحَابَّةِ. وَنَقَلَ أَصْحَابُ
الطَّلْسَنَاتِ أَنْ لَتِلْكَ الْأَعْدَادِ أَثَرٌ فِي الْأُلْفَةِ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينِ وَاجْتِمَاعِهَا إِذَا وُضِعَ لَهَا
10 تَمَثَالَانِ^(ب)، أَحَدُهُمَا بَطَالِغُ الزُّهْرَةِ، وَهِيَ فِي بَيْتِهَا أَوْ شَرَفِهَا نَاضِرَةٌ إِلَى الْقَمَرِ نَظَرُ مَوْدَّةٍ
وَقَبُولٍ، وَيَجْعَلُ طَالِعُ الثَّانِي سَابِعَ الْأَوَّلِ، وَيُوضَعُ عَلَى أَحَدِ التَّمَثَالَيْنِ أَحَدُ الْعَدَدَيْنِ
وَالْآخَرُ عَلَى الْآخَرِ، وَيَقْصَدُ بِالْأَكْثَرِ: الَّذِي يُرَادُ انْتِثَالُهُ، أَعْنِي الْمَحْبُوبَ، مَا أَدْرِي،
الْأَكْثَرُ كَيْفَةً أَوْ الْأَكْثَرُ أَجْزَاءً، فَيَكُونُ لِذَلِكَ مِنَ التَّأْلِيفِ الْعَظِيمِ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينِ مَا لَا
يَكَادُ يَنْفَكُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ. قَالَهُ صَاحِبُ الْغَايَةِ⁽¹⁾ وَغَيْرُهُ مِنْ أَيْمَةِ الشَّانِ،
15 وَشَهِدَتْ لَهُ التَّجْرِيَةُ.

(أ) ط: فمطر (ب) في ي: مثالن .

(1) الجبريطي : غاية الحكم 32، 33، 278 .

وكذا طابع الأسد، ويُسمى أيضاً طابع الحصى. وهو أن يُرسم في قالب^(١) هندی
إصبع^(ب) صورة أسد شائلاً ذنبه، عاصاً على حصاة قد قسمها بنصفين، وبين يديه
صورة حية مُنسابة من رجلته إلى قبالة وجهه، فاغرة فاهاً إلى فيه، وعلى ظهره
صورة عُقرب تدب. ويتخين لرسمه حلول الشمس بالوجه الأول أو الثالوث من
5 الأسد، بشرط صلاح التيزين وسلامتهما من التحوس. فإذا وُجد ذلك وعُثر عليه،
طُبع في ذلك الوقت في مُقدار المُنقَال فيما دونه من الذهب، وغُمِس من بعد في
الرغفران / مخلولاً بماء الوزد، وُرُفِع في خزقة حرير صفراء. فإتهم يزعمون أن
لِمُفسكه من العز على السلاطين في مُباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يُعبر
عنه. وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحث أيديهم. ذكر ذلك أيضاً
10 أهل هذا الشأن في الغاية^(١) وغيرها، وشهدت له التجربة.

وكذلك وفق المسدس المختص بالشمس، ذكروا أنه يوضع عند حلول
الشمس في شرفها وسلامتها من التحوس، وسلامة القمر بطالع ملوكي يُعْتَبَر فيه
نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظر مودة وقبول، ويضلع فيه ما يكون
(في)^(ج) مواليدي الملوك من الأدلة الشريفة، ويُرفَع في خزقة حرير صفراء بعد أن
15 [يُغمَس]^(د) في الطيب. فزعموا أن له أثراً في صحابة الملوك وخدمتهم ومُعاشرتهم.
وأمثال ذلك كثير.

(١) في ج: طالع (ب) كذا ولم يبيته (ج) من ع، وفي ط: من (د) من ع، وفي ط: انمس .

(١) المجرطي : غاية الحكم 35 - 36 .

وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد الجريطي، هو مدونة هذه الصناعة، وفيه استيفائها وكما لمسايلها.

وذكر لنا أن الإمام الفخر ابن الخطيب وضع كتاباً في ذلك سماه السر المكتوم، وأنه بالمشرق يتداوله أهله؛ ونحن لم نقف عليه، والإمام لم يكن من أئمة هذا الشأن فيما يُظن. ولعل الأمر بخلاف ذلك.

5

وبالمغرب صنف من هؤلاء المتبحرين لهذه الأعمال السحرية، يعرفون بالبجاجين، وهم الذين ذكرت أولاً أنهم يُشِيرُونَ إلى الكيساء أو الجُلْد فيتخرق، ويُشِيرُونَ إلى بطن الغنم بالبعج فتنبعج. (ويستقى⁽¹⁾) أحدهم لهذا العهد باسم البعاج، لأن أكثر ما ينتج من السحر بعج الأنعام، يُرهب بذلك أهلها ليغطوه من فضلها. وهم مُتَسْتَرُونَ بذلك في الغاية خوفاً على أنفسهم من الحكام. لقيت منهم جماعة، وشاهدت من

10

أفعالهم هذه، وأخبروني أن لهم وجهته ورياضة بدعات كُفْرِيَّة وإشراك / لروحانيات [341ب] الجن والكواكب، سطرث فيها صحيفة عندهم تُسمى الخنزيرية يتدارسونها، وأن هذه الرياضة والوجهة يصلون إلى حصول هذه الأفعال، وأن التأثير الذي لهم إنما هو فيما سوى الإنسان^(ب) الحر من الأمتعة والحيوانات والرقيق. ويعبرون عن ذلك بما يمشي فيه التزهم، أي ما يملك ويساغ ويُشترى من سائر الممتلكات. هذا ما زعموه، وساءلت بعضهم فأخبرني^(ج) به. وأما أفعالهم فظاهرة موجودة، وقفنا على الكثير منها وعائتها من غير ريبة في ذلك. هذا شأن السخر والطلسمات وآثارها في العالم.

15

(1) سقط من ظ (ب) سقط من ي، وفي ع: الإنسان (كنا) (ج) في ج: وأخبرني.

فَأَمَّا الْفَلَاسِيفَةُ، فَفَرَّقُوا بَيْنَ السَّخَرِ وَالطَّلْسِمَاتِ^(١)، بَعْدَ أَنْ أَثْبَتُوا أَنَّهَا جَمِيعاً
 أَثَرٌ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَاسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ الْأَثَرِ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِأَنَّ لَهَا^(ب) آثَاراً
 فِي بَدَنِهَا عَلَى غَيْرِ الْمَجْزَى الطَّبِيعِيِّ وَأَسْبَابِهِ الْجِنْسَانِيَّةِ، بَلْ آثَارٌ عَارِضَةٌ مِنْ كَيْفِيَّاتِ
 الْأَزْوَاجِ تَارَةً، كَالسَّخُونَةِ الْحَادِثَةِ مِنَ الْفَرَحِ وَالسَّرُورِ، وَمِنْ حِمَّةِ التَّصَوُّرَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ
 5 أَخْرَى، كَالَّذِي يَقَعُ مِنْ قِبَلِ التَّوَهُّمِ. فَإِنَّ الْمَاشِيَّ عَلَى خَرْفٍ حَائِطٍ أَوْ عَلَى خَبَلٍ
 مُنْتَصِبٍ إِذَا قَوِيَ عِنْدَهُ تَوَهُّمُ السَّقُوطِ، سَقَطَ بِلَا شَكٍّ. وَلِهَذَا نَحْدُ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ
 يَعُودُونَ أَنْفُسَهُمْ ذَلِكَ [بِالْتَّوَهُّمِ عَلَيْهِ]^(ج) حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُمْ هَذَا الْوَهُمُ، فَتَجِدُهُمْ يَمْشُونَ
 عَلَى خَرْفٍ حَائِطٍ وَالحَبْلِ الْمُنْتَصِبِ وَلَا يَخَافُونَ السَّقُوطَ. فَثَبَّتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ
 النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَصَوُّرِهَا لِلسَّقُوطِ مِنْ أَجْلِ الْوَهُمِ. وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ أَثَرًا لِلنَّفْسِ فِي
 10 بَدَنِهَا مِنْ غَيْرِ الْأَسْبَابِ الْجِنْسَانِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلُ هَذَا الْأَثَرِ فِي
 غَيْرِ بَدَنِهَا، إِذْ نَسَبْتُهَا إِلَى الْأَبْدَانِ فِي ذَلِكَ التَّنَوُّعِ مِنَ التَّأْثِيرِ وَاحِدَةً، لِأَنَّهَا غَيْرُ حَالَّةٍ فِي
 الْبَدَنِ وَلَا مُنْطَبِعَةٍ فِيهِ. فَثَبَّتَ أَنَّهَا مُؤَثَّرَةٌ فِي / سَائِرِ الْأَجْسَامِ.

[1342]

وَأَمَّا التَّفَرُّقَةُ عِنْدَهُمْ بَيْنَ السَّخَرِ وَالطَّلْسِمَاتِ، فَهُوَ أَنَّ السَّخَرَ لَا يَحْتَاجُ
 السَّاحِرَ فِيهِ إِلَى مُعِينٍ، وَصَاحِبُ الطَّلْسِمَاتِ يَسْتَعِينُ بِرُوحَانِيَّاتِ الْكُوكَبِ وَأَسْرَارِ
 15 الْأَعْدَادِ وَخَوَاصِّ الْمَوْجُودَاتِ وَأَوْضَاعِ الْفَلَكَ الْمُؤَثَّرَةِ فِي عَالَمِ الْعَنَاصِرِ، كَمَا يَقُولُهُ
 الْمُتَجَمِّعُونَ. وَيَقُولُونَ: السَّخَرُ اتِّخَاذُ رُوحِ بَرُوحٍ، وَالطَّلْسِمُ اتِّخَاذُ رُوحٍ بِجِسْمٍ. وَمَعْنَاهُ
 عِنْدَهُمْ زَنْطُ الطَّبَائِعِ الْعُلُويَّةِ السَّمَاوِيَّةِ بِالطَّبَائِعِ السُّفْلِيَّةِ. وَالطَّبَائِعُ الْعُلُويَّةُ هِيَ رُوحَانِيَّاتُ
 الْكُوكَبِ. وَلِذَلِكَ يَسْتَعِينُ صَاحِبُهُ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ بِالنَّجْمَةِ. وَالسَّاحِرُ عِنْدَهُمْ غَيْرُ

(١) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ي: لها (ج) حاشية بخطه في ع وحدها.

مَكْتَسِبٍ لِسُخْرِهِ، بل هو مَقْطُورٌ عندهم⁽¹⁾ على تلك الجِبِلَّةِ الْمُخْتَصَّةِ بِذَلِكَ النَّوعِ مِنَ التَّأثيرِ. والفرقُ عندهم بين المَعْجَزةِ والسَّخْرِ أَنَّ المَعْجَزةَ قُوَّةُ إلهيَّةٌ تَبْعُثُ في النَّفْسِ ذلكَ التأثيرَ . فهو مؤيَّدٌ بروح الله على فِعْله ذلك . والسَّاحِرُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذلكَ من عند نَفْسِهِ وَيَقُوَّةِ النَّفْسَانِيَّةِ، وبإِمدادِ الشَّيَاطِينِ في بَعْضِ الْأَحْوالِ. فبينهُما الفَرْقُ في المعقُولِيَّةِ والحَقِيقَةِ وَالذَّاتِ في نَفْسِ الْأَمْرِ.

5

وإنَّما نَسْتَدِلُّ نَحْنُ على التَّفَرُّقِ بِالْعَلَامَاتِ الظَّاهِرَةِ، وهي وجودُ المَعْجَزةِ لِصاحبِ الْخَيْرِ وفي مَقاصِدِ الْخَيْرِ، وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَمَحَّصَةِ لِلْخَيْرِ. والتَّحَدِّي بها على دَعْوَى التَّبَوُّةِ، والسَّخْرِ إِنَّمَا يوجَدُ في صَاحِبِ الشَّرِّ وفي أفعالِ الشَّرِّ في الغالبِ، من التَّفريقِ بين الرِّجْزَيْنِ، وَضَرَرِ الْأَعْدَاءِ، وَأَمْثالِ ذلكَ، وَلِلنَّفُوسِ الْمُتَمَحَّصَةِ لِلشَّرِّ. هذا هو الفَرْقُ بَيْنَهُمَا عندَ الْحُكَمَاءِ الْإِلَهِيِّينَ.

10

وقد يوجَدُ لِبَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ أَصْحَابِ الْكَرَامَاتِ تَأثيرٌ أَيْضاً في أحوالِ الْعَالَمِ، وَلَيْسَ مَقْدُوداً من جِنْسِ السَّخْرِ. وإنَّما هو بِالْإِمْدَادِ الْإِلَهِيِّ، لَأَنَّ مُخْلَئَهُمْ وَطَرِيقَهُمْ من آثارِ التَّبَوُّةِ وَتَوَابِعِهَا. ولهم في المَدَدِ / الْإِلَهِيِّ حِظٌّ على قَدْرِ حَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ [342] وَتَمَسُّكِهِمْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ. وَإِذَا اقْتَدَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ على أفعالِ الشَّرِّ لَا يَأْتِيهَا لِأَنَّهُ مُتَّقِيْدٌ فِيمَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ. فَمَا لَا يَقَعُ لَهُمُ (فِيهِ) الْإِذْنُ لَا يَأْتُونَهُ بِوَجْهِهِ، وَمِنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ [ب] الْحَقِّ، وَرَبَّمَا سَلَبَ حَالَهُ.

15

(1) كذا جاءت في ط ج ي، وكانت في الأصل ع ثم شطبت (ب) ورد هذا النص مرتباً في ط بسبب قله المخاطب من حاشية ع لمُخْرِجَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ فِي الْمَكَانِ، فُجِعَ بَيْنَهُمَا. على حين قُلت ج ي النص سلباً .

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية، فلذلك لا يعارضها شيء من السخر. وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا، كيف ﴿تَلْقَفُ﴾⁽¹⁾ مَا يَأْكُونُ ﴿[سورة الأعراف، من الآية 117] وذهب سحرهم واضمحل كأن لم يكن.

وكذلك لما نزل على النبي ﷺ في المعوذتين ﴿وَمِنْ سَكِرَاتِ النَّفْسِ فِي الْعَقْدِ﴾ [سورة الفلق، من الآية 4]. قالت عائشة⁽¹⁾ رضي الله عنها^(ب): فكان لا يقرأها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت. فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره [بالهمة الإيمانية]^(ج).

وقد نقل المؤرخون أن ذرفش كايتان⁽²⁾، وهي راية كبرى كان فيها الوفق الميني الغدي منسوجاً بالذهب في طوالع⁽³⁾ فلكتية رصدت لوضع^(هـ) ذلك السوفق. فوجدت الزاية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض، بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم. وهو فيما يزعم أهل الطلنسبات والأوقاف مخصوص بالقلب في الحروب، وأن الزاية التي يكون فيها أو معها فلا تهزم أصلاً. إلا أن هذه عارضها المذد الإلهي من إيمان أصحاب النبي وتمسكهم بكلمة الله. فانحل معها كل عقد سحري، ولم يثبت. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 118].

(1) في ع: تلقفت ما كانوا يأفكون (ب) من ي (ج) حاشية بخطه من ع (د) كذا في ع، وفي ط ج ي: أوضاع (هـ) من حاشية ع، وسط من ط ج ي.

(1) تقدم القول فيه في صفحة 327.

(2) كذا ضبطت بالحركات في ع، وعند المسعودي: ذرفش كايتان أو ذرفش. مروج الذهب 3: 51 (1531)،

63 (1556) وانظر تعريف CH. pellat في الفهارس 6: 319.

وأما الشريعة، فلم تُرَفِّقْ بين السُّخْرِ والطَّلْسَاتِ وَالشَّعْبَذَةِ⁽¹⁾، وجعلته كله باباً [واحداً]⁽²⁾ محظوراً. لأن الأفعال إمَّا أباح لنا الشارعُ منها ما يَهْمُنَا في ديننا الذي [1343] فيه صلاح آخِرَتِنَا، أو في معاشِنَا الَّذِي فيه صلاح / دُنْيَانَا. وما لا يَهْمُنَا في شيء منها، فإن كان فيه ضررٌ أو نوعٌ ضررٍ، كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع، وتلحق به الطَّلْسَاتُ، لأنَّ أثرهما واحدٌ، وكالتَّجَامَةُ الَّتِي فيها نوعٌ ضررٍ باعتقادِ التَّأثيرِ، فتفسدُ 5 العقيدةَ الإيمانيَّةَ برَدِّ الأمور إلى غيرِ الله، فيكونُ حينئذٍ ذلك الفعلُ محظوراً على نِسْبَتِهِ^(ب) في الضَّرَرِ. وإن لم يكن مُهِمّاً علينا ولا فيه ضررٌ، فلا أقلُّ من تَرْكِهِ، قرينةٌ إلى الله. فإنَّ من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَغْنِيهِ. فجعلت الشريعةُ بابَ السُّخْرِ والطَّلْسَاتِ وَالشَّعْبَذَةِ⁽¹⁾ باباً واحداً، لما فيها من الضَّرَرِ، وخَصَّته بِالْحَظَرِ والتَّحْرِيمِ.

10 وأما الفَرْقُ عِنْدَهُم بين المعجزة والسُّخْرِ، فالَّذِي ذَكَرَهُ الْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى التَّحَدِّيِّ، وهو دَعْوَى وَقْعِهَا عَلَى وَفْقِ مُدَّعَاهُ. قالوا: وَقُوعُ المعجزة على وَفْقِ دَعْوَى الكاذِبِ غَيْرِ مَقْدُورٍ. لأنَّ دَلَالََةَ المعجزة على الصِّدْقِ عَقْلِيَّةٌ، لأنَّ صِفَةَ نَفْسِهَا التَّصَدِيقُ. فلو وَقَعَتْ مع الكَذِبِ لاسْتَحَالَ الصَّادِقُ كاذِباً، وهو مُحَالٌ. فإذن، لا تَقَعُ^(ج) المعجزة مع الكَذِبِ بِإِطْلَاقٍ.

15 وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم، كما ذكرناه، فَرَّقُوا ما بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي نِهَايَةِ الطَّرَفَيْنِ. فالسَّاجِرُ لَا يَضُرُّ مِنْهُ الْخَيْرُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي أَسْبَابِ الْخَيْرِ. وصاحبُ

(1) من ج ي، ومقط من ظ (ب) ع: نسبة (ج) في ع: ولا تقع.

(2) استعمل الكلمتين لمعنى واحد، انظر الصفحة 326 المتقدمة.

المُعْجِزَةُ لَا يَصْدُرُ مِنْهُ الشَّرُّ وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي أَسْبَابِ الشَّرِّ. وَكَأَنَّهَا عَلَى طَرَفِي
التَّقْيِضِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي أَضْلٍ فِطْرَتِهَا. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة،
من الآية 213] .

1. فَضْلٌ^(أ)

5 ومن قَبِيلِ هذه التَّأثيرَاتِ التَّفْسائِيَّةِ، الإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ. وهو تَأثيرٌ مِنْ نَفْسِ
المِغْيَانِ عِنْدَمَا يَحْسُنُ بَعَيْنُهُ مُدْرِكٌ مِنَ الدَّوَاتِ أَوْ الْأَحْوَالِ، وَيُفْرِطُ فِي اسْتِخْسَانِهِ.
و[يُنْشَأُ]^(ب) عَنْ ذَلِكَ الْاسْتِخْسَانِ حَسَدٌ يَرُومُ مَعَهُ سَلْبَ ذَلِكَ الشَّيْءِ عَمَّنْ اتَّصَفَ
بِهِ، فَيُؤَثِّرُ فِسَادَهُ.

10 وهو جِلَّةٌ فِطْرِيَّةٌ، أَغْنَى هَذِهِ الْإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ. / وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّأثيرَاتِ
التَّفْسَائِيَّةِ، أَنَّ صُدُورَهُ فِطْرِيٌّ جِلِّيٌّ، لَا يَتَخَلَفُ وَلَا يَزْجَعُ إِلَى اخْتِيَارِ صَاحِبِهِ، وَلَا
يَكْتَسِبُهُ. وَسَائِرُ التَّأثيرَاتِ، وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا لَا يُكْتَسَبُ، فَصُدُورُهَا رَاجِعٌ إِلَى
اخْتِيَارِ فَاعِلِهَا. وَالْفِطْرِيُّ مِنْهَا قُوَّةٌ صُدُورِهَا، لَا نَفْسٌ صُدُورِهَا. وَلِهَذَا فَإِنَّ [الْقَاتِلَ]^(ج)
بِالسَّحْرِ أَوْ بِالْكَرَامَةِ يُقْتَلُ، وَالْقَاتِلُ^(ج) بِالْعَيْنِ لَا يُقْتَلُ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ لَيْسَ تَمَّا
يُرِيدُهُ وَيَقْصِدُهُ أَوْ يَتْرَكُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجْبُورٌ فِي صُدُورِهِ عَنْهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(أ) ألحق هذا الفصل بخطه في حاشية ع، ونقله ط ج ي (ب) من ع، وفي ط : ونشأ (ج) في ط: القاتل، ووردت ماملة
في ي .

29 • عِلْمُ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ

وهو المسمّى لهذا العهد بالسمياء، نُقِلَ وَضَعُهُ مِنَ الطَّلَسْمَاتِ إِلَيْهِ فِي اضْطِلَاحِ أَهْلِ التَّصَرُّفِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ، فَاسْتُعْمِلَ الْعَامُّ فِي الْخَاصِّ.

وَحَدَّثَ هَذَا الْعِلْمُ فِي الْمِلَّةِ بَعْدَ صَدْرِ مِهَا ، وَعِنْدَ ظُهُورِ الْعُلَاةِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَجُنُوحِهِمْ إِلَى كَشْفِ حِجَابِ الْحِسِّ ، وَظُهُورِ⁽¹⁾ الْخَوَارِقِ عَلَى أَيْدِيهِمِ وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي 5
عَالَمِ الْعُنَاصِرِ، وَتَدْوِينِ الْكُتُبِ وَالِاضْطِلَاحَاتِ، وَمَزَاجِهِمْ فِي تَنْزِيلِ الْوُجُودِ عَنِ الْوَاحِدِ وَتَرْتِيبِهِ. وَزَعَمُوا أَنَّ الْكَمَالَ الْأَسْمَائِيَّ مَظَاهِرُهُ أَرْوَاحُ الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ، وَأَنَّ طِبَاعَ الْحُرُوفِ وَأَسْرَارَهَا سَارِيَّةٌ فِي الْأَسْمَاءِ. فَهِيَ سَارِيَّةٌ فِي الْأَكْوَانِ عَلَى هَذَا النِّتْظَامِ، وَالْأَكْوَانُ مِنْ لَدُنِ الْإِبْدَاعِ الْأَوَّلِ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارِهِ وَتُعْرَبُ عَنْ أَسْرَارِهِ؛ فَحَدَّثَ 10
لِذَلِكَ عِلْمُ أَسْرَارِ الْحُرُوفِ . وَهُوَ مِنْ تَفَارِيعِ عُلُومِ السَّمِيَاءِ ، لَا يُوقَفُ عَلَى مَوْضُوعِهِ وَلَا تُحَاطُ بِالْعَدَدِ مَسَائِلُهُ. تَعَدَّدَتْ فِيهِ تَوَالِيفُ الْبُؤَيِّ وَابْنِ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُمَا مِمَّنْ اتَّبَعَ آثَارَهُمَا.

وَحَاصِلُهُ عِنْدَهُمْ وَثَرْتُهُ : تَصَرُّفُ النُّفُوسِ الرُّبَانِيَّةِ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ بِالأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالْكَلِمَاتِ الْإِلَهِيَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْحُرُوفِ الْمُحِيطَةِ بِالأَسْرَارِ السَّارِيَّةِ فِي 15
الْأَكْوَانِ.

(1) سقط من ج .

ثم اختلفوا في سِرِّ التَّصْرُفِ الَّذِي فِي الْحُرُوفِ بِمَا هُوَ. فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ لِلْمِزَاجِ الَّذِي فِيهِ، وَقَسَّمَ الْحُرُوفَ^(أ) بِقِسْمَةِ الطَّبَائِعِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ كَمَا لِلْعُنَاصِرِ، وَاخْتَصَّتْ كُلُّ طَبِيعَةٍ^(ب) بِصَنْفٍ مِنَ الْحُرُوفِ يَقَعُ [التَّصْرُفُ]^(ج) فِي طَبِيعَتِهَا فَعَلَاءً وَانْفِعَالاً بِذَلِكَ الصَّنْفِ. / فَتَنَوَّعَتِ الْحُرُوفُ بِقَانُونِ صِنَاعِيٍّ يُسَمُّونَهُ التَّكْسِيرَ، إِلَى

5 نَارِيَّةٍ وَهَوَائِيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ وَتُرَابِيَّةٍ عَلَى حَسَبِ تَنَوُّعِ الْعُنَاصِرِ. فَالْأَلِفُ لِلنَّارِ، وَالْبَاءُ لِلْهَوَاءِ، وَالْجِيمُ لِلْمَاءِ، وَالذَّالُ لِلتُّرَابِ. ثُمَّ تَرَجَّعَ كَذَلِكَ عَلَى التَّوَالِي مِنَ الْحُرُوفِ وَالْعُنَاصِرِ إِلَى أَنْ تَنَفَّذَ، فَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ النَّارِ حُرُوفٌ سَبْعَةٌ: الْأَلِفُ وَالْهَاءُ وَالطَّاءُ وَالْمِيمُ وَالْفَاءُ وَالشَّيْنُ^(د) وَالذَّالُ. وَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ الْهَوَاءِ سَبْعَةٌ أَيْضاً: الْبَاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ وَالتَّوْنُ وَالضَّادُ وَالتَّاءُ وَالطَّاءُ. وَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ الْمَاءِ سَبْعَةٌ أَيْضاً: الْجِيمُ وَالزَّايُ وَالكَافُ وَالضَّادُ^(هـ) وَالْقَافُ وَالتَّاءُ وَالغَيْنُ^(و). وَتَعَيَّنَ لِعُنْصَرِ التُّرَابِ سَبْعَةٌ أَيْضاً: الذَّالُ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ وَالغَيْنُ وَالزَّاءُ وَالْخَاءُ وَالشَّيْنُ^(ز).

10

فَالْحُرُوفُ النَّارِيَّةُ لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ الْبَارِدَةِ، وَلِمُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْحَارَةِ حَيْثُ تُطْلَبُ مُضَاعَفَتُهَا إِمَّا جَسَاً أَوْ حُكْماً، كَمَا فِي تَضْعِيفِ قُوَّةِ الْمَرْيَحِ فِي الْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ وَالْفَتْكِ. وَالْمَائِيَّةُ أَيْضاً لِدَفْعِ الْأَمْرَاضِ [الْحَارَةِ]^(ح) مِنْ حُمِيَّاتٍ وَغَيْرِهَا، وَلِتَضْعِيفِ الْقُوَّةِ الْبَارِدَةِ حَيْثُ تُطْلَبُ مُضَاعَفَتُهَا جَسَاً أَوْ حُكْماً كِتَضْعِيفِ قُوَّةِ الْقَمَرِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

15

(أ) من: ع ج ي، وسقط من ط (ب) في ط: طبيعة لها (ج) سقط من ط (د) في ي: الشين (هـ) كذا في ي، وفي ع: الضاد وفوقها الشين تعريضاً (و) كذا في ط، وفي ع شطبت الغين وفوقها القاء (ز) في ع: الغين (ح) سقط من ط.

ومنه من جعل سرّ التصرف الذي في الحروف للنسبة العدديّة. فإنّ حروف أبجد دالّة على أعدادها المتعارفة وضِعاً وطَبْعاً. فبينها من أجل تناسب الأعداد تناسب في نفسها أيضاً، كما بين الباء والكاف والراء، لدالاتها كلّها على الاثنين، كلّ في مرتبته. فالباء على اثنين في مرتبة الآحاد، والكاف على اثنين في مرتبة العشرات، والراء على اثنين في مرتبة المئتين. وكالذي بينها وبين الدال والميم 5 والتاء لدالاتها على الأربعة، وبين الأربعة والاثنين نسبة الضعف. وخرج للأشياء أوفاق كما للأعداد، يختص كلّ صنف من الحروف بصنف من الأوفاق الذي تناسبه من حيث عدد الشكل أو عدد الحروف. وامتزج التصرف من السرّ الحزفي والسرّ العددي لأجل التناسب الذي بينها.

- 10 فأما سرّ هذا التناسب الذي بين الحروف وأمزجة الطبائع، أو بين / الحروف والأعداد، فأمر عسير⁽¹⁾ على الفهم، إذ ليس من قبيل العلوم والقياسات، وإنّا مستندة عندهم الذنوق^(ب) والكشف. قال البوني⁽¹⁾: ولا تُظنّ أنّ سرّ الحروف ممّا يتوصّل إليه بالقياس العقلي، وإنّا هو بطريق المشاهدة والتوفيق الإلهي.

- وأما التصرف في عالم الطبيعة بهذه الحروف والأشياء المركبة فيها، وتأثر 15 الأكوان عن ذلك، فأمر لا يتكرّر، لشوّهة عن كثير منهم تواتراً. وقد يُظنّ أنّ تصرف

(1) ح: غبّر (ب) في ع: الذوا .

(1) شمس المعارف الكبرى 216 – 217 (في الفصل 17 في خواص كهيص).

هؤلاء وتصرف أصحاب الطلسمات واحد، وليس كذلك. فإن حقيقة الطلسم وتأثيره، على ما حققه أهله، أنه قوى روحانية من جوهر القهر، تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عديّة وبخورات جالبة لروحانية ذلك الطلسم، مشدودة فيه بالهمة، فائدتها ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية. وهو عندهم كالخميرة المركبة من أرضية وهوائية ومائية ونارية، حاصلة في مجلتها، تحيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها، وتقبله إلى صورتها. وكذلك الإكسير للأجسام المعدية خميرة تلب المعين الذي تسري فيه إلى نفسها بالإحالة. ولذلك يقولون: موضوع الكيمياء جسد في جسد، لأن الإكسير أجزاءه كلها جسدانية. ويقولون: موضوع الطلسم روح في جسد، لأنه ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية؛ والطبايع السفلية جسد، والطبايع العلوية روحانية.

وتحقيق الفرق بين تصرف أهل الطلسمات وأهل الأسماء، بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله إنما هو للنفس الإنسانية والهمم البشرية. لأن النفس الإنسانية مُحيطَةٌ بالطبيعة وحاکمةٌ عليها بالذات، إلا أن تصرف أهل الطلسمات إنما هو في استئزال⁽¹⁾ روحانية الأفلاك وربطها بالصّور أو بالنسب العديّة^(ب) حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الإحالة والقلب بطبيعته، فعل الخميرة فيما حصلت فيه.

وتصرف أصحاب الأسماء إنما / هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من [345]

(أ) في ي: اشتراك (ب) في ي ج: العادية.

النور الإلهي والإمداد الرباني. فَتُسَخَّرُ^(أ) الطَّبِيعَةُ لذلك طائِعَةً غَيْرَ مُسْتَعْصِيَةٍ، ولا يحتاج إلى مَدَدٍ من القُوَى الفلكيَّةِ ولا غَيْرِهَا، لأنَّ مَدَدَهُ أَعْلَى مِنْهَا.

ويحتاج أهلُ الطَّلَّسَمَاتِ إلى قليلٍ من الرِّياضَةِ تُقَيِّدُ النَّفْسَ قُوَّةً على استِئْزَالِ^(ب) رُوحَانِيَّةِ الْأَفْلَاكِ ، وَأَهْوِيْنَ بِهَا وَجْهَةً وَرِياضَةً . بخلاف أهلِ الْأَسْمَاءِ ، فإنَّ رِياضَتَهُمْ هِيَ الرِّياضَةُ الْكُبْرَى ، وَلَيْسَتْ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ فِي الْأَكْوَانِ ، إِذْ هُوَ 5 حِجَابٌ ، وَإِنَّمَا التَّصَرُّفُ حَاصِلٌ لَهُمْ بِالْعَرَضِ كَرَامَةً مِنْ كَرَامَاتِ اللَّهِ بِهِمْ . فَإِنْ خَلَا صَاحِبُ الْأَسْمَاءِ عَنْ مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ اللَّهِ وَحَقَائِقِ الْمَلَكُوتِ ، الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ الْمَشَاهِدَةِ وَالْكَشْفِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَى مُنَاسَبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَطِبَاعِ الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ ، وَتَصَرَّفَ بِهَا مِنْ هَذِهِ الْحَيَثِيَّةِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَهْلُ السَّيْمِيَاءِ فِي الْمَشْهُورِ ، كَانَ إِذَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِ الطَّلَّسَمَاتِ ، بَلْ صَاحِبُ الطَّلَّسَمَاتِ أَوْثَقُ مِنْهُ ، لِأَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى أَصُولٍ طَبِيعِيَّةٍ 10 عِلْمِيَّةٍ وَقَوَانِينٍ مَتَرَبِّتَةٍ . وَأَمَّا صَاحِبُ أَسْرَارِ الْأَسْمَاءِ إِذَا فَاتَهُ الْكَشْفُ الَّذِي يَطَّلِعُ بِهِ عَلَى حَقَائِقِ الْكَلِمَاتِ وَآثَارِ الْمُنَاسَبَاتِ بِقَوَاتِ الْخُلُوصِ فِي الْوَجْهَةِ ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْعُلُومِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ قَانُونٌ بَرَهَانِيٌّ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ حَالُهُ أَضْعَفَ رَتَبَةً .

وَقَدْ يَفْزَحُ صَاحِبُ الْأَسْمَاءِ قُوَى الْكَلِمَاتِ وَالْأَسْمَاءِ بِقُوَى الْكَوَاكِبِ ، فَيُعَيِّنُ لِذِكْرِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى أَوْ مَا يَرُسُّ مِنْ أَوْفَاقِهَا ، بَلْ وَلَسَائِرِ الْأَسْمَاءِ ، أَوْقَاتًا^(ج) تَكُونُ 15 مِنْ حُظُوظِ الْكَوَكِبِ الَّذِي يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْأَسْمَ ، كَمَا فَعَلَهُ الْبُؤْنِيُّ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ^(د) الْأَنْهَاطَ . وَهَذِهِ الْمُنَاسَبَةُ عِنْدَهُمْ هِيَ مِنْ لَدُنِ الْحَضَرَةِ الْعَمَّائِيَّةِ ، وَهِيَ بَرَزْخِيَّةٌ

(أ) ع: فَيُسَخَّرُ (ب) فِي ي: اشْتَرَاكَ (ج) فِي ي: أَوْفَاقًا (د) سَقَطَ مَا بَيْنَ النَّجْمَيْنِ مِنْ ج .

[الكمال] ⁽¹⁾ الأسماء، وإنما تنزل تفصيلها في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة. وإثبات هذه الكلمات عندهم إنما هو بحكم المشاهدة. فإذا خلا صاحب الأسماء عن تلك المشاهدة، وتلقّى تلك المناسبة تقليداً، كان عمله بمثابة [عمل] ^(ب) صاحب الطلسم، بل هو أوثق منه، كما قلناه.

5 وكذلك قد يمزج أيضاً صاحب / الطلسمات عمله وقوى كواكبه بقوى الدعوات [345ب] المؤلف من الكلمات المخصوصة المناسبة بين الكلمات والكواكب، إلا أن مناسبة الكلمات عندهم ليس كما هي عند أصحاب الأسماء من الاطلاع في حال المشاهدة، وإنما يرجع إلى ما اقتضته أصول طريقهم السحرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكوّنات من جواهر وأعراض وذوات ومعان؛ والحروف والأسماء من جملة ما فيه، فلكل واحد من الكواكب قسم منها يخصه.

ويننون على ذلك مباني غريبة منكّرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو، كما فعله مسلمة الجريطي في كتاب ^(ج) الغاية ⁽¹⁾. والظاهر من حال البوني في أنماطه أنه اعتبر طريقهم. فإن تلك الأنماط إذا تصفّحتها وتصفّحت الدعوات التي تضمّنتها، وتقسّمها على ساعات الكواكب السبعة، ثم وقفت على الغاية، وتصفّحت قيامات الكواكب التي فيها، وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يستمرها قيامات

(1) سقط من ط (ب) من ع ج ، وسقط من ط (ج) من حاشية ع وسقط من ي ج .

(1) غاية الحكيم 169 – 175، وينقل الجريطي عن "الكتاب المخزون" لجعفر البصري الذي أخفاه مخافة التطلع على سرّه، وفيه قسم البصريّ آي القرآن على الكواكب السبعة .

الكواكب، أي الدعوة التي يُقامُ له بها، شهد لك ذلك إمّا بأنّه من مادّتها، أو بأنّ
التناسُب الذي كان في أضلّ الإبداع وبرزخ العلم قضى بذلك كلّهُ. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ
مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية 85].

وليس كلّ ما حرّمه الشرع من العلوم بمنكر الثبوت . فقد ثبت أنّ السحر
حقٌّ مع خطره، لكنّ حسَبُنَا من العلم ما علّمناه الله.

تحقيق^(أ)

ونُكْتُهُ [هذه]^(ب) السيمياء كما تحقّق لك، أنّها ضربٌ من السّخر، يحصلُ
برياضاتٍ شرعيّةٍ خاصّة. وذلك أنّا قدّمنا لك^(ج) أنّ التصرّف في عالم الطّبيعة^(د)
ليصنّفين من البشّر، هما الأنبياء، بالقوّة الإلهيّة الّتي فطرهم الله عليها، والسّحرة،
5 بالقوّة التّفاسيّة الّتي جُبلوا عليها.

وقد يحصلُ للأولياء تصرّف [يكتسبون]^(هـ) بالكلمة الإيمانيّة. وهو من نتائج
التّجريد واكتسابه^(و)، ولا يقصدون [إلى]^(ز) تحصيله، وإنّما يأتيهم عفواً. والممكنون

(أ) الحق ابن خلدون هذا التحقيق في بطاقة منفصلة بخطه. في نسخة ع. وكتب بخطه مثلها مخرجاً في نسخة ط. وأدرجه نسخة
ج في سياق النصّ متساوياً إلى الآخر مع نسخة ط. إلا أنّ الأصلين ع ط [الحزب هذا الملحق فيها بخط المؤلف] اختلف نصّها
في الأثناء، فواصلنا عرض نصّ ط في المتن ومعها ج، وهنّا بقية نصّ ع في هذه الحاشية:

إلا أنّ هذه الرّياضة السّحرية الّتي للأولّين مشحونة بالكفريّات، كالتّوجّهات للكواكب والدّعوات
لها، الّتي يسمّونها قياماتٍ لاشتبلاءٍ روحانيّتها، وكاعتقاد التّأثير من غير الله في زبط النّفل بالطّوايع
التّجويّة، ومناظرة الكواكب في البروج لتخصيل الأثر المطلوب.

فاعتمدَ لذلك كثيرٌ من يروم التصرّف في عالم الكائنات، وقصدوا طريقَ تحصيله على وجه تبعّد
من مُلازمة الكُفر والنّحالة، وقلّبو تلك الرّياضات شرعيّةً بأذكارٍ وتُسبيحاتٍ من القرآن والأحاديث
التّبويّة، هداهم إلى مغرّة المناسبات منها للحاجة - ما قدّمناه - انقسام العالم بما فيه من ذوابٍ وصفاتٍ
وأفعالٍ بأنّار الكواكب السّبعة. ويتحرّزون في ذلك الأيّام والسّاعات المناسبة لاقسامها كذلك.
ويُتَسَرَّون بتلك الرّياضة الشرعيّة مخرجاً من السّحر المجهود الّذي هو كفرٌ أو يَدْعُو إليه. ويتمتّسكون
بالوجه الشرعيّ لعمومها وخلوصها، كما فعله البوئي في كتاب الأنباط وغيره من كُتبه، وفعله غيره.
وسمّوا هذه الطّريقة بالسيمياء، توتّعلاً في الفرار من اسم السّخر، وهم في الحقيقة واقعون في معناه. =

(ب) ط: علم (ج) سقط من ع (د) من ط ج، وفي ع: الأنوان (هـ) من ج ع، وسقط من ط (و) من ط، وسقط
من ع ج (ز) من ع ج .

منهم إذا غرض لهم أعرضوا عنه، واستعاذوا بالله منه، * وَعَدُوهُ مَخْنَةٌ*^(أ)، كما يُحْكِي عن أبي يزيد [البسطامي]^(ب) أنه وافى شاطئ دجلة عشاءً منحرفاً، فالتقى [له]^(ج) طرفاً الوادي؛ فاستعاذ بالله وقال: لا أبيع حظي من الله بدانيق. وركب السفينة [عابراً]^(د) مع الملاحين.

وأما السَّخَرُ ، فلا بُدَّ في الجِيلِيّ منه من الرِّبَاضَةِ ليُخْرِجَ من القُوَّةِ^(هـ) إلى 5 الفعل. وقد يحصل حَرْبٌ^(و) منه بالاكْتِسَابِ، وهو دون الأوَّلِ^(ز)، فثُعَانِي فيه الرِّبَاضَةُ كما ثُعَانِي في الأوَّلِ.

وهذه الرِّبَاضَةُ السَّخَرِيَّةُ معروفةٌ؛ وقد ذَكَرَ أنواعها وإِكْفَاتِهَا^(ح) مَسْلَمَةُ 10 المَجْرِبِطِيّ في كتاب الغاية^(١)، وجابر بن حيان في بعض رسائله، وغيرهما. وقد^(ط) يستعملها كثيرٌ ممن يقصد اكتساب السَّخَرِ وتعلّمه على قوانينها وشروطها.

وكثيرٌ من الناس يقصدُ الحصولَ على التصرف، ويتحرّجُ من مُلَابَسَةِ السَّخَرِ

° وإن كانت الوجهة الشرعية حاصلة لهم، فلم يبعدوا كلَّ البُغْدِ عن اغْتِنَادِ التأثير لغير الله. ثم إنهم يقصدون التصرف في عالم الكائنات، وهو محظورٌ عند الشارع، وما وقع منه للأنبياء في المعجزات، فبأمر الله وأقداره. وما وقع للأولياء، فبإذن يحصل لهم بخلق العلم الضروريّ إلهاماً أو غيره، ولا تشبهوه [في الأصل ع] بخلق: ولا تشبهوه [من دون إذن].

فلا تتشكك بما يُمَوِّدُ به هؤلاء في هذه التسميات، فإنما هي، كما قرأته لك، من فُتُونِ السَّخَرِ وضروبه. والله الهادي إلى الحقِّ بتمّ.

(أ) سقط ما بين السجدين ج (ب) من ع، وسقط من ط ج (ج) من ع ج (د) من ع، ولي ج: للفتور، وسقط من ط (هـ) من: ط ج، وفي ع: القول (و) كذا في ط ج، وفي ع: وقد يحصل غير الجيلين منه... (ز) ع: الجيلين (ح) من ع (ط) سقط من ع.

(١) الغاية 6 - 11 المقالة الأولى، الفصل الثاني.

[واسميه ووضعه]⁽¹⁾، فيتخذ لذلك رياضة خاصة شرعية، من سُبُحات وأذكار مناسبة للرياضة السحرية بنوع التوجه وجنس الكلمات، ويتحین الطوالع، ويتجافى عن قصد الضرر في وجهته ليعبد بذلك عن السحر. وهيات له ذلك. ونفس الوجهة بقصد التصرف هي عين السحر. مع أن رياضة هؤلاء إذا تأملتها نبعث رياضة السحر من بين كلماتها كما في أنماط البوني، بل وفي سائر كتبه. [وأما إن كان غلطاً في مشروعية ذلك]^(ب) لحصول التصرف، فليحذر ذلك، وليعلم أن التصرف من أضله^(ج) غير مشروع، وأن أكبر الأولياء مجانبون له. ومن ارتكبه منهم فإنما يرتكبه بإذن من إلهام [أو غيره]^(د) أو حديث نفس أو غير ذلك، على ما عليه عاذتهم في الاستغلاء من قلوبهم المنورة^(هـ). مع أن تصرف الأولياء بالكلمة الإيمانية، لا بالقوة التفسائية. هذا هو تحقيق علم السيمياء، وهو كما تراه، من فنون السحر وضروبه. 10

والله الهادي إلى الحق بمتة.

1. فصل^(و)

ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباطات بين الكلمات خزفية، يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون عليه من الكائنات الاستثنائية. وإنما هي شبه المغايرة والمسائل السيالة. ولهم في ذلك كلام كثير، من أوعيه وأعجبه زائجة العالم للسنيي، وقد تقدم ذكرها⁽¹⁾. 15

(1) من ج (ب) في ج: وإن كان غلطاً في ظن أن ذلك مشروع (ج) ج: أوله (د) من: ج (هـ) سقط ما بين الجيمين من ج (و) العنوان من ج، وسقط في ظي.

(1) كتاب العبر 1: 208.

وَيُتَيْنُ هُنَا مَا ذَكَرُوهُ فِي كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ بِتِلْكَ الرَّايِزَةِ، وَنَسْرُدُ الْقَصِيدَةَ الْمُنَسُوْبَةَ
لِلْسَّبْتِيِّ بِرُغْمِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَبَعْدَهَا صَفَةُ الرَّايِزَةِ بِدَائِرَتِهَا وَجَدُولُهَا الْمَكْتُوبُ بِمُخَوَّلِهَا. ثُمَّ
نَكْشِفُ عَنِ الْحَقِّ / فِيهَا، وَأَنَّمَا لَيْسَتْ مِنَ الْغَيْبِ، وَإِنَّمَا هِيَ مُطَابَقَةٌ بَيْنَ مَسْأَلَةٍ^(١) وَجَوَابِهَا
فِي الْإِفَادَةِ [الْخَطَائِيَّةِ]^(ب) فَقَطُّ. [وَهِيَ مُلْحَةٌ مِنَ الْمُلْحِ، غَرِيبَةٌ فِي اسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ
السُّؤَالِ بِالصَّنَاعَةِ الَّتِي يَسْمُونَهَا صَنَاعَةَ التَّكْثِيرِ]^(ج). وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ قَبْلُ. 5
وَلَيْسَ عِنْدَنَا رَوَايَةٌ نَعُولُ عَلَيْهَا فِي صِحَّةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، إِلَّا أَنَّا نَحْزِنُ أَصَحَّ
النُّسخِ مِنْهَا فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ^(١). وَهِيَ هَذِهِ:

(١) كَذَا فِي ظ ج ي، وَفِي ع: الْمَسْأَلَةُ (ب) مِنْ ع ج ي، وَسَقَطَ مِنْ ط (ج) مِنْ ع ج، وَسَقَطَ مِنْ ط ي.

(١) اعْتَبَرَ ابْنُ خَلْدُونِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةَ الْمَعْرُوفَةَ "بَزَايِرَةِ الْعَالَمِ"، مِنْ أَوْعَبِ وَأَعْجَبِ مَا اشْتَمَلَ عَلَى عِلْمِ
السَّيَاسَةِ، وَيَرَى نَسْبَتَهَا إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ جَعْفَرِ السَّبْتِيِّ مِنَ الْمَزَاجِ. وَالسَّبْتِيُّ هَذَا صَوْفِيٌّ مِنْ
رِجَالِ الْمِائَةِ السَّادِسَةِ، كَانَتْ وَفَاتِهِ بِمَرَاكُشَ.

وَالْغَرِيبُ أَنَّ يَجْتَهِدُ ابْنُ خَلْدُونِ فِي تَحْزِينِ أَصَحِّ نَسْخِ هَذَا النَّصِّ، وَهُوَ الَّذِي اسْتَقَامَتْ لَهُ مَعَايِيرُ
الشَّعْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ النَّصُّ الَّذِي أَثْبَتَهُ سَقِيًّا لَا يُمْكِنُ حَصْرُ مَعَانِيهِ الظَّاهِرَةِ مِنْ خِلَالِ صِيَاجَتِهِ
الْمُفَكَّكَةِ الْمُتَنَافِرَةِ، وَإِشَارَاتِهِ الْمُنْتَبِعَةِ، مَعَ مَا يَشِيعُ فِيهِ مِنْ أَخْطَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْعُيُوبِ الْعَرَضِيَّةِ.

وَالنَّسْخُ الْمَعْتَمَدَةُ مُطَابَقَةٌ فِي عُيُوبِهَا، وَتَكَرَّرَ الْخَلَلُ نَفْسَهُ، لِذَلِكَ اضْطَرَّتْ لِلِاسْتِعَانَةِ بِنَسْخَةٍ
لِلْمَنْظُومَةِ مَحْفُوظَةٍ بِالْخَزَانَةِ الْحُسْنِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ، فَأَثْبَتَ مِنْهَا بَعْضُ فُرُوقِ الْقِرَاءَةِ الَّتِي رَأَيْتُ إِفَادَتَهَا
فِي تَعْدِيلِ النَّصِّ وَتَوْضِيحِهِ، وَرَمَزْتُ لَهَا بِالْحَرْفِ (ح).

وَأَشِيرُ إِلَى أَنَّ بَآخِرَ الْمَنْظُومَةِ إِشَارَةٌ لِعَدَدِ أَيْبَاهِهَا التَّسْعِينَ، وَأَنَّ نَسْخَةَ الْمَكْتَبَةِ الْحُسْنِيَّةِ تَشْتَمِلُ
عَلَى اثْنَيْنِ وَمِائَةٍ مِنَ الْآيَاتِ، الَّتِي جَاءَتْ مُتَوَاصِلَةً وَتَحْلُو مِنَ الْعَنَاقِينِ الْبَاطِلِيَّةِ، وَتَخْتَلِفُ فِي تَرْتِيبِهَا عَنِ
رَوَايَةِ ابْنِ خَلْدُونِ الَّتِي وَرَدَتْ هُنَا، وَهِيَ فِي مِائَةٍ وَأَرْبَعَةٍ عَشَرَ بَيْتًا.

وَيَتَصَلُّ بِفَكِّ رَمُوزِهَا وَالْأَجُوبَةِ عَنْ أَسْئَلَتِهَا رِسَالَةٌ فِي الْخَزَانَةِ الْحُسْنِيَّةِ ضَمِنَ مَجْمُوعِ رَقْمِهِ 10154 لِمَجْهُولٍ،
اسْمُهَا: [نَكَتْ] السَّرَائِرُ فِي إِخْرَاجِ الضَّاهِرِ.

يقولُ سُبَيْتِي وَيَحْمَدُ رِيَّةُ
 مُحَمَّدٍ المَبْعُوثِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَا
 آلا هذه زَايِرَجَةُ الْعَالَمِ الَّذِي
 فَنَ أَحْكَمَ الْوَضْعِ ^(ب) فَيَحْكُمُ جِسْمَهُ
 5 ومن أَحْكَمَ التَّنْظِطِ ^(د) فَيَدْرِكُ قُوَّةَ
 وَفِي عَالَمِ الْأَمْرِ تَرَاهُ ^(ز) مُحَقَّقًا
 فَهَذِي ^(ح) سَرَائِرَ عَلَيْكُمْ بَكْتِيهَا
 وَطَاءَ لَهَا عَرْشَ وَفِيهِ نَقُوشُهَا
 وَنَسَبَ دَوَائِرَ كِنَسْبَةِ فُلُكِيهَا
 10 وَآخِرَخَ لِأَوْتَارِهِ وَازْسَمَ حُرُوفَهَا
 أَقَمَ شَكْلَ زِيَرِهِمْ ^(م) وَسَوَّيُوتَهُ
 وَخَصَلَ غُلُومًا لِلطَّبَاعِ ^(ن) مُهَنْدِسًا
 وَسَوَّيَ لِمُوسِقَى وَعِلْمِ حُرُوفِهِمْ ^(س)
 وَسَوَّيَ دَوَائِرَ وَنَسَبَ حُرُوفَهَا
 15 أَمِيرٌ لَنَا يَحْوِي ^(ف) بِجَايَةِ دَوْلَةٍ
 مُصَلِّ عَلَى هَادٍ إِلَى الثَّلَاثِ أَرْسِلَا
 وَيَرْضَى عَنِ الصَّخْبِ وَمَنْ لَهُمْ تَلَا
 تَرَاهُ بِجِسْمِكَ ^(ا) وَبِالْعَقْلِ قَدْ جَلَا
 وَيَدْرِكُ أَحْكَامًا تَوَثَّرَهَا ^(ج) الْغَلَا
 وَيَذْرِكُ لِلتَّقْوَى وَلِلْكَلِّ حَصْلًا ^(هـ)
 وَهَذَا مَقَامٌ مِنَ الْأَذْكَارِ ^(ز) كَمَلَا
 أَقَمَهَا دَوَائِرًا ^(ط) وَبِالْحَاءِ عَدَلَا
 بِنَظْمٍ ^(ي) وَتَرَى وَتَرَاهُ مُجْدُولَا
 وَازْسَمَ كَوَاكِبَ لِأَذْرَاجِهَا الْغَلَا
 وَكَرَّرَ بِمَثَلِهَا ^(ك) عَلَى حَدٍّ مِنْ خَلَا ^(ل)
 وَحَقَّقَ بَيْنَ حَيْثُ نَوَزِهِمْ جَلَا
 وَعِلْمًا بِبِهَيْتَاتِ وَالْإِزْبَاعِ مَثَلَا
 وَعِلْمٌ بِاللَّهِ ^(س) فَحَقَّقَ وَخَصَلَا
 وَعَالَمَهَا أَطْلَقَ ^(ع) وَالْأَقَالِمَ جَدُولَا
 زَنَانِيَّةً أَتَتْ ^(س) وَحَكَمَ لَهَا جَلَا

(أ) خ: بجسم (ب) في الحسنية، وفي ج: الوضعي (ج) في ن: تديرها (د) ح: الرطبي فيحكم قوة.. وقد يدرك القوى (هـ) ط: حملا (و) ح: يكون (ز) ح: بالإدراك (ح) ح: فهذه أسرار (ط) كنا، وصوابه دوائر (ي) بنظم وترتيل تراه مجذولا (ك) في ي: يمثليها (ل) ح: ما جلا (م) خ: دائرة (ن) ح: بالطباع (س) ح: حروفها .. وعلم لغاليه (ع) ح: اطلب (ف) كنا في ج، ونحتها بالخط نفسه: عوى، وهو ما في ي ع. وسقط هذا البيت في ح (س) وفي ن: فهو نهاية دولة .. زاناية آتت وحكم لها خلا .

وَقَطَر لَأَنْدَلُس^(أ) فَابِن لِهَوْدِهِمْ
 مُلُوكٌ وَفُرْسَانٌ وَأَهْلٌ لِحِكْمَةٍ
 وَمَهْدِي مَوْحَدٌ^(ج) بَتُونِس حَكْمُهُمْ
 وَاقْبِسَم عَلَى الْفَطْرِ^(د) وَكُنْ مُعْتَقِدًا^(ه)
 / فَفَنْشُ وَيَزْشُلُونُ^(ز) وَالزَّاءُ حَرْفُهُ^(ز)
 مُلُوكٌ كَسَاوَةٌ^(ح) * وَذَلُّوا لِقَائِهِمْ^(ح)
 فَهَنْدٌ حَبَاشِي*^(ط) وَسَنْدٌ فَهَزْمُسُ
 [فَقَيْصَرُهُمْ]^(ك) حَسَاءٌ وَيَزْدَجَزُدُهُمْ
 وَعبَّاشُ كُلُّهُمْ شَرِيفٌ مُعْظَمٌ
 فَإِنِ شَنْتٌ تَدْقِيقُ الْمُلُوكِ وَحَلَّهْمُ
 عَلَى حُكْمٍ قَانُونِ الْحُرُوفِ وَعِلْمِهَا^(پ)
 فَمِنْ عِلْمِ الْعُلُومِ يَعْلَمُ عِلْمُنَا
 فِيرَسَخُ عِلْمُهُ وَيَعْرِفُ رَبُّهُ
 وَحَيْثُ أَتَى اسْمٌ وَالْعُرُوضُ يَشَقُّهُ^(ع)
 وَتَأْتِيكَ أَحْرُفٌ فَسَوِّ لَضَرْبَهَا
 وَجَاءَ بَنُو نَصْرِ وَظَفَرُهُمْ تَلَا
 فَإِنِ شَنْتٌ نَصَهُمْ^(ب) فَقَطَرُهُمْ خَلَا
 مُلُوكِ [الْمَشْرِقِ]^(د) بِالْأَوْفَاقِ^(ه) نَزَلَا
 فَإِنِ شَنْتٌ بِالرُّومِي بِلَا لَحْنٍ^(و) شَكَلَا
 5 وَإِفْرَنْسُهُمْ ذَاكَ وَبِالطَّاءِ كَمَلَا
 وَأَعْرَابُ قَوْمِنَا بِتَرْقِيهِ اغْمِلَا
 وَفُرسَ ظَنَظَرِي^(ي) وَمَا بَغْدَهُمْ طَلَا
 لَكَافٍ وَقَبْطِيهِمْ بِلَايِهِ طَوَّلَا
 وَلَكِنْ ثُرْكِي إِذَا الْفِغْلُ عَطَّلَا
 10 خَتِمٌ^(ل) يُيُونَا ثُمَّ نَسَبٌ وَجَذُولَا
 وَعِلْمُ طِبَاعِهَا وَكَلِّهِ [مُثَلَّلًا]^(ن)
 وَيَعْلَمُ أَسْرَارَ الْوُجُودِ وَأَكْمَلَا
 وَعِلْمٌ مَلَاجِمِ^(س) بِجَامِيمٍ فَضَّلَا
 فَحُكْمُ الْحَكِيمِ فِيهِ قَطْعًا [الْيَقْبَلَا]^(ف)
 15 وَأَحْرُفٌ سَيَبُويُهُ تَأْتِيكَ فَيُضِلُّهَا

(أ) في ط: الأندلس، ولا يستقيم (ب) ن: نصهم (ج) ن: توحيد (د) في ط: لشرقي. ن: وبالشرق (ه) ج: بالأفانق
 (و) ح: فطر وكن مفتحا .. فإن شنت الرومي فيا البحر. ن: متفقدا .. فإن شنت للروم فيالخر (ز) ح: برشولون بالراء حرفهم
 (ح) ح: ملوك قنوة وذلولاً لقافهم (ط) سقط ما بين النجمين من ي (ي) ح: ططاري (ك) في ط فقصر حاة، وهو يطابق
 ما في ح (الحسنة) (ل) من طه، وفي ع: فخم، وفي الحسنة: فخم بيوتهم وختم: ن: وكلهم .. فخمتم (م) ح: وختمها (ن) من
 ج ع ي، وفي ط: ميلا (س) ح: ملاسم (ع) ن: يشقه (ف) من خ، وفي ح: ليعمل، وفي ع: ليعتلا.

فَكَنَّ بِتَنَكِيرٍ^(١) وَقَابِلٌ وَعَوَّضٌ
 وَفِي الْعَقْدِ وَالْمَجْدُورِ^(ب) يُعْرِفُ غَالِباً
 وَاخْتَرِ لِمَطْلَعٍ وَسَوْ يُبَوِّتُهُ
 وَيَدْرِكُهَا الْمَرْءُ فَيَبْلُغُ قَصْدَهُ
 إِذَا كَانَ سَعْدٌ وَالْكَوَاكِبُ أَسْعَدَتْ
 وَإِبْقَاعُ دَالِهِمْ بِمَزْمُومٍ بَمَّه
 وَأَوْتَارُ زَيْرِهِمْ فَلِلْحَاءِ بُمُهُمُ
 وَأَذْخِلْ بِأَفْلَاكِ وَعَدْلٌ بِجَدُولٍ
 وَجَوْرٌ^(ج) شَنْوُذٌ^(ط) الْبَحْرُ يَجْرِي وَمِثْلُهُ
 فَأُضِلُّ لِدَيْنَا وَأُضِلُّ لِفِقْهِنَا
 فَادْخُلْ لِنُسْطَاطِ^(ك) عَلَى الْوَفْقِ جَزْرُهُ
 / فَتُخْرِجْ أَيْبَاتاً^(٢) فِي كُلِّ مَطْلَبٍ
 [وَبُشْيَا فَخَصَّرَ هَكَذَا]^(ن) حُكْمَ عَدِّهِمْ
 فَتُخْرِجُ أَيْبَاتاً وَعَشْرُونَ صُقِفَتْ^(ع)
 بَرَّيْكَ الْغَالِي لِلْأَجْزَاءِ خُلْجِلَا
 وَزُدْ لَنْفَخِ وَصُفِيهِ فِي الْعَقْلِ فَلَا^(ح)
 وَاعْكَسْ بِجَذْرِهِ وَبِالْشُّورِ عَدَلَا
 وَيُعْطِي حُرُوفَهَا وَفِي نَظْمِهَا الْجَلَا
 فَحَسْبُكَ فِي الْمَلِكِ وَتَيْلَ سَهَى الْعُلَا
 فَتَسَبُّ دَنَادِينَا تَجَذُّ فِيهِ مِنْهَلَا
 وَمِثْلَاهُمْ [الْمِثْلُ]^(د) بِجَمْعِهِ^(هـ) قَدْ جَلَا^(و)
 وَارْسُمُ أَبَا جَادٍ وَبَاقِيهِ^(ز) جَمَلَا
 أَتَى فِي عَرُوضِ الشَّعْرِ عَنْ جَمْلَةٍ مَلَا^(ط)
 وَعَلِمُ^(ي) لِنَحْوِنَا فَاحْفَظْ^(٣) وَخَصَلَا
 وَسَبَّخْ لَاسِمِهِ^(ل) وَكَبَّرْ وَهَلَلَا
 بِنَظْمٍ طَبِيعِيٍّ وَسِرٍّ مِنَ الْعُلَا^[347]
 فَعَلِمُ الْقَوَاتِجِ تَرَى فِيهِ سَهْنَلَا^(س)
 مِنَ الْأَلْفِ طَبْعاً قَيْتَا صَاحِ جَدُولَا

5

10

(١) ح: يتكبر (ب) في ن: المجزور (ج) ح: فانصب دنادينا تجذ فيه منهلا (د) ط: المثلث (هـ) خ: يخفمه (و) ح: حلا (ز) ح: وثقله (ح) ع: جور (ط) ع: شذور، وفي الحسنية: شذور البحر تحويز كله .. ومثله في العروض عن خله الملا (ي) ح: واضل لنحونا لخلق (ك) خ: لنسطاس (ل) ح: إلى الأسبا (م) من ع ج (ن) كذا في ي، وفي ع ط ح: فخرها كذا. وفي الحسنية: تفتي بخضري. وفي ن: وتفتي بمصرها كذا حكم عدم .. منهلا (س) في حاشية ط من القاموس: السهّل، الجريء، الجسور. وفي الحسنية: منهلا (ع) ح: صفه .

[ترك] ^(أ) صنائعاً من الضرب أكلت فصَحَّ لك المثنى وَصَحَّ لك الثلا
وسجَّ بزيهرهم وأثنى ^(ب) بنقرة أقمها دوائر ^(ج) لزيهر وخَصَّلا
أقمها بأوفاق وأصل لعدّها من اشرارِ خزفهم فَعُدَّ ^(د) به سلسلاً
بسم الله الرحمن الرحيم

5 الكلامُ على استخراجِ نسبةِ الأوزانِ، وكيفيتها، ومقاديرِ المقابلِ منها، وقُوَّةُ
الدرجةِ [المتميزة] ^(أ) بالنسبةِ إلى موضعِ المعلقِ، من امتزاجِ طبائعٍ، وعلمِ طبٍّ،
أو صناعةِ الكيمياءِ

أيا طالباً للطبِّ مع علمِ جابرٍ وعالمٍ مقدارِ المقاديرِ ^(ب) بالولا
إذا شئتَ علمَ الطبِّ لا بُدَّ نسبةٍ لأحكامٍ ^(ج) ميزانٍ تُصادفُ منها
10 فيشفي عليكُم والأكسيرُ مُحكَّمٌ وأمزاجٍ ^(د) وضعكُم بتضحيحِ انجلى

الطَّبُّ الرُّوحَانِيُّ

وشيئ ^(ط) إيلوش ٨٨٨٨ وذهنه نجلا ^(ط) ليهرام برجس وسبعة أكلأ
لتخليل أوجاع البوارِدِ صَحَّحُوا كذلك والتركيبُ حيثُ تَقَلَّا

(أ) من ع ج ي، وفي ط: تريد، وفي الحسينية: ترك عجايبا (ب) ح: وثى وهو الصواب (ج) من: ع ج (د) ح: فمن سر
خزفهم ثزبه سلسلا (ه) من ع ج ي، وفي ط: المتميزة (و) ج المقادر (ز) ح: لصحة (ح) ح: وإخراج (ط) ح: وشيت
أيا أو شر وذهنهم جلا .. ليهرام برجيس .

المقام الثالث ع ٤٥

المقام الرابع ٨

المقام الخامس

المقامُ السَّادِسُ ٢٤

المقام السَّابِعُ عَرَبِي

خط الاتصال والافتصال

خط الاتصال

خط الانفصال ~~مصحح دو~~

الزير للجميع وتابع الجذر التام

الانصال والانفصال

الواجب التأم في الاتصالات

إقامة الأنوار

الجذر المجيب في العمل

إقامة السؤال عن الملوك ٥٥١٤ ٤١٤٢٨

مقام الأولاد مقام نور عمه مقام بها 8 ح 8

الانفعال الروحاني والاعتقاد الرباني^(١)

أيا طالب السر تهليل ربه لدى اسمائه الحسنى تُصادف منهلاً
يطيعك^(ب) أخيار^(ج) الأنام بقلبيهم كذاك^(د) رثسهم وفي الشمس أعمالهم
تري عامّة الناس إليك تَقَدُّوا^(هـ) وما قبله^(و) حقاً متى الغير أهملأ
طريقك هنا السبل^(ز) والسبل^(ح) أني أقرّ له غيركم ونضركم احفلا
إذا شئت تحيا في الوجود مع الثمى ودنياً متيناً أو يكون مؤصلاً^(ج)
/ كذي الثون والجنيّد مغ سير صيغة وفي سير بسطام أراك مُسَرَّنلا
وفي العالم الغلوي تكون مُصدّناً كذا قالت الهندُ وصوفية الملاً
طريق رسول الله بالحق ساطع وما حكم صنع مثل جبريل أنزلا
فبسطك^(ط) تهليل وقوسك مَظَلَع^(ي) ويوم الخميس البدء^(ك) والأخذ انجلي
وفي جمعه أيضاً بالاسماء مثله وفي اثنين للحسنى يكون مُكَمَّلاً
وفي طائنه سير وفي هائنه إذا أراك بها مع نسبة الكل أغظلاً^(ل)
وساعة سغد شرطهم في توشها^(م) وعود ومصطكى بخور تحضلاً^(ن)
ويُتلى عليها آخر الحشر دعوة والإخلاص والسبع المثاني مرتلاً

[348]

10

(١) ط: الشراقي (ب) ط: تطيعك (ج) ع: أحبار (د) ط: لذلك، أو كذلك، والبيت، في الحسنة: تطيعك كسل الناس طرا بأسرهم كذا رؤاؤهم وفي الشمس أعمال (هـ) ح: تقيروا (و) خ: قلته (ز) ط: السبل، ورواية الحسنة: طريقك هذا وهي السبل التي أقرت بشرك وتصركم جلا (ح) المعجز في ح: بأوتارك العليا يحيط بها القلا (ط) ح: ففتشك، وفي خ: فبسطك (ي) سقط ما بين النجمين من ج (ك) ع البدء، والمعجز في ح: ويومك برجيس والأحد انجلي (ل) المعجز في ح: أدت فداذك تكون مغطلا (م) في ح: توشهم وفي عود مصطكى بخور تحضلاً .

ويؤمّه والبخورُ عوداً لهنّهم	ووقّت لساعةٍ ودغوّته إلى
ودغوّته لغاية فهي أعملت	وعن طيّسمانٍ دعوةٍ ولها حُلّى
وقيل بدعوة حروف لوضعها	بحرّ هواءٍ أو مطالب أهلاً
فَتَنْشُشُ أَخْزَفاً بَدَالٍ ولايها	وذلكَ وَفَقَ الْمُرَجَّعَ حَصَلاً
إذا لم يكن غَمَوَى هوالكَ دَلالُها	فذاك ليندو واو ززنب ^(١) معطلا ^(١)
فحسن لبائيه وبائهم إلى	هوالكَ وباقيهم قليله جملاً
وَشَشْ ^(ب) مُشاكل بشرطٍ لِبغضهم ^(ج)	وما زدت نسبة لِفعلِكَ عَدلاً ^(د)
ومفتاح مزيم وفعلها سوا	فنودي ^(هـ) وبسطايي سورَها ثلاً
وجفلك بالقصد ^(و) وكن مُتَقَدِّداً	أدلةً وخشي لنصّه مثلاً
فاعكس بيوتها بألفٍ ويَتِف	بباطنها سِرٌّ وفي سِرِّها انجلاً ^(ز)

فصل في المقامات للنهاية

لك الغيبُ صورةً من العالم الغلّا	ويوجدُها داراً وملبسُها الحلى ^(ح)
ويوسف في الحُسنِ وهذا شَبِيهُهُ	بسرٍّ ^(ط) وترتيل حقيقة أنزلا
وفي يديه طولٌ وفي الغيبِ ناطِقٌ	فيخكي إلى عودٍ ^(ي) يُجاذِبُ بُلْبُلًا
وقد جُنَّ بَهْلُولٌ بعشق جالِها	وعند تجلّيا لبِسْطام أخذلاً

(١) ح: واو ززنب مبطلا (ب) ح: ونش (ج) ن: لوضعهم (د) ح: كُلا (هـ) ن: فوري (و) ح: للعضو (ز) ح: انجل .
(ح) البيت في الحسنة: إلى الغيب صورة من العالم الملا وتترك بها البار [أ] منزلها الملا (ط) من ط، ونحراً في ي: بنثر،
وفي ج: بنثر. وجاء في المعجز في الحسنة: بنظم وترشّب تراه مُجَدَّلاً (ي) في ح: فيحي يعود مجارب بلنلاً .

ومات احله^(١) وأشرب حبها
 فيطلب في التهليل غايته ومن
 ومن صاحب^(ج) الحسنى له الفوز بالموت^(د)
 وتغير^(ز) بالغيث إذا جدت^(ح) خدمة
 فهذا هو الفوز وحسن يناله
 ومنها زيادات لتفسيرها تلاً

5

الوصية، والتختم، والإيمان، والإسلام، والتحرير، والأهلية

[1349] / فهذا قصيدنا، وتسعون عده
 عجبنا لأبيات وتسعون عدها
 فمن فهم السر فيهم نفسة
 حرام وشرعني لإظهار^(ط) سرنا
 فإن شئت أهله^(ك) فغلط يمينهم
 لعلك أن تنجو وسامع سرهم^(ل)
 [فتجمل^(ر) لعباس لسره كاتم
 وما زاد خطبة وختماً وجنولاً
 تولد أياتاً وما حضرها انجلي
 وفهم تفسيراً متشابهاً^(ح) اشكلا
 للناس وإن خصوا وكان التأهلاً^(ي)
 وتفهم برجلة^(ك) ودين تطولوا
 من القطع بالإفشاء فترأس بالغلا^(ل)
 فنال سعادته وتابعه غلا^(ن)

10

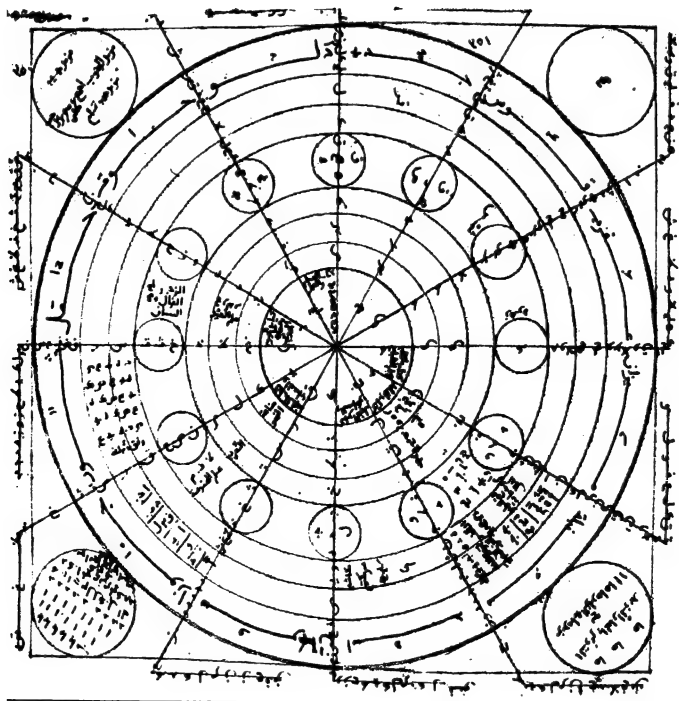
(١) كلمة مملعة في كل الأصول، وفي ح: حوئله، وفيه العجز فيها: حقيقته نهذ [فهو] الذي الجسم اشتملا (ب) ح: مناسبة جلا (ج) ح: صعب (د) من ع، وفي الأصول الأخرى: بالنهي، وفي خ: بالنهي (ه) ح: أوجع قراءة الكلمة: يسعد (و) ي و الحسنية: الذي (ز) ح: يخبر - جاد - ثربه (ح) كذا في الأصول ولا يصح، وفي ح: يشابه (ط) كذا وفي ح: حرام على من رام إظهار سرنا (ي) ح: وإن خصوا يعلم تأصلاً (ك) ح: ... ففاض عليهم وهدم برجة ودين تطولوا (ل) ح: لعلكم تنجوا ويبلغ سرهم من التطلع بالأسيا ترى سرّاً الغلا (م) من ج ي، ومثلاً في ط مملعة، وفي ع: غفل، وفي الحسنية: غفل (ن) في العجز في ح: ينال سعادة وتآلفه غلا (و) روتاً: وتابعه غلا .

وقام رسول الله في الناس خاطباً
وقد ركب الأرواح أجساد مظهر
إلى العالم العلوي يفنى فناؤنا
فقد تمّ نظفنا وصلّى إلّنا
وصلّى إله العرش ذو الحمد والعلّى
محمد الهادي الشفيع إمامنا

فمن إراس عشرة^(ب) فذلك أكبلا^(ب)
فناالت لقنثهم بدق تطولا
ونلبس أثواب الوجود على النولا
على خاتم الرّسل صلاة بها الغلا
على سيّد ساد الأنام وكّلا
وأصحابه أهل المكارم والغلا

تَضَحِيحُ النَّيِّرَيْنِ وَتَعْدِيلُ الْكَوَاكِبِ عِنْدَ كُلِّ تَارِيخٍ مَطْلُوبٌ

10 [كَلِمَاتُ الزَّائِرَةِ] (ج)



كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من مزايرجة العالم، بحول الله

السؤال له ثلاثمائة وستون جواباً، عدّة الدّرج. وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار وتناسب العمل من استخراج الأخراف من يئت القصيدة. 5

تنبيه:

تركيب حروف الأوتار والجداول على ثلاثة أصول: حروف عربيّة تُنقل على هيئاتها، وحروف برشم الغبار. وهذه^(أ) تتبدّل، فمنها ما يُنقل على هيئته متى لم تزد الأوتار عن أربعة، [فإن زادت عن أربعة]^(ب) نُقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات؛ وكذلك لمرتبة المئين، على حسب [العمل]^(ج)، كما سنبيّنه. 10

ومنها حروف برشم الزّمام كذلك، غير أنّ رشم الزّمام يُعطي نسبةً ثانية^(د). فهي بمنزلة واحد ألف وبمنزلة عشرة، ولها نسبة من خمسة بالعربي. فاستحقّ البينث من الجدول أن توضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرّشم، وحر[فان]^(هـ) في الرّشم. فاختصروا من الجدول يوتاً خالية، فمتى كانت أصول الأوتار زائدة على أربعة، حُسبت في العدّد في طول الجدول. وإن لم تزد عن أربعة، لم يُحسب إلاّ العامر منها. 15

(أ) ج: وهي (ب) من: ع ج ي (ج) من ع ي ج، وفي ظ: المئين (د) بعدها في ج فراغ لكلمة (هـ) في الأصول كلها: حرفين.

والعمل في السؤال يفتقر إلى [سبعة]^(أ) أصول، عدّة حروف الأوتار وحفظ

أدوارها بعد طَرَحها، اثنا عشر؛ وهي ثمانية أدوار في الكامل، وستّة في الناقص
أبدأ. ومعرفة دَرَج الطالع، وسُلطان البُرج، والدُّور الأكبر الأصلي، وهو واحدٌ أبداً.

وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي، وما يخرج من ضرب الطالع والدور في
سُلطان البُرج، وإضافة سُلطان البُرج للطالع. والعمل جميعه ينتج على ثلاثة أدوار 5

مضروبة في أربعة، تكن [اثني] ^(ب)عشر دوراً. ونسبة هذه الثلاثة أدوار التي هي
كل دور من أربعة.... ^(ج)ثلاثة، كل نشأة لها ابتداء. ثم إنها تُضرب أدواراً رباعية
[...]^(د) أيضاً ثلاثية. ثم إنها / من ضرب ستة في اثنين، فكان لها نشأة، [...]^(هـ)

[353]

يظهر ذلك في العمل.

وتتبع هذه الأدوار نتائج، وهي [...] ^(و)الأدوار، إما أن تكون نتيجة أو أكثر 10

إلى ستة.

فأول ذلك نفرض سؤال سائل عن الزيجة ^(ز): هل هي علمٌ مُحدث أم

قديم؟ بطالع أول دَرَج من القوس. فوضعنا حروف وترِ رأس القوس، ونظيره من
رأس الجوزاء، وثالثته وترِ رأس الدلو إلى حدّ المركز. وأضفنا إليه حروف السؤال.

ونظرنا عدتها، وأقل ما تكون ثمانية وثمانين، وأكثر ما تكون ستة وتسعين، وهو 15
جُملة دور صحيح. فكانت في سؤالنا ثلاثة وتسعين. ويختصر السؤال إن زاد على

(أ) في الأصول: سبع (ب) في الأصول: اثنا (ج) بين الكلمتين في ط ع ج ي فراغ لكلمة (د) في حاشية ع مخرج به كلمة:

يباض، وترك هذا البياض في ط ج ي (هـ) بياض بقدر كلمتين في الأصول الأربعة (و) وضع بياض بقدر كلمة في الأصول

(ز) هكذا جاءت هنا بحذف حرف المد بعد الزاي.

سِتَّةَ وَتَسْعِينَ، كما تَسْقُطُ جَمِيعُ أَذْوَارِهِ [الْإِثْنِي] ^(١) عَشْرِيَّةً، وَيُحْفَظُ مَا خَرَجَ مِنْهَا وَمَا بَقِيَ؛ فَكَانَتْ فِي سُؤَالِنَا سَبْعَةُ أَذْوَارٍ، الْبَاقِي تَسْعَةُ، أَثْنَتَانِ فِي الْحُرُوفِ مَا لَمْ يَتَلَخَّصْ الطَّالِعُ [إِثْنِي] ^(ب) عَشْرَ دَرَجَاتٍ. فَإِنْ بَلَغَهَا ^(ج) لَمْ تُثَبِّثْ لَهَا عِدَّةٌ وَلَا دَوْرٌ. ثُمَّ تُثَبِّثُ أَعْدَادُهَا أَيْضاً، إِنْ زَادَ الطَّالِعُ عَنْ أَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ فِي الْوَجْهِ الثَّالِثِ.

5 ثُمَّ تُثَبِّثُ الطَّالِعَ، وَهُوَ وَاحِدٌ، وَسُلْطَانَ الطَّالِعِ، وَهُوَ أَرْبَعَةٌ، وَالنُّوْرَ الْأَكْبَرَ، وَهُوَ وَاحِدٌ. وَاجْتَمَعَ مَا يَتَنَ الطَّالِعَ وَالنُّوْرَ، وَهُوَ اثْنَانِ فِي هَذَا السُّؤَالِ، وَاضْرَبْ مَا خَرَجَ مِنْهَا فِي سُلْطَانِ الْبُرْجِ، يَبْلُغُ ثَمَانِيَةً. وَأَضْفِ السُّلْطَانَ لِلطَّالِعِ، [يَكُنْ] ^(د) خَمْسَةً. فَهَذِهِ سَبْعَةُ أَصُولٍ.

10 فَمَا خَرَجَ مِنْ ضَرْبِ الطَّالِعِ وَالنُّوْرِ الْأَكْبَرِ فِي سُلْطَانِ الْقَوْسِ، مَا لَمْ يَبْلُغْ [إِثْنِي] ^(هـ) عَشْرَ فِيهِ ^(ز)، تَدْخُلُ فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةٍ مِنْ أَسْفَلِ الْجَدُولِ صَاعِداً. وَإِنْ زَادَ عَلَى [إِثْنِي] ^(هـ) عَشْرَ، طُرِحَ أَذْوَاراً. وَتَدْخُلُ الْبَاقِي فِي ضَلْعِ ثَمَانِيَةٍ، وَتُعَلَّمُ عَلَى مُتَنَهَى الْعِدَدِ. وَالْخَمْسَةُ الْمُسْتَخْرَجَةُ مِنَ السُّلْطَانِ وَالطَّالِعِ، يَكُونُ [الْمُدْخَلُ] ^(ز) فِي ضَلْعِ السَّطْحِ الْمَبْسُوطِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَدُولِ. وَتَعُدُّ مَتَوَالِيًا خَمْسَاتِ أَذْوَارٍ وَتُحْفَظُهَا إِلَى أَنْ يَقِفَ الْعَدَدُ فِي مُقَابَلَةِ الْبُيُوتِ الْعَامِرَةِ بِالْعَدَدِ مِنَ الْجَدُولِ. وَإِنْ وَقَفَ فِي مُقَابَلَةِ الْخَالِي مِنَ بُيُوتٍ / الْجَدُولِ عَلَى أَحَدِهِمَا فَلَا تَعْتَبَرْ، وَتُسْتَبْرَرُ عَلَى أَذْوَارِكَ عَلَى [353ب]

15 خَرْفٍ مِنْ أَرْبَعَةٍ، وَهُوَ أَلْفٌ أَوْ بَاءٌ أَوْ جِيمٌ أَوْ زَايٌّ. فَوْقَ الْعَدَدِ فِي عَمَلِنَا عَلَى حَرْفِ أَلْفٍ وَخَلْفَ ثَلَاثَةِ أَذْوَارٍ. فَضَرَبْنَا ثَلَاثَةً فِي ثَلَاثَةٍ، كَانَتْ تَسْعَةً، فَهُوَ عَدَدُ الدَّوْرِ

(١) فِي الْأَصُولِ: اِثْنَانِ (ب) فِي الْأَصُولِ: اِثْنَانِ (ج) فِي ي: بَلَّغَ (د) فِي الْأَصُولِ: يَكُونُ (هـ) فِي الْأَصُولِ: اِثْنَانِ (و) ع: ج: فِيهِ (ز) م: ع، وَفِي ط: ج: الطَّالِعُ.

الأول، فأنثته، واجمع ما بين الصلغين القائم والمبسوط [يكن^(أ)] في ينت ثمانية.

وادخل بعدد ما في الدور الأول، وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتماعاً فيه، ما زاد إلى جهة اليسار، وهو ثمانية. فوقع على حرف لام ألف، ولا يخرج أبداً منها حرف مركب، وإنما هو إذن حرف تاء، أزيعة
برشم الزمام. فعلم عليها بعد نقلها من ينت القصيدة. 5

واجمع عدد الدور للسultan، يبلغ ثلاثة عشر، ادخل بها في حرف الأوتار، وأثبت ما وقع عليه العدد، وعلم عليه من ينت القصيدة.

ومن هذا القانون، تدرى كم تدور الحروف في التظم الطبيعي. وذلك أن تجمع حرف الدور الأول، وهو تسعة لسultan البزج، وهو أربعة، يبلغ ثلاثة عشر. أضفها لمثلها، تكن ستة وعشرين. أسقط منه درج الطالع، وذلك واحد في هذا
السؤال، الباقي خمسة وعشرون. 10

فعلى ذلك يكون نظم الحزف الأول، ثم ثلاثة وعشرون مرتين، ثم اثنين وعشرون مرتين، على حسب هذا الطرح، إلى أن تنهي إلى الواحد من آخر البنت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً [.....] (ب).

ثم ضع الدور الثاني، و[أضف^(ج)] حروف الدور الأول إلى ثمانية، الخارجة
من ضرب الطالع والدور في السultan، [يكن^(د)] سبعة عشر، الباقي خمسة. 15

(أ) في ظ: يكون (ب) كلمة مشطوبة في ع، وفي ط ج ي بياض (ج) في ع ج ي: وصف، وفي ط: وضف والمؤلف يستعمل "صف" في أكثر مواقع ورودها القادمة، فعدّلناها بفعل الأمر من الرباعي "أضف" (د) ظ: يكون.

فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهت في الدور الأول، وعلم عليه. وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر، ثم بخمسة، ولا تعدد الحالي^(١). والدور عشري، فوجدنا / حرف ثاء، خمسمائة. وإنا هو ن، لأن دورنا في مرتبة العشرات. وكانت الخمسمائة بخمسين، لأن دورها سبعة عشر. فلو لم تكن سبعة وعشرين لكان مئتيناً. 5 فأثبت نون. ثم ادخل بخمسة أيضاً من أوله، وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجذ واحداً. فتهجر العدد واحداً، يقع على خمسة. أضف لها واحد السطح [يكن]^(ب) سيئة. أثبت واو، وعلم عليها من بيت القصيد أربعة، وأضفها^(ج) للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان، يبلغ [اثني]^(د) عشر، أضف لها الباقي من الدور الثاني، وهو خمسة، يبلغ سبعة عشر، وهو ما للدور الثاني، فدخلنا 10 بسبعة عشر في حروف الأوتار، فوقع العدد على واحد، أثبت ألف وعلم عليها من بيت القصيد، وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف، عدة الخارجة من الدور الثاني.

وضع الدور الثالث، وأضف^(هـ) خمسة إلى ثمانية يكن ثلاثة عشر، الباقي واحداً. انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد، وادخل في بيت القصيد بثلاثة عشر. 15 * ونخذ ما وقع عليه العدد، وهو ق. وعلم عليه، وادخل بثلاثة عشر*^(و) في حروف الأوتار، وأثبت ما خرج، وهو س. وعلم عليه من بيت القصيد. ثم ادخل تما يلي

(١) ي: الحال (ب) في الأصول: يكون (ج) ي ج: وضفها (د) في الأصول: اثنا (هـ) ط ج ي: ضف (و) سقط ما بين النجمين من ي .

السِّنِ الخارجةً بالباقي من دُور ثلاثة عشر، وذلك واحد. فخذ ما يلي حرف سين من الأوتار، فكان ب، أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد. وهذا يقال له: الدور المَطووف، وميزانه صحيح؛ وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها إليها [تضيف]^(أ) إليها الواحد الباقي من الدور، تبلغ^(ب) سبعة وعشرين. وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد. وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر، وانظر ما قابله⁵ من السطح، وأضعفه^(ج) بمثله، وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر. فكان حرف جيم. فكانت الجملة سبعة * . فذلك حرف زاي. فأثبتناه، وعلمنا عليه من بيت القصيد. وميزانه أن تضعف / سبعة *^(د) بمثلها، وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر، [يكن]^(هـ) خمسة عشر. وهو الخامس عشر من بيت القصيد. وهذا آخر أدوار الثلاثيات.

10

وضع الدور الرابع، وله من العدد تسعة، بإضافة الباقي من الدور السابق، فاضرب الطالع مع الدور في السلطان؛ وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات.

فاضرب على حرفين من الأوتار، واصعد بتسعة في ضلع ثمانية، وادخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخراً من بيت القصيد؛ فالتاسع حرف راء،¹⁵ فأثبته وعلم عليه. وادخل في صدر الجدول بتسعة، وانظر ما قابلهما من السطح [يكن]^(هـ) جيم. فتهتري العدد واحداً، [يكن]^(هـ) ألف. (وهو الثاني من حرف الزاء من

(أ) ظ: تضعف (ب) ع ج ي: يبلغ (ج) في ج: وأضعه (د) سقط ما بين النجمين من ي (هـ) في الأصول: يكون .

بَيَّتَ الْقَصِيدَ؛ فَأَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَعَدَّ مِمَّا يَلِي الثَّانِي تِسْعَةً يَكُنْ ^(أ) [أَلْف] ^(ب) أَيْضاً
أَثْبَتَهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ، وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفٍ مِنَ الْأَوْتَارِ ، وَأَضِيفَ تِسْعَةٌ لِمِثْلِهَا ^(ج)، تَبْلُغُ
ثَمَانِيَةَ عَشَرَ. وَادْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ ، تَقِفْ عَلَى حَرْفٍ رَاءَ، أَثْبَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا
مِنْ بَيَّتِ الْقَصِيدِ ثَمَانِيَةَ وَأَرْبَعَةَ . وَادْخُلْ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ، تَقِفْ عَلَى
س ^(د). أَثْبَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا اثْنَيْنِ . وَأَضِيفَ اثْنَيْنِ إِلَى تِسْعَةٍ تَكُنْ أَحَدَ عَشَرَ . اَدْخُلْ فِي
5 صَدْرِ الْجَدُولِ بِأَحَدِ عَشَرَ ، فَقَابِلْهَا مِنَ السَّطْحِ أَلْفَ . أَثْبَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ .

وَضَعَ الدَّوْرَ الْخَامِسَ، وَعَدَّتْهُ سَبْعَةَ عَشَرَ، الْبَاقِي خَمْسَةٌ، اصْعَدَ بِخَمْسَةِ فِي
ضَلَعِ ثَمَانِيَةِ، وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ، وَأَضِيفَ خَمْسَةٌ بِمِثْلِهَا، وَأَضِيفُهَا إِلَى
سَبْعَةِ عَشَرَ، عَدَدَ دَوْرِهَا . الْجُمْلَةُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ . اَدْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ
10 فَتَقَعْ عَلَى تَ. أَثْبَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا اثْنَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ، وَاطْرَحْ مِنْ سَبْعَةِ عَشَرَ اثْنَيْنِ الَّتِي هِيَ
فِي أُسِّ اثْنَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ، الْبَاقِي خَمْسَةَ عَشَرَ . اَدْخُلْ بِهَا فِي حُرُوفِ الْأَوْتَارِ تَقِفْ عَلَى
قَافَ ، أَثْبَتْهَا وَعَلَّمَ عَلَيْهَا سِتَّةَ وَعِشْرِينَ . وَادْخُلْ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِسِتَّةَ وَعِشْرِينَ ،
تَقِفْ عَلَى اثْنَيْنِ بِالْغُبَارِ. وَذَلِكَ / حَرْفُ بَاءَ . أَثْبَتْهُ، وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ وَخَمْسِينَ.

[355]

وَاضْرَبَ عَلَى حَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ، وَضَعَ الدَّوْرَ السَّادِسَ وَعَدَّتْهُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ.
15 الْبَاقِي مِنْهُ وَاحِدٌ . فَتَبَيَّنَ إِذْ ذَاكَ أَنَّ دَوْرَ النَّظْمِ مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ ، فَإِنَّ الْأَدْوَارَ
خَمْسَةً وَتِسْعُونَ، وَسَبْعَةَ عَشَرَ، وَخَمْسَةَ، وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَوَاحِدٌ. فَاضْرَبْ خَمْسَةَ
فِي خَمْسَةِ تَكُنْ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ، وَهُوَ الدَّوْرُ فِي نَظْمِ الْبَيْتِ. فَانْقُلِ الدَّوْرَ فِي ضَلَعِ

(أ) فِي الْأَصُولِ: يَكُونُ (ب) مِنْ ع ج ي، وَسَقَطَ مِنْ ظ (ج) مِنْ ع ج ي، وَفِي ظ: بِمِثْلِهَا (د) كَذَا فِي ظ ي، وَفِي حَاشِيَةِ
ع وَحَاشِيَةِ ج: صَوَابُهُ عَلَى رَأْيِ .

ثمانية بواحد. ولكن لم يُدخلوا في بيت القصيد ثلاثة عشر كما قدّمناه، لأنّه دَوْر ثاني من نشأة تركيبية ثانية؛ بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حرف بَاء من بيت القصيد إلى الواحد، يكون خمسة. فأضف خمسة إلى ثلاثة عشر التي للدور، تبلغ ثمانية عشر. ادخل في صدر الجدول بها، وخُذ ما قبلها من السطح، وهو ألف. أثبتّه وعلم عليه من بيت القصيد اثني عشر^(١). واضرب عليه 5 حرفين من الأوتار.

ومن هذا الحدّ تنظر أحرف السؤال، فما خرج منها رُدّه مع بيت القصيد من آخره، وعلم عليه من^(ب) حُرُوف السؤال ليكون داخلاً في العدد في بيت القصيد، وكذلك تفعل بكل حرف خرج بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال، فما خرج منها رُدّه إلى بيت القصيد من آخره وعلم عليه. وكذلك تفعل بكل حرف 10 خرج بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال.

ثم أضف إلى ثمانية عشر ما علمته على حرف الألف من الآحاد، فكان اثنين، تبلغ الجملة عشرين. ادخل بها في حُرُوف الأوتار، تقف على حرف راء. أثبتّه وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين، وهو نهاية الدور في الحرف الوترى.

فاضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور السابع، وهو ابتداء المخترع 15 ثاني ينتشي من الاختراعين^(ج). وبهذا الدور من العدد تسعة، تضاف لها واحداً يكن [عشرة]^(د) [للنشأة]^(هـ) الثانية.

(١) كذا بخطه في حاشية ع، لم يعربها، كما كررها سابقاً (ب) سقط من ع (ج) كذا في ع ظ ج ي، وهو غير واضح المعنى (د) كذا في ع، وفي ظ ج ي: عشرين (هـ) في ظ: للنشأة.

/ وهذا الواحدُ تريدهُ بَعْدُ إلى [الثي] ^(١) عشرَ ذَوْرًا إذا كان من هذه النسبة ، [355ب] أو تُنْقِصُه من الأصل . تبلغ الجملة عشرة . فاصعد في ضلع ثمانية وتسعين ، وادخل في صدر الجدول بعشرة ، تقف على خمسين . وإِنَّمَا هي خمسون ، نون ، مُضاعفة بمثلها ، وتلك ق . فأثبتها وعلم عليها من يَتِ القصيد اثنين وخمسين . وأسقط من اثنين وخمسين اثنين ، وأسقط تسعة التي للثور الباقي أحد وأربعين . فادخل بها حروف الأوتار ، تقف على واحد ، أثبتته . وكذلك ادخل بها في يَتِ القصيد * تجد واحداً . فهذا ميزان هذه الشئاة الثانية ، تُعَلِّم عليه من يَتِ القصيد * ^(ب) علامتين ، علامة في الألف الأخير الميزاني ، وأخرى على الألف الأولى فقط ؛ والثانية أربعة وعشرون . واضرب على حرفين من الأوتار ، وَضَع الثور الثاني وعدده سبعة عشر . الباقي خمسة . ادخل في ضلع ثمانية وخمسين ، وادخل في يَتِ القصيد بخمسة تقع على ع ، سبعين ، أثبتها وعلم عليها . وادخل في الجدول بخمسة ، وحُذ ما قابَلها من السطح ، وذلك واحد ، أثبتته وعلم عليه من يَتِ ثمانية وأربعين . وأسقط واحداً من ثمانية وأربعين للأش الثاني ، وأضف لها خمسة الثور . الجملة اثنان وخمسون . ادخل بها في صدر الجدول ، تقف على حرف اثنين عبارية . وهي مرتبة مِثْبِيتَةٌ لِتَزَايِدِ الغَدَدِ ، فتكون مائتين ، وهي حرف راء . أثبتها وعلم عليها من يَتِ القصيد أربعة وعشرين . فانتقل الأمر من ستة وتسعين إلى الابتداء ، وهو أربعة وعشرون ، فأضف إلى أربعة وعشرين خمسة الثور ، وأسقط واحداً ، تكن الجملة

(١) في الأصول: اثنا (ب) سقط ما بين النجمين من ج .

ثمانية وعشرين. ادخل بالتصنيف منها في بيت القصيد، تقف على ثمانية. أثبت ح وعلم عليها.

[1356] وضع الدور التاسع ، وعدده ثلاثة عشر ، الباقي واحد . / اصعد في ضلع ثمانية واحد . وليست نسبة العمل هنا كنيبتها في الدور السادس ، لتضاعف العدد ، ولأنه من النشأة الثانية ، ولأنه أول الثلث الثالث من مرتعات البروج ، 5 وآخر النسبة الرابعة من المثلثات.

فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة. الجملة اثنان وخمسون. ادخل بها في صدر الجدول، تقف على حرف اثنين غبارية. وإنما هي مبنية لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الاحاد والعشرات . فأثبت مائتين، 10 رآء ، وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين . وأضف إلى ثلاثة عشر الدور واحد الأس، وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد، تبلغ ح، فعلم عليها ثمانية وعشرين. واطرخ من أربعة عشر سبعة، تثق سبعة.

اضرب على حرفين من الأوتار، وادخل بسبعة تقف على حرف لام، أثبت وعلم عليه من البيت.

15 وضع الدور العاشر ، وعدده تسعة . وهذا ابتداء المثلثة الرابعة . واصعد في ضلع ثمانية بتسعة يكن خلاء. فاضعد بتسعة ثانية تصير في السابع من الابتداء؛ اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعتين، وإنما كانت تضرب في اثنين. ادخل في الجدول ستة وثلاثين، تقف على أربعة زمامية . وهي عشريئة، فأخذناها أحادية

لِقَلَّةِ الأذوار. فَأَثْبُتَ حَرْفَ دَالٍ. وَإِنْ أَضْفَتَ إِلَى سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ وَاحِدَ الأَسْ، كَانَ حَدُّهَا مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ، فَعَلَّمَ عَلَيْهَا. وَلَوْ دَخَلَتْ بِتِسْعَةٍ، لَا غَيْرَ، مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ، لَوَقَّفَ عَلَى ثَمَانِيَةٍ، فَاطْرَحَ مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَأَرْبَعِينَ، الْبَاقِي أَرْبَعَةً، وَهُوَ الْمَقْصُودُ. وَلَوْ دَخَلَتْ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِثَمَانِيَةِ عَشَرَ الَّتِي هِيَ تِسْعَةٌ فِي اثْنَيْنِ، لَوَقَّفَ عَلَى وَاحِدٍ زِمَامِيٍّ، وَهُوَ عَشْرِيٌّ. فَاطْرَحَ مِنْهُ اثْنَيْنِ تَكَرَّرَ التَّسْعَةُ، الْبَاقِي ثَمَانِيَةً، نَصْفُهَا الْمَطْلُوبُ. وَلَوْ تَدَخَّلَ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِسَبْعَةٍ وَعَشْرِينَ، ضَرَبَهَا / فِي ثَلَاثَةِ، [356ب] لَوَقَّفَ عَلَى عَشْرَةٍ زِمَامِيَّةٍ، وَالْعَمَلُ وَاحِدٌ.

ثُمَّ ادْخُلْ بِتِسْعَةٍ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ، وَأَثْبُتْ مَا خَرَجَ، وَهُوَ أَلِفٌ، ثُمَّ اضْرِبْ تِسْعَةً فِي ثَلَاثَةِ الَّتِي هِيَ مَرْكَبُ تِسْعَةِ الْمَاضِيَةِ، وَأَسْقِطْ وَاحِدًا، وَادْخُلْ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِسِتَّةٍ وَعَشْرِينَ، وَأَثْبُتْ مَا خَرَجَ، وَهُوَ مِائَتَانِ بِحَرْفِ رَاءٍ، وَعَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ الْقَصِيدِ بِسِتَّةٍ وَتِسْعِينَ.

وَاضْرِبْ عَلَى خَرْفَيْنِ مِنَ الْأَوْتَارِ، وَضِعِ التَّوَرَّ الْحَادِي عَشَرَ، وَلَهُ سَبْعَةٌ عَشَرَ، الْبَاقِي خَمْسَةٌ. اصْعَدْ فِي ضَلَعِ ثَمَانِيَةٍ بِخَمْسَةِ، وَتَحْسَبْ مَا تَكَرَّرَ عَلَيْهِ الْمَشْيُ فِي التَّوَرَّ الْأَوَّلِ. وَادْخُلْ فِي صَدْرِ الْجَدُولِ بِأَرْبَعَةٍ، تَقِفْ عَلَى [خاء] ^(١)، فَخُذْ مَا قَابَلَهُ مِنْ السَّطْحِ، وَهُوَ وَاحِدٌ. فَادْخُلْ بِوَاحِدٍ فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ [تَكَرَّرَ] ^(ب) [س] ^(ج). اثْبُتْهُ وَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَرْبَعَةً. وَلَوْ يَكُونُ الْوَقُوفُ فِي الْجَدُولِ عَلَى بَيْتٍ عَامِرٍ لِاثْنَيْتَا الْوَاحِدِ ثَلَاثَةً. وَأَضْعَفْ سَبْعَةً عَشَرَ بِمِثْلِهَا، وَأَسْقِطْ وَاحِدًا، وَزِدْهَا أَرْبَعَةً، تَبْلُغْ سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ.

(١) من ع، وفي ط ج ي: خال (ب) في الأصول: تكون (ج) ط ج ي: راه س .

ادخل بها في الأوتار تقف على ة، أثبتها وعلم عليها خمسة، وأضعفها بمثلها، وادخل في البنت تقف على ل، أثبتها وعلم عليها عشرين، واضرب على خرفين من الأوتار، وضع النور الثاني عشر، أوله ثلاثة عشر، الباقي واحد. اصعد في ضلع ثمانية بواحد، وهذا النور آخر الأدوار، وآخر الاختراعتين. وآخر المربعات الثلاثة، وآخر المثلثات الرباعية.

5

فالواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية. وإنما هي أحاد ثمانية، وليس معنا في الأدوار إلا واحد. فلو زاد على أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر كانت ⁽¹⁾ ح. وإنما هي دال، فأثبتها وعلم عليها من بنت القصيد أربعة وسبعين. ثم انظر ما ناسبها من السطح يكن خمسة. أضعفها بمثلها للأش تبلغ عشرة، أثبت ي وعلم عليها. وانظر في أي المراتب وقعت، وجدناها في السابعة، فدخّلنا بسبعة/ في حروف الأوتار. وهذا المدخل يُسمى التوليد الحرفي. فكانت ق. أثبتها وأضف إلى سبعة واحد النور، الجملة ثمانية. ادخل بها في الأوتار تبلغ س، أثبتها وعلم عليها ثمانية، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة النور، فإنها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات، تبلغ أربعة وعشرين. ادخل بها في بنت القصيد، وعلم على ما يخرج منها، وهو مائتان، وعلامتها ستة وتسعون، وهو نهاية النور الثاني في الأدوار الحرفية.

10

15

واضرب على خرفين من الأوتار، وضع النتيجة الأولى لها تسعة، وهذا العدد يناسب أبدأ الباقي من حروف الأوتار بقدر طرزها أدواراً، وذلك تسعة.

[1357]

(1) ع ج ي: تكانت .

فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار، وأضف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر، يبلغ ثمانية وعشرين. فادخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألف، أثنته وعلم عليه ستة وتسعين. وإن ضربت تسعة التي هي أدوار الحروف التسعين في أربعة، وهي الثلاثة الزائدة على تسعين، والواحد 5 الباقي من الدور الثاني عشر كذلك.

واصعد في ضلع ثمانية بتسعة، وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية. واضرب تسعة في ما ناسب من السطح، وذلك ثلاثة. وأضف لذلك سبعة^(أ)، عدد الأدوار الحرفية، واطرح واحداً، الباقي من دور اثني عشر يبلغ ثلاثة وثلاثين. ادخل بها في البيت تبلغ خمسة، فأضعفها وأضعف تسعة بمثلها، وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر، وخذ ما في السطح، وهو واحد. ادخل [به] ^(ب) في حروف الأوتار تبلغ م. أثنته وعلم عليه.

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر، الباقي خمسة. فاصعد في ضلع ثمانية وخمسين، واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين، تبلغ خمسة عشر. أضف لها واحداً^(ج)، الباقي من الدور الثاني عشر، تكن تسعة. / وادخل بستة عشر في البيت تبلغ ثاء، أثنته وعلم عليه أربعة وستين؛ [357ب] وأضف إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين، وزد واحداً^(ج) الباقي من الدور الثاني عشر، يكن تسعة وثلاثين. ادخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية. وانظر

(أ) في الأصول: واحد (ب) في ظ: بها (ج) في الأصول: واحد. حيث ذكرت أكثر الأرقام بغير إعراب، فأعرنا بعضها لتوضيح سياق النص.

ما في السّطح تجذّ واحداً، أثبتّه وعَلّم عليه من بَيْت القصيد، وهو التاسع أيضاً من البَيْت. وادخُل تسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة، وهو عشرات، فأثبت لام. وعَلّم عَلَيْهِ.

وَضَع التّيجَة الثّالثة، وعدّها ثلاثة عشر، الباقي واحد. فاثقل في ضلع ثمانية بواحد، وضفّ إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على تسعين وواحد⁽¹⁾، الباقي من 5 الدور الثاني عشر، تبلغ سبعة عشر وواحد. التّيجَة تكون ثمانية عشر. ادخُل بها في حروف الأوتار تكن لام. أثبتّها. فهذا آخر العمل .

المثال في هذا السّؤال السّابق:

أَرَدْنَا أَنْ نَعْلَمَ [هل]^(ب) هذه الزّائِرَة عِلْمٌ مُحَدَّثٌ أَمْ قَدِيمٌ، بطالع أوّل درج من القوس، حروف الأوتار، ثم حروف السّؤال، ثم الأصول، وهي عدّة الحروف 10 ثلاثة وتسعون، أدوارها سبعة، الباقي منها تسعة، الطّالع واحد، سلطان القوس أربعة، الدور الأكبر واحد، درج الطّالع مع الدور اثنان، ضرب الطّالع مع الدور في السّلطان ثمانية، إضافة السلطان للطّالع خمسة.

بَيْتُ الْقَصِيد:

سؤال عظيم الخلق حُرْتُ فَضُنْ إِذَنْ غرائب شكّ ضبطه الجدُّ مثلاً⁽¹⁾ 15

(1) في الأصول: واحد، حيث ذكرت أكثر الأرقام بغير إعراب، فأعرنا بعضها لتوضيح سياق النص (ب) من ج، وفي ظ: على، وفي ي: أن.

(1) البوني: شمس المعارف الكبرى 367 وفيه كيفية العمل .

حروفُ الأوتار: ^(أ)

ص ط د ظ ه نر ^(ب) ث كه مر ض ص و ن ث ه ش ^(ج) ا ب ل م ن
 ص ع ف ض ق ر س ي كل م ن ص ع ف ق ر س ن ^(د) ث خ ^(هـ) ذ
 ط غ ش ط ك ن ع ح ص نر و ح ل ص كل م ن ص ا ب ج د ه و نر ح ط ي

السؤال

ال نري مرج ت ع ل م ر ح د ث ا م ق د ي م ^(د)

5

[ā 358]

التور الأول	تسعة	
التور الثاني	سبعة وعشرون	الباقى خمسة
التور الثالث	ثلاثة عشر	الباقى واحد
التور الرابع	تسعة	
التور الخامس	تسعة عشر	الباقى خمسة
التور السادس	ثلاثة عشر	الباقى واحد
التور السابع	تسعة	
التور الثامن	سبعة عشر	الباقى خمسة

10

(1) جاءت جميع الحروف المعجمة في ي مصلة (ب) في ج: ن، في ع: د (ج) من ع، وفي ط ج ي مصلة (د) في ع نون مبتدئة، وفي ط ج: ن، وفي ي مصلة (هـ) فراع في ط (و) نقرأ: الذبجة علم نحدث أم قديم .

الدور التاسع ثلاثة عشر الباقي واحد
T

الدور العاشر تسعة

الدور الحادي عشر سبعة عشر الباقي خمسة

عشر
2
8
عشر
2

الدور الثاني عشر ثلاثة عشر الباقي واحد

النتيجة الأولى تسعة

النتيجة الثانية سبعة عشر الباقي خمسة

عشر
8
عشر

النتيجة الثالثة ثلاثة عشر الباقي واحد

8
عشر

23	غ	1	س
24	ر	2	و
25	ا	3	ا
26	ي	4	ل
27	ب	5	ع
28	ش	6	ظ
29	ك	7	ي
30	ض	8	م
31	ب	9	ا
32	ط	10	ل
33	ه	11	خ
34	ا	12	ل
35	ل	13	ق
36	ج	14	ح
37	د	15	نر
38	م	16	ت
39	ث	17	ف
40	ل	18	ص
41	ا	19	ن
		20	ا
		21	ذ
		22	ن

[358ب]

/ ت و ن ا ق م ب ن ر ا ا ر م ا ت ق ب ا ر ق ا ع ا ر م ح ر ج

ل د ا ر م ل ل د ي ف م ر ا م ر ت ا ل ل

دَوُّهَا عَلَى خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ، ثُمَّ عَلَى ثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ عَلَى أَحَدٍ وَعَشْرِينَ، مَرَّتَيْنِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْوَاحِدُ مِنْ آخِرِ الْبَيْتِ، وَتَنْقُلُ الْحُرُوفُ جَمِيعُهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(1) تَسْرُوحُ نَسْرُوحُ الْقَدْسُ أَبْسُرُ نَسْرُوحُ
لَا دَرِيْسُ فَاسْتَسْرَقَ أَبْهَامُ رَتَقَ الْعِلْمُ 5

هذا آخر الكلام في استخراج الأجوبة من "زائرجة العالم"، منظومة.
وللقوم طرائق أخر من غير الزائرجة، يستخرجون بها أجوبة المسائل غير منظومة.

وعندي، أن السّرّ في خروج الجواب منظوماً من الزائرجة، إنما هو مزجهم
بَيْتِ مَالِكِ بْنِ وَهْبٍ، وهو: سؤالُ عَظِيمِ الْخَلْقِ... الْبَيْتِ. ولذلك يُخْرِجُ الْجَوَابُ عَلَى 10
رُؤْيَاهُ.

وأما الطَّرِيقُ الْأُخْرَى، فيخرج منها الجواب غير منظوم.
فمن طرائقهم في استخراج الأجوبة ما ننقله. قال بعضُ المحققين منهم:

(1) يَرَأُ هَذَا الْبَيْتَ :

تَرْوَحُنَ رُوحَ الْقُدُسِ أَرْبَعَ سِرَّهَا لِإِدْرِيسَ فَاسْتَرْقَى بِهَا مُرْتَقَى الْفَلَاحِ

1 • فضلٌ، في الإطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية

اعلم أرشدنا الله وإياك، أن هذه الحروف أصل الأسئلة في كل قضية،
وإنما تُستنتج الأجوبة على تجزئته بالكلمة. وهي ثلاثة وأربعون حرفاً كما ترى:

اول اع ظ س ا ل م خ ي د ل ن ر ق ت ا ف ذ ص م ر ن غ ش
م ر ا ك ي ب م ر ض ب ج ط ل ح ه د ث ل ث ا

5

وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشدّد من حرفين،
وسماه القُطب، فقال:

سؤالٌ عظيمُ الخلق حَزَتْ فُضُنْ إِذْنُ غرائبُ شَكْ ضَبَطُهُ الْجِدُّ مَثَلًا

فإذا أردتَ استنتاج المسألة، فاحذف ما تكرر من حروفها، وأثبت ما
فَضَلَ منها، ثم احذف من الأصل وهو القُطب، لكل حرف فضل من المسألة

10

/ حرفاً يماثلُه، وأثبت ما فضل منه. ثم امزج الفضلَيْن في سَطْرٍ واحدٍ، تبدأ بالأوّل [359]

من فضلة الأصل، والثاني من فضلة المسألة، وكذلك إلى أن تتم الفضلَيْن أو يتقد

أحدهما قبل الآخر، فنضع البقية على ترتيبها. فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد

المرّج موافقاً لعدد حروف الأصل قبل الحذف، فالعملُ صحيحٌ. فحينئذٍ تضاف إليها

خمس نوناتٍ لتفتدّل بها الموازين الموسيقية⁽¹⁾ وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفاً.

15

فتعمر بها جذولاً مرتعاً يكون آخر ما في السطر الأوّل [منه] أول ما في السطر

(1) جاءت هكنا في الأصول، وتزد في مواقع أخرى بباء بعد السين: الموسيقية.

الثاني، وتثقل البقيّة على حالها، وكذلك إلى أن تَمَّ عمارة الجدول، ويعود السطر الأول بعينه، وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة. ثم تخرج وتر كل حريف بقسمة مربعه على أعظم جزء يوجد له، وتضع الوتر مقابلاً لحزفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف⁽¹⁾ الجدولية، وتعرف قوتها الطبعية (وموازيناها)^(ب) الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الأصلية من الجدول الموضوع لذلك. وهذه صورته:

	و	الفرائز	النتيجة
ب	٢٤	٦	٣٠
ج	٥٧	١٨	٧٥
د	٩٦	٢٤	١٢٠
هـ	١٢٨	٣٢	١٦٠
و	١٦٠	٤٠	٢٠٠
ز	٢٠٠	٥٠	٢٥٠

१३५६७८९१०१११२१३१४१५१६१७१८१९२०२१२२२३२४२५२६२७२८२९३०३१३२३३३४३५३६३७३८३९४०४१४२४३४४४५४६४७४८४९५०५१५२५३५४५५५६५७५८५९६०६१६२६३६४६५६६६७६८६९७०७१७२७३७४७५७६७७७८७९८०८१८२८३८४८५८६८७८८८९९०९१९२९३९४९५९६९७९८९९१००

(أ) في الأصول : الحروف (ب) ظ: وموازتها .

/ ثُمَّ تَأْخُذُ وَتَرْكُلُ حَرْفَ بَعْدَ ضَرْبِهِ فِي أُسُوسِ أَوْتَادِ الْفَلَكَ الْأَرْبَعَةِ. [359ب]

وَاحْذَرِ مَا يَلِي الْأَوْتَادَ؛ وَكَذَلِكَ السَّوَابِقُ، فَإِنَّ نَسَبَتَهَا مَضْطَرِيئَةٌ. وَهَذَا الْخَارِجُ هُوَ
أَوَّلُ رُتَبِ السَّرِيَانِ. ثُمَّ تَأْخُذُ مَجْمُوعَ الْعُنَاصِرِ وَتَحْطُّ مِنْهَا أُسُوسَ الْمَوْلِدَاتِ، تَبْقَى
أُسُوسُ عَالَمِ الْخَلْقِ بَعْدَ عَرُوضِهِ لِلْمَدَدِ الْكَوْنِيَّةِ. فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْمَجْرَدَاتِ عَنْ
5 الْمَوَادِّ، وَهِيَ عُنَاصِرُ الْإِمْدَادِ، يَخْرُجُ أَفْقُ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ. وَتَطْرَحُ أَوَّلَ رُتَبِ
السَّرِيَانِ مِنْ مَجْمُوعِ الْعُنَاصِرِ، يَبْقَى ^(أ)عَالَمُ التَّوَسُّطِ. وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِعَالَمِ الْأَكْوَانِ
مِنَ الْبَسِيطَةِ، لَا الْمُرَكَّبَةِ.

وَتَضْرِبُ عَالَمَ التَّوَسُّطِ فِي أَفْقِ النَّفْسِ الْأَوْسَطِ، يَخْرُجُ الْأَفْقُ الْأَعْلَى.
فَتَحْمِلُ عَلَيْهِ أَوَّلَ رُتَبِ السَّرِيَانِ. ثُمَّ تَطْرَحُ مِنَ الرَّابِعِ ^(ب)أَوَّلَ عُنَاصِرِ الْإِمْدَادِ
10 الْأَصْلِيِّ، يَبْقَى ثَلَاثُ رُتَبِ السَّرِيَانِ. فَتَضْرِبُ مَجْمُوعَ أَجْزَاءِ الْعُنَاصِرِ أَبَدًا فِي رَابِعِ
مَرْتَبَةِ السَّرِيَانِ، يَخْرُجُ أَوَّلُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ. وَالثَّانِي فِي الثَّانِي يَخْرُجُ ثَانِي عَالَمِ
التَّفْصِيلِ، وَالثَّلَاثُ فِي الثَّلَاثِ يَخْرُجُ ثَالِثُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ^(ج)، وَالرَّابِعُ فِي الرَّابِعِ يَخْرُجُ
رَابِعُ عَالَمِ التَّفْصِيلِ ^(ج). فَتَجْمَعُ عَوَالِمَ التَّفْصِيلِ ^(ج) وَتَحْطُّ مِنْ عَالَمِ الْكُلِّ، تَبْقَى الْعَوَالِمُ
الْمَجْرَدَةُ. فَتُقَسَّمُ عَلَى الْأَفْقِ الْأَعْلَى يَخْرُجُ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ، وَتُقَسَّمُ ^(د)الْمُنْكَسِرَ عَلَى الْأَفْقِ
15 الْأَوْسَطِ يَخْرُجُ الْجُزْءُ الثَّانِي، وَمَا انْكَسَرَ فَهُوَ الثَّلَاثُ. وَيَتَعَيَّنُ الرَّابِعُ؛ هَذَا فِي الرَّابِعِيِّ؛
وَإِنْ شَدَّتْ أَكْثَرُ مِنَ الرَّابِعِيِّ فَتُسْتَكْتَرُ مِنْ عَوَالِمِ التَّفْصِيلِ ^(ج) وَمِنْ رُتَبِ السَّرِيَانِ
وَمِنْ الْأَوْفَاقِ بَعْدَ الْحُرُوفِ. وَاللَّهُ يُزِيدُنَا وَإِيَّاكَ.

(أ) ع ط ج: يَفْنَى (ب) ج: الرِّيع (ج) ج: التَّفْصِيل (د) ج: وَيَنْقَسِمُ .

وكذلك إذا قُسمَ عالم التجريد على أول رُتب السَّريان، خرَّج الجزء / الأول من عالم التركيب، وكذلك إلى نهاية الرتبة الأخيرة من عالم الكون. فافهم وتدبّر، والله المرشد المعين.

ومن طرائقهم أيضاً في استخراج الجواب

5

قال بعض المحققين منهم:

اعلم، أيُّدنا الله وإياك بروح منه، أن علم الحروف علم جليل يتوصّل العالم به لما لا يتوصّل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم. وللعمل به شرائطٌ تلتزم. وقد يستخرج العالم به أسرار الخليقة وسرائر الطبيعة، فيطلع بذلك على نتيجتي الفلسفة، أغني السَّمياء، وأختها، ويرفع له حجاب المجهولات، ويطلع بذلك على مكنون خفايا⁽¹⁾ القلوب. وقد شهد جماعة بأرض المغرب ممن اتّصل بذلك، فأظهر 10 العجائب، وخرق العوائد، وتصرّف في الوجود بتأييد الله. واعلم أن ملائكة كلّ فضيلة الاجتهاد، وحسن الملكة مع الصبر مفتاح كلّ خير. كما أن الخرق والعجلة رأس الحرمان.

فأقول: إذا أردت أن تعلم قوّة كلّ حرف من حروف القافيطوس، أغني أبجد إلى آخر العدد، وهذا أول مدخل من علم الحروف، فانظر ما لذلك الحرف 15 من الأعداد. فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحرف هي قوّته في الجسمانيات. ثم

(1) كذا في ظ، وفي ع ج: خبايا.

اضرب العدَدَ في مثله، تخرج لك قُوَّتُهُ في الزَّوْحَاتِيَّاتِ، وهي وَزْرُهُ. وهذا في الحروف المنقوطة لا يَمُ، بل يَمُ في الغَيْرِ منقوطة. لأنَّ المنقوط منها مراتب لمعانٍ يأتي عليها البيان فيما بعد.

واعلم أنَّ لكلَّ شكلٍ من أشكال الحروف شكلاً في العالم العلويّ، أغني 5 الكرسى. ومنها المتحرّك والسّاكن، والعلويّ والسفليّ، كما هو مرقوم في أمّاكيه من الجدول الموضوعة في الزّياح.

واعلم أنَّ قُوَى الحروف ثلاثة أقسام:

الأوّل، وهو أقلُّها: قُوَّةٌ، تظهر بعد كتابتها؛ فتكون كتابته لعالم روحانيّ مخصوص بذلك الحرف المرسوم. فتى خرج ذلك الحرف بقُوَّة نفسانيّة وجمع همة، 10 كانت قُوَى الحروف مؤثّرة في عالم الأجسام.

الثاني، قُوَّتُها في الهيئَةِ⁽¹⁾ الفكرية؛ وذلك / ما يصدر عن تَصْرِيف [360ب] الزَّوْحَاتِيَّاتِ لها، فهي قُوَّةٌ في الزَّوْحَاتِيَّاتِ العلويّاتِ، وقُوَّةٌ شكليّةٌ في عالم الجسديّاتِ.

الثالث، هو ما يَجْمَعُ الباطنَ، أعني القوّة النفسانيّة على تكوينه. فيكون^(ب) قبل التّلق به صورة في التّمس، وبعد التّلق به صورة في الحروف، وقُوَّة في التّلق.

وأما طبائفيها، فهي الطّبيعيّاتُ المنسوبات للمتولّيات. وهي الحرارة واليبوسة، 15 والحرارة والرّودة، والرّودة والرّطوبة، والرّودة واليبوسة. فهذا سرُّ العدَدِ الثّاني. والحرارة جامعَةٌ للهواء والنّار، وهما: آ هـ ط م ق ش د ج ز ك س ق ت ط^(ج).

(1) ج: الهية (ب) ج: فتكون (ج) في ع ج: ط مصلة.

والبرودة جامعة للأرض والماء: دَخَلَعَ رَخَّعَ وَيَنَصِتْ ص. والرطوبة
جامعة للهواء والماء حَزَلَ سَقِثَ^(ب) طَدَخَلَ رَخَّعَ جامعة للشار
والأرض: آهَ طَمَقَشَ دَبَّ وَيَنَصِتْ ص. فهذه يسببه حروف
الطبائع وتداخل أجزاء بعضها في بعض، وتداخل أجزاء العالم فيها، علوياً وسفلياً،
بأسباب الأسماء الأول، أغني الطبائع الأربع المفردة.

5

1. فصل

فمَيَّ أَرَدْتُ اسْتِخْرَاجَ مَجْهُولٍ مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا، فَحَقَّقْ طَالِعَ السَّائِلِ أَوْ طَالِعَ
مَسْأَلَتِهِ، وَاسْتَثْنِطْ حُرُوفَ أَوْتَادِهَا الْأَرْبَعَةَ آوَعَ وَ ح وَ آ مَسْتَوِيَةً مَرْتَبَةً،
وَاسْتَخْرِجْ أَعْدَادَ الْقُوَى وَالْأَوْتَادِ، كَمَا سَنُنِي. وَأَجْمِلْ وَنَسَبْ وَاسْتَفْتِحِ الْجَوَابَ،
يُخْرِجُ لَكَ الْمَطْلُوبَ، إِمَّا بِصَرِيحِ اللَّفْظِ أَوْ بِالْمَعْنَى. وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ تَقَعُ لَكَ.
بيانه: إذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والحاجة،
فاجع أعدادها بالجميل الكبير، فكان الطالع الحمل، رابعه السرطان، سابعه الميزان،
عاشره الجنى، وهو أقوى هذه الأوتاد. فأسقط من كل برج حرفي التعريف، وانظر
ما يخص كل برج من الأعداد المنطقة الموضوعه في دائرتها⁽³⁾، واحذف [أجزاء الكثير]^(هـ)
في النسب الاستيطاقية كلها، وأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك، ثم أعداد
حروف العناصر الأربعة / وما يخصها كالأول. وارسم ذلك كله أحرفاً، ورتب الأوتاد
والقوى والعرائز سطرًا مُفْتَرَجًا. وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين، واجمع
واستفتح الجواب، يخرج لك الضمير^(د) وجوابه.

10

15

[1361]

(أ) في ج: ف (ب) من ج: ع، وفي ط: ث (ج) في ج: د عملة (د) ج: دارتها (ه) ج: آخر الكبير (و) ج: الضهر.

مثال ذلك: افرض أن الطالع الحمل، كما تقدّم، ترسم ح م ل؛ فللحاء من
العدد ثمانية، لها التصفّ والزئج والثمن. د ب آ، الميم لها من العدد أربعون، لها
التصف والزئج والثمن والعشر، ونصف العشر إن أردت التدقيق. م ك ي هـ د ب،
اللام لها من العدد ثلاثون، لها التصفّ والثلاثان والثلث والخميس والسدس والعشيرة.
5 ك ي و هـ ج. وهكذا فعل بسائر حروف المسألة والاهتم من كل لفظ يقع لك.

وأما استخراج الأوتار، فهو أن تقسم مربع كلّ حرف على أعظم جزء يوجد
له. مثاله حرف دال، له من الأعداد أربعة، مربّعها ستة عشر، اقسفها على أعظم
جزء يوجد لها، وهو اثنان، يخرج وتر الدال ثمانية. ثم تضع كلّ وتر مقابلاً لحرفه،
ثم تستخرج النسب العنصرية كما تقدّم في شرح الاستنطاق. ولها قاعدة تطرّد في
10 استخراجها من طبع الحرف وطبع النبت الذي تحلّ فيه من الجدول، كما ذكر الشيخ
لمن عَرَف الاضطلال.

2 • فصل، في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفيّة

وذلك لو سأل سائل عن عليل ما، لم يعرف مُمرّضه ما علّته وما الموافق
لبرئها من الأذوية، ففر السائل أن يُسّتي شيئاً من الأشياء على اسم العلة المجهولة
15 ليُفعل ذلك الاسم قاعدة لك. ثم استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل
واليوم والساعة إن أردت التدقيق في المسألة، وإلا اقتصرّت على الاسم الذي سَمّاه
السائل، وفعلت به كما بيّنت.

فأقول مثلاً: سَمِيَ السَّائِلُ فِرْسَاءً؛ فَأُثِبَتْ الحُرُوفُ الثَّلَاثَةُ مع أَعْدَادِهَا المنطقية. [361ب] بيانه: إن للفاء من العدد ثمانين، ولها مَ لَ يَ حَ دَ. ثم الزاء / لها من العدد مائتان، ولها قَ قَ طَ لَ يَ. ثم السين لها من العدد ستون، ولها مَ لَ يَ وَ جَ * . فالواو عددٌ تامٌّ، له دَ جَ بَ ، والسين مثله ، لها مَ لَ يَ *⁽¹⁾ . فإذا بسطت حروف الأشياء فوجدتَ عنصرين متساويين، فاحكُم لأَكْثَرِها حروفاً [بالقَلْبَةِ على 5 الآخر، ثم اجعل عدد حروف عناصر اسم المطلوب وحروفه] ^(ب) دون بَسْطِ، وكذلك اسم الطالب، واحكُم للأَكْثَرِ والأقوى بالقَلْبَةِ .

وَصِفَةُ اسْتِخْرَاجِ قُوَى العنَاصِرِ

تَامِرٌ	تَرَابٌ	هَوَاءٌ	مَاءٌ
	و	ج	
• • •	ي ي ي	ك ك ك	ح
م م	ن	ق	ل

فتكون القَلْبَةُ هنا للتَّرابِ. وطَبْعُهُ، البَرْدُ واليُبُوسَةُ، طَبَعُ السَّوداءِ. فتحكُم على المرض بالسَّوداءِ . فإذا أَلَفْتَ من حُرُوفِ الاسْتِنطَاقِ كلاماً على نِسْبَةِ تَقْرِيبِيَّةٍ ، 10 خَرَجَ موضِعُ الوجعِ في الحَلْقِ، ويُوافِقُهُ من الأدويةِ حُقْنَةُ، ومن الأَشْرِيَةِ شَرَابُ اللَّيْمُونِ. هذا ما خَرَجَ من قُوَى أَعْدَادِ حُرُوفِ اسْمِ فَرَسٍ، وهو مثالٌ تَقْرِيبِيٌّ مُخْتَصَرٌ.

(1) سقط ما بين النجمين من ج (ب) ما بين الحاصريين من: ع ط ج .

وأما استخراج قوى العناصر من الأسماء العِلْمِيَّة، فهو أن تُسمَّى مثلاً مُحَمَّدًا،
فترسم أحرفه مَقْطَعَةً، ثم تَضَعُ أسماء العناصر الأربعة على تركيبِ الفَلَكِ، يخرج لك
ما في كلِّ عنصرٍ من الحروف والغدِّب. ومثاله:

نَاسُ	تَرابُ	هَواءُ	ماءُ
أجناسه ثلاثة	أجناسه ثلاثة	أجناسه ستة	أجناسه ستة
أ أ أ	ب ب ب	ج ج ج	د د د
ه ه ه	و و و	ز ز ز	ح ح ح
م م م	ن ن ن	ك ك ك	ل ل ل
		س س س	ع ع ع
		ق ق ق	ر ر ر
		ن ن ن	ح ح ح

فتجد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء، لأنَّ عددَ
/ حروفه عشرون حرفاً. فجعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور. وهكذا
تفعل بجميع الأسماء. حينئذٍ، تُضاف إلى أوتارها، أو للوتر المنسوب للظالم في
الترجمة^(١)، أو لوتر البتيت المنسوب للمالك بن وهيب، الذي جعله قاعدة لمنزج
الأُسْئَلَة، وهو:

(١) ج: الترجمة .

سؤال عظيم الخلق حزت فضن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلاً

وهو وتر مشهور لاستخراج المجهولات، وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه.

وهو عمل تام قائم بنفسه في المثالات الوضعية.

وصفة العمل بهذا الوتر المذكور، أن ترسمه مقطوعاً، ممتزجاً بالفاظ السؤال على

قانون صيغة⁽¹⁾ التكمير. وعدة حروف هذا الوتر، أعني التيت، ثلاثة وأربعون 5

خزفاً. لأن كل حرف مشدد من حرفين، ثم تحذف ما يتكرر عند المزج من

الحروف ومن الأصل، لكل حرف فضل من المسألة حرف^(ب) يائله، وتثبت

الفضلين سطرًا ممتزجاً بعضه ببعض. الحرف الأول من فضلة القطب، والثاني من

فضلة السؤال، حتى تتم الفضلتان جميعاً، فتكون ثلاثة وأربعين. فتضيف إليها خمس

نونات لتكون ثمانية وأربعين، وتعديل بها الموازين [الموسيقية] ج. ثم تضع الفضلة 10

على ترتيبها، فإن كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج يوافق العدد الأصلي قبل

الحذف، فالعمل صحيح. ثم عمز بما مزجت جدولاً مرتباً يكون آخر ما في السطر

الأول أول ما في السطر الثاني، وعلى هذا النسق، حتى يعود السطر الأول بعينه؛

وتتوالى الحروف في السطر على نسبة الحركة. ثم تخرج وتر كل حرف كما تقدم،

وتضعه مقابلاً لحرفه، ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية، لتعرف 15

قوتها الطبيعية، وموازينها الروحانية، وغرائزها النفسانية، / وأسوسها الأصلية [362ب]

من الجدول الموضوع لذلك.

(1) في ظي ملة (ب) في الأصول: حرفاً (ج) كنا في ج ع ي، وفي ظ: الموسيقى .

وصفة استخراج النسب العنصرية

هو أن تتطَّر الحرف الأول من الجدول، ما طبيعته وطبيعة الثبت الذي حلَّ فيه، فإن اتَّفقا، فحسن، وإلا، فاستخرج بين الحرفين نسبةً. ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية. وتحقيق ذلك سهل على من عَرَف قوانينه كما هي مقررّة في دائرتها الموسيقية. 5

ثم تأخذ وتر كل حَرْف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الأربعة، كما تقدّم. واحذر ما يلي الأوتاد، وكذلك السواقط، لأنَّ نسبتها مضطربة. وهذا الذي يخرج لك هو أول رُتب السريان. ثم تأخذ مجموع العناصر وتحطّ منها أسس المولدات، يتبقى أش عالم الخلق بعد عروضه للحدِّ الكونية. فتحمل عليه بعض المجردات عن الموادّ، وهي عناصر الإمداد، يخرج أفق النفس الأوسط. وتطرّح أول رُتب السريان من مجموع العناصر، يتبقى عالم التوسط. وهذا مخصوص بعالم الأكوان البسيطة، لا المركّبة. ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الأوسط، يخرج الأفق الأعلى، فتحمل عليه أول رُتب السريان. ثم تطرّح من الرابع أول عناصر الإمداد الأصلي، يتبقى ثالث رُتبة السريان. فتضرب مجموع أجزاء العناصر أبداً في رابع رُتبة السريان، يخرج عالم التفصيل، والثاني في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل، وكذلك الثالث والرابع؛ فتجمع عوالم التفصيل، وتحطّ من عالم الكل، تبقى العوالم المجردة. فتقسم على الأفق الأعلى، يخرج الجزء الأول. 10 15

ومن هنا يطرّد^(١) العمل لتأيمه. وله مقدّمات في كُتُب ابن وَخْشِيَّةَ والبُيُونِي وغيرهما. وهذا التدبير يُجرى على القانون الطَّبِيعِي الجُكْمِي [في^(ب) هذا الفن وغيره من فُنون الحِكْمَةِ الإلهِيَّة، وعليه مدار وضع الرِّياح الحزْفِيَّة، والصَّنْعَةُ الإلهِيَّة، والتَّيرجَاتِ الفَلْسَافِيَّة.

- ٥ [واعلَمَ أَنَّ هذه الأَعْمَالُ كُلُّهَا إِنَّمَا يُوَصَّلُ^(ج) بها إلى حُصولِ جَوَابٍ مُطَابِقٍ للسُّؤالِ في المَعْنَى فَقَطْ، لا أَنَّهُ يُعْتَرَّ بها على غَيْبٍ. وإِنَّمَا هي من قَبِيلِ المَلَح، كما نَقَدَّم لنا أَوَّلَ الكِتَابِ. وكذلك لَيْسَتْ من عِلْمِ السَّمِيَاءِ، كما يَتَبَيَّنُ^(د) / واللَّهِ المُلْهُمُ^(هـ)، وبه المُسْتَعَانُ، وعليه التَّكْلَانِ. وحَسْبُنَا اللَّهُ ونَعْمَ الوَكِيلُ.] [1363]

30 • عِلْمُ الكِيمِيَاءِ

- ١٠ وهو عِلْمٌ يَنْظُرُ في المَادَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بها كَوْنُ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ بالصَّنَاعَةِ، وَيُشْرَحُ العملَ الَّذِي يُوَصِّلُ إلى ذلك. فَيَتَصَفَّحُونَ المَكُونَاتِ كُلُّهَا بعد مَعْرِفَةِ أُمُورِهَا وقُوَّاهَا، لَعَلَّهُمْ يَفْهَمُونَ على المَادَّةِ المُسْتَعِدَّةِ لذلك، حَتَّى من الفَضْلَاتِ الحَيَوَانِيَّةِ، كَالْعِظَامِ والرِّيشِ والشَّعْرِ والْبَيْضِ والغِذَرَاتِ، فَضلاً عن المَعَادِنِ.
- ثمَّ يَشْرَحُ الأَعْمَالِ الَّتِي تَخْرُجُ بها تِلْكَ المَادَّةُ من القُوَّةِ إلى الفِعْلِ، مِثْلَ حَلِّ الأَجْسَامِ إلى أَجْزَائِهَا الطَّبِيعِيَّةِ بالتَّضْعِيدِ والتَّقْطِيرِ، وَجَمْدِ الدَّائِبِ مِنْهَا بالتَّكْلِيسِ، وإِنْمَاءِ الصُّلْبِ بِالْفَهْرِ والصَّلَايَةِ، وَأَمْثَالِ ذلك.

(١) ج: يطرّد (ب) ط: و (ج) ح: توصل (د) من حاشية ع، ومذكورة في ج، وسقطت من ط ي (هـ) ط: المُدْم.

وفي زعمهم أنه يخرج هذه الصناعات كلها جسم طبيعي يُسمونه الإكسير، وأنه يلقي على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل، مثل الرصاص والفضير والحاس، بعد أن يُخفى بالنار، فيعود ذهباً إيزيراً. ويكتون عن ذلك الإكسير إذا لفزوا اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم الذي يلقي عليه بالجدسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي 5 الذي يثقب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة، هو علم الكيمياء.

وما زال الناس يؤلفون فيها قديماً وحديثاً. وربما يُعزى فيها الكلام إلى من ليس من أهلها. وإمام المدونين فيها عندهم جابر بن حيان، حتى إنهم يخصونها به، فيُسمونها علم جابر. وله فيها سبعون رسالة، كلها شبيهة بالألفاز. وزعم أنه لا يفتح 10 مُقفلاً إلا من أحاط علماً بجميع ما فيها.

والطُّغرائي، من حُكماء المشرق المتأخرين، له فيها دواوين ومُناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء. وكتب فيها منسلةً الجريطي، من حكماء الأندلس، كتابه الذي سماه رُبَّة الحكيم، وجعله قريناً / لكتابه الآخر في السخر والطلسمات، الذي سماه [363ب] غاية الحكيم. وزعم أن هاتين الصناعتين هما نتيجةان للحكمة، وتُقرنان للعلوم، ومن لم يتف عليها فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة أجمع.⁽¹⁾ 15

وكلامه في ذلك الكتاب، وكلامهم أجمع في تواليهم، هي ألفاظٌ يتعذر فهمها على من لم يُعان اصطلاحاتهم في ذلك. ونحن نذكر سبب عدولهم إلى هذه الرموز (1) غاية الحكيم 6.

والألفاظ. ولابن المُغَرَّبِي، من أَيْمَة هذا الشَّان، كَلِمَاتٌ شِغْرِيَّةٌ، رَوَّيْهَا عَلَى حُرُوفِ
المُفْجَم، مِنْ أُنْدَع مَا يَحْيِي فِي الشَّعْرِ، مُلْعَوَزَةٌ كُلُّهَا لَفْزُ الْأَحَاجِي وَالْمُعَايَا، فَلَا تَكَاذُ
تُفْهِمُ.

وقد يُنْسِبُونَ لِلْقَزَالِي (رحمه الله) ^(أ) بعض التّوَالِيفِ فِيهَا. وَلَيْسَ ذَلِكَ بِصَحِيحٍ،
لأنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَكُنْ مِدَارِكُهُ الْعَالِيَةُ لَتَقَفَ عَنْ ^(ب) خَطِّ مَا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَنْتَحِلَهُ. 5
وَرَبَّمَا نَسَبُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ وَالْأَقْوَالِ فِيهَا لِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، رَيْبِيبِ مِزْوَانَ
ابْنِ الْحَكَمِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ النَّبِيِّ أَنَّ خَالِدًا مِنَ الْحَيْلِ الْقَزْرِيِّ، وَالْبِدَاوَةُ إِلَيْهِ أَقْرَبُ،
فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ بِالْجُمْلَةِ، فَكَيْفَ لَهُ بِصِنَاعَةِ غَرِيْبَةِ الْمُتَخَيِّ مَبْنِيَّةٍ عَلَى
مَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْمَرْكَبَاتِ وَأَمْرِجَتِهَا؛ وَكُتِبَ النَّاطِلِينَ فِي ذَلِكَ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالطَّبِّ لَمْ
تُظْهَرْ بَعْدُ وَلَمْ تُتَرْجَم. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ آخِرَ مَنْ أَهْلُ الْمَدَارِكِ 10
الصَّنَاعِيَةِ تَشَبَّهَ ^(ج) بِاسْمِهِ، فَمُمَكِّنٌ.

وَأَنَا أَثْقُلُ لَكَ هَاهُنَا رِسَالَةً ^(د) أَبِي بَكْرٍ بْنُ بِشْرُونَ لِابْنِ السَّمْعِ فِي هَذِهِ

(أ) مِنْ م. ي. (ب) ج: عَل. (ج) هَذَا بَيَاضٌ بِقَدْرِ كَلِمَةٍ فِي ح.

(1) كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ بِشْرُونَ الْمَرْحُومُ كِتَابَ أَوْ رِسَالَةَ "بَيِّنَاتِ الصَّنْعَةِ" - كَمَا سَمَّاهُ - فِي الْكَيْمِيَاءِ لِتَلْمِيزِهِ
مُوسَى (?). وَسَمَّاهُ حَاجِي خَلِيفَةَ: "بَيِّنَاتِ الْكَيْمِيَاءِ" وَذَكَرَ مُسْتَهْلَهُ الْمُتَطَابِقَ (2: 989). وَلَيْسَ فِي الرِّسَالَةِ
الْمَحْفُوظَةِ بِتَرْكِهَا فِي مَكْتَبَةِ بَشِيرِ آغا 505 ذَكَرَ لِأَبِي الْقَاسِمِ أَصْبَغَ بْنِ السَّمْعِ الْمُهَنْدِسِ الْقَزْرَانِيَّ الَّذِي ذَكَرَ
ابْنُ خَلْدُونَ أَنَّهُ وَضَعَهَا لَهُ. وَلَمْ يُلْوَثِرْ عَنْ ابْنِ السَّمْعِ أَنَّهُ اشْتَغَلَ بِغَيْرِ الْهِنْدَسَةِ وَعَلِمَ الْعِدَدَ وَالْفَلَكَ وَوَضَعَ
الْأَزْيَاجَ.

وَيَبْدَأُ الْمُتَطَابِقَ الْجُزْئِيَّ بَيْنَ هَذَا النَّصِّ وَالرِّسَالَةِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا، مِنْ فِصْلِ التَّدْبِيرِ (ص: 396) مَعَ
تَصْرِفٍ فِي النِّقْلِ بِالِاخْتِيَارِ وَإِعَادَةِ الصِّيَاغَةِ. فَأَشْرَفْنَا لِلْفُرُوقِ وَرَمَزْنَا لَهَا بِحَرْفِ "ش".

الصناعة، وكلاهما من تلميذ مسلمة، فتستبدل من كلامه فيها على ما ذهب إليه في شأنها إذا أعطينته حقه من التأمل.

قال ابنُ بشرٍ، بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض:

والمقدّمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون، واقتض جميعها أهل
5 الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأخجار والجواهر، وطبع البقاع
والأماكن، فنحننا اشتهاؤها من / ذكرها. ولكن أُبين لك من هذه الصنعة⁽¹⁾ ما يحتاج
إليه، فنبدأ بمعرفة.

فقد قالوا: ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا (أولاً)^(ب) ثلاث خصائص أولها:
هل تكون؟ والثانية: من أي شيء تكون؟ والثالثة: كيف تكون؟ فإذا عرف هذه
10 الثلاث وأحكمها، فقد ظفر بمطلوبه، وبلغ نهايته من هذا العلم.
فأما البحث عن وجودها والاستدلال على كونها، فقد كفيناك بما بعثنا به
إليك من الإكسير.

وأما من أي شيء تكون؟، فإننا يريدون بذلك البحث عن سخر الذي
يمكنه العقل، وإن كان العمل موجوداً من كل شيء بالقوة، لأنها من الطبع الأزيع،
15 منها تركبت ابتداء وإلها ترجع انتهاء. ولكن من الأشياء من تكون فيه بالقوة ولا
تكون بالفعل. وذلك أن منها ما يمكن تفصيلها، ومنها ما لا يمكن تفصيلها. فآتي
يمكن تفصيلها تُعالج وتُدبر، وهي التي تخرج من القوة إلى الفعل. والتي لا يمكن

(1) ج: الصناعة (ب) سقط من ط.

تفصيلها لا تعالج ولا تُدِير، لأنها فيها بالقوة فقط. وإنما لم يمكن تفصيلها لاستغراق بعض طبائعها في بفض. وفضل قوة الكبير منها على الصغير. فينبغي لك، وفقك الله، أن تعرف أوفق الأجار المنفصلة التي يمكن منها العمل، وجنسه، وقوته، وعمله، وما يُدِير من الحن والعقد والتقية والتكليس والتشيف والتقليب. فإن من لم يعرف هذه الأصول التي هي عماد هذه الصنعة، لم ينجح ولم يظفر بخير أبداً. 5
وينبغي لك أن تعلم: هل يمكن أن يستعان عليه بغيره، أم يكتفى به وحده؟ وهل هو واحد في الابتداء، أم شاركه غيره، فصار في التدبير واحداً، فيُستقى حَجَراً.

وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله، وكيفية أوزانه، وأزمانه، وكيف تركيب الروح فيه، وإذخال النفس عليه، وهل تُقدر التأثر على تفصيلها منه بعد تركيبها؟ فإن لم تُقدر فلائي / علّة، وما السبب الموجب لذلك؟ فإن هذا هو المطلوب، فافهم. (364ب)

واعلم، أن الفلايصة كنهها مدحت النفس، وزعمت أنها المدبرة للجسد والحاملة له والتافعة عنه وإعالة فيه. وذلك أن الجسد إذا خرجت النفس منه مات وتبدد، فلم يقدِر على الحركة والامتناع من غيره، لأنه لا حياة فيه ولا نور. وإنما ذكر كُ الجسد والنفس، لأن هذه الصنعة شبيهة بجسد الإنسان الذي تركيبه 15 على الغذاء والعشاء. فبواحه ونماحه بالنفس الحية الثورانية التي بها يفعل العظام والأشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها بالقوة الحية التي فيها. وإنما افعل الإنسان لاخلاف تركيب مدبّعه. ولو اتفقت طبائعه وسلمت من الأغراض والتضاد، لم

تُدر النفس على الخروج من جسده، ولكن خالداً باقياً. فسبحان مُدبر الأشياء
تعالى!

واعلم، أنَّ الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل، كيفيةٌ دافعةٌ في الابتداء،
فيضيئةٌ، مُحتاجةٌ إلى الانتهاء. وليس لها إذا صارت في هذا الجسد⁽¹⁾ أن تستحيل
5 إلى ما منه تركبت، كما قلنا آنفاً في الإنسان. لأنَّ طبائع هذا الجواهر قد أُرِم بعضها
بعضاً وصارت شيئاً واحداً شبيهاً بالنفس في قوتها وفعلها، وبالجسد في تركيبه
ومجسّته، بعد أن كانت طبائع مفردةً بأغيانها. فها تجبأ من أفاعيل الطبائع أنَّ القوةَ
للضعيف الذي يقوى على تفصيل الأشياء وتركيبها وتأييدها. فلذلك قلتُ: قوّي
وضعيّف. وإبّا وقع التغيرُ والفناء في التركيب الأول للاختلاف، وعُدِم ذلك في
10 الثاني للاتفاق.

وقد قال بعض الأولين: التفصيلُ والتقطيعُ في هذا العمل حياةٌ وبقاء،
والتركيب موتٌ وفناء. وهذا الكلام دقيقُ المعنى، لأنَّ الحكم أرادَ بقوله: حياةٌ
وبقاء، بخروجه من الغم إلى الوجود، لأنَّه ما دام / على تركيبه الأول فهو فاني لا
15 محالة. فإذا ركب التركيب الثاني غيِمَ الفناء. والتركيب الثاني لا يكون إلا بعد
التفصيل والتقطيع. فإذا، التفصيلُ والتقطيعُ في هذا العمل خاصة. فإذا لقيَ الجسدُ
الحلولَ انبسطَ فيه بدم الصورة، لأنَّه قد صارَ في الجسد بمنزلة النفس التي لا
صورةَ لها. وذلك أنه لا وزنَ له فيه، وسرى ذلك إن شاء الله تعالى.

(1) ج ي: الحد.

وقد ينبغي لك أن تعلم، أن اختلاط اللطيف باللطيف، أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ. وإنما أريد بذلك التشاكل في الأزواج والأجساد، لأن الأشياء تتصل بأشكالها. وذكر لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطباع اللطائف الروحانية منها من الغليظة الجنسية. وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأزواج، كما ترى الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من 5 الكبريت والزئبق وغيرها من الأزواج. فأقول: إن الأجساد قد كانت أزواجا في بذنها، فلما أصابها حر الكيان قلبها أجسادا لرجة غليظة، فلم تقدر النار على أكلها، لإفراط غلظها وتلرجحها. فإذا أفرطت النار عليها صيرتها أزواجا كما كانت أول خلقها. وأن تلك الأرواح اللطيفة إن أصابها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها. فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة، وصير الأرواح في هذه الحال⁽¹⁾. فهو 10 أجل ما تعرفه.

أقول: إنما أبقت تلك الأرواح واحترقت لاشتعالها ولطافتها. وإنما اشتعلت لكثرة رطوبتها، ولأن النار إذا أحست بالرطوبة تعلقت بها، لأنها هوائية تشاكل النار. ولا تزال (تفتديها)^(ب) إلى أن تنفث. وكذلك الأجساد إذا أبقت بوصول النار إليها / بقلة تلرجحها وغلظها. وإنما صارت تلك الأجساد لا تشتعل لأنها مركبة من 15 أرض وماء صابر على النار بلطيفه، متحد بكثيفه بطول الطبخ اللين المازج الأشياء. وذلك أن كل متلاش إنما يتلاشى بالنار لمفارقة لطيفه من كثيفه، ودخول بقضه في

(1) ج: الحالة (ب) كذا في ط، وفي ع: ج: تنفد، وفي ي: تنفدي ب.

بغض على غير التحليل والموافقة. فصار ذلك الانضمام والتدخل مجاورة لا مُبارجة،
سهل بذلك افتراقها، كالماء والدُّهن وما أشبهها. وإِنما وُصِفَ ذلك لتستدلَّ به على
تركيب الطَّبائع وتَقَابُلِها. فإذا عِلِفَتْ ذلك علماً شافياً فقد أخذتَ حطَّكَ منها.

وينبغي لك أن تعلم، أن الأخلاط التي هي طبائع هذه الصناعة موافقة بعضها
5 لبغض، مفضلة من جوهر واحد، يجمعها نظام واحد بتدبير واحد، لا يدخل عليه
غريب في الجزء منه، ولا في الكل، كما قال الفيلسوف: إنك إن أخفكت تدبير
الطَّبائع وتآلفها، ولم تدخل عليها غريباً⁽¹⁾، فقد زاعغ عنها ووقع الخطأ.

واعلم، أن هذه الطبيعة إذا خلَّ لها جسد من قرابتها على ما ينبغي في الحلِّ
حتى يشاكلها في الرقة واللطافة، انبسط فيه وجرت معه حيث ما جرى. لأن
10 الأجساد ما دامت غليظة جافية لا تبسط ولا تتراوح. وخلُّ الأجساد لا يكون
بغير الأزواج. فافهم، هداك الله، هذا القول. واعلم، هداك الله، أن هذا الحلَّ في
جسد الحيوان هو الحق الذي لا يضمحل ولا ينتقض، وهو الذي يقبُّ الطَّبائع
ويُمسِكُها ويظهر لها ألواناً وأزهاراً عجيبة. وليس كل جسد يُخلُّ خلاف هذا هو
الحلُّ التام لأنه يخالف للحياة. وإِنما خلَّ بما يوافقه ويدفع عنه حرق النار، حتى
15 يزول عن الغلظ، وتقلب الطَّبائع عن حالها إلى ما لها أن تثقل من اللطافة
والغلظ. فإذا بلغت الأجساد نهايتها من التحليل والتلطيف، ظهرت لها هناك قوة

(1) وردت هذه الفقرة كذا في طبع ج ي، والتهجيرية (الورقة 263)، ونشرة كانون ر (3: 198). وفي نسخة د: عبد الواحد (في
3: 1202) إضافة لم ترد في أصولنا فافتتحها في هذه الحاشية، وهي: ولم تدخل عليها غريباً (فقد أحكمت ما أردت
إحكامه وقوامه، إذ الطبيعة واحدة لا غريب فيها، فمن أدخل عليها غريباً فقد زاعغ عنها ووقع في الخطأ).

[1366] تُسبِك وتغوص / وَثَقِلْبُ وَتَثْقُدُ . وكلُّ عملٍ لا يُزَيُّ له مصداقٌ في أوَّلِهِ فلا خَيْرَ فيه .

واعلمَ، أنَّ الباردَ من الطَّبائعِ هو لِيُتَبَيَّنَ الأشياءُ ويعقَدَ رطوبتها، والحرُّ منها يُظهِرُ رطوبتها ويعقَدُ يُبْسَها . وإِنَّمَا أَفْرَدْتُ الحَرَّ والبَرْدَ ، لأنَّهما فاعلان ، والرطوبة والثيبس مُتَعَمِّلان ، وعن ائِفعالِ كُلِّ واحدٍ منهما لصاحبه تحدُّثُ الأجسامِ وتكونُ .
 5 وإن كان الحرُّ أَكثَرَ فِعْلاً في ذلك من البَرْدِ ، لأنَّ البَرْدَ ليس له ثَقُلُ الأشياءِ ولا تَحَرُّكُها، والحرُّ هو عِلَّةُ الحَرَكَةِ، وَمَتَى ضَعُفَتْ عِلَّةُ الكَوْنِ، وهي الحرارة، لم يَمُتْ منها شيءٌ أبداً . كما أَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَتِ الحرارةُ على شيءٍ ولم يكن ثَمَّ بَرْدٌ أَحْرَقَتْهُ وَأَهْلَكَتْهُ .
 فَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْعِلَّةِ، اخْتِيجَ إِلَى البَارِدِ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ، لِيَقْوَى بِهِ⁽¹⁾ كُلُّ ضِدٍّ عَلَى ضِدِّهِ، ويدفع عنه حرَّ النَّارِ .

10

ولم تحذرِ الفلاسِفةُ أَكثَرَ شيءٍ إِلاَّ مِنَ التَّيْرَانِ الْمُخْرِقَةِ . وَأَمَرْتُ بِتَظْهِيرِ الطَّبائعِ والأَنْفَاسِ وإِخْرَاجِ دَنَسِها ورُطوبِها ونَفْيِ آفَاتِها وأَوْسَاجِها عَنْها . على ذلك اسْتَقَامَ رأيهم وتذيرُهم . فَإِنَّ عَمَلَهُمُ إِنَّمَا هُوَ مَعَ النَّارِ أَوَّلًا ، وإِلَيْهَا يَصِيرُ آخِرًا ، فَلِذَلِكَ قَالُوا: إِنَّا كَمِ والتَّيْرَانِ الحَرِيقَاتِ . وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِذَلِكَ نَفْيَ الْآفَاتِ الَّتِي مَعَهَا، فَتَجَمُّعُ عَلَى الجَسَدِ أَفْتِنِ، فَيَكُونُ أَمْرُ عَ لِهَلَاكِه . وَكَذَلِكَ كُلُّ شيءٍ إِنَّمَا يَتَلَاشَى وَيَفْسُدُ لِنِضَادِ
 15 طَبَائِعِهِ وَاخْتِلَافِهِ . فَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، فَلَمْ يَجِدْ مَا يَقْوِيهِ وَيُعِينُهُ إِلاَّ قَهْرَتُهُ الْآفَةُ وَأَهْلَكَتْهُ .

(1) ط: بها .

واعلم أن الحكماء ذكرت ترداد الأزواج على الأقسام مراراً، ليكون الزم إليها وأقوى على قتال النار إذا هي باشرتها [عند⁽¹⁾ الألفه، أغني بذلك النار العنصرية، فاعلمه.

ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه القتل على ما ذكرته الفلاسفة، وقد 5
اختلفوا فيه، فمنهم من زعم أنه في الحيوان، ومنهم من زعم أنه في النبات، ومنهم من زعم أنه في المعادن، ومنهم من / زعم أنه في الجميع. وهذه الدعوى^(ب) ليست بنا [366ب]
حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها، لأن الكلام يطول جداً. وقد قلنا فيما
شذم: إن العمل من كل شيء بالقوة، لأن الطبائع موجودة في كل شيء، فهو
كذلك.

10 فريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل، فنفسد إلى ما قاله
الحزائي، أن الصنع كله أحد صنفين، إما صنع جسد، كالزغفران في التوب الأبيض
حتى يحول فيه، وهو مضمحل متعوض التركيب، والصنع الثاني تثقيب الجوهر من
جوهرة نفسه إلى جوهرة غيره ولونه، كتثقيب الشجر التراب إلى نفسه^(ج)، وقلب
الحيوان النبات إلى نفسه، حتى يصير التراب نباتاً ويصير النبات حيواناً، ولا
15 يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل الذي له توليد الأجرام وقلب الأغيان.

فإذا كان هذا هكذا، فأقول: إن العمل لا يند أن يكون إما في الحيوان، وإما
في النبات. وبهذه ذلك، أنها مطبوعان على الغذاء، وبه قوامها وثامها.

(1) ط: عنه (ب) في ع ج ي: الداعى (ج) من ع ج ي، وسقط من ط.

فأما التّباتُ، فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوّة. ولذلك قلّ خَوْضُ
الحُكَمَاءِ فيه. وأمّا الحيوانُ، فهو آخرُ الاستِجاباتِ الثلاثة ونهايتها. وذلك أنّ المعدنَ
يَسْتَحِيلُ نباتاً، والتّباتُ يَسْتَحِيلُ حَيَواناً، والحيوانُ لا يَسْتَحِيلُ إلى شَيْءٍ هو
أَلْطَفُ منه، إلّا أن يَتَغَيَّرَ راجعاً إلى الغِلْظِ، وأنّه أيضاً لا يوجدُ في العالمِ شيءٌ
تَعَلَّقُ به الرُّوحُ الحَيَّةُ غيرُهُ. والرُّوحُ الأَلْفُ ما في العالمِ، ولم تَعَلِّقِ الرُّوحُ بالحيوانِ
إلّا بِمَشْكَلَتِهِ إِيَّاهَا. فأما الرُّوحُ الَّتِي في التّباتِ فَإِتيَتْ بِسِرَّةٍ، فيها غِلْظٌ وكثافةٌ، وهي
مع ذلكَ مُسْتَعْرِقَةٌ كامنةٌ فيه، لِيُغْلِظَهَا وَغِلْظُ جَسَدِ التّباتِ. فلم يَفْزِدْ على الحَرَكَةِ
لِيُغْلِظَهَا وَغِلْظُ رُوحِهِ. والرُّوحُ المُتَحَرِّكَةُ أَلْطَفُ من الرُّوحِ الكَامِنَةِ كَثِيراً. وذلك أنّ
المُتَحَرِّكَةَ لها قَبُولُ الغِذاءِ والتَّنَقُّلُ والتَّنَفُّسُ، وليس للكَامِنَةِ غيرُ قَبُولِ الغِذاءِ وَخُذْهُ،
ولا تَجَرُّبٍ إِذَا قَبِستُ بالزَّوْجِ الحَيَّةِ إلّا كالأَرْضِ عند الماءِ. كذلك / التّباتُ عند
10 الحيوانِ. فالعَمَلُ في الحيوانِ أَعْلَى وَأَرْفَعُ وَأَهْوَنُ وَأَيْسَرُ. فَيَتَبَغَى للعَاقِلِ إِذَا عَرَفَ
ذلكَ أن يَجْرِبَ ما كان سَهْلاً وَيَتْرَكَ ما يَخْشَى فيه عُسْراً.

واعْلَمْ أَنَّ الحيوانَ عند الحُكَمَاءِ يَتَقَسِّمُ أَقْساماً: من الأُمُهاثِ الَّتِي هي الطَّبائِعُ،
والْحَدِيثَةُ الَّتِي هي المَوَالِيدُ. وهذا معروفٌ بِسِرِّ الفَهِمِ. فَلِذَلِكَ قَسَمَتِ الحُكَمَاءُ
العِناصِرَ والمَوَالِيدَ أَقْساماً حَيَّةً، وَأَقْساماً مَيِّتَةً. فاجْعَلُوا كُلَّ مُتَحَرِّكِ فَاعِلاً حَيّاً، وَكُلَّ
15 سَاكِنٍ مَفْعُولاً مَيِّتاً. وَقَسِّمُوا ذلكَ في جَمِيعِ الأَشْيَاءِ، وفي الأَجْسادِ الذَّائِيَةِ^(١)، وفي
العَاقِبِ المُعَدِّيَةِ. فَسَمُّوا كُلَّ شَيْءٍ يَذُوبُ في التَّارِ وَيَطِيرُ وَيَسْتَعْلُ، حَيّاً، وَمَا كانَ

(١) في ي: النّاتية، وأصلها في ع بخطه: النّاتية.

على خلاف ذلك سَمَوْهُ مَيْتًا. فأما الحيوان والتبأث، فسمّوا كل ما انفصل منها⁽¹⁾ طبائع أربعة، حتّى، وما لم يتفصل سَمَوْهُ مَيْتًا.

ثمّ إنهم طلبوا جميع الأقسام الحية، فلم يجدوا لوفى هذه الصناعة مما يتفصل فصولاً أربعة ظاهرة للعيان، ولم يجدوا غير الحجر النّبي في الحيوان. فبحشوا عن
5 جَنْسِهِ حَتَّى عَرَفُوهُ وَأَخَذُوهُ وَذَبَرُوهُ، فَتَكَيَّفَ لَهُمْ مِنْهُ النَّبِيُّ أَرَادُوا.

وقد يتكيف مثل هذا في المعادن والتبأث بعد جمع العقاقير وخلطها، ثمّ
تُفَصَّلُ بعد ذلك. فأما التبأث، فمَنْه ما يَنْفَصِلُ بِنِغْضِ هَذِهِ الْفُصُولِ، مِثْلُ الْأَشْشَانِ.
وأما المعادن، ففيها أجساد وأرواح وأنفاس إذا مُزِجَتْ وَذُبِرَتْ كَانَ مِنْهَا مَا لَهُ تَأْثِيرٌ.
وقد ذَبَرْنَا كُلَّ ذَلِكَ، فَكَانَ الْحَيَوَانُ مِنْهَا أَعْلَى وَأَرْفَعُ، وَتَدْبِيرُهُ أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ. فَيَنْبَغِي
10 أَنْ نَعْلَمَ مَا هُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ فِي الْحَيَوَانِ، وَطَرِيقُ وَجُودِهِ أَنَّا نَبْتَأَنَّ أَنَّ الْحَيَوَانَ أَرْفَعُ
الْمَوَالِيدِ، وَكَذَلِكَ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ، فَهُوَ أَلْطَفُ مِنْهُ، كَالْتِبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ، إِنَّمَا كَانَ
التبأث اللطف من الأرض لأنه إنّما يكون من جوهره الصافي وجسده اللطيف،
فوجب له بذلك اللطافة والرقة. وكذلك هذا الحجر الحيواني بمنزلة التّبأث في التّراب.
/ وَبِالْجُمْلَةِ، إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ شَيْءٌ يَنْفَصِلُ طَبَائِعَ أَرْبَعًا غَيْرَهُ. فَافْهَمْ هَذَا الْقَوْلَ،
15 فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَخْفَى إِلَّا عَلَى جَاهِلٍ بَيْنَ الْجَهَالَةِ، وَمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ.

فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر، وأعلمتك جُسنه، وأنا أبين لك وجوه تدابير
حتى يكمل لك النّبي شرطناه على أنفسنا من الإنصاف، إن شاء الله سبحانه.

(1) ي: منه.

التدبيرُ على بركة الله تعالى:

خُذِ الْحَجَرَ الْكَرِيمَ، فَأُوْدِغِهِ الْقَرَعَةَ وَالْإِنْبِيقَ، وَفَضِّلْ طِبَائِقَهُ الْأَرِيخَ الَّتِي هِيَ: الماء والهواء والأرض والتَّارُ، وهي: الجسدُ والروحُ والنفسُ والصَّبْغُ. فإذا عرِلتِ [الماء]^(أ) عن^(ب) التَّرابِ، والهواءُ عن^(ب) التَّارِ، فارْفَعْ كُلَّ وَاحِدٍ فِي إِنْائِهِ عَلَى جِدَّةٍ. وَخُذِ الْهَابِطَ أَسْفَلَ الْإِنَاءِ، وَهُوَ الثَّقُلُ، فَاغْسِلْهُ بِالنَّارِ الْحَارَّةِ^(ج) حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ 5 سَوَادُهُ وَيَزُولَ غَلْظُهُ وَجَفَاؤُهُ، وَتَبَيُّضُهُ تَبَيُّضًا مُحْكَمًا، وَطَيَّرَ عَنْهُ فَضُولَ الرُّطُوبَاتِ الْمُسْتَحْتَجَّةِ فِيهِ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ مَاءً^(د) أَبْيَضٌ لَا ظُلْمَةَ فِيهِ وَلَا سَخَ وَلَا تَضَادًّا. ثُمَّ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الصَّبَائِعِ الْأُولَى^(هـ) الصَّاعِدَةِ مِنْهُ، فَطَهِّرْهَا أَيْضًا مِنَ السَّوَادِ وَالتَّضَادِّ، وَكَوِّزْ عَلَيْهَا الْغُسْلَ^(و) وَالتَّضَعِيدَ حَتَّى تَلْطَفَ وَتَرِقَّ وَتَضْفُو. فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ^(ز).

10

فابداً بالتركيب الذي هو مدار العمل؛ وذلك أَنَّ التَّركِيبَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالتَّزْوِيجِ والتَّغْفِينِ: فَأَمَّا التَّزْوِيجُ، فَهُوَ اخْتِلَاطُ اللَّطِيفِ بِالْغَلِيظِ. وَأَمَّا التَّغْفِينُ: فَهُوَ التَّمْشِيقُ والسَّخُّ حَتَّى يَخْتَلَطَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا لَا اخْتِلَاطَ فِيهِ^(ح) وَلَا نَقْصَانٌ^(ط)، بِمَنْزِلَةِ الْأَمْتِرَاجِ بِالْمَاءِ^(ي). فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْوَى الْغَلِيظُ عَلَى إِسْكَائِ اللَّطِيفِ، وَيَقْوَى الرُّوحُ عَلَى مُقَابَلَةِ النَّارِ وَيَصِيرُ عَلَيْهَا، وَتَقْوَى النَّفْسُ عَلَى الْعَوْصِ فِي الْأَجْسَادِ 15 وَالْدَّيْبِ فِيهَا.

(أ) من ع، وسقط من ط (ب) في ش (89 أ) : من (ج) ش: فاغسله بالنار والمياه (د) ش: كلساً (هـ) ش: الأولى (و) ش: الفصل مراراً (ز) ش: فتح الله لك وطبق (ح) ش: لا خلاف فيها (ط) ش: ولا انفصال (ي) ش: بمنزلة الماء مُزَجَّجٌ بالماء .

وإنما وجد^(أ) ذلك بعد التركيب ، لأن الجسد المخلول لما ازدوج بالروح
 [مازجة]^(ب) بجميع أجزائه ، ودخل بعضها في بعض لتشاكلها ، فصار شيئاً / واحداً. [1368]
 ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الضلاح والفساد والبقاء والثبوت ، ما
 يفرض للجسد لموضع الامتزاج . وكذلك النفس إذا امتزجت بها ودخلت فيها
 5 بخدمة التدبير ، اختلطت^(ج) أجزاؤها بجميع أجزاء^(د) الآخرين ، أعني الروح
 والجسد^(د) ، وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ، بمنزلة الجزء الكلّي^(هـ)
 الذي سلّم طبايعه واتفقت أجزاؤه.

فإذا بقي هذا المركب الجسد المحلول ، وألح عليه النار^(ز) ، وأظهر ما فيه
 من الرطوبة على وجهه ، فذاب^(ح) في الجسد المحلول .^(ح) ومن شأن الرطوبة^(ح)
 10 الاشتعال^(ط) وتعلق النار بها ، فإذا أرادت النار التعلق بها ، منعها^(ي) من الاتحاد
 بالنفس ممازجة الماء لها ، فإن النار لا تتحد بالدهن حتى يكون خالصاً . وكذلك الماء
 من شأنه التفور من النار . فإذا ألحّت عليه النار وأرادت تطهيره ، حبسه الجسد^(ك)
 اليابس الممازج له في جوفه ، فتنعه من الطيران . فكان الجسد علة لإمساك الماء ،
 والماء علة لبقاء^(ل) الدهن ، والدهن علة لثبات الصنغ . وكان الصنغ علة لظهور اللون ،
 15 وإظهار الدهنية في الأشياء^(م) المظلمة التي لا نور لها ولا حياة فيها.

(أ) ش: وجب (ب) من ع ر ، وفي ظ: مازجة (ج) ش: واختلطت (د) فراغ في متن ع ، وكسب ما بين خزفي القال في
 الحاشية بخط مغربي قديم ، ونقلها في مكانها بقية النسخ (هـ) ش: الجوهر الكلّي (و) ش: الحز (ز) ش: فذب
 (ح) التعليق المتقدم نفسه على نسخة ع (ط) ش: الاشتعال بالنار (ي) ش: منعها (ك) ش: حبسه في جوف الجسد
 (ل) ش: لإمساك (م) ش: الأجساد .

فهذا هو الجسدُ المستقيمُ، وهكذا يكونُ العملُ.

وهذه البيضةُ التي سألتُ عنها، وهي التي سَمَّتها الحكماءُ بيضةً، وإياها يُقَوَّن، لا بيضةُ الدجاجة.

واعلم^(١) أنَّ الحكماءَ لم^(ب) تُسمِّها بهذا الاسمِ لغيرِ معنى، بل أشبهتها . * ولقد

سألتُ منسَلَمَةً عن ذلك يوماً وليس عندهُ غيري ، فقلتُ له : أيُّها الحكيمُ الفاضلُ،
أخبرني: لأني شيءٌ سَمَّته الحكماءُ مركَّبَ الحيوانِ بيضةً، أختیاراً منهم لذلك أم لمعنى
دعاهم إليه ؟ فقال : بل لمعنى غامضٍ. فقلتُ: أيُّها الحكيمُ، وما ظهرَ لهم من ذلك
من المنفعةِ والاستِذلالِ على الصناعةِ حتَّى شبهوها وسَمَّوها بيضةً ؟ فقال : لشبهها
وقرباتها من المركَّب، ففكَّر فيهِ، فإنَّه سيظهرُ لك معناه. / فبقيتُ بين يديه متفكِّراً [368]

لا أقدرُ على الوصولِ إلى مَغْنَاهُ. فلما رأى ما بي من الفكرِ، وأنَّ نفسي قد مضت
فيها، أخذَ بعضدي وهزني هَزَّةً خفيفةً، وقال لي: يا أبا بكرُ، ذلك للنسبةِ التي بينها
في كَيْتَةِ الألوانِ عند امتزاجِ الطبائعِ وتأليفها. فلما قال ذلك، انجَلَى عَنِّي الظلمَةُ،
وأضاءَ لي نُورٌ قلبي، وقوِّيَ عَقْلِي على فهمه. فنهَضْتُ شاكِراً لله عليه إلى منزلي،
واقمْتُ عليه شكلاً هندسياً يَتَبَرَّهَنُ به صحَّةُ ما قاله منسَلَمَةُ. وأنا واضعُه لك في هذا
الكتاب * (ج).

15

مثال ذلك^(٢)، أنَّ المركَّبَ إذا تمَّ وكلُّ كان [نسبةً]^(هـ) ما فيه من طبيعةِ الهواءِ
إلى ما في البيضةِ من طبيعةِ الهواءِ، كنسبة^(٣) ما في المركب من طبيعة النار إلى

(١) سقط من ج (ب) سقط من ط (ج) ما بين النعین لا يوجد في الرسالة ش (د) سقط من ج (هـ) من ج ي ر وحاشية ع، وفي ط ومن ع قبل التعديل: طبيعة (و) ش: ونسبة .

ما في ^(أ) البيضة من طبيعة ^(ب) النار. وكذلك الطليعتان الأخريان ^(ج)، الأرض والماء، فأقول: إنَّ كلَّ شيئين مُتناسبتين على هذه الصفة، فهما مُتسابيان ^(د).

ومثال ذلك، أن تجعل سطح البيضة هَرَّ وَح ^(هـ). فإذا أردنا ذلك، فإنَّا نأخذ أقلَّ الطبائع المركَّب ^(و)، وهي طبيعة اليبوسة، ونضيف إليها مثلاً من طبيعة الرطوبة، ونُدبرهما حتى تُشَفَّ طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقبل ^(ز) قُوَّتها. وكان في هذا الكلام زمناً، ولكنه لا يخفى عليك. ثمَّ تحمل ^(ح) [عليها جميعاً مثليهما ^(ط)] من الزوج وهو الماء، فيكون الجميع ^(ي) سِتَّةً أمثال ^(ك)؛ ثمَّ تحمل ^(ل) على الجميع بعد التدبير مثلاً من طبيعة الهواء التي هي النفس، وذلك ثلاثة أجزاء. فيكون الجميع ^(م) تسعة أمثال اليبوسة بالقوة. وتَجْعَلُ تحت كلِّ ضلعين من هذا المركَّب الذي طبيعته مُحيطَةٌ بسطح المركَّب طبيعتين، فتَجْعَلُ أولاً الضلعين المحيطين بسطحه طبيعة الماء وطبيعة الهواء، وهما ضلعا آخ ^(ن)، وسطح أجد ^(س). وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة اللذان هما الماء والهواء ضلعا هَرَّ وَح ^(ع). فأقول: إنَّ أجد يُشبه سطح هَرَّ وَح ^(ف) طبيعة الهواء التي تُستقى نفساً، وكذلك بَ ج ^(س) من سطح المركَّب. والحكماء لم تسم شيئاً باسم شيء إلا لشيء به. 15

(أ) ش: كنيسة ما في (ب) من ع ر. وسقط من ط (ج) ش: الطليعتين الأخريين (د) ش: وكل شيئين متسابين فهما متسابيان (هـ) ش: هَرَّ وَح (و) ش: أقل طبائع المركَّب (ز) ش: وتأخذ (ح) ش (و1) : تحمل (ط) ش: مثل وزنها (ي) ج: الجميع منه (ك) ش: أمثال اليبوسة (ل) من ع (م) ط: الجميع (ن) في ط: آخ د ج. وفي ي ج: آخ جء. وفي ش: آ ب ج (س) ش: آ ب ج د (ع) ي: هَرَّ وَح (ف) ي: هَرَّ وَح (س) ع ج ي متصلة: بج.

• والكلمات التي سألت عن شرحها: الأرض المقدسة هي المنعقدة من الطّباع
 الغلوية والسُّفلية . / والتّحاس، هو الذي أخرج سواده وقُطع حتّى صار هباءً ، ثمَّ [1369]
 حُرّ بالزّاج فصار نحاساً . والمغنيسيا حجرهم الذي تجمّد فيه الأرواح وتُخرّجه الطّبيعة
 الغلويّة التي تُسجّن فيها الأرواح لتقاتل عليها التّار . والفُفرة لونٌ أحمرّ فإنّ يُحدّثه
 للكيان⁽¹⁾ . والرّصاص حجر له ثلاث قوَى مخلفّة الشّخص ، ولكنها متشاكلةٌ 5
 متجانسةٌ . فالواحدةٌ روحانيّةٌ نيرةٌ صافيةٌ، وهي الفاعلة . والثّانية نفسانيّةٌ، وهي
 متحرّكة حسّاسةٌ، غير أنّها أغلظُ من الأولى ومركزها دون مركز الأولى . والثّالثة
 قوّة أرضيّةٌ جاسيّةٌ قابضةٌ منعكسةٌ إلى مركز الأرض لثقلها . وهي الماسكةُ الروحانيّةُ
 والتّفسّاتيّةُ جميعاً والمُحيطةُ بها . وأمّا سائرُ الباقية ، فمُبتدعةٌ ومُخرّعةٌ ، إلباساً على
 الجاهل . ومن عرّف المقدّماتِ استغنى عن غيرها . فهذا جميعٌ ما سألتني عنه قد 10
 بعثت به إليك مفسّراً؛ ونزجو بتوفيقِ الله أن تبلّغ أملك . والسلام •^(ب).

انتهى كلام ابن بشرون . وهو من كبار تلميذ مَسَلَمَة الجريطي ، شيخ
 الأندلس في علوم الكيمياء والتّسمياء^(ج) والسّخر في القرن الثالث وما بعده .
 وأنت ترى ، كيف صرف ألفاظهم كلّها في الصّناعة إلى الرّمز والألغاز التي لا
 تكادُ تبيّن ولا تُعرّف؛ وذلك دليلٌ على أنّها ليست بصناعةً طبيعيّة . 15
 والذي يجب أن يُعتدّ في أمر الكيمياء ، وهو الحقُّ الذي يُعصّده الواقع ،
 أنّها من جنس آثار التّفوس الروحانيّة وتصرّفها في عالم الطّبيعة ، إمّا من

(1) ظ: الكيان (ب) ما بين التّصحيح لم يرد في الرسالة ش (ج) سقط من ج .

نُوع الكرامة إن كانت النفوس خَيْرٌ، أو من نوع السَّخر، إن كانت شَريرة فاجرة.

فأما الكرامة، فظاهرة؛ وأما السَّخر، فلأنَّ السَّاحِرَ كما ثبت في مكان تحقيقه، يَقلِبُ الأعيانَ المادِّيَّةَ بِقُوَّتِهِ السَّحَرِيَّةِ، ولا بُدَّ له مع ذلك عندهم من مادةٍ يقعُ فعلُهُ السَّحَرِيُّ فيها؛ كتحليق بغض الحيوانات من مادة التراب أو الشَّعر 5 والنبات، وبالجملة من غير / مادتها المخصوصة بها، كما وقع لسحرة فرعون في الجبال والعصي، وكما يُنقل عن سحرة السودان والهنود في قاصية الجنوب، والتراك في قاصية الشمال، أنهم يسحرون الجو للأُمطار، وغير ذلك.

ولما كانت هذه تخليقاً للذهب في غير مادته الخاصة به، كان من قبيل السَّخر. والمتكلمون فيه من أعلام الحكماء، مثل جابر ومسلمة ومن كان قبلهم من حكماء الأمم، إنما تخوَّوا هذا المنحى. ولهذا كان كلامهم فيه إلغازاً، حذراً عليها من إنكار الشرائع على السَّخر وأنواعه، لا أنَّ ذلك يرجع إلى الضَّئيلة بها، كما هو رأي من لم يذهب إلى التحقيق في ذلك. 10

وانظر كيف سَمَّى مسلمة كتابه فيها رُتبة الحكم، وسَمَّى كتابه في السَّخر والطلُّسبات غاية الحكم، إشارةً إلى عموم موضوع الغاية وخصوص موضوع هذه. 15 لأنَّ الغاية أعلى من الرُّتبة. وكانَّ مسائل الرُّتبة بعض من مسائل الغاية، أو تشاركها في الموضوعات. ومن كلامه في القَتَنِ يَتَبَيَّنُ ما قلناه.

ونحن نُبَيِّنُ [فيما⁽¹⁾] بعد هذا غلطٌ من يزعمُ أنَّ مدارك هذا الأمر بالصناعة الطبيعية. والله العليمُ الخبيرُ.

31 • فصلٌ، في إبطالِ الفلسفةِ وفسادِ مُنتحلِها

هذا الفصلُ وما بعدهُ مهمٌ ، لأنَّ هذه العلومُ عارضةٌ في العمرانِ ، كثيرةٌ في المدنِ ، وضررها في الدينِ كبيرٌ. فوجبَ أنْ نصدعَ بشأنها ونكثِفَ عن المُتَعَدِّ 5 الحقِّ فيها.

وذلك أنَّ قوماً من عقلاءِ النوعِ الإنسانيِّ زعموا أنَّ الوجودَ كُلَّهُ، الجسِّيَّ منه وما وراءَ الحسِّ، تُدرِكُ ذواته وأحواله بأسبابها وعِلَلُها بالأنظارِ الفكريةِ والأفئسةِ العقليةِ، وأنَّ تصحيحَ العقائدِ الإيمانيةِ من قِبَلِ النَّظَرِ لا من جهةِ السَّمْعِ، فإنَّها بعضُ 10 من مداركِ العقلِ. وهؤلاءُ يُسمَّونَ بالفلاسفةِ^(ب)، جمعُ فيلسوفٍ، وهو باللسانِ اليونانيِّ: محبُّ الحكمةِ.

[1370] فبحثوا عن ذلك وشتموا له، وخوَّموا على / إصانةِ الغرضِ منه، ووضعوا قانوناً يَهْتَدِي به العقلُ في نظره إلى التمييزِ بَيْنِ الحقِّ والباطلِ، وسمَّوه بالمنطقِ. ومُخَصِّلُ ذلك ، أنَّ النَّظَرَ الَّذِي يقيِدُ تمييزَ الحقِّ من الباطلِ ، إنَّما هو للذهنِ في المعانيِ المترعةِ من الموجوداتِ الشخصيةِ، فيتجرَّدُ أولاً منها صُورٌ منطبقةٌ على جميعِ 15 الأشخاصِ، كما ينطبقُ الطابعُ^(ج) على جميعِ النقوشِ التي يَرسمُها في طينٍ أو شمعٍ.

(1) من: ع ج ي (ب) ج: الفلاسفة (ج) ح: الطائفة .

وهذه المُجَرَّدَةُ من المُحسوسات تُسَمَّى المعقولات الأوائل. ثمَّ تُجَرَّدُ من تلك المعاني الكلّية إذا كانت مشتركة مع معاني⁽¹⁾ أخرى وقد تميّزت عنها في الذّهن، فتُجَرَّدُ منها معاني⁽²⁾ أخرى، هي التي اشتركت بها. ثمَّ تُجَرَّدُ ثانياً إن شاركتها غيرها، وثالثاً، إلى أن ينتهي التجريدُ إلى المعاني البسيطة الكلّية المنطقيّة على جميع المعاني والأشخاص، ولا يكون منها تجريدٌ بعد هذا، وهي الأجناس العالية. وهذه المجردات كلّها من غير 5 المحسوسات، هي من حيث تأليفها بعضها مع بعض لتخصيل العلوم منها، تُسَمَّى المعقولات التواني. فإذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة، وطلب منها تصوّر الوجود كما هو، فلا بدّ للذهن من إضافة بعضها إلى بعض، ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقليّ اليقيني، لتخصيل تصوّر الوجود صحيحاً مطابقاً إذا كان ذلك بقانون صحيح، كما مرّ. 10

وصنف التصديق، الذي هو تلك الإضافة والحكم، متقدّم عندهم على صنف التّصوّر في النهاية، والتّصوّر متقدّم عليه في البداية والتّعليم؛ لأنّ التّصوّر التام عندهم هو غاية الطّلب الإدراكي، وإتبا التصديق وسيلة له. وما تسمّعه في كتب المنطقيّين من تقدّم التّصور وتوقّف التصديق عليه، فيمغنى الشعور، لا بمعنى العلم التام. وهذا هو مذهب كبيرهم أرسطو. 15

ثمَّ يزعمون أنّ السّعادة في إدراك / الموجودات كلّها، ما في الحس وما وراء [370ب] الحس، بهذا النظر وتلك البراهين. وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة ما آلت

(1) في الأصول كلها: معاني .

إليه، وهو الذي فَرَعُوا عَلَيْهِ قَضَايَا أَنْظَارِهِمْ، أَنَّهُمْ عَثَرُوا أَوَّلًا عَلَى الْجِنْسِ الشَّفَلِيِّ بِحُكْمِ الشَّهَادَةِ وَالْجِسِّ، ثُمَّ تَرَقَّى إِذْرَاكُهُمْ قَلِيلًا فَشَعَرُوا بِ[وجود] ^(أ) النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ الْحَرَكَةِ وَالْجِسِّ فِي الْحَيَوَانَاتِ، ثُمَّ أَحَسُّوا مِنْ قُوَى النَّفْسِ بِسُلْطَانِ الْعَقْلِ، وَوَقَّفَ إِدْرَاكُهُمْ عَلَى الْجِنْسِ الْعَالِيِّ السَّمَاوِيِّ بِنَحْوِ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى أَمْرِ النَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَوَجِبَ عَنْهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلْفَلَكِ نَفْسٌ وَعَقْلٌ كَمَا لِلْإِنْسَانِ. ثُمَّ أَتَتْهُ ذَلِكَ نَهَايَةُ عَدَدِ 5
الْأَحَادِ، وَهِيَ الْعَشْرُ، تَسْعُ مَفْصَلَةً ذَوَاتُهَا جُمْلٌ، وَوَاحِدٌ أَوَّلُ مَفْرَدٌ، وَهُوَ الْعَاشِرُ.

وَيَزْعُمُونَ أَنَّ السَّعَادَةَ فِي إِذْرَاكِ الْوُجُودِ عَلَى هَذَا التَّحَوُّلِ مِنَ الْقَضَاءِ، مَعَ تَهْدِيبِ النَّفْسِ وَتَحْلُفِهَا بِالْقَضَائِلِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُمْكِنٌ لِلْإِنْسَانِ وَلَوْ لَمْ يَدْرِ شَرْعٌ، لَتَفْصِيحُهُ بَيْنَ الْفَضِيلَةِ وَالزُّدِيلَةِ مِنَ الْأَفْعَالِ بِمُقْتَضَى عَقْلِهِ وَنَظَرِهِ، وَ[مِثْلِهِ] ^(ب) إِلَى الْمَحْمُودِ مِنْهَا، وَاجْتِنَابِهِ لِلْمَذْمُومِ بِفِطْرَتِهِ. وَأَنَّ ذَلِكَ إِذَا خَضَلَ لِلنَّفْسِ، خَضَلَتْ لَهَا الْهَيْجَةُ وَاللَّذَّةُ، 10
وَأَنَّ الْجَهْلَ بِذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ السَّرْمَدُ؛ وَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ مَعْنَى التَّعَمُّدِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، إِلَى خُبَايِطِهِمْ فِي [تَفْصِيلِ] ^(ج) ذَلِكَ مَعْرُوفٍ مِنْ كَلِمَاتِهِمْ.

وَأَمَّا هَذِهِ الْمَذَاهِبُ الَّتِي خَضَلَ مَسَائِلُهَا، وَدَوَّنَ عِلْمُهَا، وَسَطَرَ جِجَاجُهَا فِيمَا بَلَّغْنَا فِي هَذِهِ الْأَحْقَابِ، هُوَ أَرِسْطُو الْمَقْدُونِيُّ، مِنْ أَهْلِ مَقْدُونِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ، 15
مَنْ يَتْلَمِذُ أَفْلَاطُونٍ. وَهُوَ مُعَلِّمُ الْإِسْكَانْدَرِ، وَيُسَمُّونَهُ الْمَعْلَمَ الْأَوَّلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. يَغْنُونُ مُعَلِّمُ صِنَاعَةِ الْمَنْطِقِ، إِذْ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مَهْدَبَةً. وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَتَّبَ قَانُونَهَا،

(أ) ط ج ي: بوجود (ب) ط: مظهر (ج) سقط من ط، وفي ج: تفصيل ثم شطبا وكب ما ابتداء في الحاشية بخطه، ومثله في ح ي .

واستَوْفَى مسائلها، وأحسنَ بَسْطَها. ولقد أحسنَ في^(١) ذلك القانون ما شاء، لو تكفلَ له بقضدِهم في الإلهيات.

/ ثم كان من بعده في الإسلام من أخذَ بتلك المذاهب وأتبعَ فيها رأيه حَذُو [١371] التعلُّ بالتعلُّ إلّا في القليل. وذلك أنَّ كُتُبَ أولئك المتقدمين، لما تَرَجَّعَها الخلفاء من 5 بَيِّ القَباس من اللسان اليونانيّ إلى اللسان العربيّ، تَصَفَّحَها كثيرٌ من أهلِ المِلَّة، وأخذَ بمذاهبهم من أَضَلَّه اللهُ من مُتَتَجَلِّي العلوم، وجاذلوا عنها، واختلفوا في مسائلٍ من تَفاريعها. وكان من أشهرهم أبو نُصْر الفارابيّ في المائة الرابعة لعهدِ سَيْفِ الدَّولة، وأبو عليّ ابنِ سينا في المائة الخامسة لعهدِ بَيِّ بُوَيَّه بأضْهان، وغيرهما.

واعلمَ أنَّ هذا الرَّأيَ الَّذِي ذهبوا إليه باطلٌ بجميعِ وجوهه؛ فأما إسنادُهم 10 الموجودات كُلِّها إلى العَقْلِ الأوَّل، واكتفاؤهم به في التَّرَقِّي إلى الواجب، فهو قُصُورٌ عَمَّا وراءَ ذلك من رُتَبِ خَلْقِ اللهِ. فالوجودُ أوسعُ نطاقاً من ذلك، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة التَّحَلُّ، من الآية 8]. وكانهم في إقتصارِهم على إثباتِ العَقْلِ فقط والغفلةِ عَمَّا وراءه، بمنابِةِ الطَّبِيعِيِّينِ المُقْتَصِرِينَ على إثباتِ الأجسامِ خاصَّةً، المُغْرِضِينَ عن النَّفسِ والعَقْلِ، المُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ لَيْسَ وراءَ الجِسْمِ في حِكْمَةِ الوجودِ 15 شيءٌ.

وأما البراهينَ الَّتِي يَزْعُمُونَهَا على مُدَّعِيائِهِم في المَوْجُوداتِ، ويغْرِضُونَهَا على مِغْيَارِ المنطقِ وقانونه، فَهِيَ قاصِرةٌ وغيرُ وافيةٍ بالغرَضِ.

(١) سقط من ع .

أما ما كان منها في الموجودات الجسدية، ويُسمونه العلم الطبيعي، فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تُستخرج بالحدود والأقيسة، كما في زعمهم، وبين ما في الخارج، غير يقيني. لأن تلك أحكام ذهنية كلها عامة، والموجودات الخارجية متشخصة بموادها. ولعل في المواد ما [يمنع]^(أ) من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي. اللهم إلا ما يشهد [له الجس]^(ب) من ذلك، 5 فدليله شهوده، لا تلك البراهين. فإين اليقين الذي يجدونه / فيها؟ [371ب]

وربما يكون تصرف الذهني أيضاً في المقولات الأول، المطابقة للشخصيات بالصور الخيالية التي تجريدها في الرتبة الثانية، فيكون الحكم حينئذ يقينياً بمثابة الحسوسات، إذ المقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها، فنسلم لهم حينئذ دعاوتهم في ذلك. إلا أنه ينبغي لنا الإغراض عن النظر فيها، 10 هو من ترك المسلم لما لا يغييه. فإن مسائل الطبيعيات لا تهتمنا في ديننا ولا معاشينا. فوجب علينا تركها.

وأما ما كان منها في الموجودات التي وراء الجس، وهي الروحانية، ويُسمونه العلم^(ج) الإلهي، وعلم ما بعد الطبيعة، فإن ذواتها بمهولة رأساً، ولا يمكن التوصل إليها ولا البرهان عليها. لأن تجريد المقولات من الموجودات الخارجية الشخصية إنما 15 هو ممكن فيما هو مذكّر لنا بالجس، فتنتزع منه الكليات. ونحن لا نذكر الذوات الروحانية حتى نجرد منها ماهيات أخرى، لحجاب الجس بيننا وبينها. فلا يتأني لنا

(أ) كذا في ع ج ي، وفي ظ: يصنع (ب) سقط الأول من ظ، وأبدل فيه الجس بالحسنى (ج) سقط من ج .

برهاناً عليها، ولا مُدركَ لنا في إثبات وجودها على الجُفلة إلا ما نَحْدُهُ بين جَنِينِنا من أَمْرِ النَّفْسِ الإنْسَانِيَّةِ وأحوالِ مَدَارِكِها، وَخُصُوصاً في الرُّؤْيَا الَّتِي هي وَجْدَانِيَّةٌ لكلِّ أَحَدٍ. وما وراءَ ذلك من حَقِيقَتِها وَصِفَاتِها، فَأَمْرٌ غَامِضٌ لا سَبِيلَ إلى الوُقُوفِ عَلَيْهِ. وَلَقَدْ صَرَّحَ بِذلك مُحَقِّقُوهم ، حيثُ ذَهَبُوا إلى أَنَّ ما لا مَادَّةَ لَهُ ، فلا يُمَكِّنُ البُرْهَانَ عَلَيْهِ، لِأَنَّ مَقْدَمَاتِ البُرْهَانِ من شَرْطِها أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةً. وقال كَبِيرُهُم أَفلاطون:

5 إِنَّ الإِلَهِيَّاتِ لا يَوْصَلُ فِيها إلى يَقِينٍ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِيها بِالْأَخْلَقِ والأَوَّلَى، يَغْنِي الظَّنَّ. وَإِذَا كُنَّا إِنَّمَا⁽¹⁾ نَخْصُلُ بَعْدَ التَّعَبِ والتَّضَبُّعِ عَلَى الظَّنِّ فَقَطْ ، فَيَكْفِينَا الظَّنَّ الَّذِي كانَ أَوَّلاً ، فَأَيُّ فائِدَةٍ لِهَذِهِ العُلُومِ والاسْتِغْثَالِ بِها؟ وَنَحْنُ إِنَّمَا عَيْنَانَا / بِتَخْصِيلِ [372] اليَقِينِ فيما وراءَ الحِسِّ من المَوْجُودَاتِ، وَهَذِهِ هي غَايَةُ الأفكارِ الإنْسَانِيَّةِ عِنْدَهُم.

10 وَأَمَّا قَوْلُهُم: إِنَّ السَّعَادَةَ في إِذْرَاكِ الوجودِ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ بِتِلْكَ البراهينِ، فَقَوْلٌ مَزِيَّعٌ مَزْدُودٌ. وَتَفْسِيرُهُ أَنَّ الإنسانَ مَرْكَبٌ من جُزْءَيْنِ، أَحَدُهُما جِسْمَانِيٌّ، والآخرُ رُوحَانِيٌّ مُفْتَرَجٌ بِهِ. وَلِكُلِّ واحدٍ من الجُزْءَيْنِ مَدَارِكٌ مَخْصُصَةٌ بِهِ. والمُدْرِكُ فِيها واحدٌ، وَهُوَ الجُزْءُ الرُّوحَانِيُّ، يُدْرِكُ نَارَةَ مَدَارِكِ رُوحَانِيَّةٍ، وَنَارَةَ مَدَارِكِ جِسْمَانِيَّةٍ. إِلَّا أَنَّ المَدَارِكِ الرُّوحَانِيَّةَ يُدْرِكُها بِذَاتِهِ بِغَيْرِ واسِطَةٍ، والمَدَارِكِ الجِسْمَانِيَّةَ بِواسِطَةِ آلاَتِ الجِسْمِ، من الدِّماغِ والحَوَاشِ.

15

وَكُلُّ مُدْرِكٍ فَلَهُ اِبْتِهَاجٌ بما يُدْرِكُهُ. واعتَبَرُهُ بِحالِ الصَّبِيِّ في أَوَّلِ مَدَارِكِهِ الجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي هي بِواسِطَةٍ، كَيْفَ يَنْتَهِجُ بما يُبْصِرُهُ مِنَ الصَّوْنِ، وَمَا يَسْمَعُهُ من

(1) فوقها في ع كلمة ضرب .

الأضواء. فلا شك أن الاحتياج بالإدراك الذي للتئس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد وألذ⁽¹⁾. فالتئس الروحانيّة إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها احتياج ولذة لا يعبر عنها. وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم، وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانيّة بالجفلة.

- 5 والمتصوفة كثيراً ما يغنون بحصول هذا الإدراك للتئس بحصول هذه النجوة، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى الجسمانيّة ومداركها، حتى الفكر من الدماغ، ليحصل للتئس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغِب والموانع الجسمانيّة، فتخلص لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها. وهذا الذي زعموه، بتقدير صحته، مُستلّم لهم. وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم.

- 10 فأمّا قولهم: إن البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والاحتياج عنه، فباطل، كما رأيته. إذ البراهين والأدلة/ من جملة المدارك الجسمانيّة، [372ب] لأنها بالقوى الدماغيّة من الخيال والفكر والذكر. ونحن أول شيء نعتى به في تحصيل هذا الإدراك إماتة هذه القوى الدماغيّة كلّها، لأنها منازعة له، قاذرة فيه. وتجذ الماهر منهم عاكفاً على كتاب الشفاء، والإشارات، والتجاة، وتلاخيص ابن رشد للنص، من تأليف أرسطو، وغيره، يُغيّر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتئس 15 هذا القسطنطين من السعادة بئنها، ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها. ومُسندهم في ذلك ما ينقلونه عن أرسطو والفارابي وابن سينا: أن من حصل له

(1) ج: وآكد.

إدراكُ العقلِ الفعّالِ [وواصل به في حياته الدّنيا، فقد حصل على حظه من السّعادةِ. والعقلُ الفعّالُ^(أ) عندهم عبارةٌ عن أوّل زُبّةٍ ينكشف عنها الجس من رُتبِ الروحانيّات، ويحملون الاتّصالَ بالعقلِ الفعّالِ على الإدراكِ العِلْمِيّ، وقد رأيتُ فسادَهُ، وإنّما يعني أرسطو وأصحابه - بذلك الاتّصالَ والإدراكَ - إدراكَ النَّفسِ الَّذي لها من ذاتها وبغير واسطةٍ. وهو لا يُحصل إلّا بكشف حجاب الجس.

وأما قولهم: إنّ البهجةَ النَّاشئةَ عن هذا الإدراكِ هي عَيْنُ السّعادةِ الموعودِ بها، فباطلٌ أيضاً، لأنّنا إنّما تبيّن لنا بما قرّروه، أنّ وزاءَ الجس مُدركاً آخرَ للنفس من غير واسطةٍ، وأنّها^(ب) تبتّج بإذراكها ذلك ابتهاجاً شديداً. وذلك لا يَعيّن لنا أنّه عَيْنُ السّعادةِ الأخرويّةِ ولا بُدّ، بل هي من جُملةِ الملائدِ الّتي لتلك السّعادةِ. وأما قولهم: إنّ السّعادةَ في إدراك هذه الموجوداتِ على ما هي عليه، فقولٌ باطل، [مبنيٌّ]^(ج) على ما كنا قدّمناه في أضلّ التوحيد من الأوهام^(د) والأغلاطِ في أنّ الوجودَ عند كلّ مُدركٍ مُنحصِرٌ في مداركه، وبيّنا فسادَ ذلك، وأنّ الوجودَ أوسعُ من أن يُحاطَ به أو يُستوفى إدراكُه بجُمليّتهِ روحانيّاً أو جسديّاً.

والَّذي يحصل من جميع ما قرّناه من مذاهبهم، أنّ الجزءَ الرّوحانيّ إذا فارق القوى الجسديّةَ، أدرك إدراكاً ذاتياً له مُختصّاً بصنف من / المدارك، وهي^[1373] الموجوداتُ الّتي أحاط بها علّمنا، وليس بعامّ الإدراكِ في الموجوداتِ كلّها، إذ لم تنخصر، وآته يبتّج بذلك التحو من الإدراكِ ابتهاجاً شديداً كما يبتّج الصبيُّ بمداركه

(أ) سبط من ظ (ب) من ع ي، وفي ط ج: وإنّا (ج) سبط من ظ (د) ط: الإلهام .

الجنسية في أوّل نشوئه⁽¹⁾. ومن لنا بعد ذلك بإدراك جميع الموجودات أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع إن لم نعمل لها؟ ﴿هَيَّاتْ هَيَّاتْ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [سورة المؤمن، من الآية 36].

وأما قولهم: إن الإنسان مستقلٌ بهتدب نفسه وإصلاحها بملازمة الحمود من الخلق ومُجَانِبَةِ المذموم ، فأمرٌ مَبْنِيٌّ على أَنَّ ابتهاج النفس بإدراكها الذي لها من ذاتها هو عَيْنُ السَّعَادَةِ الموعود بها. لأنَّ الرذائلَ عَائِقَةٌ للنفس عن تمام إدراكها ذلك بما يَحْصُلُ لها من المَلَكَّاتِ الجَسَمِيَّةِ وَالْوَانِيَا.

وقد يَبَيِّنُ أَنَّ أثرَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ من وَزَاءِ الإِدْرَاكِاتِ الجَسَمِيَّةِ وَالرُّوحَانِيَّةِ. فهذا التَّهْدِيبُ الَّذِي تَوَصَّلُوا إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، إِنَّمَا تَقَعُ فِي الْبَهْجَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الإِدْرَاكِ الرُّوحَانِيِّ فَقَطْ ، الَّذِي هُوَ عَلَى مَقَاسٍ وَقَوَانِينٍ . وَأَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي وَعَدَ بِهَا الشَّارِعُ عَلَى امْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَأَمْرٌ لَا تُحِيطُ بِهِ مَدَارِكُ الْمَذْرُوكِينَ.

وقد تَبَيَّنَ لِنَاكَ زَعْمُهُمْ أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ سِينَا ، فَقَالَ فِي كِتَابِ الْمَبْدِ وَالْمَعَادِ⁽¹⁾ ، لَهُ (ب) ، مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ الْمَعَادَ الرُّوحَانِيَّ وَأَحْوَالَهُ هُوَ مِمَّا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَقَاسِ ، لِأَنَّهُ عَلَى نِسْبَةِ طَبِيعَتِهِ مَحْفُوظَةٌ وَتَوَرُّدٌ وَاحِدٌ ، فَلَنَا فِي الْبَرَاهِينِ عَلَيْهِ 15 سَعَةً. وَأَمَّا الْمَعَادُ الْجَسَمِيَّ وَأَحْوَالَهُ ، فَلَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ بِالْبُرْهَانِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى نِسْبَةِ

(1) ع: نشوئه (ب) من ع، وسقط من ط ج ي .

(1) رسالة أخصوية في أمر المعاد 36 -

واحدة. وقد بَسَطَته لنا الشريعة الحقّة المحمّديّة ، فليُنظر فيها ولنزجّع في أحواله إليها.

فهذا العلم، كما رأيته، غير واف بمقاصدهم التي حوّموا عليها، مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها. ولنس له فيما علّنا إلّا • ثمرة واحدة، وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلّة / والججاج، لتخصل •⁽¹⁾ [ملكّة الجودة والصواب في البراهين]^(ب). [373ب]

وذلك أنّ نظّم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان، هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية. وهم كثيراً ما يستعملونها في علومهم الحكيمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها^(ج)، فيستولي التاظر فيها بكثرة استعمال^(د) البراهين بشروطها على ملكة الإنسان والصواب في الججاج والاستدلالات ، لأنها ، وإن كانت غير وافية بمقصودهم، فهي أصحّ ما علّفناه من قوانين الأنظار [هذه]^(هـ).

هذه هي ثمرة هذه الصناعة، مع الاطلاع على مذاهب أهل العالم وآرائهم؛ ومضارّها ما علمت. فليكن التاظر فيها متحرّزاً مخدّة من معاطيها، وليكن نظرها ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيّات والاطلاع على التفسير والفقه. ولا يكبّن أحدٌ عليها وهو خلّو من علوم المِلّة، فقلّ أن يسلم كذلك^(و) من معاطيها.

والله الموقف للحقّ والهادي إليه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوَلَاءَ أَنْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ [سورة الأعراف، من الآية 43].

(أ) سقط ما بين التميمين من ي (ب) وردت هذه الفقرة في ي مضطربة ومتناخلة حسب ما يلي، وبها تقديم وتأخير وتكرار: "إلا ملكة الجودة، والصواب في البراهين في ترتيب الأدلة والججاج لتحصل ملكة الجودة والصواب في البراهين وذلك" (ج) ج ي: بعدها (د) سقط من ي (هـ) من، ع ج ي (و) ي: لذلك .

32 • فصلٌ، في إبطالِ صناعةِ النجومِ وضعفِ مدامِكها وفسادِ غايَتها

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها، من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية، مفردة ومُجمعة. فتكون لذلك أوضاعُ الأفلاك والكواكب ذالة على ما سيحدث من نوع نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية.

5

فالمقدمون منهم يزعمون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيرها بالتجربة، وهو أمر تُضَرُّ الأعمار كلها عن تحصيله لو اجتمعت. إذ التجربة إنما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن. وأدوار الكواكب منها ما هو طويل الزمن، فيحتاج تكرره إلى آحاد وأحقاب متطاولة تنقاصر عنها أعمار العالم.

وربما ذهب ضعفاء منهم إلى أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها كانت بالوحي، وهو / رأي فائل، وقد كنونا مؤونة إبطاله. ومن أوضح الأدلة فيه، أن تعلم أن [374] الأنبياء، عليهم السلام، أبعد الناس عن الصنائع، وأنهم لا يتعرضون للإخبار بالغيب إلا أن يكون عن الله، فكيف يدعون استنباطه بالصناعة، ويشرعون ذلك لمقتبعيهم من الخلق؟

15 وأما بطلانيوس ومن تبعه من المتأخرين، فيزعمون أن دلالة الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات العنصرية. قال: لأن فعل النيران وأثرها في العنصرات ظاهرة لا يسع أحدا جرده، مثل فعل الشمس في

تَبْدُلُ الفُصولَ وأَمزَجَتِها، وَنَضَجَ الثَّارَ وَالزَّرْعَ، وَغَيَّرَ ذلكَ، وفعلَ القَمَرِ في الرُّطوباتِ والماءِ، وإنضاجِ الموادِّ المتَغَفَّةِ وفواكِه القِثَاءِ، وسائرِ أفعاله.

ثم قال: ولنا فيما بعدهما من الكواكب طريقان، الأولي: التقليد لمن قيل ذلك عنه من أئمة الصناعات، إلا أنه غير مقنع للنفس. الثانية: الحُدُس والتجربة بقياس كل واحد منها إلى التأثير الأعظم الذي عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة. فننظر: هل يريد 5 ذلك الكوكب عند البَران في قُوته ومزاجه، فنعرف موافقته في الطبيعة، أو ينقص منها، فنعرف مضادته؟ ثم إذا عرفنا قواها مفردة، عرفناها مركبة. وذلك عند تفاعلها بأشكال التثليث والتربيع وغيرها، ومعرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس أيضاً إلى التأثير الأعظم.

10 وإذا عرفنا قوى الكواكب كلها، فهي مؤثرة في الهواء، وذلك ظاهر. والمزاج الذي يحصل منها للهواء يحصل لما تحته من المولدات، وتخلق به التطف والبرز، فيصير حالاً للبدن المتكون عنها، وللتنفس المتعلقة به، الفايضة عليه، المتكسبة كمالها منه، ولما يتبع النفس والبدن من الأخوال. لأن كفيات البرز والتطف كفيات لما يتولد عنها وينشأ منها.

15 قال: وهو مع ذلك / ظني، وليس من اليقين في شيء، وليس هو أيضاً من القضاء الإلهي، يعني القدر، إنما هو من جملة الأسباب الطبيعية للكائن، والقضاء الإلهي سابق على كل شيء.

هذا محصل كلام بطلانيوس وأصحابه. وهو منصوص في كتابه الأنعم وغيره.

ومنه تَبَيَّنَ ضَعْفُ مُذْرِكِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ بِالْكَائِنِ ^(أ) أَوْ الظَّنَّ بِهِ إِنَّمَا يَحْصُلُ عَنِ الْعِلْمِ بِجُمْلَةِ أَسْبَابِهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَالْقَابِلِ وَالصَّوَرَةِ وَالْغَايَةِ، عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ. وَالْقُوَى التَّجْوِمِيَّةُ، عَلَى مَا قَرَّرُوهُ، إِنَّمَا هِيَ فَاعِلَةٌ فَقَطْ. وَالْجُزْءُ الْعُنْصُرِيُّ هُوَ الْقَابِلُ. ثُمَّ إِنَّ الْقُوَى التَّجْوِمِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْفَاعِلُ بِجُمْلَتِهِ، بَلْ هُنَاكَ قُوَى أُخْرَى فَاعِلَةٌ مَعَهَا فِي الْجُزْءِ الْمَادِّيِّ، مِثْلُ قُوَّةِ التَّوْلِيدِ لِلْأَبِّ، وَالتَّوَعُّعِ الَّتِي فِي الثُّفُفَةِ، وَقُوَى ^(ب) 5 الْخَاصَّةِ الَّتِي تُمَيِّزُهَا صِنْفٌ [صِنْفٌ] ^(ب) مِنَ التَّوَعُّعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. فَالْقُوَى التَّجْوِمِيَّةُ إِذَا حَصَلَتْ عَلَى كَمَالِهَا وَحَصَلَ الْعِلْمُ بِهَا إِنَّمَا هِيَ فَاعِلٌ وَاحِدٌ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الْفَاعِلَةِ لِلْكَائِنِ.

ثُمَّ إِنَّمَا يُشْتَرَطُ، مَعَ الْعِلْمِ بِقُوَى التَّجْوِمِ وَتَأْثِيرَاتِهَا، مَزِيدٌ حَدِيثٌ وَتَحْمِينٌ، حِينَئِذٍ يَحْصُلُ عِنْدَهُ الظَّنُّ بِوُقُوعِ الْكَائِنِ. وَالْحَدْسُ وَالتَّخْمِينُ قُوَى لِلتَّاطُرِ فِي فِكْرِهِ، وَلَيْسَ ¹⁰ مِنْ عِلَلِ الْكَائِنِ وَلَا مِنْ أَشْبَاهِهِ. فَإِذَا قُفِدَ هَذَا الْحَدْسُ وَالتَّخْمِينُ، رَجَعَتْ أَذْرَاجُهَا عَنِ الظَّنِّ إِلَى الشَّكِّ.

هَذَا إِذَا حَصَلَ الْعِلْمُ بِالْقُوَى التَّجْوِمِيَّةِ عَلَى سَدَائِهِ، وَلَمْ تَقْتَرِضْهُ آفَةٌ. وَهَذَا مُغْفُورٌ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ حُسْبَانَاتِ الْكَوَاكِبِ فِي سَيْرِهَا لِتَتَعَرَّفَ بِهِ أَوْضَاعُهَا، وَلِمَا أَنَّ اخْتِصَاصَ كُلِّ كَوْكَبٍ بِقُوَّةٍ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ. وَمُذْرِكُ بَطْلَانِيوسَ فِي إِثْبَاتِ الْقُوَى ¹⁵ لِلْكَوَاكِبِ الْخَفِيسَةِ بِقِيَاسِهَا إِلَى الشَّمْسِ مُذْرِكٌ ضَعِيفٌ، لِأَنَّ قُوَّةَ الشَّمْسِ غَالِبَةٌ لِجَمِيعِ الْقُوَى مِنَ الْكَوَاكِبِ وَمُسْتَوَلِيَّةٌ عَلَيْهَا. فَقُلْنَا أَنَّ يُشْعَرُ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا أَوْ النِّقْصَانِ مِنْهَا

(أ) ي: الكائن (ب) من ع ج ي، وسقط من ظ .

عند المقارنة كما قال. وهذه كلها قاذحة في تعرف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة.

- ثم إن تأثير الكواكب فيما تحته باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله، بطريق استدلاي، كما رأيته، واحتج / له⁽¹⁾ أهل علم الكلام بما هو
- 5 غني عن البيان، من أن إسناد الأسباب إلى المستببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادئ الرأي من التأثير. فلعل استنادها على غير صورة بالتأثير^(ب) المتعارف. والقدرة الإلهية رابطة بينها كما ربطت جميع الكائنات علواً وسفلاً، سيما والشرع يردّ الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى، ويبرأ مما سوى ذلك.
- والتبوات أيضاً منكرة لشأن التجوم وتأثيراتها، واستقراء الشرعيات شاهد
- 10 بذلك، في مثل قوله⁽¹⁾: "إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته". وفي قوله⁽²⁾: "أصبح من عبادي مؤمن* بي وكافر بي. فأما من قال: ميطرنا بفضل الله وبرحمته، فذلك مؤمن* بي* (ج) كافر بالكوكب؛ وأما من قال: ميطرنا بنوء كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب". الحديث الصحيح.

(1) سقط من ج (ب) ط ي: التأثير، ج: صور التأثير (ج) سقط ما بين النجمين من ي .

(1) من حديث ابن عمر، رواء البخاري في صلاة الكسوف 2: 42 حديث (1042) وفي بدء الخلق 4: 131 حديث (3201) ومسلم في الصلاة (914) وله طرق أخرى من حديث غنبة بن عامر والمغيرة بن شعبة وعائشة وغيرهم .

(2) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه 1: 214 حديث (846) و 2: 41 حديث (1038) و 5: 155 (4147) و 9: 177 حديث (7503) ومسلم في الإيمان من صحيحه (71) .

فقد بان لك بطلانُ هذه الصّناعة من طريق الشّرع، وضَعُف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ⁽¹⁾ ما لها من المضارّ في الغُمران الإنسانيّ بما تبعثُ في عقائد العوامّ من الفسادِ ، إذا اتفق الصدّوق من أخكامها في بغض الأَحايين اتفاقاً لا يرجعُ إلى تَغْلِيلٍ ولا تحقيقٍ ، فيُلْهِجُ بذلك من لا معرفةَ لَهُ ، ويظُنُّ اطرادَ الصّدقي في سائر أخكامها. وليس كذلك. فيقع في رَدِّ الأشياء إلى غير خالِقها.

5

ثمّ ما ينشأ عنها كثيراً في الدُّول من توقُّع القواطع، وما يبعثُ عليه ذلك التَّوقُّع من تطاولِ الأغداء والمتربِّصين بالتَّوَلُّة إلى الفَنك والثَّوَرَة، وقد شاهدنا من ذلك كثيراً، فينبغي أن تُحْظَر هذه الصّناعةُ على جميع أهلي الغُمران، لما ينشأ عنها من المضارّ في الدِّين والدُّول.

ولا يَدَّخُح في ذلك كَوْنُ وجودها طَبِيعِيّاً لِلْبَشَرِ بِمَقْتَضَى مداركهم وعلومهم. 10
فالخيرُ والشرُّ طَبِيعَتَانِ في العالَمِ، موجودَتَانِ، لا يُمكنُ نَزْعُهما. وإنَّما يتعلَّق التَّكْلِيفُ / بِأَسْبَابِ حُصُولِهَا، فيَتَعَيَّنُ السَّغْيُ في اكْتِسَابِ الْخَيْرِ بِأَسْبَابِهِ، وَدَفْعُ أَسْبَابِ الشَّرِّ (ب375)
والمضارّ. وهذا هو الواجِبُ على من عَرَفَ مَفسَدَ هذا العلمِ وَمَضارَّهُ.

ولتغلّم من ذلك، أنّها وإن كانت صحيحةً في نفسها، فلا يُمكنُ أحداً من أهل
الْأُمَّةِ تحصيلَ عِلْمِها ولا مَلَكَهَا، بل إنْ نَظَرَ فِيهَا نَاطِرٌ وَظَنَّ بِهَا الإِحَاطَةَ فَهُوَ فِي غَايَةِ
القُصُورِ في نَفْسِ الْأَمْرِ. فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ لَمَّا حَظَرَتْ التَّنَظَّرَ فِيهَا فَقَدَ الْاجْتِمَاعُ مِنْ أَهْلِ
الْغُمرانِ لِقَرَاءَتِهَا وَالتَّخْلِيقَ لَتَعْلِيمِهَا، وَصَارَ الْمَوْلَعُ بِهَا مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ الْأَقْلُ وَأَقْلُ مِنْ

15

(1) سقط من ج .

الأقل، إِنَّا يُطَالَعُ كَتَبُهَا ومقالاتها في كِبَرِ بَيْتِهِ، مُنْشَرّاً عن الناس، وتحت رِقْبَةٍ من الجمهور، مع تشعب الصناعة وكثرة فُرُوعِهَا واغتيابها على الفهم؛ فكيف يحصل منها على طائِل؟! ونحن نَجِدُ الفَقْهَ الَّذِي عَمَّ نَفْعُهُ دِيناً وَدُنْيَا، وسهلت ماخِذُهُ من الكتاب والسنة المتداوِلَة، وعكف الجمهور على قراءته وتعلّمه، ثم بعد التخليق والتّجميع 5 وطول المُدَارَسَةِ وكثرة المجالس وتعدّيها، فَإِنَّا نَجِدُ فِيهِ الواحدَ بعد الواحد في الأغصار والأجيال. فكيف بعلم مهجورٍ للشرِعة، مضروبٍ دونَه سُدُّ الحَظَرِ والتّحرِيم، مكتومٍ عن الجمهور، صعبُ المآخذ، محتاجٌ بعد المآزسة والتّحصيل لأصوله وفُرُوعه إلى مزيدٍ خَديسٍ وتخمينٍ يكتنِفان به من التّأخير، فأين التّحصيلُ والجِدْقُ فيه مع هذه كلّها؟ ومدّعي ذلك من الناس مردودٌ على عَقْبِهِ، ولا شاهدَ له 10 يقوم بذلك، لغرابَةِ الفَرْقِ بين أهلِ المِلَّةِ وَقَلَّةِ حَمَلَتِهِ. فاعتبرْ ذلك تَبَيُّنٌ صَحَّةَ ما ذهبنا إليه. والله ﴿عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى عَذَابِهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن، الآية 26].

ومما وقع في هذا المعنى لبغض أصحابنا من أهل الغُصْرِ، عندما غلب العربُ عساكرُ السُلطان أبي الحُسن، وحاصروه بالقيروان، وكثُر إرجافُ الفريقين، الأولياء والأعداء، فقال / في ذلك أبو القاسم الرَّحَوِيُّ، من شعراء أهل تونس: [من مُخَلِّع البسيط] [1 376]

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ حِينٍ قَدْ ذَهَبَ الْعَيْشُ وَالْهَنَاءُ
أُضْبِحَ فِي تُونِسَ وَأَمْسَى وَالصُّبْحُ لِلَّهِ وَالْمَسَاءُ
الْخَوْفُ وَالْجِسْعُ وَالْمَنَايَا يَحْتَنُّهَا الْهَزَجُ وَالْوَبَاءُ

15

	والناس في ميزية وحزب	وما عسى ينفع الميزاء؟
	فأحمدي عرى علياً	حلّ به الهلك والتواء
	وآخرّ قال سوف تأتي	به إليكم صبا زهاء
	والله من فوق ذا وهذا	يقضي لعبيده ما يشاء
5	يا راصدي الخئس الجوّاري	ما فعلت هذه السماء؟
	مظلمونا وقد زعمتم	أنكم اليوم أملياء!
	مرّ خميس على خميس	وجاء سبت وأنباء
	ونصف شهر وعشر ثان	وثالث ضمّه انقضاء ⁽¹⁾
	ولا ترى غير زور قول	أذاك جمّل أم ازدراء؟
10	إنا إلى الله قد علّنا	أن ليس يستدفع القضاء
	رضيت بالله لي إلهاً	حسنكم البدر أو دكاء
	ما هذه الأنجم السوّاري	إلا عباديد أو إماء
	يقضى عليها وليس تقضي	وما لها في الورى اقتضاء
	ضلت عقول ترى قديماً	ما شأنه الخزم والفناء
15	وحكمت في الوجود طبعاً	يُحدّثه الماء والهواء
	لم تر خلوا إزاء مرّ	يغذوهما نيرة وماء
	الله ربي ولنست أذري	ما الجوهر القزذ والحلاء
	ولا الهوى التي ثادي	ما لي عن صورة غراء

(1) ي: القضاء .

/ ولا وُجودٌ ولا انعدامٌ
 ولستُ أذري ما الكَسْبُ إلا
 وإنَّما مَذْهَبِي وديني
 إذ لا [فُصولٌ] ⁽¹⁾ ولا أُصولٌ
 ما تَبَعَ الصَّدْرُ والبقايا
 كانوا كما تَعَلَّمُونَ منهم
 يا أَشْعَرِي الزَّمانِ إني
 أنِّي أَجْزَى بالَشَرِّ شَرًّا
 وأتني إن أَكُنْ مُطِيعاً
 وأتني تحتَ حُكْمِ نارٍ
 ليسَ بأَسْطَارِكُمْ ولكن
 لو حَدَّثَ الْأَشْعَرِيَّ عَمَّنْ
 لَقَالَ: أَخْبِرْهُمْ بِأَنِّي
 ولا ثُبوتٌ ولا انقفاءٌ
 ما جَلَبَ البَيْعُ والشُّراءُ
 ما كانَ والتَّاسُ أَوْلِياءُ
 ولا جِدالٌ ولا اِزْتِفاءُ
 يا حَبِذا ذاكَ الْاِفْتِفاءُ
 ولم يَكُنْ ذلكَ الْهُراءُ
 أَشْعَرِي الضَّيْفُ والسَّتاءُ
 وَالْحَيَّرُ عن مِثْلِهِ جَزاءُ
 فُزْتُ، وَأَعْجِي وَلِي رِجاءُ
 أَطاعَهُ الْعَزْزُ والبَرَاءُ
 أَتاعَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضاءُ
 له إلى رَأْيِهِ انْسِئاءُ
 مِمَّا يَقُولُونَهُ بَرَاءُ

5

10

(1) ط: فصول .

33 • فصلٌ، في إنكارِ ثَمَرَةِ الكيمياءِ واستِحَالَةِ وجودِها، وما يَنشأُ
من المَفسَدِ عن انتِحَالِها

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَاجِزِينَ عَنْ مَعَايِشِهِمْ، تَحْمِلُهُمُ الْمَطَامِعُ عَلَى انْتِحَالِ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ، وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَحَدُ مَذَاهِبِ الْمَعَاشِ وَوُجُوهِهِ، وَأَنَّ اقْتِنَاءَ الْمَالِ مِنْهَا أَيْسَرُ
وَأَسْهَلُ عَلَى مُبْتَدِئِهِ. فَيَرْتَكِبُونَ فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْمَشَاقِّ وَمُعَانَاةِ الصَّعَابِ وَعُسْفِ 5
الْحُكَّامِ وَخَسَارَةِ الْأَمْوَالِ فِي التَّقَاتِ، زِيَادَةً إِلَى النِّيلِ مِنْ عِزْضِهِ وَالْعَطَبِ آخِرًا إِنْ
ظَهَرَ عَلَى خَبْنِهِ.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْيِيُونَ صُنْعًا﴾ [سورة الكهف، من الآية 104]. وإِنَّمَا
أَطْلَقَهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ ⁽¹⁾ رَأَوْا الْمَعَادِنَ تَنْتَحِيلُ وَتَقْلُبُ - بِالصَّنْعَةِ - بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ
لِلْمَادَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ، فَيُحَالِلُونَ بِالْعِلَاجِ صَيْرُورَةَ الْفِضَّةِ ذَهَبًا / وَالتَّحَايِصِ وَالْقَصْدِيرِ فِضَّةً، 10
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهَا مِنْ مُفَكِّبَاتِ عَالَمِ الطَّبِيعَةِ.

ولهم في علاج ذلك طُرُقٌ مُخْتَلِفَةٌ لِاخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ فِي التَّدْبِيرِ وَصُورَتِهِ، وَفِي
الْمَادَّةِ الْمَوْضُوعَةِ عَنْدهم لِلْعِلَاجِ، الْمُسَمَّاةِ عَنْدهم ^(ب) بِالْحَجَرِ الْمَكْرُمِ، هَلْ هِيَ الْعَذْرَةُ أَوْ
الْدُّمُ أَوْ الشَّعْرُ أَوْ الْبَيْضُ أَوْ كَذَا أَوْ كَذَا وَمِمَّا سَوَى ذَلِكَ؟

وَمِجْلَةٌ التَّدْبِيرِ عَنْدهم، بَعْدَ تَعْيِينِ الْمَادَّةِ، أَنْ تُفَهَى بِالْفَهْرِ عَلَى حَجَرٍ صَلْبٍ 15
أَمْلَسَ، وَتُسْقَى أَثْنَاءَ [إِمْهَانِهَا] ^(ج) بِالْمَاءِ بَعْدَ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ مَا
يُنَاسِبُ الْقَصْدَ مِنْهَا وَيُؤَثِّرُ فِي انْقِلَابِهَا إِلَى الْمَعْدَنِ الْمَطْلُوبِ، ثُمَّ تُجَفَّفُ بِالشَّمْسِ مِنْ

(1) من ج ي، وفي ط: أن (ب) من ج ي، وشطب في ع (ج) ع: إيهانها، ط: عنها .

بعد السقي، أو تُطَبَّخُ بالتار، أو تُصَعَّد، أو تُكَلَّس لاستخراج ماؤها أو ثرايها. فإذا رضي ذلك كله من علاجها، وتَمَّ تدبيره على ما افترضته أصولُ صَنَعَتِهِ، حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ تَرَابٌ أَوْ مَائِقٌ يُسَمَّوْنَهُ الْإَكْسِيرَ. وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ عَلَى الْفِصَّةِ الْحَمَاءِ بِالتَّارِ عَادَتْ ذَهَبًا، أَوْ التَّحَالِيسُ الْحَتَّى بِالتَّارِ عَادَ فِصَّةً، عَلَى حَسَبِ مَا قُصِدَ بِهِ فِي عَمَلِهِ.

5 وَيَزْعُمُ الْمُحَقِّقُونَ مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ الْإَكْسِيرَ مَادَّةٌ مَرْكَبَةٌ مِنَ الْعُنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ، حَصَلَ فِيهَا بِذَلِكَ الْعِلَاجِ الْخَاصِّ وَالتَّدْبِيرِ مِزَاجٌ وَقُوَى طَبِيعِيَّةٌ تَصْرِفُ مَا حَصَلَتْ فِيهِ إِلَيْهَا وَيَقِيلُهُ إِلَى صَوَرَتِهَا وَمِزَاجِهَا، وَيُبْتُثُ فِيهِ مَا حَصَلَ فِيهَا⁽¹⁾ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ وَالْقُوَى، كَالْخَمِيرَةِ لِلْخُبْزِ، قَلْبُ الْعَجِينِ إِلَى ذَاتِهَا، وَتَعْمَلُ فِيهِ مَا حَصَلَ لَهَا مِنَ الْإِنْقِشَاشِ وَالْهَاشَاشَةِ لِيُخَسَّنَ هَضْمُهُ فِي الْمَجْدَةِ وَيَسْتَحِيلَ سَرِيعًا إِلَى الْغِذَاءِ. وَكَذَا 10 إَكْسِيرُ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ فِيمَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْمَعَادِنِ، يَضْرِفُهُ إِلَيْهَا وَيَقِيلُهُ إِلَى صَوَرَتِهَا. هَذَا حَصَلَ زَعْمُهُمْ عَلَى الْجُمْلَةِ.

فَتَجِدُهُمْ عَاكِفِينَ عَلَى هَذَا الْعِلَاجِ، يَتَنَفَّوْنَ الرِّزْقَ وَالْمَعَاشَ فِيهِ، وَيَتَأَقَلُّونَ أَحْكَامَهُ وَقَوَاعِدَهُ مِنْ كُتُبِ أَيْمَةِ الصَّنَاعَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ، / يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَتَنَاطَرُونَ فِي [377ب] فَهْمِ لُغَوِزِهَا وَكُشْفِ أَسْرَارِهَا، إِذْ هِيَ فِي الْأَكْثَرِ تَنْشِيبُ الْمُفْعَى، كِتَوَالِيفُ جَابِرِ بْنِ حَيَّانَ فِي رِسَالَتِهِ السَّنْعَيْنِ، وَمَسْلَمَةُ الْمَخْرِيطِيِّ فِي كِتَابِ رُثِيَةِ الْحَكَمِ، وَالطُّغْفَرَايَ، 15 وَالْمُفَيْرِيَّ فِي قَصَائِدِهِ الْعَرِيقَةِ فِي إِجَادَةِ التَّنْظُمِ، وَأَمْثَالُهَا، وَلَا يَحْلُونَ مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ بِطَائِلٍ مِنْهَا.

(1) سقط من ي .

فاَوْضْتُ يوماً شيخنا أبا البركات البلقيني، كبير مشيخة الأندلس، في مثل ذلك، ووقَّعته على بعض التواليف فيها، فتَصَفَّحه طويلاً، ثم رَدَّه إليّ وقال لي: وأنا الضَّامِنُ [له] ^(١) أن لا يعودَ إلى نيتِه إلا بالْحَيَّةِ.

ثمَّ منهم من يقتصرُ في ذلك على الدُّلْسَةِ فقط، إمَّا الظَّاهِرَةُ، كتمويه الفضة بالذهب، أو التُّحَاسِ بالفضَّة، أو خَلَطَهما على نِسْبَةِ جزءٍ وجزءين أو ثلاثة، أو 5 الخَفِيَّةِ، كالقاء الشَّبَرِ بين المعادين، بالصَّنَاعَةِ مثل تَبْيِضِ التُّحَاسِ وتَلْيِينِهِ بِالزَّرْبِقِ ^(ب) المصعَّد، فيجِيءُ جِسْماً معدّيتاً شبيهاً بالفضَّة، ويخفى، إلا على التُّقَادِ المَهْرَةِ.

فَيَقْدِرُ أصحابُ هذه الدُّلْسِ من دُلْسَتِهِمْ هذه سَكَّةٌ يُسَرَّبُونَهَا في النَّاسِ وَيَطْبَعُونَهَا بطابعِ السُّلْطَانِ تَمَوِّهاً على الجُنُهورِ بالخلاصِ من الفِشِّ. وهؤلاءُ أحْسُ النَّاسِ جَزْفَةً، وأسوأهم عَاقِبَةً، لتَلْبِيسِهِمْ بِسَرِقَةِ أَمْوَالِ النَّاسِ. فَإِنَّ صَاحِبَ هذه 10 الدُّلْسَةِ إمَّا هو يَذْفَعُ نُحَاساً في الفِضَّةِ وَفِضَّةً في الذَّهَبِ، لِيَسْتَخْلِصَهَا لِنَفْسِهِ. فهو سَارِقٌ أو أَشْرُ ^(ج) من السَّارِقِ.

وَمُعْظَمُ هذا الصَّنِفِ لدينا بالمغرب من طَلَبَةِ الزَّيْتِ المُنْتَبِذِينَ بِأَطْرَافِ الْبِقَاعِ وَمَسَاكِينِ الْأَغْمَارِ، يَأْوُونَ إِلَى مَسَاجِدِ الْبَادِيَةِ، وَيُمَوِّهُونَ عَلَى الْأَغْيَاءِ ^(د) مِنْهُمْ بَأَنْ بَأْيِدِهِمْ صَنَاعَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَالتَّقْوُسُ مَوْلَعَةٌ [مَحَبَّهَا] ^(هـ) [وَأ] ^(و) الْإِسْتِهْلَاكِ فِي 15 [طَلَبِهَا] ^(ز)، فَيَحْصُلُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَعَاشٍ. ثُمَّ يَبْتَغِي ذَلِكَ عِنْدَهُمْ تَحْتَ الْخَوْفِ

(١) سقط من ظ (ب) من ظ ي ج، وفي ع: بالوق (ج) في ج: أشد (د) ج: الأغنياء (هـ) من ع ج ي، وفي ظ: بحبها (و) زيادة بقتضيا الزبط (ز) في ظ: طلبها.

وَالزُّهْدَ إِلَى أَنْ يَطَهَّرَ الْعَجْزَ وَتَقَ الْفَضِيحَةَ ، فَيَقُرَّ إِلَى مَكَانٍ / آخَرَ ، وَيَسْتَجِدُّ حَالاً [1378]
أُخْرَى فِي اسْتِهْوَاءِ بَعْضِ أَهْلِ الدُّنْيَا بِإِطَاعِهِمْ فِيمَا لَدَيْهِ . وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ فِي ابْتِغَاءِ
مَعَاشِهِمْ .

وهذا الصنف لا كلام معهم ، لأنهم بلغوا الغاية من الجهل والرداءة والاختلاف
5 بالسرقة ، ولا حاسم لعلهم إلا استدأ الحكام عليهم ، وتناولهم من حيث كانوا ، وقطع
أيديهم متى طُورَ على شأنهم . لأن فيه إفساداً للسكة التي تُعم بها البلوى ، وهي
مُتمول الناس كافة ؛ والسُلطان مكلف بإصلاحها والاختياط عليها والاستعداد على
مُفْسِدِهَا .

وأما من انتحل هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة ، بل استنكف عنها ونزه
10 نفسه عن إفساد سبكة المسلمين وسودهم ، وإنما يطلب إحالة الفضة إلى الذهب ،
والترصاص والتحاس والقصدير إلى الفضة ، بذلك النخو من العلاج والإكسير
الحاصل عنه ^(١) ، فلنا مع هؤلاء مُتَكَلِّمٌ وَبَحْثٌ فِي مَدَارِكِهِمْ لَنَلْكَ . مع أَنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ ^(ب)
أحداً من أهل العالم تَمَّ لَهُ هذا الغرض أو خَصَلَ مِنْهُ عَلَى بُغْيَةٍ . إِنَّمَا تَذْهَبُ أَعْمَارُهُمْ
فِي التَّدْبِيرِ وَالْفَهْرِ وَالصَّلَايَا وَالتَّضَعِيدِ وَالتَّكْلِيسِ وَاعْتِيَامِ الْأَخْطَارِ لِمَجْعِ الْعَقَائِرِ
15 وَالتَّبَحُّثِ عَنْهَا ، وَيَتَنَاقَلُونَ فِي ذَلِكَ حِكَايَاتٍ وَقَعَتْ لغيرهم مِمَّنْ تَمَّ لَهُ الْغَرَضُ مِنْهَا ، أَوْ
وَقَفَ عَلَى الْوُصُولِ ، يَقْتَنُونَ بِاسْتِئَاعِهَا وَالْمُفَاوَضَةِ فِيهَا ، وَلَا يَسْتَرَبِیُونَ فِي تَضْدِيقِهَا ،
شَأْنُ الْكَافِلِينَ الْمُغْزَمِينَ بِوَسَاوِسِ الْأَخْبَارِ فِيمَا يَكْلِفُونَ بِهِ . فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ تَحْقِيقِ

(١) ي : عنه (ب) سقط من ج .

ذلك بالمعانيّة ، أنكروه ، وقالوا : إنّنا سمعنا ولم نَر. هكذا شأنهم في كلّ عصرٍ وجيل.

واعلم أنّ انتحال هذه الصنعة قديمٌ في العالم، وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين والمتأخرين. فلننقل مذهبهم في ذلك، ثم نلوه بما يظهر لنا فيها من التحقيق الذي عليه الأمر في نفسه. * والله الموفق للصواب*^(١).

5

[378 ب] / فنقول : إنّ مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المتطرفة، وهي: الذهب، والفضة، والرصاص، والقصدير، وال نحاس، والحديد، والحارصيني، هل هي مختلفات بالفصول، وكلها أنواع قائمة بأنفسها، أو إنّها هي مختلفة بمواضع من الكيفيات ، وهي كلّها أصناف لنوع واحد؟ فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي ، وتابعه عليه حكماء الأندلس ، أنّها نوع واحد ، وأنّ اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة، واللين، والصلابة، والألوان، من الصفرة والبياض والسواد. وهي كلّها أصناف لذلك النوع الواحد.

10

والذي ذهب إليه ابن سينا، وتابعه عليه حكماء المشرق، أنّها مختلفة بالفصول، وأنّها أنواع متباينة، كلّ واحد منها قائم بنفسه، مُتحقّق بحقيقته، له فصلٌ وجنسٌ، شأن سائر الأنواع.

15

وبنى أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالتويع، إمكان انقلاب بعضها إلى بعض، لإمكان تبدل الأغراض حينئذٍ وعلاجها بالصنعة. فمن هذا الوجه، كانت

(١) سقط ما بين النجمين من ي .

صناعه الكيمياء عنده ممكنة سهلة^(١) المأخذ. وبني أبو علي ابن سينا على مذهبه في اختلافها بالتويع إنكار هذه الصنعة واستحالة وجودها، بناء على أن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه، وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها، وهو الله عز وجل. والفصول مجهولة الحقائق رأساً بالتصور، فكيف يحاول اقتلاؤها بالصنعة؟ وغلظه الطفرائي، 5 من أكبر أهل هذه الصنعة، في هذا القول، ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإنداعه، وإنما هو في إعداد المادة لقبوله خاصة. والفصل يأتي من بعد الإعداد من لدن خالقه وباريه، كما يقضي التور على الأجسام بالفصل والإنهاء، ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوّره ومعرفة.

قال: وإذا كنا قد عثرنا على تخليق بعض الحيوانات مع الجهل بفصولها، مثل 10 الغرير من التراب والتبن، ومثل الحيات المتكوّنة من الشجر، ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة في تكوين التحل إذا قُبِذَتْ من عجائيل البقر، وتكوين / القصب [١٣٧٩] من قرون ذوات الظلف وتصيره سكرياً بحشو القرون بالعسل بين يدي ذلك الفلح للقرن، فما المانع إذن من العثور على مثل ذلك في * المعادن؟ وهذا كله بالصناعة، وهي إنما موضوعها المادة. فيعدها التدبير والعلاج إلى قبول تلك الفصول، لا أكثر.

15 قال: فنحن نحاول مثل ذلك في * (ب) الذهب والفضة، فتتخذ مادة نضعها للتدبير، بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبول صورة الذهب والفضة، ثم نحاولها بالعلاج على أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها. انتهى كلام الطفرائي بمعناه.

(١) سقط من ج (ب) سقط ما بين الجمين من ي .

وهذا الذي ذكره في الردّ على ابن سينا صحيح، لكنّ لنا في الردّ على أهل الصنّاعة مأخذ آخر يتّبين منه استحالة وجودها وطلال مزمعهم أجمعين، لا الطغرائي ولا ابن سينا.

وذلك أنّ حاصل علاجهم، أنّهم بعد الوقوف على المادّة المستعدّة بالاستيفاد الأول، يجعلونها موضوعاً، ويحاذون في تديرها وعلاجها تدير الطّبيعة للجسم في المَعْدِن 5 حتّى إحالته ذهباً أو فضّة، ويضاعفون القوّة الفاعلة والمنفّعة ليتمّ في زمانٍ أقصر. لأنّه يتّبين في موضعه أنّ مضاعفة قوّة الفاعل تنقّص من زمن فعله، وتبيّن أنّ الذهب إنّما يتمّ كونه في مَعْدِنه بعد ألف وثمانين من السنين، دورة الشّمس الكبرى. فإذا تضاعفت القوّة والكيفيات^(أ) في العلاج، كان زمان كونه أقصر من ذلك ضرورة، على ما قلناه. [أو]^(ب) يتحرّزون بعلاجهم ذلك حصول صورة مراحبة لتلك المادّة 10 يصيرها كالحميرة، فتفعل في الجسم المعالج الأفاعيل المطلوبة في إحالته. وذلك هو الإسكندر، على ما تقدّم.

واعلم أنّ كلّ متكوّن من المولّدات العنصريّة، فلا بدّ فيه من اجتماع العناصر الأربعة وعلى نسبة متفاوتة، إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تمّ امتزاجها. فلا بدّ من الجزء الغالب على الكلّ. ولا بدّ في كلّ ممتزج من المولّدات من حرارة غريزيّة هي 15 الفاعلة لكونه، الحافظة / لصورته. ثمّ كلّ متكوّن في زمان، فلا بدّ من [اختلاف]^(ج) أطواره وانتقاله في زمن التكوّن من^(ج) طور^(د) إلى طور، حتّى ينتهي إلى غايته.

(أ) ح: الطّبيعيّات (ب) ط: و (ج) سقط من ط (د) سقط من ي .

واُنظر شأن الإنسان في طور الثُطفة، ثم العُلقة، ثم المُضغة، ثم التصوير، ثم الجنين، ثم المُولود، ثم الرضيع، ثم، إلى نهايته. ونسب الأجزاء في كل طور تختلِف مقاديرها وكيفياتها. وإلا لكان الطور بعينه الأول هو الآخر. وكذا الحرارة الغريزية في كل طور، مخالفة لها في الطور الآخر.

- 5 فانظر إلى الذهب ما يكون له في مَعْدِنِهِ من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين، وما ينتقل فيه من الأحوال، فيحتاج صاحب الكيمياء أن يساوق فعل الطبيعة في المعدن ومُحاذيةً بتدبيره وعلاجه إلى أن تتم. ومن شرط الصناعة أبداً تصوّر ما يقصّد إليه بالصنعة. فمن الأمثال السائرة في ذلك للحُكماء: أول العقل آخر الفكرة، وآخر الفكرة أول العمل. فلا بُدّ من تصوّر هذه الحالات للذهب في أحواله المتعدّدة ونسبها
- 10 المتفاوتة في كل طور، واختلاف الحارّ الغريزي عند اختلافها، ومقدار الزمان في كل طور، وما ينبو عنه من مقدار القوى المضاعفة ويقوم مقامه، حتّى يُحاذي بذلك كلّ فعل الطبيعة في المعدن، أو تُعدّ لبغض الموادّ صورةً مزاجيّةً تكون كصورة الخميرة للخبز، وتُفعل في هذه المادّة بالمناسبة لقواها ومقاديرها. وهذه كلّها إمّا يُحضّرُها العلم المحيط، والعلوم البشريّة فاصرةً عن ذلك. وإمّا حال من يدّعي
- 15 حُصوله على الذهب بهذه الصنعة، بمثابة من يدّعي - بالصنعة - تخليق إنسان من المنيّ. ونحن إذا سلّمنا له الإحاطة بأجزائه ونسبه وأطواره، وكيفية تخليقه في رجه، وعلم ذلك علماً مُحصّلاً بتفاصيله حتّى لا يشذّ منه شيء عن علمه، سلّمنا له تخليق هذا الإنسان. وأتى له ذلك؟!

ولتَقَرَّبَ هذا البرهانُ بالاختصارِ لِيسهُلَ فَهْمُهُ، فنقول: حاصلُ صناعةِ الكيمياءِ
 [١380] وما يُدْعَوْنُهُ بهذا التدبيرِ، أَنَّهُ مُساوِفُهُ الطَّبِيعَةُ المَعْدِنِيَّةُ بالفعلِ / الصَّانِعِيَّ وَمُحَادِثَهَا
 بِهِ، إِلَى أَنْ يَمَّ كَوْنَ الجِسْمِ المَعْدِنِيِّ، أَوْ تَخْلِيْقُ مَادَّةٍ بِقُوَى وَأَفْعَالٍ وَصُورَةٍ مُزَاجِيَّةٍ
 تَفْعَلُ فِي الجِسْمِ فِعْلاً طَبِيعِيّاً فَتُصَيِّرُهُ وَتَقْلِبُهُ إِلَى صُورَتِهَا. والفعلُ الصَّانِعِيُّ مُسَبِّقٌ
 بِتَصَوُّرَاتٍ أَحْوَالِ الطَّبِيعَةِ المَعْدِنِيَّةِ الَّتِي يَقْصُدُ مُساوِفَتَهَا وَمُحَادِثَهَا، أَوْ فِعْلُ المَادَّةِ
 ذَابَ القُوَى فِيهَا، تَصَوُّراً مُفْصِلاً وَاحِدةً بَعْدَ أُخْرَى. وتلكَ الْأَحْوَالُ لَا نِهَايَةَ لَهَا،
 والعِلْمُ البَشَرِيُّ عَاجِزٌ عَنِ الإِحَاطَةِ بِمَا دُونَهَا، وَهُوَ بِمَثَابَةِ مَنْ يَقْصِدُ تَخْلِيْقَ إِنْسَانٍ أَوْ
 حَيَوَانٍ أَوْ نَبَاتٍ. هَذَا مُخْصَلُ هَذَا الْبُرْهَانِ، وَهُوَ أَتَوْقُ مَا عَلِمْتُهُ. وَلَيْسَتْ الِاسْتِحَالَةُ
 فِيهِ مِنْ هِجَةِ الْفُضُولِ، كَمَا رَأَيْتُهُ، وَلَا مِنَ الطَّبِيعَةِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَعَذُّرِ الإِحَاطَةِ وَقُصُورِ
 الْبَشَرِ عَنْهَا. وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَيْنَا بِمَغْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ.

10

وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ فِي الِاسْتِحَالَةِ مِنْ هِجَةِ غَايَتِهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي
 الْحَجَرَيْنِ وَنُدُورِهِمَا، أَنَّهُمَا قِيَمٌ لِمَكَايِبِ النَّاسِ وَمُتَمَوِّلَاتِهِمْ. فَلَوْ خَصَلَ عَلَيْهَا بِالصَّنْعَةِ
 لَبْطَلَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ، وَكَثُرَ وَجُودُهَا حَتَّى لَا يَحْصُلَ أَحَدٌ مِنْ أَقْبَانِهَا عَلَى
 شَيْءٍ.

وَلَهُ وَجْهٌ آخَرٌ مِنَ الِاسْتِحَالَةِ أَيْضاً، وَهُوَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَتْرُكُ أَقْرَبَ الطَّرِيقِ
 فِي أَفْعَالِهَا وَتَرْتِيبِ الْأَغْوُصِّ وَالْأَبْعَدِ. فَلَوْ كَانَ هَذَا الطَّرِيقُ الصَّانِعِيُّ الَّذِي يَرْغَمُونَ
 أَنَّهُ صَحِيحٌ، وَأَنَّهُ أَقْرَبُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبِيعَةِ فِي مَعْدِنِهَا وَأَقْلَى زَمَاناً لَمَا تَرَكْنَاهُ الطَّبِيعَةَ
 إِلَى طَرِيقِهَا الَّذِي سَلَكَتْهُ فِي كَوْنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَتَخْلِيْقِهَا.

15

وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في
الطبيعية، كالغرب والتخل والحية وتخليتها، فأمر صحيح في هذه، أدنى إليه
العشور كما زعم. وأما الكيمياء، فلم يُنقل عن أحد من أهل العالم أنه عثر عليها
ولا على طريقها. وما زالَ منتجوها يُخْطَون فيها عشواء إلى هَلُم، ولا يظفرون إلا
5 بالحكايات الكاذبة. ولو صحَّ ذلك لأحدٍ منهم لحفظه عنه ولده أو تلميذه أو أصحابه
/ وتوفَّل في الأصدقاء، وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن يَنْتَشِرَ ويبلغ إلينا [380ب]
أو إلى غيرنا.

وأما قولهم: إنَّ الإكسير بمثابة الحميرة، وإنَّه مُرَكَّبٌ يحيلُ ما حصل فيه ويقلِّبه
إلى ذاته، فاعلم أنَّ الحميرة إنما تقلِّبُ العجين وتعدُّه للهضم، وهو فساد. والفساد في
10 الموادِّ سهَّل، يقعُ بأيسر شيءٍ من الأفعال والطبائع^(١). والمطلوبُ بالإكسير قلبُ
المعين إلى ما هو أشرفُ منه وأعلى، فهو تكوينٌ وصلاخٌ. والتكوينُ أصعبُ من
الفساد. فلا يقاس الإكسيرُ على الحميرة^(ب).

وتحقيقُ الأمر في ذلك، أنَّ الكيمياء، إن صحَّ وجودها كما يزعمُ الحكماء
المتكلمون فيها، مثل جابر بن حنَّان، ومسلمة بن أحمد المجريطي، وأمثالهم، فليس
15 من باب الصنائع الطبيعية، ولا تتمُّ بأمرٍ صناعيٍّ. وليس كلامهم فيها من منحنى
الطبيعات، إنما هو من منحنى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق، وما كان
من ذلك للخلاج وغيره. وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يُشبهه ذلك. وكلامه

(١) سقط من ج (ب) ي: بالحميرة.

فيها في كتاب رُؤية الحكيم من هذا المنحى، وكذا كلام جابر في رسائله. ونحو كلامهم فيه معروف، ولا حاجة بنا إلى شرحه.

وبالمجمل، فأمرها عندهم من كليات الموالد الخارجة عن حكم الصنائع. فكما لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشب أو حيوان فيما عدا مجزى تخليقه، كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر، ولا يتغير طريق عاذته 5
إلا بإزادٍ مما وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع. فلذلك من طلب الكيمياء طلباً صناعياً ضيع ماله وعمله، ويقال لهذا التدبير الصناعي: التدبير القميم، لأن ثيلها إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع. فهو كالمشي على الماء، وامتناء الهواء، والتفوذ في كفاف الأجساد، ونحو ذلك من كرامات الأولياء الخارقة للعادة، أو مثل تخليق الطير، ونحوها من معجزات الأنبياء. قال تعالى: ﴿أَنَّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ 10
الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ / طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، من الآية 49]. [381]

وعلى ذلك، فمسبيل تسييرها مختلف بحسب حال من يؤتاها. فربما أوتيتها الصالح، ولم يؤتها غيره فتكون عنده معارة. وربما أوتيتها الطاليع، ولا يملك إيتاءها فلا يتم في يد غيره. ومن هذا الباب يكون عملها سعيّاً.

(1) فقد تبين أنها إما تقع بتأثيرات النفس وخوارق العادة، إما معجزة أو كرامة 15
أو سعيّاً. ولهذا كان كلام الحكماء فيها إلغازاً، لا يظفر بتحقيقه إلا من خاض لجة من علوم السحرة، واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة (1).

(1) حاشية عليها بحقه في نسخة ع.

وأمرُ خُزُقِ العاذةِ غيرُ منحصرةٍ، ولا يقصدُ أحدٌ إلى تحصيلها. ﴿وَاللَّهُ يَمَّا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة الأنفال، من الآية 47].

وأكثرُ ما يحيلُ على التماسِ هذه الصناعاتِ واشتغالها، هو، كما قلناه، العجزُ عن
الطريقِ الطبيعيِّ للمعاش، وابتغائه من غيرِ وجوهِ الطبيعيةِ، كالفلاحةِ والتجارةِ
5 والصناعةِ، فيستعصِبُ العاجزُ ابتغاءَهُ من هذه، ويرومُ الحصولَ على الكثيرِ من
المالِ دفعةً بوجهٍ غيرِ طبيعيٍّ من الكيمياءِ وغيرها. وأكثرُ من يُعنى بذلك، الفقراءُ من
أهلِ الغمرانِ، حتّى في الحكماءِ المتكلمين في إمكانها واشتغالها. فإن ابن سينا،
القاتلُ باشتغالها، كان من عليّةِ الوزراءِ، فكان من أهلِ الغنى والثروة، والفارابي،
القاتلُ بإمكانها، كان من أهلِ الفقرِ الذين يُعوزُهم أدنى بُلغةٍ من المعاشِ وأنسابه.
10 وهذه بُهمةٌ ظاهرةٌ في أنظارِ النفوسِ المولعةِ بطرقها^(أ) واشتغالها. والله ﴿الرَّزَاقُ ذُو
الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة القاربات، من الآية 58].

34 • [فصل^(ب)]، في المقاصدِ التي ينبغي اعتمادُها بالتأليفِ والغناءِ ما سواها

اعلمُ أنَّ العلومَ البشريّةَ خِزائنها النفسُ الإنسانيّةُ، بما جعلَ الله فيها من
الإدراكِ الذي يُميّدها ذلكَ بالفكرِ المحصلِ لها ذلكَ بالتصوُّرِ للحقائقِ أولاً، ثمّ بإثباتِ
15 العوارضِ الدائِيّةِ لها أو نفيها عنها ثانياً، إمّا بغيرِ وسطٍ أو بوسطٍ، حتّى يستنتجَ

(أ) ع: طرّفها (ب) ورد هذا الفصل في ع وحدها تالياً للفصل بعده، عن "أن كثره التأليف في العلوم عاقبة عن التحصيل". وقد
كتب عليها بخط دقيق: "من هنا يُعزى إلى الصفحة اليسرى، فصل في المقاصد التي، إلخ" وسط هذا الفصل أصلاً من ط ج ي.

الفكر بذلك مطالبته التي يُغنى بإثباتها أو نفيها. فإذا استقرت من ذلك صورة علمية في الصمير، فلا بُدَّ من بيانها لآخر، إمّا على وجه التعليم، أو على وجه المفاوضة لصل الأفكار في تصحيحها.

وذلك البيان إمّا يكون بالعبارة، وهي الكلام المركّب من الألفاظ التلّيفية التي خلّقها الله في عضو اللسان مركّبة من الحروف؛ وهي كفيات الأصوات المقطّعة 5 بقصّة اللّهاة واللسان، ليتبيّن بها ضمائر المتكلمين بعضهم لبعض في مخاطباتهم. وهذه رتبة أوّل في البيان عمّا في الضمائر، وإن كان معظمها وأشرفها العلوم، فهي شاملة لكل ما يندرج في الصمير من خير أو إنشاء على العموم.

وبعد هذه الرتبة الأولى من البيان رتبة ثانية يؤدّي بها ما في الصمير لمن توارى أو غاب شخصه، ويُعدّ، أو لمن يأتي بغد ولم يعاصره ولا لقيته. وهذا البيان منحصر في 10 الكتابة؛ وهي رقوم باليد، تدلّ أشكالها وضورّها بالتواضع على الألفاظ التلّيفية حروفاً مجرّوف، وكلمات بكلمات. فصار البيان فيها على ما في الضمائر بواسطة الكلام التلّيفي؛ فلها كانت في الرتبة الثانية.

وأحد قسمتي هذا البيان يدلّ على ما في الضمائر من العلوم والمعارف، فهو 15 أرفها. وأهل الفنّون مُعتنون بإبداع ما يحصل في ضمائرهم من ذلك في بطون الأوراق بهذه الكتابة، لتعم الفائدة في حصوله للغائب والمتأخّر. وهؤلاء هم المؤلفون. والتواليف بين العوالم البشرية والأمم الإنسانيّة كثير، ومنقلة في الأجيال والأغصان، وتختلف باختلاف الشرائع والمثل والأخبار عن الأمم والدول. وأما

العلوم الفلسفيّة فلا اختلاف فيها، لأنها إنّما تأتي على نهج واحد فيما تقتضيه الطّبيعة الفكريّة في تصوّر الموجودات على ما هي عليه، جسمانيّاً وروحانيّاً، وفلكيّاً وعنصريّاً، ومجرّدها ومادّتها. فإنّ هذه العلوم لا تختلف، وإنّما يقع الاختلاف في العلوم الشرعيّة لاختلاف الملل، أو التاريخيّة لاختلاف خارج الخبر.

5 ثمّ الكتابة مختلفة باضطلاحات البشر في رسومها وأشكالها، ويسمّى ذلك قلماً وخطاً. فمنها: الخط الحفيريّ، ويسمّى المسند، وهو كتابة خيّر وأهليّ اليقن الأقدمين. وهو يخالف كتابة العرب المتأخّرين من مضر، كما يخالف لغتهم وإن كان الكلّ عربيّاً، إلا أنّ ملكة هؤلاء في اللسان والعبارة غير ملكة أولئك، ولكلّ منها قوانين كليّة مستقّرة من عباراتهم غير قوانين الآخرين. وربّما يغلط في ذلك من لا يعرف ملكات العبارة. 10

ومنها: الخط السريانيّ، وهو كتابة النبط والكلدانيّين. وربّما يزعم بعض أهل الجهل أنّه الخط الطبيعيّ، لِقِدَمِهِ، فإنّهم كانوا أقدر الأمم. وهذا وهم ومذهب عامّيّ، لأنّ الأفعال الاختياريّة كلّها ليس شيء منها بالطّبع، وإنّما هو يستويّر بالقدّم والميران حتّى يصير ملكة راسخة، فيطّنها المشاهد طبيعيّة، كما هو رأس⁽¹⁾ كبير من البلّداء في اللّغات العربيّة، فيقولون: العرب كانت تغرب بالطّبع وتطلق الطّبع، وهذا وهم. 15

ومنها: الخط العبرانيّ الذي هو كتابة بني عابر بن شالّخ، من بني إسرائيل وغيرهم.

(1) كنا، وربّما أرادها التامخ: رأي كثير.

ومنها: الخطّ اللَّطِينِيّ، خط اللَّطِينَيْنِ من الرّوم. ولم أيضاً لسان مختصّ بهم.

ولكلّ أمة من الأمم اصطلاح في الكتاب يُعزى إليها ويختصّ بها، مثل التّرك والفرنج والهنود وغيرهم. وإنّما وقّعت العناية بالأقلام الثلاثة الأوّل. أمّا السّرياني، فليدّيه، كما ذكرنا. وأمّا العربيّ [والعبريّ] ⁽¹⁾، فليتنزّل القرآن والتّوراة بهما، بلسانها.

وكان هذان الخطان بياناً لمثلوهما؛ فوقّعت العناية بمنظومها أولاً، وانّسَطت قوانين 5 لاطراد العبارة في تلك اللّغة على أسلوها، لتفهم الشّرائع التّكليفيّة من ذلك الكلام الرّبّانيّ. وأمّا اللَّطِينِيّ، فكان الرّوم، وهم أهل ذلك اللّسان، لما أخذوا بدين التّصاريّة، وهو كلّ من التّوراة، كما سبق في أوّل الكناية، ترجموا التّوراة وكُتِب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم، ليقتنصوا منها الأحكام على أشهل الطّرق. وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم أكّد من سواها. وأمّا الخطوط الأخرى، فلم تقع بها عناية، 10 وإنّما هي لكلّ أمة بحسب اصطلاحها.

ثمّ إنّ النّاس حصّروا مقاصد التّأليف الّتي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها، فعدّوها سبعة.

أولها: استنباط العلم بموضوعه، وتقسيم أبوابه وفصوله، وتتبع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تغرض للعالم المحقّق، ويخرّص على إيصاله لغیره لتعمّ 15 المنفعة به. فيودّع ذلك بالكتاب في المصحف، لعلّ المتأخّر يظهر على تلك الفائدة، كما وقع في أصول الفقه. تكلم الشّافعيّ أولاً في الأدلّة الشّريّة اللَّفْظِيّة ولحقّها، ثمّ

(1) لم ترد في الأصل، ويتضمّن السياق .

جاء الحَقِيقَةُ، فاستنبطوا مسائلَ القياس واستوعبوها، وانتفع بذلك مَنْ تقدم إلى الآن.

وثانيها: أن يَقِفَ على كلام الأولين وتوافيهم فيجدها مستغلَّةً على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها، فيحرص على إبانة ذلك لغيرة ممن عساه يستغلق عليه،
5 لتصل الفائدة لمستجيبها. وهذه طريقة البيان لكُتُبِ المَقُولِ والمنقول، وهو فضلُ شريف.

وثالثها: أن يَقَرُّ المتأخِّرُ على غَلَطٍ أو خَطَأٍ في كلام المتقدمين ممن اشتبه فضلُه ويُعدُّ في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، إذ قد تَعَذَّرَ محو وزرعه بالتأثير
10 التأليف في الآفاق والأغصان، وشهرة المؤلف ووثوق الناس بمعارفه. فيودع ذلك الكتاب ليقف التأخر على بيان ذلك.

ورابعها: أن يكون الفن الواحد قد نُقِصَتْ منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطلع على ذلك أن يَتِمَّ ما نُقِصَ من تلك المسائل ليكمل الفن بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص فيه مجال.

وخامسها: أن تكون مسائل العلم قد وَقَعَتْ غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة،
15 فيقصد المطلع على ذلك أن يَرْتَبِها ويَهْدِبُها ويجعل كل مسألة في بابها، كما وقع في المَدُونَةِ من رواية سَعْتُونَ عن ابن القاسم؛ وفي العُنَيْتَةِ من رواية العُثَيْبِيِّ عن أصحاب مالك. فإن مسائل كثيرة من أبواب الفقه منها قد وَقَعَتْ في غير بابها، فهذب ابنُ

أبي زَيْدِ المَدُونَةِ، وبقيت العُشْبَةُ غَيْرَ مُهَذَّبَةٍ، فنَجَدُ في كُلِّ بابٍ مسائلَ من غَيْرِهِ،
واسْتَغْنَوْا بِالمَدُونَةِ وما فَعَلَهُ ابنُ أَبِي زَيْدٍ فيها والبراذعِي من بَعْدِهِ.

وسادسها: أن تكونَ مسائلُ العِلْمِ مَفْرَقَةً في أنواعِها من عُلُومٍ أُخْرَى، فيَتَنَبَّهُ
بعضُ المُضَلَّاءِ إلى مَوْضوعِ ذلكَ الفنِّ وجميعِ مسائلِهِ، فيفَعَلُ ذلكَ، ويَظْهَرُ بِهِ فَنٌّ
ينظُمُهُ في جُمْلَةِ العُلُومِ الَّتِي يَتَجَلَّاهَا البَشَرُ بِأفكارِهِم، كما وَقَعَ في عِلْمِ البَيانِ؛ فَإِنَّ
عَبْدَ القَاهِرِ الجُرْجَانِيَّ، وأبا يوسُفَ الشَّكَّارِيَّ، وَجَدُوا مسائلَهُ مُسْتَقَرَّةً في كُتُبِ
التَّحْوِ، وقد جَمَعَ مِنْهَا الجَاحِظُ في كِتَابِ البَيانِ والتَّبَيُّنِ مسائلَ كَثِيرَةً نَتَبَّهَ النَّاسُ مِنْهَا
لمَوْضوعِ ذلكَ العِلْمِ وانفَرَادِهِ عن سائِرِ العُلُومِ. فَكَتَبْنَا في ذلكَ تَوَالِيْفَهُمُ المَشْهُورَةَ،
وصارتُ أَصُولاً لِفَنِّ البَيانِ، وَلَقَّيْنَاهَا المُتَأَخَّرُونَ فَأَزَيُوا فيها على كُلِّ مُتَقَدِّمٍ.

وسابعها: أن يَكُونَ شَيْءٌ مِنَ التَّوَالِيْفِ الَّتِي هِيَ أَمَهاثُ لِلْفُنُونِ مَطْوِلاً مُسَهِّباً،
فَيُقْصَدُ بِالتَّالِيْفِ تَلْخِيصُ ذلكَ بِالِاخْتِصارِ والإيجازِ وَحَذْفُ المُتَكَرِّرِ إِنْ وَقَعَ، مع
الحَذَرِ مِنْ حَذْفِ الضَّرُورِيِّ، لئَلَّا يُجِلَّ بِمُقْصَدِ المُؤَلَّفِ الأوَّلِ.

فهذه جِماعُ المقاصِدِ الَّتِي يَنْبَغِي اعْتِمادُها في التَّالِيْفِ ومِراعَتُها. وما سِوَى ذلكَ
فَفَعَلْتُ غَيْرَ مُحتاجٍ إِلَيْهِ، وَخَطَّأْتُ عَنِ الجادَّةِ الَّتِي يَتَغَيَّنُ سُلُوكُها في نَظَرِ العُقَلَاءِ، مِثْلَ
انْتِحَالِ ما تَقَدَّمَ لغيرِهِ مِنَ التَّوَالِيْفِ، أن يُلَيِّسَ إلى نَفْسِهِ بَعْضَ تَلْبِيْسٍ مِنْ تَبَدُّلِ
الألفاظِ وَتَشْدِيدِ المُتَأَخَّرِ وَعَكْسِهِ، أو يَحْذِفَ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ في الفنِّ، أو يَأْتِي بِما لا
يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، أو يُبَدِّلُ الصَّوَابَ بِالْخَطَا، أو يَأْتِي بِما لا فائِدَةَ فِيهِ. فهذا شَأْنُ الجَهْلِ
والبُهَةِ. ولِهذا قالَ أَرِسْطو لما عَدَّدَ هذه المقاصِدَ وانتهى إلى آخِرها، فقالَ: وما سِوَى

ذلك فَفَضَّلَ أَوْ شَرَّ. يعني بذلك الجهلَ والقيحَةَ. نعوذُ بالله من الغفلِ فيما لا يُنبغي للعاقل سلوكُه. والله ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ ⁽¹⁾ [سورة الإسراء، من الآية 9].

35 • فصل، في أن كثرة التواليف في العلوم عاقبة عن التحصيل

اعلم أنه مما أضُرَّ بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته، كثرة التواليف 5 واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتعليم بالتقليد باستحضار ذلك، وحينئذ يُسَلَّم له منصب التحصيل. فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومرعاة طرقها، ولا يقي عمره بما كُتِبَ في صناعة واحدة إذا تجرَّد لها، فيقع الثُصور - ولا بُدَّ - دون رتبة التحصيل.

- 1 / وغنَّ ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلاً وما ^[381ب]
- 10 كُتِبَ عليها من الشروحات الفقهية، مثل كتاب ابن يونس، واللخمي، وابن بشير، والتنبيهات، والمقدمات، وكذلك كتاب الغنينة، أخنها، والبيان والتحصيل الذي كُتِبَ عليها، وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كُتِبَ عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القروائية من القُرطبية والبغدادية والمصرية، وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يُسَلَّم له منصب الفتيا. وهي كلها متكررة والمعنى 15 واجد. والمتعلم مُطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر يُنْقَضِي في واحد.

(1) كتب في ع بعد هذه الحاشية بخط مماثل لما ورد في الحاشية (؟) (كنا) ما يلي: ورجع إلى ما قبله بورقين وهو قوله: فصل في أن كثرة التاليف في العلوم عاقبة عن التحصيل.

منها. ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التعلم سهلاً ومأخذه قريباً، ولكنه داء لا يرتفع، لاستقرار الغوائد [عليه] ^(١)، فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها.

- وتمثل أيضاً علم العربية من كتاب سيبويه، وجميع ما كتبت عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين، مثل 5 ابن الحاجب، وابن مالك، وجميع ما كتبت في ذلك، وكيف يطالب به المتعلم، ويتقضي عمره دونه. ولا يطمع أحد في الغاية منه إلا في القليل التادر، مثل ما وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تواليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مضر، يعرف بابن هشام، ظهر من كلامه فيه أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني وأهل طبقتها، لعظيم ملكته وما أحاط به من أصول 10 ذلك الفن وتفاريقه وحسن تصرفه فيه. ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصراً في المتقدمين، سيما مع ما قررناه من كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتواليف. ولكن ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يُونُسَ مِّنْ يَّسَاءٍ﴾ [سورة المائدة، من الآية 54]، وهذا نادر من / نوادر الوجود. وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله [فلا] ^(ب) [1382]
- يقي له بتخصيل علم العربية مثلاً، الذي هو آلة من الآلات ووسيلة. فكيف يكون 15 في المقصود الذي هو من ^(ج) الثمرة؟ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَّشَاءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية 272 و سورة القصص، من الآية 56].

(١) سقط من ط (ب) من ج ج ي، وفي ط: ولا (ج) من ط وحدها، وفي ع ي: الذي هو القرة .

36 • فصل، في أن كثرة الاختصارات الموضوعية في العلوم مُجَلَّةٌ بالتعليم

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطُرُق والأنحاء في العلوم، يُؤمنون بها ويدّعون منها بَرّاناً مُختصراً في كلّ علم، يشتمل على خسر مسائله وأدلتها باختصارٍ 5 في الألفاظ، وخشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفنّ، فصار ذلك مُجَلّاً بالبلّابة وعسيراً على الفهم [...] ^(أ). وربما عمدوا إلى الكتب الأمتها المطوّلة في الفنون [...] ^(ب) والبيان، فاختصروها تقييداً للحفظ، كما فعلة ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والحوثجي في المنطق، وأمثالهم. وهو فساد من التعليم، وفيه إخلالٌ بالتحصيل.

10 وذلك لأنّ فيه تَخْلِيظاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعدّ لقبولها بعد. وهو من سوء التعليم كما سيأتي. ثمّ فيه مع ذلك شغلٌ كبيرٌ على المتعلّم بتتبع ألفاظ الاختصار القويضة للفهم، لتراحم المعاني عليها واستخراج المسائل من بينها. لأنّ ألفاظ المختصرات نجدها لذلك صعبةً عويصةً، فينقطع في فهمها خطأً صالحٌ من الوقت. ثمّ بعد ذلك كلّهُ، فالملكةُ الحاصلةُ من التعليم في تلك المختصرات 15 إذا تمّ على سدايه ولم تقهقه آفةٌ، فهي ملكةٌ قاصرةٌ عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطوّلة، لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإطالة الميذنين لحصول الملكة الثّامة. وإذا اقتصر عن التكرار قصّرت الملكة بقيّته، كشأن هذه

(أ) بياض في ط ج ي. وسقط من ع (ب) في ي فراغ كلمة أثبت منها حرفين .

الموضوعات المختصرة؛ فقصّوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلّمين، فأزكّوهم صعباً
بسطّهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكّنها. / ومن يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ لَهُ، ﴿ مِنْ
يُضِلِّ اللهُ﴾ فَلَكَ هَادِيٌ لَهُ، ﴿ [سورة الأعراف، من الآية 186].

37 • فصل، في وجه الصواب في تعلیم العلوم وطريق إفادته

اعلم أنّ تلقين العلوم للمتعلّمين ^(١) إنّما يكون مُفيداً إذا كان على التدرّج شيئاً
5 شيئاً وقليلًا قليلًا، يُلقَى عليه أولاً مسائل في كلّ باب من الفنّ، هي أصول ذلك
الباب، ويُقرَّب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويُراعى في ذلك قوّة عقله
واستيفادته لقبول ما يورّد عليه، حتّى ينتهي إلى آخر الفنّ، وعند ذلك تُخَصَّلُ
له ملكة في ذلك العلم. إلّا أنها قريبةٌ وضعيفةٌ، وغايها أنّها هيأتها لفهم الفنّ وتحصيل
10 مسائله.

ثمّ يُرجع به إلى الفنّ ثانية، فيرفّعه في التلقين عن تلك الرُّتبة إلى أعلى منها،
ويُستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويُذكّر له ما هنالك من الخلاف
ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفنّ، فتجود ملكته.

ثمّ يُرجع به وقد شدّا، فلا يترك غويصاً ولا مُنبهاً ولا مُنغلقاً إلّا أوّصعه وفتح
15 له مُقفله، فيخلص من الفنّ وقد استوّى على ملكته.

(١) ع: المتعلّمين للعلوم .

هذا وجهُ التعليم المُفيد. وهو كما رأيتُ، إنّما يحصلُ في ثلاثِ بَكَرَاتٍ. وقد يحصلُ للبعض في أقلّ من ذلك بحسب ما يَخْلُقُ [له] ^(أ) ويتيسّر عليه.

وقد شاهدنا كثيراً من [المُعَلِّمين] ^(ب) لهذا العهد الذي أذكرُكمَا، يجهلون طريقَ هذا التعليم وإفادته، ويحضرُونَ المتعلّم في أوّل تعلّمه المسائلَ المُقلَّاة من العلم،
5 يطالبونه بإخضارِ ذهنه في حلّها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه وغيّ ذلك وتخصّيله. فيخلّطون عليه بما يلقون له من غاياتِ الفنون في مبادئها وقبل أن يستعدّ لفهمها، فإنّ قبولَ العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً.

ويكونُ المتعلّم أوّل الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة، إلّا في الأقلّ وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالمثل الحسيّة. ثم لا يزالُ الاستعدادُ فيه يتدرّج قليلاً / قليلاً ^[383]
10 بمخالطة مسائل ذلك الفنّ وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التّريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتّى تتمّ الملكة في الاستيفاد، ثم في التّحصيل، ويحيطُ بمسائل الفنّ.

وإذا أُلقيت عليه الغايات في البداية وهو حينئذٍ عاجزٌ عن الفهم والوعي، ويبعدُ عن الاستعداد له، كلّ ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه، وانحرف عن قبوله، وتماذى في هجرانه. وإنّما أتى في ذلك من سوء التعليم. 15

ولا ينبغي [المعلّم] ^(ج) أن يزيدَ متعلّمه على فهم كتابه الذي أكبّ على التّعليم منه، بحسب طبقته وعلى نسبة قبوله للتّعليم، مُبتدئاً كان أو مُتنبهاً. ولا يخلط

(أ) من ع ج ي، وسقط من ط (ب) في الأصول: المتعلّمين، والأصوب ما أثبتنا والسياق يؤيّده (ج) في ط: لتعلّم.

مسائل الكتاب بغيرها حتى يعينه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها يتفقد في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، والتهوؤ إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم. وإذا خلط عليه الأمر، عجز عن الفهم وأدركه الكلال، وانظمس فكره، ويئس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي 5 مَن يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية 213، وسورة النور، من الآية 46].

(١) وكذلك ينبغي أن لا يطوّل على المتعلم في الفن الواحد أو الكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها، لأنه ذريعة إلى التسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها عن بعض، فيفسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكر، مجانبة للتسيان، كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب 10 صيغة [.....] (ب)، لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكرره. وإذا توسيى الفعل، توسييت الملكة الناشئة عنه؛ والله ﴿عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (ج) [سورة البقرة، من الآية 239].

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم، أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منها، لما فيه من تقسّم / البالي وانصرافه عن 15 كل واحد منها إلى تفهم الآخر، فيستغلّقان معاً ويستضعبان، ويعود منها بالخيبة.

(أ) هذه الفقرة المحفها ابن خلدون في حاشية ع بحقه. وأدرجها ط ج ي في ثنها (ب) كلمتان مشطوبتان في حاشية ع (ج) آخر الفقرة التي وردت في حاشية ع .

وإذا شَرَعَ الفكرَ لتَعَلَّم ما هو بِسبيله مُقْتَصراً عليه، فربَّما كان ذلك أَجْدَزَ بِشخصيله.
واللهُ الموفق للصواب^(١).

1. • فَضْلٌ

واعلم أنَّها المتعلَّم، أَنِّي أَنَحِفُكَ بِفائدةٍ في تَعَلُّمِكَ، إن تَلَقَّيْتَهَا بِالقبولِ وأَمْسَكْتَهَا
5 بيد الضَّمانَةِ ظَفَرَتْ بِكَنْزٍ عَظِيمٍ وَذَخِيرَةٍ شَرِيفَةٍ. وَأَقْدَمْتُ لَكَ مَقْدَمَةً تَعِيْنُكَ عَلَى فَهْمِهَا.
وذلك أَنَّ الفكرَ الإنسانيَّ طَبِيعَةٌ مَخْصُوصَةٌ فَطَرَهَا اللهُ كَمَا فَطَرَ سَائِرَ
مَبْدَعَاتِهِ. وَهُوَ فِعْلٌ وَحَرَكَةٌ فِي النَّفْسِ بِقُوَّةٍ فِي البَطْنِ الأَوْسَطِ مِنَ الدِّمَاغِ. وَتَارَةً
يَكُونُ مَبْدَأٌ لِلأَفْعَالِ الإنسانيَّةِ عَلَى نِظَامٍ وَتَرْتِيبٍ، وَتَارَةً يَكُونُ مَبْدَأٌ لِعِلْمٍ مَا لَا يَكُونُ
حَاصِلًا، بَأَن يَتَوَجَّهَ إِلَى المَطْلُوبِ، وَقَدْ تَصَوَّرَ طَرَفَيْهِ، وَيَرُومُ نَقِيَّةً أَوْ إِبْثَاتَةً، فَيُلَوِّحُ
10 لَهُ الوَسْطَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا أَسْرَعَ مِنْ لَمَحِ البَصَرِ إِنْ كَانَ وَاحِدًا، وَيُنْقَلُ إِلَى
تَحْصِيلِ وَسْطٍ آخَرَ إِنْ كَانَ مُتَعَدِّدًا، وَيَصِيرُ إِلَى الطَّفَرِ بِمَطْلُوبِهِ. هَذَا شَأْنُ هَذِهِ
الطَّبِيعَةِ الفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا البَشَرُ مِنْ سَائِرِ الحَيَوَانِ.

ثُمَّ الصَّنَاعَةُ المَنْطِيقِيَّةُ هِيَ كَيْفِيَّةُ فِعْلٍ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ الفِكْرِيَّةِ التَّنْظِيرِيَّةِ، تَصِفُهُ لِيَعْلَمَ
سَدَادَهُ مِنْ خَطِئِهِ. لِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ لَهَا ذَاتِيًّا، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَعْرِضُ لَهَا الخَطَأُ فِي
15 الأَقْل، وَغَالِيهِ^(ب) مِنْ تَصَوُّرِ الطَّرَفَيْنِ عَلَى غَيْرِ صُورَتَيْهَا، وَمِنْ اسْتِثْنَاءِ الهَيْئَاتِ فِي
[نَظْمٍ]^(ج) القَضَايَا وَتَرْتِيبِهَا لِلتَّنَائِجِ، فَيُعِينُ المَنْطِقُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ وَزْطَةِ هَذَا الفَسَادِ

(١) فِي الأَصْلِ عِ إِشَارَةٌ مُنْجِرِجٌ إِلَى اِجْمَاعٍ. قَدْ يَكُونُ كَيْفِيٌّ فِي بَطَانَةِ تَمَّ سَقَطَتْ. وَعِنَهَا قُلْتُ ط ج هَذَا الفَصْلُ قَبْلَ حَيَاتِهِ، وَهُوَ
النَّالِي بَيْنَ الْجَمِينِ (ص 450-453)، وَلَمْ يَرُدَّ فِي (ب) مِنْ ط، وَسَقَطَ مِنْ ج (ج) مِنْ ح، وَسَقَطَ مِنْ ط.

إن غرض. فالمنطق إذا أمر صناعي مساوٍ للطبيعة الفكرية، ومنطبق على صورة
فعلها.

ولكونه أمراً صناعياً استغني عنه في الأكثر؛ ولذلك نجد كثيراً من فحول
النظر في الحليمة يخلصون على المطالب في العلوم دون علم صناعة المنطق، ولا سيما
5 مع صدق النية والتعرض لرحمة الله، فإن ذلك أعظم / معين. ويشكون بالطبيعة
384] الفكرية على سداها، فتقضي بهم بالطبع إلى حصول الوسط والعلم المطلوب، كما
فطرها الله عليه.

ثم من دون هذا الأمر الصناعي الذي هو المنطق، مقدمة أخرى من التعلم،
وهي معرفة الألفاظ ودلالاتها⁽¹⁾ على المعاني الذهنية، تؤديها من مشافهة الرسوم
10 بالكتاب، أو مشافهة باللسان التلق (ب) بالخطاب. فلا بُدَّ أيها المتعلم من تجاوزك
هذه الحجب كلها إلى الفكر في مطلوبك. فأولاً دالة الكتابة المزسومة على الألفاظ
المقولة، وهي أحقها، ثم دالة الألفاظ المقولة على المعاني المطلوبة، ثم القوانين في
ترتيب المعاني للاستدلال في قوايلها المعروفة في صناعة المنطق، ثم تلك المعاني
مجردة في الفكر اشتراكاً يقتضيهما المطلوب بالطبيعة الفكرية بالتعرض لرحمة الله
15 ومواهبه. وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة، ولا يقطع هذه الحجب في
التعلم بسهولة؛ بل ربما وقف ذهن في حجب الألفاظ بالمناقشات، أو غر في
اشتراك⁽²⁾ الأدلة بشغب الجدال والشبهات فقعد عن تحصيل المطلوب. ولم يكن

(1) ج: دلالتها (ب) كذا جاءت في ظ غير مشکولة بمعنى الناطق (ج) ح: إشراك .

يخلص من تلك الغفرة إلا قليلٌ ممن هُداة الله. فإذا ابتليت بمثل ذلك، وعَرَضَ لك ارتباكٌ في فهمك أو تشغيبٌ بالشبهات في ذهنك، فاطرح ذلك، وابتدِ حُجُبَ الألفاظ وعوائق الشبهات، واترك الأمر الصناعي جملةً، واخْلُصْ إلى قضاء الفكر الطبيعي الذي فُطِرَتْ عليه، وسرِّحْ نظرك فيه، وفرِّغْ ذهنك للغوص على مرامك منه، واضعاً قَدَمَكَ حيث وضعها أكبر النظار قبلك، متعرّضاً للفتح من الله كما فَتَحَ [عليهم] من رحمته وعلّهم ما لم يكونوا يَعْلَمُونَ. فإذا فعلت ذلك، أشرقت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر بمطلوبك، وحصل الإلهام الوسط الذي جعله الله من مقتضيات هذا الفكر وفطره عليه، كما قلناه. / وحينئذٍ، فارجع به إلى قوالب الأدلة [384ب]

وصورها، فأفرغه فيها وَوَفِّ حَقَّهُ من القانون الصناعي، ثم اكسبه صُورَ الألفاظ، وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشاهدة وثيق الغرى صحيح البنيان. 10

وأما إن وقفت عند المناقشة في الألفاظ والشبه في الأدلة الصناعية، وتخصيص صوابها من خطئها - وهذه أمورٌ صناعيةٌ وضعيَّةٌ تستوي جهاتها المتعددة، وتشابه لأجل الوضع والاضطلاح - فلا تَمَيِّزْ جهة الحق منها، إذ جهة الحق إنما تميز إذا كانت بالطبع. فيستمر ما حصل من الشك والارتباك، وتُسَدِّلُ الحُجُبُ على المطلوب، وتَعُدُّ بالنظر عن تحصيله. وهذا شأن الأكثرين من النظار المتأخرين، 15

سيما من سمَّته له عُجْمَةٌ في لسانه فريطٌ على ذهنه، أو من حصل له شغف بالقانون المنطقي^(ب) وتعصب له، فاعتقد أنه الذريعة بالطبع إلى ذلك الحق، فيقع في

(أ) من ج. و في ظ: عليه (ب) كذا في ط ج.

الحِزْبَةُ بَيْنَ شُبْهِهِ الْأَدِلَّةِ وَشُكُوكِهَا وَلَا يَكَاذُ يَخْلُصُ مِنْهَا. وَالدَّرِيعَةُ إِلَى ذَلِكَ الْحَقِّ
بِالطَّبَعِ، إِنَّمَا هُوَ الْفَكْرُ الطَّبِيعِيُّ، كَمَا قُلْنَا، إِذَا جُرِّدَ عَنْ جَمِيعِ الْأَوْهَامِ، وَتَعَرَّضَ
التَّائِبُ فِيهِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ. وَأَمَّا الْمَنْطُوقُ، فَإِنَّمَا هُوَ وَاصِفٌ لِفَعْلِ هَذَا الْفَكْرِ، فَيَسَاوِفُهُ
لِذَلِكَ فِي الْأَكْثَرِ .

- 5 فَاغْتَبِرْ ذَلِكَ ، وَاسْتَفِظْ رَحْمَةَ اللَّهِ مَتَى أَعُوْزُكَ فَهَمُّ الْمَسَائِلِ ، تُشْرِقُ
عَلَيْكَ أَنْوَارُهُ بِالْإِنْهَامِ إِلَى الصَّوَابِ، وَاللَّهُ الْهَادِي بِرَحْمَتِهِ، وَمَا الْجَلْمُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ .*

* انتهى المستدرك السابق من ع ي .

38 ﴿١﴾ فصلٌ، في أن العلوم الآلية لا تُوسَّع فيها الأنظار ولا تُفْرَجُ [فيها] (ب)
المسائل

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العُمران على صنفين: علومٌ مقصودةٌ بالآتات،
كالشِّرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، والطبيعيَّات والإلهيات من
5 الفلسفة. وعلومٌ هي آلةٌ ووسيلةٌ لهذه العلوم، كالعربية والحساب وغيرها للشِّرعيات،
والمُنطق للفلسفة. وربما كان آلةٌ / لعلم الكلام ولأصول الفقه على طريقة المتأخرين. [1385]
فأما العلوم التي هي مقاصدٌ، فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرُّع المسائل،
واستكشاف الآلية والأنظار. فإن ذلك يزيد طالبتها تمكُّناً في ملكته وإيضاحاً لمعانيها
المقصودة (ج).

(١) سقط هذا الفصل من ع. ولا شك أنه كان متصلاً بنص البطاقة المرحمة التي كان بها الفصل السابق الذي أحف به المعلم.
وقد قلته ط ج ي قبل اختفائه (ب) من ج (ج) اختلفت نسخة "ي" عن النسخين ط ج في صياغة هذه الفقرة من
الفصل. وقد رأيت أن أفردّها في قسم الفروق حتى لا أقوم بتكوين نصّ تأليفي من كل النسخ على غير ما أراده المؤلف. وكثيراً ما
يعمد ابن خلدون إلى هذه المراجعات التي لا يختلف محتواها عن بعضه في شيء. وفي بقية الفصل فروق خفيفة بينها عليها مقفلة.
تجرباً لإعادة كامل فصل ي في الحاشية:

• فصلٌ، في أن العلوم الآلية لا تُوسَّع فيها المسائل والأنظار

اعلم أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين؛ منها ما هو مقصودٌ لئانته كعلوم
الشِّرعيات من التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام، ومن العلوم الحكيمية الطبيعيَّات والإلهيات
والتعاليم، ومنها ما هو آلةٌ ووسيلةٌ لهذه العلوم، كالعربية والحساب وأصول الفقه وغيرها للشِّرعيات،
والمُنطق للحكمة. وربما كان آلةٌ لعلم الكلام على طريقة المتأخرين ولأصول الفقه. وأما العلوم التي هي
مقاصدٌ فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفرُّع المسائل وتدقيق النظر واستكشاف الأصناف،
فإنه يزيد بها تمكُّناً في الملكة وإيضاحاً [وإيضاحاً] في المعاني المقصودة منها.

وأما العلوم التي هي آله لغزها، مثل العريّة والمنطق وأمثالها، فلا ينبغي أن يُنظر فيها إلا من حيث هي آله لذلك الغز فقط، ولا يوسع فيها الكلام، ولا تُقرع المسائل، لأن ذلك يخرج بها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي آله له، لا غير. فكلما خرجت عن ذلك، خرجت عن المقصود، وصار الاشتغال بها نفوا^(أ)، مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها. وربما يكون ذلك عائقاً عن 5 تحصيل العلوم المقصودة^(ب) بالذات * الطول * وسائلها^(ج)، مع أن شأنها أهم، والعمر يُقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة^(د)، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية [على هذا النحو]^(هـ) تضييعاً للغز وشغلاً بما لا ينبغي.

وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق، لا بل وأصول الفقه، لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها * نقلاً * واستذلالاً^(و)، وأكثروا من التفاريع 10 والمسائل^(ز) بما أخرجها عن كونها آله وصيرها مقصودة بذاتها^(ح). وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات^(ط)، فتكون لأجل ذلك لغواً^(ي) ويُضرب [بالمعلم]^(ك) على الإطلاق، لاهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من هذه الآلات والوسائل. فإذا قطعوا الغز في هذه^(ل) الوسائل، فمتى يظفرون 15

بالتأصيل؟

(أ) في ي: غشاً ولغواً (ب) ي: التي هي مقصودة (ج) سقط من ي (د) ي: على ما يجب (هـ) من ي (و) سقط من ي (ز) ي: والاستدلالات (ح) ي: وصبروها من المقاصد (ط) سقط من ي (ي) ي: وهي من نوع النحو (ك) سقط من ي (ل) في ي: تحصيل .

فلهذا يجبُ على المعلمين لهذه العلوم الآلية أن لا يَسْتَبَحِرُوا* فيها ولا يَشْكُرُوا من مسائِلها، ويأْخُذُوا بالمتعلِّم في الغرض منها*^(١) ويَقِفُوا به عنده. ومن نَزَعَتْ [به]^(ب) هِمَّتُه بعد ذلك إلى شيءٍ من التَوَعُّل، ورأى من نفسه قياماً بذلك وكفاية [به]^(ج)، فليختر لنفسه. وكلُّ مُيسَّر لما خُلِقَ له.^(د)

5 39 • / فَصْلٌ، فِي تَعْلِيمِ الْوُلَدَانِ، وَاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ الْأُمُصَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ [385ب] فِي طَرَفِهِ

اعْلَمْ أَنَّ تَعْلِيمَ الْوُلَدَانِ لِلْقُرْآنِ شِعَارٌ مِنْ شِعَائِرِ الدِّينِ، أَخَذَ بِهِ أَهْلُ الْمِلَّةِ وَدَرَجُوا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُصَارِهِمْ، لَمَّا يَسْبِقُ فِيهِ إِلَى الْقُلُوبِ مِنْ زُسُوحِ الْإِيمَانِ وَعَقَائِدِهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَيَغْضُ مُتَوْنِ الْأَحَادِيثِ. وَصَارَ الْقُرْآنُ أَصْلَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَنْتَبِي عَلَيْهِ مَا يَحْضُلُ بَعْدَهُ مِنَ الْمَلَكَاتِ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ تَعْلِيمَ الصَّغَرِ أَشَدُّ رُسُوحاً، 10 وَهُوَ أَصْلٌ لَمَّا بَعْدَهُ. لِأَنَّ السَّابِقَ الْأَوَّلَ إِلَى الْقُلُوبِ كَالْأَسَاسِ لِلْمَلَكَاتِ، وَعَلَى حَسَبِ الْأَسَاسِ وَأَسَالِيهِه يَكُونُ حَالُ مَا يَنْتَبِي عَلَيْهِ.

وَاخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ فِي تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لِلْوُلَدَانِ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي اعْتِبَارِ مَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ مِنَ الْمَلَكَاتِ.

(أ) في ي : شَأْنًا وَيَنْبَغِي التَّعَلُّمُ عَلَى الْغُرُضِ مِنْهَا (ب) مِنْ ي (ج) ظ : لَهُ (د) فِي ي حَوْلَ هَذَا الْمَعْنَى : فَلْيَرَقِ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْمَرَامِي صَعِباً أَوْ سَهْلاً، وَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ .

فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاختصارُ على تعلّم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المداينة بالترسّم ومسائله واختلاف حَمَلَة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواهُ في شيء من مجالس تعلّمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعرٍ ولا من كلام الغرب، إلى أن يَخْذِقَ في ذلك أو يَنْقَطِعَ دونه، فيكونَ انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة. وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قراء 5 البرنبر أسم المغرب في ولناهم، إلى أن يُجاوِزُوا حَدَّ البلوغ إلى الشّبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مَدَارِسَةَ القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رَسْم القرآن وحفظه من سواهم.

وأما أهل الأندلس، فمذهبهم تعلّم القراءة والكتاب من حيث هو. وهذا هو الذي يراعونه في التعلّم؛ إلّا أنّه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه، ومنبع الدين والعلوم، 10 جعلوه أضلاً في التعلّم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعلّمهم للولدان رواية الشعر في الغالب، والترسيل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب. [386] / الخط والكتاب.

ولا تختص عنايتهم في التعلّم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشّبيبة وقد شدّ بعض الشيء 15 في العربيّة والشعر والبصر بهما، ويبرز في الخط والكتاب، وتعلّق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعلّم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعلّم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلّا ما حصل من ذلك التعلّم الأوّل. وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى، واستغداد إذا وجد المعلم.

وأما أهل إفريقية، فيخيطون⁽¹⁾ في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومُدَارسَة قِوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها. إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستيظهار الولدان إياه، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبع لذلك. وبالجملة، فطريقتهم في تعليم الولدان أقرب إلى طريقة 5 أهل الأندلس، لأنَّ سَنَدَ طَريقَتهم في ذلك مُتَّصِلٌ بِمَشِيخَةِ الأندلس الذين أجازوا عند ثَغَلَبِ التَّصاري على شَرْقِ الأندلس واستَقَرُّوا بتونس، وعَنهم أخذ ولَدانُهم من بعد ذلك.

وأما أهل المشرق، فيخيطون في التعليم كذلك على ما يتلغنا، ولا أذري بم عنايتهم منها. والذي يُقَلُّ لنا، أنَّ عنايتهم بدراسة القرآن وصُحُفِ العِلْمِ وقَوَانِينِهِ في 10 زَمَنِ السَّيبِيَةِ، ولا يَخْلِطُونَهُ بِتَعْلِيمِ الحِطِّ، بل لتعليم الحِطِّ عندهم قانونٌ ومُعَلِّمون له على انفرادِهِ كما تُعَلِّمُ سائرُ الصُّناعاتِ، ولا يتداوَلُونَهَا في مكاتب الصِّبيان، وإذا كَتَبُوا لَهم الأَلواحَ فَيَحِطُّوا قاصِرٍ عن الإِجَادَةِ. ومن أَرَادَ تَعَلَّمَ الحِطَّ فعَلَى قَدَرٍ ما يَسْتَفِخُّ لَه بعد ذلك من الهِمَّةِ في طَلَبِهِ وَيَتَّقَنِيهِ من أَهلِ صُنْعَتِهِ.

[فأما]⁽¹⁾ أهل إفريقية والمغرب، فأفادهم الإقتصار على القرآن القصور عن 15 مَلَكَةِ اللِّسان جُمْلَةً. وذلك أنَّ القرآن لا يَنْشَأُ عَنْهُ في الغالب مَلَكَةٌ، لَمَّا أَنَّ البَشَرَ مَضْرُوفُونَ عَنِ الإِثْنَانِ / بِمِثْلِهِ. فَمَهْمُ مَضْرُوفُونَ كَذَلِكَ عَنِ الاسْتِغْثَالِ عَلَى أَسَالِيهِهِ،

[386ب]

(1) ظ: وانا .

(1) انظر محمد بن سحنون : آداب المعلمين : 102 .

والاختناء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في
اللسان العربي، وحظّه الجود في العبارات، وقلة التصرف في الكلام.

وربما كان أهل إفريقية في ذلك أخف من أهل المغرب، لما يخلطون في
تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوائنها، كما قلناه. فيقتدرون على شيء من التصرف
ومحاذاة المثل بالمثل. إلا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة، لما أن أكثر
5 مخطوئهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة، كما سيأتي في فصله.

وأما أهل الأندلس، فأفادهم التقن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسيل
ومدارسة العربية من أول الفجر، حصول ملكة صاروا بها أعرق في اللسان العربي،
وقصروا في سائر العلوم لبغدهم عن مدارسة القرآن والحديث، الذي هو أصل
العلوم وأساسها. فكانوا لذلك أهل خطأ وأدب بارع أو مقصر، على حسب ما
10 يكون التعليم الثاني من بعد تعلم الصبا.

ولقد ذهب القاضي أبو بكر ابن العربي في كتاب رخلته⁽¹⁾، إلى غريبة في
وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدى، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم،
كما هو مذهب أهل الأندلس. قال: لأن الشعر ديوان العرب. ويدعو إلى تقديره
وتقديم العربية في التعليم، ضرورة فساد اللغة؛ ثم تنتقل منه إلى الحساب، فتمر فيه
15 حتى ترى القوانين. ثم تنتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة.
ثم قال: وما غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الطفل بكتاب الله في أول أمره، يقرأ

(1) قانون التأويل 346 .

ما لا يَنفهم ، وَيَنْصَبُ في أمرِ غِرهِ أَهمُّ عَلَيْهِ منه . قال : ثمَّ يَنْظُرُ في أَصولِ الدِّينِ ،
ثمَّ أَصولِ الفِقه ، ثمَّ الجدل ، ثمَّ الحديثَ وعلومه . ونَهَى مع ذلك أن يَخْلُطَ في التَّعليمِ
عِلْمَانِ ، إِلَّا أن يَكُونَ المتعلِّمُ / قابلاً لِنَلكِ بِجُودَةِ الدَّهْنِ والنَّشاطِ .
(١387)

هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله . وهو لعنري مذهبٌ حَسَنٌ ،
5 إِلَّا أنَّ العوائِدَ لا تُساعِدُ عليه ، وهي أَمَلُكُ بالأخوال . وَجْهٌ ما اخْتَصَّتْ بهِ العوائِدُ
من تُقدِّمِ دراسةَ القرآنِ إِيثارُ التَّبرُّكِ والثَّوابِ ، وخَشْيَةُ ما يَعرِضُ الولدُ في جُنونِ
الصُّبَا من الآفاتِ والقواطعِ عن العِلْمِ فيفوتُهُ القرآنُ ؛ لِأنَّه - ما دام في الجِجر - منقادٌ
لِلْحُكْمِ ، فإذا تجاوزَ البلوغَ واخلَلَ من رِيقَةِ الفَهر ، فربَّما عَصَفَتْ بهِ رياحُ الشَّيْبَةِ
فألَفَّتْهُ بساجِلِ البطالةِ . فيَغْتَنِمُونَ في زَمانِ الجِجرِ وريقَةَ الحُكْمِ تحصيلَ القرآنِ له ،
10 لِيَلْغَا يَذْهَبَ خُلُوعاً منه . ولو حَصَلَ اليَقينُ باستمراره في طَلَبِ العِلْمِ وقَبولِ التَّعليمِ ،
لَكَانَ هذا المذهبُ الَّذي ذَكَرَهُ القاضي أوَّلَى ما أَخَذَ بهِ أَهلُ المَغربِ والمَشرقِ . لَكَرَنَ
اللهُ بِحُكْمٍ ما يَشَاءُ ، ﴿ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [سورة الرعد ، من الآية 41] .

40 • فَضَّلْ ، في أَنَّ الشَّدَّةَ على المتعلِّمين مُضَرَّةٌ بِهِمْ

وذلك أن إِرْهَافَ الحدِّ في التَّأديبِ مُضَرٌّ بِالْمُتَعَلِّمِ ، سَيِّمًا في أَصَاغِرِ الولدِ ،
15 لِأنَّه من سِوَةِ المَلَكَةِ . ومن كان مَرِياً بالتَّعسفِ والفَهر من المُتَعَلِّمين أو المِمالِيكِ أو
الخدمِ ، سَطَا بهِ الفَهر ، وَضَيَّقَ على النَّفْسِ في انبِساطِها ، وَذَهَبَ بِنشاطِها ، وَدَعَا
إِلَى الكَسَلِ ، وَحَلَّ على الكَذِبِ والخبْثِ ؛ وهو التَّظَاهُرُ بِغَيْرِ ما في ضَمِيرِهِ خَوْفاً

من أنبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادةً وخُلُقاً ، وفَسَدَتْ معاني الإنسانيّة التي له من حيث الاجتماع والتَّمَنُّن ، وهي الحيّة والمدافعة عن نفسه أو منزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك ، بل وكسَلَتْ النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانشَبَضَتْ عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فازنكس وعاد في أسفل سافلين.

5

وهكذا وقع لكل أمة حصّلت في قبضة القهر ونال منها العسف. واعتبره في كل / من يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به ، تجذ ذلك فيهم استقراء. وانظره في اليهود وما حصل فيهم بذلك من خلق السوء ، حتى إتهم يوصفون في كل أفي وعصر بالخرج ، ومغناه في الاصطلاح المشهور: التخاطب والكيد. وسببه ما قلناه.

10

فلذلك ينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يشتدوا عليهم في التأديب. وقد قال أبو محمد ابن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين⁽¹⁾ ، فقال: لا ينبغي للمؤدّب للصبيان أن يزيد في ضربهم - إذا احتاجوا إليه - على ثلاثة أشواط شيئاً. ومن كلام عمر رضي الله عنه: من لم يؤدّب الشّرع لا أدّبه الله ، حرصاً على صون النفوس عن مذلة التأديب ، وعلماً بأنّ المقدار الذي عبثه الشّرع لذلك أملاك له ، فإنه أعلم بمصلحته.

15

(1) تقدّم في 1: 226 ، ولعله لمحمد بن سحنون ، انظر آداب المعلمين 89 ، 92 ، وفيه: "أدب الصّبي ثلاث دبر ، فما زاد عليه قوصض به يوم القيامة". واعتبر ح.ج عبد الوهاب نسبة الكتاب لابن أبي زيد نخس اشتباه. (آداب المعلمين ، الصدر 1: 30).

ومن أحسن مذاهب التعليم، ما تقدّم به الرشيد لمعلّم ولّده؛ قال خُلف الأحمز: بعث إليّ الرشيد لتأديب ولّده محمد الأمين، فقال⁽¹⁾: يا أحمز، إن أمير المؤمنين قد دَفَعَ إليك مهمّة نفسه، وثمرة قلبه، فصيرَ يَدَكَ عليه مبسوطَةً، وطاعته لك واجبةً. فكُنْ له بحيثُ وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآنَ ، وعزّفه الأخبارَ، وزوّده الأشعارَ، وعلّمه السننَ، وبصّرَه بمواقع الكلامِ وبذّبه، وامنّعه من الضحك إلا 5 في أوقاته، وحُدّه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، وزرّع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تُمرّن بك ساعةً إلا وأنت مغتَمٌّ فائدة تُعيدُه إياها، من غير أن تُخزّنه فتميت ذهنه. ولا تُمعن في مُسامحته، فيستحلّي الفراغَ ويألفه. وقومَه ما استطعت بالقرّب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدّة والعظّة.

10 41 • فصلٌ، في أنّ الرّحلة في طلب العلومِ ولقاءِ المشيخة من يدُ كمالٍ في التعليمِ

/ والسبب في ذلك، أنّ البشرَ يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلّونهُ من [388] المذاهب والفضائل، تارةً علماً وتعلّماً والقاء، وتارةً محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة. إلا أنّ حصولَ الملكاتِ عن المباشرة والتلقين أشدَّ استحكاماً وأقوى رُسوخاً ، فعلى قدر 15 كثرة الشيوخ يكونُ حصولُ الملكة رُسوخاً.

(1) البيهقي : الحاسن والمساوي 2 : 402 .

والاضطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مُخلّطة على المتعلّم، حتّى لقد يُظنُّ كثيرٌ منهم أنّها جزءٌ من العِلْم، ولا يذُفَع عنه ذلك إلّا مباشرة لاختلاف الطّرق فيها من المُعلِّمين. فلقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يُفيدُ الاضطلاحات بما يراه من اختلاف طُرقهم فيها، فيجزّد العلم عنها، ويعلم أنّها أنحاءٌ تعلّم وطرقٌ توصيل. وتهضُّ قُوّاه إلى الرُّسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحّح معارفه ويميّزها عن سواها، مع 5 قُوّة ملكاته بالمباشرة والتلقين وكثرة⁽¹⁾ من المشيخة عند تعدّدهم وتنوّعهم. وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية.

فالرحلة لأبد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال. والله ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة، من

10

الآية 142].

42 • فصل، في أنّ العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها

والسبب في ذلك، أنّهم مُعتادون للتّظنّ^(ب) الفكريّ، والعنوص على المعاني واثرعها من المخسوسات، وتجريدها في الدّهن أموراً كليّة عامّة ليحكم عليها بأمر على العموم، لا بخصوص مادّة ولا شخّص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس، ويطبّقون من بعد ذلك الكلّي على الخارجيات. وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها 15 وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهّي، فلا تزال أحكامهم وأنظماؤهم كلّها في الدّهن،

(أ) ج: كثرها (ب) ج: النظر .

ولا تصيرُ إلى المطابقة / إلا بعد الفراغ من البحث والتظُر، أو لا تصيرُ بالجملة إلى (388ب) مطابقة، وإنما يتفرع^(أ) ما في الخارج عما في الذهن من ذلك، كالأحكام الشرعية، فإنها فروعٌ عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة، فيطلبُ مطابقة ما في الخارج لها، عكسَ الأنظار في العلوم العقلية التي يُطلبُ في صحتها مطابقتها لما في الخارج. 5 فهم مُتَقَوِّدون في سائر أقطارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية، لا يعرفون سواها.

والسياسة، يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج، وما يلحقها من الأخوال ويتبعها، فإنها خفيةٌ، ولعلَّ أن يكونَ فيها ما يمنع من إلحاقها بشيئٍ أو مثالٍ ويُنافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها. ولا يُقاس شيءٌ من أحوال العُمران على الآخر، إذ كما أشبهنا في أمرٍ واحدٍ، فلعلها اختلفا في أمور. فيكون العلماء لأجل ما تعودوه من 10 تعميم الأحكام، وقياس الأمور بعضها على بعض، إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أقطارهم وتوع استدلالاتهم، فيقعون في الغلط^(ب) الكثير، أو لا يؤمن عليهم.

ويلحق بهم أهلُ الذكاء والكيس من أهل العُمران، لأنهم يترعون بثقوب أذهانهم إلى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة، فيقعون في الغلط.

والعائمي السليم الطبع، المتوسط الكيس، بقصور فكره عن ذلك، وعدم 15 اعتياده إياه، يقتصر^(ج) لكل مادة على حكمها في كل صنف من الأخوال أو الأشخاص على ما اختص به، ولا يُعدِّي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يُقارن في أكثر

(أ) أي: يتفرع (ب) سقط من ط (ج) في حاشية ع وأمام السطر الذي اشتملت عليه هذه الكلمة، كلمة: نصير. بخطه. ولا مكان لها في كامل الصفحة، ولا توجد علامة مُخرج مُحدد مرقونها.

نَظَرَهُ الْمَوَادَّ الْمَحْسُوسَةَ، وَلَا يُجَاوِزُهَا فِي ذَهْنِهِ، كَالسَّاحِجِ لَا يَفَارِقُ الْمَوْجَ عِنْدَ الْبَرِّ،
قال⁽¹⁾: [من المقارب]

وَلَا تَوَغَّلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاجِلِ

فَيَكُونُ مَأْمُونًا مِنَ التَّنَظَّرِ فِي سِيَاسَتِهِ، مُسْتَقِيمَ النَّظَرِ فِي مُعَامَلَةِ أَنْبَاءِ جَنَابِهِ.
[1389] فَيَحْسُنُ مَعَاشُهُ، وَتَنْدَفِعُ آفَاتُهُ وَمَضَارُّهُ بِاسْتِقَامَةِ نَظَرِهِ. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ 5
عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف، من الآية 76].

وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ⁽¹⁾ أَنَّ صِنَاعَةَ الْمُنْطِقِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ الْغَلَطِ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ
الِاتِّبَاعِ، وَيُعْجِزُهَا عَنِ الْمَحْسُوسِ. فَإِنَّهَا تَنْظُرُ فِي الْمَقْعُولَاتِ التَّوَانِي، وَلَعَلَّ الْمَوَادَّ فِيهَا
مَا يُنْبِغُ تِلْكَ الْأَحْكَامَ وَيُنَافِيهَا عِنْدَ مُرَاعَاةِ التَّطْبِيقِ الْيَقِينِيِّ. وَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْمَقْعُولَاتِ
الْأَوَّلِ، وَهِيَ الَّتِي تَجَرِّدُهَا قَرِيبٌ، فَلَيْسَتْ كَذَلِكَ، لِأَنَّهَا خَيَالِيَّةٌ، وَضُورُ الْمَحْسُوسِ 10
حَافِظَةٌ مُؤَيَّدَةٌ بِتَضَدِّيقِ انْطِبَاقِهِ.

43 • فَصْلٌ، فِي أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ

مِنَ الْغَرِيبِ الْوَاقِعِ أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْثَرُهُمُ الْعَجَمُ، لَا مِنَ
الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَا مِنَ الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ، إِلَّا فِي الْقَلِيلِ التَّادِرِ. وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ الْعَرَبِيُّ

(1) سقط من ي .

(1) البيت للحريري، أوردته في المقامة المغربية . (المقامات 135 - صادر 1978) .

في نَسَبه، فهو أَعْجَبِيّ في لَفْتِه وَمَزِيَاةٌ وَمَشِيخَتِه. مع أَنَّ المِلَّةَ عَرَبِيَّةٌ، وصاحب شريعتهَا عَرَبِيٌّ.

والسَّبَبُ في ذلك، أَنَّ المِلَّةَ في أَوَّلِهَا لم يكن فيها عِلْمٌ ولا صِنَاعَةٌ لِمُتَقَصِّ
أَخْوَالِ السَّدَاجَةِ والْبَدَاوَةِ. وَإِنَّمَا أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ، الَّتِي هِيَ أَوْامِرُ اللَّهِ ونَوَاهِيهِ، كَانَ
5 الرِّجَالُ يَنْقُلُونَهَا فِي صُدُورِهِمْ، وقد عَرَفُوا مَأْخَذَهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِمَا تَلَقَّوْهُ مِنْ
صَاحِبِ الشَّرْعِ وَأَصْحَابِهِ. وَالْقَوْمُ يَوْمئِذٍ عَرَبٌ لم يَعْرِفُوا أَمْرَ التَّعْلِيمِ وَالتَّأْلِيفِ
وَالْتَّنُودِ، وَلَا دُفَعُوا إِلَيْهِ، وَلَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ.

وَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ زَمَنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ؛ وَكَانُوا يُسْمُونُ الْمُخْتَصِينَ
بِحَمْلِ ذَلِكَ وَقَوْلِهِ الْقُرْآنَ، أَيَّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ وَلَيْسُوا أَمَمِينَ، لَمَا أَنَّ الْأُمِّيَّةَ
10 يَوْمئِذٍ صِفَةٌ عَامَّةٌ فِي الصَّحَابَةِ بِمَا كَانُوا عَرَبًا، فَقِيلَ لِحَمَلَةِ الْقُرْآنِ يَوْمئِذٍ: قُرْآنٌ، إِشَارَةٌ
إِلَى هَذَا. فَهُمْ قُرْآنٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَالسُّنَّةِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ [رَسُولٍ] ⁽¹⁾ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ لم يَعْرِفُوا
الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَّا مِنْهُ، وَمِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي هُوَ فِي غَالِبِ مَوَارِدِهِ تَفْسِيرٌ لَهُ
وَشَرْحٌ. قَالَ ﷺ ⁽¹⁾: "تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَفْضِلُوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا، كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي".

فَلَمَّا بَعُدَ النَّقْلُ / مِنْ لَدُنْ دَوْلَةِ الرَّشِيدِ فَمَا بَعْدَ، اخْتِيجَ إِلَى وَضْعِ التَّفَاسِيرِ الْقُرْآنِيَّةِ [389ب]
15 وَتَشْيِيدِ الْحَدِيثِ مَخَافَةَ ضَيَاعِهِ. ثُمَّ اخْتِيجَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَسَانِيدِ وَتَعْدِيلِ الرِّوَاةِ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ

(١) زيادة بضمها الشاي .

(1) أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً (2618 برواية الليثي)، وقال ابن عبد البر: وهذا محفوظ معروف مشهور عن النبي ﷺ عند أهل العلم شهرةً يكاد يُستغنى بها عن الإسناد (التهجد 24: 331) .

الصحيح من الإسناد وما دونه. ثم كثر استخراج أحكام الوقعات من الكتاب والسنة،
وفسد مع ذلك اللسان، فاختيخ إلى وضع القوانين التحوية، وصارت العلوم الشرعية كلها
ملكاً في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس. واحتاجت إلى علوم أخرى
هي وسائل لها، من مغرفة قوانين العربية، وقوانين ذلك الاستنباط والقياس، والذنب
عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد. فصارت هذه الأمور كلها علوماً ذات
5 ملكات محتاجة إلى التعليم، فاندرجت في جملة الصنائع. وقد كنا قدّمنا أنّ الصنائع من
منتحل الحضرة، وأنّ العرب أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لئلك حضرة، وبعد
الغرب عنها وعن سوقها. والحضر لئلك العهد هم العجم أو من في مغناهم من الموالي
وأهل الحواضر، الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف،
لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس. فكان صاحب صناعة
10 التحو سببونه، والفارسي من بعده، والرجاج من بعدهما. وكلهم عجم في أنسابهم. وإنما زبوا
في اللسان العربي فاكسبوه بالمرزي ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وقتاً لمن بعدهم.
وكذلك جملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام، أكثرهم عجم أو مستعجمون
باللغة والمرزي، لاساع الف بالمرزي وما بعده⁽¹⁾. وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم، كما
تفرّف، وكنا حلة أعلم^(ب) الكلام، وكنا أكثر المفسرين. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا
15 الأعمام. وظهر مصداق قوله ﷺ⁽¹⁾: "لو تعلّق العلم بأغناق السماء لئلك قوم من فارس".

(1) ما بين التجميع حاشية من ع، وسقطت من ط ج ي (ب) في ط ج ي: أغل .

(1) في الصحيحين بالفاظ مقاربة: البخاري 6: 188 حديث رقم (4897) وليس فيه ذكر فارس ، ومسلم
. (2546)

/ وأما الغرب الذين أذكروا هذه الحضارة وسوقها، وخرجوا إليها عن البداوة، [1390] فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية وما دُفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والتفكير فيه، فإتهم كانوا أهل التولية وحاميتها وأولي سياستها، مع ما يلحقهم من الثقة [من] ^(١) انحلال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. والرؤساء أبداً يستكفون 5 عن الصنائع والمهن وما يحجر إليها. ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين، وما زالوا يزورون لهم حق القيام به، فإنه دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حملتها كل الاختيار.

حتى إذا خرج الأمر من الغرب جملة وصار للعجم، صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نفسها. وإمتن حملتها بما 10 يزور أنهم بقعاء عنهم، مشغولون بما لا يجدي علمهم في الملك والسياسة، كما ذكرناه في فضل المراتب الدينية. فهذا الذي قترناه هو السبب في أن كان ^(ب) حملة الشريعة أو عامتهم عجماً.

وأما العلوم العقلية أيضاً، فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومولفوه، واستقر العلم كله صناعة، فاخصت بالعجم، وتركها الغرب وانصرفوا عن 15 اشتغالها، فلم يحملها إلا المعربون من العجم، شأن الصنائع، كما قلناه أولاً. ولم يزل ذلك في الأمصار الإسلامية ^(ج) ما دامت الحضارة في العجم وببلادهم من العراقي وخراسان وما وراء النهر. فلما خربت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التي هي

(١) في ط ج ي: عن (ب) من ع، وسقط من ط ج ي (ج) زيادة بخطه من حاشية ع، ولم تذكر في ط ج ي.

سُرَّ الله في حصول العلوم والصنائع، ذهب العلم من العجم جملةً لما شملهم من البداوة، واختصَّ العلم بالأمصار الموفورة الحضارة.

ولا أُوَفِّر اليوم حضارة من مصر، فهي أمُّ العالم، وإبوان الإسلام، وينبوع العلوم والصنائع. وبقي / بعض الحضارة في ما وراء النهر، لما هُنَالِكَ من الحضارة بالنزلة التي فيها، فلم يبقَ بذلك حصّة من العلوم والصنائع لا تُنْكَر. وقد دُلْنَا [على 5 ذلك] كلام بعض علمائهم في تواليف وصلت إلينا، إلى هذه البلاد، وهو سَعْدُ الدين التفتازاني. وأما غيره من العجم، فلم تَر لهم - من بعد الإمام ابن الخطيب، وتفسير الدين الطوسي - كلاماً يُعَوِّل على نهايته في الإجابة.

فاعتبر ذلك وتأمَّلْ تَر عَجَباً في أحوال الخليقة. والله يخلق ما يشاء، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 163].

10

44 • (ب) فصل، في أن العُجْمَة إذا سَبَقَتْ إلى اللسان، قَصُرَتْ بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي

والسرُّ في ذلك، أن مباحث العلوم كلّها إمّا هي في المعاني الذهنية والخيالية من بين العلوم الشرعية التي أكثر مباحثها في الألفاظ، وموادّها من الأخكام المتلقاة

(أ) من ع ج، ي، وسقط من ط (ب) أصل عنوان هذا الفصل في فهرس نسخة ع وحدها: "في أن الأعيان من غلواء الملة قاصرون عن ملكات العلوم من غلواء العرب" تم شطب واستبدل في الحاشية بخطه بما أتيتاه. وهو ما نقلته ط ج. وسقط الفصل كله من ي، والفصل كله مدرج في بطاقة مقمحة بخطه في أصله ع.

من الكتاب والسنة، ولُغاتها المؤدّية لها^(١)، وهي كلّها في الخيال؛ وبين العلوم العقلية، وهي في النّهن.

واللّغاث إنّما هي تُرجان عمّا في الضّائر من تلك المعاني، يؤدّيها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم، ومُمارسة البحث في العلوم لتخصّيل ملكيّها بطول البران على ذلك. والألفاظ واللّغاث وسائطٌ وحُجُبٌ بين الضّائر، وروابطٌ 5 وختامٌ على المعاني. ولا بُدّ في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها بمعرفة دلالاتها اللّغوية عليها، وجوذة الملكة للتأظر فيها، وإلا فيغتاض عليه اقتناصها، زيادة على ما يكون في مباحثها الذهنية من الاغتيصاص.

وإذا كانت ملكته في تلك الدّلالات راسخة، بحيث تتبادر المعاني إلى ذهنه 10 من تلك الألفاظ عند استعمالها، شأن البدعيّ والجبليّ، زال ذاك الحجاب الجُملة بين المعاني والفهم، أو خفّ، ولم يبق إلا معاناه ما في المعاني من المباحث فقط. هذا كلّه إذا كان التعليم تلقيناً وبالخطاب والعبارة. وأمّا إن احتاج المتعلّم إلى المُدَارسَة والتقييد بالكتاب ومُشافهة / الرّسوم الخطيّة من التّواوين بمسائل العلوم، كان [1391] هنالك حجاب آخر بين الخطّ ورُسومه في الكتاب، وبين الألفاظ المُقولة في الخيال؛ لأنّ رُسوم الكتابة لها دلالة خاصّة على الألفاظ المُقولة، وما لم تُعرف تلك الدّلالة 15 تعذّرت معرفة العبارة. وإن عُرفت بملكّة قاصرة كانت معرفتها [منها]^(ب) أيضاً قاصرة. ويزداد على التأظر والمتعلّم بذلك حجاب آخر يتنه وبين مَطْلوبه من تحصيل ملكات

(١) ج: إليها (ب) من: ج ع .

العلوم أعوض من الحجاب الأول. وإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية والخطية مستحكمة، ارتفعت الحجب بينه وبين المعاني، وصار إنما يعاني فهم مباحثها فقط. هذا شأن المعاني مع الألفاظ والخط بالنسبة إلى كل لغة. والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكاماً للملكات.

- ثم إن اللمة الإسلامية لما اتسع ملكها، واندرجت الأمم في طيها، ودرست 5 علوم الأولين بنيتها وكتابتها، وكانت أمية الزعة والشعار، فأخذها الملك والعزة، وسُخرت⁽¹⁾ الأمم لهم بالحضارة والتهديب، وضيروا علومهم الشرعية صناعة بعد أن كانت شلاً، فحدث فيهم^(ب) الملكات، وكثرت التواوين والتواليف، وتشوفوا إلى علوم الأمم، فقلقوها بالترجمة إلى علومهم، وأفرغوها في قالب أنظارهم، وجردوها من تلك اللغات الأعجمية إلى لسانهم، وأزبنوا فيها على مداركهم، وبقيت تلك الدفائر 10 التي بلغت^(ج) [الأعجمية] نسياً منسياً وظللاً مهجوراً وهباءً منثوراً. وأصبحت العلوم كلها بلغة الغرب، ودواوينها المستطرفة بخطهم. واحتاج القارئ بالعلوم إلى معرفة الدلالات اللفظية والخطية في لسانهم دون ما سواه من الألسن، لئلا يفسد ذهاب العناية بها.

- وقد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط: صناعة ملكها في اليد. 15 فإذا / تقدمت في اللسان ملكة العجفة، صار مقصراً في اللغة العربية، لما قدمناه من أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل، قل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة

(1) في ج ع ظ: وسخرت (ب) ع ج: فيها (ج) سقط من ظ.

أخرى، وهو ظاهر. وإذا كان مقصراً في اللغة العربية ودلالاتها اللغوية والخطية اعتاض عليه فهم المعاني منها، كما مر. إلا أن تكون^(١) ملكة العجمة السابقة لم تستخكم حين انتقل منها إلى العربية كأصاغر أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستخكم عجمتهم، فتكون^(٢) اللغة العربية كأنها السابقة لهم، ولا يكون عندهم تقصير في فهم المعاني من اللغة العربية. وكذا أيضاً شأن من سبق له تعلم الخط الأعجمي قبل العربي.

ولهذا نجد الكثير من علماء الأعاجم^(ب) في دروسهم ومجالس تعليمهم يغدلون عن نقل التفسير من الكتب إلى قراءتها ظاهراً، يخفون بذلك عن أنفسهم مؤونة بغض الحجب، ليقرّب علمهم تنازل المعاني. وصاحب الملكة في العبارة والخط مستغني عن ذلك لتام ملكيته، وأنه صار له فهم الأقوال من الخط والمعاني من الأقوال، كالجيلة الراسخة، وارتفعت الحجب بينه وبين المعاني.

وربما يكون الثوب على التعلم، والمران على اللغة وممارسة الخط، يفضيان بصاحبها إلى تمكن الملكة، كما نجد في الكثير من علماء الأعاجم^(ب). إلا أنه في التادر. وإذا قورن بنظيره من علماء العرب وأهل طبقته منهم، كان باع العربي أطول، وملكته أقوى، لما عند المستفهم من الثور بالعجمة السابقة التي تؤثّر القصور بالضرورة.

ولا يعترض ذلك بما تقدم [بأن^(ج) علماء الإسلام أكثرهم العجم، لأن المراد بالعجم هنالك عجم النسب، لتداول الحضارة فيهم التي قرّزنا أنها سبب لانتحال الصنائع والملكات، ومن مجلتها العلوم. وأما عجمة اللغة فليست من ذلك،

(١) محطه في ع: يكون، فيكون (ب) من ط: وفي ع: الأعاجم (ج) في ج: ع: من أن، وفي ط: مع.

[392] i وهي المرادة هنا . ولا يُعترض ذلك أيضاً بما⁽¹⁾ كان لليونانيين في علومهم / من

رسوخ القدم ، فإنهم إنما تعلّموها من لغتهم السابقة لهم وخطّهم المعارف ينهم .

والأعجمي المتعلّم للعلم في الملة الإسلامية يأخذ العلم بغير لسانه الذي سبق إليه ، ومن غير خطّه الذي يعرف ملكته ؛ فلهذا يكون له ذلك حجاباً ، كما قلناه .

وهذا عالم في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي ، من الفُرس ، والروم ، والترک ،
والبنّير ، والفرنج ، وسائر من ليس من أهل اللسان العربي . وفي ذلك آيات
للمتوسمين^(ب) .

45 • فصل في علوم اللسان العربي

وأركانها أربعة ، وهي : اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب . ومعرفتها ضرورية

على أهل الشريعة ، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلّها من الكتاب والسنة ، وهما^(ج) بلغة
العرب ، وسقّلتها من الصحابة والتابعين عزّب ، وشرّح مُشكِليها من لغتهم . فلا بُدّ من
معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة . وتتفاوت في التأكّد بتفاوت
مراتبها في التوفيق بمقصد الكلام ، حسنهما يتبيّن في الكلام عليها فتاً فتاً . والذي
يتحصّل ، أن الأهمّ المقدم منها هو النحو ، إذ به تتبيّن أصول المقاصد بالدلالة ، فيُعرف
الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر ؛ ولولاه لجُهل أضلّ الإفادّة .

(1) من ج ع ، وفي ط : تما (ب) كنّا أوردها تضيئاً ، والآية ﴿ إِنَّمَا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن يَعْقِلُ ﴾ [سورة الحجر ، الآية 75]

(ج) ط ج ي : وهي .

وكان من حقِّ علم^(١) اللغة التّقديم، لولا أنّ أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغيّر، بخلاف الإغراب الدّالّ على الإِسناد والمُسند إليه، فإنّه تغيّر بالجملة، ولم يبقَ له أثر. فلذلك^(ب) كان علم النّحو أهمّ من اللغة، إذ في مخله الإخلال بالتّفاهم جملة. وليس كذلك اللغة، والله أعلم.

• النّحو

5

اعلم أنّ اللّغة في المتعارف، هي عبارة المتكلّم عن [مقصوده]^(ج). وتلك العبارة فعلٌ لسانيّ [ناشئ عن القصد بإفادة الكلام]^(د). فلا بُدّ أن تصوّر ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها، وهو اللّسان. وهو في كلّ أمة بحسب اضطرّاجهم.

وكانت الملكة الحاصلة من ذلك للعرب أحسن الملكات وأوضعها إبانة 10
/ عن المقاصد، للدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي [392ب] تُعَيّنُ الفاعل من المفعول من المجرور، أعني المضاف، ومثل الحروف التي تُفَضّي بالأفعال، أي الحركات، إلى النّوات من غير تكليف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلّا في لغة العرب. وأما غيرها من اللّغات، فكلّ معنى أو حال لا بُدّ له من ألفاظ تُخَصّص بالدلالة. ولذلك نجد كلام النّجم في مخاطباتهم أطول ممّا تُقدّره بكلام العرب. 15

(١) سقط من: ج ي (ب): ي. فذلك (ج) ج ط ي: قصوده. وفي أصل: قصوده. ثم أضاف لها الميم (د) إضافة بخطه في حاشية ع، وسقطت من ط ج ي.

وهذا هو معنى قوله ﷺ⁽¹⁾: "أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً".
فصار للخروف في لغتهم، والحركات والأوضاع، أي الهيئات، اعتباراً في الدلالة على
المقصود، غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها، إنما هي ملكة في ألسنتهم
يأخذها الآخر من الأول، كما يأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا.

- 5 فلما جاء الإسلام، وفارقوا الجحاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم
والثول، وخالفوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي
للمتفرقين من العجم. والسمع أبو الملكة اللسانية؛ ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها،
لجنوحها إليه باغتيال السمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة⁽¹⁾ رأساً،
ويطول العهد فينقلب القرآن والحديث على [الفهوم]^(ب). فاستنبطوا من مجاري
10 كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر
أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه، مثل: أن الفاعل مرفوع، والمفعول
منصوب، والمبتدأ مرفوع. ثم رأوا تغير الدلالة بتغير هذه الحركات، فاضطلحوا على
تسميته إغراباً، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً، وأمثال ذلك. وصارت كلُّها
اصطلاحات خاصة بهم، فكتبوها بالكتاب^(ج)، وجعلوها صناعة لهم^(د) مخصوصة،
15 واضطلحوا على تسميتها بعلم النحو.

(1) ظي: اللثة (ب) من ع، وفي ط ج ي: الفهوم (ج) ح: بالكليات (د) في ع منطوية.

(1) عبارة: "أوتيت جوامع الكلم" جاءت من حديث أبي هريرة عند البخاري (2977) و (7013) ومسلم (523). أما عبارة: "واختصر لي الكلام اختصاراً" فقد أوردها ابن خنجر في فتح الباري 13: 525 وعزاها إلى أبي يعلى، وفي سندها عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف.

/ وأوّل من كتب فيها أبو الأسود الدؤليّ، من بني كِنانة ، ويقال: بإشارة [١٣٩٣] عليّ ، رضي الله عنه . لأَنه رأى تغيّر الملكة فأشار عليه بحفظها ، ففرغ إلى ضبطها بالقوانين الحاصرة المُستقرّة. ثم كتب فيها الناس من بعده، إلى أن انتهت إلى الخليل ابن أحمد القراهيديّ، أَيْامَ الرّشيد ، أحوّج ما كان الناس إليها ، لذهاب تلك الملكة من القرب ، فهذب الصناعة وكَمَل أبوابها. وأخذها عنه سيبويه، فكمَل قاريها، 5 واستكثر من أدلّتها وشواهدِها ، ووضع فيها كتابه المشهور الَّذي كان إماماً لكلّ ما كتب فيها من بعده . ثم وضع أبو عليّ الفارسيّ [١] أبو القاسم الرّجّاجيّ كُتُباً مختصرةً للمُتعلّمين، يَحذُون فيها حَذْوَ الإمام في كتابه.

ثم طال الكلام في هذه الصناعة، وحذت الخلاف بين أهلها في الكوفة 10 والبصرة، المضريّين القديّمين للقرب. وكثُرَت^(ب) الأدلّة والججاج بينهم، وتباينت الطُرُق في التعليم، وكثُر الاختلاف في إغراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد، وطال ذلك على المتعلّمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار، فاختصروا كثيراً من ذلك الطول، مع استيعابهم لجميع ما نُقِل، كما فعله ابن مالك في كتاب التّسهيل، وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمُتعلّمين، وكما فعله الرّمّشخريّ 15 في المفضل، وابن الحاجب في المُقدمة له . وربّما نظّموا ذلك نظماً، مثل ابن مالك في الأُرجوزتين: الكُبرى والصّغرى، وابن مُعطى في الأُرجوزة الألفيّة.

(١) سقط من ط ح ي (ب) في ط ح ي : كثر .

وبالجملة، فالتواليُّفُ في هذا الفنَّ أكثرُ من أن تُحصَى أو يُحاطَ بها، وطُرق التعليم فيها مختلفةٌ. فطريقَةُ المتقدِّمين مغايرةٌ لطريقة المتأخِّرين، والكوفيُّون والبصريُّون والبغدادِيُّون والأندلسِيُّون مختلفَةٌ طرقهم كذلك^(١).

وقد كادت هذه الصَّنعةُ أن تؤذِنَ بالذهابِ، / لما رأينا من النقص في سائر [393ب]

العلوم والصناعات بتأقُّص الغفران. 5

ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور، ديوانٌ من مِصرَ، منسوبٌ إلى جمال الدين بن هشام، من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعرابِ جملةً ومفصلةً، وتكلَّم على الحروف والمفرداتِ والجمَل، وحَدَفَ ما في الصَّنعةِ من المتكرِّرِ في أكثر أبوابها، وسَمَّاهُ بالمغني في الإعرابِ. وأشار إلى نُكَبِ إعرابِ القرآن كُلِّها، وضبطها بأبوابِ وفصولٍ وقواعدٍ انتظمَتْ سائرُها؛ فوقِّفنا منه على عِلْمٍ جَمٍّ يشهدُ بعلوِّ قدرِه في هذه الصناعةِ ووُفُورِ بضاعتِه منها، وكأنَّه يَنحُو في طريقَتِه مِنحَى نَحْأِ أَهْلِ المُوَصِّلِ، افْتَقَرُوا أَثَرُ ابْنِ جَنِّيٍ وَاتَّبَعُوا مُصْطَلَحَ تَعْلِيمِهِ؛ فَأَتَى مِنْ ذَلِكَ بَشْيَءٍ عَجِيبٍ دَالٌّ عَلَى قُوَّةِ مَلَكِيَّتِهِ وَاضْطِلَاعِهِ^(ب). وَاللَّهُ ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة فاطر، من الآية 1]. 10

• عِلْمُ اللُّغَةِ

وهذا العِلْمُ هو بَيَانُ المَوْضُوعَاتِ اللُّغَوِيَّةِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَسَدَتْ مَلَكَةُ اللِّسَانِ 15 الْعَرَبِيِّ فِي الْحَرَكَاتِ الْمُسَمَّاةِ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْوِ بِالْإِعْرَابِ، وَاسْتَنْبَطَتِ الْقَوَانِينُ لِحْفَظِهَا

(١) ح ي: لذلك (ب) ي: اطلاع.

كما قلناه، ثم استمر ذلك الفساد بملاينة العجم ومخالطتهم، حتى تأذى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام القرب في غير موضوعه عندهم، مَيْلًا مع هَجْنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية، فاختيج إلى جفط الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية [التروس]^(أ) وما ينشأ [عنه]^(ب) من الجهل بالقرآن والحديث. 5

فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك، وأملوا فيه التواوين. وكان سابق الحنبلة في ذلك الحليل بن أحمد الفراهيدي، آلف فيها كتاب العين، فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها، من الثنائي، والثلاثي، والزباعي، والحماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي.

- 10 وتأتى له حصر ذلك بوجوه عديّة حاصرة . وذلك أن / جملة الكلمات (أ 394) الثنائية تخرج من [جمع] ج [الأعداد على التوالي، من واحد إلى سبعة وعشرين . وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد . لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع ^(د) كل واحد من السبعة والعشرين، فيكون سبعا وعشرين كلمة ثنائية . ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك، ثم الثالث ، والزابع . ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين، فيكون كلها أعداداً على توالي الغدي، من واحد إلى سبعة 15 وعشرين . فتجتمع كما هي [بالعمل المعروف] ^(هـ) عند أهل الحساب، [وهو أن تجمع الأول مع الأخير، ثم تضرب المجموع في نصف العدة] ^(د)، ثم تضاعف لأجل قلب

(أ) من ع، وفي ط ج ي: الترس (ب) من ع، وفي ط ج ي: عنها (ج) من ع، وفي ط ج ي: جمع (د) من ع، وفي ط ج ي: من (هـ) من ع ج، وسقط من ط (و) من ع وحدها في حاشية أضيفت بخطه .

الثَّانِي، لَأَنَّ التَّقْدِيمَ والتَّأْخِيرَ بين الحُرُوفِ مَعْتَبَرٌ فِي التَّرْكِيبِ، فَيَكُونُ الْخَارِجُ جُمْلَةً الثَّانِيَّاتِ.

وَتَخْرُجُ الثَّلَاثِيَّاتُ مِنْ ضَرْبِ عَدَدِ الثَّانِيَّاتِ فَمَا يَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سِتَّةٍ وَعَشْرِينَ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ ، لَأَنَّ كُلَّ ثَانِيَّةٍ تَزِيدُ عَلَيْهَا خَرْفًا فَتَكُونُ ثَلَاثِيَّةً. فَتَكُونُ الثَّانِيَّةُ بِمَنْزِلَةِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُرُوفِ الْبَاقِيَّةِ، وَهِيَ سِتَّةٌ وَعَشْرُونَ 5 خَرْفًا بَعْدَ الثَّانِيَّةِ. فَتَجْمَعُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى سِتَّةٍ وَعَشْرِينَ عَلَى تَوَالِي الْعَدَدِ، وَتَضْرِبُ فِيهِ جُمْلَةُ الثَّانِيَّاتِ؛ ثُمَّ تَضْرِبُ الْخَارِجَ فِي سِتَّةِ، جُمْلَةً مَقْلُوبَاتٍ⁽¹⁾ الْكَلِمَةُ الثَّلَاثِيَّةِ، فَيَخْرُجُ بِمَجْمُوعِ تَرَكيبِهَا مِنْ حُرُوفِ الْمَعْجَمِ. وَكَذَلِكَ فِي الزَّبَاعِيِّ وَالْخَمَاسِيِّ؛ فَانْخَصَرَتْ لَهُ التَّرَاكِيِبُ بِهَذَا الْوَجْهِ.

وَرَتَّبَ أَبَوَانَهُ عَلَى حُرُوفِ الْمَعْجَمِ بِالتَّرْتِيبِ الْمُتَعَارِضِ، وَاعْتَمَدَ فِيهِ تَرْتِيبَ 10 الْخَارِجِ؛ فَبَدَأَ بِحُرُوفِ الْخَلْقِ، ثُمَّ مَا تَبَعُهُ مِنْ حُرُوفِ الْحَنْكِ، ثُمَّ الْأَضْرَاسِ، ثُمَّ الشَّقَّةِ. وَجَعَلَ حُرُوفَ الْعِلَّةِ آخِرًا، وَهِيَ الْحُرُوفُ الْهَوَائِيَّةُ. وَبَدَأَ مِنْ حُرُوفِ الْخَلْقِ بِالْعَيْنِ، لِأَنَّهُ الْأَقْصَى مِنْهَا، فَلِذَاكَ سُمِّيَ الْكِتَابُ بِالْعَيْنِ، لَأَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يَذْهَبُونَ فِي تَسْمِيَةِ دَوَائِبِهِمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا ، وَهُوَ تَسْمِيَّتُهُ بِأَوَّلِ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَاظِ.

15

ثُمَّ بَيَّنَ الْمُهْمَلُ مِنْهَا وَالْمُسْتَقْفَلُ. / وَكَانَ الْمُهْمَلُ فِي الْخَمَاسِيِّ وَالزَّبَاعِيِّ أَكْثَرَ، لِقَلَّةِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ لَهُ لِثِقَلِهِ . وَلَجَّقَ بِهِ الثَّانِي لِقَلَّةِ دَوْرَانِهِ . وَكَانَ الْاسْتِعْمَالُ فِي

[394ب]

(1) فِي حَاشِيَةِ ع بَطْنُهُ: تَغَالِيِبُ .

الثلاثي أغلب، فكانت أوضاعه أكثر لدورانه. وضمن الحليل ذلك كله كتاب الغين، واستوعبه أحسن استيعاب وأفاءة.

وجاء أبو بكر الرندي، مكّتب هشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة، فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب، وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص. 5

وآلف الجوهري، من المشاركة، كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المفجّم؛ فجعل البداية منها بالهمزة، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة، لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم. (فيجعل ذلك باباً، ثم يأتي بالحروف أول الكلمة على ترتيب حروف المفجّم أيضاً ويترجم عليها بالفصول، إلى آخرها)⁽¹⁾. وحصر اللغة اقتداءً بحضر الحليل. 10

ثم آلف فيها من الأندلسيين^(ب) ابن سيده، من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد، كتاب المخكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب الغين، وزاد فيه التعرّض لاشتقاقات الكلم وتصريفها، فجاء من أحسن التواوين. ولخصه محمد بن أبي الحسين، [حاجب]^(ج) المشتتير من ملوك الدولة الحفصية بتونس، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وتبني التراجم عليها، فكانا توافقي رجم وسليبي أبنوة. [ولكنزاع، من أيقمة اللغة، كتاب المنجد، ولاين دُرَيْد كتاب الجفهرة، ولاين الأبناري كتاب الزاهر]^(د). 15

(1) من خطه بمخاضة وحدها (ب) ح: الأندلس (ج) من ع ي، وفي ط ج: صاحب (د) سقط من ط ج ي.

هذه أصولُ كُتِبَ اللّغة فيما غلّفناه. وهناك مختصراتٌ أُخرى مختصّةٌ بصنف من الكُتُبات، ومُستوعبةٌ لبعض الأنوابِ أو لَكُلِّها^(١). إلّا أنّ وَجْهَ الحِصْر فيها خُفِيّ، وَوَجْهَ الحِصْر في تلك جَلِيّ من قِبَل التّراكيب، كما رأيتُ.

ومن الكُتُبِ الموضوعِة أيضاً في اللّغة، كتابُ الرّمُشِريّ في الجازِ ، [وسمّاه أساسُ البلاغة]^(ب)، يُن فيهِ كَلّ ما تجوّزَتْ به القرب من الألفاظ، وفيما تجوّزَتْ به 5 من المذلولاتِ. وهو كتابٌ شريفٌ الإفادة.

[1395] ثمّ لما كانت العربُ تضعُ / الشّيءَ لمعنى على^(ج) العموم ، ثمّ تستعملُ في الأمور الخاصّة ألفاظاً أُخرى خاصّةً بها، فُرقَ ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال، واحتاجَ إلى فقه في اللّغة عزيز المأخذ. كما وُضِعَ الأبيضُ لكَلّ ما فيه يَبَاضُ ، ثمّ اختَصَّ [ما فيه البياض]^(د) ؛ من الخيل بالأشهب ، ومن الإنسان بالأزهر، ومن 10 الغنم بالأملح، حتّى صار استعمالُ الأبيض في هذه كلّها لحناً وخروجاً عن لسان العرب.

واختَصَّ بالتّأليف في هذا المنحى الثّعالبِيّ ، وأفرده في كتابٍ له سَمّاه فقه اللّغة. وهو من أكيد ما يأخذ به اللّغويّ نفسه، أن يحزف استعمالَ العربِ عن مواضعه. فلنيس معرفة الوضع الأوّل [يكافية]^(هـ) في التّركيب حتّى يشهدَ له استعمالُ 15 العربِ. وأكثرُ ما يحتاجُ إلى ذلك الأديبُ في فنيّ نظمه ونثره حَذَرٌ^(د) أن يكثرَ لحنُهُ

(١) ح: لَكُلِّها (ب) من ع وحدها (ج) سقط من ج (د) ح: الأبيض (هـ) في الأصول: بكاف (و) في ع ج ي: حذراً.

في الموضوعات اللغوية في مُفرداتها وتراكيبها، وهو أَشْرُ^(أ) من اللَّحْن في الإغرابِ وأَفْحَشُ.

و[وكذلك]^(ب) آلف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة، وتكفل بحضرها؛ وإن لم يبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مُستَوْعِبٌ للذكر.

5 وأما المختصراتُ الموجودةُ في هذا القَنْ المخصوصةُ بالمتداول^(ج) من اللغة الكثير الاستعمال، تسهلاً لحفظها على الطالب، فكثيرة، مثل الألفاظ لابن السكيت، والقصيح لثعلب، وغيرها. وبعضها أقلُّ لغةً من بعض اختلاف^(د) نظيرهم في الأهم على الطالب للحفظ. والله الخلاقُ العليم.

2. [فصل^(هـ)]

10 وعلم أن الثقلَ الذي تثبَّت به اللغة، إنما هو الثقلُ عن العرب أنهم استعملوا هذه الألفاظ لهذه المعاني، لا ثقل: إنهم وضعوها، لأنه متعذرٌ وبعيدٌ، ولم نعرف لأحد منهم.

وكذلك لا تثبَّت اللغات بقياس ما لم يُعرف استعماله على ما عُرف استعماله بجامع يشهدُ باختياره في الأول، شأن القياسات الفقهيّة، فيثبَّت الحُرُّ للتبذ 15 باستعماله في ماء العنب، باعتبار الإشكار الجامع. لأنَّ شهادة الاعتبار في باب

(أ) ج: أخذ (ب) ط ع، ولذلك (ج) من ع، وسقط من بقية النسخ ألف المدّ (د) ع: باختلاف (هـ) هذا الفصل من ع، وسقط من بقية النسخ للمعدة ط ج ي.

القياس، إنّا مدركها الشَّرْعُ الدالّ على صحّة القياس من أصله، وليس لنا مثله في اللّغة إلاّ بالغُفْل، وهو تحكُّم، وعلى هذا جمهور الأئمة؛ وإنّ مالاً إلى القياس فيها القاضي، وابنُ سُرَينج، وغيرهم، لكنّ القولُ بِنفيه أَرْحُ. ولا تتوهّم أن إثبات اللّغة من باب الحدود اللَّفْظِيَّة، لأنّ الحدّ راجعٌ إلى المعاني بيان أن مدلول اللَّفْظِ المجهول الحَقِّي هو مدلوله الواضح المشهور، واللّغة إثباتٌ أن لفظاً كذا مغنى كذا، والفرق في 5 غايّة الظُّهور⁽¹⁾.

• علمُ البيان

هذا العلمُ حادثٌ في المِلَّةِ بغد علم العربيّة واللّغة. وهو من العلوم اللّسانيّة، لأنّه متعلّق بالألفاظ وما تُفيدُه، ويقصدُ بها الدّلالةُ عليه من المعاني. وذلك أنّ الأمور التي يقصدُ بها المتكلّم إفادة السّامع من كلامه، هي إمّا تصوُّر [في]^(ب) مفرداتٍ تُسندُ 10 ويُسندُ إليها، ويُفَضَّى ببغضها إلى بغض، والدّالة على هذه هي المفرداتُ من الأسماء والأفعال والحروف، وإمّا تمييزُ المسنداتِ / من المُسندِ إليها والأزمنة، ويُدلُّ عليها [395ب] بتغيير الحركات، وهو الإغرابُ وأبنيّة الكلمات. وهذه كلّها هي صناعةُ النّحو.

ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدّلالة، أحوالُ المتخاطبين و[ج] الفاعلين، وما يقتضيه حالُّ الفعل، وهو محتاجٌ إلى الدّلالة عليه لأنّه من ثَمام 15 الإفادّة. وإذا حصلت للمتكلّم، فقد بلغ غايّة الإفادّة في كلامه. وإذا لم يشتمل منها

(1) نهاية الفصل الذي جاء في ع وحدها (ب) من ع وحدها (ج) في ع: أ.

على شيء، فليس من جنس كلام القرب؛ فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به، بعد كمال الإغراب والإبانة.

ألا ترى أن قولهم: زيد جاعني، مغاير لقولهم: جاعني^(أ) زيد، من قبل أن المقدم منها هو الأهم عند المتكلم. فمن قال: جاعني زيد أفاد أن اهتمامه بالجيء قبل الشخص المستند إليه، ومن قال: زيد جاعني^(ب) أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المستند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبنم أو مرفوعة.

وكذا تأكيد الإسناد في الجملة، كقولهم: زيد قائم، وإن زيداً قائم، وإن زيدا قائم، متغايرة كلها في الدلالة. وإن استوث من طريق الإغراب، فإن الأول العاري عن التأكيد إنما يفيد الحالي الذهن، والثاني المؤكد بل، يفيد المستند^(ج)، والثالث يفيد المنكر؛ فهي مختلفة.

وكذلك تقول: جاعني الرجل. ثم تقول مكانه بعينه: جاعني رجل، إذا قصدت بذلك التنكير تعظيماً، وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال. ثم الجملة الإسنادية تكون خبرية، وهي التي لها خارج تطابقه أو لا، وإنشائية، وهي التي لا خارج لها، كالطلب وأنواعه.

ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محل من الإغراب،

(أ) ي: ج. جاء (ب) سقط من ط ج ي (ج) من ع. وفي ط ج ي: التوكيد.

فَيَنْزِلُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةً التَّابِعِ الْمُفْرِدِ نَعْنَأُ [أَوْ] ^(١) تَوَكِيداً أَوْ بَدَلاً، فَلَا عَظْفَ. أَوْ يَتَعَيَّنُ
العطف إذا لم يكن للثانية محلٌّ من الإغراب.

ثم قد يقتضي المحلُّ الإطناب أو الإيجاز، فيوزد الكلام عليها ^(ب).

ثم قد تدلُّ باللفظ ولا تريد منطوقه، / وتريد لازمه إن كان مفرداً، كما
تقول: زيدٌ أسدٌ، فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقة، وإنما تريد شجاعته اللازمة، وتُسندُها 5
إلى زَيْدٍ. وتسمى هذه استعارة.

وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه، كما تقول: زيدٌ كثيرٌ زَمَادٍ
القُدورِ ^(ج)، وتريد به ما لَزِمَ ذلك عنه من الجود وقزى الضيوف، لأن كثرة الزماد
ناشئة عنها، فهي دالةٌ عليهما. وهذه كلها دلالاتٌ زائدةٌ على دلالاتِ الألفاظ المفردِ
والمركبِ. وإنما هي هيآتٌ وأحوالٌ للوقائع، جُعِلَتْ للدلالة عليها أحوالٌ وهيآتٌ في 10
الألفاظ، كُلٌّ بحسبِ ما يقتضيه مقامه.

فاشتملَ هذا العلمُ المسَمَّى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيآتِ
والأحوالِ في ^(د) المقامات، وجعل على ثلاثة أصناف:

الصنفُ الأولُ: يَبْحَثُ فيه عن هذه الهيآتِ والأحوالِ حتى يطابق باللفظ
جميعُ مُقتضياتِ الحالِ؛ ويسمى: علمُ البلاغة. 15

والصنفُ الثاني: يَبْحَثُ فيه عن الدلالة على لازمِ اللفظ أو ملزومه، وهي
الاستعارة والكناية، كما قلناه، ويسمى: علمُ البيان.

(١) ج ط ي: و (ب) ح: عليها (ج) ع: القنر (د) ي: و .

وَأَلْحَقُوا بِهَا صَنَفًا آخَرَ، وَهُوَ النَّظَرُ فِي تَزْيِينِ الْكَلَامِ وَتَحْسِينِهِ بِتَنْوَعٍ مِنَ التَّنْمِيقِ، إِمَّا بِسَجْعٍ يُقْصَلُهُ، أَوْ تَجْنِيسٍ يُشَابِهُ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ، أَوْ تَرْصِيعٍ يَقْطَعُ أَوْرَاقَهُ، أَوْ تَوْزِيَةٍ عَنِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِلِهَامٍ مَعْنَى أَخْفَى مِنْهُ، لِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِ بَيْنَهُمَا، أَوْ طِبَاقٍ بِالتَّقَابُلِ بَيْنَ الْأَضْدَادِ^(١)، وَأَمْثَالٍ ذَلِكَ. وَتَسَمَّى عِنْدَهُمْ: [علم] ^(ب)الْبَدِيعِ.

5 وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ اسْمُ الْبَيَانِ؛ وَهُوَ اسْمُ الصَّنْفِ الثَّانِي، لِأَنَّهُ الْأَقْدَمِينَ أَوَّلُ مَا تَكَلَّمُوا فِيهِ.

ثُمَّ تَلَا حَقَّتْ مَسَائِلُ الْقَنْ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَكُتِبَ فِيهَا جَفْفَرُ بْنُ يَحْيَى، وَالْجَاحِظُ، وَقُدَامَةُ، وَأَمْثَالُهُمْ، إِمْلَاءَاتٍ غَيْرَ وَاقِيَةٍ بِهَا. ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَسَائِلُ الْقَنْ تَكْمُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَى أَنْ مَحَضَ السَّكَّاكِيُّ زَيْنَتَهُ، وَهَذَبَ مَسَائِلَهُ، وَرَثَبَ أَبْوَابَهُ عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ آخَرًا مِنَ التَّرْتِيبِ، وَأَلَّفَ كِتَابَهُ الْمُسَمَّى بِالْمِفْتَاحِ فِي التَّخْوِ وَالتَّصْرِيفِ 10 وَالبَيَانِ، / فَجَعَلَ هَذَا الْقَنْ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ. وَأَخَذَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْ كِتَابِهِ، وَلَخَّصُوا [396ب] مِنْهُ أَمْهَاتٌ هِيَ الْمَتَدَاوِلَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ، كَمَا فَعَلَهُ السَّكَّاكِيُّ^(ج) فِي كِتَابِ التَّبْيَانِ، وَابْنُ مَالِكٍ فِي كِتَابِ الْمِضْبَاحِ، وَجَلَالُ الدِّينِ الْقَزْوِينِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيضَاحِ^(د) وَكِتَابِ التَّلْخِيسِ، وَهُوَ أَصْغَرُ حَنْجِيٍّ مِنَ الْإِيضَاحِ. وَالْعَنَائَةُ لِهَذَا الْعَهْدِ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَشْرِقِ 15 فِي الشَّرْحِ وَالتَّعْلِيمِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ.

وَبِالْجَمَلَةِ، فَالْمُشَارِقَةُ عَلَى هَذَا الْقَنْ أَقْوَمُ مِنَ الْمَغَارِبَةِ. وَسَبِيحُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ كِبَائِي فِي الْعُلُومِ اللَّسَانِيَّةِ، وَالصَّنَائِعِ الْكِبَالِيَّةِ تَوْجَدُ فِي وَفُورِ الْغُضْرَانِ، وَالْمَشْرِقِ أَوْفَرُ

(١) مِنْ حَاشِيَةِ ع، وَسَقَطَ مِنْ ظ ي (ب) مِنْ حَاشِيَةِ ع وَجَدَهَا بِمِثْلِهِ (ج) ع: السَّكَّاكِيُّ، خَطَأً (د) ع: وَفِي .

عُمراناً من المغرب، كما ذكرناه. أو نقول: لعناية العجم، وهم مُعظم أهل المشرق،
بتفسير الزمخشري، وهو كله مبني على هذا الفن، [بل] ^(أ) هو أصله. وإنا اختص
بأهل المغرب من أضافه علم البديع خاصة، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية،
وقرئوا له ألفاً، وعددوا أبواباً، وتوعوا أنواعاً، زعموا أنهم أحصوها من لسان القرب.
وإنا حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن علم البديع سهل المأخذ. وصعبت
5 عليهم مأخذ البلاغة والبيان * لدقة انظارها * ^(ب) وغموض معانيها، فتجافوا عنها.
ومن آلف في البديع من أهل إفريقية ابن رشيقي، وكتاب العمدة له مشهور. وجرى
كثير من أهل إفريقية والأندلس على منحاها.

واعلم أن شرة هذا الفن إنما هي في فهم الإنجاز من القرآن، لأن إعجازه في
وفاء الدلالة منه ^(ج) بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة. وهي أغلى مراتب
10 الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في اثباتها وجودة [إرضفها] ^(د) وتركيبها. وهذا
هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن ذكره. وإنا يدرك بعض الشيء منه من كان له
ذوق بمخالطة اللسان وحصول ملكيته، فيدرك من إعجازه على / قدر ذوقه. فلهذا
[1397] كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك، لأنهم فرسان الكلام
وحمايدته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصح.

وأخرج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون. وأكثر تقاسير المتقدمين عُقل
منه، حتى ظهر جاز الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير، وتبع آي القرآن

(أ) من ع وحدها (ب) سقط ما بين النجمين من ج (ج) ح : منها (د) ظ ج ي: وضفها .

بأحكام هذا الفن بما يُبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع
التفاسير، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة.
ولأجل هذا يتحاماها كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم
عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من
جنس كلامه، أو يعلم أنها بدعة فيعرض عنها ولا تضره في معتقده، فإنه يتعين عليه
5 النظر في هذا الكتاب للظفر بشيء من غرائب⁽¹⁾ الإنجاز، مع السلامة من البدع
والأهواء. والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل.

• علم الأدب

هذا العلم لا موضوع له يتنظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه
10 عند أهل اللسان* ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب
ومناحيهم. فيجمعون لذلك*^(ب) من حفظ كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة،
من شعر عالي الطبقة، وجميع منساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والتخو مبثوثة
أثناء ذلك، متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العريضة، مع ذكر
بعض من أيام العرب، يفهم به ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب
15 الشهيرة والأخبار العامة. والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من
كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه
إلا بعد فهمه، / فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.

[397ب]

(1) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (ب) ما بين الجيمين حاشية بخطه في ع، وسقط من ط ي .

ثم إنهم إذا أرادوا حذ هذا الفن ، قالوا : الأدب هو حفظ أشعار
 الغرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطرف ، يريدون من علوم اللسان ، أو
 العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهي القرآن والحديث ، إذ لا مدخل لغير
 ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند [كَلْفِهِمْ]^(أ) بصناعة
 البدع ، من التورية في أشعارهم وتزسيهم بالاضطلاحات العلمية . فاحتاج
 صاحب^(ب) هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قانئاً^(ج) على
 قههما .

وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعلّم ، أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة
 دواوين ، وهي : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للبرّد ، وكتاب البيان
 والتبيين للجاحظ^(د) ، وكتاب التوايد لأبي عليّ القالي البغدادي . وما سوى هذه
 الأربعة ، فتنبّع لها وفروع عنها . وكتب المحدثين في ذلك كثيرة .

وقد كان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر ، إذ
 الغناء إنما هو تلحينه . وقد كان الكتاب والفضلاء من الخواص في القولة العباسية ،
 يأخذون أنفسهم به جزواً على تحصيل أساليب [الشعر وفنونه]^(هـ) ، فلم يكن انتحاله
 قاذحاً في العدالة والمروعة . لو كان سلف أهل الحجاز بالمدينة وغيرها ينتحلون ذلك ،
 وهم الحجة على من سواهم^(و) .

(أ) ي: ظ: كلام (ب) سقط من ج (ج) ظ: قافّة (د) سقط من ج (هـ) ع: ج: العرب وفنونه (و) حاشية من ع
 وحدها .

وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصفهاني، وهو ما هو، كتابه في الأغاني. جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأسابيهم وأيامهم ودولهم، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المعنون للرشيدي، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعفري، إنه ديوان العرب، وجامع أشنات المحاسن التي سلفت لهم * في كد قر⁽¹⁾ 5 من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال، / ولا يُعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه؛ وهو الغاية التي نسمو إليها الأديب ويَقِفُ عندها، وأنى له بها. ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الإجمال فيما تكلفنا عليه من علوم المسان. والله الهادي للصواب.

46 • فصل، في أن اللغة ملكة صناعية

اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان 10 للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التركيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده 15 للسامع. وهذا هو معنى البلاغة.

(1) سخط من ج .

والملكات لا تحضل إلا بتكرار الأفعال، لأنَّ الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم يتكرَّر. فيكون حالاً. ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة. ثم [يزيد]^(١) التكرار، فيكون ملكة، أي صفة راسخة.

فالمُتَكَلِّم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم وكيفية تغييرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي 5 استعمال المفردات [في معانيها]^(ب) فيلقنها [أولاً]^(ب). ثم يسمع التراكيب بعدها، فيلقنها كذلك. ثم لا يزال سماعهم [ذلك]^(ج) يتجدد في كل لحظة ومن كل مُتَكَلِّم، واستعماله يتكرَّر، إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم.

هكذا تَصَيَّرَت الألسُن واللُغَات من جيل إلى جيل، وتعلَّمها الغنم والأطفال. وهذا معنى ما يقوله العامة من أنَّ اللغة للعرب بالطَّبع، أي بالملكة الأولى التي أُخِذَتْ 10 عنهم ولم يأخذوها عن^(د) غيرهم.

ثم إنَّه لما فَسَدَت هذه الملكة لُضِرَّ بمخاطبتهم الأعاجم، وسبَّبَ فسادها أنَّ التَّائِيَّ من الجيل صار يَسْمَعُ في العبارة عن المقاصد كَيْفِيَّاتٍ أُخْرَى غير الكيفيات [التي كانت] ^(هـ) للعرب، / فَيَغْبِرُّ بها عن مَقْصُودِهِ لَكَثْرَةِ [المخالطين]^(و) للعرب من 15 غيرهم، ويسمع كَيْفِيَّاتِ الْعَرَبِ أيضاً، فاختلطَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، وأخذَ من هذه وهذه. فاستُخْدَتْ ملكة وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فَسَادِ اللُّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

(١) ط: يكون (ب) من حاشية ع، وسط من ط ج ي (ج) ط: كذلك (د) ع: من (هـ) من حاشية ع (و) من ع، وفي ط ج ي: المخاطبين، وكانت كذلك في ع ثم أصلحت.

ولهذا كانت لُغَةُ قُرَيْشٍ أَفْصَحَ اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَصْرَحَهَا، لِبُعْدِهِمْ عَنِ بِلَادِ
 الْعَجَمِ مِنْ جَمِيعِ هَاجَتِهِمْ، ثُمَّ مِنْ أَكْتَنَفَتُهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ، وَهَذِيلٍ، وَخُزَاعَةَ، وَبَنِي كَثَنَةَ،
 وَعَظْلَانَ، وَبَنِي أَسَدٍ، وَبَنِي تَمِيمٍ. وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ عَنْهُمْ مِنْ رِبْعَةٍ، وَلَحْمٍ، وَجُدَامٍ،
 وَعَسَّانٍ، وَإِنَادٍ، وَقُضَاعَةَ، وَعَرَبِ الْيَمَنِ الْمَجَاوِرِينَ لِأَمَمِ الْفُرْسِ وَالزَّرُومِ^(١) وَالْحَبَشَةِ،
 5 فَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمْ نَامَةً الْمَلَكَةِ بِمُخَالَطَةِ الْأَعْلَامِ. وَعَلَى نِسْبَةِ بُعْدِهِمْ عَنْ قُرَيْشٍ، كَانَ
 الْإِجْتِمَاعُ بِلُغَاتِهِمْ فِي الصُّحَّةِ وَالْفَسَادِ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

47 • فَصْلٌ، فِي أَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، لُغَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مُغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ
 وَلُغَةٍ حَمِيرٍ

وذلك أَنَا نَحْدُثُهَا فِي بَيَانِ الْمَقَاصِدِ وَالْوَفَاءِ بِالدَّلَالَةِ عَلَى سَنَنِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ،
 10 وَلَمْ يُقَدِّمْ مِنْهَا إِلَّا دَلَالَةُ الْحَرَكَاتِ عَلَى تَعْيِينِ الْفَاعِلِ مِنَ [المفعول]^(ب)؛ فَاعْتَاضُوا مِنْهَا
 بِالْتَقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَبِقِرَائِنٍ تَدُلُّ عَلَى خُصُوصِيَّاتِ الْمَقَاصِدِ. إِلَّا أَنَّ الْبَيَانَ وَالْبَلَاغَةَ
 فِي اللِّسَانِ [المُضَرِّيِّ]^(ج) أَكْثَرُ وَأَعْرِقُ، لِأَنَّ الْأَلْفَافَ بِأَغْيَانِهَا ذَالَّةٌ عَلَى الْمَعَانِي
 بِأَغْيَانِهَا؛ وَيَتَقَيُّ مَا تَشْتَضِيهِ الْأَحْوَالُ، وَيُسَمَّى بِسَاطِ الْحَالِ، مُحْتَاجاً إِلَى مَا يُدَلُّ عَلَيْهِ.
 وَكُلُّ مَعْنَى لَا يَدُّ وَأَنْ تَكْتَفِيَهُ أَحْوَالٌ تَخْصُهُ، فَيَجِبُ أَنْ تُقْتَبَرَ تِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي تَأْيِيدِ
 15 الْمَقْصُودِ، لِأَنَّهَا صِفَاتُهُ. وَتِلْكَ الْأَحْوَالُ فِي جَمِيعِ الْأَلْسِنِ أَكْثَرُ مَا يُدَلُّ عَلَيْهَا بِالْأَلْفَافِ
 تَخْصُصُهَا بِالْوَضْعِ.

(١) شطبت في ع (ب) من ع، وفي ط ج ي: المنفل (ح) ط ج ي: العربي .

وأما في اللسان العربي، فإنما يُدَلَّ عليها بأحوالٍ وكيفياتٍ في تراكيب الألفاظ وتأليفها، من تقديم، وتأخير، أو حذف، أو حركة إغراب. وقد يُدَلَّ عليها بالحروف غير المستقلة.

[ولذلك] ⁽¹⁾ فتاوت طَبَقَاتُ الكلام في اللسان العربي بحَسَبِ تفاوتِ الدَّلالةِ على تلك / الكيفياتِ ، كما قَدَمناه . فكان الكلامُ العربيُّ لذلك أَوْجَزَ وأَقْلُ ألفاظاً 5 وعبارةً من جميع الألسُن. وهذا مَعْنَى قوله ﷺ ⁽¹⁾: "أوتيتُ جوامعَ الكلامِ، واختُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً".

واعتَبِرَ ذلك بما يُحْكِي عن عيسى بن عُمر وقد قال له بَعْضُ الثُّعَاةِ: إِنِّي أَجِدُ في كلامِ القَرَبِ تَكَرُّراً في قَوْلِهِم: زَيْدٌ قَاتِمٌ ، وَإِنَّ زَيْدًا قَاتِمٌ ، وَإِنَّ زَيْدًا قَاتِمًا ، والمعْنَى واحدٌ. فقال له: إِنَّ معانيها مختلفةٌ. والأَوَّلُ: إِفَادَتُهُ لِحَالِي الذَّهْنِ عن قيامِ زَيْدٍ، والثَّانِي: لِمَنْ سَمِعَهُ فَأَنْكَرَهُ، والثَّالِثُ: لِمَنْ عَرِفَ بالإِضْرَارِ على إنْكَارِهِ. فاختَلَفَتْ الدَّلالةُ باختلافِ الأحوالِ. 10

وما زالت هذه البلاغةُ والبيانُ دِينَنَ القَرَبِ ومُذَهَبَهُم لهذا العهدِ .
ولا تَلْتَفِتَنَّ في ذلك إلى خَرْفَسَةِ ⁽²⁾ الثُّعَاةِ ، أهلِ صناعةِ الإِغْرَابِ ، القاصِرةِ

(1) ط: وكذلك .

(1) قَدَمَ تخريجِهِ في صفحة 476 .

(2) في التاج عن الصاغاني: هو التخليط. ويفسره قول ابن عمر - وذكرت بالحاء بدل الحاء - : "هذه حرفسة في العلم وطريقة يسلكها القاصرون فيه" تهذيب ابن قيم الجوزية على مختصر سنن أبي داود 2: 427 .

مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت، وأن
 اللسان العربي فسدت، اعتباراً بما وقع أواخر الكلام من فساد الإغراب الذي
 يتدارسون قوانينه. وهي مقالة دسها التشيع في طبائعهم، وألقاها القصور في أفئدتهم.
 وإلا فنحن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تنزل في موضوعاتها الأولى، والتعبير
 5 عن المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامهم لهذا العهد. وأساليب
 اللسان [وفنونه] ⁽¹⁾ من التظم والتثر موجود في مخاطباتهم؛ وفيهم الخطيب المضطع في
 محافله ومجاميعهم، والشاعر المفلت على أساليب لغتهم، والتأني الصريح والطنيع
 السليم شاهديان بذلك. ولم ينفذ من أخوال اللسان المدون إلا حركات الإغراب
 في أواخر الكلام فقط، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة ومهيأ مغروفاً، وهو
 10 الإغراب؛ وهو يتض من أحكام اللسان.

وإنما وقعت العناية بلسان مضر، لما فسدت / بمخالطتهم الأعاجم حين استولوا [399ب]
 على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب، وصارت ملكته على غير الصورة التي
 كانت أولاً، فانقلب لغة أخرى. وكان القرآن متسلاً به، والحديث النبوي منقولاً
 بلغته، وهما أصل الدين والملة، فخشيت تناسيها وانفلاق الأفهام عنها بفقدان اللسان
 15 الذي تنزلاً به. فاخترت إلى تدوين أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه، وصار
 علماً ذا فصول وأبواب ومقدمات ومسائل، ستمه أهله بعلم التحري وصناعة العربية.
 فأصبح ^(ب) فتاً محفوظاً وعلماً مكتوباً وسُلماً إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله راقياً.

(1) من ع، وفي ط ج هـ: وقته (ب) ع: واضح .

ونعلما لو اغتنبتنا بهذا اللسان العربي لهذا العهد، واشتقرنا أحكامه، نعتاض
عن الحركات الإغريقية التي فسدت (في دلالتها بأمرٍ أخرى، وكيمايات^(أ) موجودة
فيه، وتكون له قوانين تخصها، و^(ب) لعلها تكون في أواخره، على غير المنهاج الأول
في لغة مضر، فلنست اللغات وملكانها مجانا.

- ولقد كان اللسان المضرّي مع اللسان الجفيريّ بهذه المثابة، وتغيّرت عند
مُضَرّ كثير من موضوعات اللسان الجفيريّ وتصريف^(ج) كلياته، يشهد بذلك الأتقال
الموجودة لدينا، خلافاً لمن يحمّله القصور على أنها لغة واحدة، يلتبس إجراء اللغة
الجفيريّة على مقاييس اللغة المضرّيّة وقوانينها، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في
اللسان الجفيريّ من القول، وكثير من أشباه هذا. وليس ذلك بصحيح. ولغة جدير
لغة أخرى مُغايرة للغة مُضَرّ في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحرّكاتها، كما هي لغة
العرب لعهدنا مع لغة مُضَرّ. إلا أنّ العناية بلسان مُضَرّ من أجل الشريعة، كما قلناه،
تحلّ على ذلك الاستقراء والاستنباط، وليس عندنا [نحن]^(د) لهذا العهد ما يحملنا
على مثل ذلك ويدعوننا إليه.

- ومما وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد / حيث كانوا من الأقطار،
شأنهم في النطق بالقاف، فإبتهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الأنصار،
كما هو مذكور في كتب العربية أنّه من أقصى اللسان [وما فوقه]^(هـ) من الحنك
الأعلى، أو لا ينطقون بها أيضاً من مخرج الكاف، وإن كان أسفل من موضع القاف

(أ) حاشية من ع وحدها بخطه (ب) ع: أو (ج) ع: تصريف (د) حاشية من ع وحدها (هـ) ي: وما لونه، خطأ.

وما يليه من الحنك الأعلى^(أ) كما هي، بل يجيئون بها مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الكاف والقاف.
 [وهذا]^(ب) موجودٌ للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق، حتى صار ذلك
 علامة عليهم من بين الأمم والأجيال، ومختصاً بهم لا يشارِكهم فيه غيرهم. حتى أن
 من يُريد التَّعَرُّبَ والانسساب إلى الجيل والدخول فيه، يحاكمهم في النطق بها. وعندهم
 5 أنه إنَّما يَتَمَيَّزُ العربي الصَّريحُ من الدخيل في العروبة [أو ج] الحضري، بالتطوق بهذه
 القاف. ويظهرُ من ذلك أنَّها لغةٌ مُضَرُّ بغيثها. فإنَّ هذا الجيلَ الباقيين معظمهم
 ورياستهم شرقاً وغرباً في ولدٍ منصور بن عكرمة بن حصَّة^(د) بن قيس بن عيلان
 ابن سلَّهم بن منصور، ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن
 منصور. وهم لهذا العهد أكثرُ الأمم في المغمور وأغلبهم؛ وهم من أغقاب مُضَرٍّ وسائر
 10 الجيل معهم [من بني كهلان]^(هـ) في التطوق بهذه القاف، أسوةً.

وهذه اللغة لم يَتَدَيَّعْها هذا الجيل، بل هي متوازنةٌ فيهم مُتَعاقِبَةٌ. ويظهرُ من
 ذلك أنَّها لغةٌ مُضَرُّ الأولين، و^(ز) لعلَّها لغةُ النَّبِيِّ ﷺ بغيثها، وقد ادَّعى ذلك فقهاءُ
 أهل البيت، ورَّعوا أنَّ من قرأ في أمِّ القرآن: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة،
 من الآية 6] بغير القاف الذي لهذا الجيل، فَقَدْ لَحَنَ وأفسدَ صلاته. وما أدري من
 15 أين جاء هذا؟ فإنَّ لغةَ أهلِ الأمصار أيضاً لم يَسْتَحْدِثْوها، وإنَّما تَنَاقَلُوها من لَدُنْ
 سَلَّهم، وكان أكثرهم من مُضَرٍّ بما نزلوا الأمصارَ من لَدُنْ الفتح. وأهلُ الجيل أيضاً لم
 يَسْتَحْدِثْوها، إلا أنَّهم أَبْعَدُ عن مُخَالَطَةِ الأعاجم من أهلِ الأمصار. فهذا^(ح) يَرْجِعُ فيما

(أ) حاشية من ع وحدها بخطه (ب) ط ج ي: وهو (ج) من ع ج، وسقط من ط ي (د) سقط من ي (هـ) من
 حاشية ع، ومن ج، وسقط من ط ي (و) ع: أو (ز) ع: فهذا

[400م] يوجد من اللغة لديهم أنه من / لغة سلفهم . وهذا مع اتفاق أهل الجليل كلهم شرقاً وغرباً في الطُّق بها، وأنها الخاصية التي يميّز بها العربي من الهجين والحضريّ.

•⁽¹⁾ والظاهر أن هذه القاف التي ينطق بها أهل^(ب) الجليل العربي البدويّ، هي^(ج) من مخرج القاف عند أولهم من أهل اللغة. وإن مخرج القاف مُتَّع، فأوّلُه من أعلى الحنك، وآخره تما يلي الكاف. فالتطُّق بها من أعلى الحنك هو لغّة 5 الأنصار، والتطُّق بها تما يلي الكاف هي لغّة هذا الجليل البدويّ. وهذا يتدفع ما قاله أهل التّين [عن^(د)] فساد الصّلاة يتركها في أمّ القرآن؛ فإنّ فقهاء الأنصار كلهم على خلاف ذلك، وبعيد أن يكونوا أهملوا ذلك؛ فوّجّه ما قلناه.

نعم، نقول: إنّ الأرجح والأولى ما ينطق به أهل الجليل البدويّ، لأنّ ثواترها فيهم - كما قد قدّمناه - شاهد بأنّها لغّة الجليل الأوّل من سلفهم، وأنّها لغّة التي ¹⁰ ~~تلك~~ وتزجج ذلك أيضاً إذغامهم لها في الكاف، لتقارب المخرّجين. ولو كانت كما ينطق بها أهل الأنصار من أصل الحنك، لما كانت قريبة المخرج من الكاف ولم تدغم. ثمّ إنّ أهل العريّة قد ذكروا هذه القاف القريبة من الكاف، وهي التي ينطق بها أهل الجليل البدويّ من الغرب لهذا العهد، وجعلوها^(هـ) متوسطة بين مخرّجي القاف والكاف على أنّها حرفٌ مستقلّ، وهو بعيد. والظاهر أنّها من آخر 15 مخرج القاف، لانتساعه كما قلناه.

(1) ما بين النجسين (من هنا إلى آخر النصل) ملحوظ في بطاقة ملصقة في ع، وشئتُها عنها ط ج، ولم ترد في ي (ب) سقط من ج (ج) في ع بخطه: هو، وعُدلناه بما هو الأصوب (د) ط: من (هـ) كذلك كانت في ع، ثمّ كتب فوقها: ورعوها. ثمّ عاد إلى الأوّل بكلمة صح فوقها .

ثم إنهم يُصَرِّحون باستهجانهِ واستِغْياجهِ، كأنهم لم يصحَّ عندهم أنَّها لغةُ الجليل الأولى. وفيما ذكْرناه من اتِّصالِ نُظْمِهِم بها، لأنهم إنَّما وِثَوْها من سلفِهِم جيلاً بعد جيلٍ، وأنَّها شِعَارُهُم الخاصُّ بهم، دليلٌ على أنَّها لغةُ ذلك الجيلِ الأوَّلِ، ولُغَةُ النبي ﷺ، كما تقدَّم ذلك كُلُّهُ.

- 5 وقد يزعمُ زاعمٌ / أنَّ هذه القافَ الَّتِي يتطَّقُ بها أهلُ الأمصارِ ليست من [1401]
هذا الحزفِ، وأنَّها إنَّما جاءتْ من مُخالَظَتِهِم للتعجُّمِ، وأنَّهم يتطَّقونَ بها كذلك،
فلَيْست من لُغَةِ العربِ. لكنَّ الأَقْبَسَ ما قدَّمناه من أنَّها حَزْفٌ واجِدٌ، مُتَّسِعُ
الخُرْجِ. فَتَمَّ ذلك. والله الهادي المُبِينُ^(١).

48 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ لُغَةَ^(ب) الْحَضَرَ وَالْأَمْصَارَ لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا مُخَالَفَةً
لِللُّغَةِ مُضَرٍّ

10

اعْلَمْ أَنَّ عُرْفَ التَّخاطُبِ فِي الْأَمْصَارِ وَبَيْنَ الْحَضَرِ، لَيْسَ بِلُغَةٍ مُضَرِّ الْقَدِيمَةِ
وَلَا بِلُغَةِ أَهْلِ الْجَبَلِ، بَلْ هِيَ لُغَةٌ أُخْرَى قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، بَعِيدَةٌ عَنِ لُغَةِ مُضَرٍّ وَعَنِ لُغَةِ
هَذَا الْجَبَلِ الْقَرِيبِ الَّذِي لَقَدْ بَدَأْنَا. وَهِيَ عَنِ لُغَةِ مُضَرٍّ أَبْعَدُ.

فَأَمَّا أَنَّهَا لُغَةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، فَهُوَ ظَاهِرٌ، يَشْهَدُ لَهُ مَا فِيهَا مِنَ التَّغَايُرِ الَّذِي
يُعَدُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ النُّحُو لُحْنًا. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْصَارِ فِي

15

(١) آخر الملحق في البطاقة الملتصقة في ع، ونقلنا عنها ط ج، ولم يرد في ي (ب) في: لغة أهل الحضر.

اضطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مُباينةٌ بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس مغها. وكُلٌّ منهم متوصلٌ بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإغراب ليس بضائر لهم، كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد.

- 5 وأما أنها أبعد عن اللسان [الأول من لغة هذا الجيل، فلأئ البعد عن اللسان] ^(أ) إنا هو بمخالطة العجم ^(ب). فمن [خالط] ^(ج) العجم أكثر كانت لغته عن ذلك ^(د) اللسان الأصلي أبعد. لأن الملكة إنا تحصل بالتعليم، كما قلناه. وهذه ملكة مُتَرَجَّةٌ من الملكة الأولى التي كانت للعرب، والملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعون من العجمة ويُرتَوْنَ عليه، يتعدون عن الملكة الأولى.
- 10 واعتبر ذلك في أمصار إفريقية والمغرب والأندلس والمشرق. أما إفريقية والمغرب، فخالط ^(هـ) العرب فيها البرابرة من العجم لوفور عمرانها بهم، ولم يكذب يخلو عنها مضر ولا جيل. فقلبت العجمة على اللسان العربي الذي كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة. والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان / الأول أبعد. وكذا المشرق لما غلب [العرب] ^(و) على أميه من فارس والترك، فخالطهم وتداولت ^(ز) بينهم لغاتهم في الأكره والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم حولا ودايات وأطارا ومراضع، ففسدت لغتهم بفساد الملكة، حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلائفة والإفرنجية. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة

(أ) من حاشية ع وحدها (ب) ح: العجمة (ج) من ع. وفي ط ج ي: خالطه النختم (د) من ع. وفي ط ج ي: هذا (هـ) ط ج ي: مخالطه (و) من حاشية ع وحدها (ز) من ع ج: وفي ط ي: وتداولت. خطأ.

بهم، تخالف لغة مضر، ويخالف أيضاً بعضها بغضاً كما نذكره. وكانت لغة أخزى لاستحكام ملكيتها في أجيالهم. ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (سورة آل عمران، من الآية 47).

49 • فصل، في تعلّم اللسان المضري

اعلم أنّ ملكة اللسان المضريّ لهذا العهد قد ذهبت وفسدت. ولغة أهل الجبل كلّهم مُغايرةٌ للغة مضر التي نزل بها القرآن. وإنا هي لغة أخرى من امتزاج العجمة بها، كما قدّمناه. إلا أنّ اللغات لما كانت ملكات، كما مرّ، كان تعلّمها ممكناً، شأن سائر الملكات.

ووجه التعليم لمن ينتفي هذه الملكة ويروم تحصيلها، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث، وكلام السلف، ومُخاطبات فحول القرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلام⁽¹⁾ المولدين أيضاً في سائر فنونهم، حتى يتنزّل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقّن العبارة عن المقاصد منهم. ثم يتصرّف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره، على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم. فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستيعال، وتزداد بكثرتها رُسوخاً وقوة.

15 ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطّبع، والتّهمّ الحسن لمنابع الغرب وأساليبهم في التراكيب، ومراعاة التطبيق بينها وبين مُقتضيات الأحوال. / والنّوّى يشهد لذلك. [402] 1

(1) ع: كلاب.

وهو ينشأ من هذه الملكة والطبع السليم فيها، كما نذكر بعد. وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة القول المؤلف⁽¹⁾ نظماً ونثراً. ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة مضر، وهو التأقّد البصير بالبلاغة فيها؛ وهكذا ينبغي أن يكون تعلّمها. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة، من الآية 213].

50 • فصل، في أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية، ومستغنية عنها في التعليم

والسبب في ذلك، أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً، مثل أن يقول بصير بالحياطة غير مخكم لملكها في التعبير عن بعض أنواعها: الحياطة هي أن تدخل الخيط في خزب الإبرة، ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا، ثم تزدّها إلى حيث ابتدأت، وتخرجها قدّام منفذها الأول بمطرح ما بين الثقبين الأولين. ثم يتأدّى على وصفه إلى آخر الغمل، ويغطي صورة الخنك والثنيب^(ب) والتفتيح وسائر أنواع الحياطة وأعمالها؛ وهو إذا طوّل أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئاً.

وكذا لو سئل عالم بالتجارة عن تفصيل الخشب، فيقول: هو أن تضع المنشاز

(1) ج ي: المصوغ، وكذلك كانت في ع، ثم شطبت واستبدلت بما ألقاه (ب) كذا في الأصول، ولعلها: التثبيت.

على رأس الخشبة، وتُسيك بطرفه، وآخر قبالتك نمسك بطرفه الآخر، وتُعاقيه
بينكما، وأطرافه المضرسة المحددة تُقطع ما مرّت عليه ذاهبةً وجائئةً، إلى أن تنتهي
إلى أسفل الخشبة. وهو لو طوّل بهذا العمل أو شيء منه، لم يُحْكَمْ.

وهكذا⁽¹⁾ هو العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نسيها، فإنّ العلم
5 بقوانين الإعراب إنّما هو علمٌ بكيفية العقل [و] ^(ب) ليس هو نفس العقل . / ولذلك [402هـ]
نجد كثيراً من تهايدة الثعاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، إذا
سُئِلَ في كتاب سطرّين إلى أخيه أو ذي مودّته، أو شكوى ظلامة أو قضدٍ من
قُصوده، أخطأ فيها الصواب، وأكثر من اللّحن، ولم يُجد تأليف الكلام لذلك والعبارة
عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي.

وكذا نجد كثيراً من يُحسِن هذه الملكة، ويُجيد الفتن من المنظوم والمنثور،
10 وهو لا يُحسِن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المنحور، ولا شيئاً من
قوانين صناعة العربية. فمن هنا تعلّم أنّ تلك الملكة هي غير صناعة العربية، وأنها
مُسْتَفْتَنَةٌ عنها بالجملة.

وقد نجد بعض المهرة في صناعة الإعراب، بصيراً بحال هذه الملكة، وهو
15 قليلٌ واتّفاقٍ. وأكثر ما يقع للمخالطين لكتاب سيبويه، فإنّه لم يقتصر على قوانين
الإعراب فقط، بل ملأ كتابه من أمثال الغرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم؛ فكان
فيه جزءٌ صالحٌ من تعليم هذه الملكة، فتجد العاكف عليه والحصل له قد حصل على

(1) ي: وهنا (ب) من ع وحدها .

حظاً من كلام العرب، واندَرَج في مَحْفُوطِهِ في أَمَاكِه ومَفَاصِل حاجاته، وتَنَبَّه [به]^(١) لَشَأْنِ الْمَلَكَةِ فاستَوْفَى تعلِيمَهَا، فكان أَبْلَغَ في الإِفَادَةِ.

ومن هؤلاء الْمُخَالِطِينَ لَكِتَابِ سَيِّئِيهِ، من يَفْعُلُ عن التَّقَطُّنِ لهذا، فيَحْصُلُ على علم اللِّسَانِ [صِنَاعَةً]^(ب)، ولا يَحْصُلُ عليه مَلَكَةٌ.

5 وأَمَّا الْمُخَالِطُونَ لَكِتَابِ الْمُتَأَخِّرِينَ، الْعَرَبِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ، إِلَّا مِنْ الْقَوَائِنِ النُّحَوِيَّةِ مَجْرَدَةً عَنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهِمْ، فَقَلُّ مَا يَشْعُرُونَ لِذَلِكَ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ أَوْ يَتَنَبَّهُونَ لَشَأْنِهَا. فَتَجِدُهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا عَلَى رَتَبَةٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ، وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْهُ.

10 وأَهْلُ صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ وَمُعَلِّمُوهَا، أَقْرَبُ إِلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ وَتَعَلُّمِهَا مِنْ^(ج) سِوَاهُمْ، لِقِيَابِهِمْ فِيهَا / عَلَى شَوَاهِدِ الْعَرَبِ وَأَمْثَالِهِمْ، وَالثَّقَفَةِ فِي الْكَثِيرِ [1403] مِنْ التَّرَاكِبِ فِي مَجَالِسِ تَعْلِيمِهِمْ. فَيَنْسَبِقُ إِلَى الْمُبْتَدِئِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ أَثْنَاءَ التَّعْلِيمِ، فَتَنْطَلِجُ النَّفْسُ بِهَا وَتَسْتَعِدُّ إِلَى تَحْصِيلِهَا وَقَبُولِهَا.

15 وَأَمَّا مِنْ^(د) سِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ وَإِفْرِيقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، فَأَجْزَأُ صِنَاعَةَ الْعَرَبِيَّةِ بِجَزَى الْعُلُومِ بَحْثاً، وَقَطَعُوا النَّظَرَ عَنْ الثَّقَفَةِ فِي تَرَكَيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ، إِلَّا إِنْ أَغْرَبُوا شَاهِداً، أَوْ رَجَحُوا [مَعْنَى]^(هـ) مِنْ حِجَّةِ الْاِقْتِضَاءِ الذَّهْنِيَّةِ، لَا مِنْ حِجَّةِ مُحَامِلِ اللِّسَانِ وَتَرَكَيبِهِ. فَأَصْبَحَتْ صِنَاعَةُ الْعَرَبِيَّةِ [عِنْدَهُمْ]^(و) كَأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ قَوَائِنِ الْمُنْطَلِقِ الْعَقْلِيَّةِ

(١) سقط من ط (ب) في ط ج ي: ملكة، وكانت كذلك في أصل ع، ثم استبدلها في الحاشية بخطه: صناعة (ج) كذا في ع، وفي ط ج ي: بمن (د) مقحمة في نسخة ع، وسقطت من القيمة (هـ) من ع، وفي بقية الأصول: ذهناً (و) مقحمة في ع، وسقطت من بقية الأصول.

والجَدَلِ، وَتَعَدَّتْ عَنْ مَنَاحِي اللِّسَانِ وَمَلَكَتْهُ. وَأَفَادَ ذَلِكَ حَمَلَتَهَا فِي هَذِهِ الْآفَاقِ وَأَمْصَارِهَا الْبُعْدَ عَنِ الْمَلَكَةِ بِالْكَلِّيَّةِ؛ وَكَاتَمَتْ لَا يَنْظُرُونَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَعُدُولُهُمْ عَنِ الْبَحْثِ فِي شَوَاهِدِ اللِّسَانِ وَتَرَائِيهِ وَتَفْصِيلِ أَسَالِيهِ، وَغَفْلَتُهُمْ عَنِ الْمِيزَانِ فِي ذَلِكَ لِلْمَتَّعَلِّمِ. فَهُوَ أَحْسَنُ مَا يَفِيذُهُ الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ؛ وَتِلْكَ الْقَوَانِينُ، إِنَّمَا هِيَ 5 وسائلٌ لِلتَّلْعِيمِ؛ لَكُنْهُمْ أَجْزَوْهَا عَلَى غَيْرِ مَا قُصِدَ بِهَا، وَأَصَارُوهَا عِلْمًا بَحْتًا، وَتَعْدُوا عَنْ تَقَرُّعِهَا.

وَتَعَلَّمَ مَا قَرَزَنَاهُ فِي هَذَا الْبَابِ، أَنَّ حَصُولَ مَلَكَةِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، إِنَّمَا هُوَ بَكْثَةُ الْحِفْظِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ حَتَّى يَرْتَسِمَ فِي خِيَالِهِ الْمُنَوَالُ الَّتِي تَسْجُوا عَلَيْهِ تَرَائِيَهُمْ، فَيَنْسِجُ هُوَ عَلَيْهِ، وَيَتَرْتَّلُ بِذَلِكَ مِثْرَلَةً مِنْ نَشْأٍ مَعَهُمْ وَخَالَطَ عِبَارَاتِهِمْ فِي 10 كَلَامِهِمْ، حَتَّى حَصَلَتْ لَهُ الْمَلَكَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ فِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْمَقَاصِدِ عَلَى نَحْوِ كَلَامِهِمْ. وَاللَّهُ مَقْدَرُ [الْأُمُور] ⁽¹⁾.

51 • فَصْلٌ، فِي تَفْسِيرِ لَفْظَةِ ^(ب) الذَّوْقِ فِي مُصْطَلَحِ أَهْلِ الْبَيَانِ، وَتَحْقِيقِ مَعْنَاهَا، وَبَيَانِ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ غَالِبًا لِلْمُسْتَعْرِضِينَ مِنَ الْعَجَمِ

اعْلَمْ أَنَّ لَفْظَةَ الذَّوْقِ، يَتَدَاوَلُهَا الْمَعْنِيُّونَ بِقُنُونِ الْبَيَانِ، وَمَعْنَاهَا حَصُولُ 15 مَلَكَةِ الْبَلَاغَةِ لِللِّسَانِ. وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ الْبَلَاغَةِ، / وَأَنَّهَا مُطَابَقَةُ الْكَلَامِ لِلْمَعْنَى مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِه بِخَوَاصِّ تَقَعٍ لِلتَّرَاكِبِ فِي إِفَادَةِ ذَلِكَ. فَالْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَالْبَلِغُ فِيهِ،

(1) ط: الليل والنهار (ب) سقط من ي .

يتحرى الهيئة^(١) المفيدة لذلك على أساليب الغرب وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه مجتهداً. فإذا اتصلت معاناته لذلك بمخالطة كلام العرب، حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد يخطئ فيه عن منحنى البلاغة التي للعرب. وإن سمع تركيباً غير جارٍ على ذلك المنحنى مجتهداً وتباً عنه سمعه بأذن فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفادة من حصول هذه الملكة. 5 فإن الملكات إذا استقرت ورسخت في محالها، ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المخل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات، أن الصواب للعرب في لغتهم إغراباً وبلاغةً أمرٌ طبيعي، ويقول: كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك. وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت، فظهر في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع.

10

وهذه الملكة، كما تقدم، إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع، والتقطن لخواص تراكيبه. وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة البيان، فإن هذه القوانين إنما تُفيد علماً بذلك اللسان، ولا تُفيد حصول الملكة بالفعل في محلها. وقد مر ذلك.

وإذا تقرر ذلك، فلكمة البلاغة في اللسان، تُهدي البليغ إلى وجوه النظم 15 وخصن التركيب، الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم. ولو زام صاحب هذه الملكة خيراً عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه، ولا وافقه

(١) ي : الفنة .

عليه لسانه؛ لأنه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الزائغة عنده. وإذا عُرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وتلاعتهم في نظم كلامهم؛ أعرض عنه / ومجّه، [1404] وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم. وربما يعجز عن الاختجاج لذلك، كما يصنع أهل القوانين التحوية والنباتية، فإن ذلك استدلالاً بما حصل من القوانين المفادّة بالاستقراء، وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب، حتى 5 يصير كواحد منهم.

ومثاله: لو فرضنا صبيّاً من صبيانهم، نشأ ورّبي في جيلهم، فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإغراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها، وليس من العلم القانوني في شيء، وإنّا هو بمحصول هذه الملكة في لسانه ونطقه. وكذلك تحصل هذه 10 الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وحُطهم والمداومة على ذلك، بحيث تحصل الملكة ويصير كواحد ممن نشأ في جيلهم ورّبي بين [أخيانهم]⁽¹⁾. والقوانين بمعزل عن هذا.

واسْتَعِيرَ لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق، الذي اصطُلح عليه أهل صناعة البيان. والذوق إنّما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محلّ 15 هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام، كما هو محلّ الإدراك الطعوم، استعير لها اسمها. وأيضاً فهو وجداني للسان، كما أنّ الطعوم محسوسة له. فقيل له: ذوق.

(1) من ع. وفي ط ج ي: أحياءهم.

وإذا تبين لك ذلك، غلفت منه أن الأعاجم الداخلين في اللسان العربي،
 الطائرتين عليه، المضطرتين إلى التطق به لخالطة أهليه، كالفرس والروم والترك
 بالمشرك، والبرز بالمغرب، فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق، لقصور خطهم في هذه
 الملكة التي قرروا أمرها. لأن قضاهاهم بعد طائفة من العمر، وسبق ملكة أخرى إلى
 [لسانهم]^(١)، وهي لغاتهم، أن يفتنوا بما يتداوله أهل المضرب بينهم في المحاورزة من
 مفرد ومركب، لما يضطرون إليه من ذلك.

[404ب] وهذه الملكة قد ذهب لأهل الأنصار ويعدوا عنها، / كما تقدم. وإنما لهم
 في ذلك ملكة أخرى، وليست هي ملكة اللسان المطلوبة. ومن عرف أحكام تلك
 الملكة من القوانين [المستطرفة]^(ب) في الكتب، فليس من تحصيل الملكة في شيء،
 إنما حصل أحكامها، كما عرفت. وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتیاد والتكرار
 لكلام العرب. فإن عرّض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري
 وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجّاماً مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك
 القوم الذين تسمع عنهم، إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط، وأما المزني والنشأة، فكانت
 بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم. فاستولوا بذلك من الكلام على
 غاية لا وراءها، وكأنتهم في أول نشأتهم بمنزلة الأصاغر من العرب الذين نشأوا في
 [أحيائهم]^(ج)، حتى أذكروا كنه اللغة وصاروا من أهلها. فهم وإن كانوا عجماً في
 النسب، فلينسوا بأعجام في اللغة والكلام؛ لأنهم أذكروا الملة في عتوانها، واللغة في

(١) من ع، وفي ط ح ي: اللسان (ب) ط: المسطرة (ج) ح: أحيائهم.

شبابها، ولم تذهب آثارُ الملكة [منها]^(١) ولا من أهل الأمصار. ثم عَكَفُوا على
المُدارسة والممارسة لكلام العرب، حتَّى استولَوْا على غايته.

والواحدُ اليوم من العَجَم إذا خالطَ أهلَ اللسانِ العربيِّ بالأُصْغارِ، فأقولُ ما
تجدُ تلكَ الملكةَ المقصودةَ من اللسانِ العربيِّ مُنتجِيةَ الآثارِ، وتجدُ ملكتهم الخاصَّةَ
5 بهم ملكةً أخرى مخالفةَ لملكَةِ اللسانِ العربيِّ. ثم إذا فرضنا أَنه أُقبلَ على الممارسةِ
لكلامِ العربِ وأشعارهم بالمُدارسةِ والحِفْظِ لِيُسْتَفِيدَ تحصيلها، فقلْ أَن تحَصُلَ له، لما
قَدَّمناه من أَن الملكةَ إذا سَبَقَتْها ملكةٌ أخرى في المحلِّ، فلا تحَصُلُ إلا ناقصةٌ
مُخدوشةٌ^(ب). وإن فرضنا عجميًّا^(ج) في النَّسَبِ سَلِمَ من مُخالطةِ اللسانِ الأعجميِّ
بالكتِّيةِ، وذهب إلى تعلُّمِ هذه الملكةِ بالحِفْظِ والمُدارسةِ، فربَّما يحصُلُ له ذلك، لكنَّه
10 من التَّدوِيرِ بحيثُ لا يَخْفَى عليك بما تَقَرَّرَ.

وربَّما يَدَّعي كثيرٌ مَن ينظرُ في هذه القوانينِ البيانيَّةِ / حصولَ هذا الذَّوقِ له [405 أ]
بها، وهو غلطٌ أو مُغالطةٌ؛ وإنَّما حصَلَتْ له الملكةُ، إن حصَلَتْ، في تلكِ^(د) القوانينِ
البيانيَّةِ. وليستْ من ملكةِ العبارةِ في شيءٍ. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة، من الآية 213].

(١) ألحقت في ع، ولم تنبها بنية النسخ (ب) ع: مخدوشة (ج) ع: أعجميًّا (د) ع: تلك .

52 • فصلٌ ، في أنَّ أهلَ الأَمْصارِ على الإِطلاقِ قاصِرونَ في تحصيلِ هذه الملكة اللسانية التي تُستفادُ بالتعليمِ ، ومن كانَ منهم أبعدَ عن اللسانِ العربيِّ ، كانَ حُصولُها عليه أصعبَ

والتسبُّبُ في ذلك : ما سبق^(أ) إلى المتعلِّم من حُصولِ ملكةٍ مُنافيةٍ للملكةِ المطلوبةِ ، بما سبق^(ب) إليه من اللسانِ الحَضَريِّ الذي أفادتهُ الفُجعةُ ، حتَّى نزلَ بها 5 اللسانُ عن ملكيِّهِ الأوَّلِ إلى ملكةٍ أُخرى ، هي لغةُ الحَضَرِ لهذا العهدِ . ولهذا نجدُ المعلمينَ يذهبونَ إلى المُسابقةِ بتعليمِ اللسانِ اللولبانيِّ ، ويعتقدُ النُّحاةُ أنَّ هذه المُسابقةَ بصناعتهم ، وليسَ كذلك . وإنَّما هي بتعليمِ هذه الملكةِ بمخالطةِ اللسانِ وكلامِ العربِ . نعم ، صناعةُ التحوُّلِ أقربُ إلى مُخالطةِ ذلك .

وما كانَ من لغاتِ أهلِ^(ج) الأَمْصارِ أعرقُ في الفُجعةِ وأبعدَ عن لسانِ 10 مُضَرَ ، فَضَرَ بصاحبه عن تعلُّمِ اللغةِ المُضَرِّيَّةِ وحُصولِ ملكيِّها ، لتَمَكَّنِ المنافاةَ حينئذٍ . واعتُبرَ ذلك في أهلِ الأقطارِ ؛ فأهلُ إفريقيَّةِ والمغربِ لما كانوا أعرقَ في الفُجعةِ وأبعدَ عن اللسانِ الأوَّلِ ، كانَ لهم فَضورٌ تامٌّ في تحصيلِ ملكيِّهِ بالتعليمِ . ولقد نَقَلَ ابنُ الرُّقَيْقِ أنَّ^(د) بعضَ كُتَّابِ القُرُونِ كَتَبَ إلى صاحبِهِ له :

15 " يا أخي ومن لا عَدِمْتُ فَقَدَهُ ، أغلَمَنِي أبو سعيدٍ كلاماً أَتَكَ كَتَّ ذَكَرْتُ أَتَكَ تَكُنْ مَعَ الزَّيْتِ تَأْتِي ، وعاقِبنا اليومَ فلم يَنْهَيْنا لَنَا الخُرُوجُ . وأما أَهلُ المَنْزِلِ

(أ) ع : سبق (ب) ي : سبق (ج) في ع ط (د) سقط من ج ي .

الكلاب من أمر التّبن، فقد كذبوا، هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً . وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك". وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المُضريّ ، وسببه ما ذكرناه.

وكذلك أشعارهم ، كانت بعيدة من الملكة، نازلة عن الطبقة . ولم تنزل
5 كذلك ولهذا العهد . وما كان / بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن زشيق وابن شريف. وأكثر ما يكون فيها الشعراء طائرين عليها. ولم تنزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور. وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معانها وامتلائهم من المخفوظات اللغوية نظماً ونثراً. وكان فيهم ابن خنّان المؤرخ، إمام أهل الصناعة في هذه الملكة ورافع الزاية لهم فيها، وابن عبد ربّه، والقنطليّ،
10 وأمثالهم من شعراء ملوك الطوائف، لما زخرت فيها بحار اللسان والأدب، وتداول ذلك فيهم مئين من السنين، حتى كان الانقراض والجلأ أتمام تغلب التصراية، وشغلوا عن تعلّم ذلك، وتناقض الغمراؤ، فتناقص ذلك، شأن الصنائع كلّها. فقصّرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض.

وكان من آخرهم صالح بن شريف، ومالك بن المرحّل، من تلميذ الطبقة
15 الإشبيلية بسبقة. وكانت دولة بني الأحمر في أولها، وألقت الأندلس أفلاذ كبدِها من أهل تلك الملكة بالجلأ إلى الغدوة من إشبيلية إلى سبتة، ومن شرق الأندلس إلى إفريقية. [ثم⁽¹⁾ لم يلبثوا أن ائرضوا، وانقطع^(ب) سند تعلّيمهم في هذه الصناعة،

(1) من حاشية ع، وفي الفسخ الأخرى: ولم (ب) ط: وانقرض .

لُعُسرَ قَبُولِ أَهلِ العُدوةِ لها، وَصُعوبِتها عليهم بِعِزِّ أَلْسِنَتِهِمْ وَرُسُوخِهِمْ فِي العُجْمةِ
الْبَرْزِيَّةِ، وَهي مُنافِيَّةٌ، لما قُلْنَا.

ثمَّ عادتِ الْمَلَكَةُ بعد ذلك إلى الْأَنْدَلُسِ كما كانت، وَنَجَّمَ بها ابنُ شَيْبَرٍ،
وابنُ جابرٍ، وابنُ الجِيَّابِ، وَطَبَّقَهُمْ، ثمَّ إِبْرَاهِيمُ السَّاجِي الطُّوَيْجِي وَطَبَّقَهُ. وَقَفَّاهُم
ابنُ الحُطَيْبِ من بَعْدِهِم، الهالكُ لهذا العَهْدِ شَهِيداً بِسِعايةِ أَعْدائِهِ، وكان له في اللِّسانِ 5
مَلَكَةٌ لا تَذُرُكَ. وَاتَّبَعَ أَثرُهُ تَلْمِيزُهُ من بَعْدِهِ. وبالْجَمْلَةِ، فَشَأْنُ هذهِ الْمَلَكَةِ بِالْأَنْدَلُسِ
أَكْثَرُ، وَتَعْلِيمُها أَسهَلُ وَأَيْسَرُ، بما هُمْ عليه لهذا العَهْدِ، كما قَدَّمْنَاهُ، من مُعاناةِ عُلُومِ
اللِّسانِ وَمُحافَظَتِهِمْ عَلَيْها، وعلى عُلُومِ الْأَدَبِ وَسَنَدِ / تَعْلِيمِها، ولأنَّ أَهلَ اللِّسانِ [1406]
الْفَخْجِيِّ الَّذِي يُفْسِدُ مَلَكَتِهِمْ إِنَّمَا هُمْ طارِئُونَ عليهم، وَلَيْسَتْ عِجْمَتُهُمْ أَصْلاً لِلْعَفاةِ أَهلِ
الْأَنْدَلُسِ. وَالْبَرْزِيُّ فِي هذهِ العُدوةِ هُم أَهْلُها، وَلِسَانُهُمْ لِسانُها، إلَّا فِي الْأَمْصارِ فَقَطْ، 10
وهو فيها مَنْغِمَسٌ فِي بَحْرِ عِجْمَتِهِمْ وَرِطائِهِمِ الْبَرْزِيَّةِ. فَيَصْعُبُ عليهم تَحْصِيلُ الْمَلَكَةِ
السَّائِيَةِ بِالتَّعْلِيمِ، بِخِلَافِ أَهلِ الْأَنْدَلُسِ.

وأما المَشْرِقُ لِعَهْدِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ، فَكان شَأْنُهُ شَأْنَ الْأَنْدَلُسِ فِي تَمَامِ
هذهِ الْمَلَكَةِ وَإِجادَتِها، لِبُعْدِهِمْ لَدُنْكَ العَهْدِ* عنِ الْأَعاجِمِ وَمُحافَظَتِهِمْ، إلَّا فِي القَلِيلِ.
فكان أَمْرُ هذهِ الْمَلَكَةِ لَدُنْكَ العَهْدِ* ⁽¹⁾ أَقْوَمَ، وكان غَوْلُ الشَّعْراءِ وَالْكَتَّابِ لِعَهْدِهِمْ 15
أَوْفَرَ، لِتَوْفُرِ الْعَرَبِ وَأَبنائِهِمْ بِالْمَشْرِقِ.

وانظُرْ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتابُ الْأَغاني مِنْ نَظْمِهِمْ وَثَرِّهَمْ، فَإِنَّ ذلِكَ الْكِتابَ

(1) سقط ما بين الجعنين من ج .

هو كتابُ العربِ وديوانهم، فيه لغتُهم وأخبارهم وأيامهم وملئهم العريضةً وسيّر بنيهم
 وآثارُ خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغبائهم وسائر أحوالهم^(أ). فلا كتاب أوعب منه
 لأحوال العرب. وبقي أمرُ هذه الملكة مستخفياً بالمشرق في التولتين. وربما كانت
 فهم أبلغ من سيواهم ممن كان في الجاهلية، كما نذكره بعد. حتى تلاشى أمرُ العرب،
 5 ودرست لغتهم، وفسد كلامهم، وانقضى أمرهم ودولهم، وصار الأمرُ للأعاجم والملوك
 في أيديهم والتغلبُ لهم، وذلك في دولة الدَّيْلَمِ والسلجوقية. وخالطوا أهلُ الأمصار
 [وكتُروهم، فامتزأت الأرض بِلُغاتهم، واستولت الفجعةُ على أهلِ الأمصار]^(ب)
 والخواضر حتى [بعدوا]^(ج) عن اللسان العربيِّ وملكيته، وصار متعلّمها منهم مُقصراً
 عن تحصيلها. وعلى ذلك نجدُ لسانهم لهذا العهد في فني المنظوم والمنثور، وإن كانوا
 10 مكثرين منه. والله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [سورة القصص، من الآية 68].

53 • فصل، في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر

اغلم أن لسان العرب وكلامهم على فئتين، في الشّعر والمنظوم، / وهو
 الكلام الموزون المقفى، ومعناه، الذي تكون أوزانه كلها على زوِّي واجدٍ، وهو
 القافية، وفي النثر، وهو الكلام غير الموزون. وكلُّ واحدٍ من الفئتين يشتمل على
 15 فنونٍ ومذاهبٍ^(د) في الكلام.

فأما الشّعر، فمنه المدح، والشّجاعة، والزّناء.

(أ) في ظ ح ي: معانيهم لهم (ب) من حاشية ع بخطه، ولم تغل في بقية النسخ (ج) من ع، وفي ط ح ي: بقذ (د) كذا
 في ع ج ي، وفي ط: وسائل

وأما التثنية، فمئة المُسَجَّع، وهو الذي يؤتى به قطعاً قطعاً ويُلتزم فيه، أو^(أ) في كل كلمتين منه، قافية واحدة تسمى سجعاً. ومنه المرسل، وهو الذي يُطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يُقطع أجزاء، بل يُرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها. ويُستعمل في الخطب والدعاء، وترغيب الجمهور وترهيبهم.

وأما القرآن، وإن كان من المنثور، إلا أنه خارج عن الوصفين. وليس 5
يُسمى مُرسلاً مطلقاً ولا مُسَجَّعاً، بل هو مفضل^(ب) آيات تنتهي إلى مقاطع يشهد النوق بانهاء الكلام عندها، ثم يُعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويأتي من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [سورة الزمر، من الآية 23]. وقال: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ [سورة الأنعام، من الآية 97]. وسُمي آخر 10
الآيات^(ج) فيه فواصل، إذ لُيَسَّتْ أسجاعاً ولا التزم فيها ما يُلتزم في السجع، ولا هي أيضاً قواف. وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه. واختص بأَم القرآن، للغلبة فيها، كالتجيم للثريا. ولهذا سُميت السبع المثاني. وانظر هنا مع ما قاله المفسرون في تحليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برُجحان ما قلناه.

واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون [الشعرية]^(د) أساليب تختص به عند 15
أهلها ولا تصلح للفن الآخر، ولا تُستعمل فيه، مثل النسيب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختص^(هـ) بالمحاطبات، وأمثال ذلك.

(أ) حاشية من ع لم يكتبها عنها بقية النسخ (ب) ي: فضيل (ج) سقط ما بين السجعين من ج (د) من حاشية ع، وسقط من ط ج ي (هـ) من ع، وسقط من ط.

وقد استعمل المتأخرون أساليب الشَّعر. ومنازعة في المنشور من كثرة
الأنشباع، والتزام التقيفة، وتقديم النسيب / بين يدي الأغراض. وصار هذا المنشور [1407]
إذا تأملته، من باب الشعر وقته، ولم يفتقراً إلا في الوزن. واستمر المتأخرون من الكتاب
على هذه الطريقة، واستعملوها في المحاطبات السلطانية، وقصروا الاستعمال في المنشور
5 كله على هذا الفن الذي ارتضوه، وخلطوا الأساليب فيه، وهجروا المرسل وتأسسوه،
وخصوصاً أهل المشرق. وصارت المحاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفلي،
جارية على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه، وهو غير صواب من جهة البلاغة، لما
يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال مخاطب والمخاطب. وهذا
الفن المنشور المقتضى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر، فوجب أن تترك المحاطبات
10 السلطانية عنه، إذ أساليب الشعر تُباح فيها اللوذة، وخلط الجذ بالهزل، والإطناب
في الأوصاف، وضرب الأمثال، وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو لذلك
[كله] ⁽¹⁾ ضرورة في الخطاب. والتزام التقيفة أيضاً من اللوذة والتزين؛ وجلال الملك
والسلطان، وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب، يُنافي ذلك ويُباينهُ.

والحمود في المحاطبات السلطانية الترسيل. وهو: إطلاق الكلام وإرساله من
15 غير تسجيع إلا في الأقل التادر، وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف له، ثم
إعطاء الكلام حقه في مطابقتها لمقتضى الحال. فإن المقامات مختلفة، ولكل مقام
أسلوب يخصه، من إطناب، (أو) ^(ب) إيجاز، أو حذف، أو إثبات، أو تصريح، أو

(1) من مع وضعها (ب) ط ج ي : و .

إشارة، أو كناية، أو استعارة. وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشُّعر، فذمومٌ. وما حَمَلَ عليه أهلُ الغُصْرِ إلا استيلاء / العُجْمة [407] على ألبسنتهم وقُصُورهم لذلك عن إعطاء الكلام حُفَّه في مطابقتِه لمقتضى الحال. فعجزوا عن الكلام المُرسَل لبغْدِ أُمِّهِ في البلاغةِ واشساح حُطُوتِهِ. وولَّغوا بهذا المُسْتَعِج، يلقون به ما نَقَصَهُم من تَطْبِيقِ الكلام على المقصود ومُقْتَضَى الحال فيه، 5 وَيَجْهَرُونَ بذلك القُدْر من التزيين بالأنشجاع والألقاب البديعية⁽¹⁾، وَيَغْلُوبُونَ عَمَّا سِوَى^(ب) ذلك. وأكثر من أخذ هذا المذهب وبألغ فيه في سائر أنحاء كلامهم، كُتَّابُ المَشْرِقِ وشعراؤه لهذا العهد، حتَّى إنَّهم لِيُجْلُونَ بالإغراب في الكلماتِ والتَّصْرِيفِ إذا دخلتْ لهم في تَجْنِيسٍ أو مطابقة لا يَسْعَانِ معها، فِيرْجَحُونَ ذلك الصَّنْفَ من التَّجْنِيسِ ويدعون الإغراب. وَيُشِيدُونَ بِنَيْةِ الكَلِمَةِ عساها تصادفُ التَّجْنِيسِ. 10 فتأمل ذلك وانتقِذْ بما قَدَّمْنَا لك، ثَقِفْ على صِحَّةِ ما ذكرناه. والله الموفق.

54 • فَصِّلْ، فِي أَنَّهُ لَا تَتَفَقُّ الإِجَادَةُ فِي فَنِّي الْمُنْظُومِ وَالْمَثُورِ مَعًا إِلَّا لِلْأَقْلِ

والسَّبَبُ في ذلك، كما يَتَبَاهَى، مَلَكَّةُ فِي اللِّسَانِ، فَإِذَا سَبَقَتْ إِلَى مَحَلِّهِ مَلَكَةُ أُخْرَى قَصَّرَتْ بِالْمَحَلِّ عَنْ تَامِ الْمَلَكَةِ اللَّاحِقَةِ، لِأَنَّ قَبُولَ الْمَلَكَاتِ وَحُصُولَهَا لِلطَّبَاعِ 15 الَّتِي عَلَى الْفِطْرَةِ الْأَوَّلَى أَسْهَلُ وَأَيْسَرُ. وَإِذَا تَقَدَّمَتْهَا مَلَكَاتٌ أُخْرَى كَانَتْ مَنَارِعَةً لَهَا

(1) من ع، وفي ط ج ي: البديعة (ب) ع: وراء.

في المادّة القابلة، وعائقة عن سُرعَةِ القبول، فوَقَّعت المناقاة، وتعدّر الثَّام في الملكة. وهذا موجودٌ في الملكات الصناعيّة كلّها على الإطلاق، وقد بَهِتّا عليه في موضعه بنحوٍ من هذا البرهان.

- فاعتبر مثله في اللغات، فإنها ملكات اللسان، وهي بمنزلة الصناعة؛ وانظر
- 5 من تقدّم له شيء من العجّة كيف يكون قاصراً في اللسان العربيّ أبداً. فالأعجميّ الذي سبق له اللغة الفارسيّة، لا يستولي / على ملكة اللسان العربيّ، ولا يزال قاصراً (1408)
- فيه، ولو تعلّمه وتعلّمه. وكذا البربريّ والزرويّ والإفرنجيّ، قلّ أن تجذّ أحداً منهم [مُخَكِّماً] (1) لملكّة اللسان العربيّ. وما ذلك إلّا لما سبق إلى ألسنتهم من ملكة اللسان الآخر، حتّى إنّ طالب العلم من أهل هذه الألسن، إذا طلبه بين أهل اللسان العربيّ
- 10 ومن كُثُمهم، جاء مُقَصِّراً في معارفه عن الغاية والتّحصيل. وما أوتي إلّا من قبل اللسان. وقد تقدّم لك [من قبل أن الألسن واللغات شبيهة بالصناعات] (ب)، و[قد] (ج) تقدّم لك أنّ الصناعات وملكاتها لا تزدجمن، وأنّ من سبق له إجادة ملكة فقلّ أن يُجيد أخرى أو يستولي فيها على الغاية. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الصفات، من الآية 96].

55 • فَصْلٌ، فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ وَوَجْهِ تَعْلَمُهُ

- 15 هذا الفنّ من فنون كلام العرب، وهو المُسَمَّى بالشَّعر عندهم، ويوجد في سائر اللغات، إلّا أنّنا نتكلّم الآن في الشعر الذي للعرب. فإن أمكن أن يجذّ

(أ) سقط من ظ (ب) جاءت مضطربة في ط والجل في غير مواضعها (ج) سقط من ع.

[فيه] ^(١) أهل الألسن الأخرى مقصودهم من [كلامنا] ^(ب)، وإلا فلكل لسان أحكام في البلاغة تخصه.

وهو في لسان العرب غريب التزعة، عزيز المنحى، إذ هو كلام يفضل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن، متجدة في الحرف الأخير من كل قطعة. وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتاً، وتسمى الحرف الأخير الذي تنفخ فيه رويًا 5 وقافية، وتسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة.

وينفرد كل بيت منه بإفادته في تركيبه، حتى كانه كلام وحده، مستقل عما قبله وبعده، وإذا أفرِد كان تاماً في بابه، في مدح أو نسيب أو رثاء. فيخبر الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل [به] ^(ج) في إفادته. ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر كذلك، ويستطرد للخروج من فن إلى فن، / ومن مقصود إلى 10 مقصود، بأن [يوطئ] ^(د) المقصود الأول ومعانيه إلى أن تُناسِب المقصود الثاني ويستبعد الكلام عن التناثر، كما يستطرد من النسيب إلى المدح، ومن وصف البنياء والطلول إلى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف، ومن وصف الممدوح إلى وصف قومه وغساكره، ومن التفجع والعزاء في الرثاء إلى التأيين، وأمثال ذلك.

ويراعى فيه، اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد حذراً من أن يتساهل 15 الطبع في الخروج من وزن إلى وزن يُقارِبُه، فقد يخفى ذلك من أجل المقارنة على كثير من الناس. ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض. وليس كل

(١) شطب في ع (ب) من ع، وفي السخ الأخرى: كلام (ج) سقط من ط (د) ط: يقصد .

وَرُبَّ يَتَقَنَّ فِي الطَّبْعِ اسْتَنْمَلَتْهُ الْعَرَبُ فِي هَذَا الْفَنِّ، وَإِنَّمَا هِيَ أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ يُسَمِّيَهَا أَهْلُ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ الْبُحُورَ. وَقَدْ حَصَرُوهَا فِي خَمْسَةِ عَشَرَ بَحْرًا، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا لِلْعَرَبِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَوَازِينِ الطَّبِيعِيَّةِ نَظْمًا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ فَنَّ الشَّعْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَلَامِ كَانَ شَرِيفًا عِنْدَ الْعَرَبِ. وَلِذَلِكَ جَعَلُوهُ
5 دِيْوَانَ غُلُومِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ، وَشَاهِدَ صَوَابِهِمْ وَخَطِّئِهِمْ، وَأَصْلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ غُلُومِهِمْ وَجَوَابِهِمْ. وَكَانَتْ مَلَكَّتُهُ مَسْتَحْكِمَةً فِيهِمْ، شَأْنُ مَلَكَاتِهِمْ كُلِّهَا. وَالْمَلَكَاتُ اللَّسَانِيَّةُ كُلُّهَا إِنَّمَا تُكْتَسَبُ بِالصَّنَاعَةِ وَالْإِزْتِيَاضِ فِي [الْكَلَامِ]⁽¹⁾ حَتَّى يَحْصُلَ شَبَهٌ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ.

وَالشَّعْرُ مِنْ بَيْنِ فُنُونِ الْكَلَامِ صَعْبُ الْمَأْخِذِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ اكْتِسَابَ مَلَكَتِهِ
10 بِالصَّنْعَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، لِاسْتِغْلَالِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ بِأَنَّهُ كَلَامٌ تَامٌّ فِي مَقْصُودِهِ، وَيَصْلُحُ أَنْ يَنْفَرِدَ دُونَ مَا سِوَاهُ؛ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى تَوْعٍ تَلَطَّفُ فِي تِلْكَ الْمَلَكَةِ حَتَّى يُفَرِّغَ الْكَلَامَ الشَّعْرِيَّ فِي قَوْلِيهِ الَّتِي عَرَفَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ الْمُنْحَى مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ، وَيُزَيِّرُهُ مُسْتَقِلًّا / بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَأْتِي بِبَيْتٍ آخَرَ كَذَلِكَ، ثُمَّ يَبْنِي آخَرَ، وَيَسْتَكْمِلُ [1409]
الْفُنُونِ الْوَاقِفَةَ بِمَقْصُودِهِ، ثُمَّ يُنَاسِبُ بَيْنَ الْبُيُوتِ فِي مَوَاقِفِهَا مَعَ بَعْضٍ بِجَسَبِ
15 اخْتِلَافِ الْفُنُونِ الَّتِي فِي الْقَصِيدَةِ.

وَلِصُعُوبَةِ مَنْحَاهُ وَغَرَابَةِ فَنِّهِ، كَانَ مُحَكَّا لِلْقِرَائِحِ فِي اسْتِجَادَةِ أَسَالِيهِهِ، وَشَحْذِ الْأَفْكَارِ فِي تَرْزِيلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِيهِ. وَلَا تَكْفِي فِيهِ مَلَكََةُ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ عَلَى

(1) مِنْ ع، وَفِي ط ج ي: كَلَامِهِ.

الإطلاق، بل يحتاج بخصوصه إلى تَلطُّف ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصَّه العربُ بها وباستعمالها [فيه] ^(١).

ولنذكر هنا مدلولَ [لفظة] ^(ب) الأسلوب عند أهل هذه الصناعة، وما يُريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنها عبارةٌ عندهم عن المنوال الذي تُنسَج فيه التركيب، أو القالب الذي تُرَض فيه. ولا يُرجع إلى الكلام باعتبار إفادته [أصل المغنى الذي هو وظيفة الإغراب، ولا باعتبار إفادته] ^(ج) كمال المغنى من خواص التركيب ^(د) الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعملته العرب فيه، الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية. وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتركيب المنتظمة كنايةً باعتبار انطباقها على كل تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها ذهن من أعيان التركيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كقالب ^(هـ) أو المنوال. ثم ينتهي التركيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإغراب والبيان، فيرضها فيه رضاءً كما يفعل البتاء في القالب، أو النساج في المنوال، حتى يتسع القالب لحصول التركيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه. فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة.

فسؤال الطلول في الشعر، يكون بخطاب الطلول، / كقوله ^(١): (من البسيط) 15 [409م]

(١) من ع، وسقط من ط ج ي (ب) من حاشية ع، وسقطت من بقية النسخ (ج) قلبت ط سباق هذه الجملة فقدمت كمال المغنى عن أصلها (د) في ع: التركيب (هـ) في حاشية ع، وحدها.

(١) للناطقة الديباني يمدح فيها التعمان بن المنذر، ويعتذر في أمر المتجردة، وعجز البيت: أقوُث وطال عليها سالف الأمد. الأغاني 11: 22، الديوان 14، (دار المعارف - القاهرة)، ابن فتيبة: الشعر والشعراء 1: 167.

يا دار مَيَّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ

ويكونُ باستدعاءِ الصَّخبِ للوقوفِ والسَّؤالِ، كقولِه⁽¹⁾: [من الطويل]

قفا نَسْأَلُ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا

أو باستنبكاءِ الصَّخبِ على الطَّلَلِ، كقولِه⁽²⁾: [من الطويل]

قفا نَبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ وَمَنْزِلِ

أو بالاستيفهامِ عن الجوابِ لمخاطبٍ غيرِ معيَّنٍ، كقولِه⁽³⁾: [من الوافر]

أَلَمْ تَسْأَلْ فَتُخْزِكَ الرُّسُومُ

ومثل تحيةِ الطُّلولِ بالأمرِ لمخاطبٍ غيرِ مُعَيَّنٍ بشجَّيتها، كقولِه⁽⁴⁾: [من الكامل الأحد]

حَيَّ الدِّيَارَ بِجَانِبِ الغَزْلِ

(1) يدغبل الخزاعي في أهل البيت، من قصيدة قصد بها علي بن موسى الرضا بخراسان. وعجز البيت: متى عهدها بالصوم والصلوات. الديوان 210 (مجمع اللغة العربية - دمشق 1983)، ياقوت: معجم الأدباء 3: 128، وقال: نسخ هذه القصيدة مختلفة، في بعضها زيادات يظن أنها مصنوعة ألحقها بها أناس من الشيعة. وأورد ما صحَّ عنده منها.

(2) لامرئ القيس، وعجز البيت: بسقط اللوى بين الدخول فحومل. الديوان: 8، (أبو الفضل إبراهيم - القاهرة) الأغاني: 9: 54، الشعر والشعراء 1: 107، 113.

(3) لعمرو بن شأس الأسدي، وعجزه: على فرتاج والطلل القديم، ابن المبارك: منتهى الطلب 8: 76 (بيروت 1999).

(4) لامرئ القيس، ورواية الديوان للبيت: حي المحول بجانب الغزل: إذ لا يلائم شكلها شكلي الديوان 214.

أو بالدُّعاء لها بالسُّقيا، كقولُه⁽¹⁾: [من الكامل]

أَسْمَى طَلُولَهُمْ أَجَشُّ هَرِيمُ وَغَدَتْ عَلَيْهِمَ رَوْضَةٌ وَنَعِيمُ

أو بسؤالِ السُّقيا لها من البَرقي، كقولُه⁽²⁾: [من الكامل]

يَا بَرْقُ طَالِغَ مَنْزِلًا بِالْأَبْرَقِ وَاحْذِ السَّحَابَ لَهُ حُدَاءُ الْأُنْبَقِ

ومثل التَّنَجُّع في الرِّثاءِ باستِدعاء البكاء، كقولُه⁽³⁾: [من الطويل]

كَذَا فَلْيَنْجِلْ⁽⁴⁾ الْخَطْبُ وَلِيَفْذَحِ الْأَمْرُ وَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَبْقُضْ مَأْوَها عَذْرُ

أو باستِعظامِ الحادِثِ، كقولُه⁽⁴⁾: [من الكامل]

أَرَأَيْتَ مَنْ حَلَّوْا عَلَى الْأَغْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ حَبَا ضِيَاءُ النَّادِي^(ب)

أو بالتَّسْجِيلِ عَلَى الْأَكْوَانِ بِالمُصَيِّبَةِ لِقَفْدِهِ، كقولُه⁽⁵⁾: [من البسيط]

مَنَائِبُ الْعُشْبِ لَا حَامٍ وَلَا رَاعٍ مَضَى الرَّذَى بِطُيُولِ الزُّنُحِ وَالْبَاعِ

(1) ع: فليُخَلِّ (ب ي: الوادي .

(1) لأبي تمام، الأغاني 16: 274، الديوان 264، وفيه: فَضْرَةٌ وَنَعِيمُ

(2) لأبي تمام في مدح الحسن بن وهب، الديوان 391 .

(3) لأبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي، الديوان 670، الأغاني 10: 152، نهاية الأرب 5: 208.

(4) للشريف الرضي في رثاء إبراهيم بن هلال الصافي، الديوان 1: 381- (طهران 1986)، معجم الأدباء 4:

1599، ابن خلكان: وفيات الأعيان 1: 53 .

(5) للشريف الرضي يرثي أحد أمراء بني عقيل، الديوان 1: 627 .

أو بالإتكار على من لم يتفجّع له من الجهادات، كقول الخارجيّة⁽¹⁾: [من الطويل]
أيا شِعَرَ الخاسور ما لك مُورِقاً كأنك لم تُجَزَّع على ابنِ طريف

أو بِهَيْئَةِ قَرِيعِهِ بِالرَّاحَةِ من يَغْلِي وَطَأَتِهِ، كقولهِ⁽²⁾: [من الكامل]
أَلَّيْ الزَّمَاحَ زَبِيعُهُ بِنُ نِزَارٍ أَوْدَى الرَّدَى بِقَرِيعِكَ الْمُغَوَّارِ

- 5 وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه . وتنظم التراكيب فيه
بالجمل وغير الجمل، إنشائية وخبرية، اسمية أو فعلية، مُتَبَعَةٌ وغير مُتَبَعَةٌ، مفصلة
ومُوصولة، على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي. [و⁽¹⁾ مكان كل كلمة من
الأخرى يُعرَفُك به ما تستفيدُه بالارتياض في / أشعار القرب من القالب الكلّي
المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق ذلك القالب على جميعها. فإن مؤلف
10 الكلام هو كالبناء أو كاللشّاح، والصورة الذهنية المنطبقة كالقالب الذي يُبنى فيه،
أو المِنَوَالِ الذي يُنسَج عليه، فإن خَرَجَ عن القالب في بِنَائِهِ أو عن المنوال في
نَشْجِهِ؛ كان فاسِداً.

ولا تقولن: إن معرفة قوانين البلاغة كافية في ذلك، لأننا نقول: قوانين
البلاغة إنما هي قواعدٌ علميّةٌ فِياسِيّةٌ، تُقيدُ جوازَ استعمالِ التراكيبِ على هَيْئَتِهَا

(1) من ع، وفي ط ح ي: في .

(1) هي الفارعة ترضي أخاها الوليد بن طريف الذي قتله يزيد بن مزيد الشيباني بأمر الرشيد. الطبري: تاريخ
الرسول والملوك 8: 261 (حوادث سنة 179) الأغانى 12: 63، 65، ابن عبد ربه: العقد الفريد 3: 269 .

(2) للشريف الرضي في رثاء أبي طاهر بن ناصر الدولة . الديوان 1: 490 .

الخاصة بالقياس، وهو قياس علمي صحيح مُطَرَّد كما هو قياس القوانين الإغريقية، وهذه الأساليب التي نحن نُقَرِّرها، ليست من القياس في شيء. إنما هي هَيْئَةٌ تَرَسُّخٌ في النفس من تَتَبُّعِ التَّارِكِبِ في شِعْرِ العربِ بِجَزَائِهَا على اللِّسانِ حتَّى تَسْتَحْكِمَ صَوَرُهَا، فيستفيد بها العمل على مثالها والاحتذاء بها في كل تركيب تركيب⁽¹⁾ من الشعر، كما قدّمنا ذلك في الكلام بإطلاقي، وإنَّ القوانين العلميَّة، من الإغراب 5 [أو]^(ب) البيان، لا تُفيد تعلُّمَهُ بوجه.

وليس كلُّ ما يَصِحُّ في قياس كلام العرب وقوانينه العلميَّة استغملوه، وإنما المستغملُ عندهم من ذلك أنحاءٌ معروفةٌ يُطَلِّعُ عليها الحافظون لكلامهم وتدرِّج صَوَرُهَا تحت تلك القوانين القياسيَّة. فإذا نُظِرَ في شِعْرِ العَرَبِ على هذا التحوي، وهذه الأساليب الذّهنيَّة التي تصير كالقوالب، كان نظراً في المستغمل من تراكيبهم 10 لا فيما يقتضيه القياس. ولهذا قلنا: إنَّ المُحَصِّلَ لهذه القوالب في الذهن إنما هو حفظُ أشعار العرب وكلامهم.

وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في المثنوي. فإنَّ العرب استعملوا كلامهم في كلا الفئتين، وجاءوا به مفضلاً في التوعين. ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال الكلام في كل قطعة. وفي / المثنوي يعتبرون الموازنة 15 والشائبة بين القطع غالباً. وقد يَتَّبِدُونَهُ بالأشجاع، وقد يَزْسِلُونَهُ. وقوالب كل واحد من هذه معروفة في لسان العرب. والمستغمل منها عندهم هو الذي يثني مؤلف

(1) سقط المكرز من ي (ب) ط ج ي : و .

الكلام عليه تأليفه ، ولا يعرفه إلا من حفظ كلامهم حتى يتجرّد [له] ⁽¹⁾ في ذهنه من القوالب المعيّنة الشخصية قالب كلّ مطلق ، يخذو خذوه في التأليف ، كما يخذو البناء على القالب ، والشّاح على المتوال . فلهذا كان فنّ تأليف الكلام منفرداً عن نظر التخويّ والبيانيّ والغروزيّ . نعم ، إنّ مراعاة قوانين هذه العلوم شرط فيه 5 لا يتمّ بدونها . فإذا تحصّلت هذه الصفات كلّها في الكلام ، اختصّ بنوع من النّظر لطيف في هذه القوالب التي يُسمونها أساليب . ولا يفيدّه إلا حفظ كلام العرب نظماً ونثراً .

وإذا تقرر معنى الأسلوب ما هو ، فلنذكر بعده خدّاً أو زسماً للشّعر يُفهّمنا حقيقة على صعوبة هذا الغرض ، فإنّا لم نقف عليه لأحد من المتقدّمين فيما رأيناه . 10

وقول الغروزيين في خدّه: إنّ الكلام الموزون المقتضى . ليس بخدّ لهذا الشّعر الذي نحن بصدّه ولا زسّم له . وصناعتهم إنّما تنظر في الشّعر من حيث اتّفاق أبياته في عدّد المتحرّكات والسواكن على التوالي ، ومماثلة عروض أبيات الشّعر لضربها ، وذلك نظر في وزن مجرّد عن الألفاظ ودلالاتها ، فناسب أن يكون خدّاً عندهم . ونحن 15 هنا ننظر في الشّعر باعتبار ما فيه من الإغراب والبلاغة والوزن والقوالب الخاصّة ، فلا جرم أنّ حدّهم ذلك لا يصلح له عندنا . فلا بدّ من تعريف يعطينا حقيقة من هذه الحيثيّة .

(1) من حاشية ع ، وسط في النسخ المعتمدة .

فقولنا: الشَّعْرُ هو الكلامُ البليغُ، المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصلُ
بأجزاء متَّفِقةٍ في الوزنِ والرويِّ، مستقلُّ كلُّ جزءٍ منها في غرضه ومقصده عما قبله
وبعده، الجاري على أساليب العربِ المخصوصة به.

فقولنا: الكلامُ / البليغُ؛ كالجنس. [١411]

وقولنا: المبني على الاستعارة والأوصاف؛ فصلٌ [له] ^(١) عما يخلو من هذه، 5
فإنه - في الغالب - ليس بشعرٍ.

وقولنا: المفصلُ بأجزاء متَّفِقةٍ في الوزنِ والرويِّ؛ فصلٌ له عن الكلامِ
المنثور الذي ليس بشعرٍ عند الكلِّ.

وقولنا: مستقلُّ كلُّ جزءٍ منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده؛ بيانٌ
للحقيقة، لأنَّ الشَّعْرَ لا يكونُ أبياته إلا كذلك، ولم يُفصل به شيء. 10

وقولنا: الجاري على الأساليبِ المخصوصة به؛ فصلٌ له عما لم يجر منه على
أساليبِ الشَّعْرِ المعروفة. فإنه حينئذٍ لا يكونُ شعراً، إنما هو كلامٌ منظومٌ. لأنَّ الشَّعْرَ
له أساليبٌ تخصه، لا تكونُ للمنثور، وكذا للمنثور أساليبٌ ^(ب) لا تكونُ للشَّعْرِ.
فما كان من الكلامِ منظوماً وليس على تلك الأساليبِ، فلا يُسَمَّى ^(ج) شعراً. وهذا
الاغترابُ، كان الكثيرُ ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصَّنَاعَةِ الأدبيةِ، يَرَوْنَ أَنَّ نَظْمَ 15
المتنبيِّ والمعريِّ ليس من الشَّعْرِ في شيء، لأنَّهما لم يجرِيا على أساليبِ العربِ فيه.

(١) من ع وحدها (ب) حاشية من ع، وسقط من ط ج ي (ج) ط ج ي: يكون .

وقولنا^(١) في الحدّ: الجاري على أساليب الغرب؛ فصلّ له عن شجر غير الغرب من الأمّ، عند من يرى أنّ الشجر يوجد للعرب ولغيرهم. ومن يرى أنّه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج إلى ذلك، ويقول مكانه: الجاري على الأساليب المخصوصة به.

5 وإذ فرغنا من الكلام على حقيقة الشجر، فلنرجع إلى الكلام في كيفية عمله، فنقول: اعلم^(ب) أنّ لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً، أولها الحفاظ من جنسه، أي من جنس شجر العرب، حتّى تلتصّب في النفس ملكة يُنسج على منوالها، ويتخيّر المحفوظ من الحرّ التقي الكثير الأساليب. وهذا المحفوظ المختار أقلّ ما يكفي منه شعر شاعرٍ من الفحول الإسلاميين، مثل ابن أبي ربيعة، وكثير، وذو الرمة^(ج)، وجريّر، وأبي نؤاس، وخبيب، والبخري، والرّضي، وأبي فراس. وأكثره 10 شعر كتاب الأغاني، لأنّه جمع شجر أهل الطبقة الإسلامية / كلّه، والمختار من شعر [411] الجاهليّة. ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلّا كثرة المحفوظ. فمن قلّ حفظه أو عديم، لم يكن له شجر، وإنّما هو نظم ساقط، واختتاب الشعر أوّلَى من لم يكن له محفوظ.

ثمّ بعد الامتلاء من المَحفوظ، ونَحْذِ الفَرْجَةَ للنَّسج على المنوال، يُقبل على النظم، وبالإكثار منه تَشْتَخِمُ ملكته وترسخ. ورتباً يقال: إنّ من شرطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحي رؤسومه الخزيّة الظاهرة،

(١) ط ج ي: ولنا (ب) سقط من ج (ج) كذا في ع، وصوابه ذي الرمة.

إذ هي صادّة عن استعمالها بعينها، فإذا نُسبَ إليها وقد تكيّفَت النفس^(١) بها، انتَقَشَ
الأسلوب فيها كأنه مِنوَالٌ يأخذ في السُّجْعِ عليه بأمثالها من كلماتٍ أخرى ضرورة.

ثم لا بُدَّ له من الخلوة واستِجَادَةِ المكانِ المنظورِ فيه من المياه والأزهرِ،
وكذلك [من]^(ب) المسموعِ لاستِثَارَةِ الفَرْجَةِ باستِجَاعِها وتَشْطِيطِها بمَلَادٍ السُّرُورِ.

ثم مع هذا كلّهُ، فشرطُهُ أن يكونَ على حِجَامٍ ونَشَاطٍ، فذلك أجمعُ له وأجدرُ
للفَرْجَةِ أن تأتيَ بمثلِ ذلك المِنوَالِ الَّذِي فِي حِفْظِهِ . قالوا: وخيرُ الأوقاتِ لذلك
أوقاتُ البُكْرِ، عندَ الهُبُوبِ من التَّوَمِ، وفراغِ المَعْدَةِ، ونشاطِ الفِكرِ، وفي هواءِ
الحَمَامِ.

وربما قالوا: إن من بواعثِ العشقِ والاشْتِشَاءِ. ذكر ذلك ابنُ رَشِيقٍ في كتاب
الغَنَدَةِ^(١)، وهو الكتابُ الَّذِي افترَدَ بهذه الصَّنَاعَةِ وأعطى حَقَّها، ولم يكتب أحدٌ فيها
قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ. قالوا: فإن استَضَعَبَ عليه بعدَ هذا كلّهُ، فَلْيَتَرَكْهُ إلى وَقْتٍ آخَرَ، ولا
يُكْرِهْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ.

وليكنَ بِنَاءُ البَيْتِ عَلَى القَافِيَةِ من أَوَّلِ صُورِهِ وَنَسْجِهِ، يَضَعُهَا وَيُنْثِي الكَلَامَ
عَلَيْهَا إلى آخِرِهِ، لِأَنَّهُ إِنْ عَقَلَ عن بِنَاءِ البَيْتِ عَلَى القَافِيَةِ صَعُبَ عَلَيْهِ وَضَعُهَا فِي
مَحَلِّهَا، فَرُبَّمَا تَحِيءُ نَافِرَةً قَلِيلَةً. وإذا سَمِعَ الحَاطِرُ بالبَيْتِ ولم يُنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ، فَلْيَتَرَكْهُ

(١) جاءت مكررة في ع ط (ب) سقط من ط ي .

(١) العمدة: ١: 331، 340 يقول: "من أراد أن يقول الشعر فليعشق، فإنه يرقى، ولنيزو، فإنه يذل، ويطغ، فإنه يصنع".

إلى موضعه الأليق به. فإنَّ كلَّ يَنْبٍ مستغْلٍ بنفسه، ولم يَتَّقِ إلَّا المناسبة، فليختِز
فيها كما يشاء.

وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتثقيح والتثديد، ولا / يَصْرُّ به على التَّركِ [1412]
إذا لم يَتَلَعَّ الإجادة. فإنَّ الإنسان مفتونٌ بشعره، إذ هو بناتُ فكره واختراعُ قريحته.

5 ولا يستغملُ فيه من الكلام إلَّا الأفضَح من التراكيبِ والخالص من الصُّورات
اللسانيَّة، [إذ هو قصورٌ في الملكة اللسانيَّة] ^(ق). فليَهْجُزْها، فإنَّها تنزلُ بالكلام من
طبقةِ البلاغة. وقد حَظَرَ أَيْمَةُ الشَّان على المولَّد ارتكابَ الصُّورة، إذ هو في سعةٍ
منها بالعدول عنها إلى الطَّريقة المثلَّى من الملكة.

وليتجنَّب أيضاً المعقَّد من التراكيبِ حمده، وإنَّما يقصِّدُ منها ما كانت معانيه
10 تُسابقُ ألفاظه إلى الفهم. وكذلك كثرةُ المعاني في البَيْت الواحد، فإنَّ فيه نوعَ تعقيدٍ
على الفهم. وإنَّما المختارُ منه ما كانت ألفاظه طَبَقاً على معانيه أو أَوْفَى [منها] ^(ب). فإنَّ
كانت المعاني كثيرةً كان حَسْناً، واشتغلَ الذَّهْنُ بالغوصِ عليها، فَمَنَعَ الذَّوْقَ عن
استيفاءِ مُذَكِّرِهِ من البلاغة.

ولا يَكُونُ الشعرُ سهلاً إلَّا إذا كانت معانيه تُسَبِّقُ ^(ج) ألفاظه إلى الذَّهن.
15 ولهذا ^(د) كان شيوخنا، رَجَمَهم اللهُ، يعيِّونَ شعرَ أبي بَكْرٍ ^(هـ) ابنَ خُفَّاجَةٍ، شاعِرِ
شرقي الأندلس، لكثرةِ معانيه وازدحامها في البَيْتِ الواحد، كما كانوا يعيِّونَ شعرَ
المتنبي والمعرِّي بَعْدَم الشَّج على الأساليبِ الغريبةِ كما مَرَّ. فكأنَّ شعرهما كلامٌ

(أ) من حاشية ع (ب) من ع. وسقط في بقية النسخ (ج) ع: سابق (د) ع: وهذا (هـ) من ط ج ي، وفي ع ياض.

منظوم نازل عن طبقة الشعر. والحاكم في ذلك هو التوقي.

وليختبئ الشاعر أيضاً الحوشي من الألفاظ والمقعر، وكذلك الشوقي
المبتدل بالتداول في الاستعمال، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة. وكذلك المعاني
المبتدلة بالشهرة، فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضاً، فيصير مُبتدلاً ويقرُب من
عدم الإفادة. كقولهم: التار حائرة، والشاء فوقنا. ومقدار ما يقرُب من طبقة عدم
الإفادة يتعد عن رتبة البلاغة، إذ هما طَرَفان. ولهذا كان الشعر / في الرثائيات (12هـ)
والنثويات قليل الإفادة في الغالب، ولا يجيد [فيها] ⁽¹⁾ إلا الفحول، وفي القليل على
الفسر؛ لأن معانيها متداولة بين الجمهور، فتصير مبتدلة لذلك.

وإذا تعدّر الشعر بعد هذه كلها، فليرأوضه ويُعاودُه، فإن الترجمة مثل
الضرع، يدر بالامتراء، ويجف [ويغرأ] ^(ب) بالترك والإهمال.
وبالجملة، فهذه الصناعة وتعلّمها مُستوفى في كتاب العُمدة لابن رشيق. وقد
ذكرنا منها ما حصرنا بحسب الجهد. ومن أراد استيفاء ذلك، فعليه بذلك الكتاب،
فيه البُغْيَةُ من ذلك؛ وهذه بُدَّة كافية، والله المعين.

وقد نظّم الناس في أمر هذه الصناعة الشعرية وما يجب فيها؛ ومن أحسن
ما قيل في ذلك، وأطْلَهُ ⁽¹⁾ لابن رشيق: [من الخفيف]

(1) من ع، وفي ط ج ح: فيه (ب) من حاشية ع وحدها.

(1) يلو أن ابن خلدون أثبت ما حفظه من هذه القصيدة على عهد بعيد بها، وخيب أبا ابن رشيق،
لأنه يذكر مصدرها منه. وهي لأبي العباس التاشي، كتبها لأبي الصقر إسماعيل الشيباني. (العمدة
2: 769).

لَعَنَ اللَّهُ صُنْعَةَ الشَّعْرِ مَاذَا	5
يُؤْثِرُونَ الْغَرِيبَ مِنْهُ عَلَى مَا	
وَيَرَوْنَ الْحَالَ مَعْنَى صَحِيحاً	
يَجْهَلُونَ الصَّوَابَ مِنْهُ وَلَا يَذْ	
فَهُمْ عِنْدَ مَنْ سِوَانَا يَلَامُونَ	
إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِي التَّظْ	
فَأَقَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضاً	
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا	
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ	
فَكَأَنَّ الْأَلْفَاظَ مِنْهُ وَجُوهٌ	10
فَأَتَانَا ^(ب) فِي الْمَرَامِ حَسَبَ الْأَمَانِي	
فَإِذَا مَا مَدَحْتَ بِالشَّعْرِ حُرّاً	
فَجَعَلْتَ النَّسِيبَ سَهْلاً قَرِيباً	
/ وَتَكَبَّتَ مَا تَهْجُنُ ^(د) فِي السَّفْ	
وَإِذَا مَا قَرَضْتَهُ بِهِجَاءٍ	15
فَجَعَلْتَ التَّصْرِيحَ مِنْهُ دَوَاءً	
وَإِذَا مَا بَكَيْتَ فِيهِ عَلَى الْغَا	
مِنْ صُنُوفِ الْجَهَالِ فِيهَا لَقِينَا	
كَانَ سَهْلاً لِلْسَّامِعِينَ مُبِينَا	
وَحَسِبَسَ الْكَلَامِ ^(ا) شَيْئاً قَلِينَا	
رَوَّ لِلْجَهْلِ أَنَّهُمْ يَجْهَلُونَا	
نَ وَفِي الْحَقِّ عِنْدَنَا يُعْذَرُونَا	
سَمِ وَإِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُنُونَا	
وَأَقَامَتْ لَهُ الصَّدُورُ الْمُتُونَا	
تَقَمَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا	
كَأَذْ حُسْنًا يَبِينُ لِلتَّاطَرِينَا	
وَالْمَعَانِي زُكْبَنَ فِيهِ عُيُونَا	
يَسْتَحَلِّي بِحُسْنِهِ الْمُتَشِدُونَا	
زُمْتُ فِيهِ مَذَاهِبُ ^(ج) الْمُسْتَهِينَا	
وَجَعَلْتَ الْمَدْحَ صِدْقاً مُبِينَا	
سَعِ وَإِنْ كَانَ لَفْظُهُ مَزْزُونَا	[413] أ
عَبَتْ ^(ه) فِيهِ مَذَاهِبُ الْمُزْفِينَا	
وَجَعَلْتَ التَّعْرِيزَ دَاءً دَفِينَا	
دَيْنَ يَوْمًا لِلْبَيْنِ وَالظَّالِعِينَا	

(أ) العدة: المثال (ب) العدة: فائاً (ج) من ع، وفي النسخ معرفة: مذاهيب (د) العدة: يهجن (ه) العدة: عفت.

حُلَّتْ دُونَ الْأَسَى وَذَلَّتْ مَا كَا
ثَمَّ إِنْ كَثَّ عَاتِبًا شَبَّ بِالْوَعْدِ
فَتَرَكْتُ الَّذِي عَتَبْتُ عَلَيْهِ
وَاصُحُّ الْقَرِيضِ مَا فَاتَ فِي التَّظَلِّ
فَإِذَا قِيلَ، أَطْمَعَ النَّاسَ طُلْرًا
وَإِذَا رِيمَ^(١)، أَعْجَزَ الْمُعْجِزِينَ 5

ومن ذلك أيضاً قول^(١) التَّائِشِينَ^(ب): [من الكامل]

(ج) الشَّعْرُ مَا قَوَّمْتُ زَيْغَ صُدُورِهِ^(د) وَشَدَّدْتُ بِالتَّهْذِيبِ أَشْرَ مُؤُونِهِ
وَرَأَيْتُ بِالْإِطْنَابِ شَغَبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتُ بِالْإِيجَازِ عُوزَ^(هـ) عُيُونِهِ
وَجَمَعْتُ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيدِهِ وَوَصَلْتُ بَيْنَ مَجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ
وَإِذَا^(و) مَدَخْتُ بِهِ جَوَادًا مَاجِدًا وَقَضَيْتُهُ^(ز) فِي الشُّكْرِ حَقَّ دُيُونِهِ 10
أَضْفَيْتُهُ بِنَفِيسِهِ وَرَصِينِهِ وَخَصَصْتُهُ بِخَطِيرِهِ وَتَمِينِهِ
فَيَكُونُ جَزَلًا فِي مَسَاقِ^(ح) صُنُوفِهِ وَيَكُونُ سَهْلًا فِي اتِّسَاقِ فُنُونِهِ
وَإِذَا بَكَيْتُ بِهِ التِّيَّارَ وَأَهْلَهَا أَجْزَيْتُ لِلْمَخْرُوزِ مَاءَ شُؤُونِهِ

(١) ج: رام (ب) في الأصول: بعضهم، وزاد على نسخة ع: التائش (ج) ترتب الأبيات معاً لا في زهر الآداب والعمدة، وقد كُتِبَتِ الأبيات التي لم تنقلها النسخ في حاشية ع متداخلة (د) في ط ج ي: حدوده (هـ) في زهر الآداب: غوز عيون (و) في العمدة: فإذا (ز) العمدة: وقته (ح) العمدة: اتساق، وفي زهر الآداب: ويكون سهلاً في اتساق.

(١) العمدة 2: 772، وذكر إبراهيم الحصري في زهر الآداب 3: 685 فصلاً من كتاب الشعر لأبي العباس عبد الله بن محمد الأنباري، التائش الأكبر (293/906م)، وفي سياقه نسب القصيدة لنفسه يقول: وقد قلت في الشعر قولاً جعلته مثلاً لقائله وأسلوباً لسائكه. وعدد أبيات القصيدة فيه 18 بيتاً.

وَإِذَا أَرَدْتَ كَنَاءَةً عَنْ رِيئَةٍ^(أ) بَانَيْتَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَطُونِهِ
فَجَعَلْتَ سَامِعَهُ يَسْتَوِبُ شُكُوكَهُ بَثَاتِهِ^(ب) وَظُنُونَهُ يَبْقِيَنِيهِ
^(ج) [وَإِذَا عَتَبْتَ عَلَى أَخٍ فِي زَلَّةٍ أَدْمَجْتَ شِدَّتَهُ لَهُ فِي لِينِهِ
فَتَرَكْتَهُ مُسْتَأْنِسًا بِدُمَائِهِ مُسْتَأْمِنًا لِسُهُولِهِ وَخُزُونِهِ^(د)
وَإِذَا تَبَذْتَ إِلَى الَّتِي غُلَّقَتْهَا إِذْ صَارَ مَثَلُكَ بِغَايَتَاتِ شُؤُونِهِ
تَسْمِنَتْهَا بِلطيفِهِ وَرَقِيقِهِ^(هـ) وَشَفَقَتْهَا بِخَيِّهِ وَكَيْبِهِ
وَإِذَا اعْتَذَرْتَ لِسَقْطَةِ أَسْقَطِهَا^(و) وَاشْكُتَ بَيْنَ مَخِيلِهِ^(ز) وَمُيْبِيهِ
فِيحُولُ ذُبُكٍ عِنْدَ مَنْ يَغْتَدُّهُ غَثْبًا عَلَيْهِ مُطَالِبًا يَسْمِينِهِ]

5

56 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ صِنَاعَةَ النَّظْمِ وَالنَّشْرِ إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاظِ لَا فِي الْمَعَانِي

اعْلَمْ أَنَّ صِنَاعَةَ الْكَلَامِ ، نَظْمًا وَنَثْرًا ، إِنَّمَا هِيَ فِي الْأَلْفَاظِ لَا فِي الْمَعَانِي ، وَإِنَّمَا
الْمَعَانِي تَبَعٌ لَهَا وَهِيَ أَضَلُّ . فَالضَّائِعُ الَّذِي يُحَاوِلُ مَلَكَةَ الْكَلَامِ فِي النَّظْمِ / وَالنَّثْرِ ، إِنَّمَا^[413]
يُحَاوِلُهَا فِي الْأَلْفَاظِ بِحِفْظِ أَمْنَالِهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ، لِيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ وَجَزِيئُهُ عَلَى لِسَانِهِ
حَتَّى تَسْتَقَرَّ لَهُ الْمَلَكَةُ فِي لِسَانِ مُضَرٍّ ، وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْعُجْمَةِ الَّتِي رَبِّيَ عَلَيْهَا
فِي جِيلِهِ ، وَيُقَرِّضَ نَفْسَهُ ، مِثْلَ وَلِيدٍ يَنْشَأُ فِي جِيلِ الْعَرَبِ وَيَلْقَى لِقَتَهُمْ^(ج) كَمَا يُلْقَنُهَا
الصَّبِيُّ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي لِسَانِهِمْ ذَلِكَ.

15

(أ) العمد: رئة (ب) العمد: بياض (ج) من هنا إلى آخر الأبيات الستة ، لم ترد إلا في حاشية ع بخطه (د) في حاشية ع
قدم الحزون على السهول. وفي العمد وزهر الآداب: لوعونه وحزونه (هـ) العمد: دقيقه، وفي زهر الآداب: شفتها بغيره
(و) العمد: إلى أخ في زلة ، وهو نض زهر الآداب (ز) العمد: محيله (ح) ج : بلغهم .

وذلك أَنَّا قَدَمْنَا أَنَّ اللِّسَانَ مَلَكَةٌ مِنَ المَلَكَاتِ فِي التُّطُقِ، يُحَاوَلُ تَحْصِيلُهَا بِتَكَرُّرِهَا عَلَى اللِّسَانِ حَتَّى تَحْصَلَ، [شَأْنُ المَلَكَاتِ] ^(أ). وَالَّذِي فِي اللِّسَانِ وَالتُّطُقِ إِنَّمَا هُوَ الْأَلْفَاظُ، وَإِنَّمَا المَعَانِي فِي الصَّمَائِرِ.

- وأيضاً، فالمعاني موجودة عند كلِّ [أحد] ^(ب)، وفي طَوَّعِ كُلِّ فِكْرٍ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَرْضَى، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى [تَكْلِيفٍ] ^(ج) صِنَاعَةٍ [فِي تَأْلِيفِهَا] ^(د). وَتَأْلِيفُ الكَلَامِ 5 لِلْعِبَارَةِ عَنْهَا هُوَ الْمَحْتَاجُ لِلصَّنَاعَةِ، كَمَا قُلْنَا، وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْقَوَالِبِ لِلْمَعَانِي. فَكَمَا أَنَّ الْأَوَانِي الَّتِي يُغْتَرَفُ بِهَا الْمَاءُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْهَا آتِيَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالصَّدْفِ وَالزُّجَاجِ وَالْحَزَفِ، وَالْمَاءُ وَاحِدٌ فِي نَفْسِهِ، وَتَخْتَلِفُ الْجَوْدَةُ فِي الْأَوَانِي الْمَمْلُوءَةِ بِالْمَاءِ بِاخْتِلَافِ جِسْمِهَا لَا بِاخْتِلَافِ الْمَاءِ، كَذَلِكَ جَوْدَةُ اللَّغَةِ وَبِلَاغَتُهَا فِي الِاسْتِعْمَالِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ الكَلَامِ فِي تَأْلِيفِهِ بِاِغْتِبَارِ تَطْبِيقِهِ عَلَى الْمَقَاصِدِ، وَالْمَعَانِي وَاحِدَةٌ فِي نَفْسِهَا. 10 وَإِنَّمَا الْجَاهِلُ بِتَأْلِيفِ الكَلَامِ وَأَسَالِيهِ عَلَى مُقْتَضَى مَلَكَةِ اللِّسَانِ، إِذَا حَاوَلَ الْعِبَارَةَ عَنْ مَقْصُودِهِ وَلَمْ يُحْسِنْ؛ بِمَثَابَةِ الْمُقْعَدِ الَّذِي يَرُومُ التَّهَوُّضَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ لِإِفْقَادِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. وَاللَّهُ ﴿وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 151].

(أ) مخرج في حاشية ع، لم نقله ط ج ي (ب) ط ج ي: واحد (ج) مقعده في ع، وأغلظها بقية النسخ.

57 • فصلٌ، في أن حصولَ هذه الملكة بكثرة الحفظ، وجودتها بجودة الحفظ

قد قدّمنا [أنه]^(أ) لا بدّ من كثرة الحفظ لمن يروم تعلّم اللسان العربي، وعلى قدر جودة الحفظ وطبقته في جنسه، وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة [عنه للحافظ]^(ب). فمن كان محفوظه [من أشعار العرب الإسلاميين، أو]^(ج) شاعر خبيب، أو العتّابي، أو ابن المعتز، أو ابن هاني، أو الشريف الرضي، / أو رسائل [1414] ابن المقفع، أو سهل بن هارون، أو ابن الرّيات، أو البديع، أو الصّابي، تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً وزينةً في البلاغة ممّن يحفظ [أشعار المتأخرين، مثل]^(د) شاعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن التّيه، أو ترسيل النّيساني، أو العماد الأصبهاني، 10 لتزول طبقة هؤلاء عن أولئك، يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذّوق. وعلى مقدار جودة المسموع [أو]^(هـ) المحفوظ تكون جودة الاستعمال من بعده، ثمّ إجادته الملكة من بعدها. فبازتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام تزيّني الطبقة الحاصلة، لأنّ الطّبع إنّما ينسج على منوالها، وتنمو قوَى الملكة بتغذيتها.

15 وذلك أنّ الثّفس وإن كانت في جبلتها واحدة بالتّوع، فهي تختلف في البشّر بالقوّة والضعف في الإدراك. واختلافها إنّما هو باختلاف ما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تُكَيّفها من خارج. فهذه يتمّ وجودها وتخرج من

(أ) ط: أن. (ب) كذا في ع، وفي ط ج ي: عند الحفاظ (ج) من حاشية ع (د) من ع، وفي ط ج ي: و.

النُّوَّةُ إلى الفعلِ صَوَّرَها. والملَكُوتُ الَّتِي تحَصُلُ لها إِنَّمَا تحَصُلُ على التدرِجِ، كما
 قَدَّمْنَاهُ. فالملَكَةُ الشَّعْرِيَّةُ تنشَأُ بحِفْظِ الشَّعْرِ، وملَكَةُ الكِتَابَةِ بحِفْظِ الأَشْجَاعِ
 والتَّرْسِيلِ، والعِلْمِيَّةُ بمَخَالِطَةِ العُلُومِ والإدْرَاكِاتِ والأَبْحَاثِ والأَنْظَارِ، والفَقْهِيَّةُ بِمَخَالِطَةِ
 الفِقْهِ وتَنْظِيرِ المسَائِلِ وإتْرَافِهَا^(أ) وتَخْرِيجِ الفُرُوعِ على الأَصُولِ، والتَّصَوُّفِيَّةُ الزِّيَادَةُ
 بِالْعِبَادَاتِ والأَذْكَارِ وتَطْيِيلِ الحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ بِالْحَلُوقِ والِانْفِرَادِ عَنِ الحَلْقِ مَا اسْتَطَاعَ،
 حَتَّى تحَصُلَ لَهُ ملكَةُ الرَّجُوعِ إلى جِسْمِهِ البَاطِنِ وَرُوحِهِ، وَيَنْقَلِبُ رِيَانِيًّا؛ وَكَذَا
 سَائِرُهَا. وَلِلنَّفْسِ [مِنْ]^(ب) كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَوْنٌ تَكْتِفِي بِهِ، وَعَلَى حَسَبِ مَا نَشَأَتْ
 الْمَلَكَةُ عَلَيْهِ مِنْ جَوْدَةٍ أَوْ رِدَاءَةٍ تَكُونُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ فِي نَفْسِهَا. فَلِمَكَةُ الْبَلَاغَةِ الْعَالِيَةِ
 الطَّبَقَةُ فِي جَنْسِهَا إِنَّمَا تحَصُلُ بِحِفْظِ الْعَالِي فِي طَبَقَتِهِ مِنَ الْكَلَامِ. وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ
 وَأَهْلُ الْعِلْمِ كُلُّهُمْ قَاصِرِينَ فِي الْبَلَاغَةِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لَمَّا يَنْسَبِقُ / إِلَى^(ج) مَخْفُوظِهِمْ،
 وَتَمْتَلِئُ بِهِ مِنَ الْقَوَانِينِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَارَاتِ الْفَقْهِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ أُسْلُوبِ الْبَلَاغَةِ وَالتَّارِئَةِ
 عَنِ الطَّبَقَةِ، لِأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنِ الْقَوَانِينِ وَالْعُلُومِ لَا حَظَّ فِيهَا لِلْبَلَاغَةِ. فَإِذَا سَبَقَ ذَلِكَ
 الْمَحْفُوظُ إِلَى الْفِكْرِ وَكَثُرَ وَتَلَوَّنَتْ^(د) بِهِ النَّفْسُ، جَاءَتْ الْمَلَكَةُ التَّائِيَّةُ عَنْهُ فِي غَايَةِ
 الْقُصُورِ، وَانْحَرَفَتْ عِبَارَاتُهُ عَنْ أُسَالِيْبِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ. وَهَكَذَا نَجِدُ شَعْرَ الْفُقَهَاءِ
 وَالتَّحَاةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالتَّظَايِرِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَا يَقْتَلِئُ مِنْ حِفْظِ التَّيَمِّ الْحَرِّ مِنْ كَلَامِ
 الْعَرَبِ.

أَخْبَرَنِي صَاحِبُنَا الْفَاضِلُ ، أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ رِضْوَانَ ، كَاتِبُ الْعِلَامَةِ بِالدَّوْلَةِ

(أ) ط ج: قريظها (ب) ط ج ي: في (ج) ي: من (د) ع: طوئت .

المريثية، قال: ذاكرتُ يوماً صاحبنا أبا العباس بن شُعَيْبٍ، كاتبَ السُلطان أبي الحسن، وكان المَقْدَمُ في البصر باللسان لغُده، فأثْشَذْته مطلعَ قصيدة ابنِ النُّحَوي، ولم أنسبها له، وهو: [من الكامل]

لم أذِرْ حينَ وَقَفْتُ بالأطلالِ ما الفَرْقُ بينَ جديديها والبالِ

5 فقال لي على البديء: هذا شعرُ فُقيهِ. فقلْتُ له: ومن أين لك ذلك؟ قال: من قوله: ما الفَرْقُ، إذ هي من عباراتِ الفُقهَاء، وليست من أساليبِ كلامِ العرب، فقلْتُ له: لله أبوك، إنَّه ابنُ التحوي.

وأما الكتَّابُ والشُعراء، فليسوا كذلك، لتخَيُّرهم في مَحْضُوطهم، ومُخالَظَتِهم كلامَ العربِ وأَساليبِهِم في التَّرْسُلِ، وانتقائِهِم له الحَيِّدَ من الكلام.

10 ذاكرتُ يوماً أبا عبد الله ابن الخطيب، وزيرَ الملوك بالأندلس، وكان الصَّنَرُ المَقْدَمُ في الشعر والكتابة، فقلْتُ له: أجدُ استِضعاباً عليّ في نظمِ الشَّعْرِ متى رُمْتُه، مع بَصَرِي به وحَفْظِي للجَيِّدِ من الكلام، من الشَّرَّانِ والحديثِ وفُنُونٍ من كلامِ العربِ، وإن كان مَحْضُوطِي قليلاً. وإِنَّا أَتَيْتُ، والله أعلمُ، من قَبْلِ ما حصلَ في حِفْظِي من الأشعارِ العِلْمِيَّةِ والقوانينِ التَّأْلِيفِيَّةِ، فَإِنِّي حَفَظْتُ قصيدتي الشَّاطِئِي:

15 الكُبْرَى والصُّغْرَى في [القراءات والزَّسَم] ⁽¹⁾ واستظْهَرْتُهَا / وتدارستُ كتابي ابن

(1) من حاشية ع .

الحاجب في الفقه والأصول، وبجل الحونجي في المنطق، وكثيراً من قوانين التعلّم في المجالس، فامتلاً مخفوطي من ذلك، وحَدّش وَجَهَ الملكة التي استعديت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب، فعاق القرحة عن بلوغها. فنظر إلى ساعة مُعجِباً، ثم قال: لله أنت، [و] ⁽¹⁾ هل يقول هذا إلا مثلك!

- 5 ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه، سرّ آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة - في البلاغة وأدواقيها - من كلام الجاهلية في منشورهم ومنظومهم. فإننا نجد شغراً حساناً بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، والحطيئة، وجبر، والفرزدق، ونصيب، وغيلان ذي الرمة، والأخوص، ويشار، ثم كلام السلف من العرب في النولة الأموية، وصدر من النولة العباسية في خطبهم وتزسيهم ومحاوراتهم للملوك، أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شاعر 10 التابع، وغنّة، وابن كلثوم، وزهير، وعقمة بن عبدة، وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم. والنوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك للتأيد البصير بالبلاغة.

- والتبب في ذلك، أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام، سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث الذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها، لكنّها ولجث 15 قلوبهم، ونشأت على أساليبها نقوشهم، فهضت طباعهم وارثت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها،

(1) من ع .

فكان كلامهم - في نظريهم ونثرهم - أحسن دياجةً وأضفى رونقاً من أولئك،
وأرصف مباتي وأعدل تثقيفاً، بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. وتأمل ذلك
يشهد لك به ذوقك إن كث من أهل / الذوق والبصر بالبلاغة. [15هـ]

ولقد سألت يوماً شيخنا الشريف أبا القاسم، قاضي غزناطة لعهدنا، وكان
5 شيخ هذه الصناعة، أخذ بسنته عن مشيختها من تلميذ الشلّوين، واستبخر في علم
اللسان، وجاء من وراء الغاية فيه. فسألته يوماً: ما بال العرب الإسلاميين أعلى
طبقة من الجاهليين؟ ولم يكن يستنكر ذلك بذوقه. فسكت طويلاً، ثم قال⁽¹⁾:
والله ما^(ب) أدري. فقلت: أعرض عليك شيئاً ظهر لي في ذلك، ولعله السبب فيه.
وذكرت له هذا الذي كتبت، فسكت مُعجِباً، ثم قال: يا فقيه، هذا كلام من حقه
10 أن يكتب بالذهب. وكان من بعدها يُؤثر محلي، ويصيخ في مجالس التعلم إلى قولي،
ويشهد لي بالتباهة في العلوم^(ج). والله ﴿خَلَقَ^(د) الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾
[سورة الرحمن، الآيتان 3، 4].

(1) ع: قال لي (ب) ي: لا (ج) سقط من ي (د) ط ج ي: خالق.

58 • [١] فصل، في بيان المطبوع من الكلام المصنوع، وكيف جودة
المصنوع أو قصوره

اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة
المعنى. وأما إذا كان مهملًا فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكما الإفادة، هو البلاغة
على ما عرفت من هذا عند أهل البيان^(ب). لأنهم يقولون: هي مطابقة الكلام
لمقتضى الحال، ومعرفة الشروط والأحكام التي بها تطابق التراكيب اللفظية مقتضى
الحال، هو فن البلاغة. وتلك الشروط والأحكام للتراكيب في المطابقة استقرت من
لغة العرب، وصارت كالتقوانين. فالتراكيب بوضعها تُفيد الإنسان بين المستندتين
بشروط وأحكام هي جلّ قوانين العربية، وأحوال هذه التراكيب من تشديد وتأخير،
وتعريف وتكبير، وإضمار وإظهار، وتيسيد وإطلاق، وغيرها، يفيد الأحوال المكتنفة^(ج)
من خارج بالإشناد، وبالمختاطبين حال التخاطب بشروط وأحكام هي قوانين لفن
سموه علم المعاني من فنون البلاغة. فتتدرج قوانين العربية لذلك في قوانين^(د) علم
المعاني، لأن إفادتها للإشناد جزء من إفادتها للأحوال المكتنفة بالإشناد. وما قصر
من^(هـ) هذه التراكيب عن إفادة مقتضى الحال لخلل في قوانين الإغراب أو قوانين
المعاني، كان قاصراً عن المطابقة لمقتضى الحال، ولحق بالمهمل الذي هو في عداد
الموات.

(أ) سقط هذا الفصل من ط ي، وأوردته ع ج. وجاء عنوانه في ج مغايرًا، كما يلي: فصل، في بيان الكلام المطبوع، أو نقى
مبني وأعلى مرتبة في البلاغة من الكلام المصنوع (ب) ح: اللسان (ج) سقط من ج (د) ج: عن.

ثم يتبع هذه الإفادة لمقتضى الحال، التفتُّن في انتقال الذهن بين المعاني بأصناف الدلالات، لأن التركيب يدلُّ بالوضع على معنى، ثم ينتقل الذهن إلى لازمه أو ملزومه أو شبهه، فيكون فيها مجازاً، إما باستعارة أو كناية، كما هو مقررٌ في مواضعه. ويحصل للذكر بذلك الانتقال لئلا كما تحصل من الإفادة وأشد، لأن في جميعها ظفراً بالمدلول من دليله، والظفر من أسباب اللذة، كما علمت. 5

ثم لهذه الانتقالات أيضاً شروط وأحكام كالقوانين^(أ)، صيروها صناعةً وسموها بالبيان. وهي شقيقة علم المعاني، المفيد لمقتضى الحال، لأنها راجعة إلى معاني التراكيب ومدلولاتها، وقوانين علم المعاني راجعة إلى أحوال التراكيب أنسبها من حيث الدلالة. واللفظ والمعنى متلازمان متضايقان^(ب) كما علمت. فإذن علم المعاني 10 وعلم البيان هما جزءا البلاغة، وبهما كمال الإفادة والمطابقة لمقتضى الحال. فما قصر من هذه التراكيب عن المطابقة وكمال الإفادة فهو مقصر عن البلاغة، ولتتحقق عند البلغاء بأصوات الحيوانات العجم. وأجذب به أن لا يكون غريباً، لأن العربي هو الذي يطابق إفادته مقتضى الحال. فالبلاغة - على هذا - هي أصل الكلام العربي، وسعيته، وروحه، وصيغته^(ج).

ثم اعلم أنهم إذا قالوا الكلام المطبوع، فإنهم يعنون به الكلام الذي كُتبت 15 طبيعته وسعيته من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط، بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة،

(أ) ج: بالقوانين (ب) ج: متطابقان (ج) ج: طبيعته.

ويدلُّ به عليه دلالة وثيقة، ثم يتبع تراكيب الكلام في هذه السجّية التي له بالأصالة صروب من التحسين والترزين بعد كمال الإفادة، وكأنّها تغطيها روثق الفصاحة من تسميق الأسجاع، والموازنة بين^(١) [جمل الكلام، وتسميه بالأقسام المختلفة الأحكام]^(ب)، والتورية باللفظ المشترك عن الحقي من معانيه، والمطابقة بين المتضادات^(ج)، ليقع التجاشس بين الألفاظ أو المعاني، فيحصل للكلام رونق ولذة في الأسجاع، وحلاوة 5 وجال، كلّها زائد على الإفادة.

(١) في ج: بين النصول، وهي مذكورة في ع أيضاً، ثم ألقاها وعوضها بالجملة المحصورة (ب) الفترة التالية كانت مدرجة في متن ع، في هذا الموقع، ثم ألقاها، وربط الكلام كما أورده، وقد نقلتها عنها نسخة ج قبل الإلحاق، وهي: "غير ذلك من الالتاب التي صتوها وأخضوها، وجعلوا لها شروطاً وأحكاماً، وخزوها فنّ البديع، واختلفوا في تحديد صنوفها وأقسامها، المتقنون [من أهل هذا الفن (ج) منهم والمتأخرون، والمشارفة [منهم (ج)] والمنازية. كما اختلفوا في غدها من البلاغة أو عروها عنها، وهو رأيي المأثرة، وأما المشارفة وإن عقوها من فنّ البلاغة، فليس على أنها أصليّة في الكلام". (ج) من هنا إلى آخر الفصل يفترق التقان (ع) و (ج) في صياغة الموضوع، وقد حافظنا أن يكون المتن فوقه من الأصل ع. وبليه صيغة ما كتبه في نسخة ج، المختلفة صياغة والمخفة في أغلب الدلالات التي أرادها. وهذا نصّه:

"وإنّا اعتبروها بقدر رعاية تطبيق الكلام على مقتضى الحال فيؤدّه زوّقاً وزينة، وتكسبه حلاوة وجالاً. لأنّ الكلام من دون هذه المطابقة غير عربيّ كما قدّمناه. وليس التحسين بمعنى عنها فيه، وهي مع ذلك مستفادّة من لغة العرب بمداولتها واستقراء تراكيبها، فبعضها مسموع وشاهده موجود، وبعضها مقبّس مكتسب على ما عرّف في كتب القوم. وإذا قالوا الكلام المصنوع، فيريدون بهذه التراكيب التي فيها فنون البديع وألقائه وصنوفه، ويدلّ ذلك من قولهم فيها أيضاً في الكلام المطبوع، إنّه الذي له كمال الإفادة - وهما متقابلان - [أو] إنّ هذه الصناعات مقابلة للبلاغة. وقد كان الأدباء قديماً يعدّونها في الفنون الأدبية، ويذرجونها في كتبها، إذ لا موضوع لها، فليست من العلوم. وقد فعل ذلك ابن رشيق في كتاب المفدّة الذي تكلم فيه في صناعة الشعر وكيفية عمله بما لم يسبق إليه، ثم عتب ذلك بالكلام في القاب البديع. وكذلك غيره من أدباء الأندلسيين. ويقال: إن أوّل من تعاطى هذه الصنعة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، فشنح =

وهذه الصُّنعةُ موجودةٌ في الكلامِ المعجِزِ في مواضعٍ متعدِّدةٍ، مثل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [سورة الليل، الآيتان 1، 2]، ومثل: ﴿فَأَمَّا مَنْ

" شعزه بألقابها وحذا الناس بعده خذوه في ذلك، بعد أن كان الشعر خلواً منها. وكان الشعراء من الجاهلية وفحول الإسلاميين لا يتعاطونها في أشعارهم ولا يستكثرون منها، وإن وقعت لهم فإنما تقع عفواً تسمع بها القريحة من غير ممارسة ولا معاناة، فيحسن مذاقها عند أهل الطباع السليمة، وإنما حصل فيها ذلك من كمال المطابقة والوفاء بحقوق البلاغة، والبراءة من غيب التكليف لهذه الألقاب، وخشونة المعاناة والممارسة، فيقرب التحسين فيها من الفطرة الأولى. وأما الكلام المنشور أيضاً، فكان عند الجاهلية وفحول الإسلاميين، مُرسلاً مفصلاً المقاطع من غير سجع ولا وزن، حتى تبع إبراهيم بن هلال الصافي كاتب بني بويه، فتعاطى السجع في الكلام، والزمها في المخاطبات السلطانية تشبيهاً بالقوافي الشعرية، وأجرّ زسنة في ذلك ما كان عليه ملوكه من الضعفة، وما كان هو عليه من التوقعية البعيدة عن منافع الملك، وضوالة الخلافة التازعة إلى ضوالة البلاغة، فكان له في خضيض الكلام المنتقى بالصناعة سوقٌ يفتقد نفاهاً شأن الإخويات، فشالت يومئذ نعامته بها، وارتفع صيته، وانتشرت الصناعة بعده في كلام المتأخرين، ونُسب عهد التزسيل وصرولة البلاغة فيه، وتشابهت السلطانيات بالإخويات، والعرييات بالسوقيات، واختلط المزعى بالهمل، وقصرت الطباع عن البلاغة الأصلية في الكلام لقلة معانيتها، ولم يبق إلا الكلف بفنون هذه الصناعة وضروبها في التظلم والتثر، وتعاطيها في كل صنف من أصنافها. وأساطين البلاغة في كل عصر يشخرون من ذلك ويُنكرون تعاطيه وضيق العطن عن سواه.

ولقد أدركت شيوخنا - رحمهم الله - يعتنون على من يتعاطى ذلك من أهل فنون الكلام ويعضون منه.

سمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البليقي، وكان من أهل البصر باللسان والقريحة في ذوقه، يقول: إن من أعز ما اقترحه عليّ نفسي، أن أشاهد يوماً بعض من ينتحل شيئاً من ضروب هذه الصناعة في نظم أو نثره، وقد امتحن بأشد العقوبة ونودي عليه. يذف بذلك تلميذه عن تعاطي هذه الصناعة، حذراً أن يخلق بها جدة البلاغة، فيذهل عنها. =

أَطْعَى وَأَفْقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿ [سورة الليل، الآية 5، 6]، إلى آخر التقسيم في الآية. وكذا: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [سورة النازعات، الآية 37، 38] إلى آخر الآية. وكذا: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [سورة الكهف، من الآية 104]، وأمثاله كثير. وذلك بعد كمال الإفادة في أصل⁽¹⁾ هذه التراكيب قبل وقوع هذا البديع فيها. وكذا وقع في كلام الجاهليّة منه، لكن غفواً من غير قصد ولا تعمّد؛ 5 ويقال: إنه وقع في شعر زهير.

وأما الإسلاميون، فوقع لهم غفواً وقصداً، وأنتوا منه بالعجائب. وأول من أحكم طريقته حبيب بن أوس، والبخترى، ومسلم بن الوليد، فقد كانوا مولعين بالصنعة، ويأتون منها بالعجب. وقيل: إن أول من ذهب إلى معانيتها بشار بن بزور، وابن هرمة، وكنا آخر من يُستشهد بشعره في اللسان العربي. ثم 10 اتبعهما كلثوم بن عمرو الغنّائي، ومنصور الثميري، ومسلم بن الوليد، وأبو

¹⁰ وكان شيخنا القاضي أبو القاسم الشریف السبكي، مُنفق أسواق اللسان العربي ورافع رايته، يقول: هذه الفنون البديعة وإن وقعت غفواً للشاعر أو للكاتب، فإنه يُفجع له أن يعاود شيئاً منها، لأنها من محسنات الكلام وجباله، فهي بمثابة الخيلان في الوجه، تحسن بالواجد منها والاشئين، وشج بتفاديها. وهذا كله من هؤلاء الفضلاء استهجاناً لتعاطي هذه الصنعة وألقائها البديعة، أن تزل بالكلام عن مرقاة في البلاغة. ويذل ذلك من كلامهم على أن الكلام المصنوع نازل عن الكلام المطبوع كما أرنالك ببره وحقيقته، والحاكم في ذلك النوق، وقد مرّ شمسره، والله أعلم، و ﴿ عَلَّكُمْ مَا لَمْ تُكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة، من الآية 239].

(1) كانت في أصل ع: في مطبوع، ثم ألغيت واستبدلت.

نُؤاس. وجاء على أثرهم حَبِيبُ والبُخْتَرِيُّ . ثم ظهر ابنُ الْمُعْتَزِّ ، فحتمَ علمَ البديع والصَّانعة أجمع.

ولنذكر مثلاً من المطبوع الخالي من الصَّنعة لتتفهَّمه، مثل قولِ قَيْسِ بنِ ذَرِجٍ⁽¹⁾: [من الطويل]

5 وأُخْرِجُ من بَيْنِ البيوتِ لَعْلَنِي أَحَدْتُ عَنْكَ النُّفْسَ فِي السَّرِّ خَالِيَا

وقولُ كُثَيْرٍ⁽²⁾: [من الطويل]

وَإِنِّي وَتَهَيَّأِي بَعْرَةً بَعْدَ مَا تَخَلَّيْتُ عَمَّا يَتَيْنَا وَتَخَلَّيْتُ
لِكُلِّ مَرْحِي ظِلَّ الغَامَةِ ، كُلَّمَا تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ ، اضْمَحَلَّتْ

فتأملُ هذا المطبوعَ الفقيدَ الصَّنعة في إحكام تَأليفه ، وهفافةِ تراكيبه . فلو جاءت فيه الصَّنعة من بعد هذا الأصل ، زادتُه حُسْنًا.

وأما المصنوعُ فكثيرٌ من⁽¹⁾ بَشَّارٍ ، ثم حَبِيبٍ ، وطَبَقَتهما ، ثم ابنُ المَعْتَزِّ ، خاتم الصَّنعة ، الَّذِينَ جَزَى الْمُتَأَخَّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مِيدَانِهِمْ ، وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ .

(1) فراغ بفنءار كلمة في ع ، قد يكون لفظ: مثل .

(1) ديوان قيس بن ذَرِجٍ 122 ، الحامسة البصرية 2: 100 ، وعنه ، الشعر والشعراء 2: 628 ، والأغاني 9: 133-162 ، وفیات الأعيان 4: 106-113 .

(2) ديوان كثير عزة : 71 ، الشعر والشعراء 1: 515 ، وفيه: تَخَلَّيْتُ بِمَا بَيْنَا . وفيه ترجمته (503-517) ، الأغاني 9: 30-5.

وقد تعددت أصناف هذه الصنعة عند أهلها، واختلقت اصطلاحاتهم في ألقابها، وكثير منهم يجعلها مندرجة في البلاغة، على أنها غير داخلية في الإفادة، وإنما هي تغطي التحسين والترويق. وأما المتقدمون من أهل البدع، فهي عندهم خارجة عن البلاغة، ولذلك يذكرونها في الفنون الأدبية التي لا موضوع لها. وهو رأي ابن زشبي في كتاب الغدة⁽¹⁾ له، وأدباء الأندلس. وذكروا في استعمال هذه الصنعة 5 شروطاً، منها أن تقع من غير تكلف ولا كثرة، فيما يقصد منها.

وأما العقو؛ فلا كلام فيه، لأنها إذا برزت من التكلف، سلم الكلام من غيب الاستهجان. لأن تكلفها ومعانها يضيّر إلى الغفلة عن التراكيب الأصلية للكلام، فتخلل الإفادة من أضلها، وتذهب بالبلاغة رأساً، ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات. وهذا هو الغالب اليوم على أهل العصر. وأصحاب الأذواق في 10 البلاغة يشخرون من كلفهم بهذه الفنون، ويعدون ذلك من الفصور عن سواه.

وسمعت شيخنا الأستاذ أبا البركات البلقيني، كان من أهل البصر باللسان والقريحة في ذوقه، يقول: إن من أشهى ما تقرّحه علي نفسي، أن أشاهد في بعض الأيام من يتحل فنون هذا البدع في نظم أو نثره وقد عوقب بأشد العقوبة ونودي عليه. يحذر بذلك تلميذه أن يتعاطوا هذه الصنعة، فيكلفوا بها ويناسوا 15 البلاغة.

ثم من شروط استعمالها عندهم الإقلال منها، وأن تكون في ثلاثين أو ثلاثين

من القصيدة، فتكفي في زينة الشعر وزونقه. والإكثار منها عيب. قاله ابن زشقي⁽¹⁾
وغیره.

وكان شيخنا أبو القاسم الشريف السني، متقن اللسان العربي بالأندلس
لوفته، يقول هذا القول: البديعة إذا وقعت للشاعر أو الكاتب، فيفتح أن يستكثر
5 منها، لأنها من محسنات الكلام ومزيئاته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه، يحسن
بالواجد والاشين منها، ويفتح بتعدادها.

وعلى نسبة الكلام المنظوم هو الكلام المنشور في الجاهلية والإسلام. كان
أولاً مرسلاً، معتبر الموازنة بين جملة وتراكيبه، شاهدة موازنته بقواصله من غير
التزام سجع ولا اكتراب بصنعة، حتى نفع إبراهيم بن هلال الصابي، كاتب بني بويه،
10 فتعاطى الصنعة والتفتية، وأتى من ذلك بالغجب، وعاب الناس عليه كلفه بذلك في
المخاطبات السلطانية. وإنما حمله عليه ما كان في ملوكه من العجمة والبعد عن صولة
الخلافة المتفتة لسوق البلاغة. ثم انتشرت الصناعة بعده في منشور المتأخرين، ونسي
عهد الترسيل، وتشابهت السلطانيات بالإخوانيات، والعريثات بالسوقيات، واختلط
المزجي بالهمل.

وهذا كله يدلك على أن الكلام المصنوع بالمعانة والتكلف قاصر عن الكلام
15 المطبوع، لقلّة الاكتراب فيه بأصل البلاغة، والحام في ذلك الذوق. والله خلقكم
و﴿عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 239].

(1) العمدة 1: 210 .

59 • فصل، في ترفع أهل المراتب عن استحلال الشعر

اعلم أن الشَّعر كان ديواناً للغرب، فيه علومهم وأخبارهم وحكمتهم. وكان رؤساء العرب مُتَنافِسِينَ فيه، وكانوا يَقِفُونَ بسوق عكاظ لِإِشَادِهِ وَغَرَضِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دِيَابَجَتَهُ عَلَى فُحُولِ الشَّانِ وَأَهْلِ الْبَصَرِ لِتَفْيِيزِ حَوَكِهِ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْمَنَافَةِ فِي تَغْلِيْقِ أَشْعَارِهِمْ بِأَرْكَانِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، مَوْضِعِ حَجَّهِمْ وَبَيْتِ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ، كَمَا فَعَلَ 5
أَمْرُو الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ، وَالنَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيَّةُ، وَزُهَيْرُ ابْنِ أَبِي سُلَيْمٍ، وَغَنَتُهُ بْنُ شَدَّادٍ، وَطَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ، وَعَلَقَمَةُ بْنُ عَبْدِ، وَالْأَعَشَى، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ النَّسَجِ. فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَغْلِيْقِ الشَّعْرِ بِهَا مِنْ كَانَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْمِهِ وَغَضَبِيَّتِهِ وَمَكَانِهِ فِي مُضَرٍّ، عَلَى مَا قِيلَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِالْمَعْلَقَاتِ.

ثم انصرف العرب عن ذلك أَوَّلَ الْإِسْلَامِ بِمَا شَغَلَهُمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالتُّبُوءِ 10
وَالْوَحْيِ، وَمَا أَذْهَبَهُمْ مِنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَنَظْمِهِ. فَأُخْرِسُوا عَنْ ذَلِكَ، وَسَكَنُوا عَنْ الْحَوَاضِ فِي النَّظْمِ وَالتَّنْزِيلِ / زَمَانًا. ثُمَّ اسْتَقَرَّ ذَلِكَ، رَأَوْسُ الرُّشْدِ مِنَ الْمِلَّةِ، وَلَمْ يَنْزِلِ 1416
الْوَحْيُ فِي تَحْرِيمِ الشَّعْرِ وَخَطَرِهِ، [بَلْ] ⁽¹⁾ سَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ ⁽¹⁾ وَأَنَابَ عَلَيْهِ، فَرَجَعُوا حِينَئِذٍ إِلَى ذِيذَنَّهُمْ مِنْهُ. وَكَانَ لَعَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، كَبِيرُ قُرَيْشٍ لِنَدَاكَ الْعَهْدِ، مَقَامَاتٍ فِيهِ عَالِيَةٌ وَطَبَقَةٌ مَرْتَبَعَةٌ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ شَعْرَهُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَيَقْفُ 15

(1) من ع، وفي بقية الأصول: و .

(1) يُنْظَرُ الْبَحَارِيُّ (3212) وَمُسْلِمٌ (2485) فِي قَوْلِهِ لِحَسَنِ: "اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْفُطُوسِ". وَقَدْ أَلْقَى بِرُزْنِهِ عَلَى كَهَبِ بْنِ زُهَيْرٍ وَهُوَ يَلْقَى قَصِيدَتَهُ الشَّهْرَةَ: بَانَتْ سَعَادُ .

لاستماعِهِ مُعْجَباً بِهِ. ثم جاء من بعد ذلك المَلِكُ الفُحْلُ والتَّوَلَّهَ العَزيزَةُ، فَتَقَرَّبَ إِلَيْهِمُ العَرَبُ بِأَشعارِهِم بِمُتَدَحُونَهُنَّ بِهَا، وَيُجَيِّزُهُمُ الخُلفاءُ بِأَعْظَمِ الجَوايزِ، عَلى نِسبَةِ الجَودَةِ في أَشعارِهِم ومُكَلِّمِهِم من قُومِهِم، وَيُخَرِّصُونَ عَلى اسْتِهادِ أَشعارِهِم، يَطلَعُونَ مِها عَلى الآثاري والأخبارِ واللُّغَةِ وَشَرَفِ اللِّسانِ والعَرَبِ، وَيُطالبُونَ وَلِيَدَهُم بِحِفْظِها. ولم يَزِلِ الشَّأْنُ هَذا أَيامَ بَني أُمَيَّةَ وَضُرَّأٍ مِ دَولَةِ بَني العَباسِ.

وانظُر ما نَقلَهُ صاحِبُ العَقدِ⁽¹⁾ في مُسامرةِ الرِّشيدِ للأَضَمِيِّ في بابِ الشَّعْرِ والشُّعراءِ، تَجِدُ ما كانَ عَليه الرِّشيدُ مِنَ المَعرِفَةِ بِذلكِ والرِّسوخِ فِيهِ، والعَنايةِ بِانْتِحالِهِ، والبَصَرِ بِجَيِّدِ الكَلامِ وَزَديتِهِ، وكَثَرَةِ مَحْفُوظِهِ مِها.

ثم جاء خَلَفٌ مِ بَعدِهِم لَم يَكُنِ اللِّسانُ لسانَهُم مِ أَجلِ العُجْمَةِ وقَصرِها بِاللِّسانِ، وإِنا نَعلَمُوهُ صِناعَةً. ثم مَدَحُوا بِأَشعارِهِم أَمراءَ العَجمِ الَّذينَ لَيسَ اللِّسانُ [شائِنَهُم]⁽¹⁾، طالِبِينَ مَعرُوفَهُم فَقط، لا سِوى ذلكِ مِنَ الأَعراضِ، كَما فَعَلَهُ حَبيبٌ والبَحرِيُّ والمُتَنَبِّي وابنُ هَافِي ومِن بَعدِهِم إلى هَلَمَّ جَزاءً. فَصارَ قَرَضُ الشَّعْرِ في الغالِبِ إِنما هُوَ لِلكَذِبَةِ والاسْتِجداءِ، لَذهابِ المِنافِعِ الَّتِي كانَتِ فِيهِ لِلأَوَّلِينَ، كَما ذَكَرناهُ. وَأَنتَ مِها لَذلكِ أَهلُ الهِمْمِ والمِراتِبِ مِنَ المِتاخَرِينَ، و[تَقَلَّبَ]^(ب) الحالُ فِيهِ، وأَصبَحَ نَعاطِيهِ هُجَنَةً في الرِّياسَةِ ومَذْمَةً لأَهلِ المِناصِبِ الكَبيِرةِ. واللَّهُ مَقلبُ اللَّيْلِ والنَّهارِ.

(أ) ط ج ي: لم، وكانت كذلك في ع، ثم غُلبت (ب) كانت في الأصل ع: وتغيَّر، وعنها ثَلثت بَعثة النسخ، ثم غَيَّرت في ع إلى ما أَثَبَّناه.

(1) العَقد الفَريد 5: 309 - 317.

[416هـ] 60 / ⁽¹⁾ فصل، في أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد

اعلم أن الشَّعْرَ لا يَحْتَضُّ باللسانِ العربيِّ فقط، بل هو موجودٌ في كلِّ لغةٍ، سواء كانت عربية أو عجمية. وقد كان في الفُزَيْسِ شعراء، وفي يونان كذلك، ذكر منهم أرسطو في كتاب المنطق، له، أوميرش⁽¹⁾ الشاعِر، وأثنى عليه. وكان في جَنَرٍ أيضاً شعراء مقدّمون.

5

ولما فسَدَ لسانُ مُضَرٍ ولغتهم التي دُونَتْ مقاييسها وقوانينِ إغرابها، واختلفت اللغاتُ من تقدمهم بحسب ما خالطها ومازجها من العجمة؛ فكانت لجيلِ العرب بأنفسهم لغةٌ خالفت لغةَ سلفهم من مُضَرٍ في الإغرابِ جملةً، [و]^(ب) في كثيرٍ من الموضوعات اللغويّة وبناء الكلمات. وكذلك الحَضَرُ، أهلُ الأمصار، نشأت فيهم لغةٌ أخرى خالفت لسانَ مُضَرٍ في الإغراب وأكثر الأوضاع والتّصاريف، وخالفت أيضاً لغةَ الجيل من العرب لهذا العهد. واختلفت هي في نفسها بحسب اصطلاحات أهل الآفاق؛ فلاهل المشرق وأمصاره لغةٌ غير لغة أهل المغرب وأمصاره، وتخالفت أيضاً لغة أهل الأندلس وأمصاره.

ثمّ لما كان الشَّعْرُ موجوداً بالطّبع في أهل كلِّ لسانٍ، لأنّ الموازين على نسبةٍ واحدةٍ في أعداد المتحرّكات والسواكن وتقابلها، موجودةٌ في طباع البشر، فلم يُهَجَرْ

15

(1) سقطت من ج (ب) سقط من ط ج ي .

(1) ابنُ رُشد : تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الجدل: 408، منطق أرسطو 3: 698، فنّ الشعر، لأرسطو، ترجمة إبراهيم حنّانة 65 .

الشعر بفقدان لغة واحدة، وهي لغة مُضَرَّ الَّذِينَ كَانُوا فُحُولَهُ، وفرسان مُبْدَانِهِ، حسناً
اشتهر بين أهل الخليفة، بل كل جيلٍ وأهل كل لغة من الغُرب المُستعجمين والحَضَرِ
أهل الأمصار، يتعاطون منه ما يُطَاوِعُهُمْ في اتحاله وِرْصِفِ بِنَاتِهِ على مَنَهِجِ كَلَامِهِمْ.
فأما الغُربُ، أهلُ هذا الجليل المُستعجمين عن لغة سَلَفِهِمْ من مُضَرَّ،

- 5 فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراس / على ما كانت عليه لسلفهم المستعربين،^[1417]
ويأتون منها بالمطولات، مُشْتَمِلَةً على مذاهب الشعر وأغراضه،^(أ) من النسيب
والمَدْحِ والرثاء والهجاء، ويستظردون في الخروج من فنٍّ إلى فنٍّ في الكلام. وربما هَجَمُوا
على المقصود لأوّل كلامهم. وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر، ثم من بعد
ذلك يُنْسِبُونَ. وأهل المغرب من الغُرب يُسمّون هذه القصائد بالاضمميّات، نسبةً
10 إلى الأُصمعيّ، رابطة الغُرب في أشعارهم. وأهل المشرق من الغُرب يسمّون أيضاً
هذا النوع من الشعر بالتبّاوي^(ب). وربما يُلْحَنُونَ فيه الحاناً بسيطة لا على طريق
الصنعة الموسيقارية، ثم يَغَنُّون به. ويُسمّون الغناء باسم الحورانيّ، نسبةً إلى حوران:
من أطراف العراق والشّام، وهي من منازل الغُرب البادية ومسالكهم إلى هذا العهد.
ولهم فنٌّ آخر، كثير التناول في نظمهم، ويحییون به مُعَصَّناً على أربعة أجزاء،
15 يُخَالَفُ آخرها الثلاثة الأوّل في رويته، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر
القصيدة، شبيهاً بالمرج والمُخَمَّس الذي أخذته المولدون من المتأخرين. ولهؤلاء الغُرب
في هذا الشعر بلاغة فائقة، وفهم الفحول والمتأخرون عن ذلك.

(أ) إلى هنا تصوّف نسخة الكتاب الأوّل "ع" (عاطف أنندي) لصياح الكرّاس الأخير منها. انظر مقدّمتا للعر 1: 48، وتفسّر
المقالة على ثلاث نسخ فقط، هي ط ج ي (ب) ج: الباريّ.

والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد، وخصوصاً علوم⁽¹⁾ اللسان العربي،
 [يستكثر]^(ب) هذه الفنون التي لهم إذا سمعها، ويُنحّ نظمهم إذا أنشد، ويعتقد أن
 ذوقه إنما بنا عنها لاستيعابها وفقدان الإغراب منها. وهذا إنما أتى من فقدان الملكة
 في لغتهم. فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم، لشهد له ذوقه وطبعه ببلاغتها إن كان
 سليماً من الآفات في فطرته ونظيره. وإلا فالإغراب لا مدخل له في البلاغة، إنما
 5 البلاغة: مطابقة الكلام للمقصود ومقتضى الحال / من الوجود فيه، سواء كان الرُّفْعُ
 دالاً على الفاعل، والتضبُّ دالاً على المفعول، أو بالعكس. وإنما يدلُّ على ذلك
 قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه؛ فالدلالة بحسب ما يتصلح عليه أهل الملكة.
 وإذا عُرف اصطلاح في ملكة واشتهر، صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة
 للمقصود ومقتضى الحال، صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك.
 10

وأساليب الشُّعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ما عدا حركات
 الإغراب في أواخر الكلمات، فإنَّ غالب كلماتهم موقوفة الآخر؛ وتتميّز عندهم الفاعلُ
 من المفعول، والمبتدأ عن الخبر بقرائن الكلام، لا بحركات الإغراب.

فمن أشعارهم⁽¹⁾ على لسان الشريف ابن هاشم، ينيكي الجارية بنت سرحان،
 15 يَذكر ظفعتها مع قومها إلى المغرب:

(1) ج: علم (ب) ط ي: يستكرو

(1) التزمنا في كتابة هذه الأشعار غير المعربة التي أوردها المؤلف في هذا الفصل، الرسم الذي كُتبت به،
 والتفتت بالحركات التي تُثبت عليها في الأصول.

..... الشريف ابن هاشم على

نَقَرٌ لِلْإِعْلَامِ إِنَّنِ مَا رَاتِ خَاطِرُ

وَمَاذَا شَكَاتِ الرُّوحُ مِمَّا طَرَا لَهَا

تُحْسِنُ أَنْ قَطَاعاً مَازِي ضَهْرَهَا

5 وعادت كما خواره في يدِ غاسِلٍ

يَجَايِدُهَا^(أ) اثْنَيْنِ وَالْفَرْعَ بَيْنَهُم

وَجَاتِ دُمُوعِي ذَارِفَاتٍ لَكُنَّهَا

تَدَارِكُ مِنْهَا الْجَمَّ حَذَرًا وَزَادَهَا

تَضَبُّ مِنَ التَّيْعَانِ مِنْ جَانِبِ الصِّفَا

10 هَذَا الْغَنَى مَنِي تَسَابَيْتِ غُرُوزُهُ

وَنَادَى الْمَنَادِي بِالرَّحِيلِ وَشَوُّرُوا

وَسَدًّا لَهَا [الْأَزْبَادُ يَا بَنُ غَانِمٍ]^(ب)

/ وَقَالَ لَهُمْ خَشَنُ بْنُ سِرْحَانَ عَزُّوْنَا

وَيَزْكُضْ وَبِنْدَهُ بَيْنَهَا بِالثَّأْبِ

15 عَذْرَتِي^(د) زَيْنُ السَّمِيخِ ابْنُ عَابَسٍ

غَزَنِي وَهُوَ زَعْمًا صَدِيقِي وَصَاحِبِي

وَزَجَعٌ يَقُولُ لَهُمْ بِلَادُ ابْنِ هَاشِمٍ

إِلَى طَرَا كَبِدُ شَكَّتْ مِنْ زَفِيرِهَا

يَرِدُ غَلَامُ الْبَدْوِ يَلْقَى عَصِيرَهَا

غَدَاثُ وَزَايِعُ تَلَفَ اللَّهُ جَبِيرَهَا

بِمَشْرُطَتُو هَذَا وَصَافِي ذِكْرِهَا

عَلَى مِثْلِ شَوْكِ الطَّلَحِ عَنُقُو نَشِيرَهَا

عَلَى شَوْكُو لَغَدُوا بِقَايَا حَرِيرَهَا

يَبِيدُنِ دَوَارَ السَّوَانِي بِدِيرِهَا

مُزَوِّنُ تَجِي مَثْرَكَبَا مِنْ صَبِيرَهَا

عَنُوفًا وَتَحْجَازُ الْبَرْقِ فِي غَزِيرَهَا

نَاضَتْ مِنْ بَغْدَادِ حَتَّى فَقِيرَهَا

وَعَرَجَ عَارِيهَا عَلَى مُسْتَعِيرَهَا

عَلَى إِثْنَيْنِ مَاضِي بِنِ مَقْرَبِ يَنِيرَهَا

[1418] (ج) وَسَوَقُوا التَّجْوِعَ إِنْ كَانَ أَنَا هُوَ غَفِيرَهَا

وَبِاللَّسْمِ لَا تَحْجُزُوا فِي مُغِيرَهَا

وَمَا كَانَ يَرْضَى زَيْنَ جَمِيرٍ وَمِيرَهَا

وَأَنَا لَيْتَهُ مَاضٍ ذَرَقَتِي مَا نَدِيرَهَا

بَحْرِ الْبِلَادِ الْمَغْطَشَا مَا نَجِيرَهَا

(أ) ي : يجايدوها (ب) من ظ ي، وفي ج: الان يا ديار ابن غانم (ج) سقط حرف العطف من ح (د) الإغماء من ح، وأهملت في ظ ي .

حراماً علينا باب بغداد وازضاها داخل ولا عاوذ ركيزي تقيها
نصدق روجي عن بلاد ابن هاشم على الشمس أو نزل القضا من هجيرها
وباتت نيران العداري قوادخ يلودو بحرجان يشدوا أسيرها

ومن قولهم في رثاء أمير زناتة ، أبي سغدي النفرني ، مقاربعهم بإفريقية
وأرض الزاب. ورتاؤهم له على طريق التهكم:

5

تقول نقاة الخد سغدي وهاضها لما^(أ) في الطعون الباركين عويل
يا سائل عن قبر الزناتي خليفة خذ النغت مني لا تكون هبيل
أراه بعالي وأذران وفوقه من الرنيط عيساوي بناء طويل
أراه بميل الغور من شارع التقا به الواد شرقا والبراغ دليل
يا لهف كبداه الزناتي خليفة وقد كان لاغقاب الجياد شليل
قتيل فتى الهيجا ذياب بن غاتم 10 جراحاً كأفواه المزاذ تسيل
أيا جازياً مات الزناتي خليفة لا ترحل إلا أن تريد رجيل
الا واش رحلناك ثلاثين مرة وعشراً وستاً في النهار قليل

ومن قولهم على لسان الشريف ، يذكر عتاباً وقع بينه وبين ماضي بن مقرب:

تبدا ماضي الخيار وقال لي أشكر ما نحنا عليك رضاش
أشكرا غدا لا تزيد ملامه 15 لحد^(ب) ومن عمز بلادة عاش

(أ) ج: لها (ب) ج: لنخذ .

باعدتنا يا^(أ) شُكر ودانيت غيرنا وقربت عُزبا لبشين^(ب) قماش
 / نحن غدينا نصدفوا ما قضا لنا كما صادف طعم الرباد طشاش^(ب)
 إن كان بنت الشؤل تلتح بارضكم هنا العرب ما ردنا لهن ضناش^(ج)

ومن قولهم في ذكر رحلتهم إلى المغرب، وغلهم زناة عليه:

5 وأي جميل ضاع لي في ابن هاشم وأي رجال ضاع قبلي جميلها
 لقد كُت أنا^(د) وإياه في زهو بيننا عناني بحجه ما [غباني]^(ه) دليلها
 وعدت لكني شارباً من مدامه من الخمر قهو ما قدر من يميلها
 أو مثل شمطا مات مضمون كدها غريباً وهي مدوخاً عن قبيلها
 أناها زمان السوء حتى تدوخت وهي بين غربا غافلا عن نزيلها
 10 لذلك^(و) أنا تما لجالي^(ز) من الوجا شاكي بكبداً بأذيها زعيلها
 وامرئ قومي بالرحيل وبكروا وقواؤ شداد^(ح) الحوايا حيلها
 قعدنا^(ط) سبعة يأم فخيوش نجعنا والبذو^(ي) ما ترفع عمود ابقى لها
 تظل على اخداب الشايا نوازي تظل الجرا فوق النضا واتصيلها

ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى، من الدواودة، إحدى بطون رياح
 15 وأهل الرئاسة فهم، يقولها وهو معتقل بالمهدية، في سجن الأمير أبي زكرياء ابن أبي
 حفص، أول ملوك إفريقية من الموحدين:

(أ) ج: باعلك شاما (ب) ي: لبسين (ج) ه: هنا العرب ما ردنا لهن ضناش (د) ج: ناوياه (ه) ج: عناني (و) ج: كذلك
 (ز) ج: لحالي (ح) ي: سداد (ط) ي: فعدنا سبعة يأم (ي) ي: اليه وما ترفع عموداً بقي لها .

- تقول وفي بَوح الدجا بعدَ وَهْنه
يا من [القلبا] ^(أ) حالف الوجد والأسى
حجازيه بدوييه عرييه
مولعة بالبدو لا تألف القُرى
غياثٌ ومُسْتَشَاهَا يهاكل شتوة
ومرناها غُشْبَ الاراضي من الحيا
نشوق تشوق ^(ب) العين فما تداركت
/ وماذا بكث بالما وما ذا تناخطت [1419]
كأن العروس البكر لاحت ثيابها
فلاة وذهنها واتساع ونبه
ومشروها من محض ألبان شولها
تغاثت عن الابواب والموقف الذي
سقا الله ألوذ المستنجد بالحيا
مكافئها بالود متي وليتني
ليالي اقواس الصبا في سواعدي
وقرسي عديدا تحت سرجي مشاقة
وكم من رداحا اسهرتي ولم ارى
- حراماً على أجفان عيني منامها
ورُوحاً هيأني طال ما بي سقامها
غداويةً ولها بعيداً مرامها
سوا عانك الوغسا يواقي خيامها
محمونةً بيها وبها غرامها 5
يواقي من الحُور الخلايا جسامها
عليها من السُحْب السواري غمامها
عيون غزار المزن عذبا حمامها
عليها ومن نور الاقاي خزامها
ومزعا سواماً في مراعي نغامها 10
عتيم ومن لحم الجوازي طغامها
يشيب الفتى مما يقاسي زحامها
وتالا ^(ج) ويحي ما بلا ^(د) من زمامها
ظفرت بأياما مضت في زكامها
إذا قمتُ لم تخطي من ايدي سهاها 15
زمان الصبي شرخا ويدي لجامها
من الخلق ابهى من نظام ابتسامها

(أ) من ج، وفي ظ: لقا (ب) الناء معلقة في ح (ج) كذا ويعني: وتأل (د) كذا ويعني: ما نل .

ومك غيرها من كاعباً مرجئة
 وصفقت من وجدي عليها طريخة
 وناراً بحطب^(ب) الوجد توهج في الحشا
 أبا من^(ج) هذا إلى متى
 5 ولكن ريت الشمس تكسف ساعة
 بنود ورايات من السعد اقبلت
 الا واعلي بالعين اظعان عزوتي
 بجرا عيثا الفرق من فوق شامس
 إلى منزل بالجغرية للسوى
 10 ونلقى سراً من هلال بن عامز
 بهم تضرب الامثال غرب ومشرق
 عليهم ومن هو في جباهم^(هـ) تحية
 / ادع ذا ولا تأسف على سالفاً مضى
 في ذي الدنيا ما دام لاحد دوامها [419ب]

ومن أشعار المتأخرين منهم، قول خالد بن حمزة بن عمر، شيخ الكعوب،
 15 من أولاد أبي الليل، يعاتب أفتالهم^(ز) أولاد مهلهل، ويحيب شاعرهم شبلى بن
 مسكيانة بن مهلهل، عن أبيات فخر عليهم فيها بقومه:

يقول وذا قول المصاب الذي نشأ قسوارع قيفان يُعاني صاعبها

(أ) ج: دماها (ب) ظ: بحطب (ج) ياض في ج ي، وكبتت متصلة في ظ (د) تقرأ في ج: حشاما (هـ) ج: جياهم
 (و) ي: لغنيا (ز) جاءت صلة في ظ ي، ويمكن أن تقرأ: أنيالهم .

- يرج بها جأؤ المصاب إلا انتقا
محبرة مختارة من نشادنا
مغرلة عن ناقدأ في غصونها
هيض^(١) تذكاري بها يا ذوي الندى
أشبل جثثنا من خبأك طرايف
فحزت ولم تقصّر ولا انت بغادم
لقولك في أمّ [المتهين]^(ب) بن حمزة
أما تعلم أنّه قامها بعدما لقا
شهاباً من اهل الأمر يا شبل خارق
سواهر طفاها وضرمث بعد طفينة
وضرمث بعد الطفيتين إلّز صحث
كما كان هو يطلب على ذا تجنبت
وبان لوالي الراي في ذا انشباخها
- فنونا من انشاد القوافي عداها
تجدي لنا نام الوشا ملتها بها
محكمة القيفان دابي وذاتها
قوارع من شبل وهذى جوابها
قراخ يرج الموجهين الغنا بها 5
سوا قلت في جمهورها ما اعياها
حامي حماها عاد بافي خزائها
رصاص بين يحى وعلاق داها
وهل زيت من جا للقلق واصطلاها
وأشا طفاها جاسراً لا عياها 10
لفاس الي بيت المنا يقتدا بها
رجال بني كعب الذي يتقا بها
قصارا وهي عن كبر الاشيا بهاها

ومنها في العتاب:

- وليذا تغانثوا أنا أغنى لانني
عليّ ونا ندفع بها كل مبضع
فإن كانت الأملاك نعت عرايش
- غنيت بعلاق الثنا واعتصاها 15
بلسيف تنقاش العدا من رقاها
علينا بأطراف القني اختطباها^(ج)

(١) ي: هيض (ب) من ج. وفي ي: المتهين (ج) ح ي: القني اختطباها .

/ ولا يَفْهدها إلا رهاف وذُبُل
بني عَمْنَا ما نرتضي الذلَّ غَلْمه
وهُي غَالِمَا بَانَ المنايا تَغِيلُهَا
وَزُرُقُ كَالسَيْنَةِ الجَنَاش انسِلَاهَا [420:]
تَسِير السبَايا والمطَايا رَكَبَهَا
بلا شك والدنيا سَرِيع انقِلَابَهَا
ومنها في وَضِفِ الطُعَانِ:

5 بَطْغَن قَطُوعَ البِيد لا تَخْتَشِي العِدَا
تَرى العَيْنُ بِهَا قُل لَشَبَلٍ عَرَايْفُ
تَرى أَهْلَهَا غَطَا الصَّبَاح ان يَفْلَهَا
لَهَا كُل يَوْم في الأَرَامَا قَتَايِلُ
فُشُوقُ لَجُؤَاتٍ مَخُوفَ جَنَاهَا
وَكُل مِمَاةٍ مَحْتَضِنَهَا رِبَاهَا
بِكُل خَلُوبِ الجُوف يا شَحْد نَاهَا
وَرَا الفَاجِر المَزُوج عَنو رِضَاهَا

ومن قَوْلِهِم في الأَمْثَالِ الحِكْمِيَّة:

10 وَطَلَبِكَ في المَنْعُوع مِنْكَ سَفَاهَةٌ
إِلَّا زَيْتُ نَاساً يَغْلُقُوا عَنْكَ بِأَبْهَمِ
وَصَدَّكَ عَمَّنْ صَدَّ عَنْكَ صَوَابُ
ظَهُورُ المَطَايا يَفْتَحُ اللهُ بَابُ

ومن قَوْلِ شَبَلٍ يَذْكُرُ انْتِسَابَ الكَعُوبِ إِلَى تَرْجَم:

لَشَيْبٍ وَشُبَّانٍ مِنْ أَوْلَادِ تَرْجَمِ جَمِيعُ الْبَرَايا تَشْتَكِي مِنْ ضُهَاذِهَا

ومن قَوْلِهِ ⁽¹⁾ يَعْتابُ إِخْوَانَهُ في مُوَالاةِ شَيْخِ المَوْحِدِينَ، أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ نَافِرَاكِينِ
المُسْتَبَدِّ بَتُونَسَ عَلى سُلْطَانِهَا، مَكْفُولُهُ أَبِي إِسْحَاقَ ابْنَ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى، وَذَلِكَ فِيمَا
15 قَرَّبَ مِنْ عَصْرَانَا:

(1) المائد لحفالد بن حمزة بن عمر .

جزينا بهم عن كل تأليف في العدى
 إلن عاد من لا كان منهم بهمة
 وركبوا السبايا المنجات من اهلها
 وساقوا المطايا بالشرا لا نسوله⁽¹⁾
 5 وكبسوا من اصناف السعايا دخاير
 وعادوا نظير البرمكين قبل ذا
 وكانوا لنا دزعا لكل مهممة
 خلوا النار في جنح الظلام ولا اتقوا
 كسوا الحي جلباب الهم لسثرة
 10 كذلك منهم حابس ما ذرا النبا
 / يظن ظنونا ليس نحن من اهلها
 خطا هو ومن واتاه في سوء ظنة
 نوزوا عزوتي ان الفتا بو محمد
 وبرزجت الاوغاد منه ويحسبوا
 15 جزوا يطلبوا تحت السحاب شرايع
 وهو لو عطا ما كان للراي عارف
 وان نحن ما نستاملو عنه راحة
 وأن وطأ ترشيش يضئاق وشعها

وقنا بهم عن كل قيد مناب
 رفها وخيراثو عليه خصاب
 ولبسوا من انواع الحرير ثياب
 جاهير ما [يفلو بها]^(ب) بحلاب
 ضخم لحرات الزمان تصاب
 والآهلالا في زمان دياب
 إلن بان من نار العدو شهاب
 ملامه ولا دار الكرام عتاب
 وهم لو دروا لبسوا قبيح جباب
 وذهل حكمي له ان عقلة غاب
 1421] تمنى يكن له في السباح شعاب
 بالاثاث من ظن القبائح عاب
 وهوب لالاف بغير حساب
 بروجة يا يحيى بروح سحاب
 لقوا كل ما يستاملوه سراپ
 ولكن في قلة عطاه صواب
 وأنة بسهام التلاف مصاب
 عليه وتمسى بالفزوع كراب

(1) ي : نسوله (ب) ط : يعلوها .

وأثمة منها عن قريب مُفاصل
 وعن فائتات الطرف غيد غوانج
 يتيه إذا تاهوا ويصبوا إذا صبّوا
 يضلوه من عدم اليقين وربّما
 بهم جاز له زمناً وطوع أوامر
 حرام على بن تافراكين ما مضى
 وإن كان له عقلاً رجيح وفطنة
 وما البدا لا بعدها من مباعل
 ويحمى بها سوق علينا سلاعه
 يمسى غلام طالب ربح ملكنا
 يا وأكلين الخبز تبغوا إدامه
 خلوج عنا زهولها وقباب
 ربوا خلف استار وخلف حجاب
 بحسن قوانين وصوت رباب
 يطارح حتى مالكثة شاب
 ولذة مأكول وطيب شراب⁵
 من الودّ إلا ما بُدِلْ بخراب^(١)
 يلجح في السيم الغريق غراب
 كبار الّن تبقا الرجال كباب
 ويجمار^(ب) مغصوب القنا وجعاب
 ندوما ولا يمسى صحيح بناب¹⁰
 غلطنوا^(ج) اذمتوا في السموم لباب

ومن شجر عليّ بن عمر بن إبراهيم، من رؤساء بني عامر لهذا العهد،
 إحدى بطون رُغْبَةِ، يُعَاتِبُ بني عَمّه المتطاولين إلى رئاسة يَنْتَه:

أبايات (كذا) عذبة من قريض كلام^(١)

(١) ج ي: بحراب (ب) كذا في ط ج، وفي ي: ويحي ... (ج) في ظ: وغلطو .

(١) كذا وضع هذا العجز (؟) - ولا صدر له - في أصول المؤلف الثلاثة: ط ج ي، وذلك على أنه من
 القصيدة التالية له. ويظهر أنه في الأصل استمرارٌ لثريّ للفقرة السابقة، حصل فيه بعض التحريف من
 الناسخ الأول، وربما كان يُقرأ: يُعَاتِبُ بني عَمّه... إلى رئاسة يَنْتَه، بآيات عذبة من قريض الكلام. ثم بدأ
 القصيدة التي استأنرت - دون غيرها - بعناية ابن خلدون، فشرع بعض كلماتها الغامضة في حواشيها، كما
 نذكره. وقد أوردت هذه الإفادات اللغوية نُسخنا ج ي وسقطت من ظ، فأثبتناها في فروق النسخ.

/ محبّة كالدّر في يدين^(١) صانع
 أنا جها مني تسايبت^(ج) ما طرا
 غدا منه لام الحي حيّين وانشطت
 لكن ضميري يوم بان بهم النيا
 5 وإلا كما ابراض البهامي^(د) قوادح
 وإلا لكنّ القلب في يدين قابض
 ليأ^(هـ) قلت نغفا من شقا البين زارني
 إلا يا ربوعا كان بالامس عامز
 وغيداً تداني للخطى في ملاعب
 10 ونعم تشوق الناظرين التامة
 وعذف^(ط) دياسمها يروعوها مريها
 واليوم ما بها سوى البوم حولها
 وقفت بها طورا طويل نسالها
 ولا صحّ لي منها سوى وحش خاطري
 15 ومن بعد ذا تدني^(ل) لمنصور بو علي
 وقولوا لو يا بُو الوفاكلح رايكم
 ليأ^(ب) كان في سلك الحرير نظام [421هـ]
 وبيننا بذا تركّ الظعون قسّام
 عصاها ولا صبنا عليه حُكام
 تَبْرَم على شوك القِتّاد بُزّام
 لهم بين عوج الكافّات ضُرام
 اتاهم بمنشار القطيع عُشّام^(هـ)
 إذاه ينادي بالفراق وخام
 بحبي وجلّة والقطين لّسام
 دجا الليل فيهم ساهراً وينام
 ليأ ما بدا من مُهزّق^(ز) وكُظّام^(ح)
 وأُطلاؤ^(ي) من سرب المها ونعام
 يُتوخّوا على اطلال لها وحُتام^(ك)
 بعين سخيّفا والدموع جام
 وسقي من اسباب عرفت وهام
 سلام ومن بعد السّلام سّلام
 دخلتوا بحور غامقات دُهام

(١) كذا في ط ج، وفي ي: بدني، وشرحت في حاشية ج: بدني (ب) في حاشية ج: إذا (ج) في حاشية ج: اسباب
 (د) في حاشية ج: شرر الحداد (هـ) في حاشية ج: جاهل (و) في حاشية ج: إذا (ز) في حاشية ج: الشهل (ح) في
 حاشية ج: التنايا (ط) في حاشية ج: غراب (ي) في حاشية ج: جماعات (ك) في حاشية ج: الكذّي المستندة (ل) في
 حاشية ج: أي تحمل .

- زواجر ما توقاس بالعود وانا
ولا تستوا فيها قياساً يذلكم^(أ)
وعانوا على هلكاتكم في ورودها
يا غزوتا^(ب) ركبوا الصللا ولا لهم
الا عناهم لو ترى كيف رايم
خلوا^(ج) الغبا ونفاؤ في مرقب الغلا
[1422] / وحق النبي والبيت واركانه الذي
لبد الليالي بيه إن طاللت الحيا
وان بدأها تبلى البوادي عكايف
وكل مُشاقا^(د) كالشدايا^(هـ) عابز^(و)
وكل كيتي^(ي) مكنتف^(ك) غصّ نابه
وتجبل بنا الارض العقيمة مُدة
بالابطال والقود الهجان وبالقنى
نحجزها وانا عقيد^(ل) قودها
وحنا كما اضراش^(ن) البزا في اثر نجعم
متى كان يوم^(س) الفحص يا مير بو علي
- لها سيلات على الفضا والاكام
وليس البحور الطاميات تُقام
من الناس غُدمان العقول ليام
قرار ولا دنيا لهمن دوام
مثل سذو زفلا^(ج) ما لهمن تمام⁵
مواضع ما هيا لهم بمقام
وما زارها في كل دهر وعام
تذوقون من خُط^(هـ) الشكاع^(و) مدام
بكل رديني مطرباً وحسام
عليها من اولاد الكرام غلام¹⁰
يظّل يصارع في العنان لجام
وتولدنا من كل ضيق كظام^(د)
لها وقت وجبات العدو زحام
وفي سنّ رحبي للحروب غلام
حتى تقاضوا من ديون غرام¹⁵
يلقي سفاها صايدين قُرام^(ع)

(أ) ج: بذلك (ب) حاشية ج ي: اني أيتنا (ج) ج ي: خرقاً (د) ج: خلقى (هـ) ج ي معناه: المزر (و) ج ي بمعنى: الشراب (ز) ج ي: الفرس (ح) حاشية ج ي: الرياح (ط) ج ي: سابق (ي) ج ي: أحر (ك) حاشية ج ي: مختوم (ل) شبه بذلك قصر ذيله وصغره (ل) حاشية ج ي: الثنايا (م) ج ي: عقيد القوم: أميرهم (ن) ج ي: شرار البراة (س) ج ي: طائر (ع) ج ي: شديد الشهوة إلى اللحم.

كذلك بوحمو^(١) اشترى بغت داخض
 وخلا رجالا لا يرى الضيم جائهم
 الا يقيهمها وتشديو^(ج) شؤزم^(د)
 كم ثار ظعنهما على البدو سابق
 5 في اثار قطاع الصوا^(٢) بو مياعل
 وم ذا يجيبوا في اثره من غنيمه
 وان جاوز يخفوه الملوك ويتغوا
 عليكم سلام الله من لسن فاهم^(٣)
 وخلي الجياد^(ب) الغاليات تسام
 ولا يخنعوا يرجى العدو دمام
 وهم عز زغبة^(هـ) دايماً ودوام
 بين صحاصيح وبين ختام^(و)
 لينا^(ح) ناض^(ط) ترك الظاعنين رمام
 حليف الشنا سجاج^(ي) كل غيام^(ك)
 غدا ظعنة يحذى^(ل) عليه قتام
 ما غنت ورقا وناح حمام

ومن شغل عرب البرية بالشام، ثم نواحي^(ن) حوران، لامرأة قتل زوجها،
 10 وبعثت إلى أحلافه من قيس [تغريم]^(س) بطلب ثاره:

تقول فتاة الحي أم سلامة
 تبات طوال الليل ما تالف الكرى
 بعين اراع الله من لا رثا لها
 موجهه كن السفا في مجالها^(ع)
 / على ما جرى في دارها وعيالها
 بلحظة عين غير البين حالها [٤٢٢ب]
 فقدتوا شهاب الدين يا قيس كلكم
 ومنتوا عن اخذ الشار ماذا وفا لها

(١) حاشية ج ي: سلطانهم ملك تلسان والمغرب الأوسط (ب) ج: العباد (ج) ج ي، القدا: الاستقامة (د) ج ي: الشور:
 الجهة المقصودة (هـ) ج ي: قبيلة من بني هلال (و) ج ي: الكدى (ز) ج ي: جمع صوة وهي القصر (ح) ج ي: إذا
 (ط) ج ي: ركب للزور (ي) ج: غارق السراب، وفي ي: غارقه (ك) ج ي: السراب (ل) ج ي: يسير (م) كذا في ط
 ي، وفي ج: فافهم (ن) ي: نواحي (س) من ج ي، وفي ط: تغريم (ع) ج ي: محالها .

أنا قلت إذا رد الكتاب يسرني وتبرد من نيران قلبي ذبالها
أيا حين تسرح الدوايب واللحَا ويبض العذارى ما حميتوا جبالها

وأمثالُ هذا الشعرِ عندهم كثيرٌ، وبينهم متداولٌ. ومن أحيائهم من يَنسَجِلُهُ،
ومَنهم من يَسْتَنكِفُ عنه، كما يَبْنِئُ في فَضْلِ الشعرِ، مثل الكثير من رُؤساءِ رِياحِ
وَرُغَبَةٍ وَسَلِّمْ لهذا العهدِ، وأمثالهم.

الموشحات والأنزجال للأندلس⁽¹⁾

وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشَّعر في فُطْرهم وتهدَّبت مناحيه وفنونه،
 وبلغ التَّميُّق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فتاً منه ستموه بالموشح، ينظمونه أنشباطاً
 أنشباطاً، وأغصاناً أغصاناً، يكترون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسقون المتعدّد منها
 5 بيتاً واحداً، وتلترمون عدداً قوافي تلك الأغصان وأوزانها مُتتالياً فيما يقد إلى آخر
 القطعة. وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصانٍ عددها
 بحسب الأغراض والمذاهب. ويشسبون⁽²⁾ فيها ويمدحون، كما يفعل في القصائد.
 وتجاوزوا في ذلك إلى الغاية، واستطرقه الناس، وحمله الخاصة والكافة
 لسهولة تناوله وقرب طريقه.

10 وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس، مقدّم بن [مُعافى القُبَري]⁽¹⁾ من شعراء
 الأمير عبد الله بن محمد المزرواني. وأخذ عنه ذلك [أحمد]^(ب) بن عبد ربه، صاحب

(1) في ظي: بن معافر القُبَري، وفي ج: بن معافر البربري، والتصويب من المتطوف 255 وجذوة المحبدي 333 (ب) في
 الأصول الثلاثة: عبد الله، وأصلح في حاشية ج وعليه صح.

(1) ينقل ابن خلدون أكثر مادة هذا الفصل من مقتطف ابن سعيد، انظر عن ذلك د. عبد العزيز الأهواني:
 المتطوف من أزهار الطرف، (مجلة الأندلس Al-Andalus المجلد 13 ص 19 - 33، مدريد 1948): ابن
 خلدون وتاريخ فتى التوشيح والزجل. (أعمال محمد بن خلدون، 473 - 487، القاهرة 1962م)، مقدمة
 المقتطف 22-25، وفي خاتمة رسالة الطنجي للأهواني ص 274.
 (2) يشتبون بالمرأة في شعرهم.

كتاب العقد. ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتها. فكان أول من
برغ في هذا الشأن بعدها عبادة القزاز، شاعر المقتصر ابن ضمادح، صاحب المروة.
وقد ذكر الأعلام البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على
عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله⁽¹⁾:

بَذُرْتُمْ شمسُ ضُحَى غَصْنُ نَقا مِسْكُ شَمِّ 5
/ ما أتم ما أوضعا ما أوزقا ما أتم [1423]
لا جرّم من لَمَحَا قد عَشِقَا قد حُرِم

ورَعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف.
وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه، شاعر المأمون بن ذي الثون،
صاحب طليطلة. قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارث له، حيث
يقول⁽²⁾:

العودُ قد تَزَنَّم بأبدع تلحين
وشقَّت المذايِب رياض البساتين

(1) شخ الطيب 6: 7 (وهو ناقل عن مقدمة ابن خلدون)، ابن سناء الملك: دار الطراز 89 وبه النص التام للموشح.

(2) التفتح 7: 6، أزهار الترياح 2: 208 (وقوله عن ابن خلدون)، المتكطف 256، عدة الجليس 362 (241) وأورد نص الموشح كاملاً.

وفي انتهائه، حيث يقول:

تَحْطُرْ وَلِشْ تَسْلَمَ عَسَاكَ الْمَأْمُونُ
مَرْوَعُ الْكَتَائِبِ يَحْيَى بْنُ ذِي التَّوْنِ

5 ثم جاءت الحُلبَةُ التي كانت في مُدَّةِ الْمُتَمِّينِ، فظهرت لهم البدائع. وفسرنا
جُلَيْتِهِمُ الْأَعْمَى التُّطَيْلِيَّ، وَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى. وَلِلتُّطَيْلِيِّ مِنَ الْمَوْشَعَاتِ الْمَذْهَبَةُ قَوْلُهُ⁽¹⁾:

كَيْفَ السَّيْبِيلُ إِلَى صَبْرِي فِي الْمَعَالِمِ⁽¹⁾ أَشْجَبُ
وَالرَّكْبُ وَسَطُ الْفَلَاحِ بِالْحُرْدِ التَّوَاعِمِ قَدْ بَانُوا

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَشَائِخِ، أَنَّ أَهْلَ هَذَا الشَّأْنِ بِالْأَنْدَلُسِ يَذْكُرُونَ أَنَّ
جَمَاعَةً مِنَ الْوِشَاحِينَ اجْتَمَعُوا فِي مَجْلِسٍ لِإِشْبِيلِيَّةٍ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ صَنَعَ
10 مَوْشَعَةً وَتَأْتَقُّ فِيهَا، فَتَقْدَمُ الْأَعْمَى التُّطَيْلِيُّ لِلْإِنْشَادِ، فَلَمَّا افْتَتَحَ مَوْشَعَتَهُ^(ب) الْمَشْهُورَةَ
بِقَوْلِهِ⁽²⁾:

ضَاكِكٌ عَنْ جُمَانٍ سَافِرٌ عَنْ بَذْرِ
ضَاقٌ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحَوَاهُ صَنْدَرِي

(1) في الأزهار: العالم (ب) ي: مَوْشَعُهُ.

(1) ديوان الأعشى التُّطَيْلِيَّ 272، التُّفَحُ 7: 7، أزهار الرياض 2: 208.

(2) دار الطراز 32، أزهار الرياض 2: 208، التُّفَحُ 3: 404، 4: 551، 7: 7.

خَرَّقَ ابْنُ بَقِيٍّ مَوْشَحَتَهُ، وَتَبِعَهُ الْبَاقُونَ.

وَذَكَرَ الْأَعْلَمُ الْبَطْلَيْسِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ زَهْرٍ يَقُولُ: مَا حَسَدْتُ قَطُّ وَشَاحاً
عَلَى قَوْلٍ إِلَّا ابْنَ بَقِيٍّ حِينَ وَقَعَ لَهُ⁽¹⁾:

أَمَا تَرَى أَخَذَ فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يُلْخِ
أَطْلَعَهُ الْقَرْبُ فَأَرَنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقُ 5
وَكَانَ فِي عَصْرِهِمَا مِنَ الْوُشَاحِينَ الْمَطْبُوعِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَبْيَضُ. وَكَانَ فِي عَصْرِهِم
[423ب] / أَيْضاً الْحَكِيمُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ بَاجُجَةَ، صَاحِبُ التَّلَاحِينَ الْمَعْرُوفَةِ.

وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الْمَشْهُورَةِ، أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ مَخْدُومِهِ ابْنِ تَيْفَلُوتٍ، صَاحِبِ
سَرَقِشْطَةَ، فَأَلْقَى عَلَى بَغْضِ قَيْنَاتِهِ مَوْشَحَتَهُ الَّتِي أَوْلَاهَا⁽²⁾:

جَرَّرَ الذَّنْلَ أَيْمًا جَرَّ وَصَلَ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ 10
فَطَرِبَ الْمَدُوحُ لِذَلِكَ، فَلَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ:

عَقَدَ اللَّهُ رَايَةً⁽¹⁾ النَّصْرَ لِأَمِيرِ الْعُلَى أَبِي بَكْرٍ

(1) ج: آية .

(1) أزهار الرياض 2: 209، التفتح 7: 7، والموضح كله في دار الطراز 86-87، ونسب للأعشى التطيلي،
ديوانه 270-272، ويرجح ناشر دار الطراز نسبته لابن بقي، لتضمنه مدح بني القاسم قضاة سلا، الذين
اختص بمذمهم .

(2) عدة المجلس 161 (106)، التفتح 7: 8، أزهار الرياض 2: 209، وأورد نسبه ابن الخطيب في جيش
التوشيح 123 (90) ونسبه لبني الصيرفي، وعليه مستدرک 285 .

فلما⁽¹⁾ طرق ذلك التلحين سَمِعَ ابنُ تَيْفَلُوتِ، صَاحَ: وَاطْرَبَاهُ! وَشَقَّ ثِيَابَهُ
وقال: ما أَحْسَنَ ما بدأتُ وما حَتَمْتُ! وحلف بالآيمان المُعَظَّمَةِ لا يَتَشَيَّ ابنُ بَاجَةِ
إلى داره إلَّا على الذَّهَبِ. خَافَ الحَكِيمُ سُوءَ العَاقِبَةِ، فَاخْتَالَ بِأَن جَعَلَ ذَهَباً في
نَعْلِهِ وَمَشَى عَلَيْهِ.

5 وذكر أبو الخطاب بن زُهر⁽¹⁾ أَنَّهُ جَرَى في مَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ بنِ زُهرٍ ذِكْرُ
أبي بَكْرٍ الأَبْيَضِ، الوَشَّاحِ المُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ، فَغَضَّ مِنْهُ أَحَدُ الحَاضِرِينَ. فَقَالَ: كَيْفَ
تَغْضُ مِنْ يَمَنٍ يَقُولُ⁽²⁾:

مَالِدُ لِي شُرْبُ زَاحٍ عَلَى رِياضِ الأَقْصَاحِ
لَوْلا هَضِيمُ الوَشَّاحِ إِذَا انْتَشَى فِي الصُّبَاحِ

أَوْ فِي الأَصِيلِ أَضْحَى يَقُولُ
مَالِلِ الشُّمُولِ لَطَفْتُ حَدِّي
وَاللِّشِّمَالِ هَبَّتْ فَمَالُ
غَصْنُ اغْتِدَالِ صَمَّةُ بُزْدِي

10

(1) ج : وطرق ذلك .

(1) كُنَّا فِي الأَصُولِ، وَفِي المُتَطَفِ (مصدر ابن خلدون): أَبُو الحَصِيبِ بنِ زُهرٍ الَّذِي رَوَى عَنْهُ الخَبَرُ ابنُ
سَعِيدٍ (ص 257)، وَحَمِلَ رُوزَنْتَالُ ROZENTHAL (مترجم المقدمة) 1: 444 (الحاشية 1802) عَلَى بَحْثِ أ.
هَرْتْمَانِ A. Hartmann (ص 7 الحاشية 1) الَّذِي يَرَى فِيهِ أَنَّ الأِسْمَ هُوَ أَبُو الخَطَّابِ بنِ دَحِيَّةٍ. وَلَعَلَّهُ
الأَصُوبُ، فَقَدْ كَانَ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ بنِ زُهرٍ مِنْ شُيُوخِ ابنِ دَحِيَّةٍ. وَفِيَاتُ الأَعْيَانِ 4: 434 (672)،
الرِوَايَةُ بِالْوَفَايَاتِ 4: 39 .

(2) عُدَّةُ الجَلِيسِ 109 (71) ، المُتَطَفِ 257 .

مَا^(١) أَبَادَ الْفُلُوبَا يَمْشِي لَنَا مُسْتَرْتَبَا
يَا لَخَطْلُهُ زِدْ دُنُوبَا وَيَا لَمَاءِ الشُّنْبَا

بَرِّدْ غَلِيلَ صَبِّ غَلِيلَ

لَا يَسْتَحِيلَ فِيهِ^(ب) عَنْ عَهْدِي

5 . وَلَا يَزَالُ فِي كُلِّ حَالٍ

يَرْجُو الْوَصَالَ وَهُوَ فِي الصَّدِّ

واشتهر بقصد هؤلاء في صُدر دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ، محمد بن أبي الفضل بن شَرَف.
قال المس بن دَوْرِيذَةَ^(ج): رَأَيْتُ حَاتِمَ بْنَ سَعِيدٍ [يَقْبَلُ رَأْسَهُ]^(١) عَلَى هَذَا الْإِفْتِتَاحِ:

شَمْسٌ قَارَنْتُ بِدُرَا رَاحٌ وَنَسِيدِم

10 وابن هَرْدُوس ⁽²⁾ الَّذِي لَهُ:

(١) غَدَّةُ الْجَلِيلِ: لَنَا بَدَا (ب) غَدَّةُ الْجَلِيلِ: فِيكَ (ج) كَذَا فِي ط ح ي. وفي الْمُتَطَلَف: 258: الْمَسْنُوبُ بْنُ دَوْرِيذَةَ. وَلَعَلَّهُ الْحَسَنُ.

(1) تِكْمَلَةُ مِنَ الْمُتَطَلَفِ 258، وَحَاتِمُ بْنُ سَعِيدٍ مِنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَرْزُوقِش، وَلَهُ شَعْرٌ ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْمَغْرِبِ 2: 168، وَطَالَعُ الْمَوْشَعِ فِي دَارِ الطَّرَازِ 34 غَيْرُ مَنْسُوبٍ، وَفِي الْوَاوِي بِالْوَفِيَّاتِ 4: 41، مَنْسُوبٌ لِابْنِ زَهْرٍ.
(2) هُوَ أَبُو الْحَكَمِ أَحْمَدُ بْنُ هَرْدُوسَ (الْمُتَوَفَّى بِمَرَاكُشِ سَنَةِ 572هـ/1176م) بِتَقْدِيمِ الْبَالِ عَلَى الْوَاوِ، كَمَا فِي الْأَصُولِ، وَفِي الْمَغْرِبِ 2: 210، وَالْمُتَطَلَفِ 258: ابْنُ هَرْدُوسَ بِتَقْدِيمِ الْوَاوِ، وَفِي التَّنْخِجِ 7: 8، الْحَاشِيَةُ 2 يَرْجِعُ إِ. عَبَّاسٌ: أَنَّ "هَرْدُوسَ" لَفْظَةٌ بَرْبَرِيَّةٌ تَرْمِزُ إِلَى الصَّحُولَةِ، وَأَنَّ اسْمَهُ أَحْمَدُ، لِقَوْلِهِ يُخَاطَبُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ: يَا سَيِّمِي (التَّنْخِجِ 4: 201). وَمَوْشَعْتُهُ هَذِهِ فِي مَلِكِ غَرْنَاطَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ، أَوْرَدَهَا ابْنُ سَعِيدٍ فِي الْمَغْرِبِ 2: 215، وَجَاءَتْ فِي غَدَّةِ الْجَلِيلِ 113 (74) غَيْرُ مَنْسُوبَةٍ.

يا ليلة الوصل والسعود بالله عُودي

وابن مؤهل⁽¹⁾ الذي له:

ما العيد في حلّة وطاق وشمّ طيب
ولأنا العيد في التلاقي مع الحبيب

5 وأبو إسحاق الثؤيتي⁽²⁾، قال ابن سعيد: سمعتُ أبا الحسن، سهلَ بنَ مالك يقول: إنّه / دخل على ابن زُهري وقد أسنَّ، وعليه زيّ البادية، إذ كان يَسكنُ بخصن [424] إسكّية، فلم يَعرِفْهُ. فجلس حيث انتهى به المجلس، وجرتِ الحاضرةُ أن أنشدَ لنفسه موشعّةً وقع فيها⁽³⁾:

كُحلُ الدّجى يَجري من مُقلّةِ الفجرِ على الصّباح
ومغصمُ النَّهرِ في حُلّلي خُضري من البِطاح

10 فتحرّك ابنُ زُهري وقال: أنتَ تقولُ هذا؟ قال: اختبر، قال: ومن يكونُ؟ فعرّفه. فقال: ارتفع، فوالله ما عرّفْتُكَ.

قال ابنُ سعيد⁽⁴⁾: وسابِقُ الحَلبةِ الّتي أذركَ هؤلاء ، أبو بَكْر بنُ زُهري، وقد شرّقت موشعّائه وغرّبت. قال : سمعتُ أبا الحسن سهلَ بنَ مالك

(1) المتطف 258، أزهار الرياض 2: 210، التفتح 7: 8 .

(2) كذا في الأصول، وفي المتطف 258: الزويلي .

(3) المتطف 259، التفتح 7: 9 ، أزهار الرياض 2: 210 .

(4) المتطف 259 .

يقول: قيل لابن زُهْرٍ: لو قيل لك: ما أبدع ما وَقَعَ لك في التَّوْشِيحِ؟ قال: كُنْتُ أَقُولُ⁽¹⁾:

ما لِلْمَوْءَلَةِ⁽¹⁾ من سُكْرِهِ لَا يُثَبِّقُ يَا لَهُ سَكْرَانُ
[مَنْ غَيْرُ خَمْرِ مَا لِلْكَيْبِ الْمَشَوْقِ يَنْدُبُ الْأَوْطَانُ]⁽²⁾
هل تُسْتَعَاذُ أَيْمَانًا بِالْخَلِيجِ وَلِيَالَيْنَا 5
إِذْ يُسْتَفَادُ مِنَ النَّسِيمِ الْأَرْجِ مِسْكُ دَارِينَا
وَإِذْ يَسْكَاذُ حُسْنُ الْمَكَانِ الْبَهْجِ أَنْ يُحْيَيْنَا
نَهْرٌ أَظْلَمَ دَوَّخٌ عَلَيْهِ أُنَيْقُ مَوْرُقٌ فَيَنْبَا
وَالْمَاءُ يَجْرِي وَعَائِمٌ وَغَرِيقُ مِنْ جَنَا الرِّيحَانِ
وَاشْتَرَى بِغَدَهْ ابْنُ حَيْوْنٍ، الَّذِي لَهُ مِنَ الرَّجُلِ الْمَشْهُورِ، وَهُوَ قَوْلُهُ⁽³⁾:

10

[يَنْقُوقُ سَهْمَ كُلِّ خَيْنٍ بِمَا شَتَّ مِنْ يَدِ وَعَيْنٍ

وَتُنْشَدُ فِي الْقَضِيَّتَيْنِ]^(ب)

خُلِقْتُ مَلِيحٌ عَلَّمْتُ زَامِي فِلَشُ^(ج) نَحْلُ سَاعٍ مِنْ قِتَالٍ

(1) عَدَّةُ الْجَلِيسِ: مِنَ اللَّوَلَةِ (ب) سَقَطَ مِنْ ظ (ج) ح: فَلَيْسَ.

(1) تَكَلَّمَهُ مِنَ الْمُتَقَلِّصِ: تَمَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْ قَوْلِي وَأَرْضِيهِ مِنْ نَظْمِي.

(2) تَرَكَ لِهَذَا الْبَيْتِ فَرَاغٌ فِي الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ، فَأَكَلْنَاهُ مِنْ عَدَّةِ الْجَلِيسِ 400 (267) وَفِيهِ الْمَوْشَعُ بِتَامِهِ. وَقَدْ ذَكَرَ الطَّالِعُ فَقَطْ فِي الْمَغْرَبِ 1: 271، وَقَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: إِنَّمَا تَقَدَّمتْ فِي الْمُنْتَزَهَاتِ، وَقَدْ سَقَطَ قِسْمُ مَنْصَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ مِنْ نَسْخَةِ الْكِتَابِ.

(3) الْمُتَقَلِّصُ 259. وَنَصُّ الْمَوْشَعِ فِي الْمَغْرَبِ 1: 281.

ونعملُ بذِي العَيْنين مُتَناعِي ما تَعْمَلُ يَدَيِ التَّبَالِ
 واشتهرَ معها يومئذٍ بِغَرْنَاطَةِ المُهُرِّ بْنِ الفَرَسِ ⁽¹⁾. قال ابنُ سَعِيدٍ ⁽²⁾: ولما سَمِعَ
 ابنُ زُهْرٍ قولَه:

لله ما كان من يَوْمِ بَهِيحٍ بَنَهَرٍ حُصَّصَ على تِلْكَ المَرْوَجِ
 ثُمَّ انْعَطَفْنَا على فَمِ الحَلِيجِ

5

/ نَقَضَ مَسَكَ الحَتَامِ عن عَسَجِدِيِّ المَدَامِ [24هـ]
 وِرداءُ الأَصِيلِ يطويه كَفُ الظَّلَامِ

قال: أين كُنَّا عن هذا الرِّدَاءِ؟

وكان معه في بِلَادِهِ مُطَرِّفٌ . أَخْبَرَ ابنُ سَعِيدٍ عن والِدِهِ ، أَنَّ مُطَرِّفًا هَذَا
 10 دَخَلَ على ابنِ الفَرَسِ ، فقام لَهُ وأَكْرَمَهُ . فقال : لا تَفْعَلْ . فقال ابنُ الفَرَسِ : كيف لا
 أقومُ لِمَن يَقولُ ⁽³⁾:

قُلُوبٌ تَصَابَثَ بِالْحَاظِ تُصِيبُ فقلْ كيف تَبَقَّى بلا وَجْدٍ
 وبعد هَؤُلاءِ ابنُ خَزْمُونِ بِمُرْسِيَّةٍ . ذَكَرَ ابنُ الرَّاثِيسِ ⁽⁴⁾ أَنَّ يَحْيَى
 الحَزْرَجِيَّ دَخَلَ عَلَيْهِ في مَجْلِسٍ ، فَأَنشَدَهُ مَوْحَةَ لِنَفْسِهِ . فقال لَهُ ابنُ خَزْمُونِ : ما

(1) المغرب 2: 111 واسمه عبد الرحيم، نعته بالذكاء والتقدم في الفلسفة، وكانت له دعوة وانتحال للإمامة،
 انتهت بقتله. انظر العبر 6: 250 .

(2) المتقطف 260 .

(3) المصدر نفسه.

(4) في المصدر نفسه: ابن الرارس، وانظر حاشيته رقم 5 .

المَوْشَحُ مَوْشَحٌ حَتَّى يَكُونَ عَارِيًّا عَنِ التَّكَلُّفِ ، قال : مِثْلُ مَاذَا ؟ قال : عَلَى مِثْلِ
قَوْلِي⁽¹⁾ :

يَا هَاجِرِي هَلْ إِلَى الْوَصَالِ مِنْكَ سَبِيلُ
أَوْ هَلْ يُرَى عَنْ هَوَاكَ سَالِي قَلْبُ الْعَلِيلِ

وَأَبُو الْحَسَنِ سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ بَغْرَنَاطَةَ. قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ⁽²⁾ : كَانَ وَالِدِي يَعْجَبُ
بِقَوْلِهِ⁽³⁾ :

إِنَّ سَبِيلَ الصَّبَاحِ فِي الشَّرْقِ عَادَ بَحْرًا فِي أَجْمَعَ الْأَفْقِ
فِدَاعَتْ نَوَادِبُ الْوُزُقِ أَثْرَاهَا خَافَتْ مِنَ الْفَرْقِ
فَبَكَتْ سُخْرَةً عَلَى الْوَرَقِ

وَاشْتَهَرَ بِإِشْبِيلِيَّةٍ لِذَلِكَ الْفَهْدُ ، أَبُو الْحَسَنِ ابْنُ الْفَضْلِ . قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ⁽⁴⁾ 10
عَنْ وَالِدِهِ : سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ لَهُ : يَا ابْنَ الْفَضْلِ ، لَكَ عَلَى الْوَشَاحِينَ
الْفَضْلُ بِقَوْلِكَ⁽⁵⁾ :

أَوْ خَسِرْتَآ لَزِمَانِي مَضَى عَشِيَّةً بَانَ الْهَوَى وَالْمَضَى
وَأَفْرَدْتُ بِالرَّغْمِ لَا بِالرِّضَا وَبِئْتُ عَلَى جَمَرَاتِ الْغَضَا

(1) المقتطف 260 .

(2) لم نجد هذه القولة في المقتطف .

(3) التتبع 10 : 7 .

(4) المقتطف 261 .

(5) المخرب 2 : 389 ، عده المجلس 324 (216) .

أعاني بالفكر تلك الطلول وألتم بالوهم تلك الرسوم

قال: وسيفتأبأ بكر بن الصّابوني⁽¹⁾ يُنشد الأستاذ أبا الحسن النّابج
موشحاته غير ما مرّة، فما سيفته يقول: لله ذكك، إلّا في قوله⁽²⁾:

قسماً بالهوى لذي جبر ما لليل المشوق من فجر
جمد الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظنّ غد
صح يا ليل أنك الأبد

5

/ أو فقّصت⁽¹⁾ قوائد الشر فنجوم السماء لا تشري [425]

ومن موشحات ابن الصّابوني، قوله⁽³⁾:

ما حال صبّ ذي ضنى واكتئاب أمرضه يا ولتاه الطبيب
عامله مخبوءه باجتئاب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفوني النوم لكنني لم أبكه إلّا لفقد الحبال
* (ب) وهذا الوصال اليوم قد غرتني منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدني بصورة الحق ولا بالمخال

10

(1) في النسخ: أو فضّصت (ب) سقطت ورقة بصفحة من نسخة ج. وهذه بداية محتواها إلى ورود النجم.

(1) المقتطف 261.

(2) عدّة الجليل 160 (105)، التّصح 7: 10.

(3) عدّة الجليل 29 (19)، التّصح 7: 11، أزهار الرياض 2: 212.

واشتهر ببرّ العذوة ابنُ خَلَف الجزائري، صاحبُ الموشَّعة المشهورة⁽¹⁾:

يَدُ الإصباح قدَحَتْ زانَا الأَنوارِ في مَجامِرِ الزَّهَرِ
وابنُ خَزَرِ البِجَاتي، وله من موشَّعة⁽²⁾:

نَعَرَ الزَّمانُ مُوافِقُ حَيَّاكِ مِنْهُ بِاتِّسَامِ

ومن مَحاسِنِ الموشَّعاتِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ ، مَوْشَّعَةُ ابْنِ سَهْلٍ⁽³⁾ ، شاعِرِ إِشْبِيلِيَّةَ 5
وسبَّغت من بَعْدِها، قوله:

هَلْ دَرَى ظَلَمِي الْجَمِي أَن قَدْ حَسَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّةً عَنْ مَكْنَسِ
فهو في نارٍ وَخَفَقِ مِثْلَ ما لَعِبَتْ رِجُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ
وقد نسخ على منواله فيها، صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب،
شاعرُ الأندلس والمُغْرِب لعصره، وقد مرَّ ذِكرُه، فقال⁽⁴⁾:

جاءَكَ الغَيْثُ إِذْ⁽¹⁾ الغَيْثُ هَمَى يا زَمانَ الوَضَلِ بالأُنْذَلِسِ
لَمْ يَكُنْ وَضَلُكَ إِلَّا حُلُمًا في الكَرى أَوْ حُلْسَةً الْمُخْتَلِسِ

(1) في ي: إذا

(1) نهاية الأرب 2: 287، عدة الجليس 164 (108)، أزهار الرياض 2: 212، النفع 7: 11 .

(2) المقطف 262، النفع 7: 11، أزهار الرياض 2: 212، ولم يرد فيها جميعها غير المطلع. ونصها الكامل أورده
م. عاني عن الروضة الغناء في محاسن البناء من مخطوطات الخزانة العامة في الزباط، ديوان الموشَّعات
الأندلسية 56 (16)، مصر 1986.

(3) الديوان 283، نفع الطيب 7: 61-

(4) نفع الطيب 7: 11-، أزهار الرياض 2: 213-

- إِذْ يَقُودُ الذَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمَتَى
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَى
/ وَالْحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرُّوضُ سَنَا
[425ب] فَسَنَا الْأَزْهَارِ فِيهِ تَبَسُّمُ
- وَرَوَى النُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ
فَكَسَاهُ الْحَسَنُ ثَوْبًا مُغْلَمًا 5
- فِي لَيْلٍ كَتَمْتُ سِرَّ الْهَوَى
مَالَ نَجْمٍ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
وَطَرَّ مَا فِيهِ مِنْ غَيْبٍ سَوَى
بِالدَّحَى لَوْلَا شُمُوسُ الْفُرَى
مَسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَفَدَ الْأَثَرِ
أَنَّهُ مَرَّ كَلْفَحِ الْبَصْرِ
- حِينَ لَدَّ الْأَنْسُسُ شَيْئًا أَوْ كَمَا
غَارَبَ الشُّهُبُ بَنَاءً، أَوْ زُيْمًا 10
- أَيُّ شَيْءٍ لَأَمْرِي قَدْ خَلَصَا
تَهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرْصَا
فَإِذَا الْمَاءُ تَسَاخَى وَالْحَصَى
فَيَكُونُ الرُّوضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَقِيهِ
وَحَلَاكُلْ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
- تُبَصِّرُ الْوَرْدَ غَيْرَ أَبْرَمًا
وَتَرَى الْآسَ لَبِيًّا فَهَمَّا 15
- يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسِ

(١) من النسخ، وفي ظني: نجوم .

- يا أَهْيَلِ الحَيِّ من وادي الفضا وقلبي مَسْكَنٌ أنتم به
ضاق عن وَجدي كم رَحِبَ الفضا لا أبالي شَرْقُهُ من غَرْبِهِ
فأَعِيدُوا عهد أنيس قد مَضَى تَغَيُّبُوا عَيْنِيكم من كَرْبِهِ
وَأَسْهُوا الله وأَخِيوا مُفْرَمًا يَتَلَاشَى نَفْسًا في نَفْسِ
حُبس القلب عليكم كَرَمًا أَفْتَرَضُونَ عَفَاءَ الحُبسِ 5
وَقُلُوبِي مِنْكُمْ مَقْتَرِبُ بأحاديث المُنَى وهو بعيد
فَمَرَّ أَطْلَعَ مِنْهُ المَغْرِبُ شَقْوَةُ المَغْرَى به وهو سعيد
قد تَسَاوَى مُحْسِنٌ وَمُذْنِبُ في هواه بَيْنَ وَغْدٍ وَوَعِيدُ
سَاجِرَ المَقْلَةِ معسولَ اللُّغَى جالَ في النَّفْسِ مجالَ النَّفْسِ
/ سَدَّ الشَّهْمَ وَسَمَّى وَرَمَى ففُوَادِي نُهِبَهُ المَفْتَرِسِ 10
إِنْ يَكُنْ جَازَ وَخَابَ الأَمَلُ وفُوَادُ الصَّبِّ بالشَّوْقِ يَذُوبُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيِّبٌ أَوَّلُ لَيْسَ في الحُبِّ لِمُحِبٍّ ذُنُوبُ
أَمْرُهُ مَعْتَمِلٌ مِمْتَلُ في ضُلُوعٍ قد بَرَاها وَقُلُوبُ
حَكَمَ اللَّخْطَ بِهَا فَاخْتَكَا لم يَرِاقِبْ في ضِعَافِ الأَنْفُسِ
مُتَصِفِ المَظْلُومِ مِمَّنْ ظَلَمَا وَمُجَازِي البَرِّ مِنْهَا وَالْمُسِي 15
مَا لِقُلُوبِي كَلِمًا هَبَّتْ صَبَا عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ

كان في اللوح له مكتَبًا قوله إنَّ عذابي لشديد
جَلَبَ الهَمُّ له والوصبُ فهو للأشجان في جهدٍ جھيد

لاجَّ في أضلعي قد أضرمًا فهي نازٍ في هشيم اليأس
لم يدغ في مُهجتي إلا الدَّمَا⁽¹⁾ كبقاء الصُّبح بعد الغلس

5 سَلَّمي يا نفس في حُكم القضا واعلمي الوقتَ برُجعى ومُتاب

دَعَك من ذكرى زمان قد مَضَى بين عُشَي قد تَقَصَّتْ وعِتاب
واضرب القول إلى المولى الرضا مُلهم التوفيق في أم الكتاب

الكريم المُنتهى والمُنْتَمَى أسد السَّرح ونذر المجلس
يُنزلُ النَّضْرُ عليه يثْلَمَا يُنزلُ الوحيُ بروح القدس

10 وأما المشاركةُ فالتَّكَلُّفُ ظاهرٌ على ما عايناه من الموشحات. ومن أحسن ما
وقع لهم في ذلك، موشحة⁽¹⁾ ابن سناء الملك المصري ، التي اشتهرت شرقاً وغرباً،
أولها:

حبيبي ازفع حجاب التور عن العزاز
نظر المسك على كافور في جُلَناز

(1) كذا في ظي، وفي النسخ: دما .

(1) نفع الطيب 7: 14، أزهار الرياض 2: 215 -

كَلِّبِي يَا سَحْبُ تِجَانِ الرُّبَى بِالْحَلِيِّ
وَاجْعَلِي سَوَازَهَا مُنْعَطَفَ الْجَذُولِ⁽¹⁾

[264هـ] / وَلَمَّا شَاعَ التَّوْشِيخُ فِي أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ، وَأَخَذَ بِهِ الْجُمْهُورُ، لِسَلَاسَتِهِ وَتَتِمِيقِ
كَلَامِهِ وَتَضَرِيعِ أَجْزَائِهِ، نَسَجَتِ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ عَلَى مِثْوَالِهِ، وَنَظَمُوا فِي
طَرِيقَتِهِ بَلُغَتِهِمُ الْحَضَرِيَّةَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْتَرِمُوا فِيهِ إِعْرَاباً، وَاسْتَعْدَثُوا فِتْناً سَمُوهُ 5
بِالرَّجُلِ، وَالتَّرَمُّوا النَّظْمَ فِيهِ عَلَى مَنَاحِيهِمْ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ. فَجَاءُوا فِيهِ بِالْغَرَائِبِ؛ وَاتَّسَعَ
فِيهِ لِلْبَلَاغَةِ مَجَالٌ بِحَسَبِ لُغَتِهِمُ الْمُشْتَعِجَةِ.

وَأَوَّلُ مَنْ أَبْدَعَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الرَّجُلِيَّةِ أَبُو بَكْرُ بْنُ قُزَّامَانَ. وَإِنْ كَانَتْ
قِيلَتْ قَبْلَهُ بِالْأَنْدَلُسِ، لَكِنْ لَمْ تَظْهَرْ حِلَالُهَا وَلَا انْسَبَكْتُ مَعَانِيهَا وَاشْتَهَرَتْ رِشَاقَتُهَا
إِلَّا فِي زَمَانِهِ، وَكَانَ لِعَهْدِ الْمُلْتَمِينَ، وَهُوَ إِمَامُ الرَّجَالِينَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. 10

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ⁽¹⁾: رَأَيْتُ أَزْجَالَه مَزُودَةً بِبَغْدَادٍ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهَا بِمَحَاوِزِ
الْمَقْرَبِ. قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ بْنَ جَعْفَرِ الْإِسْبِيلِيَّ، إِمَامَ الرَّجَالِينَ فِي عَصْرِنَا
يَقُولُ: مَا وَقَعَ لِأَحَدٍ مِنْ أَيْقَةِ هَذَا الشَّأْنِ^(ب)، مِثْلَ مَا وَقَعَ لِابْنِ قُزَّامَانَ، شَيْخُ
الصَّنَاعَةِ، وَقَدْ خَرَجَ إِلَى مُتَنَزَّهِ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَجَلَسُوا تَحْتَ عَرِيشٍ وَأَمَامَهُمْ نِثَالُ
أَسَدٍ مِنْ رُخَامٍ يَصُبُّ الْمَاءَ مِنْ فِيهِ عَلَى صَفَائِحَ مِنَ الْحَجَرِ مُتَدَرِّجَةً، فَقَالَ⁽²⁾: 15

(1) انتهى محتوى الورقة الساقطة من نسخة ج (ب) ي: اللسان .

(1) المتقطف: 263 .

(2) المتقطف 263 ، أزهار الرياض 2: 216 ، فتح الطيب 7: 15 .

وعريش قد قام على دُكَّانٍ بُحْـالٍ رُوْاقٍ
 وأسدٌ قد ابتلَعُ ثعبانٌ من غُلْظِ ساقٍ
 وفخ فمّو بحالٍ إنسانٌ يمينه الفُـؤادُ
 وانطلق من تمّ على الصفاخ والقي الصيـاخ

5 وكان ابن قُزَمان⁽¹⁾، مع أنّه قُرْطُبِيّ التّار، كثيراً ما يتردّد إلى إشبيلية ويُنْتابُ
 نهْزها. فالتّق أن اجتمع ذات يوم جماعةٌ من أعلام هذا الشّان، وقد زكّوا في النّهر
 للنّهْة، ومعهم غلامٌ جميلُ الصّورة من ثروة⁽²⁾ أهل البلد ويوتهم. وكانوا مجتمعين في
 زُورقي للصيد، / فنظّموا في وصف الحال، وبدأ منهم عيسى البليدُ، فقال:
 [1427]

10 يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتوا وقد ضمّو عشقو لشهْماتو
 تراه قد حصل مسكين [في محناب]⁽³⁾ يقلق وكذلك أمرا عظيم صابو
 لوخس الجفون الكحل إن غابو وديك الجفون الكحل أبلاتو
 ثمّ قال أبو عمرو بن الزّاهد الإشبيليّ:

نَشَبَ والهوى من لج فيه ينشب تُرى اش كان دعاه يشقى ويتعذب
 مع العشق قام في بالو ان يلعب وخلق كثير من ذا اللب ماتوا⁽⁴⁾

(1) طح: قد ماتوا .

(1) المقتطف : 263 .

(2) عبارة المقتطف: وقد جمعهم ابنُ حسيبٍ من حُسابنها وأغنيانها في زورقي برسم الصيد .

(3) في الأصول، حملاتو، والتصويب من المقتطف 263، وفسترها د. الأهواني عن دوزي 1: 331 مادة
 حنب، أنها الفخ، وقال: إنها جاءت بهذا المعنى في شعر ابن قُزَمان .

ثم قال أبو الحسن المقرئ الثاني:

نهارٌ مليحٌ يعجبني أوصافو
والمقلين يقولُ فضْصافو^(١)
شرابٌ وملاحٌ من حولي قد طافوا
والبوري [يقول] (ب) أخرى فيقلاتو

ثم قال أبو بكر بن مَزَيْن:

الحق تريد، حديث بقا لي عاد
لشبهه حيتان ديك الذي يصطاد
في الواد بحمير (ج) والثَّزَّة والصَّيَاد 5
قلوب السورى هي في شبكاتو

ثم قال أبو بكر بن قُزَّمان:

إذا شتمرا أكامو ليرميها
ولش مزادو أن يقع فيها
ترى البوري يرشق لك الحيا
الا ان يقتل يُدَيِّدًا ثو
وكان في عصرهم بشرق الأندلس يَخْلُفُ الأسودُ، وله محاسنٌ من الرِّجلِ، 10
منها قوله:

قد كنت منشوب واحتسبت النشب
وردني ذا العشق لامر صعب
يقول فيه ^(١):

حين ننظر الحدَّ الشَّريقَ البهى
يشهى في الحمرا لما ينتهى

(١) ي : لصنافو (ب) من المتقطف (ج) حمير، أو تمهير .

(1) المتقطف 264 .

يا طالب الكيفيا في عيني هي تنظر بها الفضة وترجع ذهب

/ وجاءت من بعدهم خلبة كان سابقها مدجّليس، وقعت له العجايب في [427ب]
هذه الطريقة. فمن قوله⁽¹⁾ في رَجَلِه المَشْهُور:

ورذاذاً دقّ يــــنزل وشعاع الشمس يضرب

5 فترى الواحد يفطّض وترى الآخر يذهب

والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب

وتريد تجسي البنا ثم تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله⁽²⁾:

لاح الضياء والتجوم حيازي فقم بنا نزع الكسل

10 شرب ممزوج من قراعا أحلى هي عندي من العسل

يا من يلمني كما تقلّد قلّدك الله بما تقول

تقول بأن الذنوب تولد وأنه يفسد العقول

لأرض الحجاز مور يكن لك ارشد أش ساقك معي فذا الفضول

مُر انت للحج والزيازا ودغني في الشرب نهتمل

15 من ليش لو قدره ولا استطاعه النية ابلغ من العمل

(1) المغرب 2: 220، المقتطف 264، فتح الطيب 7: 16، أزهار الرياض 2: 217 .

(2) لم تقف على مصدره .

وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية، ابن جحدر، الذي فضل على الرجالين في فتح ميوزقة بالرجل الذي أوله⁽¹⁾:

من عاند التوحيد بالسيف يحق أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد⁽²⁾: لقيته وقيت تلميذه البيغ، صاحب الرجل المشهور،

أوله:

5

بالتسي إن زنت حبيبي أقبل اذنو بالرسيل

لش أخذ غنق الفريل وسرر فم الحجيل

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك، إمام الآداب، ثم من بعدهم

[428] / لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب، إمام الثظم والتثرف في الملة

10

الإسلامية غير مدافع. فن محاسنه في هذه الطريقة⁽³⁾:

امزج الأكواس واملأ لي نجدد ما خلق المال إلا أن يندد

ومن قوله⁽⁴⁾ على طريقة الصوفية، وينحو منحى الششتري منهم:

بين طلوع وبين نزول اختلطت الغزول

ومضى من لم يكن وبقي من لم يزول

(1) المقتطف : 265 ، أزهار الرياض 2: 217 ، نفع الطيب 7: 16 .

(2) المقتطف : 265 ، نفع الطيب 7: 16 .

(3) أزهار الرياض 2: 218 ، نفع الطيب 7: 17 .

(4) المصدران نفسها .

ومن محاسنِه أيضاً قوله⁽¹⁾ في ذلك المعنى:

البغد عنك يا بني أعظم مصابي
وحين حصل لي قرينك سببت قاري⁽¹⁾

وكان لغصر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمد بن عبد العظيم، من أهل
5 وادي آش . وكان إماماً في هذه الطريقة. وله من زجلٍ يُعارض به مدغليس^(ب) في
قوله: لاح الضياء والتجوم حيارى

بقوله⁽²⁾:

حلّ المجون يا اهْلِي السَّطَارَا مَذْحَلَّتِ الشَّمْسُ بِالْحَمَلِ
فَجَدُّوا كُلَّ يَوْمٍ خِلَافَا لَا تَجْعَلُوا بَيْنَهَا ثَمَلًا
إِلَيْهَا تَخْلَعُوا فِي شَيْئِلٍ عَلَى خُضُورَةِ دِيكَ الثَّبَاتِ
وَحَلَّ بِغَدَادٍ وَأَخْبَارِ النِّيلِ احْسَنْ هِيَ عِنْدِي دِيكَ الْجِهَاتِ
وَطَا فِيهَا اضْلُخٌ مِنْ أَرْعِينَ مِيلٍ إِنْ مَرَّتِ الرِّيحُ عَلَيْهِ وَجِثٌ
لَمْ تَلْتَقِي لِلْغُبَارِ أَمَارَا وَلَا بِمَقْدَارٍ مَا يَكْتَحِلُ
وَكَيْفَ وَلِشْ فِيهِ مَوْضِعٌ رِقَاعَا إِلَّا وَتَسْرَحُ فِيهِ الثَّحَلُ

10

(1) في أزهار الرياض: سببت أقاري ، وفي نوح الكلب: سببت أقاري (ب) في ي: مدغليس .

(1) أزهار الرياض 2: 218، نوح الكلب 7: 17 .

(2) أزهار الرياض 2: 218 .

وهذه الطريقة الرّجليّة لهذا العهد، هي فنُّ العامّة بالأندلس من الشّعر،
وفيها نُظْمهم، حتّى إنّهم لينظّمون بها في سائر البحور الخمسة عشر، لكنّ بلّغتهم
العاميّة. ويُستونه الشّعر الرّجليّ، مثل قول شاعرهم: [على وزن الرّمل]

دهز لي نعثق جفونك وسنين وانت لا شفقا ولا قلب يلين
[428ب] / جى ترى قلبي من اجلك كيف رجع صفة السكه ما بين الحدادين 5
الدموع ترش والنار تلتهب والمطارق من شمال ومن يمين
خلق الله التصارى للغزو وانت تغزو في قلوب العاشقين
وكان من المجيدين في هذه الطريقة لأوّل هذه المائة، الأديب أبو عبدالله
اللّوشي. وله ⁽¹⁾ من قصيدة فيها يمدح السلطان ابن الأحمر: [على وزن السريع]

طلّ الصباح قم يا نديم نشربوا ونضحكوا من بعد ما نظربوا 10
سيكة الفجر أجلث شفق في مئلق الليل فقم قلّبو
ترى عياراً خالصاً ابيض نقي فص هو لكنّ الشفق ذهبو
فتتشفق سكّتو عند البشر نور الجفون من نورها يكسبو
فهو النهار يا صاحبي للمعاش عيش الغنى فة يا لله ما أطبو
والليل يضاً ^(ب) للقبّل والعنائ على سرير الوصل ثقّلّبو 15
جاد الزمان بعد ما كان بخيل ولش كيفلث من يديه عقزبو

(1) ح: وله فيها من قصيدة يمدح (ب) من ظي، وفي ج: ايضا .

5 كما جُرِّعَ مَرُوءٌ فَمَا قَدْ مَضَى
 قَالَ الرِّقِيبُ يَا أَذْبَا أَتَشْ ذَا
 وَاتَّعَبُوا عُدَالِي^(١) مَنْ ذَا الْخَبَرِ
 يَعِشُ مَلِيخٌ إِلَّا رَقِيقَ الطَّبَاغِ
 لَشْ يَرِيحُ الْحَسَنُ الْأَشَاعِزُ أَدِيبُ
 وَإِنَّمَا الْكَاشُ فَحَرَامٌ هُوَ حَرَامُ
 وَاهِلُ الْعَقْلِ وَالْخَنَكِرَا وَالْجُحُونُ
 وَذَا الَّذِي يَخْلُبُنْ حَسَنُوا وَلَمْ
 صَيِّ هِيَ سُمَانٌ تَطْفِي الْجَمْرُ
 10 / غَزَالٌ هِيَ تَنْظُرُ^(ب) قُلُوبَ الْأَسْوَدِ
 وَتُمْ تَحِيصُهُمْ إِذَا تَبَتَّاسَمَ
 فَمَنْ كَالْحَامِ وَتَغَرَّأَ نَفْسِي
 جَوْهَرٌ فِي مَرْجَانٍ أَيْ عَقْدٌ يَا فُلَانُ
 وَشَارِيزُ أَخْضَرُ يَرِيدُ لَشْ يَرِيدُ
 15 تَسْنِبِلُ ذَلَالٌ مِثْلُ جَنَاحِ الْغُرَابِ
 عَلَى بَدَنِ أَبْيَضٍ فَلَوْنُ الْحَلِيبِ
 وَزُوجُ نُهْهَدَاتٍ عَلِمَتْ قَلْبَهَا

يُشْرَبُ بَيْنُو وَيُكَلِّ طَيِّبُو
 فِي الشَّرْبِ وَالْعَشْقِ نَرَى تَجَبُّو
 فَقُلْتُ يَا قَوْمُ مَنْ ذَا تَتَعَبُّو
 عَلَاشَ كَتَفَرُّو بِاللَّهِ أَوْ نَكْتَبُو
 يَفْتَضُّ يَكْرُوا وَيَدْعُ ثَيِّبُو
 عَلَى الَّذِي لَشْ يَذَرُ كَيْفَ يَشْرِبُو
 تُفَرُّ دُونَهُمْ هَذَا إِنْ أَذْبُو
 تَقْدِرُ بِحَسَنِ الْفَاطُ أَنْ تَخْلِبُو
 وَقَلْبِي فِي جَمْرِ الْغَضَا تَلْهَبُو
 1429 [ب] وَبِالْوَهْمِ قَبْلَ التَّظْطُرِ^(ب) يَذْهَبُو
 فَيَضْحَكُوا مِنْ بَعْدِ مَا يَنْذَبُو
 خَطِيبُ [الْأُمَّةِ]^(ج) لِلْقَبْلِ يَخْطَبُو
 قَدْ صَقَفُوا التَّطَاظُمَ وَلَمْ يَتَّقَبُو
 مِنْ شَبَّهُو بِالْمَسْكَ قَدْ عَيَّبُو
 لِيَالِي هَجْرِي مَرُوءٌ يَسْتَغْفِرُو
 لَمْ قَطُ رَاعِي فِي الْغَنَمِ يَحْلِبُو
 دِيكَ الصَّلَابَا زَيْتٌ مَا أَضْلَبُو

(ج : عنالي (ب) من ج، وفي ط ي: تنظر (ج) من ج ي، وفي ط: لثا .

تَحْتِ الْعَاكِينَ مَعَهَا خِضْرًا رَقِيقُ
أَرْقٍ هُوَ مِنْ دِينِي فِيمَا تَقُولُ
أَيُّ دِينَ بَقَا لِي مَعَكَ أَوْ أَيُّ عَقْلٍ
وَتَحْمَلُ إِزْدَافًا هَالِكًا لَكَ قَرِيبُ
أَنْ لَمْ يَنْفُسْ غُرُزًا أَوْ يَنْفَشِغْ
قَصْرٌ يَصِيرُ لِيكَ الْمَكَانُ حِينَ تَحْيُ
مَحَاسِنَكَ مِثْلَ خِصَالِ الْأَمِيرِ
عِمَادِ الْأَمْصَارِ وَفَصِيحِ الْعَرَبِ
بِجَمَلَةِ الْعِلْمِ انْقِرَظَ وَالْعَمَلِ
فَفِي الصَّدُورِ بِالرَّمَحِ مَا أُطْعِنُو
مِنْ السَّمَاءِ بِحَسَدٍ فِي أَرْبَعِ صِفَاتٍ
السَّمْسُ نَوُوزُوا وَالْقَمَرُ هَمَمُوا
يَرْكَبُ جَوَادَ الْجَوْدِ وَيَطْلُقُ عَنَانُ
مَنْ خَلَعُوا نَلَبَسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ
[29هـ] / نَعْتَمُوا تَظْهَرُ عَلَى مَنْ يَرْجِيهِ
قَدْ أَظْهَرَ الْحَقُّ وَكَانَ فِي حِجَابٍ
وَقَدْ بَنَا بِالْبَيْتِ رُكْنَ التَّقَى
مَنْ رَقَّتْهُ يَخْفَى إِذَا تَطَلَّبُو
خَذَ تَرَى عَبْدَكَ سَيِّئًا مَا أَكْذَبُو
مَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْ ذَا وَذَا^(أ) تَسْلُبُو
حِينَ يَنْظُرُ الْعَاشِقُ وَحِينَ يَرْقُبُو
فِي طَرَفِ دَيْسَا وَالتَّيْبِ تَضْلِبُو 5
وَحِينَ تَغِيْبُ يَرْجِعُ فِي عَيْنِي قَبُو
أَوْ الرَّمْلُ مِنْ هُوَ الَّذِي يَكْسِبُو
فَمَنْ فَصَاخَةُ لَفْظٍ تَنْقَرُبُو
وَمَنْ بَدِيعِ الشَّعْرِ مَا أَكْتُبُو
وَفِي الزُّقَابِ بِالسَّيْفِ مَا أَضْرِبُو 10
تَمْنُ تُعْدُوا قَلْبِي أَوْ تَحْسِبُو
وَالْغَيْثُ جُودُو [وَالْبَحْرُ]^(ب) مَنْصِبُو
الْإِغْتِنَا وَالْجَسَدُ حِينَ يَرْكَبُو
بَطِيبُ ثَنَاءِ الْعَالِي نَظَرِبُو
فَاصِدٌ وَوَارِذُ قَطْ مَا خَيْبُو 15
لِشَّ يَقْدِرُ الْبَاطِلُ بَقْدَ يَحْجِبُو
مَنْ بَعْدَ مَا كَانَ الزَّمَانُ خَرُبُو

(أ) ج: مَنْ ذَا وَمِنْ ذَا ، خطأ (ب) ط: التَّحْمَلُ .

تخافو حين تلقاه كما ترجيه فغ سباحة ونحو⁽¹⁾ ما أهيو
يلقا الحروب ضاحك وهي عابسا غالب هو لش في الدنيا من يغلبو
إذا جبد سيفو ما بين الردو فليس^(ب) يثي على من يضربو
وهو سمى المصطفى، والإله للسלטنا اختاروا واستنخبو
نراة خليفة أمر^(ج) المسلمين يهود جيوشوا ويزين موكبو
لذي الإمارة تنخضع [لو]^(د) الرؤوس نعم وفي قبيل يديه يرغبو
بيتة بني نصر بدور الزمان يطلقو في المجد ولا يغربو
وفي المعالي والشرف ينبعدو وفي التواضع والحياء يقربو
فالله يقيم ما دار الفلك وأشرق شمسو ولاخ كوكبو
وما تنقذ القصيد في غروض "يا شمس خذري ما لها مغرب"⁽¹⁾

ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر، في أعراب
مزدوجة كالموشع، ينظمون فيه بلغتهم الحضريّة أيضاً، وسموه غروض البلد. وكان أول
من استحدثه بينهم، رجل من أهل الأندلس نزل بفاس، يُعرّف بابن عمير. فنظم
قطعة على طريقة الموشع، ولم يخرج فيها عن مذهب^(هـ) الإغراب، مطلقها⁽²⁾:

(1) ج: وجه (ب) ج: فليس (ج) ي: أمير (د) زيادة يستقيم يا الوزن (هـ) ج: مناهب.

(1) تضمن صدر طالع قصيدة لأبي الحسن علي بن إبراهيم، ابن الزقاق، عجزه: "أرامة دارك أم غرب".
انظر المغرب 2: 325.

(2) أزهار الرياض 2: 219-

- أبكاني بشاطي التهر نوح الحمام
وكف الشخر يحوم مداد الظلام
- بأكرت الرياض والطل فيه افتقر
وذمغ التواعز تهرق انهراق
- كثر الجواهر في نُحور الجواز
يحكي ثعابين حَلَقَت بالتماز
- ودار الجميع بالروض دور السوار 5
لؤؤ بالفصون خلخال على كل ساق
- [1430] / وأيدي الندى تخرق جيوب الكمام
وعاج الضيا يطل بمسك الغمام
- وتحمل نسيم المسك عنها رياح
وجرّ النسيم ذُيلو عليها وفاح
- رايت الحمام بين الورق في القضيّب
ينوح مثل ذاك المستهَام الغريب
- قد ابتلت ارياشو بقطر الندى
قد التف من (ب) ثوبو الجديد في ردا
- ولكن بفاه احمر وساق خضيب
ينظم سلوك جواهر ويتقلدا 10
- جلس بين الفصان جلسة المستهَام
وصار يشتكي ما في الفؤاذ من غرام
- جناحاً توشد والتوى في جناخ
منها (ج) ضم منقارو لصذرو وصاخ
- فقلت أحمام اخزمت عيني الهجوع
قال لي قد (د) بكيت حتى صفت لي الدموع
- ادى ما تزال تبكي بدمع سفوح
على فنزح طار لي لم يكن لو رجوع
- بلا دمع نبقي طول حياتي نوح
ألفت البكا والحزن من عهد نوح 15

(أ) سقط من ج (ب) ي: في (ج) كنا في ظه، ولعلها: وضمت، وفي ي أسقط هذا المعجز، وأورد المعجز الذي تحته (د) كنا، وهي رائدة، ويستقيم بدونها: قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع.

كذا^(١) هو الوفا قل لم كذا هو الذمام انظر للجفون صارت بحال الجراح
وانتم من بلا منكم إذا تم عام يقول قد عياني ذا البكا والتواح
فقلت أحمام لو خضت بحر الصنا كان تبكي وتزئي لي بدمع هتون
ولو كان في قلبك ما في^(ب) قلبي أنا رماد كان تصير تحتك فروع الغصون
اليوم لي نقاسي الهجر كم من سنا حتى لا سبيل جفله تراني العيون 5

وتماكسا جسي التحول والسقام اخفاني نحولي عن عيون اللواح
لو جتني المنايا كان نموت في المقام ومن مات بعد يا قوم لقد استراح
قال لي لو زفرت الا وداب الرياض من خوفي عليه ردت النفس (ج) للفؤاد
وانخضت من دمعي وذاك البياض طوق العهد في عنقي ليوم التناد
وأما طرف منقاري حديثو استفاض بحال طرف^(د) والجسد صار رماد^(هـ) 10

فاستحسنه أهل فاس ولعلوا به، ونظلموا على طريقته، وتركوا الإغراب
الذي ليس من شأنهم، وكثر شياؤه بينهم، واستفحل فيه^(و) كثير منهم، ونوعوه

(أ) ي: كذلك (ب) ج: مثل ما . ولا يستقم (ج) ي: النفوس (د) ط ج ي: فراغ موقع لكلمة (هـ) فراغ سطرين
بعده في نسخة ي ، وأمام الفراغ في الحاشية جملة : لعله من عروض البلد . وفي طبعة كازمير (باريس 3: 420) تنهي القطعة
ببيتين، هما:

وتبكي وتزئي لي صنوف الحمام ومن ضاق بحال الصد والهجر باخ
فيا بهجة الدنيا عليك السلام اذا لم نجد راحه فيك ولا مستراح
(و) من ج ي، وسقط من ط .

(30هـ) أضناًفأ ، / إلى المزوج ، والكازي ، والمَلْعَبَة ، والغزل . واختَلَفْتُ أَسْمَاءُهَا باختلاف
أزواجها وأزانيها وملاحظاتهم فيها .

فمن المزوج^(١) ما قاله^(١) ابنُ شُجَاع ، من فُحولهم ، وهو من أهل نازى :

- | | |
|---|--|
| المالُ زينة الدنيا وعزّ النفوس | يُتَهَيّ وَجوهاً ليس هي باهيتا |
| 5 منها كل من هُؤا كثير الفلوس | إلوه الكلام والرتبة العاليا |
| يكبر من كثر ماله ولو كان صغير | ويصغر عزيز القوم إذا يفتقر |
| من ذا ينطبق صدري ومن ذا تغير | وكان [ينفقع] ^(ب) لولا الرجوع للقدز |
| إدّي يلتجي من هو في قومو كبير | لمن لا أصل عندو ولا لو خطر |
| لقد ينبغي نحزن على دي العكوش | ونضُيغ عِلّة ثوبي فراس خاييا |
| 10 إدّي صارت الأذئاب أمام الرؤوس | وصار يستفيد الواذ من الساقيا |
| ضعف الناس عملٌ ذا أو فساد الزمان | ما ندرى ^(ج) على من نكثرو ^(د) ذا العتاب |
| إدّي صرّ ^(هـ) فلان واليوم يُضَيغ بو فلان | ولو زيت وكفّ حتى يردّ الجواب |
| عشنا والسّلام حتى راينا عيان | انفاس السّلاطين في جلود الكلاب |
| كبار النفوس حدّا ضعاف الأسوس | هم في ناحيا والمجد في ناحيا |
| 15 يَرَوُا انهم والناس يَروهم تيوش | وجوه البلد والعمدة الراسيا |

(١) في أزهار التّرياض: المزدوج (ب) من ج ي ، وفي ظه: ينفع (ج) ح: ما ندرى (د) ح: نكثروا (هـ) ح: صار .

ومن مذاهبهم قول ابن شُجاع، منهم، في بغض مزوجاته:

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان اهتك^(١) يا فلان لا يلعب الحسن بيك
ما منهم مليحاً عاهد إلا وخان قليل من عليه تحبش ويحبس عليك
يتيهوا على العشاق وتبتغوا ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
5 وإن واصلوا من حنهم يقطعوا وإن عاهدوا خانوا على كل حال
ملح كن هويت ونشبت قلبي مئوا وصيرت من خدي لقدموا نعال
ومحدث لو من وسط قلبي مكان وقلت أكرم أ قلبي لمن حل بيك
وهون^(ب) عليك ما يعتريك من هوان فلا بد من هزل الهوى بغتريك
/ حگمئو عليا وارترضيت به أمير^(ج) فلو كان ترى حالي إذا تبصرو [431]
10 نزع مثل دُر حولي فوجه الغدير نذر به ويستقطش بحال الجزو
وتعلمت من ساعا نشيق الضمير ونفهم مرادو قبل أن يذكرو
ويحتل في مطلوبو ولو أن كان عصر في الربيع أو في الليالي فريك
وغشي لسوقو [لو]^(د) يكن في اصفهان وأش ما يثل يحتاج نل لو يجيك

حتى أتى على آخره. وكان منهم علي بن المؤذن بتلفسان.

(١) ي: يمكن أن تقرأ: اهتل (ب) ج: وهو (ج) تريب الأبيات هو ما في ظي ، وفي عجز هذا البيت ، هو عجز البيت الذي يليه ، ويرتبط بعزه صدر البيت التالي (د) ظ: لم .

وكان لهذه النُصُور القريبة من فُحولهم بَرَزُهُون، من ضواحي مَكْناسَة، رجلٌ يُعرَفُ بالكُثيف، أَدَبَ في مَذاهِب هذا الفَنِّ. ومن أحسن ما عُلِقَ له بمُخفَوطي، قولُه في رَحَلَة السُلطان أبي الحُسن وبني مَرين إلى إفريقيَّة، يَصِفُ هَرَمَتَهُم بالقيروان ويُعَرِّبُهُم عنها، ويؤنِّسُهُم بما وَقَعَ لِقَرَبِهِم، بعد أن عَثَبَهُم على غَزائِهِم إلى إفريقيَّة، في مَلَقَبَةٍ⁽¹⁾ من فُنُون هذه الطَّرِيقَة، يقولُ في مُفَتِّحِها، وهو من أَدَبِ مَذاهِب البَلاغة 5 في الإِشعارِ بالمُقَصِّدِ في مَطْلَعِ الكلامِ وافتتاحِه، ويسمى بَراعةَ الاستهلال:

سَبَّحانَ مالِكِ خَواطِرِ الأُمَرَا بنواصِيا في كُلِّ حَينٍ⁽¹⁾ وَزَمانٍ
إِنْ طَعَناهُ أعْطَفَ^(ب) لَنا نُضْرا وإن عاصِناه^(ج) عاقَبَ بَكلِّ هَوانٍ

إلى أن يقول في السَّوَالِ عن جُيُوشِ المَغْرِبِ بَعْدَ التَّخَلُّصِ:

10 كُنْ مُرْعِي قُلٌّ وَلَا تَكُنْ راعِي فالراعي عن رَعَيْتِهِ مسؤولٌ
واشْتَفَحْ بالصلاة على التَّاعِي للإسلام والرضا السَّني المَكْمُولُ
للخُلُفا الراشدين والاتباعِي واذكُرْ بَعْدَهم إذا تَحَبَّ وقولُ
أَحْجَاجاً تَخَلَّلُوا الصُّخْرا وَذَرُوا شَرَحَ البَلاَدِ مع السَّكَّانِ

(1) ي: حز. (ب) كذا في ظ ي، وفي ج: اعطفهم، وفي م: عطف. (ج) ح: م: عصباه .

(1) اكتشف مَلْعَبَة الكُثيف الزُّهَوي هذه العَلَامَة مُحَمَّد بن شَريفَة، وَحَقَّقها وَقَدَّمَها وَشَرَحَ لُغَيا، وَعَدَدَ أباها 497 بَناءً. (المطبعة المَلِكِيَّة، الرِباط 1987)، وَبَيَّنَ التَّضَمُّنَ بَعْضَ الاختِلافِ في اللفظ والتَّرتِيب. وَقَد قَابَلناها واخترنا مِنَ القَراءَةِ ما اتَّضَحَ بِهِ المَعْنى، وَرَمَنا لِلماَلِبة بِحَرف (م)، وَحافِظُنا عَلى الرِّسْمِ والسَّكَلِ الَّذِي كَتَبَتْ بِهِ.

- عسكر فاس المنيرة الغرّا اين سارت به عزائم السلطان
- أحجاج بالنسي الذي رُزِمَ وقطعتم لوكلاكل البيذا
- عن جيش الغزب جيت نسالكم المثلوف في فريقا السودا
- / ومن^(١) كان بالعطا يزودكم ويدع برّية الحجاز رغدا [431هـ]
- 5 قام إقل كالشد^(ب) صاذف الحدرا وشجر شوط بعد ما تحقان^(ج)
- ونزف كزدم^(د) ونهت في الغبرا ادّى صار ازغز لهم سجان^(هـ)
- لوكان ما بين تونس القزبا^(و) وبلاد الغرب رة^(ز) ليشكندر
- يُبنى من شرقها إلى غزبا طبقا بخد وثانيا يصقر
- لابد الطيركن يجيب نبا أو يات الريح غم^(ح) بفرد خبر
- 10 مفعوضها من أمور وما شرا لو شرا فالقؤول^(ط) مع الويدان
- لجزت بالدم وانصدع^(ي) حجرا وهوت لجراف وجفت القرلان^(ك)
- ادري لي فعقلك^(ل) الفخاض وتشكز لي فطارك^(م) جمعا
- إن كان تعلم خمام ولا رقاض عن السلطان شهز وقل^(ن) سبعا

(١) أزهار الرياض: وأسير (ب) أزهار الرياض: كل كلسد (ج) ط: بختان، وفي أزهار الرياض: لحنان (د) في م: ردم
 وبهت: تهران بالمغرب من روافد وادي سيو، وفي أزهار الرياض: وتركوا دم ولهب.... (هـ) كذا، وفي م 42: أزهار يسم سيجان،
 وفي أزهار الرياض: ادّى صار إذ غار لهُ سيجان (و) أزهار الرياض: القزبا (ز) أزهار الرياض: سدّ (ح) بمعنى عنهم (ط)
 أزهار الرياض: كل يوم على الويدان (ي) م: وانصغ (ك) م، وأزهار الرياض: الفدران (ل) أزهار الرياض: بعقلك (م)
 أزهار الرياض: بخاطرك (ن) ي، وأزهار الرياض: وقيله .

وَعَلَامَاتٍ تَنْتَشِرُ عَلَى الصُّنْفَا	(١) يَظْهَرُ عَبْدُ الْمُهَيْمِنِ الْغَوَاضِ (ب)
بِجْهُولِينَ لَا مَكَانَ وَلَا امْكَانَ	الْأَقْوَمَ عَارِيَيْنِ بِلَا سُرْتَا
أَوْ كَيْفَ دَخَلُوا مَدِينَةَ الْقُيْرَوَانِ	مَا يَدِيرُوهَا كَيْفَ يَصَوِّرُوهُ الْكُشْرَا
فَقَضِيَّةٌ سَافِرْنَا إِلَى تُونِسَ	أُمُولَايَ بُو الْحَسَنِ خَطِينَا الْبَابَ
وَأَشْ لَكَ فَاغْرَابَ فَرِيقَا الْغَوَاضِ	فَغْنَا كَمَا عَنِ الْجَرِيدِ وَالرَّابِ
الْفَارُوقِ فَاتِحِ الْقُرَى الْمَوْلَسِ	مَا بَلَقَكَ عَنْ عَمَزَ فِتَا (ج) الْخَطَّابِ
وَفَتَحَ (د) مِنْ فَرِيقَا ذَكَانَ	مَلِكِ الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَتَاخَ كُشْرَا
وَيَقْلُ فِيهَا تَسْرِقُ الْإِخْوَانُ	[كَانَ دَا ذُكِرَتْ أَلْوَكْرَةُ] (ه) ذِكْرَا
صَرَخَ فِي أَفْرِيقَا بَذَا التَّضَرُّخِ	هَذَا الْفَارُوقُ زُمْرَدُ الْإِكْوَانِ
وَفَتَحَهَا ابْنُ الزَّيْرِ عَنْ تَصْحِيحِ	وَقَبْتُ [جَمَى] (و) إِلَى زَمَنِ عَثْمَانَ
مَاتَ عَثْمَانُ وَانْقَلَبَ عَلَيْنَا الرِّيحُ	لَمَنْ دَخَلَتْ غَنَائِمَا الدِّيَوَانِ
وَقَبْنَا مَا هُوَ السَّكُوتُ عَنَّا إِيْمَانُ	وَأَفْتَرَقَ النَّاشَ عَلَى ثَلَاثِ أُمُرَا
أَشْ نَعْمَلُ فِي آخِرِ الْأَرْمَانِ	/ فَإِذَا كَانَ ذَا فِي مَدَةِ الْبَرَا
وَفِي تَارِيخِ كَاتِبِنَا وَكُنُونَا	وَصُحَابِ الْجَنْفَرِ فِي كُنْتِنَاتَا

[1432]

(١) أزهار الرياض: بكتاب (ب) أزهار الرياض: التواضع (ج) أزهار الرياض: بن (د) أزهار الرياض: لم يفتح (ه) أزهار الرياض: كان إذا غنكر لهُ كره (و) في ط ج: جاء، ولا وجه لها، وآتت قراءة (ي) و(م).

تذكر في صُفْهَها وإنيانا شِقُّ وشطيح وابن مُرَّانا
إن^(١) مُرِين إذا اتكت بَراياتنا لجدار تونس فقد سقط شانا

وذكرنا [ما]^(ب) قال لسيّد الوزرا عيسى بن لَحْسَن الرفيع الشّان
قال لي رَيْنَا وانا بندا أدرا لكن ذا جَا القَنْز^(ج) عمت الأُجْبان

5 ونقول لك ما رما المريّنا من خُضْرَة قاش إلى عَرَب دَبَاب
راد المولى يموت بوخيّسا سلطان تونس وصاحب العُتّاب

ثم أخذ في ترحيل السلطان وجيوشه إلى آخر رخلّته ومُشهى أمره مع
أُغراب إفريقيّة، وأنى فيها بكلّ غريبة^(د) من الإبداع.

وأما أهلُ تونس، فاستخذثوا فنَّ المَلْعَبَةِ أيضاً على لُغَتهم الحضريّة، إلّا أنّ
10 أكثره رديءٌ، ولم يعلّق بمخفوطي منه شيءٌ لرداءةٍ.

وكان لعامةُ بغداد أيضاً فنٌّ من الشّعْر يُسمونه المواليا، وتحتّه فنونٌ كثيرةٌ
يُسمّون منها الحوفي، وكان وكان، ودو يَتَيْن، على اختلاف الموازين المُتَغَبِّرة عندهم
في كلّ واحدٍ منها، وغالبها مُزْدَوِجَةٌ من أربعة أَعْصَانٍ.

وتبعهم في ذلك أهلُ مِصرَ والقاهرة، وأتوا فيها بالغرائب، وتجاوزوا فيها في
15 أساليب البلاغة بمقتضى لُغَتهم الحضريّة، فجاءوا بالعجائب.

(١) أزهار التّواض: ابن (ب) من أزهار التّواض (ج) أزهار التّواض: الفضّا (د) ج: غرب .

*ورأيت في ديوان الصفيّ الحليّ من كلامه⁽¹⁾: أنّ المواليا من بحر البسيط، وهو ذو أربعة أغصانٍ وأربع قوافٍ، ويُسمّى صوتاً وتينين، وأنه من مُختَرعات أهل واصل، وأنّ كان وكان فهو قافية واحدة وأوزان مختلفة في أشطاريه. والشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني، ولا تكون قافيته إلا مُردفة بحرف العلة، وأنه من مُختَرعات البغادّة، وأنشد⁽¹⁾:

5

لنا بغز الحواجب حديث تفسيرو متو وأم الاخرش تعرف بلغة الخرسان⁽²⁾

انتهى كلام الصفيّ* (ب).

[432م] / ومن أعجب ما علّق بحفظي من المواليا، قولُ شاعريهم:

هذي جراحي طرياً والذما تنصّخ وقائلي يا أخياً في القلا يفرّخ
قالوا وتأخذ بشارك قلت ذا أقبّخ أدّي جرخني يداويني يكون أضلّخ

10

(1) ج: وأنشد منه (ب) سقط ما بين النجمين من نسخة ي .

(1) ذكره الصفيّ الحليّ بتصرّف في اللفظ في العاطل الحالي : 105 .

(2) عمد الحليّ إلى جمع عشرين بيتاً من قصائد للبغادّة في أغراض يتداولها الناس وتجري مجرى الأمثال، ولا يُعرف ناظمها. فضمتها عشرين بيتاً من نظمه، وقدم لكل بيت منها بيتاً يناسبه. ومعد لهذا بقوله:

وقفت يوم لمبيي حتّى اغثيو وأحاضو فقلت وقال خوايلي بالغمز بالاجفان
لنا بغز الحواجب كلام تفسيرو متو وأم الأخرش تعرف بلغة الخرسان

وهذا مصفّ عند الحليّ في الكان كان وليس في المواليا (العاطل الحالي 117)، ابن حجة الحموي: بلوغ الأمل 140، وفيه: بلغة الخرسان .

ولغيره:

طرقت باب الحباء، قالت من الطارق
تبسمت لاح لي من نقرها بارق
فقلت مفتون لا ناهب ولا سارق
رخفت حيران في بحر اذمعي غارق

ولغيره:

5 عهدي بها وهي لا تامن علي البين
لئن تعان لها غيري غلام زين
ولن شكوت الهوى قالت فدتك العين
ذكرتها العهد، قالت: لك عليا دين

ولغيره في وصف الحشيش:

خمرة سراوا التي عهدي بها باقي
قحبا ومن قحبا تعمل على اخراق
تغني عن الخمر والتمار والساق
خبثها في الحشا طلت من اخداق

ولغيره: 10

يا من وصألو لأطفال المحبة^(أ) نخ
أودعت قلبي خوحو^(ب) والتصبز بخ
كم توجع القلب بالهجران أوه أخ
كل الوري كخ في عيني وشخصك دخ

ولغيره⁽¹⁾:

ناديتها ومشيبي قد طواني طن
جودي عليا بقبله في الهوى يا مئ

(أ) ج ي: الهيا (ب) الشكل من ظ، وفي ج: خوحو، وفي ي: ملة .

(1) أرهار الرياض 2 : 226 .

قالت وقد تركت داخل فؤادي كَيَّ ما ظنُّنا القطن يغشى فُؤْم من هو حي

ولغيره:

رائي ابْسَم، سبقت سحب ادمعي بَرْقوا ماط اللثام تبدأ بذر في شَرْقوا
أسبل دُجى الشَّغَر تاه القلب في طَرْقوا رجع هداانا بخَيْط الصبح من فَرْقوا

ولغيره⁽¹⁾:

يا حادي العيس يزجر بالمطايا زَجِر اقف على منزل احبابي قنيل الفجر
وصيح في خيمهم يا من يُريد الأجر ينهض يصلي على ميت قنيل الهجر
ومن الذي يستونه ذو بينين⁽²⁾:

قد أقسم من أحبه بالباري أن ينعث طيفه مع الأنهار
يا نار تشوّقي به فائقدي ليلاً فعساه يهتدي بالنار¹⁰

ولغيره⁽³⁾:

عيني التي كنت نظركم بها باتت ترعى النجوم والتسهد اقتاتش
/ وأسهم البين صابثي ولا فاتش [i433] وسلوقي - أعظم الله أجركم - ماتش

(1) أزهار الزياض 2 : 226 .

(2) المصدر نفسه 2 : 227 .

(3) المصدر نفسه 2 : 226 .

ولغيره:

هويت في قنطريتم يا ملاح الجكز غزال يبلي الأسود الضاريا بالفكر
غصن إذا ما انثنا يشي البنات البكر وإذا تهلل فما للبذر عندو ذكر

واعلم أن الأذواق في معرفة البلاغة منها كلها إنما تحصل لمن خالط تلك
5 اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها، كما قلناه في اللغة
العربية. فلا يشعر الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي
بالبلاغة التي في شعر أهل المشرق والأندلس، ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر
أهل الأندلس والمغرب، لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلف فيهم، وكل أحد
[منهم]⁽¹⁾ مدرك بلاغة لغته، وذائق محاسن الشعر من أهل جلدته.

10 وفي خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم واللوايح آيات للعالمين^(ب).

(1) من: ج ي، وسط من ط (ب) تضمنين 11 في الآية 22 من سورة الروم .

وقد كُذِّبَ أن نَخْرِجَ عن الغرض، وعَزَمْنَا أن نَقْبِضَ العنانَ عن القولِ في هذا الكتابِ الأوَّلِ الَّذِي هو طَبِيعَةُ العُفْرَانِ وما يَغْرِضُ فيه، فقد اسْتَوْفَيْنَا من مسائله ما حَسَبْنَا [هـ]⁽¹⁾ كِفَاءً لَهُ. ولَعَلَّ من يَأْتِي من بَعْدِنَا مَن يُؤَيِّدُهُ اللهُ بِفِكْرٍ صَحِيحٍ، وعِلْمٍ مَتِينٍ، يَغْوِضُ من مسائله على أَكْثَرِ مَا كَتَبْنَاهُ؛ فليس على مُسْتَنْبِطِ الفَنِّ إحصاءَ مسائله، وَإِنَّمَا عَلَيْهِ تَعْيِينُ مَوْضُوعِ العِلْمِ وتَنْوِيعُ^(ب) فُصُولِهِ وما يَتَكَلَّمُ فيه. والمتَأَخَّرُونَ 5 يُلْجِقُونَ المسائِلَ من بَعْدِهِ شَيْئاً شَيْئاً^(ج) إلى أن تَكْمَلَ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية 216].

قال مؤلَّفُ الكتابِ عفا اللهُ عنه: أَتَمَمْتُ هَذَا المَجْزَأَ المُشْتَمِلَ على المُقَدِّمَةِ بِالْوَضْعِ والتَّأْلِيفِ قَبْلَ التَّنْقِيحِ والتَّهْذِيبِ، فِي مُدَّةِ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ، آخِرُهَا مُنْتَصَفُ عَامِ تِسْعَةِ وَسَبْعِينَ وَسُبْعِمِائَةٍ. ثُمَّ نَقَحْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَهَدَّبْتُهُ، وَالْحَقُّ بِهِ من تَوَارِيخِ 10 الْعَرَبِ [والعجم]^(د) وَالْبَرِّيرِ مَا اخْتَرْتُهُ.

[433ب] ثُمَّ اسْتَوْفَيْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمُلقَّبِ بِالظَّاهِرِيِّ خَبَرَ / الدُّوَلِ فِي الْخَلِيقَةِ وَالْعَالَمِ، وَاسْتَوْعَبْتُهُ حَسْبَمَا ذَكَرْتُهُ فِي أَوَّلِهِ وَشَرَطْتُهُ. وَمَا الْعِلْمُ إِلَّا مَنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

(1) من ج ي (ب) ج : صوع (ج) ج: شيئاً فشيئاً (د) إضافة يقتضيا التص، انظر ما بعده .

كُلُّ الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ الظَّاهِرِيِّ فِي الْعَبَرِ، بِأَخْبَارِ الْغَرْبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَرْزِ، وَكِبَالِهِ
كُلَّتِ الْمَقْدَمَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي أَوَّلِهِ.

يَتْلُوهُ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ الْكِتَابُ الثَّانِي، فِي أَخْبَارِ الْغَرْبِ وَأَخْبِيَالِهِمْ وَدَوْلِهِمْ، مُنْذُ مَبْدَأِ الْخَلِيقَةِ
وإِلَى هَذَا الْعَهْدِ، وَأَخْبَارِ مُعَاصِرِهِمْ مِنْ أُمَمِ الْعَجَمِ.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَقُّ حَمْدِهِ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَعَبِيدِهِ، وَعَلَى آلِهِ وَضَعْبِهِ،
وَسَلَامُهُ.

خاتمة نسخة بي:

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح
والتهذيب، في مدة خمسة أشهر، آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مائة، ثم نقّحته بعد
ذلك وهذّبته، وألحقت به من تواريخ الأمم كما ذكرته في أوله وشرطته. وما العلم إلا من عند الله
العزیز الحكيم.

خاتمة نسخة ج:

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه: أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح
والتهذيب، في مدة خمسة أشهر، آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مائة، ثم نقّحته بعد
ذلك وهذّبته، وألحقت به من تواريخ الأمم كما ذكرته في أوله وشرطته، وما العلم إلا من عند الله
العزیز الحكيم.

وكتبه بيده الفانية أحوج الناس لرحمة ربه، عبد الله بن حسن الشهير بابن الفخار،
حامداً لله على نعمه، ومصلياً ومُسَلِّماً وَمُحْتَسِبِلاً. ونقلته من أضله المتّوَجِّعِ بِخَطِّه مؤلفه في بعض هامشه
وملحقه وتجارجه، وكتبها جميعها وأحاط بما كتبت، وقرأ في غالبه، والله المسؤول أن يُفِيحَهُ ويمتّع
ببقائه، آمين.

وكتب في العاشر من جادى الأولى سنة تسع وتسعين وسبعمائة.

اللهم صلّ على سيّدنا محمد وآله وسلّم.

المستدرك

• فصل، في اتساع نطاق الدّولة أولاً إلى نهايته، ثمّ تضايقه ثانياً⁽¹⁾ طوّراً بعد طوّراً إلى فناء الدّولة واضمحلالها

تَجَنَّبْ

هذا الفصل كان موجوداً في نسخة عاطف أفندي الأمّ، مثبتاً في بطاقة مُضافة استوعبته، وقد أُخرج له ابن الفخّار - الناسخ المتفرغ لابن خلدون، وكتب النسخة "ع" - إشارة مُخرج متجهة إلى اليمن تدل على موقع الفصل، وأتته موجود خارج الحاشية كما اعتاد أن يفعل في الإضافات الكبيرة. ومؤقّفه محدّد بين فضلي: كيفية طروق الحقل في النول (الفصل 47، 1: 505) وحدث النول وتجدها كيف يقع (الفصل 48، 1: 510).

طالب انتزاعها من ابلي التامير بها ولا يثبت وهي تتلّش إلى ان تضجّر
كالذباب في السراج اذا فني شنته وكفى والله مالك الامور بعد بر
الكران لا اله الا هو
فصل في حدوث الدول
وتجدها كيف يقع
اعلم ان نشأة الدول وبلدانها
اذا اخذت الدولة المستقرة في المدمر والانتفاص كيدك على نوعين كما

والمؤكّد أن هذا الفصل بما زاده ابن خلدون بعد سنة 799/ 1395م لأنّ النسخ المعتمدة في هذه النشرة وعليها خطه وإضافاته وتصويباته، حُطّ آخرها في التاريخ المشار إليه؛ وهو سنة 799م بما في ذلك نسخة فاس المفقودة، التي أهداها في السنة نفسها لأبي فارس عبد العزيز المريني ونقلت عنها كلّ النسخ المغربية الشائعة، والتي اعتمد بعضها الشيخ نصر الهوريني لطبعته في بولاق، الحالية من هذا الفصل.

وقد كان الملحق موجوداً عندما آلت تلك النسخة الأمّ إلى عاطف أفندي، وطلب من الناسخ حسن بن أحمد أن يستخرج له نسخة يُدخل فيها حواشي الأصل في مواقعها، ويصحّ نسخة موحدة تمثّل عمل ابن خلدون في المقدمة مبيّضاً كما أرادها في آخر مراحل حياته. واستغرق الناسخ في هذا العمل مدّة ما بين 1140هـ (1728م) - 1155هـ (1742م) كما نُصّ على ذلك.

(1) سقط من ب .

وقد آلت هذه النسخة إلى مجموعة العلامة أحمد تيمور باشا في مصر، واختفى بعدها هذا النسخ من أصله الملتصق به.

ونورده لصحة ارتباطه بالمرحلة الحديثة للكتاب، معتمدين في مقابلته على مخطوطة التهجيرية ونشرة E. Quatremere للمقدمة (باريس 1858) 2: 114 - 117 .



قد كان تقدم لنا في فضل الخلافة والملك، وهو الثالث من هذه المقدمة، أن كل دولة لها حصّة من الممالك والجمالات لا تزيد عليها. واعتبر^(أ) ذلك بتوزيع عصابة التولية على حاية أقطارها وجهاتها. فحيث نقد^(ب) عدوهم فالطرف الذي انتهى عنده هو الثغر؛ ومحيط بالتولية من سائر جهاتها كالتطابق. وقد تكون النهاية هي نطاق التولية الأول. وقد يكون أوسع منه إذا كان عدو العصابة أوفر من التولية قبلها. وهذا كله عندما تكون التولية في شعار البداوة وخشونة البأس. فإذا استغفل العز والغلب، وتوقرت^(ج) النعم والأزراق بدور^(د) الجبايات، وزخر بحر الثرف والحضارة، ونشأت الأجيال على اعتياد ذلك، لطف أخلاق الحامية وزقت خواشيمهم، وعاد من ذلك على نفوسهم هيئات الجن والكسل بما يعانونه^(هـ) من خنث^(ز) الحضارة المؤدي إلى الانسلاخ من شعار البأس والتجولة^(ح) بمفازة البداوة ونحشوتتها، ويأخذهم^(ط) العز بالتطاؤل إلى الرياسة والتنازع فيها. ويفضي^(ي) إلى قتل بعضهم بعضاً^(ك) ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدي إلى قتل أكبرهم وإهلاك رؤسائهم. فينفد^(ل) الأمراء والكبراء، ويكثر التابع والمزءوس، فيقل ذلك من حد^(م)

(أ) ت: واعتبار (ب) ب: غد (ج) ت: وتعددت (د) ت: يدور (هـ) ب: إلى (و) ت: يعاني (ز) ب: حنث (ح) ب: التجولية (ط) ب: يأخذهم (ي) ب: فيفضي (ك) ب: بعضهم بعضهم (ل) ب: تنفذ (م) ت: حدود .

الدولة، ويكسر من شوكتها، ويقع الخلل الأول في الدولة، وهو الذي من جهة الجند والحامية كما تقدم.

ويساوي ذلك السرف في التفقات بما يغتريهم من أثمة العير، وتجاوز الحدود في البذخ، بالمناغة في المطاعم والملابس، وتشيد القصور، واستجادة السلاح وارتباط الحيول؛ فيقصر دخل الدولة حينئذ عن ^(أ) خزنها ^(ب)، ويترك الخلل الثاني في الدولة وهو الذي من جهة المال والحباية. ويحصل العجز والانتقاض ^(ج) بوجود الخللين. وربما تنافس رؤسأهم فتنزعوا، وعجزوا عن مغالبة ^(د) المنازعين والمجاورين ^(هـ) ومداقتهم. وربما اعتز أهل الثغور ^(و) والأطراف بما يحسون من ضعف الدولة وراهم، فيصرون إلى الاستقلال والاستبداد بما في أيديهم من العملات، ويتعجز صاحب الدولة عن حملهم على ^(ز) الجادة، فيضيق نطاق الدولة عما كانت انتهت إليه في أولها، وترجع العناية في تدبيرها ^(ح) بنطاق دونه، إلى أن يحدث [في النطاق] ^(ط) الثاني ما حدث في الأول بعينه من العجز والكسل في العصابة وقلة الأموال والحباية. فيذهب القائم بالدولة إلى تغيير القوانين التي كانت عليها سياسة الدولة من ^(ي) قبل الجند والمال والولايات، ليخبري حالها [على] ^(ك) استقامة بتكافؤ ^(ل) الدخل والخرج والحامية والعائلات وتوزيع الجباية على الأزراق، ومقايضة ذلك بأول الدولة في سائر الأحوال. والمفاسد مع ذلك متوقعة من كل جهة. فيحدث في هذا الطور من بعد ما حدث في الأول من قبل. ويقترب صاحب الدولة أيضا ^(م) ما اعتبره الأول، ويقايس بالوزن الأول أحوالها الثانية، يروم دفع مقاييد الخلل ^(ن)

(أ) ب: من (ب) ت: خزنها (ج) ب: والانتقاض (د) ت: من مبالغه (هـ) ب: المجاورين والمنازعين (و) سقط من ت (ز) ت: عن (ح) ب: تدبيرها (ط) سقط من ت (ي) ب: في (ك) سقط من ت (ل) ت: بتكافؤ (م) سقط من ب (ن) ت: الحال.

الذي يتجدد في كل طور، وتأخذ من كل طرف، حتى تضيق نطاقها الآخر إلى نطاقٍ دونه كذلك، ويقع فيه ما وقع^(أ) في الأول. وكل واحد من هؤلاء المغيرين للقوانين قبلهم كأنهم مُشَبِّهون دولة أخرى، ومجددون مُلكاً، حتى تنقرض الدولة، وتتطاوَل^(ب) الأمم حَوْلَهَا إلى التغلب عليها وإنشاء دولة أخرى لهم، فيقع من ذلك ما قَدَّرَ اللهُ وَقُوعَهُ.

واعتبر ذلك في الدولة الإسلامية كيف اتسع نطاقها بالفتوحات والتغلب على الأمم، ثم تزايد^(ج) الحامية وتكاثر عددهم^(د) بما تحوّلوه من النعم والأرزاق، إلى أن اقترض أمر بني أمية وغلب بنو العباس. ثم تزايد الترف ونشأت الحضارة، وطرق الحلال، فضائق الطغاة من الأندلس والمغرب بحدوث الدولة الأموية المروانية والعلوية^(هـ)، واقتطعوا ذنبيك الثغرين عن نطاقها، إلى أن وقع الخلاف بين بني الرشيد، وظهر دعاة العلوية من^(و) كل جانب، وتمهدت لهم دول.

ثم قُتل المتوكل، واستبدَّ الأمراء على الخلفاء وحجروهم، واستقلَّ الولاة بالعمال^(ز) في الأطراف، وانقطع الخراج منها، وتزايد الترف. وجاء المعتضد فغير^(ح) قوانين الدولة إلى قانون^(ط) آخر من السياسة، أقطع فيه ولاة الأطراف ما غلبوا عليه، مثل بني سامان وراء النهر، وبني طاهر العراق وخراسان، وبني الصفار السند وفارس، وبني طولون مصر، وبني الأغلب إفريقية، إلى أن افرق أمر العرب وغلب العجم؛ واستبدَّ بنو بُوَيْهٍ والدَّيْلَمُ بدولة الإسلام وحجروا الخلافة، وبقى^(ي)

(أ) ت: يقع (ب) ت: ويتطاول (ج) ت: كما يتزايد (د) ت: عدوهم (هـ) ت: بحدوث دولة المروانية والعلوية (و) ب: في (ز) ت: الولاية بالعمارات (ح) ت: فيغير (ط) ت: مأنور (ي) سقط من ت .

بنو سامان [في استيادهم]^(أ) وراء النهر، وتناول^(ب) الفاطميون من المغرب إلى مصر والشام فلكوه^(ج). ثم قامت الدولة السلجوقية من الترك فاستولوا على ممالك الإسلام؛ وأبقوا الخلفاء في حجرهم، إلى أن تلاشت دولهم.

واستبد الخلفاء منذ عهد التاصر في نطاق أضيّق من هالة القصر، وهو عراق القرب إلى أصفهان وفارس والبحرين. وأقامت الدولة كذلك بعض الشيء، إلى أن انقرض أمر الخلفاء على يد هولاكو^(د) بن طولي بن دوشي خان^(هـ) ملك الططر والمغل حين غلبوا السلجوقية وملكوا ما كان في أيديهم^(و) من ممالك الإسلام. وهكذا يتضايق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الأول. ولا يزال طورا بعد طورا إلى أن تنقرض الدولة. واعتبر ذلك في كل دولة عظمت أو صغرت، فهكذا سئله [الله]^(ز) في التور، إلى أن يأتي ما قدر الله من الفناء على خلقه [و]^(ح). ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص، من الآية 88].

(أ) سقط من ت، وعوضها: بما (ب) ت: وتناول (ج) ت: فلكوا (د) ت: هلاكو (هـ) ت: حال (و) ت: بأيديهم (ز) سقط من ت .

• فصلٌ ، في أن الرياسة لا تزال في نصائها المخصوص من أهل العصية

تجويد

لم يرد هذا الفصل في الرواية الحديثة للنص، ولم نجد في النسخة الأم "ع" وبقية الأصول الموازية لها إشارة مُخرج بآخر الفصل الذي تقدمه، وهو: "فصل في اختلاط الأنساب كيف يقع" يدل على أنه كان هناك بطاقة تضمّنث الإضافة، وسقطت بوجه من وجوه التلّف، كما حدث للفصل 48 من الفصل الثالث. كذلك لم يرد لهذا الفصل ذكر في النسخة التيمورية، وفي طبعة باريس.

وقد ظهر للمرة الأولى في نُشرة الشّيخ نصر الهوريني للمقدمة، التي نشرتها مطبعة بولاق في شهر صفر سنة 1274هـ / 1857م وعلّق إلى جانبه في الحاشية، "أن النص ساقط من النسخ المتداولة، وقد وجده في نسخة مضبوطة منقولة من نسخة المؤلف الأولى، قبل الزيادة عليها والحذف منها". وكتب هذا في جمادى سنة 1273هـ / يناير 1857م.

ويظهر أنّه كان موجوداً في نُسخ صيغة المُقدمة الأولى، ثم استبعد ابن خلدون في النسخة الحديثة، بعد أن ضمّن محتواه الفصل الحادي عشر (نشرنا 1: 233): "في أن الرياسة على أهل العصية لا تكون في غير نسبهم"، وفيه يقرر محضلة "أنه لا بدّ في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبيتهم".

ورأينا إثبات هذا النص في المستدرک، لأنّه يُساعد على توضيح طريقة ابن خلدون في معالجة أفكاره ومراجعة صياغتها، للوصول إلى ما يكون أكثر وضوحاً وارتباطاً بالمضامين العامة والخاصة التي تستقر في ذهنه.

وقد اعتمدنا في استخراجها على ما أثبتته نصر الهوريني بخطه في حاشية مخطوطة دار الكتب المصرية (رقم 612 تاريخ تيمور) التي اعتمد عليها في نشره لطبعة بولاق الأولى للمقدمة سنة 1247، ص 64، والطبعة الثانية في بولاق أيضاً لكل كتاب العبر 1: 110، وعلى ما نشره د. علي عبد الواحد وافي 2: 488.



اعلم أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام، ففهم أيضاً عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشدّ اتحافاً من النسب العام لهم،

مثل عشير واحدٍ أو أهل بيتٍ واحدٍ، أو إخوة بني أبٍ واحدٍ، لا مثل بني العمِّ الأقرين أو الأبتدين. فهؤلاء أقعدُ بنسبهم المخصوص وبشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام. والثعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص، ومن أهل النسب العام؛ إلا أنها في النسب الخاص أشدُّ لقرب اللُحمة. والرياسة فهم إنما تكون في نصابٍ واحدٍ منهم ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبيَّة ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب، ليَقع الغلبُ بها وتتمَّ الرياسة لأهلها. فإذا وجب ذلك تعيَّن أنَّ الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم؛ إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى التنازلة عن عصابتهم في الغلب لما ثقت لهم الرياسة. فلا تزال في ذلك النصاب متنازلة من فزع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه، لما قلنا من سِرِّ الغلب؛ لأنَّ الاجتماع والعصبيَّة بمثابة المزاج للمتكون؛ والمزاج في المتكُون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بُدَّ من غلبة أحدها، وإلا لم يتمَّ التكوين. فهذا هو سِرُّ اشتراط الغلب في العصبيَّة. ومنه تعيَّن استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قرَّره.

المصادر والمراجع

- آثار البلاد وأخبار العباد، زكرياء بن محمد القزويني، دار صادر، بيروت 1969م
- الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي، تحقيق عصام فارس الحرساني، دار عمار، عمان (د.ت.)
- آداب المعلمين، محمد بن سُنُون، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة محمد العروسي المطوي، تونس 1972م
- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، أحمد بن أبي الضياف، وزارة الثقافة، تونس، 1963م
- الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبد الله، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1973م
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب ابن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة؛ بيروت 1991م
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق محمد جاسم الحديثي، المجمع العلمي، بغداد 2001م
- أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق محمد الصادق قحايي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1985م
- أخبار الدول المنقطعة، ابن ظافر الأزدي، تحقيق عصام هزيمة، محمد محافظة، محمد طعاني، علي عبانة، مؤسسة حادة ودار الكندي للنشر، إربد (الأردن) 1999م
- أخبار القضاة، محمد بن خلف بن حيان، وكيع، عالم الكتب، بيروت (د.ت.)، (مصورة)

• أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرق، صحتها وعلق حواشيها رشدي الصالح ملخص، ط2، نشرها عبد المقصود خوجه، جدة 2005م

• أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم، محمد بن علي بن حمّاد الصنهاجي، حققه وترجمه M. Vonderheyden نشریات كلية الآداب بالجزائر، الجزائر- باريس 1927م

• الأربعون حديثاً في المهدي، أحمد بن عبد الله، أبو نعيم الأصفهاني، تحقيق علي باقر، تراثنا، طهران 1425هـ

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب = معجم الأدياء

• أزهار الرياض في أخبار عياض، أحمد بن محمد المقرئ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك، الرباط 1978 - 1980م

• الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري السلاوي، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب 1956م

• الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر النري القرطبي، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعها، القاهرة (د.ت.). (مصورة)

• أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين علي بن محمد بن الأثير، المكتبة الإسلامية، بيروت (د.ت.). (مصورة)

• الإشارات والتنبيهات، أبو علي بن سينا، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، مصر 1971م

- الاشتقاق، محمد بن الحسين بن دريد الأزدي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، مكتبة المثنى، بغداد 1979م
- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ط6، دار العلم للملايين؛ بيروت، 1980م
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق فرانز روزنتال، ترجمة صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت.)
- أعمال مهرجان ابن خلدون (2 - 6 يناير 1962)، المركز القومي للبحوث الاجتماعية، القاهرة 1962م
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق حسن الأمين، ط5، دار التعارف للمطبوعات، بيروت 1983م
- الأغاني، علي بن الحسين، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر؛ بيروت 2002م
- افتتاح الدعوة، النعمان بن محمد بن منصور، ابن حيون، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1975م
- الأمالي، إسماعيل بن القاسم القالي، دار الحديث للنشر؛ بيروت 1984م (مصورة)
- أمية بن أبي الصلت: حياته وشعره، بهجة عبد الغفور الحديثي، مطبعة العاني، بغداد 1975م
- إنباء الغمر بأبناء العمر، ابن حجر العسقلاني، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986م

- الإثبات على قبائل الرواه، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1985م
- إنسان العيون = السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون
- الأوائل، الحسن بن عبد الله، أبو هلال العسكري، دار الكتب العلمية، بيروت 1987م
- أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، محمد بن علي البروسوي، ابن سباهي زاده. تحقيق المهدي الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2006م
- إيضاح المكنون، إسماعيل البابائي، دار الفكر، بيروت، 1982م (مصورة)
- كتاب الإيمان، محمد بن إسحاق بن يحيى بن مندة، تحقيق علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة 1981م
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد بن إياس، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982 - 1984م
- بدائع السلك في طبائع الملك، محمد بن علي ابن الأزرق، تحقيق علي سامي النشار، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1978م
- البداية والنهاية، ابن كثير القرشي، ط2، دار الفكر، بيروت 1978م (مصورة)
- بسط الأرض في الطول والعرض، علي بن موسى، ابن سعيد المغربي، تحقيق خوان قرنيط، معهد مولاي الحسن، تطوان 1958م
- كتاب بغداد، أحمد بن طاهر، ابن طيفور، مكتبة المتنبي، بغداد، مكتبة المعارف، بيروت 1968م

- كتاب البلدان، أحمد بن إسحاق بن واضح اليعقوبي، مطبعة بريل، ليدن 1889م
- بلوغ الأمل في فن الرجل، أبو بكر بن حجة الحموي، تحقيق رضا محسن القرشي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1974م
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ط4، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت (د.ت.)
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الزبيدي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت 1966م
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، اغناطيوس كراشكوفسكي، ترجمة صلاح الدين عثمان، جامعة الدول العربية، القاهرة 1983م
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003م
- تاريخ ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، مؤسسة جبال للطباعة والنشر، بيروت 1979م. (مصورة عن طبعة بولاق باعثناء نصر الهوريثي)
- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري، ط4، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1979م
- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك
- تاريخ ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم بن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت 1939م

- التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، حيدر آباد، 1358 - 1362هـ
- تاريخ مدينة السلام وذكر محدثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها، أحمد ابن علي الخطيب البغدادي، حققه وضبط نصّه وعلق عليه بشار عواد معروف؛ دار الغرب الإسلامي؛ بيروت 2001م
- تحرير تقييد التهذيب، بشار عواد معروف وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997م
- تحفة القادم، محمد بن عبد الله القضاعي، ابن الأثير، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م
- تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، محمد بن عبد الله اللواتي، ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1997م
- تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد الذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).
- التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن، ابن حمدون، تحقيق إحسان عباس، معهد الإنماء العربي، بيروت 1983م، وطبعه دار صادر؛ بيروت 1996م
- تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الهندي الفنتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1978م
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض بن موسى البحصي، عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد بن تاويت الطنجي، تحقيق عبد القادر الصحراوي.... ورفاقه، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 1965 - 1983م

- التعريف بآبن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق محمد بن تاووت الطنجي، القيروان للنشر، تونس 2006م
- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن
- تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز
- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن
- التفسير الكبير، محمد بن عمر الفخر الرازي. ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1999
- تقريب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامه، دار الرشيد، حلب، 1986م
- تقويم البلدان، إسماعيل بن محمد، أبو الفداء، اعتنى بتصحيحه وطبعه جوزيف توسن رينود وماك كوكين ويسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس 1840م
- التكملة لكتاب الصلة، محمد بن عبد الله القضاعي، ابن الأبار، تحقيق عبد السلام الهراس، دار المعرفة، الدار البيضاء، 1993 - 1995م
- تلخيص الخطابة، أبو الوليد محمد بن أحمد، ابن رشد، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت (د.ت.)
- تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، أبو الوليد بن رشد، تحقيق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1980م
- تلخيص منطق أرسطو، أبو الوليد ابن رشد، تحقيق جبرار جهامي، المكتبة الشرفية، بيروت 1982م

- التمهيد في الردّ على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، أبو بكر الباقلاني، تحقيق محمود محمد الحضيريّ، محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة 1947م
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق سعيد أحمد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 1991م
- تنزيه الشريعة المرفوعة من الأخبار الشنيعة الموضوعة، علي بن محمد بن عراق الكنتاني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلميّة، بيروت 1979م
- تهافت الفلاسفة، محمد بن محمد، أبو حامد الغزاليّ، تحقيق سليمان دنيا، ط6، دار المعارف، القاهرة 1980م
- تهذيب الأسماء واللغات، محيي الدين بن شرف النوويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت (د.ت.)
- تهذيب ابن قيم الجوزية على مختصر سنن أبي داود، تحقيق أحمد محمد شاكر، محمد حامد الفقهي، دار المعرفة؛ بيروت 1367هـ
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين يوسف المزيّ، تحقيق بشار عواد معروف ط2، 3، دار الرسالة، بيروت 1983 - 1992م
- الثقات، محمد بن حبان بن معاذ البُشنّيّ، دار الفكر، بيروت 1973 - 1983م (مصورة عن طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد)

- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، المطبعة المنيرية، القاهرة
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ضبط وتعليق محمود شاكر، تصحيح علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001م
- الجامع الكبير، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996م
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط3، دار الکتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1967م
- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس وأسماء رواة الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر، محمد بن فتوح بن عبد الله الحافظ الحميدي الأزدي، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1952م
- الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن محمد الرازي، ابن أبي حاتم، تحقيق عبد الرحمن المعلمي الجاني، حيدر آباد 1952 - 1956م
- المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، المعافي بن زكرياء النهرواني.
- الجزء الأول والجزء الثاني، تحقيق محمد مرسى الخولي، عالم الكتب، بيروت 1981م
- الجزء الثالث والجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت 1993م
- الجماهر في معرفة الجواهر، محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني، عالم الكتب، بيروت (د.ت.)

- جمهرة أنساب العرب، علي بن سعيد، ابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، ط4، دارالمعارف، القاهرة 1977م
- جيش التوشيح، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق هلال ناجي، أعدّ أصلاً من أصليه: محمد ماضور، مطبعة المنار، تونس (د.ت.)
- الحاوي في الفتاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مطبعة السعادة، القاهرة 1378هـ
- حدود العالم من المشرق إلى المغرب، لمجهول، تحقيق يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة 1999م
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله، أبو نعم الأصفهاني، القاهرة 1938م
- الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، ط3، عالم الكتب، بيروت 1983م
- حي بن يقظان، تحقيق أحمد أمين، دار المعارف، القاهرة 1952م
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، سراج الدين عمر بن مظفر ابن الوردی، المكتبة الشعبية؛ بيروت (د.ت.)
- خلع التعلين واقتباس النور من موضع القدمين، أحمد بن قسي، تحقيق محمد الأمرائي، آسفي (المغرب) 1995م
- دار الطراز في عمل الموشحات، هبة الله بن جعفر ابن سناء الملّك، تحقيق جودت الركائفي، دار الفكر، بيروت 1980م

- دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، بإشراف كاظم الموسوي البجنوزي، طهران 1991م
- ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، شرح وتعليق محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة 1955م
- ديوان الأعمى التطيلي، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1963م
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار المعارف، مصر 1964م
- ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت 2000م
- ديوان أبي ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد، تحقيق انطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت 2003م
- ديوان ابن سهل الأندلسي، تقديم إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1967م
- ديوان السيد الحميري، إسماعيل بن محمد، تحقيق شاكر هادي شكر، تقديم السيد محمد تقي الحكيم، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت.)
- ديوان الشريف الرضي، محمد بن الحسين العلوي، وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران 1986م
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري (التبيان في شرح الديوان) تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، بيروت (د.ت.)
- ديوان قيس بن ذريح، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت 2003م
- ديوان كثير عزة، شرح قدري مايو، دار الجيل، بيروت 1995م

- ديوان الموشحات الأندلسية، سيّد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية 1979م
- ديوان النابغة الذبيانيّ، زياد بن معاوية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر (د.ت.)
- ديوان ابن نباته المصري، مطبعة المدن، القاهرة 1323هـ
- ديوان أبي نواس، الحسن بن هانيء، دار صادر، بيروت، 1962م
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، علي بن بسام الشنتريّ، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، بيروت 1975م
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، محمود بن عمر، جار الله الزمخشريّ، تحقيق سليم النعيمي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، 1976م
- رحلة ابن بطوطة = تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
- رسالة أضحوية في أمر المعاد، الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا، ضبطها وحققها سليمان دنيا، دار الفكر العربيّ، القاهرة 1368هـ / 1949م
- رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، أحمد ابن العباس، ابن فضلان، تحقيق سامي الدخان، ط3، دار صادر، بيروت 1993م
- الرسالة القشيرية في علم التصوف، عبد الكريم بن هوازن القشيريّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت 1957م
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لأبن هشام، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق مجدي منصورين، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت.)

- الروض المطّار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحبريّ، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م
 - الروضتين في أخبار الدولتين، عبد الرحمن بن إسماعيل، أبو شامة، مطبعة وادي النيل، القاهرة 1288هـ
 - روضة التعريف بالحلب الشريف، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربي - القاهرة (د.ت.)
 - زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، ط8، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، بيروت، 1985م
 - زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصريّ القبروائي، ط4، تحقيق زكي مبارك، بيروت، دار الجيل 1972م
 - زهر الأم من الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسّي، تحقيق محمد حجي، محمد الأخضر، معهد الأبحاث والدراسات والتعريب، المنار البيضاء 1981م
 - الزهرة، محمد بن داود الأصفهاني، اعتنى بنشره لويس نيكول البوهيمي، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين 1932م
 - سجل قديم لمكتبة جامع القيروان، إبراهيم شبوح، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثاني، ج2، القاهرة 1956م
- سرّ الأسرار لأرسطو = السياسة في تدبير الرئاسة

- سراج الملوك، محمد بن الوليد الأندلسي الطرطوشي، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، تقديم شوقي ضيف، البار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994م
- السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقرئ، تحقيق محمد مصطفى سعيد عبد الفتاح عاشور، وزارة الثقافة، القاهرة (1956 - 1973م)
- السنة لأبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت 1400هـ
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق يوسف الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987م
- سنن البارقي، عبد الله بن عبد الرحمن البارقي، بعناية عبد الله هاشم، دار المحاسن، القاهرة 1966م
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق عزت الدعاس وعادل السيد، بيروت 1971م
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق بشار عواد معروف، دار الجيل، بيروت 1998م
- السنن (المجتبى)، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة 1348هـ
- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلميّة، بيروت 1991م
- السنن الكبرى، أبو بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، حيدر آباد 1344هـ

- سوالات البرقائي للبارقطني، تحقيق عبد الرحيم محمد القشقرّي، كتب خانة جبيلي، باكستان 1404هـ.
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، ط3، حققه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م
- السيرة والمغازي، محمد بن إسحاق المظلي، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت 1978م
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت 1980م
- السيرة النبوية، لابن هشام، محمد بن عبد الملك، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1955م
- شرح أدب الكاتب، موهوب بن أحمد الجواليقي، تقديم السيد مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت)
- شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكّري، تحقيق عبد الستار فزاج، راجعه محمود محمد شاکر، دار العروبة، القاهرة 1963 – 1965م
- شرح ديوان أبي تمام، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليتا الحايوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981م
- شرح ديوان لبید بن ربیعة العامري، تحقيق إحسان عباس، ط2، وزارة الإعلام، الكويت 1984م
- شرح فصوص الحكم، عبد الرزاق القاشاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1966م

- شرح القصائد السبع الطوال، محمد بن القاسم الأنباري، ط4، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة 1980م
- شرح مقامات الحريري، أحمد بن عبد المؤمن الشريشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة 1969م
- شرف أصحاب الحديث، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق محمد سعيد خطيب أوغلي، كلية الإلهيات، جامعة أنقرة 1972م
- شعر دعبل الخزازي، صنعه عبد الكريم الأشر، ط2، جمع اللغة العربية، دمشق 1983م
- شعر عمرو بن شأس الأسدي، جمعه يحيى الجبوري، المكتبة العصرية، بيروت 1992م
- الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر 1966م
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، محمد بن أحمد الفاسي المكي، نسخ الأصل وقابله أمين فؤاد سيد، حققه وعلق عليه مصطفى محمد الذهبي، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة 1999م
- شمس المعارف الكبرى، أحمد بن علي البوني، المكتبة الثقافية، بيروت (د.ت.)
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء أحمد بن علي القلقشندي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1913م
- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الطبعة السلطانية، يولاي 1311 - 1313هـ (وما أشير إليه برقم الحديث، فالإشارة إلى فتح الباري لابن

حجر العسقلاني، الطبعة السلفية بعناية محمد فؤاد عبد الباقي والشيخ عبد العزيز ابن باز

صحيح ابن حبان = الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان

• صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة 1954م

• صورة الأرض، محمد بن حوقل النصيبي، دار صادر، بيروت 1938 - 1939م

• كتاب الضعفاء الكبير، محمد بن عمرو، أبو جعفر العقيلي، تحقيق عبد المعطي أمين قلنجي، دار الكتب العلمية؛ بيروت 1984م

• الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت)

• طبقات الأطباء والحكماء، سليمان بن حسان، ابن جلجل الأندلسي، حققه فؤاد سيد، المعهد الفرنسي، القاهرة 1955م

• طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي، تاج الدين السبكي، ط2، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة 1992م

• الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، دار صادر، بيروت 1405هـ

• العاقل الحالي والمرخص الغالي، صفى الدين الحلبي، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1981م

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر = تاريخ ابن خلدون

• عدة المجلس وموانسة الوزير والرئيس، علي بن بشري الأغرناطي، عني بتصحيحه آلن جونز (Alan Jones) طبعة أمناء سلسلة جبّ التذكارية، كبريج - إنجلترا 1992م

• العقد الفريد، أحمد بن محمد، ابن عبد ربه الأندلسي، تصحيح وضبط أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1965م

• العلامة ابن تاويت الطنجي، جوانب من حياته ونماذج من رسائله، محمد كون الحسني (الكتاب التذكاري عن محمد بن تاويت الطنجي، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، طنجة 1997م

• العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، عبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي، قدّم له وضبطه خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت 1983م

• العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن حنبل، تحقيق طلعت بيكت وإسماعيل أوغلي، إستانبول 1987م

• العمدة في صناعة الشعر ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة 2000م

• عتقاء مُغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب، محيي الدين محمد ابن علي، ابن عربي الحاتمي، تحقيق يهنساوي الشريف، القاهرة 1998م

• عنوان البراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أحمد بن أحمد الغبريني، حققه عادل نويض، لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت 1969م

- العواصم من القواصم، محمد بن عبد الله، ابن العربي، تحقيق عمار الطالبي، مكتبة دار التراث، القاهرة 1997م
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد 1981 - 1984م
- عيون الأخبار، عبد الله بن مسلم، ابن فتيبة الدينوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة 1963م
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أحمد بن القاسم، ابن أبي أصيبعة، تصحيح امروء القيس بن الطحان، أوغست مولر، المطبعة الوهبية، القاهرة 1882م
- غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم، المنسوب إلى أبي القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي، حققه هلموت ريتز H. Ritter هامبورغ ألمانيا 1927م
- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سَلام، طبعة مصورة، دار الكتاب العربي، بيروت 1396هـ
- فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، حققه عبد العزيز بن عبد الله بن باز، أشرف على طبعه محيي الدين الخطيب، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض (د.ت.)
- فتوح البلدان، أبو الحسن البلاذري، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م
- فتوح الشام، محمد بن عمر الواقدي، دار الجيل، بيروت (د.ت.)

- الفتوحات المكيّة، محيي الدين محمد بن علي، ابن العربيّ الحاتمي، دار صادر، بيروت (د.ت.)
- فضائل القرآن، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق فاروق حمادة، الدار البيضاء 1400هـ
- فن الشعر، أرسطو، ترجمة إبراهيم حمادة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الشارقة 1982م
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، القاهرة 1960م
- في تحقيق النص: أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2004م
- قانون التأويل، محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، دراسة وتحقيق محمد السليمان، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م
- الكامل في التاريخ، عزّ الدين علي بن محمد، ابن الأثير الجزري، ط6، دار صادر، بيروت 1995م
- الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله بن عسكري الجرجاني، دار الفكر، بيروت 1984م
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمد بن عمر، جار الله الزمخشري، تحقيق محمد الصادق قحايي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1972م

- كشف الأستار عن زوائد البرّار، علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1399هـ.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل ابن محمد العجلوني، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1933م
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، بيروت 1982م (مصورة)
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علي المتقي الهندي الهروي، تحقيق بكري حيافي، تصحيح صفوت السقا، منشورات التراث الإسلامي، حلب 1971م
- لباب الآداب، عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق قطّان رشيد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1988م
- لباب المحصل، فخر الدين الرازي، تحقيق الأب لوسيانو رويو، مطبوعات معهد مولاي الحسن، النص العربي – تطوان دار الطباعة المغربية، 1952م. بيروت، دار المشرق 1995م
- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور، دار صادر، بيروت (د.ت)
- المجالس والمسائرات، أبو حنيفة بن محمد، القاضي النعمان، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997م
- كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، محمد بن حبان البُستيّ، تحقيق محمد إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب 1976م

- جمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت 2001م
- المحاسن والأضداد، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت 1969م
- المحاسن والمساوي، إبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبتها، القاهرة، 1961م
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت 2001م
- الحلى بالآثار، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق الشيخ أحمد شاکر، دار التراث، القاهرة (د.ت)
- مختارات من الجغرافيا الرياضية والكرتوغرافيا عند العرب والمسلمين وإستمرارها في الغرب، فؤاد سرگین، معهد تاریخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت 2000م
- المخطوط، إبراهيم شبروح، دار الكتب الوطنية، دار أليف- تونس 1989م
- المدونة الكبرى، الإمام مالك بن أنس الأصبغي، دار صادر؛ بيروت (د.ت)
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، طبعة برين دي فينار وباتين دي كرتابي، نقحها وصححها شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية - المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1979م

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، شهاب الدين ابن فضل الله العمري، نشره بالتصوير الفوتستاني فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت 1989م
- المسالك والممالك، أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيت الحكمة، قرطاج 1992م
- المسالك والممالك، عبيد الله بن عبد الله، ابن خرداذبة، مطبعة بريل، لندن 1889م
- المستجاد من فعلات الأجواد، المحسن بن علي التنوخي، عني بنشره وتحقيقه محمد كرد علي، مجمع اللغة العربية، دمشق 1970م
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله، الحاكم النيسابوري، دار الفكر، بيروت 1978م، عن طبعة حيدر آباد 1335هـ
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الميمنية، القاهرة 1313هـ / 1896م
- المسند الجامع لأحاديث الكتب الستة ومؤلفات أصحابها الأخرى وموطأ مالك ومسانيد الحميدي وأحمد بن حنبل وعبد بن حميد وسنن البارمي وصحيح ابن خزيمة، بشار عواد معروف وآخرون، دار الجيل، بيروت 1993م
- مسند الحميدي، عبد الله بن الزبير، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار عالم الكتب، بيروت (د.ت.)
- مسند أبي داود الطيالسي، سليمان بن داود الطيالسي، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد 1321م

- مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى، تحقيق حسين سليم الأسد، دار المأمون للتراث، دمشق 1404هـ
- المشترك وضعاً والمفترق صقلاً، ياقوت بن عبد الله الحموي، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت.)
- المصنف، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة، طبعة إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، باكستان 1987م
- المصنف، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت 1403هـ
- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، علي بن محمد القاري، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مؤسسة الرسالة، ط2؛ بيروت 1978م
- المطرب من أشعار أهل المغرب، أبو الخطاب عمر بن حسن ابن دحية، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد الحميد، دار العلم للجميع، القاهرة 1954م
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، عبد الرحمن بن محمد الدباغ، قاسم ابن عيسى، ابن ناجي، (الجزء الأول)، علق عليه إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، القاهرة 1968م
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة 1949م
- معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993م

- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض 1986م
 - معجم البلبلان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت (د.ت.)
 - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف العراقية، بغداد 1984م
 - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، (د.ت.) (مصورة)
 - معرفة الثقات، لأبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي، بترتب الهبثي والسبكي، تحقيق عبد العلم عبد العظيم البستوي، المدينة المنورة 1985م
 - المعلم بفوائد مسلم، محمد بن علي المازري، تحقيق الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992م
 - المعونة على مذهب عالم المدينة، عبد الوهاب علي بن نصر المالكي، تحقيق محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت 1998م
 - المغرب في حل المغرب، علي بن محمد، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة 1978م
 - المغني، عبد الله بن أحمد الجماعلي، موفق الدين ابن قدامة، دار الفكر، بيروت 1985م
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

- المقاصد الحسنة، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت 1979م
- مقامات الحريري، القاسم بن علي الحريري، دار صادر، بيروت 1978م
- المقتطف من أزهار الطرف، علي بن محمد، ابن سعيد المغربي، تحقيق سيد حنفي حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1983م
- المقتطف من أزهار الطرف لابن سعيد، عبد العزيز الأهواني، مجلة الأندلس، المجلد 13، مدريد 1948م
- مقدمة ابن خلدون، Prolegomenes D'Ebn Khaldoun تحقيق أ.م. كاترمير Etienne Quatremere، مكتبة لبنان، بيروت 1992م (مصورة)
- مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة 1989م
- ملعبة الكفيف الزرهوني، تقديم وتعليق وتحقيق محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط 1407هـ / 1987م
- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة؛ بيروت 1980م
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، عبد الرحمن بن علي، ابن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1992-1993م
- منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك بن ميمون، تحقيق وشرح محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت 1999م

- منطلق أرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1952م
- من مؤلفات ابن سينا الطبية، الحسين بن عبد الله، شرف الدين ابن سينا، دراسة وتحقيق محمد زهير البابا، منشورات جامعة حلب والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1984م
- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، يوسف بن تفرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن، تحقيق محمد محمد أمين، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن 2002م
- كتاب الموسيقى الكبير، محمد بن محمد الفارابي، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبه، مراجعة محمود أحمد الحفني، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت.)
- الموطأ، الإمام مالك بن أنس، برواية الليثي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1998م
- مؤلفات ابن خلدون، عبد الرحمن بدوي، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، دار المعارف، مصر 1962م
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة 1963م
- نثير الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان، أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، تحقيق محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1976م

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الآتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (نشرة مصورة عن طبعة دار الكتب)، القاهرة 1972م
- نخب الذخائر في أحوال الجواهر، محمد بن إبراهيم ابن الأكفاني، عالم الكتب، بيروت (د.ت)
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي، عالم الكتب، بيروت، 1989م
- نسب معدّ والبن الكبير، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق ناجي حسن، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت 1988م
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، المحسن بن علي التنوخي، ط2، تحقيق عبود الشالحي، دار صادر؛ بيروت 1995م
- نصب الرأية لأحاديث الهداية، عبد الله بن يوسف الزيلعي، دار المأمون، القاهرة 1357هـ
- فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد بن يحيى المقري، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة 1954م
- هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل الباباني البغدادي، دار الفكر؛ بيروت 1982م (مصورة)
- الوافي بالوفيات، خليل بن أيك الصفدي، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت 1962 - 2004م

- الوزراء والكتاب، محمد بن عبدوس الجهشياري، تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1938م
- وفيات الأعيان وأبناء الزمان، شمس الدين ابن خلّكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، دار صادر؛ بيروت (د.ت.)
- Catalogus Codicum manuscriptorum orientalium qui in museo Britannico London, 1846
- IBN Khaldun, The Muqaddimah, An Introduction to History, Translated from the Arabic by FRANZ Rosenthal, 3 Volumes, Routledge & Kegan Paul London 1958
- Islam Ansiklopedisi, Vol. 15, Istanbul, 1997
- Meydon Larousse, XX, Istanbul, 1992. V, Istanbul, 1993
- Supplément aux dictionnaires Arabes (تكملة المعاجم العربية) par Reinhart Dozy, Librairie du Liban, Beyrouth, 1968

المحنوى

الفصل الرابع من الكتاب الأول :

في البُلدان والأمنصار والمدن وسائر الغفران
الحضري، وما يعرض في ذلك من الأحوال؛
وفيه سوابق ولواحق

1 • فضل، في أن النول أقدم من المدن والأمنصار،
وأنها إنما توجد ثانية عن الملك

2 • فضل، في أن الملك يدعو إلى [نزول] الأمنصار

3 • فضل، في أن المدن العظيمة والهيكل المُرَقَّعة إنما
يُسْتَيْدّها الملك الكبير

4 • فضل، في أن الهيكل العظمى جداً لا تستقل
ببنائها الدولة الواحدة

5 • فضل، فيما تحبُّ مُراعاهه في أوضاع المدن، وما
يَحْدُثُ إذا غَفِلَ عن المُرَاعاة

• فصل [فيما يراعى في البلاد الساحلية]

- 16 • قُضِلْ، في المساجِدِ والبيوتِ المُظَلَّمةِ في العالمِ
- 17 • [مكة]
- 24 • [بيت المقدس]
- 30 • [المدينة]
- 32 • قُضِلْ، في أنَّ الأُمصارَ والمُدُنَ بإفريقيَّةِ والمَغْرِبِ
قَلِيلَةً
- 33 • قُضِلْ، في أنَّ المَبائِنَ والمصانعِ في المِلَّةِ الإسلاميَّةِ
قَلِيلَةً بالنِّسبةِ إلى قُدْرَتِها وَمَنْ كانَ قَبْلَها من
الأَوَّلِ
- 35 • قُضِلْ، في أنَّ المَبائِنَ الَّتِي تَخْطُها العَرَبُ يُسْرِعُ
إِلَيْها الحَرابُ، إِلَّا في الأَقَلِّ
- 36 • قُضِلْ، في مَبادِي الحَرابِ في الأُمصارِ
- 37 • قُضِلْ، في أنَّ تَقاضَلَ الأُمصارَ والمُدُنَ في كَثَرَةِ
الرِّفَةِ وتَقاطَعَ الأسواقِ، إِنِّما هو بتَقاضُلِ عُمَرائِها
في الكَثَرَةِ والقَلَّةِ
- 41 • قُضِلْ، في أشعارِ المَدُنِ
- 45 • قُضِلْ، في قُصورِ أَهْلِ الباديةِ عن سَكْنَى
المَضَرِّ الكَثِيرِ العُمرانِ

- 46 • 14. فَضِّلْ، فِي أَنَّ الْأَقْطَارَ فِي اخْتِلَافِ أَسْمَائِهَا
بِالزُّفْرِ وَالْفَرْسِ بِمِثْلِ الْأَمْصَارِ
- 49 • 15. فَضِّلْ، فِي تَأْتِلُ الْعَقَارُ وَالصِّيَاعُ فِي
الْأَمْصَارِ، وَحَالِ قَوَائِدِهَا وَمُسْتَقْلَلِهَا
- 50 • 16. فَضِّلْ، فِي حَاجَةِ الْمُتَمَوِّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ
إِلَى الْجَاءِ وَالْمُدَافَعَةِ
- 51 • 17. فَضِّلْ، فِي أَنَّ الْحِصَارَ فِي الْأَمْصَارِ مِنْ قَبْلِ
الدُّوَلِ، وَأَنَّهَا تَرْسَخُ بِاتِّصَالِ الدُّوَلَةِ وَرُسُوجِهَا
- 56 • 18. فَضِّلْ، فِي أَنَّ الْحِصَارَ غَايَةُ لِلْعُفْرَانِ وَنِهَائِيَّةُ
لِغُفْرِهِ، وَأَنَّهَا مُؤَذِّنَةٌ بِفَسَادِهِ
- 61 • 19. فَضِّلْ، فِي أَنَّ الْأَمْصَارَ الَّتِي تَكُونُ كِرَاسِي
لِلْمُلُوكِ تَغْرُبُ بِغَرَابِ الدُّوَلَةِ وَانْتِقَاضِهَا
- 65 • 20. فَضِّلْ، فِي اخْتِصَاصِ بَغْضِ الْأَمْصَارِ بِبَغْضِ
الصَّنَائِعِ دُونَ بَغْضِ
- 66 • 21. فَضِّلْ، فِي وُجُودِ الْغَضَبِ فِي الْأَمْصَارِ وَتَغْلُبُ
بَغْضَهُمْ عَلَى بَغْضِ
- 68 • 22. فَضِّلْ، فِي لُغَابِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ

الفصل الخامس من الكتاب الأول:

71

في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وما
يغرض في ذلك كله من الأخوال. وفيه مسائل

73

1 • فضل، في حقيقة الرزق والكسب، وشَرِّحهما.
وَأَنَّ الكسبَ هو قيمة الأعمال البشرية

77

2 • فضل، في رُجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

79

3 • فضل، في أَنَّ الخِدمة لَيْسَتْ من المعاش
الطَّبِيعِيّ

81

4 • فضل، في أَنَّ ابتغاء الأموال من الدِّفَاقين
والكنوز لَيْسَ بمعاشٍ طَبِيعِيّ

87

5 • فضل، في أَنَّ الجاه مُفيدٌ للمال

89

6 • فضل، في أَنَّ السَّعادة والكسب إِنَّمَا تَحْصُلُ
غَالِباً لِأَهْلِ الْخُضُوعِ وَالْمَلَقِ، وَأَنَّ هَذَا الْخُلُقَ
من أسباب السَّعادة

94

7 • فضل، في أَنَّ القَائِمِينَ بِأُمُورِ الدِّينِ من القَضَاءِ
والفَتْيَا والتَّحْرِيسِ والإِمَامَةِ والخطابة والأَذَانِ
وَنَحْوِ ذَلِكَ، لَا تَعْظُمُ ثُرُوعُهُمْ فِي الْغَالِبِ

- 96 8 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الْفَلَاحَةَ مِنْ مَعَايِشِ
الْمُسْتَظْفِقِينَ وَأَهْلِ الْعَافِيَةِ مِنَ الْبُذُو
- 97 9 • فَضْلٌ ، فِي مَغْنَى التَّجَارَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَأَصْنَافِهَا
- 98 10 • فَضْلٌ ، ثَقُلَ التَّاجِرُ لِلتَّلَعِ
- 100 11 • فَضْلٌ ، فِي الْإِخْتِكَارِ
- 101 12 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ رُخْصَ الْأَشْعَارِ مُضِرٌّ
بِالْمُخْتَرَفِينَ بِالرَّخِيصِ
- 103 13 • فَضْلٌ ، فِي أَيِّ أَصْنَافِ النَّاسِ يَنْتَفِعُ بِالتَّجَارَةِ ،
وَأَيُّهُمْ يَنْبَغِي لَهُ تَرْكُهَا
- 104 14 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ خُلُقَ التَّجَارِ نَازِلَةٌ عَنْ خُلُقِ
الرُّؤَسَاءِ ، وَبَعِيدَةٌ عَنِ الْمُرُوءَةِ
- 106 15 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الصَّنَاعَ لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْمَعْلَمِ
- 107 16 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الصَّنَاعَ إِنَّمَا تَكْمَلُ بِكَمَالِ الْغُمَرَانِ
الْحَضَرِيِّ وَكَثْرَتِهِ
- 108 17 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ رُسُخَ الصَّنَاعِ فِي الْأَمْصَارِ
بِرُسُخِ الْحَضَارَةِ وَطَوْلِ أَمْدِهَا
- 110 18 • فَضْلٌ ، فِي أَنَّ الصَّنَاعَ إِنَّمَا تُسْتَجَادُ وَتَكْتَرُ إِذَا
كَثُرَ طَالِبُهَا

- 111 • 19. فضلٌ، في أنَّ الأَمْصارَ إذا قَارَنْتِ الحَرَابَ
انْتَقَصَتْ مِنْهَا الصَّنَائِعُ
- 112 • 20. فضلٌ، في أنَّ العَرَبَ أبْعَدُ النَّاسِ عَنِ
الصَّنَائِعِ
- 113 • 21. فَضْلٌ، في أنَّ مَنْ حَصَلَتْ لَهُ مَلَكَةٌ فِي
صِنَاعَةٍ، فَقَلَّ أَنْ يُجِيزَ بِغَدَاها مَلَكَةٌ فِي أُخْرَى
- 114 • 22. فَضْلٌ، في الإِشَارَةِ إِلَى أَمْهَاتِ الصَّنَائِعِ
- 115 • 23. فَضْلٌ، في صِنَاعَةِ الْفِلاخَةِ
- 116 • 24. فَضْلٌ، في صِنَاعَةِ الْبِنَاءِ
- 122 • 25. فَضْلٌ، في صِنَاعَةِ التُّجَارَةِ
- 124 • 26. فَضْلٌ، في صِنَاعَةِ الْحِياكَةِ وَالْحِثَاطَةِ
- 126 • 27. فَضْلٌ، في صِنَاعَةِ التَّوْلِيدِ
- 130 • 28. فَضْلٌ، في صِنَاعَةِ الطَّبِّ، وَأَنَّهَا مُخْتاجٌ إِلَيْهَا
فِي الْحَوَاضِرِ وَالْأَمْصارِ دُونَ الْبَادِيَةِ
- 135 • 29. فَضْلٌ، في أنَّ الحِطَّةَ وَالْكِتَابَ مِنْ عِدَادِ
الصَّنَائِعِ الْإِنْسَانِيَةِ
- 146 • 30. فَضْلٌ، في صِنَاعَةِ الْوِراقَةِ

149 31 • قُضِلَ، في صِنَاعَةِ الْفَنَاءِ

159 32 • قُضِلَ، في أَنَّ الصَّنَاعَةَ تَكْسِبُ صَاحِبَهَا عَقْلاً
وَحُصُوصاً الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ

161 الفَصْلُ السَّادِسُ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ :

في الْعُلُومِ وَأَصْنَافِهَا، وَالتَّعْلِيمِ وَطُرُقِهِ، وَسَائِرِ
وُجُوهِهِ وَمَا يَفْرِضُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الْأَحْوَالِ.
وفيه مُقَدِّمَةٌ وَلَوَاحِقُ:

163 1 • قُضِلَ، في الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ

165 2 • قُضِلَ، في أَنَّ عَوَالِمَ الْحَوَادِثِ الْفِعْلِيَّةِ إِنَّمَا تَنِيْ
بِالْفِكْرِ

167 3 • قُضِلَ، في الْعَقْلَ التَّجْرِبِيَّ، وَكَيْفِيَّةَ حَدُوثِهِ

169 4 • قُضِلَ ، في عُلُومِ الْبَشَرِ وَعُلُومِ الْمَلَائِكَةِ

172 5 • قُضِلَ ، في عُلُومِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

173 6 • قُضِلَ، في أَنَّ الْإِنْسَانَ جَاهِلٌ بِالذَّاتِ، عَالِمٌ
بِالْكَسْبِ

175 7 • قُضِلَ، في أَنَّ الْعِلْمَ وَالتَّعْلِيمَ طَبِيعِيَّانِ فِي
الْعُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ

- 176 8 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ
- 182 9 • فَضْلٌ، فِي أَنَّ الْعُلُومَ إِنَّمَا تَكْثُرُ حَيْثُ يَكْثُرُ
الْعُمَرَانُ وَتَعْظُمُ الْحَضَارَةُ
- 184 10 • فَضْلٌ، فِي أَصْنَافِ الْعُلُومِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمَرَانِ
لِهَذَا الْعَهْدِ
- 187 11 • فَضْلٌ، فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّفْسِيرِ
وَالْقِرَاءَاتِ
- 193 12 • عُلُومُ الْحَدِيثِ
- 206 13 • الْفَهْمُ وَمَا يَنْبَغُهُ مِنَ الْفَرَائِضِ
- 218 • [علم الفرائض]
- 220 14 • أَصُولُ الْفَقْهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْجَدَلِ
وَالْخِلَافَاتِ
- 226 • [الخلافيات]
- 228 • [الجدل]
- 229 15 • عِلْمُ الْكَلَامِ
- 246 16 • فَضْلٌ، فِي كَشْفِ الْغَطَاءِ عَنِ الْمُتَشَابِهِ مِنَ
الْكَتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا حَدَثَ لِأَجْلِ ذَلِكَ مِنْ
طَوَائِفِ السُّبُتِ وَالْمُبْتَدِعَةِ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ

- 261 • 17. عِلْمُ التَّصَوُّفِ
- 267 • تَفْصِيلٌ وَتَحْقِيقٌ
- 273 • فَضْلٌ [فِي الْقَوْلِ بِالْقَطْبِ عِنْدَ
الْمُتَصَوِّفَةِ]
- 275 • تَذْوِيلٌ [مِنْ كَلَامِ أَبِي مَهْدِي عَيْسَى
ابْنِ الزِّيَّاتِ]
- 281 • 18. عِلْمُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا
- 287 • 19. الْعُلُومُ الْعَقْلِيَّةُ وَأَصْنَافُهَا
- 294 • 20. الْعُلُومُ الْعَزِيدَةُ
- 294 • [الْأَرِثَمَاطِيَّةُ]
- 298 • [الْجَبَرُ وَالْمُقَابَلَةُ]
- 299 • [لِلْعَامَلَاتِ]
- 300 • [الْفَرَائِضُ]
- 301 • 21. الْعُلُومُ الْهَنْدَسِيَّةُ
- 303 • [الْأَشْكَالُ الْكُرِّيَّةُ]
- 303 • [الْمُخْرُوطَاتُ]
- 304 • [الْمِسَاحَةُ]
- 304 • [الْمَنَاظِرُ]
- 305 • 22. عِلْمُ الْهَيْئَةِ

306	• [علم الأزياج]
308	23• علم المنطق
	[كتب المنطق الثمانية عند المتقدمين] :
310	• [كتاب المقولات]
310	• [كتاب العبارة]
310	• [كتاب القياس]
310	• [كتاب البرهان]
311	• [كتاب الجدل]
311	• [كتاب الشفطة]
311	• [كتاب الخطابة]
311	• [كتاب الشعر]
313	• فائدة [في التكرار على انتحال المنطق]
316	24• الطبيعيات
317	25• علم الطب
318	• فضل [في طب البادية الذي لا يقوم على قانون طبيعي]
320	26• علم الفلاحة
321	27• علم الإلهيات
323	28• علوم السحر والطلسمات
336	• فضل [في الإصابة بالعين]

- 337 • علم أسرار الحروف
- 344 • تحقيق [في التسمياء وأنها تحصلُ برياضة
شرعية]
- 346 • فضل [من فروع التسمياء استخراج
الأجوبة من الأسئلة]
- 347 • [القصيدة المنسوبة للسبتي]
- 351 • الكلام على استخراج نسبة الأوزان،
وكيفية، ومقادير المقابل منها، وقوة
الدرجة المميزة بالنسبة إلى موضع
الملق، من امتزاج طبائع، وعلم طب،
أو صناعة الكيمياء
- 351 • الطب الروحاني
- 352 • مطالع الشعاعات في مواليد الملوك
وتبيين
- 352 • مقامات الملوك
- 354 • الافعال الروحاني والاعتقاد [الزباني]
- 355 • اتصال أنوار الكواكب تلقائي (كذا)
- 355 • مقام الحية، وميل التقويس، والمجاهدة،
والطاعة، والعبادة، وحب، وتقشّق،
وقناء الفناء، وتوجّه، ومراقبة، وخلّة
دائمة الافعال الطبيعي
- 356 • فصل في المقامات للنهاية

- 357 • الوصية، والتَّخَتُّمُ، والإيمان، والإسلام،
والتَّخْرِيمُ، والأهْلِيَّةُ
- 359 • الزَّايِرَةُ: الدَّائِرَةُ
- 360 • الزَّايِرَةُ: الجدول
- 362 • كَيْفِيَّةُ الْفَصْلِ فِي اسْتِخْرَاجِ أَجْوِبَةِ
الْمَسَائِلِ مِنْ زَايِرَةِ الْعَالَمِ، بِحَوْلِ اللَّهِ
- 362 • تنبيه
- 375 • المثال في هذا السؤال السابق
- 376 • حُرُوفُ الْأَوْتَارِ
- 380 1. فَضْلٌ، فِي الْإِطْلَاعِ عَلَى الْأَنْشَارِ
الْحَقِيقَةِ مِنْ بَهَةِ الْإِتِّبَاطَاتِ الْحَرْفِيَّةِ
- 383 • ومن طرائقهم في استخراج الجواب
- 385 • فَضْلٌ [فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولِ مِنْ مَسْأَلَةٍ
مَا]
- 386 2. فَضْلٌ، فِي الْإِسْتِذْلَالِ عَلَى مَا فِي
الضَّاهِرِ الْحَقِيقَةِ بِالْقَوَائِمِ الْحَرْفِيَّةِ
- 387 • صِفَةُ اسْتِخْرَاجِ قُوَى الْعَنَاصِرِ
- 390 • صِفَةُ اسْتِخْرَاجِ النَّسَبِ الْغَضْرِيَّةِ
- 391 30. عِلْمُ الْكِيمِيَاءِ
- 393 • [رسالة ابن بشرى لابن السمع]
- 403 • التدبير على بركة الله تعالى
- 409 31. فَضْلٌ، فِي إِبْطَالِ الْفَلْسَفَةِ وَفَسَادِ مُنْتَحِلِهَا

- 419 32• فضل، في إنطالِ صناعةِ الثُجومِ وَضعِفْ
مداركها وفسادِ غايتها
- 424 • [قصيدة لأبي القاسم الرُّخويّ من
شعراء تونس]
- 427 33• فضل، في إنكارِ نَمرةِ الكيمياءِ واستِحالةِ
وجودها، وما يُلْثَأُ من المفاسيدِ عن انتحالِها
- 438 34• فضل، في المقاصدِ الّتي يَنبغي اعتمادُها
بالتأليفِ والغاءِ ما سواها
- 444 35• فضل، في أن كثرةِ التواليفِ في العلومِ غايّةٌ
عن التخصّيلِ
- 446 36• فضل، في أن كثرةَ الاختصاصاتِ الموضوعيّةِ
في العلومِ مُجَلّةٌ بالتعلّمِ
- 447 37• فضل، في وَجْهِ الصّوابِ في تعلّمِ العلومِ
وطريقِ إفادتهِ
- 450 • فضل
- 454 38• فضل، في أن العلومَ الآلِيةَ لا تُوسّعُ فيها الأنظارُ
ولا تَقَرِّعُ فيها المسائلُ
- 456 39• فضل، في تعلّمِ الولدانِ، واختلافِ مذاهبِ
الأنصارِ الإسلاميّةِ في طُرُقهِ

- 460 • فَضِّلْ، فِي أَنَّ الشَّدَّةَ عَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ مُضِرَّةٌ
مُحَرِّمٌ
- 462 • فَضِّلْ، فِي أَنَّ الرَّحْلَةَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ وَلِقَاءِ
الْمَشِيخَةِ مَزِيدُ كَمَالٍ فِي التَّعَلُّمِ
- 463 • فَضِّلْ، فِي أَنَّ الْعُلَمَاءَ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ أْبَعْدُ
عَنِ السِّيَاسَةِ وَمَذَاهِبِهَا
- 465 • فَضِّلْ، فِي أَنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِي الْإِسْلَامِ أَكْثَرُهُمْ
الْقَجَمُ
- 469 • فَضِّلْ، فِي أَنَّ الْعُجْنَ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى
اللِّسَانِ، قَصُرَتْ بِصَاحِبِهَا فِي تَحْصِيلِ الْعُلُومِ
عَنْ أَهْلِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
- 473 • فَضِّلْ، فِي عُلُومِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
- 474 • التَّخَوُّ
- 477 • عِلْمُ اللَّغَةِ
- 482 • فَضِّلْ [فِي الثَّقَلِ الَّذِي تَثَبُّتُ بِهِ
اللِّغَةُ]
- 483 • عِلْمُ الْبَيَانِ
- 488 • عِلْمُ الْأَدَبِ
- 490 • فَضِّلْ، فِي أَنَّ اللَّغَةَ مَلَكَهٌ صِنَاعِيَّةٌ

- 492 • 47. فَضْلٌ، فِي أَنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ لِهَذَا الْعَهْدِ، لُغَةٌ
مُسْتَقِيلَةٌ مَغَايِرَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ وَلُغَةٌ جَمِيرٌ
- 498 • 48. فَضْلٌ، فِي أَنَّ لُغَةَ الْحَضَرِّ وَالْأَمْصَارِ لُغَةٌ
قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا مَخَالِفَةٌ لِلُّغَةِ مُضَرٍّ
- 500 • 49. فَضْلٌ، فِي تَعَلُّمِ اللِّسَانِ الْمُضَرِّيِّ
- 501 • 50. فَضْلٌ، فِي أَنَّ مَلَكَتْهُ هَذَا اللِّسَانِ غَيْرُ
صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمُسْتَغْنِيَّةٌ عَنْهَا فِي التَّعْلِيمِ
- 504 • 51. فَضْلٌ، فِي تَفْسِيرِ لَفْظَةِ الذَّوْقِ فِي مُصْطَلَحِ
أَهْلِ الْبَيَانِ، وَتَحْقِيقِ مَعْنَاهَا، وَبَيَانِ أَنَّهَا لَا
تَحْضُلُ غَالِبًا لِلْمُسْتَفْرِغِينَ مِنَ الْعَمَلِ
- 509 • 52. فَضْلٌ، فِي أَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ عَلَى الْإِطْلَاقِ
قَاصِرُونَ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكََةِ اللَّسَانِيَّةِ
الَّتِي تُسْتَفَادُ بِالتَّعْلِيمِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَبْعَدَ
عَنِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، كَانَ حُصُولُهَا عَلَيْهِ
أَصْعَبَ
- 512 • 53. فَضْلٌ، فِي انْقِسَامِ الْكَلَامِ إِلَى فَنِّيِّ النَّظْمِ
وَالنَّثَرِ
- 515 • 54. فَضْلٌ، فِي أَنَّهُ لَا تَتَّبَعُ الْإِجَادَةُ فِي فَنِّيِّ
الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ مَعَ إِلَّا لِلْأَقْلِ

- 516 55• فَضْلٌ ، في صناعة الشَّعر وَوَجْهٍ تَعْلِيهِ
- 531 و 530 • [قصيدتان للتأش في الشعر]
- 532 56• فَضْلٌ، في أَنَّ صناعةَ النُّظْمِ والتَّثْرِ إِنَّمَا هِيَ
في الألفاظ لا في المعاني
- 534 57• فَضْلٌ، في أَنَّ حصولَ هذه الملكة بكثرة
الحِفْظِ، وجودتها بجودة الحِفْظِ
- 539 58• فَضْلٌ، في نِسانِ المطبوع من الكلام
والمصنوع، وكيف جودة المصنوع أو قصوره
- 547 59• فَضْلٌ، في تَرْفَعُ أَهْلُ المَرَاتِبِ عن اشتغالِ
الشَّعرِ
- 549 60• فَضْلٌ، في أشعار الغربِ وأهلِ الأنصارِ
لهذا العهد
- 566 • الموشحات والأزجالُ للأندلس
- 604 • [خواتم النسخ المعتمدة ط، ج، ي]
- 605 • المستدرک
- 607 • فصلٌ، في اتِّساعِ نطاقِ التَّوَلَّةِ أولاً إلى نهايته،
ثمّ تضايقه ثانياً طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ إلى فناءِ التَّوَلَّةِ
واضمحلالها

Kitāb al-‘Ibar wa Dīwān al-Mubtada’ wa-l-Khabar

fi Ayyām al-‘Arab wa-l-‘Ajam wa-l-Barbar wa man
‘Āṣarahum min Dhawī al-Sulṭān al-Akbar

By

Walī al-Dīn ‘Abd al-Raḥmān b. Muḥammad
IBN KHALDŪN

BOOK ONE: THE PROLEGOMENA

VOL. 2

*Collated with the autograph manuscripts
and prepared with glossaries and indexes by*

Ibrahim Chabbouh

Tunis 2007

